تاريخ الثورة الروسية

الجزء الأول

ليون تروتسكي

ترجمة

أكرم ديري ـ الهيثم الأيوبي

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

فهرس

مدخل

١ - ظروف تأليف الكتاب:

في ٢٣ أكتوبر (تشرين الأول) فُصل **تروتسكي** من **اللجنة المركزية للحزب البلشفي**، ولم يأت يوم ١٥ نوفمبر (تشرين الثاني) حتى فُصل من الحزب. وتعرضت **المعارضة الموحدة** إلى ضربة عنيفة خلال المؤتمر الخامس عشر المنعقد في ديسمبر (كانون الأول)، وتفتتت في الشهر الذي تلا ذلك. ونُفي تروتسكي إلى **آلما - آتا** في يناير (كانون الثاني) ١٩٢٨؛ حيث تابع قيادة النشاط السياسي لمعارضة يسارية قوية رغم عمليات الإبعاد والعسف التي مارسها جهاز **ستالين**. وانفجرت الأزمة التي بقيت كامنة في **الاتحاد السوفييتي** خلال شهور: ورفض الفلاحون تقديم الحبوب، وتناقص المخزون، وبدأت المجاعة تهدد المدن، التي ظهرت فيها بطاقات تموين الخبز. وتذمر **الكولاك** الذي كان من المنتظر أن "يتحول إلى الاشتراكية بصورة سلمية". وأراد ستالين أن يضرب الخصم كعادته قبل أن يهاجمه. وجاءت مناوراته ضد **الجناح اليميني (بوخارين، ريكوف؛ تومسكي، أوغلانوف)** لتكون فاتحة أزمة جديدة داخل صفوف الحزب، ومنعطفًا حادًا نحو الجماعية والتصنيع.

وأمام التوترات الناجمة عن الصراع الجديد، والانعطاف المنتظر، وجد ستالين نفسه مضطرًا لتصفية تروتسكي بصورة نهائية؛ لأنه كان "الزعيم البديل" الوحيد الباقي أمامه بعد أن استسلم **زينوفييف وكامنييف وبياتاكوف** على أثر المؤتمر الخامس عشر مباشرة، وغدوا على استعداد "للزحف على بطونهم". وكان موقف بوخارين، وريكوف، وتومسكي، يدعو إلى الاعتقاد باحتمال استسلامهم دون قتال. وهكذا كان أربعة من "الخلفاء" الستة الذين حددهم **لينين** في **وصيته** قد فقدوا كل قدرة على الصراع، وغدوا أرواحًا شبه ميتة. على حين كان الأشخاص الذين صنعوا الأمين العام، واختارهم الأمين العام بنفسه أضعف من أن يزاحموه على السلطة عند وقوع أي تمزق داخلي.

وقرر ستالين طرد تروتسكي من الاتحاد السوفييتي ليتخلص من رجل وبرنامج، ويشوِّه سمعتهما. وتقول **نشرة المعارضة** بأنه كان على ستالين أن يُعلن أمام **المكتب السياسي** ما يلي: "ينبغي إبعاد تروتسكي إلى خارج البلاد؛ (١) لأنه يتبنى أيديولوجية معارضة تتسع صفوفها يومًا بعد يوم، (٢) ولتلويث سمعته في أعين الجماهير، واتهامه بالتبعية **للبرجوازية** بعد أن تطأ قدماه أرض بلد بورجوازي، (٣) ولإلقاء الظلال على قيمته أمام **البروليتاريا العالمية**، لأن **الاشتراكية – الديمقراطية** لن تلبث أن تستخدم طرده خارج الاتحاد السوفييتي للدفاع عنه واعتباره "ضحية من ضحايا الإرهاب البلشفي"، (٤) وإذا ما هاجم قيادة الحزب اتهمناه بالخيانة بلا تردد".

وفي ١٦ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٢٨، قدم أحد زعماء "**الإدارة السياسية للدولة**" (**G.P.OU**) إلى تروتسكي الإنذار النهائي التالي: أن يتوقف عن تزعم نشاط المعارضة وإلا وجد نفسه "معزولاً عن الحياة السياسية". ورفض تروتسكي الإنذار. وفي ١٨ يناير (كانون الثاني) تلقى قرار طرده إلى خارج البلاد، "وقادته الإدارة السياسية للدولة" في يوم ٢٢ وألقت به على الحدود التركية. وفي ٢٢ فبراير (شباط) ١٩٢٩، وصل إلى **القسطنطينية**، ولم يلبث أن وجد داره في **برينكيبو** أكبر جزر أرخبيل الأمراء. وأمضى في هذا المكان أربع سنوات كاملة تخللتها رحلة قصيرة إلى **الدانمارك** تلبية لدعوة الطلاب **الاشتراكيين – الديموقراطيين** الدانماركيين الذين طلبوا منه إلقاء محاضرة عن الثورة الروسية. ورفض الاشتراكيون الإنكليز والألمان منحه تأشيرة دخول إلى بلادهم، أو دفعوا حكوماتهم إلى هذا الرفض. واستمر الحال كذلك حتى عام ١٩٣٣؛ حيث سمحت له **حكومة دالادييه** بالإقامة في فرنسا. وهكذا عاش تروتسكي في ظروف قاسية وسط جزيرة برينكيبو الصغيرة، وكان خلال إقامته بعيدًا عن الصراعات السياسية الدائرة.

وبعد ١٢ سنة من النضال المستمر، وبعد تنظيم الاستيلاء على السلطة في **بتروغراد**، وبعد المشاركة في خلق **الجيش الأحمر** وقيادة الصراع ضد **الجيش الأبيض**، وبعد الجدل العنيف داخل **الأممية** والمساعدة لتشكيل حزب شيوعي فرنسي لا يكون عبارة عن حزب اشتراكي - ديموقراطي مصبوغ بصبغة حمراء، وبعد كافة المجابهات العنيفة حول مسائل البناء الاقتصادي للاتحاد السوفييتي الذي تعرض لخراب شامل، وبعد معارك **المعارضة اليسارية** (١٩٢٣ – ١٩٢٤) ومعارك **المعارضة الموحدة** (١٩٢٥ – ١٩٢٧) التي هاجم تروتسكي فيها قيادة ستالين – بوخارين باسم **خطة التصنيع والجماعية**، وبعد المعركة ما قبل الأخيرة دفاعًا عن **الثورة الصينية** ضد سياسة ستالين - بوخارين الداعمة لـ **تشانغ - كاي - تشيك والكومينتانغ**، وبعد العمل في آلما – آتا لممارسة دور قيادي بعيد وتوجيه المعارضة المحطمة المفتتة بتأثير الضربات والتساقط، وبعد ١٢ سنة من المشاركة بصنع التاريخ، جاء هدوء برينكيبو التائهة بين أمواج البحر الأسود، والتي لا يسكنها سوى حفنة من الرعاة وصيادي الأسماك، فبدا هذا الهدوء وكأنه خاتم يَمْهُر الفشل.

ولو كان **المؤرخ شيشرون** في مثل هذا الموقف لوجد الفرصة سانحة لإلقاء المواعظ حول ضعف "الأخلاق". ولكن نشاط تروتسكي السياسي لم يعد "مهنة" كما كان من قبل. وفي ١٦ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٢٧ كتب له صديقه القديم **إبراهام أيوفيه** قبل انتحاره ما يلي: "وليس للحياة البشرية من معنى إلا خلال الفترة التي تكون فيها في خدمة هدف لا نهائي، واللا نهاية بالنسبة لنا هي الإنسانية". وسواء كان تروتسكي مفوضًا للخارجية أو الدفاع أو محررًا لنشرة المعارضة في جزيرة من جزر البحر الأسود، فقد كان يشن المعركة نفسها التي لم يحكم عليها بناء على نتائجها المباشرة، ولا تنسجم برأيه مع حماسه واندفاعه. وهكذا استطاع تخصيص نصف المدة التي قضاها في برينكيبو لكتابة تاريخ الأحداث التي جرت قبل ١٢ عامًا.

وعاد تروتسكي إلى المعركة دون تأخير، ولكنه لم يكن يملك القدرة على الاشتراك فيها بصورة مباشرة. وفي يوليو (تموز) ١٩٢٩ ظهر العدد الأول من نشرة المعارضة التي استمر ظهورها دون انقطاع حتى صيف عام ١٩٣٩. ولكن هذا النشاط المحدود، وهذه اللقاءات العرضية مع ممثلي المعارضة الشيوعية لم تكن كافية لتعويض الفراغ الناجم عن انعدام الصراع الجدي الفعال.

ولهذا كانت سنوات برينكيبو الأربع أكثر فترات تروتسكي "الكاتب" خصبًا، وأغزرها إنتاجًا. ولعل في استخدام كلمة "**الكاتب**" هنا شيئًا من التجاوز لأن الكاتب يصف العالم الذي يحيط به، أو يخلق عالمه الخاص، ولم يكن تروتسكي يصف العالم إلا لتحويله. وفي عام ١٩٢٩ نشر تروتسكي **كتاب** "**الثورة المشوهة**" وهو مجموعة وثائق تتعلق بالتحويرات الستالينية للتاريخ. ثم عكف في الفترة الواقعة بين فبراير (شباط) وسبتمبر (أيلول) على إعداد تاريخ حياته التي قرر مدير **دار فيرلاغ للنشر** أنها ستكون أول ما سينشره من كتابات تروتسكي. وفي بداية سبتمبر (أيلول) تم إعداد **كتاب** "**حياتي**". ووضع له تروتسكي في ١٤ سبتمبر (أيلول) ١٩٢٩ مقدمة يحدد فيها الإطار الذي سيضم نشاطه المقبل بقوله: "لقد رأيت الجماهير تتخلى عن الراية **مرتين**: **الأولى** عند سحق ثورة ١٩٠٥، **والثانية** عند مطلع الحرب العالمية. ولذا فإنني أعرف عن طريق الخبرة والتجربة ماذا يعني مد التاريخ وجزره. إنهما يخضعان إلى عدد من القوانين. ولا يكفي أن يبدي المرء استعجاله لتحويلهما بسرعة أكبر. ولقد اعتدت على أن أقدر الأفق التاريخي من وجهة نظر مغايرة لوجهة النظر الخاصة بمصيري الشخصي. إن من أول واجبات الثوري أن يعرف الأسباب الحقيقية لما يجري، وأن يحدد مكانه بدقة وسط الأحداث".

ويبرهن تروتسكي على هذا الأمر بانكبابه على كتابة "**تاريخ الثورة الروسية**" التي استمرت من عام ١٩٣٠ حتى عام ١٩٣٢. وبالرغم من اندفاعه في هذا العمل، ورغبته في أن يكون مؤرَخًا لا يرقى إليه النقد، حتى بالنسبة للأحداث الصغيرة

التي يمنحها أهمية كبيرة، فإننا نجد أن المؤرخ لم يطغ على المناضل. فليس التاريخ ملاذ "الأسد العجوز" المغلوب على أمـره، أو باب مأوى طالبي الراحة. ففي هذه الفترة التي كتب فيها تاريخ الثورة الذي لا يُجارى، كان تروتسكي يشن نضالاً يائسًا ضد **سياسة "المرحلة الثالثة"** التي مارستها قيادة الحزب الروسي، و**قيادة الكومنترن.** فباسم **نظرية "الاشتراكية - الفاشية"** والفكرة القائلة بأن "الاشتراكية – الديمقراطية والفاشية توأمان لا ينفصلان" دفعت الأممية الثالثة الشيوعيين الألمان لمهاجمة الاشتراكيين – الديموقراطيين الذين شعروا بسعادة طاغية لرفض اليد التي مدوها، وشلت البروليتاريا الألمانية في مجابهة **الخطر النـازي.** ومنذ سبتمبر (أيلول) ١٩٣٠ حتى فبراير (شباط) ١٩٣٣، حاول تروتسكي من الخارج إصلاح هذا الاتجاه الـذي يـؤدي إلـى الكارثة. وأخذ يطالب دونما كلل بخلق جبهة عمالية شيوعية – اشتراكية واحدة لقطع الطريق أمام **هتلر.** ورد خصومه على كل نداءاته ومحاولاته بقهقهات السخرية والتبجح: "**وبعد هتلر سيأتي دورنا**".

وفي الوقت نفسه، حاول تروتسكي بكل دأب وصبر خلق معارضة يسارية في فرنسا متجـاوزًا "الشخـصيات" التوَّاقـة لاستلام المناصب، وبعيدًا عن صراعات المجموعات والشلل، وبذل نشاطًا مماثلاً في إسبانيا. وتـابع النـضال ضـد "**تزويـر التاريخ**" الذي أخذ حجمًا كبيرًا لا يمكن السكوت عنه، فنشر في عام ١٩٣٢ وتحت عنوان "**التزوير الستاليني للتاريخ**" كُتَيِّبًـا، أعاد فيه بعض ما جاء في كتاب "الثورة المشوهة".

وهكذا يتعذر فصل تروتسكي **المناضل** عن تروتسكي **المؤرخ** خلال كتابه "تاريخ الثورة الروسية". ويشير الكاتب إلـى ذلك بنفسه في مقدمة الجزء الثاني فيقول: "ولا بُدَّ أن يساعد الكتاب على فهم طبيعة الاتحاد السوفييتي. ويتمتع كتابنـا بأهميـة بالغة ويشكل كتاب الساعة، لا لأن أحداث ثورة أكتوبر (تشرين الأول) جرت تحت أنظار جيل لا يزال حيًّا (...) بل لأن النظام الذي انبثق عن هذه الثورة قائم يتطور، ويطرح أمام الإنسانية عددًا من الأسرار الجديدة". ومن المؤكد أن تروتسكي لم يكتـب "تاريخه" لخدمة الأغراض التكتيكية المباشرة للمعارضة اليسارية. ولا شك في أن الأستاذ الجامعي التولوزي **شـارل أوليفييـه كاربونيل** الذي رأى في الكتاب "سلاحًا ضد الستالينية" لم يقرأ الكتاب بشكل سليم؛ إذ لا يحتل ستالين في هذا الكتـاب إلا مكانًـا صغيرًا يماثل المكان الذي احتله منذ عام ١٩١٧، ولا تذكره إلا وثائق الأمين العام لعام ١٩٣٢.

٢ - **تروتسكي المؤرخ:**

يقول تروتسكي في مقدمة الجزء الأول الذي انتهى في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٣٠، والذي يمتد من أسـباب ثـورة فبراير (شباط) حتى **مؤتمر السوفييتات الأول** (يونيو): "وليس هذا الكتاب مبنيًّا على ذكريات شخصية" وهو يحدد بذلك أسلوبه، ثم يقول: "ويحتاج القارئ الجاد المتمتع بقسط من روح النقد (..) لشيء كبير من الصدق العلمي الذي لا يعبر عـن تأييـده أو معارضته بشكل مكشوف لا يعرف التمويه، إلا بعد أن يبني حكمه على دراسة شريفة للأحداث، واكتشاف حقيقة العلاقات بـين الأمور، وتحديد ما هو معقول في تسلسل الأحداث". وفي مايو (أيار) ١٩٣٢ كتب تروتسكي مقدمة الجزء الثاني الذي أنهاه في تلك الفترة، والذي يشمل تاريخ الأحداث منذ يوليو (تموز) حتى أكتوبر (تشرين الأول) ١٩١٧، فقال: "ولم يحتج أي إنسان على صحة الأدلة والاستشهادات المذكورة في الجزء الأول. ومن المؤكد أن مثل هذا الاحتجاج صعب للغايـة". ثـم يـرد علـى الاعتراضات المحتملة التي يمكن أن توجه إلى "تحيزه الشخصي (الذي) قد يتمثل في اختيار الأحداث والأقوال بشكل مـصطنع وحيد الاتجاه" فيقول: "ولا ينبغي البحث عن أدلة الموضوعية العلمية في عيني المؤرخ أو رنة صوته، بل في التسلسل المنطقي لحديثه نفسه".

وهكذا **فالتاريخ هو إعادة البناء:** إن حركة التاريخ الحقيقية عبارة عن مجموعة متـشابكة مـن الأحـداث والمـصالح والتطلعات والأفكار التي تشكل كلاً متكاملاً. وينطلق المؤرخ من الآثار التي يتركها التاريخ خلال نشوئه، ويعمل علـى إنـشاء

هذا الكل. وهو لا يستهدف من ذلك إعطاء صورة المجموع فحسب -فليس المؤرخ مصورًا يرسم المشاهد- بل ليجعل الكل المتشابك مفهومًا. وعلى المؤرخ أن يحلل المجموعة المتشابكة التي تتكون. وهذه مهمة متناقضة تدفع التاريخ حتى يتجاوز سرد الأحداث، وتفسير الأمور عن طريق العناية الإلهية، أو قوة الأشخاص، أو التدخل الآلي لعدد من الأسباب الاقتصادية والاجتماعية، إنها مهمة متناقضة تجبر المؤرخ على أن يُضفي صفة العقلانية على واقع لا يتمتع بعقلانية كاملة. ويعرف تروتسكي هذه الحقيقة، وهو الذي يود تحديد "ما هو **معقول** في تسلسل الأحداث". ويمثل أفضل من أي شخص آخر حركة أجزاء الجماهير، ومدها، وجزرها، وتصرفاتها، وأخطائها، وتناوب الجرأة والتخاذل في موقفها.

والجماهير هي البطل الحقيقي في هذا التاريخ. ولكنها لا تمثل بطلاً أسطوريًا رمزيًا يسير بخطًى ثابتة نحو ثورة محتومة ينفذها وكأنه في استعراض عام، ولكنه بطل جماعي يمتزج فيه الجوع والعرق، والدم والخبز، والجُرأة وانعدام الوعي، وجماهير المدن والأرياف التي تبدأ بإعلان ثورتها عن طريق إحراق قصور أسيادها، وبروليتاريو بتروغراد وبحَّارة البلطيق. ويرى تروتسكي في كل هذا، القوة المحركة للثورة وهو يرفض تحديد دورها، والنزول به إلى مستوى **التأثير** الذي يسعى إليه "**التفسير الاقتصادي العام الخاطئ للتاريخ**، ويحاول البعض اعتباره **ماركسية**". والذي لا يكشف سوى "عدم الفهم". ويضيف تروتسكي إلى ذلك قوله: "إننا نبحث في الثورة عن تدخل الجماهير المباشر في مصير المجتمع. ونبحث خلف الأحداث بغية اكتشاف تحولات الوعي الجماعي، ونستبعد الأوهام الخاطئة، المتعلقة بحركة "قوى أولية"؛ إذ لا تُفسر هذه الأوهام عادة أي شيء، ولا تُقدم لنا أية معلومات، ويتم تنفيذ الثورة وفق عدد من القوانين. ولكن هذا لا يعني أن الجماهير التي تنفذ الثورة تعي قوانين الثورة بكل وضوح".

إن الجماهير التي انقلبت إلى عجينة مرنة بيد الحكام، وقيثارة يلعب بها أول مؤيد **للمفهوم البوليسي للتاريخ** -هذا المفهوم الذي عاد اليوم إلى الوجود من جديد- والتي غدت قطعات بلا حياة، تسير بخطوات موزونة بناء على الأسباب وكأنها جنود من المعدن تتحرك في **التاريخ الستاليني الآلي**. إن هذه الجماهير تعود في "تاريخ الثورة الروسية" لاحتلال مكانها من جديد. فلقد أعاد لها تروتسكي وجهها الحقيقي، ودورها. وترتبط تجربة تروتسكي بنشاط الجماهير الثوري، تمامًا مثلما ترتبط تجربة لينين ارتباطًا وثيقًا ببناء الحزب. ففي ثورتي ١٩٠٥، وأكتوبر (تشرين الأول) ١٩١٧، وجد تروتسكي نفسه على رأس منظمات خلقتها الجماهير بصورة آنية. وسما مرتين إلى **منصب رئيس سوفييت بتروغراد**. وظهر مرتين كرئيس طبيعي للجماهير المضطرمة. وليس هناك زعيم خاض مثله غمار العمل وسط الجماهير، وأحس بارتباط وثيق يماثل ارتباط تروتسكي العضوي معها، وشعر مثل تروتسكي بأن تنفسه ونبضه وحرارته ودقات قلبه جزء منها. ولا شك في أن أهم صفحات كتاب "حياتي" وأكثرها دلالة على الصفحة التي يصف فيها تروتسكي جمهرة المستمعين الهائجة في السيرك الجديد: "ولكي أصل إلى منصة الخطابة، كان عليّ أن أشق طريقي وسط خندق محفور وسط الجماهير المحتشدة، وكنت أجد نفسي في بعض الأحيان محمولاً على الأذرع. وانفجر الجو الثقيل الذي يخيم عليه التنفس والانتظار، بصرخات قوية، وهتافات مدوية حماسية (...) وكنت أجد حولي وفوقي مناكب متلاصقة وصدورًا ورءوسًا... وكنت أتحدث وكأنني وسط مغارة دافئة من الأجساد البشرية (...) ولم يكن هناك أي احتمال أو أثر لضعف شدة التيار الكهربائي الذي يجتاز هذا الحشد البشري".

ولا يكتفي تروتسكي في كتابه بإعطاء الجماهير حياة وحقيقة، ولكنه ينفخ الحياة في جميع المشتركين بتمثيل مأساة كان المؤلف نفسه ممثلاً أساسيًا فيها. ويخلع **المناشفة** والاشتراكيون قناعهم الموحد، فلا يعودون مجرد أشباح مضادة للثورة بلا وجه أو اسم، ويتحدث **دويتشر** عن هذا الأمر فيقول: "إن كل فرد منهم متلاحم مع أشباهه، ولكنه يملك ملامح شخصية خاصة". ولا يرسم تروتسكي معرض لوحات شخصيات سياسية تبدو وكأنها مرتبطة بشكل وثيق مع المنظر الخلفي الذي تتحرك أمامه. وقد تبدو لنا صور الأشخاص في كتابات تروتسكي كلعب بيد القوى التي تتجاوزها، ويرجع ذلك إلى أنها لم تكن تملك كلينين

القدرة على فهم القوى بغية السعي لتوجيهها وقيادتها. ويصف تروتسكي كافة الأشخاص فيغدو المؤلف نفسه تاريخًا. وهو يرسم صورة الممثلين الأساسيين في الفترة الواقعة بين الثورتين بدقة جد موضوعية، أي أنه يعيدها إلى دور الأشياء، خاصة وأنها لا تستطيع أن تلعب سوى دور الأشياء، الواقعة في فخ أفكارها المسبقة، وتبجحها، وغرورها، ورغباتها، وفخ فترة تاريخية تحتاج لرجال من طينة أخرى. ولا تلحظ أي حقد أو كراهية ضد الممثلين الأساسيين العاجزين بسبب ضعفهم الذاتي، أو ضد الدُمى التي وجدت نفسها مدفوعة بتيار الزمن، والتي يصفها تروتسكي ويعطيها الحياة بسخرية يشوبها أحيانًا بعض الأسى.

مارتوف؟ "وطاش صواب مارتوف كعادته في الأحداث التاريخية الكبيرة، ولم يعد بوسعه أن يستقر على رأي. ولا شك في أن الثورة لم تلحظ في عامي ١٩٠٥ و١٩١٧ وجود هذا الشخص الهام الجليل". والمنشفي **ليبر؟** "فإذا كان **تسيريتلي** يمثل الكمان الأول في جوقة الأكثرية السوفييتية، فقد كان **ليبر** ينفخ بكل ما أوتي من قوة في مزمار صغير، وعيناه الجاحظتان محتقنتان بالدم من فرط الإعياء. إنه منشفي من **الاتحاد العمالي الإسرائيلي (البوند)**، وهو يتمتع بماضٍ ثوري طويل مليء بالإخلاص، مفعم بالحماس والفصاحة، ولكنه متعنت محدود يحاول جاهدًا أن يفرض نفسه كوطني ثابت ورجل دولة صلب متشدد"، و**تشيرنوف؟** "لقد كانت صيغ تشيرنوف المتنوعة، المفعمة بالحديث عن الأخلاق والمفاسد تجتذب في فترة من الفترات مجموعة من المستمعين المتباينين الذين يختفون في اللحظات الحرجة ويتبعثرون في كل اتجاه (...؟) وكان يخطئ في كل ما يقوم به. ولذا فقد قرر الابتعاد عن أي عمل. وأصبح الامتناع عن التصويت عنده شكلاً من أشكال الوجود السياسي. أما **رئيس الدوما رودزيانكو**: "فلقد حاول أن يغرق الثورة بفيض من الماء؛ فأخذ يبكي".

ويرى تروتسكي أن إعادة الحياة إلى شخص ما تعني تفسيره. فإذا كان "تاريخ الثورة الروسية" عبارة عن لوحة زيتية حقيقية متحركة حافلة بالألوان –تكشف جمود **أكتوبر آيزنشتاين**– فإن ذلك يرجع إلى أن تروتسكي لا يكتفي بالإثارة أو بتحليل الجماهير وقادتها الفاشلين والجيدين، ولكنه يبعث عصرًا كاملاً. إنه يرسم لنا مثلاً الجو السائد في البلاط وفي الحرب بخطوط واضحة بشكل يجعل وصف **تاسيت** مفعمًا بالحديث عن الأخلاقيات: "وكانت الأمطار الذهبية تتهاطل من علٍ بلا توقف. وكان **المجتمع الراقي** يمد يديه، ويفتح جيوبه كي "يقبض". وكانت السيدات الأرستوقراطيات ترفعن أذيال أثوابهن على قدر المستطاع، وكان الجميع يسيرون في وحل مخضب بالدماء، أما أصحاب المصارف، والمدراء، والصناعيون، وراقصات الباليه المرتبطات بالقيصر وأخوته، ورجال **الكنيسة الأرثوذكسية**، وسيدات البلاط وآنساته، والنواب الليبراليون، وجنرالات الجبهة والمؤخرة، و**المحامون الراديكاليون**، وكبار المنافقين من الجنسين، وعدد لا يحصى من الأقارب وأبناء الأخوة والأخوات وبناتهم، فكانوا كلهم يحاولون البلع والسرقة بعجلة خوفًا من رؤية نهاية الأمطار الذهبية المرغوبة، ويرفضون بكل ازدراء فكرة تحقيق السلام قبل الأوان".

ولقد استنتجت إحدى الدراسات المتعلقة بـ"تروتسكي رسَّام التاريخ" أن تروتسكي كان يستخدم سوط المعذب، ومقرعة الداعية الأخلاقي بآنٍ واحد. ولكنه يبقى طوال هذا التاريخ مخلصًا لمبدأ سبينوزا: "عدم البكاء أو الضحك، والاهتمام بالفهم" الذي حاول أن يخضع له حياته كلها. وإذا كان "تاريخ الثورة الروسية" لوحة حيَّة، فإن الرسَّام يقف وراء الشخصيات، والحشود أو المناظر، ولكنه لا يقف ليمتعض أو يكشف أو يقدح، بل ليشرح كل شيء. إن تعفن البلاط، وفساد **البيروقراطية** وطبقة النبلاء، وطمع **البرجوازية الروسية** المتهافت لا يثير في نفسه الاشمئزاز أو الرغبة في تدمير هذا العالم الذي تنبعث منه رائحة كريهة، لأن رائحة كريهة تنبعث منه. إن تروتسكي ذكاءٌ قبل أن يكون حساسية؛ لذا فهو يرى في كل هذه السلبيات مظاهر حقيقة أشد عمقًا، مظاهر إدانة يحملها التاريخ، ودليلاً على أن روسيا القيصرية تختنق على مفترق عصرين تاريخيين يتشابك تطورهما في داخلها؛ "فلو أن المسألة الزراعية الموروثة عن البربرية وتاريخ روسيا القديم وجدت حلها على يد البرجوازية، وانتهت إلى صيغة ملائمة، لما توصلت البروليتاريا الروسية إلى الاستيلاء على السلطة في عام ١٩١٧. ولكي يتم تأسيس الدولة السوفيتية

كان لا بُدَّ أن يقترب ويدخل بآنٍ واحد عاملان تاريخيان مختلفان كل الاختلاف هما: حرب فلاحية، أي حركة تحدد فجر التطور البورجوازي، وانتفاضة بروليتارية، أي حركة تبشر بغروب مجتمع البرجوازية، ويرتسم عام ١٩١٧ كله في هذه الحقيقة".

ومن المعروف أن الماركسية هي تلاحم وثيق بين النظرية والعمل. ولكن الإصلاحية الاشتراكية – الديمقراطية، والستالينية، جاءتا لحرمانها من كل خصوبتها، وإخضاعها لتطبيق عملي يستطيع في أفضل حالاته الحفاظ على المظهر والشكل بعد قتل الروح. وهكذا تقلصت **المادية الديالكتية** حتى غدت آلية شكلية، لا يشكل الوعي فيها سوى انعكاس للأسباب المادية. ولقد رأينا عند **بليخانوف وكاوتسكي** من قبل كيف يخلط **ماركس** مع **المؤرخ هيبوليتين** لوضع القواعد المعدة للنقابيين الألمان الدائمين، وكوادر الكومنترن المتحركة. وجاء تطعيم الديانة الستالينية على هذه الآلية ليعطي نتائج عجيبة أسطورية؛ فلقد حل محل الماركسية مراوحة البديهيات في مكانها، بعد ربطها بعدد عديد من الاستشهادات والمقولات المقدسة. وهكذا أصبح تطور النقل في **ميناء روان**، أو تعثر تربية الخرفان يفسر أفكار **باسكال**. ومن المؤكد أن الماركسية المتعلقة بعصر الرأسمالية المولودة والآفلة كله لا يمكن أن يتم تجاوزها إلا بعد تحويل علاقات الإنتاج الرأسمالية، ولكن الصورة الممسوخة لا تترابط مع الحدود التي تفرضها عليها طبيعتها التاريخية. فإذا وضعنا تروتسكي جانبًا وجدنا أنه ليس بوسعنا أن نذكر منذ ٤٠ عامًا اسم مؤرخ "ماركسي" واحد رصين، باستثناء **المؤرخ بوكروفسكي** الذي توفي في عام ١٩٣٢. ودفعت البرجوازية المفكرة الماركسية إلى فترة ولادتها وكأنها أيديولوجية بحتة، وأسلوب مثالي يعبر عن الأحلام التي يهبها بعض المتخلفين للطبقات الكادحة. وبعد أن قامت البرجوازية برفض الحركة العمالية المنظمة، أخذت تعمل كل ما في وسعها لاستيعاب هذه الحركة. كما حاولت أن تفهم وتهضم كل ما يمثل المرتكزات العليا في التفكير العلمي، ثم وزعتها في أسلوب، واستخدام رائع لتطور العلوم الاجتماعية، وأيديولوجية، ومزيج بائد من أحلام عام ١٨٤٨، و**الطوباوية المسيحية** المشوهة بسبب التعديلات الناجمة عن ظروف الحياة العمالية...

وهكذا لم يعد التاريخ المدرسي في الجامعات يصف المعارك والأحداث على مسرح من الظلال، ولكنه أخذ يبحث في التاريخ عن تسلسل ما يحدده. ولكن هذا الأسلوب لا يشكل سوى ميكانيكية التفسير، التي هي في حد ذاتها تجريد للفكرة التي تشكل جزءًا لا يتجزأ منها. ولكننا نرى على العكس أن تاريخ الثورة الروسية، يخلق من جديد الوحدة الأساسية للأسلوب والمحتوى، تلك الوحدة التي تعتبر صفة مميزة للماركسية ولكل فكرة متماسكة معقولة. ولكنها ضرورية للماركسية أكثر من أية فكرة أخرى، لأن الماركسية لا تصف العالم لمجرد وصفه... إن وحدة مجمل لحظات هذا المشهد الدرامي الذي يبدو وكأنه ينتظم في تصاعد بطيء مضيء نحو لحظة حل العقدة، وتشابك الصور، والحكايات، والتحليل، والتفصيلات، والتحليلات والأحداث الصغيرة التي برع تروتسكي في التقاط مدلولاتها، إن كل هذه الأمور تحدد العلاقة المعقدة بين الوعي والحركة التاريخية العمياء عبر القوى التي تحملها، وتدخل هذا العمل في صلب الأحداث التي يصفها. فإذا كانت الماركسية تمثل التعبير الواعي عن التطور اللا واعي للتاريخ، فإن كتاب تروتسكي يمثل إنهاء هذا التطور.

والصراع الطبقي: هو محرك التاريخ في كتاب تروتسكي، فهو الذي يحدد المسار ويعطي للمشاركين في الصراع وجههم الحقيقي. ويرفض تروتسكي بصورة مسبقة فلسفة "**البنية الاجتماعية**" الرائجة، والوهم الثابت "لبنية المجتمع الرأسمالي أو الاشتراكي" الموجود في حد ذاته بعيدًا عن الصراع الطبقي الذي مارسه تروتسكي واعتبره جزءًا من حياته، ولم يكتف باعتباره مبدأ لتفسير التاريخ بل جزءًا من هذا التاريخ نفسه.

٣- دور الفرد في التاريخ:

ويقول تروتسكي في نهاية فصل "إعادة تسليح الحزب" الذي يدرس فيه أهمية الدور الحاسم الذي لعبه لينين عندما أعاد توجيه الحزب الذي كان يسير قبل قدوم لينين على سياسة دعم حكومة **الأمير لفوف** المؤقتة مع نقدها: "ترى كيف كان سيجري تطور الثورة لو لم يستطع لينين الوصول إلى روسيا في أبريل (نيسان) ١٩١٧؟". من المؤكد أنه لم يكن هناك شخص آخر غير لينين قادر على تصحيح خط **الحزب البلشفي** خلال عدة أسابيع، مع أنه لم يكن يحظى في الأيام الأولى إلا بتأييد حفنة صغيرة من الرجال مثل **ألكسندرا كوللونتاي**، و**جاليجسكي** وعدد محدود من كوادر بتروغراد.

ويجيب تروتسكي على سؤاله بنفسه فيقول:

"لم يكن لينين خالق التطور الثوري، ولكنه انتظم في سلسلة القوى الإيجابية فكان حلقة كبيرة في هذه السلسلة، وجاءت ديكتاتورية البروليتارية من الوضع كله ولكنه كان من الضروري توجيهها، وكانت إقامتها متعذرة دون وجود الحزب. ولم يكن الحزب قادرًا على تنفيذ مهمته دون فهمها. ولهذا، فقد كان لينين في تلك الفترة ضروريًّا لا غنًى عنه (...) ولم تترك الثورة بين لينين والمنشفية أي مكان لمواقف وسطية. وكان الصراع الداخلي في قلب الحزب البلشفي أمرًا محتومًا لا يمكن تلافيه.

"ولقد عجَّل قدوم لينين بتطور الأمور. وساعد تأثيره الشخصي على تقصير مدة الأزمة. فهل يمكننا أن نقول بكل تأكيد أنه كان بوسع الحزب أن يجد سبيله بلا لينين؟ إننا لا نستطيع تقديم مثل هذا التأكيد أبدًا. والوقت هنا عامل حاسم، ويتعذر النظر إلى ساعة التاريخ بعد وقوع الأحداث. وليس بين **المادية الجدلية والقدرية** أي تشابه أو تقارب. ولو لم يكن لينين موجودًا لأخذت الأزمة الناجمة عن تصرفات القيادة الانتهازية شكلاً أكثر حِدَّة وأشد طُولاً. بَيْد أن ظروف الحرب والثورة كانت تضغط على الحزب، ولا تترك له فترة طويلة ينفذ فيها مهمته؛ ولذا فقد كان من المحتمل أن يخسر الحزب التائه المنقسم الوضع الثوري ويفقد الفرصة الملائمة خلال عدة سنوات. وهكذا يبدو لنا دور العامل الشخصي بحجم ضخم إلى حد بعيد. ولكن علينا أن نفهم حقيقة هذا الدور، وذلك باعتبار العامل الشخصي كحلقة واحدة في السلسلة التاريخية"...

ويؤكد دويتشر في فصل "**الثوري المؤرخ**" [١] عددًا من النقاط بقوله: "وهذا استنتاج يثير دهشة أي ماركسي... فبالنسبة لهذه النقطة الخاصة نجد أن وجهات نظر تروتسكي المؤرخ متأثرة تأثرًا كليًّا بتجربة تروتسكي رئيس المعارضة المغلوب على أمره، وبحالته الفكرية. ومن المؤكد أنه ما كان قبل ممارسته لعمله السياسي الطويل ليعبر عن وجهة نظر تعارض التقاليد الفكرية الماركسية". ثم ينتقل دويتشر إلى دراسة "التقاليد الفكرية الماركسية" على ضوء **كتاب بليخانوف "دور الفرد في التاريخ"**، ويأخذ من هذا الكتاب بعض الحجج؛ فيؤكد عدم عقلانية الافتراض القائل بأن "سقوط قرميدة واحدة من فوق أحد أسطح المنازل في زوريخ في بداية عام ١٩١٧ كان كافيًا لتبديل مصائر الإنسانية في هذا القرن"، ويكشف تناقض تروتسكي بالنسبة لهذه النقطة، ويستنتج أن الفكرة التي يقدمها تروتسكي هنا هي فكرة نابعة من الظروف. ويرى أن تروتسكي اعتبر نفسه عند فجر خلق الأممية الرابعة وكأنه لينين عام ١٩١٧، الذي لا يمكن الاستعاضة عنه؛ "لقد كان بحاجة لأن يحس بأنه الرئيس (لينين في عام ١٩١٧، أو هو في الثلاثينات والأربعينات) شخص لا يُمكن الاستعاضة عنه، واستمد من هذا الإيمان القوة اللازمة لجهوده البطولية التي بذلها في وحدته...".

وتتسم فكرة بليخانوف بالبساطة ككل فكرة آلية، وهي تخلو من التناقض الداخلي الذي تتصف به الأفكار الدياليكتية التي تحاول رسم التناقضات الخاصة بالعلاقات بين العالم الخارجي والوعي بغية السعي لحلها. ويقول بليخانوف: "وللأفراد غالبًا تأثير كبير على مصير المجتمع، ولكن هذا التأثير محدد بالبنية الداخلية لهذا المجتمع، ووضعه بالنسبة للمجتمعات الأخرى. ولا

يمكن لهذا التأثير تحديد المسار الذي تأخذه الأحداث. إن بوسعه أن يحرفها في لحظة من اللحظات، أو يؤخرها أو يزيد من سرعتها" فلنفترض أن روبسبيير كان في حزبه شخصًا لا يمكن الاستغناء عنه (...)، ولكن لو أنه مات في يناير (كانون الثاني) ١٨٧٣ من جراء سقوط قطعة قرميد على رأسه مثلاً، لأخذ شخص آخر مكانه دون شك، ولسارت الأحداث في الاتجاه نفسه، حتى لو كان هذا الشخص الجديد أقل من روبسبيير في كل شيء (...). ولو أن رصاصة قتلت **بونابرت** في **معركة أركول** لجاء جنرالات آخرون وفعلوا ما فعله في حملاته الإيطالية وغيرها... إلخ"، وينطبق القول نفسه على ١٨ بروميز وما تلاه: فقد كانت إعادة استتباب النظام بحاجة "لسيف جيد". وكان المرشحون للعب هذا الدور كثيرين، وكان وصول أحدهم إلى هذا المنصب يعني بالضرورة سعيه إلى ضرب الآخرين دون رحمة، وتدمير شخصية القائد المحتمل الكامنة فيهم. **والخلاصة**: يستطيع الأشخاص المُهمون بفضل خصائصهم وفكرهم وروحهم تعديل الشكل الخاص بالأحداث، ونتائجها الجزئية ولكنهم عاجزون عن تبديل الاتجاه العام المحدد من قِبل قوًى أُخرى".

وتبدو فكرة بليخانوف هذه متماسكة. وهي تستند إلى رؤية التاريخ مبنية كتسلسل خارجي منسجم، ناجم عن تشابك الأسباب والأفعال التي يشكل مجموعها سلسلة منطقية. ولكن تروتسكي يهتم بلحظات الأزمة التي يبدأ فيها الصراع بين طبقة صاعدة، وطبقة منحدرة لم تستنفذ كل إمكاناتها التاريخية بعد، وهذا ما يجعل نتيجة الصراع غامضة خلال فترة محددة من الزمن. ويرى بليخانوف أن الوظيفة تخلق العضو: فإذا كانت الطبقة بحاجة إلى توجيه سياسي، وقائد فذ، انبثق عنها هذا التوجيه وذاك القائد. وقد تتبدل المدد اللازمة ليتم هذا الأمر، ولكن تبدلاتها عاجزة عن تعديل مسيرة الأشياء بشكل عميق.

ويرفض تروتسكي هذه الفكرة عندما يقول: "والوقت هنا عامل حاسم"؛ فالفترات الزمنية أساسية، والقائد الذي يفهمها ويوجهها أساسي أيضًا. لقد أخطأ دويتشر -وحطَّم هذا الخطأ كل حجته- عندما أكَّد بأن تروتسكي طرح هذه المُعضلة في ١٩٣٠، ليضخم حجم نفسه. والحقيقة أن تروتسكي طرح هذه الفكرة للمرة الأولى في عام ١٩٢٤ بعد فشل **الثورة الألمانية**، التي فسر فشلها بتردد قيادة الحزب الشيوعي الألماني وتخاذلها. وشرح ذلك في مقدمة الجزء الثالث من مؤلفاته الكاملة "**دروس أكتوبر**": "لقد كان من المحتمل أن تتعرض الثورة للانهيار لو لم يلجأ لينين إلى الحزب ليقف معه ضد اللجنة المركزية (...) ولكن كافة الأحزاب لا يسعفها الحظ بوجود لينين عندما تقف إزاء وضع مشابه (...) ولا تتزايد قوة أي حزب ثوري إلا إلى درجة محددة، وبعدها قد تتعرض هذه القوة إلى التناقص والاضمحلال. وإذا ما أحست الجماهير بسلبية الحزب انقلبت آمالها إلى خيبة. ويتخلص العدو في هذه اللحظة من هلعه ويستفيد من هذه الخيبة. ولقد شهدنا مثل هذا التحول في ألمانيا خلال شهر أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٢٣. ووصلت روسيا إلى حافة منعطف مشابه في خريف عام ١٩١٧. ولو انتظرنا عدة أسابيع لوقع التحول السلبي. وكان لينين محقًا عندما قال: "الآن أو أبدًا".

ويريد بليخانوف ودويتشر التأكيد على أن الوهم هو الذي يدفعنا إلى الاعتقاد بأن الرجل العظيم شخص لا يمكن الاستغناء عنه، لأن وصوله إلى المنصب دفعه إلى إبعاد كل المنافسين المحتملين. ولكن أليس من الوهم أيضًا الحكم مسبقًا على الثورات المجهضة أو الاعتقاد بأن الثورات الظافرة تتم دونما عناء؟! إن مثل هذا التصرف يعني قلب التكتيك والإستراتيجية إلى لعبة ظلال لا معنى لها في مسيرة التاريخ التي ستمضي قُدمًا بكل خيلاء دون أن يوقفها أي شيء. لقد كانت هذه الفكرة من صلب أفكار المنشفي بليخانوف. ولكن البلاشفة رفضوا منذ عام ١٩٠٣ كل ما يتعلق **بقدرية السبب**. فلا يستطيع أن يفعل ما يريد وحيثما يريد وفي اللحظة التي يختارها. كما أنهم رفضوا مغريات التطوعية التي تؤدي بالثوري إلى خداع نفسه حول حقيقة قوته.

إن هذه العلاقة بين "القائد" الثوري والتاريخ علاقة متناقضة، ولقد عبر تروتسكي عن هذا الأمر بشكل متناقض؛ إذ أعلن في ٥ إبريل (نيسان) ١٩٢٣ -أي قبل الثورة الألمانية الفاشلة- أمام **المؤتمر السابع للحزب الشيوعي الأوكراني** ما يلي: "إننـا نعلم دون شك، بأن الطبقة العمالية ستنتصر بفضل قواها. وتقول أحد أناشيدنا الوطنية: "ليس هنـاك منقـذ أعلـى" أو "بطـل" أعلى... وهذا صحيح. ولكنه صحيح إذا ما أُخذ على مستوى الحساب التاريخي النهائي؛ إذ ستنتصر الطبقة العُمالية في نهايـة المطاف، وكان بوسعها أن تنتصر حتى لو لم يظهر **كارل مـاركس** إلى الوجود، وحتى لو لم يكن هناك **أوليـانوف - لينـين**. ولكان بمقدورها أن تضع الأفكار التي تحتاجها، والأساليب اللازمة لها. ولكن من المؤكد أن هذا العمل كـان سـيحتاج لوقـت أطول". ولكن هذا التفاؤل بعفوية الجماهير أمر لا ينسجم مع خط: **ما العمل؟** ولعل الظروف السائدة آنذاك قد أدَّت إلى المبالغـة به. فقد كان لينين مجبرًا على الصمت منذ شهر كامل. وكان من الضروري إعادة الثقة لكوادر الحزب المضطرب. وفي مارس (آذار) ١٩٣٥ كتب تروتسكي في **مذكراته**: "ولو لم يكن لينين في **بطرسبورغ** أو لم أكن هناك، لما وقعت **ثورة أكتوبر (تشرين الأول)**، ولمنعت قيادة الحزب البلشفي اندلاعها"، وبعد عدة أشهر: أي في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٣٥، أكد تروتـسكي فـي **مقال** عنوانه: "**لماذا انتصر ستالين على المعارضة؟**" ما يلي: "ويختلف الماركسيون عن **القدريين** السطحيين (من أمثال: **ليـون بلوم، وبول فور**، وغيرهما) في أنهم لا ينكرون أبدًا دور الفرد، وبداهته، وجرأته في الصراع الاجتماعي (...)، إن دور القيادة كبير جدًا. ولا تستطيع البروليتاريا تحقيق النصر دون قيادة صحيحة، ولكن أفضل القيادات عاجزة عن إشعال نار الثورة إذا لـم تكن الظروف الموضوعية للثورة متوفرة". ولكنه يذهب إلى الطرف الآخر من مسار النواس عندما يعتمد على هذا المقال ليضع **فصل**: "**لماذا انتصر ستالين؟**" في كتاب "الثورة المشوهة"، فيقول: "وتؤثر صفات القادة على نتيجة المعارك، ولكنهـا لا تـشكل العامل الوحيد أو العامل الحاسم، ويحتاج كل معسكر من المعسكرين المتجابهين لقادة يتلاءمون مع الـصورة التـي يحـددانها (...)، ولم ينتصر البلاشفة على الديمقراطية البرجوازية الصغيرة بفضل روعة قادتهم، بل بفضل انقلاب موازين القوى، بعـد أن استطاعت البروليتاريا جر الفلاحين المتذمرين للوقوف معها ضد البرجوازية".

إن هذا التناوب في الأهمية النسبية التي يحتلها الموضوعي، والذاتي، والوعي، والقوى الاقتصادية والاجتماعية، يعكـس غموض وتعقيد دور القيادة و"الزعيم" الثوري؛ إذ ينحدر الزعيم أو القيادة إلى العجز الكامل عندما لا تقدم الظروف لهما إمكانية العمل، أو أنهما يقفان لحظة قصيرة عند مفترق طرق تاريخي، وفي وضع يستطيعان معه توجيه القوى الجماهيرية العميـاء إذا ما تمتعا ببعد النظر والجرأة الضروريين. ولا تستطيع الوظيفة دائمًا خلق العضو، وقد ينبثق العضو بصورة مبكرة أو متأخرة، وتؤدي الفترات الزمنية الإضافية المفروضة على التاريخ إلى خلق كائنات مشوهة. ويتحدث تروتسكي في بداية هـذا الفـصل بصورة مطوّلة، ويبدو أنه يقلص التناقض الحقيقي إلى حده الأدنى عندما يقول: "وجاءت ديكتاتورية البروليتاريا مـن الوضـع كله، ولكنه كان من الضروري توجيهها. ولم تكن إقامة الديكتاتورية ممكنة من غير حزب. ولم يكن الحزب قادرًا علـى تنفيـذ مهمته إلا بعد فهمها واستيعابها، ولهذا فقد كان وجود لينين أمرًا لا غنًى عنه". وتكشف الثورة خلال مسيرتها قادة وزعماء مـا كانت قيمتهم لتسمو بهم عن مستوى الحياة العادية لولا اندلاع الثورة، ولكن الثورة لا تخلق هؤلاء القادة من العـدم. وهـي لا تستطيع تحويل **كامنييف** إلى لينين، أو قلب شخص عادي إلى إله قادر على كل شيء. وقد تكفي الضرورة الاجتماعية إلى خلق أمين عام، ولكن كما يظهر القادة الثوريون في بعض الحالات بصورة مبكرة، فإن هناك حالات تمر فيها الأزمات الثورية دون أن ينبثق عنها القائد أو القادة القادرون على حل هذه الأزمات وصنع التاريخ.

٤ - دراسة أو سرد زمني:

أما شارل أوليفييه كاربونيل، صاحب آخر كتاب ظهر عن الثورة الروسية (وقال عنه مؤلفه "بأنه مخـصص للجمـاهير العريضة") فهو يتعرض عند الحديث عن مراجع كتابه، إلى الحديث عن كتاب تروتسكي فيقول: "إنه كتاب يثير الاهتمام ولكنـه مفعم بالهَوى. وغامض مضطرب بقدر ما هو رائع؛ فهو مليء بسرد زمني غير مؤكد، واستشهادات غير مشروحة في أغلـب

الأحيان، واعتبارات فلسفية - تاريخية" يثقلها أسلوب غامض، وتقنية ماركسية مزيفة، وشطحات الملاحم وأشعار الفخر التي تشبه شطحات ميشليه، ومرافعة ماهرة لمنفي يستخدم التاريخ سلاحًا ضد الستالينية".

ولنعد إلى أقوال كاربونيل، إنه يتحدث عن سرد زمني غير مؤكد.

ومع هذا فإننا لا نجد في كتاب تروتسكي الذي يبلغ ١١٠٠ صفحة خطيئة واحدة. رغم أن الوقوع في الخطأ لم يكن مستحيلاً، فنحن نعرف أنه عندما شهدت بتروغراد اجتماع المشتركين بثورة أكتوبر في ٧ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٢٠، أي بعد الثورة بثلاث سنوات، بغية استعادة الذكريات، تبين عجز جميع الحاضرين، بما فيهم تروتسكي، عن تحديد تواريخ أهم الأحداث، ولو بصورة تقريبية يصل الخطأ فيها إلى عدة أسابيع... ومع هذا فقد كان تسلسل الأحداث حسب تاريخ تروتسكي صحيحًا لا غبار عليه. ولكن تروتسكي لم يضع جدولاً زمنيًا لأحداث الثورة (فهذا الجدول الزمني موجود أصلاً، ولقد ظهر في الاتحاد السوفييتي في الفترة الواقعة بين عام ١٩٢٣ وعام ١٩٣٠). ولا يسير سرده على خط مستقيم، وقد يخدع القارئ الذي اعتاد على قراءة الكتب المدرسية. ولا يهتم تروتسكي بتسلسل الأحداث الزمني كتسلسل صحيح للأحداث، ولكنه يهتم به كوسيلة لكشف العلاقات العقلانية التي تحدد التتابع الزمني للمشاهد والنوايا، ونضوج الوعي، والحالة الفكرية التي تتمتع بها الجماهير البروليتارية والفلاحين والجنود. وهكذا فإن أهم التواريخ لا تُشكل في حد ذاتها شيئًا أساسيًا.

وفي كتاب تروتسكي خطيئة واحدة فِعلية تتمتع ببعض الأهمية. وتقع هذه الخطيئة في فصل اللجنة العسكرية الثورية الذي تحدث عنه: **ب. د. وولف** في دراسته النقدية الهامة؛ فقال بأنه فصل "لا مثيل له في كل ما كتب حول هذا الموضوع". **ويدّعي** تروتسكي في هذا الفصل أنه كان **رئيس اللجنة العسكرية الثورية**، مع أن هذا الأمر لم يحدث قط. وعُذر تروتسكي في هذا الادعاء هو أن المشتركين في اجتماع ٧ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٢٠، ومن بينهم **ميخونوشين**، وهو واحد من أهم أعضاء **اللجنة العسكرية الثورية** وأكثرهم فعالية، لم يتذكروا من كان يحتل منصب الرئيس آنذاك، ورأوا بأن هذا المنصب كان من حق تروتسكي. ولم يكن تروتسكي يمتلك مصنفات اللجنة العسكرية الثورية المحفوظة في الخزائن المقفلة. ولكن نشر هذه المصنفات في عام ١٩٦٦ – ١٩٦٧ كشف بأن رئيس اللجنة العسكرية الثورية كان آنذاك: الاشتراكي الثوري – اليساري **لازيمير** الذي احتل هذا المنصب من ١٣ حتى ٢٧ أكتوبر (تشرين الأول)، ثم حل محله **بردفويسكي**. وتدل قراءة المصنفات على أن اسم الرئيس كان على رأس قائمة الأسماء. ولقد جاءت التواقيع حسب التسلسل التالي: **لازيمير، بردفويسكي، ميخونوشين، سادوفسكي، سكرايبنيك، سفردلوف، أوريتسكي**. ويقول ناشرو وثائق اللجنة العسكرية الثورية: "إن تحديد المسئوليات في اللجنة العسكرية الثورية لا يتمتع كما يبدو إلا بصفة شكلية (...) ولقد جاء توقيع الرئيس وأمين السر في بداية تواقيع أعضاء اللجنة العسكرية الثورية. وكانت القيادة في هذه اللجنة جماعية". ولقد كان الدور الأهم داخل هذه القيادة الجماعية من حظ تروتسكي، رئيس سوفييت بتروغراد، والقائد الفعلي للجنة العسكرية الثورية.

وهكذا لم يكن كتاب تروتسكي مجرد تسلسل زمني للأحداث، كما لم يكن كتابًا وضعه المؤلف ليمجد نفسه. وهو لا يقدم نفسه في الكتاب كبطل. ولكنه يحاول الظهور كمساعد للينين منذ عام ١٩١٧، ويختفي خلف لينين سياسيًا، مقللاً بذلك من قيمة دوره الحقيقي. لقد كان كتاب "حياتي" ملحمة تروتسكي، أما "تاريخ الثورة الروسية" فهو ملحمة البروليتاريا الروسية، وعمال بتروغراد، وبحارة البلطيق، والبلشفية، بالإضافة إلى أنه ملحمة لينين المرسومة عبر هؤلاء جميعًا.

ولكن تروتسكي لم ينج مع ذلك من الاتهام بالتحيز؛ ويقول ب. د. وولف: "ويستطيع قلم تروتسكي الإقناع في بعض الأحيان، ولكنه متحيز بصورة مستمرة". وهو يتهم تروتسكي "بأنه لم يكشف حقائق المهزومين". ويذهب **أندرزيج ستاوار** في هذا المجال إلى مدًى أبعد فيقول: "وإننا لنرى منذ الصفحات الأولى أن المؤرخ يتخلى عن مكانه لرجل السياسة الذي يدافع عن

مفاهيمه ضد خصومه، ويشرح طبيعة هذه المفاهيم لأنصاره (...) إن عمله عبارة عن محاولة لاستبدال الأسطورة الرسمية الستالينية التي يهاجمها بكل بلاغة بأسطورة أخرى ذات أهداف تكتيكية (...) ويصنع تروتسكي أسطورة جديدة لا تمتاز كثيرًا عن أسطورة خصومه".

ولا يقصد ستاوار هنا "أسطورة" كتبها تروتسكي عن نفسه (فهو يعتبر أن تروتسكي "نسي بتواضع يثير الاستغراب التحدث عن صعود نجمه بسرعة بالغة" في عام ١٩١٧) ولكنه يقصد دون شك "أسطورة" أفكار تروتسكي ومفاهيمه التي يرفضها ويستغرب وجودها في هذا الكتاب. والحقيقة أن نقد ستاوار متبجح متعثر؛ (إذ تمتلئ دراسته بجُمل من نوع "بشكل جد مبسط"، و"بشكل على غاية من الضيق"، و"مبسط إلى درجة بعيدة" التي تكشف أكاديميته الشكلية الجامدة). ويستند هذا النقد إلى مفهوم تاريخي ينقل مخططات ثورة عام ١٧٨٩ ليطبقها على ثورة عام ١٩١٧:، ويرى ستاوار أن تاريخ الثورة الروسية من فبراير (شباط) إلى أكتوبر (تشرين الأول) لم يكن سوى صراع بين "**اليعاقبة والجيرونديين** (...) معركة بين جناح اليعاقبة ومجموعة الجيرونديين". حقًا إن من المستغرب الاستناد إلى التشابهات القديمة التي مضى عليها أكثر من ١٥٠ عامًا بغية انتقاد التشابهات التي أشار إليها تروتسكي بين ١٩١٧ و١٩٣٠. ومع ذلك فهذا هو الأساس العام للانتقادات التي ترى في "تاريخ الثورة الروسية" مناورة كبيرة قام بها تروتسكي ليبرر تصرفاته ويعزز موقفه التاريخي.

٥ - تاريخ ثورة أكتوبر بعد تروتسكي:

يذكر دويتشر في الفصل المذكور آنفاً من كتابه "تروتسكي" ما يلي: "وطالما أن تاريخ الثورة الروسية لم يكتب حتى الآن في الاتحاد السوفييتي بشكل يستحق الاهتمام، فإن كتاب تروتسكي يبقى بعد مضي حوالي ٥٠ سنة على ثورة أكتوبر، التاريخ الوحيد لمجمل الثورة". ولعل من أهم الأمور وأكثرها دلالة، أن أفضل المؤلفات النادرة التي تبحث الثورة الروسية منذ عام ١٩٣٢ كان كتيبًا صغيرًا من **سلسلة Que sais-je?** كتبه **ف. أكس. كوكان**.

وليست المؤلفات الضخمة حول هذا الموضوع (مثل مؤلفات **جيراروالتر**، و**جان بيير أوليفييه**، و**شارل أوليفييه كاربونيل**) سوى مؤلفات مبسطة، لا تحمل أي جديد، ولا يحس المرء فيها بريح الثورة أو زمجرتها. وإذا استثنينا من كتاب "**الثورة المجهولة**" **لفولين**، الأنوار التي يلقيها على عالم الفوضويين الروس الممزق، وعلى **الحركة الماخنوفية**، لوجدنا أنه عبارة عن حديث طويل ضد الدولة الوحش الدموي. ولقد كتب **البروفسور كار**، مؤلفًا ضخمًا يضم ثلاثة أجزاء ويحمل عنوان: "**الثورة البلشفية**"، ولكنه لم يكرس لثورتي فبراير (شباط) وأكتوبر (تشرين الأول) سوى ثلاثين صفحة. ويذكر في بداية الفصل المخصص لهاتين الثورتين ما يلي: "إننا بحاجة ماسة لكتابة تاريخ هذه الفترة الحيوية (...) وهناك عدد كبير من الوثائق المستقاة من المصادر الأساسية بصورة مباشرة، والتي تبحث من وجهة نظرها كتاب **ميليوكوف** الرائع "**تاريخ الثورة الثانية**"، كما تبحث كتاب تروتسكي "تاريخ الثورة الروسية". ولكنه لا يقدم بعد هذه المقدمة إلا على رسم أحداث وتحليل فبراير (شباط) وأكتوبر (تشرين الأول) بشكل يدفعنا إلى الاعتقاد بأنه يحس بالحرج من التصدي لهذه المهمة التي يعتبرها حيوية. ويعتبر **مارك فيرو** آخر من أرخ للثورة، وهو يحاول العثور على الثورة وسط تتابع الأحداث، ولكن هذه المحاولة مستحيلة كل الاستحالة.

ولم تُفتح المصنفات السوفييتية منذ أيام تروتسكي إلا على استحياء. فلقد فُتحت مثلاً في العيد الخمسين لثورة أكتوبر (تشرين الأول). ونشرت **دار نشر ناووكا ثلاثة أجزاء من الوثائق الخاصة بلجنة بتروغراد العسكرية الثورية**. وذكر الناشرون في مقدمة هذه الطبعة ما يلي: "يعتبر إصدار هذه الوثائق والمواد الخاصة بلجنة بتروغراد العسكرية الثورية أول تجربة لنشر المعلومات الموجودة في أعماق المصنفات".

ولقد تجدد تاريخ الثورة الروسية منذ أيام تروتسكي باتجاه "التفسير" فقط. وجاء التجديد باتجاه مزدوج متكامل؛ هو اتجاه المفهوم البوليسي للتاريخ.

ففي عام ١٩٣٦ صدر في موسكو كتاب من ٤ أجزاء يحمل عنوان: "**تاريخ الثورة الروسية**". وهو **كتاب "تم إعداده تحت إشراف مكسيم غوركي، وف. مولوتوف، وك. فوروشيلوف، وسيرج كيروف، وآ. جدانوف، وج. ستالين**"، وكان هذا الكتاب ردًا صريحًا على كتاب تروتسكي. وكانت صيغة: "تم إعداده تحت إشراف..." صيغة رائعة. ومن غير المحتمل أن يكون أي واحد من "المؤلفين" المذكورين قد شارك في كتابة الكتاب سوى مشاركة رمزية لا تخرج عن حدود المراقبة. فستالين عاجز عن أن يكتب لوحده أي شيء أكثر من خطاب أو كتيب صغير مبني على الأسئلة والأجوبة. ولا يستطيع مولوتوف وجدانوف وفورشيلوف تجاوز حدود الخطابات المُعدة للمناسبات. وينطبق هذا القول على كيروف. وتأتي سيرة كيروف التي كتبها الكاتب السوفييتي **كراسنيسكوف** لتؤكد بأنه لم يشترك في وضع الكتاب أبدًا. ولم يكن غوركي يحس بميل خاص نحو التاريخ. ووجوده وسط هذه المجموعة المعدة للرد على تروتسكي عمل مفعم بالسخرية؛ إذ إننا لا نزال نذكر أنه كتب في أكتوبر (تشرين الأول) مقالاً في: **صحيفة نوفايا جيزن** وصف فيه الحكومة السوفييتية الفَتِية بـ"أوتوقراطية الوحوش"، واعتبر أن لينين "مشعوذ دجال (...) مجنون بلا حدود". وأعلن بأن "لينين وأنصاره يظنون أن بوسعهم ارتكاب كافة الجرائم". وأدى هذا التعاون عبر هيئة من اللجنة المركزية إلى خلق بَالِيه عجيب يختفي فيه الممثلون الحقيقيون من المشهد ليتركوا المكان لسادة الحقبة. وهكذا يختفي **شليابنيكوف**، و**زالوتسكي**، و**كيوروف**، و**تشوغورين**، و**سيملغا**، و**بوخارين**، و**بياتاكوف**، و**بريوبرا جينسكي**، و**أوجين بوش**، وغيرهم من **مسرحية "ستالين في بلاد العجائب**" التي يحاول تروتسكي فيها تخريب سلطة السوفييتات بمساعدة الخونة المغرضين: **زينوفييف**، و**كامنييف**، و**سوكولنيكوف**، و**ريازانوف**. وينطبق هذا القول على آخر تاريخ للثورة الروسية صدر في الاتحاد السوفييتي ("تاريخ ثورة أكتوبر الاشتراكية الكبرى" الذي اشترك في وضعه كل من سوبوليف، وغيمبيلون، وتروكان، وتشيبايفسكي)، فهو جزء من هذا العالم العجيب، رغم احتوائه على بعض التعديلات. ويحاول هذا الكتاب حتى الآن إقناعنا مثلاً بأن "**المركز العسكري الثوري الذي خلقته اللجنة المركزية وضم، بوبنوف، ودزيرجينسكي، وسفردلوف، وستالين، وأوريتسكي، كان النواة المركزية الأساسية للجنة سوفييت بتروغراد العسكرية الثورية**". فإذا عرفنا أن من المستحيل اكتشاف أي أثر لنشاط هذا المركز الذي يحاول المؤرخون الستالينيون بعثه من العدم الذي سقط فيه منذ تشكيله -والذي تركه فيه البلاشفة واضعو وثائق لجنة بتروغراد العسكرية الثورية- اقتنعنا بأن الطريق بين الأسطورة والحقيقة لا يزال طويلاً.

وفي الطرف الآخر من هذه الحكاية السخيفة يقف كتاب **كاتكوف** عن "الثورة الروسية". ولم يصدر من الكتاب حتى اليوم سوى الجزء الأول المخصص للاستعدادات التي سبقت فبراير (شباط)، ولكن هذا الجزء كافٍ لتقديم أفضل تعبير عن **المدرسة البوليسية الغربية**. ويعود كاتكوف ليبحث من جديد "الأفكار" التي طرحها **ميلغونوف** في كتاب "**أيام مارس**"، أو **الآن موريهاد** في كتاب "**مولد الثورة الروسية**". وهو لا يحاول أبدًا الاهتمام بالأفكار والمفاهيم التي تميز المناشفة عن الاشتراكيين - الثوريين أو عن البلاشفة، ويعتبرهم جميعًا وجوهًا مقطبة مشتركة في مؤامرة واحدة. ويرى كاتكوف أن ثورة فبراير (شباط) هي نتاج: **"Revolutionierrungspolitik"** التي نادى بها **هيلفاند – بارفوس**، وهو أحد زعماء اليسار الاشتراكي الألماني السابقين، وصديق قديم من أصدقاء تروتسكي، أثرى منذ أمد بعيد بفضل اشتغاله بالأعمال الحرة. وكان يعتبر الثورة الاشتراكية العالمية ثمرة من ثمار هزيمة التسلطية الروسية لصالح **الدولة البروسية**. وهذا ما دفعه إلى إقامة شبكة تضم عشرة عملاء (لم يكشف كاتكوف أسماءهم) مهمتها قلب الحكم في روسيا. ثم يتحدث كاتكوف عن أن نجاح هؤلاء العملاء في فبراير (شباط) تم بفضل أموالهم، وبفضل عدد من المؤامرات الخفية الملتوية، كما تم نجاحهم بعد ذلك بفضل لينين. ويحدثنا كاتكوف

بأنه "لو رفض السويديون مرور اللاجئين السياسيين عبر السويد، لأمن الجيش الألماني سبيل مرورهم عبر خطــوط الجبهـــة". ومن المؤكد أنهم كانوا سيمرون شاكين الحراب وبخطوات الاستعراض الموزونة.

وهكذا تغذت عملية تفسير الثورة الروسية من **منابع بونسون**، و**تيراي**، و**يان فليمينغ**. وآثار كل حدث تاريخي خيـــال أولئك الذين يفصلون التاريخ حسب نماذج آل كابوني، ولكن استمرار تفسير ثورة أكتوبر (تشرين الأول) بصورة بوليسية رغـــم مرور ٥٠ سنة على اندلاعها، ناجم من دون شك عن أن تاريخ الثورة قد أصيب بالعقم **لـــسببين**: **أولهمـــا** ســـوء المـــصادر الستالينية، أما **الثاني** فهو عظمة "تاريخ الثورة الروسية" الذي وضعه تروتسكي. وبعد هذه الإلياذة الماركسية للثورة، لم يعد أمام مَن يجيئون بعدها سوى السير على خطى الهوميريين (مقلدي هوميروس) والتحدث عن قتال الضفادع والجرذان.

جان جاك ماري

الهوامش

(١) يوجد هذا الفصل في الجزء الثالث من كتاب إسحق دويتشر "تروتسكي" وهو فصل هام لا بَدَّ من قراءته بإمعان بالغ.

مقدمة الفريد روسمر

تمت كتابة "تاريخ الثورة الروسية" في برينكيبو، خلال الفترة الواقعة بين أواخــر عــام ١٩٢٩، وعــام ١٩٣٢. ولقــد أصدرت **دار رييدر** الطبعة الأولى للترجمة الفرنسية بأربعة أجزاء في عام ١٩٣٣ – ١٩٣٤. ولم يبق من هذه الطبعة في عــام ١٩٣٩ سوى كمية قليلة اكتشفها **رجال الغستابو الألمان** وأحرقوها؛ ولذا فقد انتظر الكثيرون بفارغ الشوق إعــادة طبــع هــذا "السفر التذكاري الرائع" -كما وصفه مؤخرًا أحد نقاد **صحيفة لندن تايمز**؛ لأنه يملأ في الحقيقة فراغًا كبيرًا.

لقد نُفي تروتسكي في بداية عام ١٩٢٩، وكان طرده خارج روسيا يعني أن المعارضة الشيوعية لم تكف عــن النــضال ضد السياسة التي تنتهجها قيادة الحزب الشيوعي الروسي. هذا النضال الذي أراد تروتسكي متابعته مــن الخــارج. وتتــضمن الوثائق التي استطاع الاحتفاظ بها معه معظم ما يتعلق بحياة المعارضة ونشاطها منذ أن عرف مناضــلوها ظــلام الــسجون، أو تبعثروا في مدن **آسيا الوسطى**. ولذا نراه يعد المواد اللازمة لوضع كتابين ظهرا بعد ذلك مباشرة تحــت عنــوان "**الثــورة المشوهة**" و"**الأممية الشيوعية بعد لينين**".

وأنهى تروتسكي تدقيق سيرته الذاتية -حياتي- التي كتبها بدفع من مدير دار فيشر فيرلاغ للنشر، عنــدما وصــل إلــى برينكيبو ناشر أمريكي يدعى **تشارلز بوني**، وكان هذا الناشر قد التقى بتروتسكي في عام ١٩٢٠ في موسكو، وأبدى اســتعداده لنشر كل ما يقدمه له تروتسكي، ولكنه حمل له بالإضافة إلى ذلك اقتراحًا؛ إذ قال بأن ما ينقص القارئ، وما ينتظــره الجميــع، هو تاريخ الثورة الروسية. وفاجأ الاقتراح تروتسكي. وكان استعداده لكتابة هذا التاريخ أقل من استعداده لكتابة ســيرة حياتــه، وكان يود تكريس كل نشاطه وقواه للدفاع عن النظام السوفييتي بالشكل الذي أوجدته به ثورة أكتوبر (تــشرين الأول). بَيْــد أن الناشر أصر على اقتراحه، واكتفى بالحصول على موافقة مبدئية. وبعد عدة أشهر أنهى تروتسكي كتابة سيرته الذاتيــة، وأمَّــن اتصالاته مع مجموعات المعارضة الشيوعية القائمة آنذاك في مختلف أنحاء العالم، وغدا واثقًا من الحــصول علــى الوثــائق اللازمة -بعد أن ضاعت مكتبته الضخمة في موسكو ولم يعد يملك منها سوى عدد قليل من الكتب- قرر البدء بكتابة هذا السِفر الضخم. وكان قد كتب قبل حوالي عشرين سنة **تاريخ ثورة ١٩٠٥** بعد أن شارك فيها، وكان عنصرًا أساسيًّا من عناصــرها، وترأس أول سوفييت شهدته **سان بطرسبورغ**. وها هو الآن مقدم على كتابة **تاريخ ثورة ١٩١٧ بمرحلتيهــا: ثــورة فبرايــر (شباط)، وثورة أكتوبر (تشرين الأول)**، وهي مهمة أكبر من سابقتها بكثير، وقام ابنه البكر **ليون سيدوف** بناء على توجيهاتــه بجمع الوثائق. وتم جمع كافة الأحداث والأقوال ومراقبتها وتدقيقها. وكان تروتسكي يحب العمل المتقن، ولكنه أراد أن يكــون هذا العمل على غاية من الروعة؛ لذا فقد خصص له ثلاث سنوات من العمل الجاد الدءوب، وفي نــوفمبر (تــشرين الثــاني) ١٩٣١ كتب ليون سيدوف: "**ويشتغل أبي في الجزء الثاني من التاريخ كعبد من العاملين في المزارع**".

وأثار صدور الجزء الأول إعجابًا عظيمًا، وخاصة في أمريكا وإنكلترا. وقال **تشارلز آبيارد** عميد المؤرخين الأمريكيين آنذاك بأن تاريخ الثورة عبارة عن "واحد من أكبر الوثائق الشخصية والتاريخية في عصرنا". وأصابت الدهشة كثيرًا من النــاس عندما رأوا بأن أحد صانعي الثورة كان قادرًا على العمل كمؤرخ. وعبَّر **هارولد لاسكي** عن الشعور العام الذي عــم أوســاط النقاد البريطانيين بقوله: "إنه أهم كتاب عن الثورة الروسية ظهر حتى الآن. وواحد من المؤلفات التي لا يستطيع كل من يدرس التاريخ المعاصر تجاهلها. لقد كنًا نعرف جميعًا بأن تروتسكي كاتب كبير، ولكنه تجاوز نفسه في هذا السِفر".

والترجمة الفرنسية التي قدمها **باريجانين** صحيحة مطابقة للنص، ولقد تأكد تروتسكي من هذه الحقيقة بأن راجع بعــض مقاطعها. وكان من الطبيعي وجود بعض أخطاء الطبع أو الترجمة في مثل هذا الكتاب الكبير. بَيْد أن الظروف ساعدت علــى

تصحيحها بناء على توجيهات المؤلف. فلقد طلب مني تروتسكي خلال وجوده في **كويوا** كان فـــي شـــتاء ١٩٣٩ – ١٩٤٠ أن أرتب له مكتبته ومصنفاته التي كان يعدها ليقدمها إلى **مكتبة هارفارد**، لأن وجودها هناك أضمن من وجودهـــا فـــي منزلـــه. وراجعت في هذه الفترة معه بعض فصول "تاريخ الثورة" استعدادًا لإعادة طبع الكتاب من جديد. وكنت معتادًا علـــى أســـلوبه ومفرداته، وساعدني ذلك في التأكد من أن بعض جُمل ومفردات الترجمة الفرنسية لا تعكس ما كتبه المؤلـــف بـــشكل دقيـــق. فسجلت ملاحظاتي كلها، واستعنت بهذه الملاحظات فيما بعد لإدخال التصحيحات الضرورية، وتقريب الـــنص الفرنـــسي مـــن النص الأصلي.

إن نتيجة من النتائج الثانوية الناجمة عن الثورة الروسية هي: إدخال بعض الكلمات الروسية في كافـــة اللغـــات مثـــل: سوفييت، وبلشفي، ومنشفي. ولذا فقد أخذت هذه الكلمات معنى سياسيًّا على غاية من الدقة، مع أن ترجمتها الحرفيـــة لا تعنـــي أكثر من مجلس، وفرد من الأغلبية، وفرد من الأقلية. لقد كان البلاشفة والمناشفة أعضاء في حزب واحد هو **الحزب العمـــالي الاشتراكي – الديموقراطي الروسي** ولكنهم انفصلوا عن بعضهم في أحد المؤتمرات، ثم اجتمعوا وتلاقوا في مؤتمرات أخـــرى فيما بعد. وسنرى خلال قراءة هذا الكتاب أن اندماجهم كان مطروحًا على بساط البحث خلال الشهر الأول من ثـــورة فبرايـــر (شباط)، وقبل عودة لينين إلى روسيا.

ألفريد روسمر

فبراير (شباط) ١٩٥٠

١- ثورة فبراير (شباط) مقدمة المؤلف

خلال الشهرين الأولين من عام ١٩١٧ كانت روسيا لا تزال تحت حكم **أسرة رومانوف الملكية**. وبعد ثمانيــة أشــهر أمسك البلاشفة زمام الأمور، مع أنهم كانوا مجهولين في مطلع العام، وكان قادتهم في لحظة صعودهم إلــى الـسلطة متهمــين بالخيانة العظمى. ويتعذر علينا أن نجد في أمثلة التاريخ حدثًا يشبه هذا التحول المفاجئ. وخاصة إذا تذكرنا أن الأمــر يتعلــق بأمة تضم ١٥٠ مليونًا من البشر. ومن الواضح أن أحداث عام ١٩١٧ هامة تستحق الدراسة مهما كانت وجهة النظر التي تحكم المرء عند تقييمها.

ويستوجب تاريخ ثورة من الثورات ككل تاريخ آخر، دراسة أحداث الماضي ومعرفة الشكل الذي وقعت به، ولكن هــذا لا يكفي. ولا بُدَّ من العودة إلى تسلسل سرد الأحداث نفسها كيما نرى بوضوح لماذا حدثت الأمور بهذا الشكل ولم تحدث بشكل آخر. ولا يمكن دراسة الأحداث وكأنها سلسلة من المغامرات، كما لا يمكن ترتيبها بشكل متتابع بعضها وراء البعض الآخــر، بناء على خط أخلاقي محدد سابقًا. ولا بُدَّ أن تتطابق الأحداث مع قانونها العقلاني الخاص. ويرى المؤلف أن مهمته تتمثل فــي اكتشاف هذا القانون الخاص.

إن العلامة المميزة للثورة، هي مدى المشاركة المباشرة في الأحداث التاريخية. وسواء كانت الدولة ملكية أم ديمقراطية فإنها تسيطر عادة على الأمة، ويصنع التاريخ أولئك الذين امتهنوا هذه المهنة: كالملوك، والوزراء، والبيروقراطيين، والنــواب، والصحفيين. وفي المنعطفات الحاسمة، وعندما يصبح النظام القديم غير محتمل من قبل الجماهير، تحطم هذه الجماهير الحواجز التي تفصلها عن المسرح السياسي، وتقلب ممثليها التقليديين، وتخلق بذلك وضع انطلاق لنظام جديــد. وعلــى الأخلاقيــين أن يحكموا فيما إذا كان ذلك حسنًا أو سيئًا. أما نحن فإننا نتناول الأحداث كما هي، ووفق تطورها الموضوعي. وتــاريخ الثــورة بالنسبة لنا هو قبل كل شيء تدخُّل عنيف تقوم به الجماهير في المجال الذي تتقرر فيه مصائرها.

وعندما يعيش المجتمع جو الثورة تكون الطبقات في حالة صراع. ومع ذلك فإن من المؤكد أن التحولات التي تنتج بــين بداية الثورة ونهايتها، وتصيب القواعد الاقتصادية للمجتمع والأساس الاجتماعي للطبقات لا تكفي أبدًا لــشرح مــسيرة الثــورة نفسها. تلك الثورة التي تقوم خلال فترة زمنية قصيرة بتحطيم مؤسسات عريقة وخلق مؤسسات جديدة لا تلبث أن تقلبها ثانيــة. وتتحدد ميكانيكية الأحداث الثورية بصورة مباشرة بالتحولات النفسية السريعة العنيفة الحادة التي تقع داخل الطبقات القائمة قبــل الثورة.

والحقيقة أن المجتمع لا يُبدل مؤسساته بالتدريج وفق حاجاته كما يبدل الصانع أدواته. ويَعتبر المجتمع -على العكــس- أن المؤسسات المسيطرة عليه عبارة عن شيء قائم إلى الأبد. ولا يمثل نقد المعارضة خلال عشرات السنين سوى صمام نقمــة الجماهير، ويكون هذا النقد شرطًا من شروط استقرار النظام الاجتماعي. وهذه هي القيمة الفعلية التي حققها نقد الاشــتراكية – الديمقراطية مثلاً. ولا يحرر النقمة من قيود العقلية المحافظة، ويدفع الجماهير إلى الانتفاضة، سوى وجود ظــروف اســتثنائية جدًا، مستقلة عن إرادة الأفراد أو الأحزاب.

وهذا ما يدفعنا إلى القول بأن التبدلات السريعة التي تصيب رأي الجماهير وحالتها النفسية خلال الثــورة لا تــأتي مــن مرونة النفسية البشرية وقدرتها على الحركة، بل من طبيعتها المحافظة العميقة. وتبقى الأفكار والعلاقات الاجتماعية متأخرة من الناحية الزمنية عن الظروف الموضوعية الجديدة، حتى تجيء هذه الظروف بصورة مفاجئة وكأنها كارثة من كوارث الطبيعة،

وينجم عن ذلك خلال الثورة هزات واضطرابات تصيب الأفكار والأهواء، التي لا تستطيع العقول البوليسية فهمهـا، فتعتبرهـا مجرد عمل من أعمال "**الديماغوجيين**".

ولا تندفع الجماهير إلى الثورة وفق مخطط جاهز للتحويل الاجتماعي، ولكنها تندفع بسبب إحساسها المرير بعدم قدرتها على تحمل النظام القديم فترة أطول. وتملك الأوساط القيادية في الأحزاب الجماهيرية وحدها برنامجًا سياسـيًّا. ويحتـاج هـذا البرنامج مع ذلك إلى تدقيقه خلال الأحداث، وموافقة الجماهير عليه. ويتمثل السير السياسي الأساسي لثورة ما في وعي الطبقة بالمعضلات التي تطرحها الأزمة الاجتماعية، وتوجه الجماهير بصورة فعَّالة وفق أسلوب التقريبات المتتالية. وتتدعم المراحـل المختلفة لمسيرة الثورة عن طريق استبدال الأحزاب بأحزاب أخرى أكثر تطرفًا، وأشد قدرة على ترجمـة انـدفاع الجمـاهير المتزايد باستمرار نحو اليسار، حتى يتم توقف هذا المد عند الحواجز الموضوعية. عندها يبدأ رد الفعل؛ فيأخذ شكل تذمر فـي بعض أوساط الطبقة الثورية، وتزايد عدد اللا مبالين، وتدعيم القوى المضادة للثورة. وهذا هو على الأقـل مخطـط الثـورات الماضية.

إننا لا نتجاهل دور الأحزاب والقادة، ولكننا لا نستطيع فهم هذا الدور إلا بدراسة التطورات السياسية وسـط صـفوف الجماهير. ولا تشكل الأحزاب والقادة عنصرًا مستقلاً، ولكنها تشكل مع ذلك عنصرًا هامًا من عناصر التطـور. فـإذا انعـدم التنظيم القيادي تبددت قدرة الجماهير كبخار حر خارج أسطوانة المكبس. علمًا بأن الحركة لا تأتي من الأسطوانة أو المكـبس، ولكنها تنجم عن البخار.

وتصادفنا خلال دراسة تحولات وعي الجماهير خلال فترة الثورة صعوبات مؤكدة لا تنكر. وتصنع الطبقات المـسحوقة التاريخ في المصانع، والثكنات، والأرياف، والمدينة، والشارع، ولكنها لم تعتد على تسجيل كل ما تصنع. ومـن المعـروف أن الفترات التي تتصاعد فيها الأهواء الاجتماعية حتى تبلغ توترها الأعلى لا تترك للتأمل والوصف عادة سوى وقت جد قـصير. وتجد كافة أشكال الإلهام بما في ذلك الإلهام الشعبي الذي تعتمد عليه الصحافة صعوبة كبيرة في العيش خلال الثورة. ومع هذا فإن على المؤرخ أن لا يفقد كل أمله. وتكون الملاحظات المأخوذة ناقصة، مبعثرة، صدفية. ولكن النظر إلى هذه الأجزاء تحت ضوء الأحداث، يسمح لنا غالبًا بتوقع اتجاه التطورات الخفية الكامنة وسرعة إيقاعها. فإذا ما قام حزب ثوري بتقييم تطـورات وعي الجماهير توصل إلى وضع تكتيكه سواء كان هذا التكتيك صحيحًا أم خاطئًا. ويؤكد سبيل البلشفية التاريخي أن هذا التقييم كان ملائمًا، ولو ضِمن الخطوط العريضة على الأقل. فلِمَ لا يستطيع المؤرخ بعد مرور الأحداث، القيام بما يقوم به الـسياسي الثوري وسط معمعان الصراع؟!

ولكن التطورات التي تقع داخل وعي الجماهير لا تتم بصورة مستقلة. إن الوعي محدد بظروف وجود العامة حتى ولـو لم يعجب هذا القول المثاليين وأصحاب فلسفة الخير. وكانت منطلقات ثورة فبراير (شباط) والثورة التي حلت محلهـا –ثـورة أكتوبر (تشرين الأول)- كامنة في الظروف التاريخية لتكوين روسيا، باقتصادها، وطبقاتها، وسلطة دولتهـا، وتـأثير الـدول الأجنبية عليها. وقد يبدو وصول البروليتاريا إلى السلطة في بلد متأخر قبل غيره من البلاد لغزًا، ولكن علينا أن نبحث عن حل هذا اللغز في الطبيعة الخاصة بهذا البلد، أي في ما يميزه عن غيره من البلاد.

وتتحدث الفصول الأولى من هذا الكتاب عن الخصائص التاريخية لروسيا، ووزن هذه الخصائص النوعي. كمـا إنهـا تضم طرحًا واضحًا مبسطًا لتطور المجتمع الروسي وقواه الداخلية. وإننا لنأمل ألا تؤدي كتابة هذه الفصول على شكل خطـوط عريضة إلى تذمر القارئ الذي سيجد عمل هذه القوى الاجتماعية نفسها في بقية فصول الكتاب.

وليس هذا الكتاب مبنيًّا على ذكريات شخصية. ولم تمنع مشاركة المؤلف في الأحداث من تمسكه بدعم سرده بوثائق أكيدة خضعت لمراقبة دقيقة. ويتحدث المؤلف عن نفسه عندما يفرض عليه تسلسل الأحداث ذلك. وهو يستخدم خلال الحديث صيغة "المفرد الغائب". ولا ينبع تصرفه هذا من أسلوب أدبي اختاره لنفسه، ولكنه ينبع من أن الصبغة الذاتية المحتومة عند كتابة السيرة الذاتية أو المذكرات تصبح صبغة غير مقبولة عند دراسة التاريخ.

بيد أن اشتراك المؤلف في الصراع لم يسهل عليه فهم نفسية العناصر الأساسية والأفراد، والجماعات فحسب، بل سهّل عليه أيضًا فهم التشابك الداخلي للأحداث. وتستطيع هذه الميزة إعطاء نتائج إيجابية شريطة عدم اكتفاء المؤلف بالاستناد إلى ذاكرته في الأمور كبيرها وصغيرها، والابتعاد عن طرح الأحداث وكأنها قائمة بمعزل عن الدوافع والحالات الفكرية السائدة. ويرى المؤلف أنه نفذ هذا الشرط بالنسبة لما يتعلق به شخصيًّا.

وتبقى مسألة واحدة –هي مسألة الوضع السياسي للمؤلف، الذي يتمسك كمؤرخ بوجهة النظر التي تبناها عندما شارك في الأحداث- ومن المؤكد أنه ليس على القارئ أن يشاطر المؤلف بالضرورة أفكاره السياسية التي لا يجد المؤلف ما يدفعه لإخفائها. ولكن القارئ يملك كل الحق بالمطالبة بأن لا يكون السِفر التاريخي مدحًا وتأييدًا لموقف سياسي، بل صورة موثوقة صادقة لتطور الثورة الأكيد. ولا يقوم الكتاب التاريخي بدوره خير قيام إلا إذا تطورت الأحداث من صفحة إلى أخرى بشكل طبيعي يتلاءم مع ضرورتها.

فهل يتحتم بالضرورة أن يتدخل ما نسميه "تجرد" المؤرخ؟ إن شخصًا ما لم يشرح بوضوح ماذا يتضمن هذا الأمر. ويردد الناس غالبًا جُملة **كليمانصو** المأثورة القائلة بأن من الضروري أخذ الثورة "بصورة مجملة". ولكن هذا القول لا يخرج عن كونه تملصًا فكريًّا؛ فكيف يمكن للمرء أن يعتبر نفسه من أنصار "**كل**" **يحمل في طياته الانقسام؟** ويعود جزء من الأسباب التي دفعت كليمانصو إلى هذا القول إلى خجله من أسلاف مصممين أكثر مما ينبغي، كما يعود جزء آخر إلى حَرَج الخَلَفِ أمام ظلالهم.

ويعتبر **م. لويس مادلين** أحد كبار المؤرخين الرجعيين المرموقين في فرنسا المعاصرة. وكثيرًا ما افترى هذا الرجل في الصالونات على الثورة الكبرى –أي على مولد الأمة الفرنسية- وهو يؤكد أن على المؤرخ أن يصعد على سور المدينة المهددة، وأن ينظر من مكانه العالي إلى المحاصرين والواقعين في قلب الحصار بآن واحد. لأن هذه هي الوسيلة الوحيدة التي تسمح بالوصول إلى "العدالة التي تُؤمن الوفاق". ومع هذا فإن **مؤلفات م. مادلين** تؤكد بأنه لا يتسلق السور الذي يفصل بين المعسكرين إلا ليقوم بدور رجل الاستطلاع العامل في خدمات الرجعية. ومن حسن الحظ أن حديثه مرتبط بمعسكرات الماضي، **فمن الخطورة بمكان أن يقف المرء في زمن الثورة فوق الأسوار**. وكلنا نعرف بأن كبار شخصيات "العدالة التي تؤمن بالوفاق" يقبعون في زمن الخطر داخل منازلهم، وينتظرون، حتى يروا الجهة التي تحقق الانتصار.

ولا يحتاج القارئ الجاد المتمتع بقسط من روح النقد إلى تجرد زائف يقدم له كأس الفكر التوفيقي الممزوج بفيض من السُم، وبمستودع من الحقد الرجعي، ولكنه يحتاج لقسط كبير من الصدق العلمي الذي لا يعبر عن تأييده أو معارضته بشكل مكشوف لا يعرف التمويه، إلا بعد أن يبني حكمه على دراسة شريفة للأحداث، واكتشاف حقيقة العلاقات بين الأمور، وتحديد ما هو معقول في تسلسل الأحداث. وفي مثل هذه الحالة فقط تصبح الموضوعية التاريخية ممكنة، وتغدو عندئذ كافية إلى حد بعيد، نظرًا لأنَّه يتم التحقق منها وإثباتها استنادًا إلى اكتشاف القانون الداخلي للتطور التاريخي لا استنادًا إلى نوايا المؤرخ.

وتتألف **مصادر هذا الكتاب** من عدد كبير من: المنشورات الدورية، والصحف والمجلات، والمذكرات، ومحاضر الجلسات، بالإضافة إلى مجموعة أخرى من الوثائق بعضها مخطوط، وبعضها مطبوع وصادر عن **معهد تاريخ الثورة في** موسكو ولينينغراد. ولقد رأينا أنه من غير المجدي إثقال النص بهوامش وحواشي تعيق القارئ. واستعنا خلال الكتابة ببعض كتب التاريخ التي تحمل صفة الدراسات العامة لمجموع الثورة، ومن بينها مؤلف من جزأين عنوانه: "**دراسات حول تاريخ ثورة أكتوبر**" (موسكو – لينينغراد ١٩٢٧). ويضم هذان الجزءان دراسات لعدد من المؤلفين لا تتمتع كلها بالقيمة نفسها، ولكنها تحتوي مع ذلك على مجموعة غزيرة من الوثائق الخاصة بالأحداث.

والجدير بالذكر أن كافة التواريخ المذكورة في هذا الكتاب تعتمد على التقويم القديم (**تقويم جوليان**). أي أنها متأخرة ١٣ يومًا على التقويم العام السائد في الاتحاد السوفييتي الآن (**تقويم غريغوري**). ولقد اضطر المؤلف إلى استخدام التقويم الذي كان مطبقًا في حقبة الثورة، وليس من الصعب تحويل التواريخ لتتلاءم مع التقويم الجديد. ولكن هذه العملية التي تساعد على تجاوز بعض الصعوبات، تؤدي في الوقت نفسه إلى خلق صعوبات أخطر. فمن المعروف تاريخيًّا أن قلب النظام الملكي تم تحت اسم ثورة فبراير (شباط). ولكن التقويم الحديث يعني أن الأحداث جرت في مارس (آذار). ولقد أخذت المظاهرة المسلحة التي جرت ضد السياسة الإمبريالية للحكومة المؤقتة اسمًا تاريخيًّا هو "**أحداث إبريل**"، فإذا ما استخدمنا التقويم الجديد وجدنا أنها تقع في مايو (آيار). ولن نتوقف عند سلسلة أمثلة الأحداث المتتابعة التي جرت بين فبراير (شباط)، وأكتوبر (تشرين الأول)، ولكننا سنشير إلى أن أوروبا تعتبر أن ثورة أكتوبر جرت في نوفمبر (تشرين الثاني). وهكذا نرى أن التقويم نفسه أخذ لون الأحداث وشكلها. ولا يستطيع المؤرخ التخلص من التقويم الثوري عن طريق إجراء بعض العمليات الحسابية. وليذكر القارئ بأن إلغاء التقويم البيزنطي لم يتم إلا بعد أن حطمت الثورة كافة المؤسسات الرامية إلى الحفاظ عليه.

ليون تروتسكي

برينكيبو، في ١٤ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٣٠

خصائص تطور روسيا

تتمثل الصفة الأساسية الثابتة للتاريخ الروسي ببطء تطور البلاد، وما ينجم عن ذلك من وجود اقتصاد متخلف، وبنية اجتماعية بدائية، ومستوًى ثقافي متدنٍ.

وكانت الطبيعة نفسها تفرض الركود الطويل على سكان السهل الفسيح المترامي الأطراف، ذي الطقس القاسي، المفتوح أمام رياح الشرق وهجرات الآسيويين. ولقد استمر الصراع ضد شعوب الرعاة الرُحَّل حتى نهاية القرن السابع عشر تقريبًا. ولم يتوقف الصراع ضد الرياح التي تحمل الصقيع في الشتاء والجفاف في الصيف حتى يومنا هذا. وكانت الزراعة -قاعدة التطور كله- تتقدم عن طريق التوسع الأفقي في المساحات المزروعة؛ إذ كان المواطنون في الشمال يقطعون أشجار الغابات أو يحرقونها، ويحرثون السهوب العذراء في الجنوب. وهكذا كانوا يمتلكون ثروة الطبيعة بالعرض دون محاولة الغوص في الأعماق.

وفي الفترة التي تربعت بها شعوب الغرب البربرية على أنقاض الحضارة الرومانية، واستخدمت في البناء عددًا كبيرًا من الأحجار الأثرية، لم يجد **السلافيون** في الشرق أي إرث في سهولهم المحرومة البائسة؛ إذ كان مستوى من سبقهم أدنى من مستواهم. ولقد وقفت شعوب أوروبا الغربية عند حدودها الطبيعية، فلم تلبث أن أنشأت مدنها الاقتصادية الحضارية التي كانت مدنًا صناعية. وما كادت شعوب السهل الشرقي تُحس بضيق مجالها حتى توغلت وسط الغابات، أو هاجرت إلى المناطق النائية والسهوب. وتحولت أفضل العناصر الفلاحية وأكثرها بداهة ومهارة في البلاد الغربية إلى حضريين، وحرفيين، وتجار. وتحولت بعض العناصر الفعَّالة الجريئة في الشرق إلى تُجار، ولكن أغلب هذه العناصر انقلب إلى **قوزاق، وحرس حدود، أو رواد للأراضي البكر**. ولذا فإن تطور التباين الاجتماعي العنيف في الغرب تأخر في الشرق إلى حد بعيد، وفقد تركيزه عن طريق التمدد والتوسع. وفي عهد **بطرس الأول** كتب **فيكو** ما يلي: "ويحكم قيصر موسكو -رغم كونه مسيحيًّا- أشخاصًا خاملي الذهن". وبعكس "خمول ذهن" **الموسكوفيين** بطء وتيرة التطور الاقتصادي، وعدم وضوح العلاقات بين الطبقات، وفقر التاريخ الداخلي.

لقد تمتعت الحضارات القديمة في مصر والهند والصين بطبيعة مستقلة، وكان عندها الوقت الكافي لكي تخلق -رغم تواضع إمكاناتها الإنتاجية- علاقات اجتماعية تتمتع تفصيلاتها بإتقان يماثل إتقان منتجات حرفيي هذه الحضارات. وكانت روسيا تحتل بين أوروبا وآسيا موقعًا وسطًا. ولا ينطبق هذا القول على موقعها الجغرافي فحسب، بل على تاريخها وحياتها الاجتماعية أيضًا. وكانت روسيا مختلفة عن الغرب الأوروبي ومتميزة في الوقت نفسه عن الشرق الآسيوي، ولكن ملامحها كانت تقترب في كثير من الفترات من هذا الغرب أو ذاك الشرق. وفرض الشرق نيره التتري الذي دخل كعامل أساسي في بناء الدولة الروسية. وكان الغرب عدوًا أشد خطورة من **التتر**، ولكنه كان في الوقت نفسه أستاذًا. ولم تستطع روسيا بناء نفسها وفق أساليب الشرق، لأنه كان عليها دائمًا أن تتلاءم مع الضغط العسكري والاقتصادي القادم من الغرب.

ولقد أنكر المؤرخون القدامى وجود الإقطاع في روسيا، ولكن الدراسات الحديثة تؤكد وجوده بشكل لا يقبل الجدل. وبالإضافة إلى ذلك فإن العناصر الأساسية للإقطاع في روسيا مماثلة للعناصر التي عرفها الغرب. بَيْد أن اضطررنا إلى الدخول في مناقشات علمية طويلة بغية الإقرار بوجود عصر إقطاعي في روسيا، يعني أن الإقطاع الروسي رأى النور قبل الأوان، وكان غامضَ الشكل فقيرًا بمعالم ثقافته.

وتبنِّى بلد كبير متخلف المنجزات المادية والأيديولوجية للبلاد المتقدمة، وحاول التشبع بها، ولكن هذا لا يعني أنه طبَّق مسيرة هذه البلاد بشكل حرفي، وعرف كافة مراحل تاريخها. وتعتمد **نظرية تكرار الدورات التاريخية** -التي نادى بها **فيكو** وتلامذته- على دراسة الدورات كما وصفتها الثقافات التي سبقت الرأسمالية، كما تعتمد جزئيًا على التجارب الأولى للتطور الرأسمالي. والحقيقة أن الطبيعة الإقليمية والمتناوبة للتطور بأسره تتضمن شيئًا من تكرار المراحل الثقافية في بؤرات متجددة دائمًا. ولكن الرأسمالية تمثل وضعًا متقدمًا بالنسبة لهذه الظروف؛ إذ إنها أعدت شمولية واستمرارية تطور الإنسانية، ونفذت ذلك إلى حد ما. وهذا ما يستبعد إمكانية تكرار أشكال التطور عند مختلف الأمم. وليس على أي بلد متخلف يضطر إلى السير وراء بلاد متقدمة أن يتبع بالضرورة نظامًا متسلسلاً يشابه النظام الذي سارت عليه؛ لأن ميزة وضع متخلف تاريخيًّا -وهذا الوضع قائم- يسمح لشعب ما، أو يفرض بالأحرى عليه أن يتبنى الأشياء الجاهزة قبل انقضاء الفترات المحددة، وأن يقفز بذلك عددًا من المراحل الوسطية. وتتخلى الشعوب الهمجية عن القوس والسهام لتستخدم البندقية مباشرة دون أن تضطر إلى قطع المسافة التي فصلت من قبل بين هذين السلاحين. ولم يأخذ الأوروبيون الذين استعمروا أمريكا التاريخ منذ بدايته. ولقد توصلت ألمانيا والولايات المتحدة، إلى تجاوز إنكلترا اقتصاديًّا بعد أن عرف تطورهما الرأسمالي تأخرًا ملحوظًا. وإذا نظرنا إلى الوضع في إنكلترا وجدنا أن الفوضى المحافظة في صناعة الفحم البريطانية وفي أدمغة **ماكدونالد** وأصدقائه، ما هي إلا الجِزْيَة التي كان على بريطانيا أن تدفعها لقاء سيطرتها الماضية –الطويلة- على الرأسمالية. ومن المؤكد أن تطور أمة متخلفة تاريخيًّا يؤدي في النهاية إلى تركيب خاص يضم مختلف مراحل التطور التاريخي. ويأخذ منحى التطور بمجمله شكلاً معقدًا، مركبًا، غير منتظم.

ولكن إمكانية حرق الدرجات الوُسطى لا تشكل أمرًا محتومًا. وهي في نهاية المطاف محدودة بقدرات البلاد الاقتصادية والثقافية. ومن المعروف أن البلد المتخلف يخفض عادة مستوى الأمور الجاهزة التي يأخذها من الخارج. وهو لا يفعل ذلك إلا ليؤمن تلاؤمها مع ثقافته المتخلفة عما يأخذه. ولكن شكل التمثل نفسه يتسم في هذه الحالات بالتناقض. ولهذا فإن تبنِّي العناصر التِقنية، وأساليب الحياة الغربية، والفن العسكري، والصناعة في عهد بطرس الأول قد زاد من حدة **قانون القنانة**، كشكل أساسي لتنظيم العمل. و**أدى استخدام التسليح الأوروبي، والاقتراض من أوروبا في سبيل التسلح** -وهما نتيجتان حتميتان لثقافة أعلى- **إلى تقوية القيصرية، التي عرقلت بدورها تطور البلاد.**

ولا يتشابه القانون العقلاني للتاريخ مع المخططات الجوفاء المتبجحة. كما أن **عدم انتظام الوتيرة** قانون عام من أهم قوانين التطور التاريخي. ويبدو هذا الأمر بأكثر أشكاله حدة وتعقيدًا عند تحديد مصير البلاد المتخلفة؛ إذ أن ضغط الضرورات الخارجية يجبر الحياة المتخلفة على التقدم بوَثَبَات. ومن القانون الشامل الخاص بعدم انتظام الوتيرة ينبثق قانون آخر سنطلق عليه اسم **قانون التطور المشترك** نظرًا لعدم وجود تسمية أفضل. ونحن نقصد بذلك تقارب مختلف المراحل، وتشابك الفترات المحددة الواضحة، وتمازج الأشكال القديمة مع أكثر الأشكال العصرية حداثة. فإذا تجاهلنا هذا القانون، ولم نأخذه بكل محتواه المادي، تعذَّر علينا فهم تاريخ روسيا، وتاريخ كافة البلاد التي بدأت السير على طريق الحضارة في الصف الثاني أو الثالث أو العاشر.

ولقد اضطرت الدولة الروسية تحت ضغط أوروبا إلى أخذ جزء من الثروة العامة يفوق نسبيًّا الجزء الذي أخذه الغرب، وأدَّى ذلك إلى إلقاء الجماهير الشعبية في بؤس مضاعف، كما أضعف قواعد الطبقات المالكة. ولكن حاجة الدولة لدعم هذه الطبقات دفعها إلى ضغط تشكيلها والعمل على تنظيمه، ونجم عن ذلك عجز الطبقات المتميزة البيروقراطية عن الارتقاء إلى أبعد مدى، وتزايد اقتراب الدولة الروسية من الأنظمة الأسيوية التسلطية.

ولقد تبنَّى **القياصرة الموسكوفيون** الحكم الفردي البيزنطي وعدَّلوه بصورة رسميَّة منذ بداية القـرن الـسادس عـشر، وأخضع هذا الحكم الفردي كبار الإقطاعيين، والنبلاء الريفيين بمساعدة نبلاء البلاط، وضمِن ولاء هؤلاء النبلاء بـأن مـنحهم السلطة المطلقة على الفلاحين. وهكذا تحول الحكم الفردي إلى ملكية مطلقة يحكمها **أباطرة بطرسبورغ**. ويبدو تـأخر مجمـل التطور في أن **حق القنانة (امتلاك عبيد الأرض)** الذي ظهر في نهاية القرن السادس عشر، وترسَّخ في القرن الـسابع عـشر، وعرف أشد فتراته في القرن الثامن عشر، لم يلغ بصورة قانونية إلا في ١٨٦١.

وبالإضافة إلى النبلاء فقد لعبت الكنيسة في بناء الحكم الفردي القيصري دورًا لا ينكر، ولكنه لم يتجاوز دور مجموعـة من الموظفين. ولم ترتفع الكنيسة في روسيا أبدًا إلى مستوى القوة المسيطرة التي عرفتها الكنيـسة الكاثوليكيـة فـي الغـرب، واكتفت الكنيسة الروسية بحالة التبعية الروحية للحكام الفرديين وجعلت من هذه التبعية تواضعًا يـستحق الفخـار. ولـم يكـن المطارنة والقساوسة السلطة إلا كتابعين للسلطة المدنية. وكان تبديل البطريرك يتم مع قدوم قيصر جديد إلى العرش. وعندما تم انتقال العاصمة إلى بطرسبورغ أصبح تعلق الكنيسة بالدولة أكثر شدة. وكان ٢٠٠ ألف من القساوسة والرهبان وغيـرهم مـن رجال الدين يشكلون بمجموعهم جزءًا من البيروقراطية، ويقومون بدور **الشرطة الدينية**. وبالمقابل فقد كانت الـشرطة العامـة تحمي احتكار الكنيسة الأرثوذوكسية للشئون الدينية، وتحافظ على أراضيها، ومواردها.

وبنت **العقيدة السلافية المسيحية** لبلد متخلف فلسفتها على الفكرة القائلة بأن الأمة الروسية وكنيستها ديموقراطيتان إلـى حد بعيد، على حين أن روسيا الرسمية بيروقراطية ألمانية، أسسها بطرس الأول. ولقد تحدث ماركس عن هذه الظاهرة بقولـه: "وهكذا ألقى حمير ألمانيا مسئولية تسلط **فريدريك الثاني** على الفرنسيين. وكأن العبيد المتخلفين لم يكونوا دائمًا بحاجة لعبيد أكثر تحضرًا بغية الحصول على التعليم الضروري". ولا تصيب هذه الملاحظة القصيرة أعماق الفلاسفة السلافية فحـسب، ولكنهـا تصيب الاكتشافات "العنصرية" المعاصرة أيضًا.

وكان الفقر سمة مميزة للإقطاع الروسي، ولتاريخ روسيا القديمة بأسره. ولقد عبَّر هذا الفقر عن نفسه أصـدق تعبيـر بانعدام مدن القرون الوسطى التي تشكل مركزًا للحرفيين والتجار. ولم تستطع الحرفية في روسيا التخلص من علاقتها الوثيقـة مع الزراعة. واحتفظت بصفة الصناعات الصغيرة المحلية. وكانت المدن الروسية في الماضـي مراكـز تجاريـة، إداريـة، عسكرية، ومناطق سكن يعيش فيها ملاك الأراضي النبلاء؛ ولذا فقد كانت مراكز استهلاك لا مراكز إنتـاج. وحتـى **مدينـة نوفوغورود**، التي كانت على علاقات وثيقة مع رابطة تجار حوض الرين، ولم تعرف نير التتر أبدًا، فقد كانت مدينة تجـارة لا مركز صناعة. صحيح أن تبعثر الصناعات الريفية الصغيرة في مختلف مناطق البلاد كان يتطلب الخدمات الوسـطية لتجـارة واسعة النطاق. ولكن التجار الرحل كانوا عاجزين عن أن يشغلوا في الحياة الاجتماعية مكاناً مشابهًا للمكان الذي شـغلته فـي الغرب البرجوازية المتوسطة والصغيرة لتجمعات الحرفيين، والتجار، والصناعيين، تلك البرجوازية المرتبطة بشكل جد وثيـق مع الأطراف الريفية. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كانت الخطوط الرئيسية للتجارة الروسية مرتبطة بالخارج، وتمـنح رأس المـال التجاري الخارجي منذ قرون بعيدة دورًا أساسيًّا موجهًا، وتعطي شكلاً نصف استعماري لحركة الأعمال التجاريـة التـي كـان التاجر الروسي يلعب فيها دور الوسيط بين القرية الروسية ومدن الغرب. واستمر تطور هذا النوع من العلاقات الاقتصادية في عصر الرأسمالية الروسية، ثم تجسدت هذه العلاقات على أكمل وجه في الحرب الإمبريالية.

ولعبت تفاهة قيمة المدن الروسية دورًا هامًا في خلق دولة آسيوية الشكل والمحتوى. ومنعت بصورة خاصة من تحقيق الإصلاح الديني، أي استبدال أرثوذكسية الإقطاعية البيروقراطية بأشكال مسيحية أكثر عصرية، وأشد تلاؤمًـا مـع المجتمـع

البورجوازي. ولم يتجاوز الصراع ضد كنيسة الدولة مستوى تشكيل الطوائف الفلاحية المتعددة، وفي مقدمتها **طائفة "المؤمنين القدامى"**.

وقبل الثورة الفرنسية الكبرى بحوالي ١٥ عامًا انفجرت في روسيا **حركة القوزاق والفلاحين والعمال -الأقنان في الأورال-** وأطلق على هذه الحركة اسم **انتفاضة بوغاتشيف**. فما هو النقص الذي منع هذه الانتفاضة الشعبية الرهيبة من أن تتحول إلى ثورة **الطبقة الثالثة**[1] (Tiers - Etat)؟ لقد أدَّى انعدام الديمقراطية الصناعية في المدن إلى منع الحرب الفلاحية من التطور والارتقاء إلى مستوى الثورة، كما تعذَّر على الطوائف الدينية الريفية أن تسمو إلى مستوى الإصلاح الديني. ونجم عن انتفاضة بوغاتشيف تدعيم التسلط البيروقراطي، حامي مصالح طبقة النبلاء التي أثبتت قدرتها من جديد في الساعة العصيبة.

لقد بدأ تحويل مظهر البلاد وِفق الصورة الأوروبية في عهد بطرس الأول. ثم أصبح هذا التحول في القرن التالي ضرورة مُلحة بالنسبة للطبقة المسيطرة، أي طبقة النبلاء. وفي عام ١٨٢٥ عمم مثقفو النبلاء هذه الضرورة باتجاه سياسي، فتوصلوا إلى حركة عسكرية تستهدف تخفيف حدة السلطة الفردية. وتأثرت العناصر المتقدمة من النبلاء بدفع البرجوازية الأوروبية المتطورة، فحاولت أن تحل محل الطبقة الثالثة (Tiers - Etat) التي لم تكن موجودة. وكانت نية هذه المجموعة على الأقل مزج النظام الليبرالي مع قواعد سيطرة طغمتها؛ لذا فقد كانت تخشى رفع مستوى الفلاحين أكثر من أي شيء آخر. وليس من المستغرب أن هذا التآمر بقي عملاً من أعمال مجموعة ممتازة من الضباط المنعزلين الذين ضحوا بحياتهم دون أن يقاتلوا بكل معنى الكلمة. وهذا هو معنى **انتفاضة الديسمبريين**.

وكان النبلاء الذين يمتلكون المصانع أول النبلاء الذين نادوا باستبدال عمل الأقنان بالعمال المأجورين العاديين. ولقد دُفعوا إلى هذا الموقف أيضًا بسبب تزايد حجم تصدير القمح الروسي. وفي عام ١٨٦١، اعتمدت البيروقراطية النبيلة على ملاك الأراضي الليبراليين وحققت الإصلاح الزراعي وفق مفهومها. ووقفت الليبرالية البرجوازية العاجزة خلال هذا العمل موقف الجوقة المؤيدة. ومن المؤكد أن القيصرية حلت **المسألة الروسية الأساسية -المسألة الزراعية-** بأسلوب أكثر خسة وأشد خبثًا من الأسلوب الذي تجرأت **الملكية البروسية** على استخدامه بعد عشر سنوات، لحل **المسألة الألمانية الأساسية – مسألة الوحدة الوطنية**. ومن المعروف أن تنطح طبقة ما لحل المسائل التي تخص طبقة أخرى عبارة عن ظاهرة من ظواهر البلاد المتخلفة.

ويبدو قانون التطور المشترك في أوضح أشكاله في تاريخ الصناعة الروسية وطبيعتها. فلقد ولدت هذه الصناعة بصورة متأخرة، فلم تتبع دورة البلاد المتقدمة، ولكنها حشرت نفسها في هذه الدورة بعد أن أمنت تلاؤم أحدث المنجزات مع حالتها المتخلفة. فإذا كان مجمل التطور الاقتصادي الروسي قد قفز **مراحل الحرفية التعاونية والصناعية الصغيرة (المانيفورة)**، فإن عددًا من فروعه الصناعية قد قفز جزئيًّا بعضَ مراحل التقنية التي قضى الغرب عشرات السنين قبل أن يتجاوزها. ولذا تطورت الصناعة الروسية في بعض الفترات بسرعة بالغة. وتضاعف الإنتاج الصناعي في روسيا مرتين في الفترة الواقعة بين الثورة الأولى والحرب. ويعتقد بعض المؤرخين الروس أن هذه الظاهرة كافية لاستنتاج ضرورة التخلي عن أسطورة حالة التخلف، وبطء تطور البلاد[1]. والحقيقة أن إمكانية وقوع مثل هذا التطور السريع ناجمة عن حالة التخلف التي لم تبق -ويا للأسف- حتى تصفية النظام القديم فحسب، ولكنها سحبت نفسها كإرثٍ لهذا النظام، ولا تزال قائمة حتى يومنا هذا.

ويقاس المستوى الاقتصادي لأمة من الأمم عادة بإنتاجية العمل المتعلقة بحجم الصناعة النسبي داخل اقتصاد البلاد كله. وفي عشية الثورة، عندما كانت روسيا القيصرية قد وصلت إلى ذروة ازدهارها، كان دخل الفرد السنوي أقل من دخل الفرد

السنوي في الولايات المتحدة الأمريكية بعشر مرات. ويمكن تفسير ذلك دون استغراب، إذا ما علمنا بأن أربعة أخماس الشعب الروسي العامل كانت مؤلفة من المزارعين، على حين كان في الولايات المتحدة الأمريكية مزارع واحد مقابل كل ٢,٥ عامل صناعي. ويمكن بالإضافة إلى ذلك أن نذكر بأن طول السكك الحديدية في روسيا كان بمعدل ٤٠٠ متر لكل ١٠٠ كيلو متر مربع من مساحة البلاد، على حين كان طول السكك في ألمانيا يعادل ١١,٧٠٠ متر للمساحة نفسها، وكان طول السكك في الإمبراطورية الهنغارية – النمساوية يعادل ٧,٠٠٠ متر للمساحة ذاتها. وإذا أخذنا بقية عوامل المقارنة وجدنا أن روسيا متخلفة ضمن النِسب نفسها.

ولكننا قلنا من قبل إن قانون التطور المشترك يظهر في المجال الاقتصادي بأوضح أشكاله وأكثرها حِدَّة؛ ولذا فقد بقيت غالبية الزراعة حتى اندلاع الثورة في مستوى زراعة القرن السابع عشر تقريبًا، على حين كانت تقنية الصناعة الروسية وبنيتها الرأسمالية ترتفع إلى مستوى البلاد المتقدمة، وتتجاوزها في بعض المجالات. فمن المعروف أن المشروعات الصغيرة التي لا تتجاوز اليد العاملة فيها ١٠٠ شخص كانت تضم في الولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩١٤ حوالي ٣٥٪ من مجموع العمال الصناعيين، على حين لم تكن مثل هذه المشروعات لتضم في روسيا أكثر من ١٧٪. فإذا افترضنا أن الوزن النوعي (النسبة) للمصانع المتوسطة والكبيرة التي تضم من مائه إلى ألف عامل متساوٍ تقريبًا في البلدين، وجدنا أن المصانع الضخمة التي تضم أكثر من ألف رجل تستخدم في الولايات المتحدة الأمريكية ١٧,٨٪ من مجموع العمال، على حين أنها تستخدم في روسيا ٤١,٤٪. فإذا نظرنا إلى المناطق الصناعية الأساسية وجدنا أن هذه النسبة تزداد بشكل ملحوظ؛ فهي تعادل في منطقة بتروغراد ٤٤,٤٪، وترتفع في منطقة موسكو حتى تصل إلى ٥٧,٨٪. ويمكن الوصول إلى النتائج نفسها إذا ما قارنا الصناعة الروسية مع الصناعة البريطانية أو الألمانية. وكانت هذه الحقائق التي أثبتناها في عام ١٩٠٨ لا تتماشى مع التقديرات العامة التي تتحدث بشكل مجمل عن الاقتصاد الروسي المتخلف. صحيح أن هذه الحقائق لا تنكر حالة التخلف السائد في اقتصادنا، ولكنها تكتفي بتقديم العامل الجدلي المكمل.

وتم اندماج رأس المال الصناعي ورأس المال المصرفي في روسيا بشكل كامل لم يشهده أي بلد من قبل. ولكن تعلق الصناعة الروسية بالمصارف كان يعني ارتباطها بسوق الأوراق المالية في أوروبا الغربية. وكانت غالبية الصناعة الثقيلة (معادن، فحم، بترول) خاضعة لسيطرة التمويل الأجنبي الذي أنشأ لهذا الغرض في روسيا شبكة من المصارف المساعدة والوسطية. وكانت الصناعة الخفيفة تسير على السبيل نفسه. وكان الأجانب يملكون حوالي ٤٠٪ من مجموع رءوس الأموال المثمَّرة في روسيا. وكانت النسبة في فروع الصناعة الأساسية أكبر من ذلك بكثير. ويمكننا أن نؤكد دون أية مبالغة أن مركز مراقبة الأسهم التي تُصدرها البنوك والمصانع والمعامل الروسية كان موجودًا في خارج البلاد، وكانت مشاركة رءوس الأموال الإنكليزية والفرنسية والبلجيكية أكبر من ضعف المشاركة الألمانية.

وحددت ظروف بناء الصناعة الروسية، وبنية هذه الصناعة نفسها الطبيعة الاجتماعية لبرجوازية البلاد وشكلها السياسي. وكان تركيز الصناعة الواضح يدل على انعدام أي تسلسل وسطي بين الأوساط الرأسمالية العليا والجماهير الشعبية. وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت أهم المشروعات في مجالات الصناعة والمصارف والنقل بيد الأجانب الذين لم يكونوا يكتفون بتحقيق الأرباح في روسيا، بل يسعون إلى تدعيم تأثيرهم السياسي في المجالس النيابية للبلاد الأخرى، ولا يعملون لدفع النضال الرامي إلى خلق نظام برلماني في روسيا، بل يقفون في أغلب الأحيان ضد خلق هذا النظام. ويكفي أن نتذكر هنا الدور الفظيع الذي لعبته فرنسا الرسمية. وكانت هذه هي الأسباب الأساسية المحتومة للعزلة السياسية التي عرفتها البرجوازية الروسية، ولموقفها المعادي لمصالح الشعب. ولم يكن نضج هذه البرجوازية في فجر تاريخها كافيًا لقيامها بعملية الإصلاح. فلما جاءت لحظة استلامها لقيادة الثورة كان نضجها قد تجاوز الحد المطلوب وغدَا أكثر مما ينبغي.

فإذا أخذنا مجمل تطور البلاد وجدنا أن الطبقة العمالية الروسية لم تنحدر من خزان الحرفية التعاونية بل من الوسط الريفي. ولم يأتِ العمال من المدينة بل من القرية. ويجدر بنا هنا أن نذكر بأن البروليتاريا الروسية لم تتشكل رويدًا رويدًا، خلال قرون طويلة، ولم تتطور حاملة معها أعباء الماضي كما هي الحالة في إنكلترا. ولكنها جاءت بوثبات، وتبدُّلات مفاجئة للأوضاع، والاتصالات، والعلاقات، وبقطع عنيف لكل ما كان قائمًا بالأمس. ولقد جاءت هذه الأسباب مجتمعة وسط نظام القمع القيصري المركزي فأدَّت إلى جعل العمال الروس مؤهلين لتقبل أكثر الأفكار الثورية جُرأة، تمامًا كما كانت الصناعة الروسية المتخلفة مؤهلة لتقبل أحدث أساليب التنظيم الرأسمالي.

وأعادت البروليتاريا الروسية تاريخها القصير، ففي الوقت الذي تبلورت به العناصر البروليتارية ذات الأصول الطبقية الحقيقية في صناعة التعدين في بطرسبورغ بعد أن قطعت كل علاقاتها مع القرية، كان معظم العمال في الأورال من النوع **نصف البروليتاري، نصف الفلاحي**. وكان سيل اليد العاملة القادم سنويًّا من الريف إلى مختلف فروع الصناعة، يشكل صلة الوصل بين البروليتاريا والخزان الاجتماعي الذي انحدرت منه.

وكان عجز البرجوازية السياسي محددًا بطبيعة علاقاتها مع البروليتاريا والفلاحين. ولم تكن هذه البرجوازية قادرة على أن تجر وراءها عمالاً يعارضونها بحقد في الحياة اليومية، ويمتازون بأنهم تعلموا مبكرًا كيف يعطون أهدافهم ومطالبهم معنًى أوسع. وكانت البرجوازية من جهة أخرى عاجزة عن التأثير على طبقة الفلاحين؛ نظرًا لوقوع البرجوازية في شبكة المصالح المشتركة مع الملاك الزراعيين، وخوفها من أية هِزَّة تصيب الملكية، مهما كان شكل هذه الهِزَّة. ولقد تأخر اندلاع الثورة الروسية، ولم ينجم هذا التأخر عن ضرورات التوقيت، بل كان سببه كامنًا في البنية الاجتماعية للأمة.

ومن المعروف أن عدد سكان إنكلترا لم يكن يتجاوز خمسة ملايين ونصف مليون نسمة عندما قامت هذه البلاد بثورتها الدينية. وكان نصف مليون من السكان يقطن لندن وحدها. ولكن عدد سكان روسيا في مطلع القرن العشرين يعادل ١٥٠ مليونًا، يسكن ثلاثة ملايين منهم في بتروغراد وموسكو. وتحمل هذه الأرقام قيمة كبيرة في مجال المقارنة، ولكنها تخفي بالإضافة إلى ذلك تباينات اجتماعية بالغة الأهمية؛ إذ أن بريطانيا القرن السابع عشر وفرنسا القرن الثامن عشر لم تعرف البروليتاريا التي شهدها عصرنا. وهكذا فإن عدد الطبقة العمالية الروسية العاملة في مختلف مجالات العمل، في المدن والأرياف لا يقل في عام ١٩٠٥ عن عشرة ملايين شخص. يمثلون مع عائلاتهم أكثر من خمسة وعشرين مليون إنسان. أي أكثر من مجموع عدد سكان فرنسا في فترة الثورة الكبرى. ومن المؤكد أن الثورة التي عرفت الحرفيين الأشداء والفلاحين المستقلين الذين ضمهم جيش **كرومويل**، ثم عرفت عامة الشعب "Les sans culottes" في باريس، لتصل بعد ذلك إلى بروليتاريي بطرسبورغ الصناعيين، وأدخلت تعديلاً عميقًا على ميكانيكيتها الاجتماعية، وأساليبها، ومخططاتها.

وكانت أحداث عام ١٩٠٥ مقدمة ثورتي ١٩١٧ -أي مقدمة ثورتي فبراير (شباط) وأكتوبر (تشرين الأول)- وكانت المقدمة نفسها تضم مختلف عناصر المأساة التي لم تكن قد توضَّحت بعد بشكل متكامل. وكانت **الحرب الروسية - اليابانية** قد هزَّت القيصرية. واستخدمت البرجوازية الليبرالية حركة الجماهير الشعبية كأداة لحماية نفسها، فاستنفرت بمعارضتها يقظة الملكية. ونظم العمال أنفسهم داخل **سوفييتات** مستقلة عن البرجوازية، ووقفوا في بعض الحالات ضدها. وكانت هذه هي أول مرة يتم فيها تشكيل السوفييتات. وثارت طبقة الفلاحين في طول البلاد وعرضها بغية الحصول على الأرض. ومال الفلاحون وعدد من العناصر الثورية في الجيش نحو السوفييتات التي أخذت تنافس الملكية على السلطة عندما وصل الزخم الثوري إلى ذروة قوته. ومع هذا فقد كانت كافة القوى الثورية تظهر لأول مرة، ولم تكن تملك الخبرة الكافية أو الثقة اللازمة للعمل. وانفصل الليبراليون بوضوح عن الثورة عندما رأوا بأنها لا تكتفي بهز العرش بل تبتغي قلبه. وجاء انفصال البرجوازية

المفاجئ عن الشعب، وسحب البرجوازية لمجموعات هامة من المثقفين الديموقراطيين، ليسهل مهمة الملكية في تفتيت الجـيش، واختيار العناصر المخلصة، وإجراء عملية القمع الدموي ضد العمال والفلاحين. وتحطمت بعض أضلاع القيـصرية، ولكنهـا خرجت من أحداث عام ١٩٠٥ حية تتمتع بقسط من القوة والعزم.

فما هي التعديلات التي أصابت علاقات القوى بفضل التطور التاريخي خلال السنوات الإحدى عشرة التي تفـصل بـين المقدمة والمأساة؟ لقد توصل النظام القيصري في هذه الفترة إلى التناقض بشكل أوضح مع متطلبات التاريخ. وغدت البرجوازية أقوى اقتصاديًّا من ذي قبل، ولكننا رأينا من قبل أن قوتها كانت تستند إلى تمركُز الصناعة إلى حـد بعيـد، وتزايـد دور رأس المال الأجنبي. وتأثرت البرجوازية بدروس ١٩٠٥ فغدت أكثر محافظة وأشد شكًّا. وتناقص الـوزن النـوعي للبورجـوازيين الصغيرة والمتوسطة رغم أنه كان من قبل محدودًا. ولم يكن لدى المثقفين الديموقراطيين بصورة عامة قاعدة اجتماعية صـلبة. وكان بوسعهم تحقيق تأثير سياسي مؤقت، ولكنه كان يتعذر عليهم أن يلعبوا دورًا مستقلاً نظرًا لتزايد خضوع المثقفين لليبرالية البرجوازية. وفي مثل هذه الظروف، كانت البروليتاريا الفتية الطبقة الوحيدة القادرة على أن تقدم للفلاحين: برنامجًـا، ولـواءً، وقيادةً. وكانت المعضلات الضخمة المطروحة أمامها تفرض عليها أن تخلق بلا إبطاء تنظيمًا ثوريًّا خاصًا، يستطيع اسـتيعاب كافة الجماهير الشعبية، ويجعلها قادرة على شن عمل ثوري تحت قيادة العمال. وفي عـام ١٩١٧ عرفـت سـوفييتات ١٩٠٥ تطورًا رائعًا. ولنذكر هنا أن السوفييتات لم تكن مجرد نتاج الدولة الروسية المتخلفة تاريخيًّا، ولكنها كانت نتاج تطور مـشترك، ولذا فإن بروليتاريا أكثر الدولة الغربية تقدمًا (ألمانيًا)، لم تجد خلال المد الثوري في فترة ١٩١٨ - ١٩١٩ شكلاً تنظيميًّا أفضل من السوفييتات.

وكان هدف ثورة ١٩١٧ المباشر قلب الملكية البيروقراطية. ولكنها كانت تختلف عن الثورات البرجوازية القديمة في أن العنصر الحاسم فيها كان طبقة جديدة مبنيَّة على قاعدة من الصناعة المركزة، ومزودة بتنظيم جديد وأساليب نـضالية جديـدة. ويبدو قانون التطور المشترك هنا في أقصى درجاته؛ إذ بدأت الثورة بقلب البناء المُهترئ المُتَّسم بسمات القرون الوسطى، ولـم تمض عدة أشهر حتى حملت إلى السلطة البروليتاريا وعلى رأسها الحزب الشيوعي.

وهكذا كانت المهمات الأساسية المُلقاة على عاتق الثورة الروسية تؤكد بأنَّها ثورة ديمقراطية. ولكنها طرحـت مـسألة الديمقراطية السياسية بأسلوب جديد. فعندما كان العمال ينشئون السوفييتات في كافة أرجاء البلاد، ويقبلون فيها الجنود وبعـض الفلاحين، كانت البرجوازية تتابع مساومتها. ونتساءل هل ينبغي عليها دعوة المجلس التأسيسي أم لا؟ وستبدو لنا هذه المـسألة بشكل واضح ملموس خلال تقديم الأحداث. وإننا لا نود هنا سوى تحديد مكان السوفييتات فـي التطـور التـاريخي للأفكـار والأشكال الثورية.

وفي منتصف القرن السابع عشر جرت الثورة البرجوازية في إنكلترا تحت رداء الإصلاح الديني، وتجسَّد الصراع فـي سبيل حق الصلاة وفق كتاب صلوات معين، على شكل صراع ضد الملك والأرستقراطية، والأمراء، وكنيـسة رومـا. وكـان **البريسبيتيريون والبوريتانيون** (أفراد طوائف دينية مسيحية أنكلو - سكسونية) يعتقدون كل الاعتقاد بأنهم وضعوا مـصالحهم الدنيوية تحت حماية السلطة الإلهية التي لا تتزعزع. وكانت الأهداف التي تقاتل الطبقات الجديدة من أجلها تختلط في عقل هـذه الطبقات مع نصوص من "التوراة"، وعدد من الطقوس الدينية. وحمل من هاجروا إلى ما وراء البحار معهم هذا التقليـد الـذي تشبعت به دماؤهم. ومن هنا تأتي حيوية تفسيرات الأنكلو - سكسونيين للديانـة المـسيحية. وإننـا لنجـد حتـى الآن وزراء "اشتراكيين" بريطانيين يبررون تقاعسهم بنصوص سحرية كان الناس في القرن السابع عشر يبحثون فيها عن تبرير لشجاعتهم.

ولقد قفزت فرنسا فوق مرحلة الإصلاح، وبقيت الكنيسة فيها ككنيسة للدولة حتى اندلعت الثورة التي لم تجد التعبير عن المجتمع البورجوازي ومبررات مخططاته في نصوص التوراة، ولكنها وجدتها في تجريدات ديمقراطية. ومهما كان حقد حكام فرنسا الحاليين على عقيدة اليعاقبة، فإن من المؤكد أن عمل روبسبيير العنيف الحازم هو الذي يسمح للحكام الحاليين بإخفاء سيطرتهم كمحافظين تحت صيغ وشعارات استطاعت في الماضي تحطيم المجتمع القديم.

ولقد حددت كل ثورة كبيرة مرحلة جديدة من مراحل المجتمع البورجوازي، ومظاهر جديدة لوعي طبقاتها. وكما أن فرنسا قفزت متجاوزة مرحلة الإصلاح، فإن روسيا تجاوزت الديمقراطية "البحتة" بقفزة واحدة. وكان على الحزب الثوري في روسيا أن يضع خاتمه على عصر كامل، وأن يجد صيغة لحل معضلات الثورة، ولكنه لم يبحث عن هذه الصيغة داخل التوراة أو وسط عقيدة الديمقراطية "البحتة"، بل بحث عنها داخل العلاقات المادية القائمة بين الطبقات. وقدم أسلوب السوفييتات تعبيرًا بسيطًا عن هذه العلاقات، يتسم بالوضوح والصفاء. وتجسدت سيطرة الكادحين لأول مرة في نظام السوفييتات الذي نجح رغم كل تجاربه التاريخية القريبة وصعوباته، وترسَّخ في وعي الجماهير بعمق يماثل العمق الذي ترسَّخ به الإصلاح أو الديمقراطية "البحتة" من قبل.

* * *

الهوامش

(١) كان المجتمع في الفترة التي يتحدث عنها تروتسكي مقسمًا إلى ثلاث طبقات:

- الكنيسة Leclerge
- النبلاء La Noblesse
- Le Tiers-Etat، وتضم كافة أفراد الشعب من غير الطبقتين السابقتين. (المعربان)

(٢) يعود هذا التأكيد إلى البروفسور م. ن بوكروفسكي. أنظر الملحق رقم ١ في نهاية الجزء الثاني من هذا الكتاب.

روسيا القيصرية والحرب

كان اشتراك روسيا في الحرب يحمل تناقضات عديدة في الدوافع والأهداف. والحقيقة أن الصراع الدامي كان يستهدف السيطرة العالمية؛ ولذا فقد كان أفقه يتجاوز إمكانيات روسيا. **وكانت أهداف الحرب الروسية (المضائق التركية، وغاليسيا، وأرمينيا)** تتمتع بأهمية نسبية، إقليمية، ولا تستطيع أن تحقق سوى حل مؤقت يستمر طيلة مدة تلاؤمه مع مصالح القوى الكبيرة المشتركة في النزاع.

وكانت روسيا في الوقت نفسه دولة كبيرة؛ وهذا ما جعلها مضطرة إلى الاشتراك في معمعة البلاد الرأسمالية الأكثر تقدمًا. كما فُرض عليها من قبل بناء المصانع والمعامل في بلادها، وتمديد السكك الحديدية، والحصول على الطائرات والبنادق سريعة الطلقات. وكثيرًا ما دخل المؤرخون الروس المُحْدَثون من أنصار المدرسة الجديدة في مناقشات طويلة حول النقطة الخاصة بمعرفة إلى أي مدى كانت روسيا القيصرية ناضجة ومؤهلة لتَبَنِّي سياسة إمبريالية حديثة. ولكن كل هذه المناقشات سقطت في فخ **السكولاستيكية**؛ لأنها أخذت روسيا على الأرضية العالمية وكأنها عنصر منعزل أو عامل مستقل، مع أنها كانت حلقة من جهاز كامل.

والحقيقة أن **الهند** اشتركت شكليًّا في الحرب نظرًا لأنها مستعمرة إنكليزية. وكان دخول **الصين** "الإرادي" شكلاً في الحرب عبارة عن دخول عَبْد في معركة بين السادة. وكانت طبيعة المشاركة الروسية غير محددة، أو لعلها كانت شكلاً وسطًا بين مشاركة فرنسا ومشاركة الصين. وهكذا كانت روسيا تدفع ثمن الحق بأن تكون حليفة البلاد المتقدمة، وأن تستورد رءوس الأموال وتدفع الفوائد، أي الحق بأن تكون مستعمرة متميزة من مستعمرات حلفائها، وأن تتمتع في الوقت نفسه بحق سحق **تركيا وإيران وغاليسيا**، ونهب غيرها من البلاد الأكثر منها تخلفًا وضعفًا. وهكذا كانت الإمبريالية البرجوازية الروسية عبارة عن عميل يعمل في خدمة الدول الكبرى العالمية.

ويقدم **نظام الكومبرادوريين (الوسطاء التجاريين)** في الصين الأنموذج التقليدي لبرجوازية وطنية تقوم بدور العميل بين رأس المال النقدي الأجنبي واقتصاد بلادها. فإذا ما أخذنا تسلسل الدول العالمي قبل الحرب، وجدنا أن روسيا تشغل مكانًا أهم من مكان الصين. فما هو المكان الذي كان على روسيا أن تحتله بعد الحرب لو لم تندلع الثورة؟ إن هذا سؤال آخر. ولكن الحكم الروسي المطلق والبرجوازية الروسية اتسما بكثير من صفات الكومبرادورية؛ إذ كانا يعيشان بفضل علاقتهما مع الإمبريالية الأجنبية، ولا يستطيعان البقاء والاستمرار دون الاعتماد عليها. علمًا بأنهما لم يستطيعا في النهاية المقاومة رغم دعمهما. وكانت للبرجوازية الروسية نصف الكومبرادورية الممولة من الخارج مصالح إمبريالية عالمية، وكان مثلها في ذلك كمثل العميل الذي يهتم بمصالح رئيسه بغية الحصول على النسبة المئوية الصغيرة المخصصة له.

والجيش أداة الحرب الأساسية. وتقول الأساطير الوطنية لكل أمة من الأمم أن جيشها صامد لا يغلب، ولم يكن عند الطبقات الحاكمة في روسيا ما يدفعها إلى استثناء جيش القيصر من هذا الوصف. والحقيقة أن هذا الجيش لم يكن يشكل قسوة فعَّالة إلا ضد الشعوب نصف البربرية، والجيران الضعاف، والدول السائرة على طريق التحلل. ولم يكن هذا الجيش قادرًا على العمل فوق الأرض الأوروبية إلا كجزء من تحالفات كبيرة. كما لم يكن مؤهلاً للدفاع عن البلاد إلا إذا اعتمد على سعة المساحات، وندرة السكان، وانعدام صلاحية الطرقات. وكان **سوفوروف** مُبدع **جيش الموجيك الأقنان**. وجاءت **الثورة الفرنسية** التي فتحت الأبواب واسعة أمام مجتمع جديد وفن عسكري حديث، وقدمت حكمها القاطع ضد جيش سوفوروف.

وأدى الإلغاء النصفي للقنانة، وتطبيق **الخدمة العسكرية الإلزامية**، إلى تحديث الجيش والبلاد، وأدخلا إلى الجيش كافة صراعات أمة لم تقم بثورتها البرجوازية بعد. والحقيقة أن بناء الجيش القيصري وتسليحه كانا يجريان وفق الأساليب الغربية، ولكن هذه الأساليب كانت تلامس الشكل لا المحتوى. ولم يكن هناك أي رباط بين المستوى الثقافي الذي يحمله الفلاح الجندي، ومستوى التقنية العسكرية الحديثة. وكان الجهل المُطبق والكسل وتفاهات الطبقات المسيطرة الروسية سائدة وسط مجموعة الضباط. وظهرت الصناعة والمواصلات عاجزة عن تلبية حاجات زمن الحرب المتزايدة، وبدت الجيوش في أيام الصراع الأولى مستعدة كما ينبغي، ثم لم تلبث القطاعات العسكرية أن وجدت نفسها محرومة من الأسلحة والأحذية أيضًا. وكان الجيش القيصري قد كشف عن حقيقة قيمته خلال **الحرب الروسية - اليابانية**. وفي فترة الثورة المضادة عملت الملكية بمساعدة **الدوما** على إملاء مستودعاتها الحربية، وأجرَت في الجيش عدة إصلاحات، وعملت ما في وسعها لإعطائه صفة الجيش الذي لا يُقهر. وجاءت الحرب في عام ١٩١٤ لتتحقق من قوة هذا الجيش بصورة جد أليمة.

ومنذ الضربة الأولى وجدت روسيا نفسها تابعة لحلفائها بشكل ملحوظ في مجال المعدات الحربية والتمويل. ولم يكن هذا الأمر سوى امتداد لتبعية روسيا العامة بالنسبة للبلاد الرأسمالية الأكثر تقدمًا. ولكن مساعدات الحلفاء لم تنقذ الموقف. وكانت قلة الذخيرة، وصِغر عدد المصانع التي تقدمها، وامتداد شبكة السكك الحديدية اللازمة لتوزيعها، تترجم حالة التخلف الروسية بلغة الهزائم الواضحة التي ذَكَّرت الوطنيين – الليبراليين بأن أسلافهم لم يقوموا بثورتهم البرجوازية، وأن على الأجيال اللاحقة أن تسدد دين أسلافها أمام التاريخ.

وكانت أول أيام الحرب هي أول أيام العار. وبعد عدد من الكوارث الجزئية، قامت القوات الروسية بانسحاب عامٍ في ربيع ١٩١٥. وانتقم الجنرالات من السكان المدنيين ليُخفوا عجزهم الإجرامي. واجتاحت موجة العنف مناطق واسعة من البلاد. وتم طرد الجراد البشري نحو المؤخرة تحت ضربات سوطٍ جلدي. وجاءت المأساة في الداخل لتكمل المأساة على الجبهة.

ولقد رد **وزير الحربية الجنرال بوليفانوف** على أسئلة زملائه القلقة عن الوضع في الجبهة فقال: "إنني أثق بسعة مساحة بلادنا، واعتمد كل الاعتماد على وَحلها الذي لا يمكن اجتيازه، كما التجئ إلى رحمة **القديس نيقولا** سيد روسيا المقدسة" (محضر اجتماع مجلس الوزراء في ٤ أغسطس –آب– ١٩١٥). وبعد ٨ أيام اعترف **الجنرال روسكي** أمام الوزراء بقوله: "إن المتطلبات الحديثة للتقنية العسكرية أكبر من إمكاناتنا. وليس بوسعنا منافسة الألمان في أية حال من الأحوال". ولم يكن هذا نوعًا من المزاح. فلقد ذكر **الضابط ستانكيفيتش** بأن قائد إحدى وحدات المهندسين ذكر أمامه ما يلي: "أن الحرب ضد الألمان بلا أمل. لأننا عاجزون عن القيام بأي شيء مهما كان نوعه. وتسبب أساليب القتال الجديدة لنا كثيرًا من النكسات". وهناك كثير من الأحاديث والشهادات المماثلة.

ولكن كافة الجنرالات الروس اتفقوا على شيء واحد، هو أن على البلاد أن تقدم أكبر قسط من طعام المدافع (الرجال). وكان الجميع يحرصون على الثور والخنزير أكثر من حرصهم على بني البشر. وكان التافهون القابعون في قمة القيادة العامة مثل: **يانوشكيفيتش** تحت قيادة شقيق القيصر **نيقولا نيقولا ييفيتش**، و**الكسييف** تحت قيادة القيصر نفسه، يسدون كافة الثغرات بدعوة مزيد من القوات. ويجدون مع حلفائهم العزاء في النظر إلى أرتال الأرقام على حين كانت البلاد بحاجة لأرتال المقاتلين. وعبَّأت روسيا حوالي ١٥ مليون رجل، غصت بهم المستودعات والثكنات والمعسكرات. وكانت هذه الجموع المضطربة تراوح في مكانها ويدوس بعضها على أقدام البعض الآخر. وكان معظم الجنود عبارة عن مجموعة هائلة مضطربة ثائرة غاضبة. وكانت هذه الجموع بالنسبة للجبهة قيمة موهومة، ولكنها كانت في المؤخرة عاملاً فعالاً من عوامل الفوضى. وخسرت روسيا حوالي ٥ ملايين و٥٠٠٠٠٠ ألف رجل بين قتيل وجريح وأسير. وتزايد عدد الهاربين من الجيش بشكل ملحوظ. ومنذ يوليو

(تموز) ١٩١٥، أخذ الوزراء يتذمرون بأسى قائلين: "مسكينة روسيا! إن جيشها الذي ملأ أسماع العالم من قبل برعد انتصاراته، لم يعد يضم سوى الجبناء والهاربين!".

وكان الوزراء أنفسهم يمزحون بأسلوبهم السخيف فيتحدثون عن "شجاعة الجنرالات في القتال التراجعي" ولكنهم يضيعون ساعات طوال في جدل عقيم يدور حول المسألة التالية: "هل ينبغي إخلاء آثار القديسين الموجودة في **كييف** أم لا؟ إن القيصر يرى بأن هذا عمل غير ضروري؛ "إذ لن يجرؤ الألمان على لمسها. فإذا ما فعلوا ذلك، تعرضوا من جراء ذلك لأذى عميم!"، ولكن **مجلس الكنيسة الأرثوذوكسية الأعلى** في روسيا وافق من قبل على مثل هذا الإخلاء عندما قال: "وسنأخذ عند ذهابنا أعز ما لدينا..."، ولم تجر هذه المناقشات في عصر الحروب الصليبية، ولكنها جرت في القرن العشرين، عندما كان العالم يسمع أخبار الهزائم الروسية من المذياع.

ويعود الفضل في انتصارات روسيا على **الإمبرطورية النمساوية - الهنغارية** إلى ضعف هذه الإمبراطورية لا إلى قوة روسيا. وكانت **أسرة هايسبورغ** المتفتتة قد اعترفت منذ أمد بعيد بأنها بحاجة لمن يحفر لها قبرها، ولم تطالب بأن يكون لحدها فخمًا مهيبًا. وكانت روسيا متفوقة من قبل على الدول السائرة على طريق التحلل مثل: تركيا وبولونيا وإيران. وحققت القوات الروسية في الجبهة الجنوبية الغربية المقابلة للقوات النمساوية – الهنغارية انتصارات باهرة ميزت هذه الجبهة عن غيرها من الجبهات. وهنا برز عدد من الجنرالات الذين لم يبرهنوا بأية حال من الأحوال على قدراتهم القتالية، ولكنهم لم يكونوا مع ذلك مشبعين بروح القدرية التي تميز دائمًا القادة المهزومين. ولقد خرج من هذا الوسط فيما بعد، بعض "الأبطال" البيض الذين عرفتهم معارك الحرب الأهلية.

وكان الجميع يبحثون عمن يتحمل المسئولية؛ ووجهت تهمة التجسس إلى اليهود بلا استثناء، وألقي القبض على من تحمل عائلتهم اسمًا ألمانيًا. وأعطى مقر قيادة شقيق الملك نيقولا نيقولا ييفيتش أمرًا بإعدام العقيد الدركي **مياسوييدوف** نظرًا لأنه جاسوس ألماني–ولعله لم يكن كذلك- واعتقل وزير الحربية **سوخوملينوف**، وهو شخصية تافهة متخلفة، ووجهت إليه تهمة الخيانة العظمى، وقد يكون لهذا الاتهام بعض الأساس. وأعلن وزير الخارجية البريطاني **السير إدوارد غري** أمام رئيس الوفد البرلماني الروسي، بأن حكومة القيصر تصرفت بطيش وتسرع عندما قررت اتهام وزير الحربية بالخيانة العظمى خلال الحرب.

ووجهت القيادة العليا والدوما إلى البلاط الملكي تهمة ممالأة الألمان. وكان كل هؤلاء يغارون من الحلفاء ويكرهونهم. وكان القائد الفرنسي يحافظ على جنوده بأن يعرض الجنود الروس للصدمة الأولى. ولم تتحرك بريطانيا إلا ببطء بالغ. وكان الجميع يرددون في صالونات بتروغراد، ومقرات القيادة في الجبهة نكاتًا بريئة مثل: "لقد أقسمت إنكلترا على الصمود حتى آخر نقطة دم... من دماء الجندي الروسي". وكانت مثل هذه النكات تتسلل إلى المستويات الدنيا، وتنعكس على الجبهة. وكان الوزراء والنواب والجنرالات والصحفيون يقولون: "كل شيء للحرب!" فأخذ الجندي القابع في الخندق يقول لنفسه: "نعم، إنهم مستعدون للقتال حتى آخر قطرة.. من دمي".

وأصيب الجيش الروسي خلال الحرب بخسائر لم يتعرض لها أي جيش آخر من الجيوش المشتركة في المذبحة؛ إذ فقد الروس مليونين و٥٠٠٠٠٠ قتيل، أي ٤٠٪ من مجموع خسائر جيوش الحلفاء كلها. وكان الجنود يتساقطون في الأشهر الأولى تحت القذائف دون تفكير أو تردد. ثم تزايدت خبرتهم يومًا بعد يوم. وكانت خبرة مُرَّة أحست بها الطبقات الدُنيا التي لم تكن القيادة قادرة على توجيهها. وكان الجنود يقيسون مدى الفوضى التي يخلقها الجنرالات بمقياس عملي هو طول المسيرات

والمسيرات المعاكسة غير المُجدية بأحذية مهترئة النعال، وعدد وجبات الطعام التي يخسرونها. ووسط الانهيار الدامي للرجال والأشخاص، ارتفعت كلمة واحدة تفسر كل شيء وهي: "يا للسخف!". وأخذ هذا التعبير في لغة الجندي شكلاً أكثر حدة.

وكان التفتت في سلاح المشاة المشكل من الفلاحين أكبر من التفتت في أي مكان آخر. أما المدفعية التي تضم نسبة كبيرة من العمال الصناعيين، فقد كانت تتميز عن غيرها من الأسلحة بارتفاع مستوى قدرتها على استيعاب الأفكار الثورية؛ ولقد رأينا ذلك بوضوح في عام ١٩٠٥. ولكن هذه المدفعية كانت في عام ١٩١٧ أشد محافظة من المشاة، ويرجع السبب في ذلك إلى انضمام جماهير بشرية محدودة الثقافة باستمرار إلى كوادر المشاة، على حين حافظت المدفعية على كوادرها القديمة نظرًا لعدم تعرضها لخسائر جسيمة. وتنطبق هذه الملاحظة على كافة الأسلحة الخاصة. ثم لم تلبث المدفعية أن بدأت بالخضوع في نهاية المطاف.

وخلال انسحاب **غاليسيا** أصدر القائد الأعلى تعليمات سرِّية تقتضي بجلد الجنود الهاربين أو الذين يرتكبون جرائم أخرى. ويقول الجندي **بيريكو** في مذكراته: "وكانوا يضربون الرجال لأقل ذنب؛ كغياب عدة ساعات من غير إذن، وكانوا يمارسون الجلد أحيانًا لرفع معنويات القطعة!". وفي ١٧ سبتمبر (أيلول) ١٩١٥، كتب **كوروباتكين** مستشهدًا بـ **غوتشكوف**: "لقد بدأ الجنود وضباط الصف الحرب بكل حماس، ولكنهم الآن محطمون، وأدَّى قتالهم التراجعي الطويل إلى فقدان إيمانهم بالنصر". وفي مثل هذا التاريخ تقريبًا، تحدث وزير الداخلية عن ٣٠ ألف جندي يقضون فترة النقاهة في موسكو فقال: "إنهم عناصر فوضوية تثور ضد كل انضباط، وتثير الفضائح، وتتشاجر مع رجال الشرطة (ولقد قتل الجنود مؤخرًا أحد رجال الشرطة) الذين يضطرون إلى إخلاء سبيل من يقبضون عليهم، ...إلخ. ومن المؤكد أن وقوع أية اضطرابات سيدفع هذه العصابة إلى الوقوف مع الجماهير". ويكتب الجندي بيريكو المذكور آنفًا ما يلي: "ويهتم الجميع بلا استثناء بشيء واحد هو السلام... ولم يكن الجيش ليتساءل من سيكون المنتصر؟ وماذا سيقدم هذا السلام؟ ولكنه كان يود الوصول إلى هذا السلام بأي ثمن. بعد أن أنهكته الحرب".

وكانت الممرضة **س. فيدور تشينكو** قوية الملاحظة، وعندما التقطت بعض أحاديث الجنود اكتشفت حقيقة أفكارهم، وسجلتها على الورق، ونجم عن ذلك كتيب يسمى "**الشعب والحرب**". ويسمح لنا هذا الكتيب بإلقاء نظرة خاصة على المختبر الكبير الذي تؤثر فيه القنابل اليدوية، والأسلاك الشائكة، والغازات الخانقة، ودناءات السلطة خلال أشهر طويلة على وعي عدة ملايين من الفلاحين الروس. وتُسحق فيه عظام الكائنات البشرية مع الأفكار المسبقة المعروفة منذ قرون. وكان كثير من الحِكَم الغريبة التي أطلقها الجنود تحمل في أعماقها شعارات الحرب الأهلية المقبلة.

وفي ديسمبر (كانون الأول) ١٩١٦ اشتكى الجنرال **روسكي** من أن **ريغا** كانت نقطة الضعف في الجبهة الشمالية. ورأى أنها تشكل مثل **دفينسك** "عشًا من أعشاش الدعاية". وأكد الجنرال **بروسيلوف** هذا الحكم عندما أشار إلى أن: القوات العائدة من قطاع ريغا كانت تحمل معنويات محطمة، وكان الجنود يرفضون المشاركة بالهجوم، كما قتلوا أحد النقباء بحراب بنادقهم، وكان من الضروري إعدام عدد من الرجال رميًّا بالرصاص، ...إلخ. أما **رودزيانكو**، المتصل مع أوساط الضباط، والذي زار الجبهة فإنه يعترف بما يلي: "لقد كانت الأرض الملائمة لتفتت الجيش بشكل نهائي موجودة قبل اندلاع الثورة بأمد بعيد".

وكانت العناصر الثورية في بداية الأمر مبعثرة، غارقة وسط الجيش دون أن تترك وراءها أي أثر. ولكن مع تزايد النقمة العامة صعدت هذه العناصر إلى السطح. وعندما أرسلت السلطات العمال المضربين إلى الجبهة بغية معاقبتهم انضباطيًّا، تقوت صفوف المحرضين، وجاءت حركات الجيش التراجعية لتزيد عدد من يستمعون إليهم. وأعلنت **الأوخرانا**(١) في أحد تقاريرها ما يلي: "ويضم الجيش في المؤخرة، وعلى خطوط الجبهة بصورة خاصة عناصر متعددة، قد يستطيع بعضها القيام

بدور فعَّال في أي عصيان، كما يستطيع البعض الآخر رفض المشاركة في القمع..." وفـي أكتـوبر (تـشرين الأول) ١٩١٦، اعتمدت إدارة درك منطقة بتروغراد على تقرير أحد ممثلي سلطة **اتحاد الزيمستفو** وأرسلت تقريرًا يتحـدث عـن أن الحالـة الفكرية السائدة داخل الجيش خطيرة تثير القلق. وأن العلاقات بين الضباط والجنود متوترة إلى حد بعيد، وأنه كثيرًا ما وقعـت بينهم صِدامات دامية، وأن الهاربين من صفوف الجيش يعدون بالآلاف وينتشرون في كل مكان، "إن كل من عاش على مقربـة من الجيش يحمل انطباعًا عميقًا صادقًا عن تدهور معنويات الوحدات العسكرية"، وزيادة في الحيطة والحذر أضـاف واضـعو التقرير بأنه إذا ما بدت بعض جوانب هذه المعلومات غريبة لا تصدق، فإن من الضروري تصديقها، خاصة وأن عددًا كبيـرًا من الأطباء العائدين من الجبهة قدموا معلومات مماثلة.

وكانت الحالة المعنوية في المؤخرة متماثلة مع الحالة المعنوية السائدة في الجبهة؛ ففي **مؤتمر حزب الكاديت** المنعقد في أكتوبر (تشرين الأول) ١٩١٦ أشار معظم المندوبين إلى التقاعس وانعدام الإيمان بالنصر "عند كافة شرائح الـشعب، وخاصـة في الريف، ووسط الطبقة الفقيرة من سكان المدن". وفي ٣٠ أكتوبر (تشرين الأول) أوجز مـدير إدارة الـشرطة عـددًا مـن التقارير بتقرير واحد كتب فيه: "ويلاحظ في كل مكان، ولدى كافة شرائح الشعب نوعًا من التقاعس الناجم عن الحرب، ورغبة جامحة بالسلام مهما كانت شروط هذا السلام...".

وبعد عدة شهور، أجمع كافة النُوَّاب، ورجال الشرطة، والجنرالات، وزعماء **سلطة الزيمـستفو**، والأطبـاء، ورجـال الدرك القدامى على أن الثورة قتلت **الروح الوطنية** داخل صفوف الجيش. وأكد هؤلاء السادة أن البلاشفة حرموهم من تحقيـق نصر محقق أكيد.

* * *

ولقد لعب **الكاديت (الدستوريون - الديموقراطيون)** دون شك دور المنشدين الأساسيين في جوقة الوطنيين دعاة الحرب. وكانت الليبرالية قد قطعت علاقاتها المعقدة مع الثورة منذ نهاية عام ١٩٠٥، فما أن بدأت حقبة الثورة المضادة حتـى رفعـت لواء الإمبريالية. وكان هذا الموقف الجديد نتيجة للموقف الأول؛ فطالما أن من المستحيل تخليص الـبلاد مـن آثـار الإقطـاع القديمة، ووصول البرجوازية إلى موقف الطبقة المسيطرة، فإن من الضروري عقد تحالف مع الملكية وطبقـة النـبلاء بغيـة تحسين وضع رأس المال الروسي في السوق العالمية. وإذا كان من المؤكد أن الكارثة العالمية قد أعدت من كل جانب، لدرجـة أنها فاجأت إلى حد ما أكثر منظميها تحملاً للمسئولية، فإن من المؤكد أيضًا أن الليبرالية الروسية لعبت في إعداد هذه الكارثـة دور محرك السياسة الخارجية الملكية، ولم تكن في الصف الأخير أبدًا.

ولقد اعترف زعماء البرجوازية الروسية بمحض إرادتهم بأن حرب ١٩١٤ كانت حربهم الخاصـة. ففـي ٢٦ يوليـو (تموز) ١٩١٤، وخلال اجتماع حافل لدوما الدولة، صرح رئيس مجموع الكاديت بما يلي: "إننا لا نقدم شـروطًا أو مطالـب، ولكننا نلقي في كفة الميزان بكل إرادتنا الحازمة للانتصار على العدو"، وأصبح التحالف المقدس في روسـيا عقيـدة رسـمية. وخلال الاحتفالات الوطنية التي جرت في موسكو، تحدث رئيس التشريفات الكونت **بينكيندورف** أمام الدبلوماسيين فقال: "حسناً، فهل هذه هي الثورة التي توقع الجميع اندلاعها في برلين؟". وأردف السفير الفرنسي **باليولوغ** مؤيدًا: "ويبدو أن مثل هذه الفكرة استحوذت على جميع الحاضرين". وكان هؤلاء الأشخاص يعتقدون أن من واجبهم بذر وتغذية الأوهام، في وقت كان عليهم به أن لا يخدعوا أنفسهم.

ولم تلبث الدروس اللازمة لتبديد هذه النشوة أن ظهرت، فبعد بداية الحرب بفترة وجيزة تحدث المحامي **روديتشيف** – وهو إقطاعي من أكبر غلاة حزب الكاديت وأشدهم تعصبًا– أمام اللجنة المركزية لحزبه فقال: "ولكن هل تعتقدون أن بوسعنا تحقيق النصر بمثل هؤلاء الحمقى؟" وأثبتت الأحداث تعذر الانتصار إذا ما تربَّع الحمقى في سدة القيادة. ولما فقدت الليبرالية أكثر من نصف أملها بالنصر، فكرت باستغلال الوضع الناجم عن الحرب بغية تطهير البلاط، وإجبار الملكية على تقديم بعض التنازلات. وكان سلاحها الأساسي في هذه العملية اتهام حزب البلاط بممالأة الألمان والسعي لعقد صلح منفرد.

وفي ربيع ١٩١٥، وعندما كانت القطاعات المجردة من السلاح تنسحب على طول خط الجبهة، قررت الأوساط الحكومية العليا تحت إلحاح الحاجة وضغط الحلفاء، التوجه إلى الصناعة بغية تأمين متطلبات الجيش. وعقد لهذا الغرض مؤتمر خاص ضم البيروقراطيين وأكبر الصناعيين وأكثرهم تأثيرًا. وأصبحت **اتحادات الزيمستفو** والمدن التي خلقت في بداية الصراع، و**لجان الصناعات الحربية** المشكلة في ربيع عام ١٩١٥ **نقاط استناد البرجوازية** في نضالها من أجل النصر والسلطة. واعتمد مجلس دوما الدولة على هذه التنظيمات، فبدأ يتصرف بجرأة متزايدة كوسيط بين البرجوازية والملكية.

ولم تستطع الآفاق السياسية الواسعة تحويل الأنظار عن المعضلات الكبيرة الملحة. وبناء على مقترحات المؤتمر وزعت عشرات ومئات ملايين **الروبلات**، وفق قنوات متشعبة لتمويل الصناعة، واستفاد خلال عملية التوزيع عدد كبير من الأشخاص، وارتفعت الأرقام إلى الميارات، وعلم الرأي العام عن طريق الصحافة ومجلس دوما الدولة ببعض الأرباح الناجمة عن الحرب في فترة ١٩١٥ – ١٩١٦. وارتفعت أرباح **شركة النسيج** التي تمتلكها **عائلة ترِيابوشينسكي** -وهي عائلة ليبرالية موسكوفية- بمعدل ٧٥٪، كما ارتفعت أرباح **شركة المانيفاتورة تفير** بنسبة ١١١٪، وبلغت أرباح **شركة كولتشوغين لصناعة النحاس** ١٢ مليوناً من الروبلات خلال سنة واحدة، مع أن رأس مال الشركة لم يكن يتجاوز عشرة ملايين. وهكذا كانت الوطنية تنال في هذا المجال مكافأة مجزية فورية دون إبطاء.

وبلغت مختلف أشكال التلاعب ومضاربات البورصة ذروتها، وارتفعت الثروات الضخمة على بحر من الدم. وأحست العاصمة بنقص الخبز والمحروقات، ولكن هذا لم يمنع محل المجوهرات فابيرجيه –المختص ببيع المجوهرات للبلاط الإمبراطوري– من أن يعلن على رءوس الأشهاد بأنه حقق أرباحًا لم يعرفها من قبل. ولقد أعلنت **فيروبوفا** وصيفة الشرف الإمبراطورية بأن البلاد لم تشهد فترة كشتاء ١٩١٥ – ١٩١٦ تم فيها طلب هذه الكمية من الألبسة الفخمة، وشراء مثل هذا العدد من المجوهرات. وكانت الملاهي الليلية تغص بأبطال المؤخرة، والمتقاعسين، أي بأشخاص محترمين لا يسمح لهم سنهم بالذهاب إلى الجبهة، ولكنهم يحتفظون بقسط من الشباب يسمح لهم بممارسة حياة مرحة. ولم يكن أشقاء القيصر يتخلفون عن المشاركة في الوليمة المقدمة في زمن الطاعون (*). ولم يكن هناك من يحجم عن التبذير على نطاق واسع. وكانت أمطار ذهبية تتهاطل من علٍ بلا توقف. وكان المجتمع الراقي يمد يديه، ويفتح جيوبه كي "يقبض"، وكانت السيدات الأرستوقراطيات ترفعن أذيال أثوابهن على قدر المستطاع، وكان الجميع يسيرون في وحل مخضب بالدماء. أما أصحاب المصارف، والمدراء، والصناعيون، وراقصات الباليه المرتبطات بالقيصر وأخوته، ورجال الكنيسة الأرثوذكسية، وسيدات البلاط وآنساته، والنواب الليبراليون، وجنرالات الجبهة والمؤخرة، والمحامون الراديكاليون، وكبار المنافقين من الجنسين، وعدد لا يحصى من الأقارب وأبناء الأخوة والأخوات وبناتهم، فكانوا كلهم يحاولون البلع والسرقة بعجلة خوفًا من رؤية نهاية الأمطار الذهبية المرغوبة. ويرفضون بكل ازدراء فكرة تحقيق السلام قبل الأوان.

وأدت الأرباح المشتركة، والهزائم الخارجية، والأخطار الداخلية، إلى قيام تقارب وثيق بين أحزاب الطبقات المالكة. أما مجلس الدوما الذي انقسم على نفسه عشية الحرب، فقد وجد في عام ١٩١٥ غالبيته المعارضة الوطنية التي أخذت اسم "**الكتلة**

التقدمية". وكان الهدف الرسمي المعلن لهذه الكتلة: "تلبية مطالب الحرب". ولم يدخل في هذه الكتلة من أحزاب اليسار الاشتراكيون – الديمقراطيون، وحزب العمال. كما لم يدخل من أحزاب اليمين المجموعات الصغيرة الشهيرة مثل: **المائة السود** (الرجعية إلى أبعد حد ممكن). وضمت الكتلة كافة المجموعات الأخرى الممثلة في مجلس الدوما مثل: الكاديت، والتقدميين، ومجموعات الأكتوبريين الثلاث، والوسط، وجزء من الوطنيين. وانضمت إليها كافة المجموعات الوطنية: البولونية، والليتوانية، والإسلامية، واليهودية، وغيرها.

وخافت الكتلة من إثارة سخط القيصر، فلم تطلب منه وزارة مسئولة، بل طالبت "بحكومة موحدة مؤلفة من شخصيات تتمتع بثقة البلاد". ومنذ ذلك الحين وصف وزير الداخلية **الأمير شتشيرباتوف** هذه الكتلة بأنها مجموعة مؤقتة، أو "تحالف منبثق عن الخوف من اندلاع ثورة اجتماعية". ولم يكن فهم هذا الحكم بحاجة لفهم كبير. فلقد صرح **ميليوكوف** رئيس حزب الكاديت، ورئيس كتلة المعارضة، في أحد اجتماعات حزبه بما يلي: "إننا نسير على بركان... فلقد وصل التوتر إلى أعلى درجاته... ويكفي أن يلقي أحدهم عود ثقاب عن غير قصد حتى ينجم عن ذلك حريق رهيب... ومهما كانت السلطة –سيئة كانت أم جيدة– فإن السلطة الحازمة ضرورية اليوم أكثر من أي وقت مضى".

وتزايد الأمل بأن يضطر القيصر تحت إلحاح الكوارث وضغوطها إلى تقديم عدد من التنازلات، حتى ظهر في الصحافة الليبرالية خلال شهر أغسطس (آب) لائحة تضم مسبقًا أسماء "**وزارة الثقة**" وأشارت بعض الصحف إلى أن رئاسة الوزارة ستسند إلى **رودزيانكو** (رئيس الدوما) ولكن البعض الآخر توقع أن يكون رئيس الوزراء **الأمير لفوف** (رئيس اتحاد الزيمستفو)، وأن يكون **غوتشكوف** وزيرًا للداخلية، و**ميليوكوف** وزيرًا للخارجية، ...إلخ. وسنرى كيف أن معظم هذه الشخصيات التي عيّنت نفسها للتحالف مع القيصر ضد الثورة، شاركت بعد ١٨ شهرًا في حكومة أطلق عليها اسم **الحكومة "الثورية"**. وهذه سخرية من سخريات التاريخ. ولكن المزحة لم تدم طويلاً في الحقبة التي نتحدث عنها.

وكان خوف معظم **وزراء غوريميكين** من تطور الأحداث لا يقل عن خوف **الكاديت**؛ ولذا برز بينهم ميل للتفاهم مع الكتلة التقدمية. وفي أغسطس (آب) ١٩١٥ تحدث **الأمير شتشيربانوف** عن الوزارة التي يشغل فيها منصب وزير الداخلية فقال: "إن حكومة لا تتمتع بثقة السلطة الملكية، أو الجيش، أو المدن، أو الزيمستفو، أو النبلاء، أو التجار، أو العمال عبارة عن حكومة عاجزة لا عن العمل فحسب، بل عن البقاء أيضًا. والحماقة في تشكيلها واضحة جلية". وتحدث **سازونوف** عن هذا الأمر فقال "إذا ما تمت قيادة الأمور بشكل ملائم. وإذا ما فتحنا منفذًا ملائمًا، كان الكاديت أول الباحثين عن اتفاق معنا. إن **ميليوكوف** بورجوازي حقيقي، وهو يخشى الثورة الاشتراكية أكثر من أي شخص آخر. وبالإضافة إلى ذلك، فإن غالبية الكاديت ترتعد خوفًا على رءوس أموالها".

وقدر **ميليوكوف** أن على الكتلة التقدمية "أن تقدم بدورها بعض التنازلات". وهكذا ظهر الطرفان على استعداد للمساومة. واعتقد الكثيرون أن الأمور ستسير على غير ما يرام، ولكن رئيس مجلس الوزراء **غوريميكين** البيروقراطي الجليل القدر – والعجوز الوقح القاسي المُقامر الذي لم يكن يهتم بالسياسة إلا بين جولتين من جولات المقامرة، ويرفض كل شكوى قائلاً بأن الحرب "لم تعد تهمه"– ذهب في يوم ١٩ أغسطس (آب) إلى مقر القيادة العليا ليقابل القيصر، ويقدم له تقريرًا، ثم عاد من مقر القيادة العليا ليُعلن بأن على كل فرد أن يبقى في مكانه، باستثناء مجلس دوما الدولة الذي تبجح أكثر مما ينبغي، والذي سيعلق اجتماعه في ٣ سبتمبر (أيلول). ولم يلق إعلان بيان القيصر الذي ينص على تأجيل اجتماع الدوما أية معارضة؛ وصرخ النواب بصوت واحد: "هورا من أجل القيصر" ثم تفرقوا.

لقد اعترفت الحكومة القيصرية بنفسها بأنها لا تملك أي دعم أو تأييد، فكيف استطاعت الصمود بعد ذلك أكثر من ١٨ شهرًا؟ لا شك في أن النجاحات المؤقتة التي حققها الجيش الروسي أثَّرت في هذا الصدد تأثيرًا زاد من قوته وجود الأمطار الذهبية المجزية. ولم تلبث النجاحات على الجبهة أن توقفت، ولكن المكاسب على المؤخرة استمرت. ويرجع السبب الرئيسي في تدعيم الملكية قبل انهيارها بسنة كاملة إلى تباين أسباب سخط الشعب. ويقول رئيس الأمن العام في موسكو في أحد تقاريره بأن البرجوازية تتطور نحو اليمين؛ نظرًا "لأنها تتوقع تزايد الميول الثورية بعد الحرب". وهكذا نرى كيف كان الجميع لا يتوقعون اندلاع الثورة خلال الحرب. وكان من أشد الأمور التي أنذرت الصناعيين "وقوف عدد من قادة لجان الصناعات الحربية إلى جانب البروليتاريا بدافع الحذلقة". ولتلخيص كل ما قلنا نذكر أن العقيد الدركي **مارتينوف** الذي قرأ الكتب الماركسية بحكم وظيفته، وتفهمها بشكل جيد، أعلن أن بعض تحسن الموقف يعود إلى "التباين المتزايد بين الطبقات الاجتماعية. ذلك التباين الذي يكشف وجود تناقضات حادة في المصالح الخاصة، التي أخذت تظهر في المرحلة الحاضرة بكل وضوح".

وكان تأجيل اجتماع مجلس الدوما في سبتمبر (أيلول) ١٩١٥ تحديًا مباشرًا موجهًا إلى البرجوازية لا إلى العمال، ولكن في الوقت الذي تفرق فيه الليبراليون وهم يهتفون (بدون حماس كبير) "هورا من أجل القيصر" رد عمال بتروغراد وموسكو بإضرابات احتجاجية. وكان هذا "دُشًّا" باردًا جديدًا انهمر على رأس الليبراليين؛ إذ أن أخشى ما كانوا يخشونه هو تدخل طرف ثالث في نزاعهم الثنائي الداخلي مع الملكية. ولكن ماذا عليهم أن يفعلوا بعد ذلك؟ وتحت تأثير همهمة الجناح اليساري واحتجاجاته البسيطة قررت الليبرالية اختيار موقف مجرَّب من قبل: وهو البقاء في موقف الشرعية مهما كلف الأمر، وحمل أعباء الأعمال الوطنية لإفقاد البيروقراطية جزءًا من أهميتها، وجعلها جهازًا "بلا جدوى". وكان على الليبرالية على كل حال التخلي عن لائحة الوزارة الليبرالية التي طرحتها من قبل.

وتفاقم الوضع بعد ذلك بصورة آلية، ودُعي مجلس الدوما إلى الاجتماع من جديد في مايو (أيار) ١٩١٦. ولم يكن هناك من يستطيع تحديد فائدة هذا الاجتماع، ولم يكن مجلس الدوما، على كل حال، راغبًا بالمناداة بالثورة. كما لم يكن لديه ما يقوله أصلاً. ويقول **رودزيانكو** في مذكراته: "وكانت الجلسات خلال هذه الدورة خاملة لا حياة فيها، وكان النواب غير متحمسين لواجبهم... وبدا الصراع المستمر بلا جدوى؛ إذ لم تكن الحكومة راغبة بسماع أي شيء، وتزايدات الفوضى يومًا بعد يوم، وكانت البلاد تسير إلى حتفها". وهكذا كان خوف البرجوازية من الثورة، وعجزها المطلق إذا لم تندلع الثورة عاملاً ساعد الملكية، وأمَّن لها سندًا اجتماعيًّا طوال عام ١٩١٦.

وتزايد تدهور الموقف مع قدوم الخريف، وأحس الجميع بكل وضوح بأن الحرب غدت بلا أمل، وأصبحت نقمة الجماهير تهدد بالانفجار في كل لحظة. واستمر الليبراليون في هجومهم السابق على حزب البلاط واتهامهم له "بممالأة الألمان"، ولكنهم رأوا في الوقت نفسه أن عليهم سبر الموقف بعناية، كيما يروا إمكانية الوصول إلى السلم، خاصة وأنهم كانوا يعدون أنفسهم للمستقبل. وهذا ما يفسر المفاوضات التي جرت في ستوكهولم، خلال خريف ١٩١٦، بين النائب **بروتوبوبوف** أحد زعماء الكتلة التقدمية، والدبلوماسي الألماني **فوربورغ**.

وأحس وفد مجلس الدوما خلال زياراته الودية إلى فرنسا وإنكلترا أن الحلفاء الأعزاء ينوون استنزاف كافة القوى الروسية الحية خلال الحرب، وجعل هذه البلاد المتخلفة بعد الانتصار حقلاً أساسيًّا للاستغلال الاقتصادي. وكان المصير الذي ينتظر روسيا المحطمة السائرة وراء الحلفاء هو أن تصبح بعد النصر مستعمرة لحلفائها؛ ولذا لم يكن أمام الطبقات المالكة في روسيا سوى أن تحاول التخلص من القيود الشديدة التي تربطها مع دول التحالف، والبحث عن طريقها الخاص نحو السلام، مستخدمة خلاف الخصمين الهائلين. وكان لقاء رئيس وفد مجلس الدوما مع الدبلوماسي الألماني أول خطوة على هذا السبيل.

وكان لهذه الخطوة معنيان؛ فهي تهديد للحلفاء يستهدف الحصول على مزيد من التنازلات؛ وعملية سبر تحاول اكتشاف الإمكانيات الفعلية للتقارب مع ألمانيا. ولم يتصرف بروتوبوبوف ببداهته، بل حصل مسبقًا على موافقة الدبلوماسية القيصرية؛ (إذ تم اللقاء بوجود سفير روسيا في السويد)، بالإضافة إلى موافقة كافة أعضاء وفد مجلس دوما الدولة.

وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان الليبراليون يبغون من هذا الاستطلاع تحقيق أهداف داخلية كبيرة الأهمية، فلقد قالوا للقيصر بكل صراحة: سلمنا مقاليد الأمور وسنؤمن لك سِلمًا منفردًا أفضل من سِلم **ستورمر** وأشد ضمانًا. وكان مخطط بروتوبوبوف أو بالأحرى مخطط من أوحوا به لبروتوبوبوف، يرى بأن على روسيا أن تُعْلِم حلفاءها "قبل عدة أشهر"بالحاجة الملحة التي تدفعها إلى إنهاء الحرب، فإذا ما رفض الحلفاء البدء بمفاوضات السلام كان على روسيا عقد صلح منفرد مع ألمانيا. ويقول بروتوبوبوف في إحدى مذكراته التي كتبها بعد الثورة ما يلي: "لقد كان جميع العقلاء في روسيا، ومن بينهم كافة زعماء **حزب "الحرية للشعب"** **(الكاديت)** يرون بأن روسيا لم تعد في حالة تسمح لها بمتابعة الحرب".

وما أن عاد بروتوبوبوف إلى بلاده حتى قدَّم إلى القيصر تقريرًا عن رحلته وعن مباحثاته، فاستقبل القيصر فكرة السِلم المنفرد أحسن استقبال. ولكنه لم يرَ ضرورة مشاركة الليبراليين في هذا المشروع. وكان قبول بروتوبوبوف في شلة القصر الذي قطع علاقاته مع الكتلة التقدمية أمرًا صدفيًّا يمكن تفسيره بطبيعة هذا الغبي المتبجح الشغوف –حسب تعبيره– بالقيصر وزوجته، والمتعلق إلى حد بعيد بفكرة الوصول إلى منصب وزير الداخلية. ويفترض البعض أن بروتوبوبوف خان الليبرالية. ولكن هذا الافتراض لا يبدل شيئًا من الاتجاه العام للسياسة الخارجية التي سار عليها الليبراليون، والتي كانت مزيجًا من الجشع، والجبن، والخيانة.

وفي ١ نوفمبر (تشرين الثاني) اجتمع مجلس الدوما من جديد، ووصل هياج البلاد إلى درجة لا تحتمل، وانتظر الجميع قيام مجلس الدوما بأعمال حاسمة. وكان عليه أن يفعل أو يقول على الأقل شيئًا. ووجدت الكتلة التقدمية نفسها من جديد مضطرة إلى كشف الحقائق داخل البرلمان. وعندما صعد **ميليوكوف** إلى منصة المجلس ليعدد أعمال الحكومة، كان يقف عند كل نقطة ليتساءل: "هل هذه حماقة أم خيانة؟". ورفع بعض النواب أصواتهم. ولم تجد الحكومة من يدافع عنها، فردت على أقوال النواب بطريقها الخاصة؛ إذ منعت نشر الخطابات الملقاة في مجلس الدوما؛ فلم تلبث هذه الخطابات أن انتشرت بملايين النسخ. ولم تبقَ مصلحة عامة في المؤخرة والجبهة إلا واهتمت بطبع المناقشات المثيرة، بعد أن يضيف إليها الطابِع ما يلائم ميوله. وانتشرت المناقشات بشكل أرهب الجميع بما في ذلك النواب الذين قاموا بتوجيه هذه الاتهامات.

وهنا تحرك أقصى اليمين المتمثل بالبيروقراطية الشرسة التي تستوحي مواقفها من **دورنوفو** الرجعي الذي سحق ثورة ١٩٠٥، وقدم هذا اليمين إلى القيصر عريضة تتضمن برنامجًا. وكانت آراء هؤلاء الوجهاء المحنكين، الذين تمرسوا في المدرسة البوليسية، تعالج الأمور بدقة وبعد نظر. ولكن العلاج الذي قدموه بدا دون جدوى؛ لأنه لم يكن هناك أي دواء قادر على إنقاذ النظام القديم من أمراضه. وأعلن واضعو العريضة أنهم ضد تقديم أية تنازلات للمعارضة البرجوازية، ولم يكن ذلك ناجمًا عن اعتقادهم بأن الليبراليين يودون دفع مطالبهم إلى أبعد حد ممكن كما يعتقد المائة السود القابعون في أسفل درجات اليمين، والذين كان الوجهاء الكبار ينظرون إليهم بازدراء من علٍ. ولكنهم كانوا يرون بأن أسوأ ما في الأمر هو أن الليبراليين كانوا "ضعافًا إلى حد بعيد، ومنقسمين على بعضهم، وعلى غاية من الحماقة بشكل جعل انتصارهم مؤقتًا عديم الاستقرار".

وكانت نقطة ضعف حزب المعارضة الأساسي، أي حزب الدستوريين – الديموقراطيين (الكاديت) محددة بوضوح كما يلي: يطلق هذا الحزب على نفسه لقب ديموقراطي، مع أنه حزب بورجوازي، ولقد أدَّى وجود عدد كبير من الملاكين الليبراليين بين صفوفه إلى وضع فقرة في برنامجه تؤكد ضرورة إجبار الفلاحين على شراء الأراضي من جديد. ولقد كتب

المستشارون السريون بلهجة تكشف عاداتهم ما يلي: "فإذا ما جردنا الكاديت مما اقتبسوه من الأحزاب الأخرى وجــدنا أنهــم عبارة عن مجموعات من المحامين، والأساتذة، والموظفين في مختلف الوزارات، وكلهم ليبراليون لا أكثر".

ولكن البلاد كانت تضم ثوريين آخرين. وتعترف العريضة المرفوعة إلى القيصر بأهمية الأحزاب الثورية. ولا شك في أن واضعي الوثيقة صروا على أسنانهم غيظًا عندما كتبوا: "ويكمن خطر هذه الأحزاب وقوتها في أنها تمتلك فكرة ومــالاً(!)، وتتمتع بدعم الجماهير المستعدة المنظمة جيدًا". وتستطيع الأحزاب الثورية "الاعتماد على تعاطف غالبية الطبقة الفلاحية التــي ستسير وراء البروليتاريا عندما سيدفعها الزعماء الثوريون إلى الاستيلاء على أراضي الآخرين". فما هي نتيجة تــشكيل وزارة مسئولة أمام البرلمان في مثل هذه الأوضاع؟ إنها ستؤدي دون شك "إلى سحق أحزاب اليمين بصورة نهائية، واحتواء الأحزاب الوسطية (مثل: حزب الوسط، والمحافظين الليبراليين، والأكتوبريين، والتقدميين) بشكل متدرج من قِبل حزب الكاديــت الــذي سيأخذ في بداية الأمر أهمية حاسمة. ولكن هذا الحزب سيتعرض بعد ذلك للمصير نفسه... وماذا سيجري بعد ذلك؟ بعد ذلــك ستأتي الجماهير الثورية، **والكومونة**، وضياع الأسرة المالكة، ونهب ممتلكات الطبقات المالكة، وقيام **الموجيك** بأعمال الــسلب والنهب". ولا يمكننا أن ننكر هنا أن الغضب الرجعي البوليسي ارتفع في هذه العريضة إلى مستوى التوقعات التاريخية.

ولم يكن في برنامج العريضة الإيجابي أي جديد، ولكنه كان برنامجًا واضحًا متماسكًا، يتحدث عن: تشكيل حكومة تضم أشد أنصار الحكم الفردي المطلق إخلاصًا، وإلغاء مجلس الدوما، وإعلان الأحكام العرفية في العاصمتين؛ أي إعداد كافة القوى اللازمة لسحق أية انتفاضة. وكان هذا البرنامج بمجمله القاعدة السياسية الحكومية خلال الأشهر الأخيرة التي ســبقت الثــورة. ولكن نجاح هذا المخطط كان بحاجة لنفس القوى التي حصل عليها دورنوفو في شتاء ١٩٠٥، والتي لم تعد موجودة في خريف ١٩١٦؛ ولذا حاولت الملكية خنق البلاد دونما ضجيج، وذلك عن طريق تجزئة المقاومات. وأجريت بعض التعديلات الوزارية. ولم يدخل في الوزارة إلا كل من كان مخلصًا للقيصر وزوجته بشكل لا يقبل الشك. ولكن هذه الشخصيات "المواليــة" وعلــى رأسها المرتد بروتوبوبوف كانت ضعيفة تثير الشفقة. ولم يتم حل مجلس الدوما: واكتفى القيصر بتأجيل اجتماعاته من جديــد. وقررت الحكومة إعلان الأحكام العرفية في تاريخ محدد، ولكن الثورة حققت انتصارها قبل أن يأتي هذا التاريخ. أمــا القــوات المعدة لسحق الانتفاضة، فلقد وجدت نفسها منجذبة إلى القوى الثورية. وتأكدت كل هذه الحقائق بعد تقديم العريضة بــشهرين أو ثلاثة شهور.

وقامت الليبرالية في هذه الفترة بآخر جهودها لإنقاذ الوضع. وأيدت كافة منظمات البرجوازية الشرعية الخطابات التــي ألقتها المعارضة في نوفمبر (تشرين الثاني) داخل مجلس الدوما. وعبَّرت عن تأييدها بسلسلة من التصريحات الجديدة. وتمثلــت أهم مظاهر التأييد في المقررات التي اتخذها اتحاد المدن في ٩ ديسمبر (كانون الأول) وقال فيها: هناك مجرمــون مــسئولون وأوغاد يدفعون روسيا إلى الهزيمة، والعار، والعبودية"، ودعا مجلس دوما الدولة "إلى عدم إيقاف جلساته قبــل التوصــل إلــى تشكيل حكومة مسئولة". حتى أن مجلس الدولة نفسه، وهو جهاز بيروقراطي خاضع لكبار الملاك، أعلن تأييده للــدعوة القائلــة بضرورة تسليم السلطة لحكومة من الشخصيات التي تتمتع بثقة البلاد. وأعرب **مؤتمر الطبقة الأرستقراطية المتحدة** عن مثــل هذا التأييد. وأخذت الأحجار القديمة المغطاة بالطحالب تتكلم. ولكن هذا لم يبدل من الأمر شيئًا، ولم تترك الملكية بقايا الــسلطة الموجودة بين يديها.

وبعد تردد وجدل حدد موعد عقد آخر دورة لآخر مجلس دوما في ١٤ فبراير (شباط) ١٩١٧. وبقي على موعد اندلاع الثورة أقل من ١٥ يومًا. وكان وقوع المظاهرات منتظرًا في كل لحظة. ونشرت **صحيفة "ويتس"** الناطقة بلسان حزب الكاديت بلاغًا أصدره الجنرال **خابالوف** قائد الفيلق المعسكر في بتروغراد يمنع فيه المظاهرات، كما نشرت في العدد نفسه رسالة مــن

ميليوكوف يحذر العمال فيها من النصائح السيئة الخطيرة" القادمة من "مصادر مشوهة". وبالرغم من المظاهرات الصاخبة فقد انعقد مجلس الدوما وسط هدوء نسبي. وتظاهر هذا المجلس بعدم اهتمامه بمسألة السلطة، وأخذ يهتم بمسألة عملية، ولكنها تتمتع بأهمية بالغة، وهي مسألة التموين. وكانت الجلسات خاملة لا حياة فيها –كما كتب ذلك رودزيانكو فيما بعد– "وكان الجميع يحسون بعجز مجلس الدوما وتقاعسه في ممارسة نضال لا جدوى منه"، وردد ميليوكوف أن الكتلة التقدمية "ستعمل بالكلمات وبالكلمات فقط" وبهذا الشكل دخل مجلس الدوما في دوامة ثورة فبراير (شباط).

الهوامش

(١) الأوخرانا Oxpaha: الشرطة السياسية السرية في روسيا القيصرية. - المعرب -

(*) يشير المؤلف هنا إلى قصيدة شهيرة للشاعر الروسي الكسندر بوشكين. (ملاحظة مترجم النص الروسي)

البروليتاريا والفلاحون

سارت البروليتاريا الروسية أولى خطواتها في الظروف السياسية لدولة تسلطية؛ لذا فقد تمرَّست في مدرسة الإضرابات الممنوعة قانونيًّا، والحلقات السرية، والمطالب غير الشرعية، والتظاهر في الشوارع، والصِدام مع الشرطة وقطاعات الجيش. وكانت هذه المدرسة النِتاج الطبيعي لوجود تطور رأسمالي سريع، وسلطة مطلقة تتخلى عن مواقعها ببطء بالغ. وأدَّى تجمع العمال في مصانع ضخمة، وقمع الدولة المركز، والزخم الناجم عن نمو بروليتاريا فتية مليئة بالنشاط، إلى جعل الإضراب السياسي -النادر في الغرب- وسيلة أساسيَّة من وسائل الصراع في روسيا. وتعتبر أرقام الإضرابات العمالية منذ بداية هذا القرن دلائل هامة بالنسبة لتاريخ روسيا السياسي. ونحن لا نود هنا إثقال النص بالأرقام، ولكننا لا نجد مندوحة عن ذكر جداول الإضرابات السياسية في روسيا في الفترة الواقعة بين ١٩٠٣ و١٩١٧. فإذا ما أعدنا هذه الأرقام إلى معناها البسيط، وجدنا أنها تتعلق بالمشروعات الخاضعة لإشراف مراقبة المصانع، علمًا بأن السكك الحديدية، والصناعات المَنْجَمِيَّة والتعدينية، ومختلف الحِرف، والمشروعات الصغيرة بصورة عامة، والزراعة، لا تدخل في هذا الحساب لأسباب متعددة. ومع هذا فإن منحى الإضرابات يأخذ شكله بكل وضوح.

السنوات	عدد المُضْرِبين السياسيين (بالآلاف)
١٩٠٣	٨٧ (*)
١٩٠٤	٢٥ (*)
١٩٠٥	١٨٤٣
١٩٠٦	٦٥١
١٩٠٧	٥٤٠
١٩٠٨	٩٣
١٩٠٩	٨
١٩١٠	٤
١٩١١	٨
١٩١٢	٥٥٠
١٩١٣	٥٠٢
١٩١٤	(في الأشهر الستة الأولى) ١٠٥٩
١٩١٥	١٥٦
١٩١٦	٣١٠
١٩١٧	(يناير وفبراير) ٥٧٥

وإننا لنملك هنا منحًى وحيدًا في شكله يحدد الحرارة السياسية لأمة تحمل في أعماقها ثورة كبيرة؛ ففي هذا البلد المتخلف الذي لا يضم عددًا كبيرًا من البروليتاريا -في المشروعات الخاضعة لمراقبة المصانع- حوالي ١,٥ مليون عامل في عام

١٩٠٥، وحوالي مليوني عامل في عام ١٩١٧! أخذت حركة الإضراب سعة لم تُعرف من قبل في أي بلد من بلاد العالم. وأدَّى ضعف الديمقراطية البرجوازية الصغيرة، وتبعثر الحركة الفلاحية وعماها السياسي، إلى اعتبار الإضـــراب العمـــالي الثـــوري الأداة الأساسية التي تستخدمها الأمة في فجر يقظتها لتدمير أسوار الحكم المطلق. ومن المؤكد أن مليونًا و٨٤٣,٠٠٠ شـــخص اشتركوا في الإضرابات السياسية خلال عام ١٩٠٥ وحده، (يُعتبر العمال الذين اشتركوا في أكثر مـــن إضـــراب كمـــضربين ويحسب عددهم في كل مرة)، ويكفي النظر إلى هذا الرقم حتى نحدد بكل وضوح سنة الثورة، حتى ولو كُنَّا لا نعرف أي شيء آخر عن الأحداث السياسية في روسيا.

وفي عام ١٩٠٤، وهو أول أعوام الحرب الروسية - اليابانية، لم تسجل مراقبة المصانع أكثر من ٢٥,٠٠٠ مـــضرب. وفي عام ١٩٠٥ كان عدد المشتركين في الإضرابات السياسية والاقتصادية معًا حوالي مليونين و٨٦٣,٠٠٠ شخص أي أكثـــر من عدد المضربين في السنة السابقة بـــ ١١٥ مرة. وتدل هذه القفزة الهائلة على أن البروليتاريا المدفوعة تحت ضغط الأحداث إلى ابتداع هذا النشاط الثوري العنيف الذي لم يعرف من قبل، كانت مضطرة لأن تشكل من بين صفوفها -مهما كلف الأمـــر- تنظيمًا يتلاءم مع حجم الصراع، وسعة المهمات المنتظرة؛ وهكذا ظهرت إلى الوجود **سوفييتات (مجالس) الثورة الأولى،** التي غذَّت تنظيمات الإضراب العام، والنضال في سبيل الاستيلاء على السلطة.

وعلى الرغم من هزيمة البروليتاريا خلال انتفاضة ديسمبر (كانون الأول) ١٩٠٥، فإنها بذلت جهودًا بطوليـــة للحفـــاظ على جزء من المواقع التي وصلت إليها في السنتين التاليتين، اللتين تدل أرقام الإضرابات على ارتباطهما بالثورة بشكل وثيـــق، رغم أنهما سَنَتَا تراجع ثوري. وتشير أرقام الإضرابات في سنوات (١٩٠٨ – ١٩١١) إلى أن هذه الفترة كانـــت فتـــرة ثـــورة مضادة ظافرة. وجاءت الأزمة الصناعية في هذه الفترة لتزيد إنهاك البروليتاريا النازفة إلى أبعد مدى. وكـــان عمـــق الـــسقوط مشابهًا لارتفاع التحليق السابق. ويمكننا أن نكشف انتفاضة الأمة بمجرد النظر إلى هذه الأرقام.

واستعادت الحياة الصناعية نشاطها اعتبارًا من عام ١٩١٠، ووقف العمال على أقدامهم من جديد، واكتسب نشاطهم دفعة جديدة. وتتشابه أرقام ١٩١٢ - ١٩١٤ مع مُعطيات ١٩٠٥ - ١٩٠٧ مع فارق واحد هو أن أرقام ١٩١٢ - ١٩١٤ متزايـــدة، على حين أن أرقام ١٩٠٥ - ١٩٠٧ متناقصة. وانطلق هجوم ثوري جديد من قواعد تاريخية جديدة أعلى؛ إذ زاد عدد العمـــال في هذه الفترة واكتسبوا خبرة أكبر. ويتشابه حجم الإضرابات في الأشهر الستة الأولى من عام ١٩١٤ مع حجم إضرابات السنة التي حددت ذروة الثورة الأولى، ولكن اندلاع الحرب أوقف مسيرة هذا التطور بشكل مفاجئ. وشهدت الأشهر الأولى ركـــودًا في عمل الطبقة العمالية السياسي. وما أن جاء ربيع ١٩١٥ حتى تبدد هذا الخمول، وبدأت حلقة جديدة من الإضرابات السياسية التي أدَّت إلى انتفاضة العمال والجنود في فبراير (شباط) ١٩١٧.

وأدَّى مدُّ النضال الجماهيري وجذره العنيفين المفاجئين إلى تبديل شكل البروليتاريا خلال عدة سنوات، وإعطائها شـــكلاً آخر لم تعرفه من قبل. وهناك مصانع لم تُحجِم قبل سنتين عن الإضراب الشامل احتجاجًا على بعض أعمال العسف البوليـــسية، ولكنها فقدت الآن كل مظاهر الروح الثورية، وأصبحت تتجاهل أحط جرائم السلطات ولا ترد عليها بأي احتجاج. إن الهـــزائم الكبيرة تثبط الهمم لفترة طويلة، وتفقد العناصر الثورية تأثيرها على الجماهير، ويبرز على سطح وعي هذه الجمـــاهير أفكـــار مسبقة، وخزعبلات لم يتم التخلص منها بعد بشكل نهائي. وتختلط الجماهير الجاهلة القادمة حديثًا من الريف مع العمال، فتفقـــد الصفوف العمالية تماسكها وتركيزها، ويهز المتشائمون رءوسهم بسخرية. وهذا ما شهدته البلاد فـــي فتـــرة ١٩٠٧ - ١٩١١. ولكن حركة التطور الجزئي داخل الجماهير تشفي الجروح النفسيَّة الناجمة عن الهزائم. ويؤدي أي منعطف جديد للأحـــداث، أو

أي دفع اقتصادي قوي إلى خلق دورة سياسية جديدة. عندها تجد العناصر الثورية من يستمع إليها، ويرتفع النضال إلى مستوًى أعلى.

ولفهم التيارين الأساسيين في الطبقة العمالية الروسية ينبغي علينا أن نعرف بأن المنشفية تشكلت خلال سنوات الرجعية والتراجع الثوري معتمدة على شريحة صغيرة من العمال الذين قطعوا صلتهم بالثورة. على حين تعرضت البلشفية لسحق رهيب خلال فترة الرجعية، ثم ارتفعت بسرعة مذهلة خلال السنوات التي سبقت الحرب حتى وصلت إلى ذروة المد الثوري الجديد. وتقول تقارير مديرية الشرطة عن نشاط البلاشفة في السنوات التي سبقت الحرب ما يلي: "إن أكثر العناصر فاعلية، وحماسًا، وقدرة على النضال بلا تعب، واستعدادًا للمقاومة والتنظيم المستمر، موجودة في المجموعات والأفراد المتحلِّقين حول **لينين**...".

وفي يوليو (تموز) ١٩١٤، عندما كان الدبلوماسيون يدقون آخر المسامير في الصليب الذي ستصلب عليه أوروبا، كانت بتروغراد تعيش حالة غليان ثوري كامل. ولا شك في أن رئيس الجمهورية الفرنسية **بوانكاريه** قد سمع آخر أخبار معركة الشوارع مع أول انفجار المظاهرات الوطنية، وذلك عندما حضر إلى بتروغراد ليضع تاجًا على قبر **ألكسندر الثالث**.

فهل كان من المحتمل أن تؤدي **الحركة الهجومية الجماهيرية** في ١٩١٢ - ١٩١٤ إلى سقوط القيصرية لولا اندلاع الحرب؟ إننا عاجزون عن الرد على هذا السؤال بشكل مؤكد. فلقد كان تطور الأحداث يسير نحو الثورة بلا جدال. ولكن ما هي المرحلة التي كان علينا في هذه الحالة أن نجتازها؟ أفلم يكن من المحتمل إصابتنا بهزيمة جديدة؟ وما هو الوقت الذي كان على العمال أن يعملوا خلاله بغية رفع الفلاحين واكتساب الجيش؟ ولا يسعنا وسط مثل هذه الاتجاهات إلا أن نُمعن في التفكير. وعلى كل حال فقد أدَّت الحرب في بداية الأمر إلى إبطاء التطور، ثم زادت سرعته في المرحلة التالية بشكل ملحوظ، وحققت له نصرًا ساحقًا.

وما أن دارت عجلة الحرب حتى توقفت الحركة الثورية، وعبأت الحكومة المجموعات العمالية الفعالة وأعدتها للحرب، وانتزعت خِيرة العناصر الثورية من المصانع وأرسلتها إلى الجبهة، وبدأت تقمع الإضرابات بعنف بالغ، وعطَّلت الصحف العمالية، وخنقت النقابات. واستخدمت المصانع والورشات مئات الآلاف من النساء والفتيان والفلاحين، وجاءت الحرب مع انهيار الأممية فأفقدا الجماهير كل اتجاه سياسي، وسمحا لمدراء المصانع الذين رفعوا رءوسهم بإجراء أحاديث وطنية باسم مصانعهم، واجتذاب جزء لا بأس به من اليد العاملة، وإسكات أجرأ العمال وأكثرهم تصميمًا، وتضاءلت شعلة الثورة حتى غدت لهيبًا خافتًا في الحلقات الصغيرة التي آثرت الصمت. ولم يكن هناك من يجرؤ على الاعتراف في المصانع بأنه "بلشفي" كي لا يعتقله العمال المتخلفون، أو يمارسوا ضده مختلف أنواع العنف.

ولم تكن المجموعة البلشفية الصغيرة في مجلس الدوما على مستوى مهمتها عندما أعلنت الحرب. ولقد اتفقت هذه المجموعة مع النواب المناشفة وقدمت اقتراحًا تعلن فيه بأنها ستعمل على "**حماية الممتلكات الثقافية للشعب ضد كل اعتداء مهما كان مصدره**"، ووافق أعضاء الدوما على هذا الاستسلام بتصفيق حاد. ولم يأخذ أي تنظيم من تنظيمات الحزب ومجموعاته موقفًا مكشوفًا معاديًا للحرب مثل الموقف الذي نادى به لينين في الخارج. ومع هذا فقد كان عدد الوطنيين بين صفوف البلاشفة محدودًا جدًا. وفي هذه الأثناء بدأ بعض الشعبيين والمناشفة وبلاشفة عام ١٩١٤ الدعاية الثورية بين الجماهير عن طريق الصحافة والخطابة. ولم يلبث نواب الدوما أن تخلصوا من ذهولهم وعادوا إلى عملهم الثوري الذي كانت الحكومة مطلعة على كل تفصيلاته بفضل فروع مصالح استخباراتها. ويكفي أن نقول بأن **ثلاثة** من أعضاء لجنة الحزب السبعة في بطرسبورغ كانوا في عشية الحرب عملاء "للأوخرانا". وهكذا لعبت القيصرية مع الثورة بكل سهولة.

وفي نوفمبر (تشرين الثاني) تم اعتقال النواب البلاشفة. وشنت الحكومة حملة شعواء لتدمير الحزب في طول البلاد وعرضها. وفي فبراير (شباط) ١٩١٥ تعرضت **المجموعة البلشفية البرلمانية للمحاكمة**، وتصرف المتهمون بتحفظ وحرص. ووقف **كامنييف** مُنَظِّر المجموعة ضد موقف لينين المعادي للحرب، وحذا حذوه **بتروفسكي** الذي يشغل اليوم منصب رئيس **اللجنة التنفيذية المركزية في أوكرانيا**. وأعلنت مديرية الشرطة بكل رضى بأن الأحكام القاسية التي صدرت ضد النواب لم تُثر أية حركة احتجاجية بين صفوف العمال.

وبدا وكأن الحرب قد جرفت الطبقة العمالية. وكان هذا صحيحًا إلى حد ما؛ ذلك لأن المصانع جددت اليد العاملة في بتروغراد بنسبة ٤٠٪. وانقطع الاستمرار الثوري بشكل مفاجئ. واختفت أشياء كثيرة كانت قبل الحرب معروفة جدًا، وخاصة المجموعة البلشفية في مجلس الدوما، التي أصبحت في طي النسيان. وتحت المظاهر المخادعة للهدوء والوطنية، وتأييد الملكية تكونت المشاعر الملائمة لانفجار جديد.

وفي أغسطس (آب) ١٩١٥، تحدث نواب القيصر عن أن العمال "يبحثون في كل مكان لاكتشاف الخيانة، وعملاء الألمان، والتخريب الذي يجري لصالح العدو. وأنهم يبحثون بشغف لكشف المسئولين عن نكساتنا على الجبهة". والحقيقة أن روح النقد استيقظت في هذه الفترة بين صفوف الجماهير، وظهرت هذه الروح بشكل واضح أو مُمَوَّه وكأنها تعمل لصالح "الدفاع عن الوطن"، ولم تكن هذه الفكرة أكثر من نقطة انطلاق. وجاءت نقمة العمال قبل عمليات الخرق التي ازدادت عمقًا، وأسكتت أصحاب الأعمال و"المائة السود" المنحدرين من أوساطهم، وسمحت للكادحين البلاشفة أن يرفعوا رءوسهم.

وانتقلت الجماهير من النقد إلى العمل. ووجدت النقمة والتذمر أول مخرج لهما في الاضطرابات الناجمة عن نقص المئونة، والتي أخذت هنا وهناك شكل عصيانات محلية. وأحس الشيوخ والنساء والفتيان في السوق أو في الساحة العامة بأنهم أكثر تحررًا وجرأة من العمال المعبئين في المصانع. وانحرفت الحركة في موسكو خلال شهر مايو (آيار)، وانقلبت إلى عملية نهب شملت البيوتات الألمانية. وبالرغم من أن معظم المشتركين في النهب كانوا من حثالة المدينة العاملين تحت إشراف الشرطة، فإن وقوع أعمال العنف في موسكو الصناعية يؤكد بأن العمال لم يكونوا آنذاك قد استيقظوا لدرجة تجعلهم قادرين على فرض شعاراتهم وانضباطهم على سكان المدينة البسطاء الذين فقدوا اتزانهم. وانتشرت الاضطرابات الناجمة عن سوء التموين في طول البلاد وعرضها؛ فبدد هذا الأمر سحر الحرب، وفتح الطريق أمام الإضرابات.

وأدى تدفق اليد العاملة غير المؤهلة إلى المصانع، وتسابق الرأسماليين الجنوني نحو الأرباح الناجمة عن الحرب، إلى تفاقم خطورة ظروف العمل واستخدام أساليب استغلالية وحشية. وأدى ارتفاع أسعار الحاجيات إلى انخفاض آلي بقيمة الأجور. وكانت الإضرابات الاقتصادية رد الفعل المحتوم للجماهير، وجاءت هذه الإضرابات عنيفة نظرًا لمنعها طوال فترة طويلة من الزمن. وصاحب الإضرابات اجتماعات، وعرائض سياسية، واشتباكات مع السلطة، وطلقات نارية، وسقوط عدد من الضحايا.

وبدأ النضال في المنطقة المركزية لصناعة النسيج. وفي ٥ يونيو (حزيران) أطلق رجال الشرطة رشقة نارية على عمال النسيج في **كوستروما**. ونجم عن الحادث سقوط أربعة قتلى وتسعة جرحى. وفي ١٠ أغسطس (آب) أطلقت وحدات عسكرية النار على عمال **إيفانوفو - فوزنيسنسك** فسقط من جراء ذلك ١٦ قتيلاً و٣٠ جريحًا. واتُّهم عدد من جنود الكتيبة المتمركزة في المنطقة بالمشاركة في حركة عمال صناعة النسيج. ورد الشعب على أحداث إيفانوفو – فوزنيسنسك بإضرابات احتجاجية صاخبة، واندلع في الوقت نفسه نضال اقتصادي. وكان عمال النسيج يسيرون غالبًا في الصفوف الأولى.

ولكن مقارنة عنف الحركة ووضوح شعاراتها مع معطيات حركة النصف الأول من عام ١٩١٤ تدل على أن مستوى الحركة الجديدة أقل من مستوى سابقتها، وليس هذا غريبًا: فلقد جذب تيار النضال عددًا كبيرًا من الجماهير الجاهلة، على حين كانت الشرائح العمالية القيادية تعيش حالة من الاضطراب الكامل. ومع هذا فلقد أحسَّ الجميع بسعة المعارك المقبلة وخطورتها منذ أن اندلع أول إضراب خلال الحرب. وفي ١٦ أغسطس (آب) أعلن وزير العدل **خفوستوف** ما يلي: "ولا يقوم العمال الآن بمظاهرات مسلحة لأنهم لا يملكون تنظيمًا". وعبر **غوريميكين** عن رأيه بشكل أكثر دقة عندما قال: "وتكمن المسألة بالنسبة لزعماء العمال في ضعف التنظيم الذي تفتت بعد اعتقال خمسة من نواب مجلس الدوما". وأضاف وزير الداخلية إلى ذلك قوله: "يستحيل العفو عن أعضاء مجلس الدوما (من البلاشفة) لأنهم يشكِّلون مركز تنظيم الحركة العمالية أثناء مظاهراتها الخطرة". حقًا لقد كان هؤلاء الأشخاص قادرين على اكتشاف مكمَن الخطر الحقيقي.

وفي لحظات الهياج القصوى، كانت الوزارة مستعدة لتقديم التنازلات الليبرالية، ولكنها كانت ترى بأن عليها أن تتابع ضرب رأس الثورة العمالية، أي حزب البلاشفة. وفي هذه الفترة عملت البرجوازية الكبيرة كل ما في وسعها للتعاون مع المناشفة، وخاف الصناعيون الليبراليون من سعة الإضرابات، فحاولوا فرض انضباط وطني على العمال، وقبلوا ممثليهم المنتخبين في لجان الصناعات الحربية، واشتكى وزير الداخلية من عجزه عن معارضة بداهة **غوتشكوف** إلا بصعوبة فقال: "ويتم طرح هذه المسألة كلها تحت شعار الوطنية، وباسم مصالح الدفاع". وهنا لا بُدَّ من الإشارة إلى أن الشرطة نفسها كانت تتجنب اعتقال الاشتراكيين – الوطنيين، وترى فيهم حلفاء غير مباشرين يساعدونها في الصراع ضد الإضرابات و"التطرف" الثوري. وبالغت أجهزة الأمن في اعتمادها على قوة الاشتراكية - الديمقراطية، فتشكل لديها من جراء ذلك قناعة أكيدة بعدم اندلاع أية انتفاضة طالما أن الحرب دائرة.

وعندما جرت انتخابات **لجنة الصناعات الحربية** حصل أنصار **الدفاع الوطني** وعلى رأسهم عامل التعدين النشيط **غفوزديف** -الذي سنراه وزيرًا للعمل في الوزارة الثورية الائتلافية- على أقلية المقاعد، رغم أنهم تمتعوا بمختلف أنواع الدعم الذي لم تقدمه البرجوازية الليبرالية وحدها، بل ساعدتها البيروقراطية على تقديمه، بغية قلب أحزاب الحصار الخاضعة لقيادة البلاشفة، وإجبار بروليتاريا بتروغراد على انتخاب ممثليها من المجموعات الوطنية الصناعية. وأعرب المناشفة عن موقفهم بكل وضوح في خطاب ألقاه أحد ممثليهم بعد ذلك أمام الصناعيين في اللجنة نفسها، فقال: "عليكم أن تجبروا السلطة البيروقراطية القائمة حاليًّا على الانسحاب من المسرح، تاركة المكان لكم، أنتم ورثة النظام الحالي". وتزايدت هذه الصداقة السياسية الفَتِيَّة يومًا بعد يوم. وأعطت في اليوم التالي للثورة ثمارًا ناضجة.

ودمرت الحرب التنظيمات السرية إلى حد بعيد، ولم يعد لدى البلاشفة تنظيم مركزي بعد أن أوقفت الحكومة المجموعة البرلمانية. وكان وجود اللجان المحليَّة محدودًا، ولم تكن هذه اللجان لتتصل دائمًا مع لجان النواحي، وجاء العمل من المجموعات المبعثرة، وحلقات الأفراد المنعزلين، ولكن حركة الإضرابات التي بدأت تتزايد باستمرار أعطت المجموعات المختفية في المصانع بعض الزخم. وأخذت هذه المجموعات تتقارب ويرتبط بعضها مع البعض الآخر، واستمر العمل سريًّا. وتقول أحد تقارير مديرية الشرطة ما يلي: "إن أنصار لينين الذين يقودون معظم التنظيمات الاشتراكية - الديمقراطية السرية في روسيا، قد نشروا منذ بداية الحرب في مراكزهم الأساسية (بتروغراد، وموسكو، وخاركوف، وكييف، وطولا، وكوستروما، وسامارا) كمية كبيرة من المنشورات الثورية التي تطالب بإنهاء حالة الحرب وقلب النظام الحالي، وإعلان الجمهورية. ونجم عن هذا النشاط نتيجة هامة هي دفع العمال إلى تنظيم الإضرابات والاضطرابات".

وفي ٩ يناير (كانون الثاني) ١٩١٦ أعلن العمال الإضراب على نطاق واسع بمناسبة الذكرى التقليدية لمسيرة العمال نحو قصر الشتاء. علمًا بأن هذه الذكرى مرت في السنة السابقة بكل هدوء. وارتفعت شدة الحركة الإضرابية في هذه السنة إلى الضِعف. وكانت الإضرابات القوية المصممة تنتهي بصدامات مع رجال الشرطة، ولكن موقف العمال من قطاعات الجيش كان وديًّا إلى حد بعيد. ولقد أشارت أجهزة الأمن إلى هذه الظاهرة الخطيرة أكثر من مرة.

وتضخمت الصناعات الحربية إلى حد بعيد، واستهلكت كل ما حولها من موارد، مدمرة بذلك مرتكزاتها الضرورية. وبدأت فروع الصناعة السلمية بالذبول. ولم يؤد تنظيم الاقتصاد العام إلى أية نتيجة رغم كافة الخطط والمشروعات. ولكن البيروقراطية العاجزة عن تنفيذ هذه المهمة أمام عقبات لجان الصناعات الحربية القوية، رفضت التخلي عن دورها كمنظم، وإلقاء هذه المهمة على عاتق البرجوازية. وتزايدت الفوضى إلى حد بعيد. واستبدل العمال المحنكون بعمال جدد. ولم تلبث مصانع بولونيا ومعاملها ومناجم الفحم فيها أن ضاعت. وخسرت البلاد في السنة الأولى للحرب حوالي خُمْس (١/٥) مصادرها الصناعية. وخصص ٥٠٪ من الإنتاج لتلبية متطلبات الجيش والحرب، كما خصص لهذه المهمة ٧٥٪ من الأقمشة المنسوجة في البلاد. وكانت المواصلات المرهقة بالمطالب عاجزة عن تزويد المصانع بالكميات اللازمة من المحروقات والمواد الأولية. ولم تستهلك الحرب كافة الدخل الوطني السائل فحسب، بل أخذت تبدد ثروة البلاد ورأس مالها الأساسي أيضًا.

وأخذ الصناعيون يرفضون بالتدريج تقديم التنازلات للعمال، وتابعت الحكومة استخدام العنف ضد كل إضراب؛ وهذا ما نقل التفكير العمالي من الخاص إلى العام، ومن الاقتصادي إلى السياسي. "إن علينا أن نعلن الإضراب معًا بآن واحد". وهكذا انبثقت من جديد فكرة الإضراب العام. وتدل الأرقام بكل وضوح على تطور عملية الجماهير وسيرها على خط أكثر راديكالية؛ ففي عام ١٩١٥ كان عدد المشتركين في الإضرابات السياسية أقل من عدد المشتركين في الإضرابات الاقتصادية بمرتين ونصف المرة. وفي عام ١٩١٦ انخفض الفرق إلى مرتين، وفي الشهرين الأولين من عام ١٩١٧ ضمت الإضرابات السياسية ستة أضعاف عدد المشتركين في الإضرابات الاقتصادية. ويمكن تحديد الدور الذي لعبته بتروغراد من الرقم التالي: كان ٧٢٪ من المضربين السياسيين خلال سنوات الحرب من عمال العاصمة!

واستطاعت نار النضال إحراق كثير من المعتقدات القديمة. وأعلنت مديرية الأمن في أحد تقاريرها "بكل ألم" بأنه لو تم التصرف وفق القانون "في كل مرة يتم فيها ارتكاب الجرائم العلنية ضد جلالة الإمبراطور، لارتفع عدد القضايا المبنية على المادة ١٠٣ إلى رقم لم يعرف من قبل". ومع هذا فقد تأخر وعي الجماهير بالنسبة لحركتها؛ لأن الضغط الهائل الناجم عن الحرب والفوضى أدَّى إلى الإسراع بمسيرة النضال بشكل لم يعط للجماهير العمالية الواسعة الوقت الكافي للتخلص من الأفكار والأحكام القادمة من الريف، أو من عائلات البرجوازية الصغيرة الحضرية. ولقد وضعت هذه الحقيقة بصمتها على الأشهر الأولى من ثورة فبراير (شباط).

وفي نهاية عام ١٩١٦ ارتفعت تكاليف الحياة بقفزات واسعة، وساد التضخم المالي واضطراب المواصلات، ثم زاد عليهما نقص البضائع، ونقص الاستهلاك في هذه الفترة إلى نصف حجمه المعتاد. ورسم منحى الحركة العمالية ارتفاعًا مفاجئًا. ومنذ شهر أكتوبر (تشرين الأول) ١٩١٦ دخل الصراع مرحلة حاسمة. ووحَّدت بتروغراد كل أنواع التذمر، واستندت على هذا المنطق لتقوم فبراير (شباط) الكبرى. وعجّت المصانع بالاجتماعات المتتالية. وكانت المواضيع المطروحة على بساط البحث هي: التموين، وغلاء المعيشة، والحرب، والحكومة. وانتشرت منشورات البلاشفة. واندلعت الإضرابات السياسية. وتجمعت عند مداخل المصانع مظاهرات غير معدة بشكل مسبق. وكثيرًا ما تآخى عمال بضع المصانع مع الجنود. وانفجر إضراب عنيف احتجاجًا على محاكمة البحارة الثوريين من أسطول البلطيق. وعلمت السفارة الفرنسية بوقوع حادث فتح فيه الجنود النار

على رجال الشرطة، فلفتت انتباه رئيس الوزراء **ستورمر** إلى خطورة هذا الحادث. وطمأن ستورمر السفير بقوله: "سيكون القمع قاسيًا بلا هوادة". وفي نوفمبر (تشرين الثاني) استنفرت الحكومة عددًا من عمال بتروغراد، وعبأتهم، وأرسلتهم إلى الجبهة. وانتهت السنة وسط العواصف والأعاصير.

وقارن **فاسيلييف** قائد مديرية الشرطة الوضع مع الأوضاع التي سادت في عام ١٩٠٥ فتوصل إلى نتائج غير مطمئنة، "لقد تزايدت روح المعارضة بين صفوف الجماهير خلال فترة الأحداث المذكورة أعلاه حتى وصلت إلى درجة غير متوقعة". ولم يعد فاسيلييف يعتمد على حامية الموقع. وبدت له قوات الحرس المتحرك نفسها غير مضمونة بشكل كافٍ. وأشارت مديرية الأمن إلى ظهور شِعار الإضراب العام وطرحه من جديد، واحتمال العودة إلى الأعمال الإرهابية. وكان الضباط والجنود العائدون من الجبهة يقولون عن الوضع القائم ما يلي: "لِم البحث والتفتيش؛ طالما أنه لم يعد أمامنا سوى أن نطعن هذا الفاسد بالحراب؟. فإذا ما أقمنا هنا فإن من المؤكد أن إقامتنا لن تكون طويلة...".

ويتحدث عامل التعدين **شليابنيكوف** -وهو أحد أعضاء اللجنة المركزية للبلاشفة- عن أن العمال كانوا يعيشون في هذه الأيام حالة هياج عصبي واضح: "وكان يكفي في بعض الأحيان أن تنطلق صفارة، أو يتبادل الناس إشاعة، حتى يعتقد العمال أنهم تلقوا إشارة البدء بالعمل". وتتمتع هذه الملاحظة التفصيلية بأهمية بالغة نظرًا لأنها تكشف مظهرًا سياسيًّا، وصِفة نفسيَّة. فلقد كانت الثورة تنتظر بعصبية إشارة النزول إلى الشارع.

ومرت الأقاليم بالمراحل نفسها، ولكن سرعة تطور الأحداث كانت أصغر من سرعتها في العاصمة. وأدَّت كثافة الحركة واستعدادها القتالي إلى مركز الثقل من عمال صناعة النسيج إلى عمال التعدين، ومن الإضرابات الاقتصادية إلى الإضرابات السياسية، ومن الأقاليم إلى بتروغراد. وشهد الشهران الأولان من عام (١٩١٧) ٥٧٥,٠٠٠ مضرب سياسي، وكانت حصة الأسد من نصيب العاصمة. ورغم قيام الشرطة بعملية قمع شديدة في عشية ٩ يناير (كانون الثاني)، فقد شهدت بتروغراد بمناسبة هذا اليوم الدامي إضرابًا ضم ١٥٠,٠٠٠ عامل. وكانت الأفكار مضطربة إلى حد بعيد، وسار البحارة في المقدمة، وتزايد إحساس العمال بأن التراجع غدا متعذرًا. وتشكلت في كل مصنع نواة عمل وصدمة، التفت في أغلب الأحيان حول البلاشفة. وتتابعت الإضرابات والاجتماعات بلا انقطاع خلال الأسبوعين الأولين من شهر فبراير (شباط). وفي يوم ٨ استقبل عمال **مصنع بوتيلوف** رجال الشرطة "برشقات من قطع الحديد والفحم" وفي يوم ١٤، أي يوم انعقاد مجلس الدوما، أضرب في بتروغراد ٩٠,٠٠٠ عامل، وأغلقت عدة مصانع أبوابها في موسكو. وفي يوم ١٦ قررت السلطات استخدام "**بطاقات الخبز**" في العاصمة، وزاد هذا التصرف الجديد من حدة الهياج والتوتر. وفي يوم ١٩ تجمَّع قرب مخازن الأطعمة عدد كبير من الجماهير معظمها من السناء، وأخذت تطالب بالخبز. وفي اليوم التالي انقض الأهالي في بعض أحياء العاصمة على المخابز ونهبوها. وكانت هذه الأحداث البرق المنذر بقدوم الانتفاضة التي لم تلبث أن انفجرت بعد عدة أيام.

* * *

ولم تستمد البروليتاريا جرأتها الثورية من قوتها الذاتية. وكان وضعها كأقلية داخل الأمة يؤكد على أنه لم يكن بوسعها إعطاء نضالها مثل هذا الاتساع، كما لم يكن بمقدورها بالأحرى استلام مقاليد أمور الدولة؛ لو أنها لم تجد دعمًا قويًّا في قلب الجماهير الشعبية. وكانت دعوتها لحل المسألة الزراعية السبب في حصولها على هذا الدعم.

ففي عام ١٨٦١ تم تنفيذ تحرير الفلاحين النصفي وسط اقتصاد ريفي لا يختلف مستواه عن المستوى الذي شهده خلال القرنين السابقين. وأدَّى الحفاظ على الأملاك القديمة للأراضي المشاع بعد اقتطاع أجزاء منها بصورة غير مشروعة خلال

عملية الإصلاح، مع استخدام أساليب الزراعة القديمة، إلى زيادة حِدَّة أزمة كثافة السكان في الأرياف، والتي كانت أزمة نظام الدورة الزراعية خلال ثلاث سنوات. وأحست الطبقة الفلاحية بقسوة الفخ الذي وقعت فيه؛ لأن العملية تمت في القرن التاسع عشر لا في القرن السابع عشر. أي في ظروف أخذت فيها النقود دورًا اقتصاديًّا متقدمًا، وفرضت على الأساليب البدائية متطلبات لا يمكن أن تتقبلها إلا الجرارات الحديثة. ونلاحظ في هذا المجال أيضًا تطابق درجات غير متساوية من التطور التاريخي؛ نجم عنها فيما بعد تناقضات حادة جدًا.

وتحدث عدد من الاقتصاديين وعلماء الزراعة عن أن الأراضي الزراعية كافية تمامًا إذا ما تم استثمارها بشكل جيد. وكان هذا يعني دعوة الفلاح إلى إجراء قفزة واحدة تحقق له مستوى أعلى من التقنية والثقافة، دون أن يتعارض ذلك مع مصالح الإقطاعي النبيل، وقائد الشرطة والقيصر. ولكننا لا نعرف نظامًا اقتصاديًّا، وعلى الأخص لا نعرف نظامها زراعيًّا متخلفًا تخلَّى عن الأرض قبل أن يستنزف كافة إمكاناتها. وكان على الفلاح قبل البدء باستخدام أساليب الزراعة الكثيفة أن يجرب زيادة سعة استثماره عن طريق الدورة الزراعية خلال ثلاث سنوات. ولم يكن ليستطيع ذلك دون الاستيلاء على الأرض التي لا يمتلكها. وكان على الموجيك المخنوق، الشاعر بالضيق فوق المساحات الشاسعة التي يشغلها، والمسحوق تحت أعباء الضريبة والسوق، أن يعمل كل ما في وسعه لينتهي من مالك الأرض النبيل إلى الأبد.

ففي عشية الثورة الأولى، كانت المساحة الكليَّة للأرض الصالحة للزراعة في روسيا الأوروبية ٢٨٠ مليون دسياتين[١] وكانت مشاعات الفلاحين تشغل ١٤٠ مليونًا منها، وكان خمسة ملايين ممنوحة من قِبل القيصر، وكانت الكنائس والأديرة تمتلك مليونين و٥٠٠,٠٠٠ دسياتين. وكان هناك ٣٠,٠٠٠ من كبار ملاك الأراضي يملك كل واحد منهم أكثر من ٥٠٠ دسياتين، ويبلغ مجموع ما يملكونه ٧٠ مليون دسياتين، أي ما يعادل مجمل ما تمتلكه ١٠ ملايين عائلة فلاحية. وكانت هذه الإحصائيات الزراعية تمثل برنامجًا جاهزًا لحرب فلاحية.

ولم تستطع الثورة الأولى تصفية الحساب مع الإقطاعيين النبلاء. ولم تثر الجماهير الفلاحية كلها دفعة واحدة. ولم تتطابق الحركة في الأرياف مع الحركة في المدن. ولم يتجرأ الجيش المكوَّن من غالبية فلاحية على اتخاذ قرار حاسم، وانتهى بأن قدم قطعات كافية لسحق العمال. وما أن انتصر **فوج الحرس الإمبراطوري سيمينوفسكي** على الانتفاضة في موسكو، حتى أسقطت الملكية من حسابها فكرة انتزاع جزء من الملكية الزراعية الكبيرة أو الحد من امتيازاتها الفردية المطلقة.

ولكن الثورة المسحوقة لم تمض دون أن تترك أثرها على الحياة في الأرياف؛ إذ ألغت الحكومة الديون التي سجلت في عام ١٨٦١ على حساب الفلاحين، في سبيل إعادة شراء الأراضي، وقدمت إمكانات جديدة للهجرة إلى **سيبيريا**. وخاف ملاك الأراضي من كل ما وقع، فخفضوا أجور الأراضي الزراعية، وأخذوا يبيعون إقطاعياتهم بعد تقسيمها. ونجم عن الثورة فوائد اغتنمها الفلاحون الموسرون القادرون على استئجار الأرض وزراعتها، أو شراء الأراضي من كبار الإقطاعيين.

وكان القانون الصادر في ٩ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٠٦ إصلاحًا أساسيًّا من إصلاحات الثورة المضادة الظافرة، وواحدًا من أكبر التسهيلات الرامية لتشكيل مجموعة من المزارعين الرأسماليين وسط الطبقة الفلاحية. ولقد أعطى القانون الحق لعدد قليل من الفلاحين بأن يقتطعون لأنفسهم من الأرض في كافة المشاعيات قطعة أرض مستقلة حتى ولو لاقى ذلك معارضة الأغلبية. فبدا وكأنه قنبلة أطلقها المعسكر الرأسمالي ضد المشاعيات. وعرَّف رئيس الوزراء **ستوليبين** السياسة الحكومية الجديدة إزاء المسألة الزراعية بما يلي: "أنها مراهنة على الأقوى". وهذا يعني دفع الشريحة العليا من الفلاحين للاستيلاء على أراضي المشاعيات عن طريق شراء حصص الأرض الممنوحة "التي غدت مستقلة"، وتحويل المزارعين الرأسماليين إلى قوة

تدعم النظام. وهكذا حاولت الثورة المضادة استبدال المسألة الزراعية بمسألة مصير **الكولاك** (الفلاحين الموسرين)، فأدَّت هذه المحاولة إلى دق عنقها.

وفي ١ يناير (كانون الثاني) ١٩١٦، كان مليونان ونصف المليون من المزارعين قد امتلكوا مزارع خاصة بلغت مساحتها الإجمالية ١٧ مليون دسياتين. وطالب مليونان آخران بـ ١٤ مليون دسياتين. وكان بوسع السير على هذا السبيل تشكيل انتصار رائع للإصلاح. ولكن معظم المزارع المفصولة عن المشاعيات كانت محرومة من الحيوية، ولا تمثل سوى عناصر معرضة للاختيار الطبيعي المحتوم. وأخذ الملاكون المتخلفون والفلاحون الفقراء يبيعون بصورة متزايدة مزارعهم، وقطع الأرض التي يمتلكونها، وكان معظم المشترين من البرجوازية الريفية الجديدة. وسار الاقتصاد الزراعي على طريق رأسمالي واضح. وتزايدت الصادرات الزراعية الروسية، وارتفعت خلال خمس سنوات (من عام ١٩٠٨ حتى عام ١٩١٢) من مليار روبل إلى مليار ونصف المليار. وهذا يعني أن الجماهير الفلاحية الواسعة أخذت تنحو منحى البروليتاريا وتأخذ شكلاً عماليًا على حين بدأت العناصر الريفية الغنية تلقي في الأسواق كمية متزايدة من القمح.

واختفت الروابط الإجبارية لنظام المشاعيات في القرى، وحل محلها بسرعة نظام التعاون الطوعي الذي استطاع خلال عدة سنوات التغلغل بعمق بين صفوف الجماهير الفلاحية، وتبنَّته الليبرالية والديمقراطية بسرعة بالغة، ودافعتا عنه. ولكن القوة الأساسية في التعاونيات كانت بيد الفلاحين الموسرين الذين كانوا أكبر المستفيدين في نهاية المطاف. أما المثقفون الشعبيون الذين ركزوا قواهم الرئيسية على التعاون الزراعي، فقد وجهوا حبهم للشعب نحو خط البرجوازية المتين. وعلى هذا الشكل تم إعداد **كتلة الحزب الاشتراكي - الثوري** "المضاد للرأسمالية" مع حزب الكاديت الذي هو حزب الرأسمالية من الطراز الأول.

وحافظت الليبرالية على مظاهر معارضة السياسية الرجعية في مجال الزراعة. ولكنها كانت تنظر بأمل كبير لتدمير المشاعية الزراعية على يد الرأسمالية. ولقد كتب الليبرالي الأمير بروبتسكوي ما يلي "وتتشكل في الأرياف برجوازية صغيرة قوية تختلف بطبيعتها وتكوينها عن المثل العليا لطبقة النبلاء المتحدة، كما تختلف عن الأحلام الاشتراكية أيضًا".

ولكن لهذه الميدالية الرائعة وجهًا آخر، إذ لم ينفصل عن المشاعيات الزراعية "برجوازية صغيرة قوية فحسب" بل انفصل عنها أيضًا نقيضها. وفي بداية الحرب ارتفع عدد الفلاحين الذين باعوا حصص أرضهم التي لا تصلح للحياة إلى مليون فلاح، وهذا يعني خمسة ملايين من السكان الكادحين السائرين على طريق التحول إلى بروليتاريا. وكان هناك متفجرات احتياطية قوية تتمثل بملايين الفلاحين المعدمين الذين لا يجدون أمامهم سوى العيش على أرضهم حياة الكفاف والمجاعة. وظهر وسط الطبقة الفلاحية من جراء ذلك تناقضات عطلت من قبل تطور المجتمع الروسي البورجوازي بمجمله.

ودعمت البرجوازية الريفية الجديدة الملاكين القدامى الذين يفوقونها قوة. ووقفت من الجماهير الفلاحية موقفًا عدائيًا صريحًا يشبه الموقف الذي أخذه الإقطاعيون القدامى إزاء الشعب كله.

وكانت البرجوازية الريفية الجديدة بحاجة لنظام قوي مستقر يؤمن لها تثبيت مكتسباتها قبل أن تصبح هذه البرجوازية قوة فعَّالة لدعم النظام؛ ولذا فليس من المستغرب في مثل هذه الظروف أن تطرح المسألة الزراعية بصورة ملحَّة حادَّة في كافة مجالس دوما الإمبراطورية. وكان الجميع يحسون بأن الكلمة الأخيرة لم تُقل بعد. ولقد أعلن النائب الفلاحي بتريتشنكو في مجلس الدوما ما يلي: "يمكنكم متابعة مناقشاتكم كما تريدون، ولكنكم عاجزون عن خلق كرة أرضية جديدة؛ لذا فإن عليكم أن تقرروا منحنا الأرض التي نعيش عليها". ولم يكن هذا الفلاح بلشفيًا أو اشتراكيًا ثوريًا، بل كان نائبًا ملكيًا من نواب اليمين.

وهدأت الحركة الفلاحية في نهاية عام ١٩٠٧، مع تناقص مد الإضرابات العمالية. ولم تلبث هذه الحركة أن استيقظت جزئيًا في عام ١٩٠٨، ثم أخذت تتزايد وتقوى خلال السنوات التالية. ولكن جزءًا كبيرًا من الصراع تحول إلى داخل حياة المشاعيات الزراعية، واعتمدت الحسابات الرجعية على هذا الواقع. وشهدت البلاد عددًا كبيرًا من الصدامات بين الفلاحين المسلحين خلال توزيع أراضي المشاعيات الزراعية، ولكن هذا لم يقلل حدة الصراع ضد الملاك الزراعيين النبلاء. وأخذ القرويون يحرقون بلا هوادة قصور السادة، ومحصولاتهم، وأكداس التبن، ولا يستثنون ممتلكات الفلاحين الموسرين الذين بنوا أعشاشهم المنعزلة رغم إرادة المشاعيات الزراعية.

هكذا كان حال الأرياف عندما اندلعت نار الحرب، وأرسلت الحكومة إلى الجبهة حوالي ١٠ ملايين فلاح ومليوني حصان؛ فضعفت المشاريع الزراعية التي لم تكن في الأصل قوية. وتزايد عدد الأشخاص الذين لا يملكون أرضًا لزراعتها. وفي السنة الثانية للحرب تدهور وضع الفلاحين المتوسطين، وتزايدت كراهية الفلاح للحرب شهرًا بعد شهر. وفي أكتوبر (تشرين الأول) ١٩١٦، قدمت مديرية درك بتروغراد تقريرًا قالت فيه بأن القرويين فقدوا إيمانهم بالنصر في هذه الحرب. وتؤكد أحاديث عملاء التأمين، والمدرسين، والتجار، وغيرهم من الأشخاص "أن الجميع ينتظرون انتهاء هذه الحرب الملعونة بفارغ الصبر"، علاوة على ذلك فقد كان الناس يناقشون القضايا السياسية في كل مكان، ويصوتون على مقررات ضد الملاك الزراعيين النبلاء، والتجار. وتقوم مختلف التنظيمات بخلق الخلايا... ولا يوجد حتى الآن مركز واحد، ولكن علينا أن نفكر بأن الفلاحين سيجدون وحدتهم عبر التعاونيات التي تتزايد ساعة بعد أخرى في كافة أرجاء روسيا". وفي هذا التقرير كثير من المبالغات. فقد استبق تقرير مديرية الدرك الأحداث، ولكن تحليله كان صحيحًا في جوهره.

ولم يكن بوسع الطبقات المالكة أن تتجاهل احتمال قيام الأرياف بتقديم لائحة الحساب، ولكنها كانت تحاول طرد الأفكار القديمة؛ آملة حل الأمور بشكل أو آخر. ولقد تحدث السفير الفرنسي باليولوغ بهذا الصدد خلال الحرب مع وزير الزراعة السابق كريفوشيئيف، ورئيس الوزراء السابق كوكوفتسيف، والمالك الزراعي الكبير الكونت بوبرينسكي، ورئيس مجلس دوما الإمبراطورية رودزيانكو، والصناعي الكبير بوتيلوف، وعدد من الشخصيات المرموقة؛ فاستنتج من محادثاته كلها ما يلي: إن تحقيق إصلاح جذري في المسألة الزراعية يتطلب استخدام جيش دائم يضم ٣٠٠,٠٠٠ مسَّاح خلال ١٥ سنة على الأقل. ولكن عدد الاستثمارات الزراعية سيرتفع خلال هذه الفترة إلى ٣٠ مليونًا؛ فتفقد كافة الحسابات الأوَّلية من جراء ذلك قيمتها. وهكذا كان الملاك الزراعيون النبلاء، وكبار الوجهاء، ورجال المال، يرون أن الإصلاح الزراعي عبارة عن مسألة هندسية لا حل لها. وغني عن الذكر أن مثل هذه الاهتمامات الخاصة بعلماء الرياضيات كانت بعيدة كل البعد عن عقلية الموجيك. وكان الفلاح يرى أن من الضروري البدء قبل كل شيء بإخضاع السيد الإقطاعي، ثم العمل بعد ذلك على بحث كافة الأمور الأخرى.

ويرجع بقاء الأرياف هادئة نسبيًا خلال سنوات الحرب إلى وجود القوى الفلاحية الفعالة في جبهة القتال. ولم ينس الجنود مسألة الأرض أبدًا، وخاصة عندما لم يعودوا يفكرون بالموت. وتشبعت أفكار الموجيك عن المستقبل برائحة البارود التي تملأ الخنادق. ومع هذا، لم تكن الطبقة الفلاحية -رغم تدربها على استخدام السلاح- قادرة وحدها على تحقيق الثورة الزراعية الديمقراطية، أي الثورة التي تبغيها. وكانت بحاجة ماسة لقيادة. ولأول مرة في التاريخ العالمي اتخذ الفلاح من العامل دليلاً. وهذا هو الشيء الأساسي الذي يميز الثورة الروسية بشكل واضح عن كافة الثورات التي سبقتها.

لقد اختفت القنانة في إنكلترا عمليًا مع نهاية القرن الرابع عشر، أي قبل استخدام روسيا لهذا الأسلوب بقرنين، وقبل إلغائه في روسيا بأربعة قرون ونصف. واستمرت عملية استيلاء الطبقة الفلاحية الإنكليزية على الأرض خلال إصلاح وثورتين، وامتدت حتى القرن التاسع عشر. ولم يتعرض تطور الرأسمالية الإنكليزية لأي ضغط خارجي؛ لذا فقد وجد الوقت اللازم لوضع حد لاستقلالية القرويين، قبل أن تستيقظ البروليتاريا وتبدأ الحياة السياسية بزمن بعيد.

وفي القرن الثامن عشر استطاع الصراع ضد الملكية المطلقة، والأرستوقراطية، وأمراء الكنيسة في فرنسا إجبار مختلف شرائح البرجوازية على تنفيذ ثورة زراعية جذرية متدرجة على مراحل. وما أن وصل الفلاحون الفرنسيون إلى استقلالهم حتى غدوا -ولفترة طويلة- قوة داعمة مضمونة بيد البرجوازية. وفي عام ١٨٧١ ساعد هؤلاء الفلاحون البرجوازية على سحق الكومونة.

وظهرت البرجوازية الألمانية عاجزة عن تقديم حل ثوري للمسألة الزراعية، وسلمت الفلاحين في عام ١٨٤٨ للسادة الريفيين، تمامًا مثلما فعل لوثر قبل أكثر من ثلاثة قرون عندما ترك المعدمين الثائرين لقمة سائغة بين يدي أمراء الإمبراطورية. ومن جهة أخرى، كانت البروليتاريا الألمانية في منتصف القرن التاسع عشر أضعف من أن تستلم قيادة الطبقة الفلاحية؛ لذا حصل تطور الرأسمالية في ألمانيا على فترة لا تعادل الفترة التي تمتعت بها الرأسمالية الإنكليزية، ولكنها كانت كافية لإخضاع الاقتصاد الزراعي الذي خرج من ثورة برجوازية غير متكاملة.

وكان إصلاح وضع الفلاحين الروس في عام ١٨٦١ عملاً من أعمال ملكية يقودها النبلاء والموظفون تحت ضغط متطلبات المجتمع البورجوازي، وكانت البرجوازية آنذاك ضعيفة سياسيًّا إلى حد بعيد. وكانت طبيعة تحرر الفلاحين قد جعلت تحول البلاد السريع على طريق الرأسمالية يقلب المسألة الزراعية إلى مسألة الثورة. وكان البورجوازيون الروس يحلمون بتطور زراعي على غرار التطور الفرنسي أو الدانماركي أو الأمريكي، أو على غرار أي تطور آخر باستثناء التطور الروسي، ولكنهم لم يفكروا أبدًا بالإفادة من التاريخ الفرنسي في الوقت الملائم، أو دراسة التكوين الاجتماعي في أمريكا. وتجاهل المثقفون الديموقراطيون ماضيهم الثوري، ولم يقفوا في الساعة الحاسمة مع الأرياف الثورية، بل وقفوا إلى جانب البرجوازية الليبرالية، وملاك الأراضي النبلاء؛ لذا كانت الطبقة العمالية في هذه الظروف الطبقة الوحيدة القادرة على قيادة الثورة الفلاحية.

ويتمثل قانون التطور المشترك للبلاد المتخلفة -بمعنى أن تشترك به العناصر المتخلفة مع العوامل المتقدمة جدًا- بالنسبة لنا بشكل متكامل واضح، ويقدم مفتاح لغز الثورة الروسية. فلو أن المسألة الزراعية الموروثة من البربرية وتاريخ روسيا القديم وجدت حلها على يد البرجوازية، وانتهت إلى صيغة ملائمة، لما توصلت البروليتاريا الروسية إلى الاستيلاء على السلطة في عام ١٩١٧. ولكي يتم تأسيس الدولة السوفييتية كان لا بُدَّ أن يقترب ويدخل بآن واحد عاملان تاريخيان مختلفان كل الاختلاف هما: حرب فلاحية؛ أي حركة تحدد فجر التطور البورجوازي، وانتفاضة بروليتارية؛ أي حركة تبشر بغروب مجتمع البرجوازية. ويرتسم عام ١٩١٧ كله في هذه الحقيقة.

الهوامش

(*) تتعلق أرقام ١٩٠٣ و١٩٠٤ بكافة الإضرابات التي كان معظمها دون شك إضرابات اقتصادية.

(١) دسياتين "Gecrtnha" مقياس زراعي يعادل ١,٠٩٢٥ هكتار. (المعربان).

القيصر وزوجته

لا يستهدف هذا الكتاب بأية حال من الأحوال إجراء أبحاث نفسية مستقلة يحاول البعض في هذه الأيام اللجوء إليها بدلاً من إجراء التحليل الاجتماعي والتاريخي. ويتجه حقل مراقبتنا الأساسي قبل كل شيء نحو القُوى الكُبرى المحرِّكة للتاريخ، والتي تتسم بأنها أعلى من مستوى الأشخاص، وتعتبر الملكية إحدى هذه القوى. ولكن جميع هذه القوى تعمل عن طريق وسائل شخصية. وترتبط الملكية بالشخصية الفردية نظرًا لأن مبدأها يفرض عليها ذلك؛ ومن هنا يأتي تبرير الاهتمام بشخصية الحاكِم الذي وضعه التطور التاريخي في مواجهة الثورة. وإننا لنأمل أن نكشف فيما بعد، ولو جزئيًّا، حدود الأمور الفردية داخل الفرد نفسه –وهي في أغلب الحالات حدود أضيق مما يبدو للبعض– وقد لا تكون "الصفة الخاصة" في كثير من الظروف سوى الطابع الفردي لقانون عام أعلى من ذلك.

لقد ورث **نيقولا الثاني** عن أسلافه إمبراطورية واسعة، كما ورث الثورة أيضًا. ولم يكن هذا القيصر يتمتع بالصفات اللازمة لحكم إمبراطورية، أو مقاطعة، أو مجرد ناحية صغيرة. ولم يأبه آخر قياصرة أسرة **رومانوف** بالجزر التاريخي الذي كانت أمواجه الهادرة تقترب من باب القصر يومًا بعد يوم، وجابه هذا الجزر بلا مبالاة كاملة وكأن بين عقليَّته وعصره حاجزًا خفيفًا، ولكنه كَتِيم لا يمكن النفوذ منه.

وما أن انتهت الثورة حتى تحدثت الشخصيات التي عاشرت القيصر عن أنه كان يحتفظ بكامل هدوئه في أحرج لحظات حكمه وأكثرها مأساوية، مثل: سقوط **بورت آرثور**، وغرق الأسطول الروسي في **تو – شيما**، وقيام الجيش الروسي بعد عشر سنوات بقتال تراجعي طويل، والتخلي عن **غاليسيا**، والأيام التي سبقت التنازل عن العرش. وكان الإمبراطور يتابع الاهتمام بطول المسافة التي قطعها في رحلاته عبر روسيا، ويذكر حوادث الصيد التي شهدها من قبل، ويتحدث عن بعض القصص الطريفة الخاصة بالمآدب الرسمية، أي أنه كان يهتم بتفاهات حياته العادية، رغم هدير الرعد فوق رأسه، وظهور البرق الخاطف في سمائه. ولقد تساءل أحد الجنرالات المقربين للقيصر: "ماذا يعني كل هذا؟ هل هو تمالك رائع للنفس يرجع إلى التربية، والإيمان المطلق بالقدرة الإلهية، أم أنه نقص في وعي الأحداث؟" ويتضمن السؤال في حد ذاته نصف الجواب. ولا يمكن اللجوء إلى مجرد الترويض السطحي لتفسير ما يسمونه "تربية" القيصر، وقدرته على ضبط نفسه في الظروف العصيبة. فقد كان في أعماقه لا مبالاة داخلية أكيدة، وفقر كبير بالقوى المعنوية، وضعف في قوة الإرادة. وكان قناع اللامبالاة الذي يطلق عليه في بعض الأوساط اسم "التربية" يختلط بصورة طبيعية مع ملامح نيقولا نفسها.

وتتمتع مذكرات القيصر الشخصية في هذا الصدد بأهمية تفوق كل شهادة أخرى. وكانت هذه المذكرات تحمل على مدى الأيام والسنين التعابير الدالة على فراغه المعنوي. "وتنزهت طويلاً وقتلت غرابين. وتناولت الشاي قبل أن يحل الظلام" وهكذا تصادفنا في مذكراته النزهات سيرًا على الأقدام، والتجذيف، ومزيد من الغربان المقتولة، ويلي ذلك تناول الشاي وكلها أمور لا تتجاوز حدود القضايا المادية البحتة. وتتحدث المذكرات عن الاحتفالات الدينية بلهجة تماثل لهجة الحديث عن حفلات السُكْر.

وفي عشية افتتاح مجلس دوما الإمبراطورية، وعندما كانت البلاد كلها تعيش حالة غليان واضح، كتب نيقولا ما يلي: "١٤ أبريل (نيسان)، تنزهت بقميص شفاف، وعدت إلى التجذيف. وتناولت الشاي على الشرفة، وجذفت **ستانا** معنا ثم شاركتنا العشاء. ولجأت بعد ذلك إلى القراءة". وليس هناك كلمة واحدة عما قرأه: فهل قرأ رواية عاطفية إنكليزية، أم تقريرًا من تقارير الشرطة؟ "١٥ أبريل (نيسان)، قبلت استقالة **ويت**. تعشى معنا اليوم **ماري وديميتري**، ثم عادا إلى القصر بالعربة".

وفي اليوم الذي تقرر به تأجيل انعقاد مجلس الدوما!، وعندما كان كبار الوجهاء وعدد كبير من أفراد الدوائر الليبرالية يعيشون حالة قلق وخوف من تطور الأمور، كتب القيصر في مذكراته الشخصية ما يلي: "٧ يوليو (تموز) الجمعة. صبيحة مليئة بالمشاغل. تأخرت نصف ساعة عن حضور غذاء الضباط... وهبَّت عاصفة ثقيلة، وكان الجو خانقًا. تنزهنا معًا. استقبلت **غوريميكين**، ووقعت المرسوم الخاص بتعطيل اجتماعات مجلس الدوما. تعشيت عند **أولغا وبيتيا**، وقرأت طوال السهرة". إن إشارة التعجب المكتوبة بعد نبأ تعطيل اجتماعات مجلس الدوما، تمثل أقصى انفعالات القيصر.

وتبعثر نواب الدوما، وأخذوا يحثون الشعب على رفض دفع الضرائب، والتخلف عن أداء الخدمة العسكرية. ووقع عدد من حركات التمرد العسكرية في **سفيابورغ، وكرونشتادت**، وعلى المراكب الحربية، وفي ثكنات القطعات البرية. وعرف الإرهاب الثوري الموجه ضد كبار الشخصيات تزايدًا ملحوظًا لم يُعهد من قبل. ووسط هذا الجو كتب القيصر: "٩ يوليو (تموز) الأحد. لقد تم العمل! ومجلس الدوما اليوم مغلق. وعندما جلسنا للغداء بعد تأدية مراسيم الصلاة لاحظت عددًا من الوجوه المقطبة... الجو بديع. قابلنا خلال النزهة **العم ميشا**، الذي جاء البارحة من **غاتشينا** للإقامة هنا. ولقد عملت حتى حلول موعد العشاء، كما عملت طوال السهرة بكل هدوء، وتنزهت بالقارب". إن تنزهه بالقارب أمر مفهوم. ولكن بِمَ عمل؟ إنه لا يتحدث عن ذلك والأمر متشابه في كل مرة.

ولننظر بعد ذلك إلى ما كتبه في الأيام الحاسمة: "١٤ يوليو (تموز). ارتديت ملابسي، وامتطيت دراجتي للذهاب إلى حمام السباحة. ونزلت إلى البحر بكل سرور". "١٥ يوليو (تموز) استحميت في البحر مرتين. وكان الجو شديد الحرارة. تعشيت مع زوجتي منفردين. لقد مرت العاصفة". "١٩ يوليو (تموز). نزلت إلى البحر هذا الصباح. استقبال في المزرعة. قابلت **العم فلاديمير وتشاغين** على مائدة الغداء". أما الانتفاضات وحركات العصيان والتمرد، وانفجارات الديناميت فقد أشار القيصر إليها بما يلي: "أما الأحداث، فهي شيء جميل!" ولكم يصاب المرء بالدهشة أمام هذه اللامبالاة المتدنية التي لم تصل إلى مستوى السخرية الماجنة الواعية.

"وفي الساعة التاسعة والنصف قمنا بزيارة **فوج القزوين**... وتنزهت فترة طويلة. الجو رائع. نزلت إلى البحر. واستقبلت **لفوف وغوتشكين** بعد تناول الشاي". وليس هناك كلمة واحدة تشير إلى أن سبب الاجتماع الاستثنائي مع هذين الليبراليين كامنٌ في محاولة **ستوليبين** إجراء تعديل وزاري، وضم بعض سياسيي المعارضة إلى وزارته. ثم تحدث الأمير لفوف–الذي غدا فيما بعد رئيسًا للحكومة المؤقتة– عن هذا الاجتماع، فكتب ما يلي: "كنت أنتظر أن أرى القيصر غارقًا في الحزن، ولكنه تقدم نحوي بحركة خفيفة وهو يبتسم، ولم يكن أكثر من فتى مرح في قميص قرمزي".

ولم تكن أبعاد نظر القيصر لتتجاوز أبعاد نظر أي موظف بسيط في دائرة الشرطة. مع فارق بسيط هو أن رجل الشرطة كان يعرف الوضع العملي بشكل أفضل منه، ولم يكن مثله متقلاً بأعباء الخزعبلات والأوهام. وكانت الصحيفة الوحيدة التي قرأها نيقولا خلال سنوات، واستقى منها أفكاره، عبارة عن جريدة تنشرها وزارة المالية، ويشرف عليها **الأمير ميشتشيرسكي**، وهو شخص سافل، مبتذل يحتقره الجميع حتى أفراد وسطه، وصحفي يعمل في خدمة طغمة الرجعيين البيروقراطيين. ولم يبدل القيصر من وجهات نظره خلال حربين وثورتين: وكان بين عقليته والأحداث الجارية حاجز كتيم من اللامبالاة.

وكان الناس على حق عندما لقبوا القيصر بلقب "نيقولا القدري". وهنا لا بُدَّ من إضافة أن قدريته لم تكن إيمانًا فعالاً "بحظه". كلا، فقد كان نيقولا يعتبر نفسه شخصًا فاشلاً. وكانت قدريته نوعًا من الدفاع السلبي أمام التطور التاريخي، يرافقها تحيز ينبع من دوافع نفسية تافهة، ولكنه ينعكس على شكل نتائج رهيبة.

وكتب **الكونت ويت**: "كان القيصر يردد: إنني أريد الأمر هكذا، لذا فإن عليه أن يكون. وبدت هذه الصيغة بوضوح في كافة أفعال هذا الملك المتهالك الذي فعل بسبب ضعفه كل ما ميَّز عصره – وسفك باستمرار كثيرًا من الدماء البريئة التي لم يؤد سفكها غالبًا إلى أية نتيجة...".

ولقد قارن البعض القيصر نيقولا مع جد جده **بولص الأول** الذي كان نصف مجنون، ومات مخنوقًا على يد إحدى خادمات القصر بالاتفاق مع ابنه **الإمبراطور ألكسندر الأول** "الحائز على رضى الرب". حقًا، لقد كان هذان القيصران من أسرة رومانوف متشابهين بحذرهما من الجميع، وبحذرهما من نفسيهما، وتجهمهما، وسلطتهما المصحوبة بسخف مطلق، وبإحساسهما بالإهمال، أو بإحساس شبيه بإحساس المنبوذين المتوجين. ولكن بولص الأول كان ولا شك أكثر بريقًا، وكانت أفكاره الغريبة وخطرفاته تحمل شيئًا من الطرافة رغم جنونها. أما خلفه فكان يتسم بكل ما هو تافه قاتم، ولم يكن فيه أي أثر للحياة.

ولم يكن نيقولا محرومًا من الاتزان فحسب، بل كان مخادعًا أيضًا. وكان مداحوه يقولون عنه بأنه شخص "جذاب"، ويبررون حكمهم بلطفه ودماثته خلال تعامله مع أفراد البلاط. وكان يبدو لطيفًا إلى أبعد حد مع الوجهاء وكبار الشخصيات الذين يود طردهم والتخلص منهم. فهذا وزير يخرج من قصر الإمبراطور سعيدًا بحرارة اللقاء، فما أن يصل إلى منزله حتى يجد كتاب إقالته. وكانت هذه إحدى وسائل القيصر للانتقام من تفاهته نفسها.

"كان نيقولا يبتعد بِعِداء عن كل رجل قوي موهوب. ولم يكن يحس بالراحة إلا مع ذوي العقول الفارغة والمحرومين من كل موهبة، والمتدينين، والمتهافتين المائعين، الذين لا يجد أن عليه أن ينظر إليهم من الأسفل إلى أعلى. وكان يحس بشيء من الكبرياء الرفيع، ولكنه كبرياء سلبي لا يحمل ذرة واحدة من المبادهة، ويكتفي بالبقاء في موقف المدافع الحسود. وكان مبدؤه في اختيار وزرائه يتمثل في البحث عن الأضعف. ولا يستدعي من يتمتعون بالفكر وقوة الشخصية إلا عند الضرورة القصوى، وعندما لا يرى مخرجًا آخر، تمامًا كما يستدعي المرء الجراح عندما يجد نفسه مهددًا بخطر الموت؛ وكان هذا ما دفعه إلى اختيار **الكونت ويت، وستوليبين** من بعده. وكان القيصر ينظر إلى هذين الشخصين بكراهية ملموسة. وما أن تنتهي الأزمة حتى يتخلص القيصر من المستشارين اللذين يحس بأنهما أكبر من حجمه. وكان اختيار المساعدين السيئين منهجيًّا لدرجة دفعت **رودزيانكو** رئيس آخر مجلس دوما إلى أن يقول أمام القيصر بكل جرأة في ٧ يناير (كانون الثاني) ١٩١٧، عندما كانت الثورة تدق الأبواب: "سيدي، لم يعد حولك أي شخص موثوق شريف، لقد أبعد أفضل الرجال، أو ابتعدوا بمحض إرادتهم، ولم يبق إلا ذوي السمعة السيئة".

ولم تؤد كافة محاولات البرجوازية الليبرالية للتفاوض مع البلاط إلى أية نتيجة. وحاول رودزيانكو الصاخب المندفع هز القيصر بسلسلة من التقارير، ولكن جهوده ذهبت أدراج الرياح، والتزم نيقولا الصمت، ولم يتجاهل الرد على الحجج المقدمة فحسب، بل تجاهل الرد أيضًا على التهجمات، وأخذ يعد حل مجلس الدوما بشكل سري. وكان عم القيصر ديميتري الذي كان من قبل مقربًا إلى قلبه، ثم اشترك في قتل **راسبوتين،** قد اشتكى إلى صديقه الحميم وشريكه في المؤامرة **الأمير يوسوبوف**، من أن القيصر القابع في مقر القيادة العليا، يقف موقف اللامبالاة يومًا بعد يوم من كل ما يحيط به. وكان ديميتري يؤكد بأن هناك من يسممون القيصر ببعض المركبات الدوائية التي تحد من نشاط إمكاناته العقلية. ويكتب المؤرخ الليبرالي **ميليوكوف** ما يلي: "تقول بعض الإشاعات أن حالة الخمول الفكري والمعنوي التي يعيشها القيصر ناجمة عن إدمانه على شرب الكحول". ولم يكن كل هذا سوى ابتداع أو مبالغة. فلم يكن القيصر بحاجة لمخدر، طالما أن "المركبات الدوائية" القاتلة تجري في دمائه. ولكن آثار التسمم بدت بوضوح كبير خلال الأحداث الكبيرة الناجمة عن الحرب والأزمة الداخلية التي قادت إلى الثورة. ولقد تحدث راسبوتين –الذي كان عالمًا نفسيًّا حقيقيًّا– عن القيصر فأكَّد: "بأن لديه نقصًا داخليًّا أكيدًا".

وكان هذا الرجل التافه، الهادئ، المتزن، "المربى جيدًا"، شخصًا قاسيًا إلى درجة الإجرام. ولم تكن قسوته إيجابية فعالة تعمل لتحقيق أهداف تاريخية كقوة إيفان الهائل أو قسوة بطرس –وما هي نقاط تشابه هذين الشخصين مع نيقولا؟- ولكنها كانت قسوة جبانة كقسوة شخص خائف من الإحساس بأنه محكوم عليه؛ فلقد هنأ في مطلع حكمه "رجال فوج فاناغوريا الشجعان" الذين أطلقوا النار على العمال. وكان يقرأ دائمًا "بكل شغف" كيف جُلد الطلاب "ذوي الشعور القصيرة" بالسياط الجلدية، وكيف هُشمت رءوس أشخاص عُزّل من السلاح في معابد اليهود. لقد كان حثالة مُتَوَّجة تجلس على رأس مجتمع كامل، وهذا ما جعله يميل بقرارة نفسه نحو القاذورات، أي نحو مجرمي "المائة السود". ولم يكن يكتفي بإعطائهم مالاً غزيرًا يغترفه من خزانة الدولة، بل كان يحب التحدث معهم عن أعمالهم، ويعفو عنهم عندما توجه لهم عن طريق الصدفة تهمة قتل نواب المعارضة. ولقد كتب **ويت** –الذي كان يرأس الحكومة في فترة قمع الثورة الأولى– في مذكراته ما يلي: "وكان الملك يبدي تأييده الكامل عندما يسمع أخبار بعض الخدمات غير المجدية التي قدمها رؤساء هذه المفارز، أو يكتفي على الأقل بتغطيتها". وعندما طالب الحاكم العام لمقاطعات **البلطيق** عزل النقيب المساعد **ريشتر** "الذي مارس عمليات الإعدام بمحض إرادته، ودون أية محاكمة، وقتل عددًا ممن لم يبدو أية مقاومة" كتب القيصر على التقرير ما يلي: "آه إن هذا لرجل مقدام**!**" وكان يوزع مثل هذا التشجيع بلا حساب. وهكذا كان ذلك الشخص "الجذاب" المحروم من الإرادة والهدف والخيال، أشد رهبة وإجرامًا من كافة طغاة التاريخ القديم والحديث.

وكان القيصر يخضع لزوجته خضوعًا كليًا. وتصاعد هذا الخضوع مع تقدم السنين وتزايد الصعوبات. وكان الإمبراطور والإمبراطورة يشكلان معًا كلاً متكاملاً. ويدل هذا التكامل والتطابق إلى أي مدى تؤثر الظروف على الفرد وتكمله بعناصر المجموعة. ويجدر بنا الآن أن نتحدث عن زوجة القيصر.

ويقدم **موريس باليولوغ**، السفير الفرنسي السابق في بتروغراد خلال الحرب، والعالم النفساني المجلّي بالنسبة للأكاديميين وبوابي العمارات، صورة معدة بعناية لآخر إمبراطورة روسية فيقول بصورة موجزة: وتتصف الإمبراطورة بالاضطراب المعنوي، والحزن المزمن، والخوف الدائم بلا حدود، وتناوب بين قفزات القوة وأزمات الخمول، والتفكير الأليم بقضايا العالم فيما وراء حدود النظر، والأوهام، والخزعبلات، ولكن أليست هذه الصفات الواضحة عند الإمبراطورة هي صفات الشعب الروسي كله؟ ومهما بدا قول السفير غريبًا فإن في أوهامه المفرطة شيئًا من الحقيقة. ولم يخطئ الناقد الروسي **سالتيكوف** عندما تحدث عن الوزراء والحكام المنحدرين من مقاطعات البلطيق ووصفهم بأنهم "ألمان يحملون روحًا روسية". ومما لا شك فيه أن الأجانب الذين لا يرتبطون مع الشعب بأي رباط كانوا يعدون أرقى ثقافة للإداري "الروسي حقًا".

ولكن لماذا كان الشعب يحس نحو الإمبراطورة بحقد مكشوف عميق مع أن باليولوغ يتحدث عنها وكأنها قد تقمصت الروح الوطنية؟ والجواب على هذا سهل: فلكي تبرر هذه الألمانية وضعها الجديد، أخذت تعمل ببرود محموم بغية هضم كافة تقاليد القرون الوسطى الروسية وأفكارها، بما في ذلك أفقر التقاليد وأكثرها بدائية وفجاجة، في فترة كان الشعب يبذل فيها قصارى جهده للتحرر من همجيته الموروثة من القرون الوسطى. وكانت هذه الأميرة المنحدرة من **بلاد الهيس** متعلقة بشيطان الحكم الفردي المطلق إلى درجة الجنون. فقد ارتقت من قريتها الضائعة في المقاطعات إلى قمم التسلطية البيزنطية، ولذا فهي لا تود النزول أبدًا. ووجدت في الأرثوذكسية ديانة وسحرًا يلائمان مصيرها.

وكان إيمانها بمهمتها المقدسة يتزايد قوة كلما تزايد تكشف عار النظام القديم. وكانت قوة شخصية الإمبراطورة، وقدرتها على الانفعال الجاف الصلب يجعلها تكمل القيصر الجبان وتسيطر عليه.

وفي ١٧ مارس (آذار) ١٩١٦، أي قبل اندلاع الثورة بسنة كاملة، وعندما كانت البلاد الممزقة تتلوى في قلب الهزيمة والفوضى، كتبت الإمبراطورة لزوجها القابع في مقر القيادة العليا ما يلي: "عليك أن لا تتخاذل، وأن ترفض أية وزارة مسئولة، ...إلخ، وأن ترفض كل ما يريدونه. ومن الضروري أن تكون هذه الحرب حربك، وأن يكون السلام سلامك، ولصالحك وصالح الوطن لا لصالح مجلس الدوما في أية حال من الأحوال. ولا يحق لهؤلاء الأشخاص أن يقولوا كلمة واحدة حول هذه المسائل"، وكانت الرسالة بحد ذاتها برنامجًا متكاملاً. وكان هذا البرنامج ينتصر دائمًا على تردد القيصر المستمر.

وعندما ذهب القيصر إلى الجيش ليشغل منصب القائد الأعلى الشكلي، أخذت الإمبراطورة تتصرف بشئون البلاد الداخلية بلا مواربة. وكان الوزراء يقدمون لها التقارير وكأنها مالكة لزمام السلطة. وكانت تتآمر مع شلة صغيرة ضد مجلس الدوما، وضد الوزراء، وضد جنرالات القيادة العليا، وضد الجميع، وضد القيصر بصورة جزئية، وفي ٦ ديسمبر (كانون الأول) ١٩١٦ كتبت إلى نيقولا ما يلي: "كيف يجرؤ (رئيس مجلس الوزراء تريبوف) على السير ضد إرادتك طالما أنك قررت الاحتفاظ ببروتوبوبوف؟ اضرب الطاولة بقبضتك، ولا تذعن، وأثبت أنك السيد المطاع، واستمع لنصائح زوجتك الصغيرة القوية **وصديقنا**. وصدّقنا". ثم كتبت بعد ثلاثة أيام: "أنت تعلم بأنك على حق. ارفع رأسك عاليًا، واصدر لتريبوف أمرًا بأن يعمل معه... واضرب سطح الطاولة بقبضتك ضربة شديدة..." وتبدو هذه الجمل وكأنها مختلقة أو من وحي الخيال. ولكنها مأخوذة من رسائل أصلية حقيقية. كما أنها من الأمور التي لا يقدم المرء على اختلاقها.

وفي ١٣ ديسمبر (كانون الأول) عادت الإمبراطورة للهجوم: "لسنا بحاجة لوزارة مسئولة اعتاد الناس على تشكيلها. إن الأمور تهدأ وتسير من حسن إلى أحسن. ولكن الجميع بحاجة لأن يحسوا بثقل قبضتك. ومنذ سنوات طويلة، وأنا أسمع الكثيرين يرددون أمامي: تحب روسيا الدغدغة بالسوط –وهذا شيء متأصل في طبيعة هؤلاء الناس!" وهكذا فإن هذه الأميرة الأرثوذكسية المنحدرة من بلاد الهيس، والمتعلمة في **ويندسور**، والحاملة للتاج البيزنطي لا "تجسد" الروح الروسية فحسب، بل تحس نحو هذه الروح باحتقار داخلي متأصل. وها هي الإمبراطورة الروسية تكتب لقيصر روسيا بأن طبيعة هؤلاء الناس الجلد بالسوط. وهي تتحدث بذلك عن الشعب الروسي، قبل سقوط الملكية بعشرة أسابيع فقط.

وبالرغم من امتياز مواهب الإمبراطورة على مواهب زوجها، فإنها لم تكن أكثر منه ثقافة، بل لعلها أقل منه شأوًا في هذا المضمار. وأكثر منه بحثًا عن مخالطة المجتمع الفقير فكريًّا. ولا أدل على المستوى الفكري الذي يتمتع به القيصر وزوجته من صداقتهما المتينة الطويلة مع وصيفة الشرف **فيروبوفا**. وكانت فيروبوفا تصف نفسها بالغباء، ولم يكن ذلك على سبيل التواضع. ويصفها ويت الذي لا نشك بقوة بصيرته بما يلي: "إنها أتفه آنسات بطرسبورغ، وأشدهن غباء. إنها دميمة، تشبه الانتفاخات التي تظهر على عجينة الحلوى قبل صنعها". وكان القيصر وزوجته يقضيان ساعات وساعات في مجتمع هذه الوصيفة التي يتقرب منها الوجهاء المحترمون، والسفراء، ورجال المال، والتي كانت تملك قسطًا وافيًا من التعقل دفعها لإملاء جيوبها. وكانا يستشيرانها في كثير من الأمور، ويراسلانها، ويتحدثان عنها في رسائلهما. وكانت فيروبوفا تملك سلطة تفوق سلطة مجلس دوما الإمبراطورية أو سلطة الوزارة نفسها.

ولم تكن هذه الوصيفة سوى وسيط "الصديق" الذي تسيطر سلطته على هؤلاء الأشخاص الثلاثة. ونجد في رسالة الإمبراطورة إلى زوجها ما يلي: "هذا هو رأيي الشخصي، ولكنني سأحاول معرفة رأي **صديقنا**" وهذا يعني أن رأي الصديق لن يكون "رأيًا شخصيًّا"، بل رأيًا حاسمًا. ثم نجد رسالة أخرى صادرة بعد عدة أسابيع تقول فيها: "... إنني قوية، ولكن استمع إلي، وأنا أعني استمع إلى **صديقنا**، وثق بنا في جميع الأمور... إنني أتألم من أجلك كما أتألم من أجل طفل غض العود، طيب

القلب، يحتاج لمن يرشده ويسدد خطاه، ولكنه ينصت لنصائح مستشارين سيئين، رغم أن إلى جواره رجلاً أرسلته العناية الإلهية ليقول له كل ما ينبغي عليه القيام به".

ولم يكن هذا الصديق، مبعوث العناية الإلهية سوى **غريغوري راسبوتين**.

"... وستسير كافة الأمور كما ينبغي بفضل الصلوات ومساعدة **صديقنا**".

"ولو لم يكن هذا الصديق إلى جوارنا، لانتهى كل شيء منذ أمد بعيد، وأنا مؤمنة بهذا كل الإيمان".

* * *

ولقد حضر إلى البلاط خلال فترة حكم نيقولا وألكسندرا كثير من المشعوذين والسحرة، والمأخوذين، الـذين كـان يـتم جمعهم لا من روسيا وحدها بل من الخارج أيضًا. وكان في البلاط لهذا الغرض عدد من الوجهاء وكبـار الشخـصيات الـذين يتعهدون بجلب هؤلاء الناس، ويتحلقون حول المنجِّم المشهور في تلك اللحظة، ويشكلون إلى جانب القيصر نوعًا من المجلـس الأعلى. وكان في هذا الوسط عدد كبير من المتدينات المسنات المسمات كونتيسات، وأصحاب المعالي العصابيين العاطلين عن العمل، وكبار الممولين الذين كانوا يستأجرون وزارات كاملة. ونظرت الكنيسة بكل غيرة إلى المنافسة غير المـشروعة التـي يقوم بها المنومون المغناطيسيون والسحرة، فعملت كل ما في وسعها لتفتح لنفسها مدخلاً إلى معبد التآمر والدسائس. وكان ويت يسمى هذه الحلقة القيادية التي حطمت مرتين "الشلة المجذومة".

ومع تزايد شعور الأسرة المالكة بالانعزال، وتصاعد إحساس الملكية كلها بابتعاد الناس عنها، ازداد شعورها بحاجتهـا لدعم يأتي من الأعلى. إن بعض الشعوب البدائية تدير في الهواء لوحة مربوطة بخيط بغية اجتلاب الطقـس الرائـع، وكـان القيصر وزوجته يستخدمون هذه اللوحة لتحقيق مختلف الأغراض. وكان في عربة القطار الإمبراطورية ركنًا للعبـادة يغـص بالأيقونات الكبيرة والصغيرة، ومجموعة من الأشياء الدينية التي جابهت المدفعية اليابانية، ثم لم تلبـث أن جابهـت المدفعيـة الألمانية.

والحقيقة أن مستوى البلاط الثقافي لم يتبدل بشكل ملحوظ من جيل إلى آخر. ففي عهد **ألكسندر الثاني الملقب** "**بالمحرر**" كان رجال الأسرة المالكة يؤمنون بالشياطين التي تسكن المنازل والساحرات. ولم يتبدل الأمر في عهد ألكسندر الثالـث ولكنـه كان أكثر هدوءًا. وكانت "الشلة المجذومة" موجودة في كل عهد. ولكنها كانت تبدل تركيبها وتعدل أساليبها. ولم يبتـدع نيقـولا الثاني شيئًا جديدًا. ولكنه ورث عن أسلافه جو الهمجية البدائية السائدة في القصر الإمبراطوري. بيد أن البلاد تطورت بـشكل ملحوظ خلال عشرات السنين الأخيرة. وغدت المعضلات أكثر تشابكًا، وارتقت الثقافة، وأصبحت حلقة الـبلاط متخلفـة عمـا حولها إلى حد بعيد. صحيح أن الملكية اضطرت إلى تقديم بعض التنازلات للقوى الجديدة، ولكنها لم تستطع تطـوير تكوينهـا الداخلي. بل أغلقت الباب على نفسها، وتزايد جهلها الهمجي الموروث من القرون الوسطى تحت ضغط الحقد والخوف، حتـى غدا هذا الجهل كابوسًا رهيبًا يهيمن على البلاد.

وفي أول نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٠٥، أي في أحرج لحظات الثورة الأولى، كتب القيصر في مذكراته الخاصـة مـا يلي: "لقد تعرفنا على رجل من رجال الله، ويدعي غريغوري من منطقة طوبولسك"، وكان يقصد بهذا الرجل راسبوتين، الفلاح السيبري، الذي يحمل رأسه ندبة غائرة نجمت عن ضربة تلقاها خلال قيامه بسرقة الخيول. وما إن حصل هـذا "الرجـل مـن

رجال الله" على تقدير القيصر حتى وجد عددًا من المساعدين الذين يحتلون مناصب رفيعة، والأصح أن نقــول أنهــم وجــدوه، وهكذا تشكلت شلة قيادية جديدة لم تلبث أن سيطرت على زوجة القيصر، لتنتقل سيطرتها على القيصر نفسه من خلال زوجته.

ومنذ شتاء ١٩١٣ – ١٩١٤ كان المجتمع الراقي في بطرسبورغ يؤكد بكل صراحة بأن التعيينات في الوظائف العليــا، والطلبات، والتعهدات، مرتبطة بشلة راسبوتين. وأصبح "القديس العجوز" **الحكيم** جزءًا من الدولــة. وأخــذت الأجهــزة تهــتم بسلامته وأمنه. كما أخذ الوزراء المتنافسون يتجسسون عليه. وكان مفتشو الشرطة يسجلون تحركاته اليومية. ولا يترددون عن الإعلان بأن راسبوتين ذهب إلى أهله في **قرية بوكروفسكويه** مخمورًا في يوم ٩ سبتمبر (أيلول) ١٩١٥، وتضارب مع أبيه في الشارع حتى سالت دماؤهما، وفي اليوم نفسه، بعث راسبوتين ببرقيتي مجاملة، وجه إحداهما إلى الإمبراطورة في تساركويه – سيلا، ووجه الثانية إلى القيصر في مقر القيادة العليا.

وتتسم التقارير التي كتبها الجواسيس يومًا بعد يوم عن مغامرات الصديق ومشاكله، بأنها تقارير رفيعة**!**، "عاد اليوم إلى بيته في الساعة الخامسة صباحًا وقد تعتعه السكر"، "باتت الفنانة ف... عند راسبوتين في ليلة ٢٥ – ٢٦"، "لقــد حــضر مــع الأميرة د... (زوجة أحد شخصيات البلاط) إلى فندق أستوريا". ثم نقرأ بعد ذلك ما يلي: "لقد عاد إلى بيته قادمًا من تساركويه – سيلا في الساعة الحادية عشر مساء". "عاد راسبوتين إلى داره مع الأميرة ش... وكان مخمورًا إلى حد بعيد، ولــم يلبثــا أن خرجا معًا. ثم زار تساركويه – سيلا في صباح اليوم التالي أو مسائه"، وسأل أحد الجواسيس القديس العجوز بكل تودد واحترام عن سبب شروده وانشغال باله، فرد راسبوتين على السؤال بقوله: "إنني عاجز عن معرفة ما إذا كان القيصر ســيدعو مجلــس الدوما إلى الانعقاد أم لا"، ثم نقرأ في أحد التقارير ما يلي: "وعاد إلى منزله في الساعة الخامسة صباحًا وهو شــبه مخمــور". وهكذا تكررت المعزوفة خلال أشهر وسنوات، وكانت تحمل ثلاث درجات "شبه مخمور"، و"مخمور جدًا" و"مخمــور تعتعــه السكر". وكانت هذه المعلومات الهامة جدًا بالنسبة للدولة تجمع وتنسق، ثم يوقع عليها الجنرال الدركي غلوباتشيف.

واستمر ازدهار سيطرة راسبوتين ٦ سنوات، وهي آخر سنوات الملكية. ويتحدث الأمير يوسوبوف عن حياة راسبوتين التي شاركه بها قبل أن يشترك في مؤامرة قتله فيقول: "كان وجوده في بطرسبورغ عبارة عن فجــور دائــم، وســكر وفــسق يمارسهما محروم لاقى حظه". ويقول رودزيانكو رئيس مجلس الدوما بهذا الصدد: "لقد تلقيت عددًا كبيرًا مــن الرســائل التــي بعثتها أمهات تقلن بأن بناتهن فقدن شرفهن على يد هذا الداعر الفاسق. وبالإضافة إلى ذلك فقد كــان راســبوتين وراء تعيــين **بيتيريم مطران بتروغراد**. ورئيس الأساقفة **فارنافا** الذي لم يكن يحسن القراءة. كما كان راسبوتين المصدر الأساســي لــسلطة **سابلير** رئيس المجلس الأعلى للكنيسة الأرثوذوكسية. ولقد كان راسبوتين وراء عزل رئيس الوزراء **كوكوفتسيف** الذي رفــض استقبال "القديس العجوز". كما كان وراء تعيين **ستورمر** كرئيس لمجلس الوزراء، وبروتوبوبوف كــوزير للداخليــة، ورايــف كرئيس جديد للمجلس الأعلى للكنيسة الأرثوذوكسية، وغيرهم. وعندما اجتمع السفير الفرنسي باليولوغ مــع راســبوتين قبلــه الدبلوماسي قائلاً: "هذا إنسان مُلهم كشف الله على بصيرته**!**" وكان يود من ذلك اكتساب قلب الإمبراطورة، ودفعها إلــى تأييــد قضية فرنسا. وهناك شخص يهودي يدعي **سيمانوفيتش،** كان يعمل كعميل مالي "للقديس العجوز"، ويلعب القمار في النــوادي ويتعاطى الربى. ولقد اشترك هذا اليهودي مع راسبوتين في رفع شخص سيء متعفن يدعى **دوبروفولسكي** إلى منصب وزيــر العدل.

ولقد كتبت الإمبراطورة لزوجها رسالة بخصوص التعيينات الجديدة تقول له فيها:

"احتفظ معك باللائحة الصغيرة. فلقد طلب صديقنا أن تتحدث بكل هذه الأمور مع بروتوبوبوف". ثم كتبت بعد يومين ما يلي: "يقول صديقنا أن بوسع ستورمر أن يبقى رئيسًا للوزارة فترة أخرى من الزمن"... "إن بروتوبوبوف يحترم صديقنا، وسيجعله الصديق مرضيًّا".

وفي أحد الأيام قدم الجواسيس تقاريرهم التي تتحدث عن عدد الزجاجات والنساء. فعبرت الإمبراطورة عن حزنها برسالة بعثت بها إلى القيصر وقالت فيها: "يتهم الناس راسبوتين لأنه يقبل النساء، ...إلخ. اقرأ قصص الحواريين. لقد كانوا يقبلون جميع النساء والرجال عند استقبالهم"، ومن المشكوك فيه أن يكون الجواسيس قد اقتنعوا بهذا الاستشهاد بالحواريين. وتذهب الإمبراطورة في رسالة أخرى إلى مدى أبعد فتقول: "وخلال قراءة الإنجيل المسائية، فكرت بصديقنا كثيرًا: ورأيت كيف أخذ الكتبة والسيئون يعذبون المسيح، وهم يتظاهرون بالامتياز... حقًا، لا كرامة لنبي في وطنه".

وكان من المعتاد في هذا المجتمع تشبيه راسبوتين بالمسيح. ولم يكن هذا عملاً ناجمًا عن الصدفة. فلقد كان الخوف الناجم عن قوى التاريخ الهادرة أكبر من أن يسمح للإمبراطور وزوجته بالاكتفاء بإله غير مرئي، وظل مسيح الإنجيل الذي لا يمكن لمسه. لقد كانا بحاجة لظهور "المسيح" من جديد. ووجدت الملكية المنهارة المحتضرة في راسبوتين مسيحًا يشبهها ويتلاءم مع صورتها.

ولقد قال أحد رجال النظام القديم السناتور **تاغانتسيف**: "**لو لم يوجد راسبوتين، لوجب خلقه**". ويحمل هذا القول معنى يفوق المعنى الذي أراده قائله. وإذا كنا نعتبر كلمة "رذالة" التعبير الأقصى عن الطفيلية المعادية للمجتمع في أدنى درجات المجتمع، فإن بوسعنا أن نقول عن مغامرة راسبوتين بأنها كانت قبل كل شيء رذالة متوَّجة.

فكرة ثورة القصر

لِمَ كانت الطبقات المالكة إذن تحاول حماية نفسها من الثورة؟. ولماذا لم تحاول التخلص من القيصر ومن حوله؟ لقد كان بودها أن تفعل ذلك، ولكنها لم تكن لتجرؤ على القيام به. ولم يكن تصميمها وإيمانها بقضيتها كافيين. وداعبت ثورة القصر الأفكار فترة طويلة من الزمن، ثم سقطت في ثورة الدولة. ولا بُدَّ لنا من الوقوف عند هذه النقطة بغية تشكيل مفهوم أوضح عن العلاقات القائمة بين الملكية وقيادات البيروقراطية والبرجوازية عشية الانفجار.

لقد كانت الطبقات المالكة كلها تقريبًا ملكية؛ بحكم مصالحها، وعاداتها، وجبنها. ولكنها كانت تطمح إلى ملكية بلا راسبوتين. وكانت الملكية ترد على المطالب بقولها: خذوني كما أنا. وللرد على من يطالبون بوزارة مسئولة أرسلت الإمبراطورة إلى مقر القيادة العليا تفاحة قدمها راسبوتين. وأصرت على زوجها أن يأكل هذه التفاحة التي ستشد عزمه وتقوي إرادته. وكتبت إلى القيصر تناشده: "تذكر بأن فيليب (وهي تتحدث هنا عن منوم مغناطيسي فرنسي مشعوذ) قال بضرورة عدم منح الشعب دستورًا؛ لأن في ذلك ضياعك وضياع روسيا...". "كن مثل بطرس الأكبر، أو إيفان الهائل، أو الإمبراطور بولص. واسحق كل هؤلاء الأشخاص تحت قدميك!".

فأي مزيج رهيب من الجبن والخزعبلات والحقد أبعد الشعب الروسي عن الأسرة المالكة! وقد يظن البعض أن الأسرة الإمبراطورية لم تكن معزولة تمامًا في الأوساط العليا على الأقل. خاصة وأن راسبوتين كان محاطًا دائمًا بمجموعة من كبار السيدات، ونحن نعرف مدى انتشار السحر عادة في الأوساط الأرستوقراطية. ولكن هذه العقيدة المبنية على الخوف لا تربط الناس، بل إنها تحلل الروابط القائمة بينهم. ويحاول كل واحد منهم تحقيق خلاصه بأسلوبه. وكانت كل عائلة من العائلات الأرستوقراطية تنافس الأخرى "بقديسها". وكانت الأوساط العليا في بتروغراد تنظر إلى العائلة الإمبراطورية كعائلة مجذومة تعيش في الحجر الصحي. وتنظر إليها بكثير من الشك والعداء. ولقد كتبت وصيفة الشرف فيروبوفا في مذكراتها ما يلي: "لاحظت وأحسست بعمق بأن حولي جوًا من الحقد الموجه نحو الأشخاص الذين أعبدهم، كما لاحظت أن هذا الحقد يأخذ حجمًا مخيفًا...".

ولم يشأ المُنَعَّمون أن يتخلوا لحظة واحدة عن مباهج الحياة رغم جو الحرب الدامية، والهدير المنبعث من الهزات الخفية تحت الأرض. بل إنهم أمعنوا في البذخ بنشوة ظاهرة. ولكن حفلاتهم أخذت تشهد باستمرار شبحًا يتهددهم بأصابعه العظيمة. عندها فكروا بأن معظم الوضع السيء آتٍ من طبيعة ألكسندرا المكروهة، ومن طمع القيصر، ومن هذه الجشعة الحمقاء فيروبوفا، وهذا المسيح السيبيري ذو الرأس المجروح. وهبت ريح الإحساس بالخطر فوق الطبقات المالكة، فأخذت تتقارب وتضم صفوفها بتشنجات متجهة من الأطراف إلى المركز، وتعزل بالتدريج القمة المكروهة القابعة في تسار كويه - سيلا. ولقد قدمت فيروبوفا في مذكراتها صورة حية عن الحالة النفسية لهذه المجموعة الصغيرة، رغم أن المذكرات كانت بصورة عامة مليئة بالأكاذيب: "... وسألت نفسي للمرة المائة عما أصاب مجتمع بتروغراد، فهل أصيب جميع أفراده بأمراض نفسية، أو بمرض مُعدٍ انتشر خلال الحرب؟ حقًا إن من الصعب تحديد أي شيء، ولكن يبدو أن الجميع يعيشون حالة من الهيجان غير العادي".

ويضاف إلى كل هؤلاء المجانين جميع أفراد عائلة رومانوف، أي كل هذا القطيع الجشع، الوقح الذي يضايق الجميع ويثير نفورهم، وأقرباء القيصر وقريباته. وكان كل هؤلاء يُحسون بخوف رهيب، فيحاولون الهروب من الطوق الذي يضيق يومًا بعد يوم، ويتجادلون مع الأرستوقراطية المناكفة، وينشرون الإشاعات والأقاويل حول القيصر وزوجته، ويسخر بعضهم

من البعض الآخر، ويسخرون من كل ما يحيط بهم. ولقد بعث كثير من الأعمام المحترمين رسائل توبيخ إلى القيــصر تخفــي وراء تعابير الاحترام والتقديم كثيرًا من السخرية والغيظ.

وبأسلوب يحمل شيئًا من الخطأ، ولكنه لا يخلو من البلاغة. حدد بروتوبوبوف بعد ثورة أكتوبر (تشرين الأول) الحالــة الفكرية التي كانت سائدة في الأوساط العُليا فقال: "حتى أن أعلى الطبقات بدت ميَّالة إلى الجدل في عشية الثورة. وكانت سياسة الحكومة تتعرض في صالون الطبقة العليا ونواديها لانتقادات حادة سيئة. وكان أبناء هذه الطبقة يقرعون ويناقــشون التقــارير المكتوبة في داخل العائلة الإمبراطورية، وينشرون النكات حول رئيس الدولة، ويكتبون قصائد ومقالات الهجاء، وكان عدد كبير من أفراد الأسرة المالكة يرتادون هذه الاجتماعات. وكان وجودهم وسط هذا الجو يدفع الرأي العــام إلــى الاعتقــاد بــصحة الأحاديث الساخرة والمبالغات السيئة. ولم يحس أي واحد من هذا الوسط حتى آخر لحظة بالخطر الكــامن وراء اللعــب بهــذه الطريقة".

وأخذت الإشاعات المترددة حول شلة القصر خطورة خاصة؛ نظرًا لأنها كانت تتهم هذه الــشلة "بممــالأة الألمــان"، أو التعاون المباشر مع العدو. ولقد تحدث رودزيانكو الصاخب الذي لا يتمتع بكثير من الفهم، وأعلن دُون لَفٍّ أو دوران بما يلــي: "إن ارتباط الميول وتشابهها مؤكدين من الناحية المنطقية لدرجة لا تدع -عندي على الأقل- مجالاً لأي شك بوجود عمل منسق بين هيئة أركان الحرب الألمانية، وحلقة راسبوتين، وليس لدي في هذا المجال ذرة واحدة من الشك". بَيْد أن التأكيد "المنطقــي" جاء هنا دونما إثبات، وهذا ما يُفقد اللهجة الحاسمة لشهادته كثيرًا من قدرتها على الإقناع. ولم يــتم، قبــل الثــورة أو بعــدها، اكتشاف أي دليل على التواطؤ بين جماعة راسبوتين وهيئة أركان الحرب الألمانية. ولكن الأمــر مختلــف بالنــسبة "لممــالأة الألمان". ولا يتعلق الموضوع هنا دون ريب بالتعاطف أو النفور القوميين لإمبراطورة من أصل ألماني، أو لــرئيس الــوزراء ستورمر، أو الكونتيسة كلينيمشيل، أو وزير البلاط الكونت فريديريكس، أو غيرهم مــن ذوي الأســماء الألمانيــة. وتكــشف المذكرات الماجنة المتهكمة للمتآمرة العجوز الكونتيسة كلينميشيل بشكل صارخ الطبقية فوق القومية التي تتسم بهــا الأوســاط الأرستوقراطية العليا في كافة بلاد أوروبا، والمرتبطة مع بعضها بروابط القرابة والإرث، واحتقارها لكل من هم أدنــى منهــا، وانتشار الخيانة الزوجية في القصور القديمة، ومدن المياه المعدنية الراقية، وكل بلاط في أوروبا. ومــن المؤكــد أن النفــور العضوي الذي أحس به خدم القصر إزاء محاميي الثورة الفرنسية المهذبين إلى أبعد الحدود. والتعاطف الذي شعر به الرجعيون الألمان والسلاف من العقلية البروسية التي يتشبع بها النظام في برلين، والتي فرضها عليهم خلال فترة طويلــة عــن طريــق شواربه الملمعة، وأساليب ضباط الصف التي يستخدمها. وحماقته المتعجرفة، كانا أقوى من نفور شلة القصر مــن الــروس أو تعاطفها مع الألمان.

ولم يكن هذا ليحل المسألة؛ إذ كان الخطر ناجمًا عن منطق الوضع كله: فلم يكن البلاط قادرًا على عــدم البحــث عــن خلاصه عن طريق سِلم منفرد. وكان إصراره على متابعة السير على هذا السبيل يزداد مع اتساع الخطر. وكانــت الليبراليــة الممثلة بزعمائها تود الاحتفاظ كما سنرى بفرصة تحقيق سلم منفرد، وتأمل الوصول إلى السلطة. ولهذا السبب بالــذات كانــت تقوم بدعايتها الشوفينية التي تخدع الشعب وتخيف القصر. ولم تجرؤ الشلة على كشف القناع عن وجهها قبــل الأوان بالنــسبة لمسألة خطرة كهذه، ووجدت نفسها مضطرة لمجاراة المواقف الوطنية للرأي العام، مع جس الأرض سعيًا وراء سلم منفرد.

أما ضابط الشرطة الكبير الجنرال كورلوف، الذي انضم إلى شلة راسبوتين، فقد نفى في مذكراته وجود أية علاقة مــع ألمانيا، كما نفى ميل سادته للألمان ولكنه أضاف ما يلي: "ولا يمكن التنديد بستورمر لأنه فكر بأن الحرب الذي صــنعت فــي ألمانيا كانت أكبر مأساة عرفتها روسيا، ولم يكن لها أي سبب سياسي هام". ومن واجبنا أن لا ننسى بأن ستورمر الذي "فكــر" بهذا الشكل المثير الهام، كان على رأس حكومة تحارب ألمانيا. وفي ستوكهولم قام بروتوبوبوف آخر وزراء القيصر للداخليــة

قبيل دخوله إلى الحكومة بمباحثات مع دبلوماسي ألماني، ورفع بعد ذلك تقريرًا إلى القيصر. ويتحدث كورلوف (المذكور آنفًا) عن راسبوتين فيقول بأنه: "كان يعتبر الحرب مع ألمانيا كارثة واسعة بالنسبة لروسيا". وأخيرًا فقد كتبت الإمبراطورة إلى زوجها في ٥ إبريل (نيسان) ١٩١٦ تقول: "وعليهم أن لا يقولوا بأن فيه أي شيء مشترك مع الألمان، إنه كالمسيح طيب متسامح مع الجميع، مهما كان الدين الذي ينتمي إليه الأشخاص وهكذا ينبغي أن يكون المسيحي الحقيقي".

ومن المؤكد أنه إلى جوار هذا المسيحي الحقيقي الذي لا يفيق من السُكْر، كان بوسع كثير من الجواسيس الحقيقيين أن يتسللوا على شكل ساقطين أو مرابين، أو سمسارات أرستوقراطيات. وليست مثل هذه "العلاقات" مستحيلة. ولكن الوطنيين المعارضين طرحوا المسألة بشكل مباشر أوسع؛ فلقد اتهموا الإمبراطورة بالخيانة بكل صراحة. ويقول الجنرال دينيكين في مذكراته التي كتبها بعد ذلك بأمد بعيد ما يلي: وكان الجميع يتحدثون داخل الجيش بصوت عال، وفي كل زمان ومكان، عن مباحثات الإمبراطورة التي كانت تطالب بسلم منفرد، وعن خيانتها إزاء الفيلد مارشال كيتشنر، الذي أعلمت الإمبراطورة الألمان عن سفره، ...إلخ. ولعب هذا الأمر دورًا كبيرًا داخل أوساط الجيش، وأثر على موقفه إزاء الأسرة المالكة والثورة". ويتحدث دينيكين، بأنه عندما سئل الكسييف بعد الثورة عن احتمال ارتكاب الإمبراطورة لجريمة الخيانة، أجاب "متهربًا ودون رضى" بأنهم وجدوا لدى الإمبراطورة عند تصنيف أوراقها خارطة سجلت عليها مواقع فيالق الجبهة بكل دقة. وأنه (الكسييف) تأثر من هذه الحادثة إلى حد بعيد... ويضيف دينيكين بشكل ذي مغزى "ولم يضف الكسييف إلى ذلك كلمة واحدة، وسارع إلى تبديل الحديث". وسواء احتفظت الإمبراطورة لديها بخارطة سرية أم لا، فقد كان الجنرالات المخطئون يميلون إلى إلقاء جزء من مسئوليات هزائمهم على عاتق الكسندرا. وانتشرت إشاعات خيانة البلاط بين أوساط الجيش، وكان معظمها قادمًا من الأعلى، أي من مقر هيئة الأركان الروسية العاجزة.

ولكن إذا كانت الإمبراطورة التي يخضع لها القيصر في كل أموره تسلم إلى غليوم كافة الأسرار العسكرية، وتضع بين يديه رءوس عدد من كبار قادة الحلفاء، فإن من الضروري القيام بأي شيء دون انتظار. وماذا يمكن القيام به في هذه الحالة سوى إنزال العقاب بالقيصر وزوجته؟ وكان عم الإمبراطور نيقولا نيقولايفيتش القائد الحقيقي للجيش والحزب المعادي لألمانيا، وهذا يعني أنه كان الشخص الأول المؤهل بحكم منصبه لقيادة ثورة القصر. وهذا ما دفع القيصر تحت إلحاح راسبوتين والإمبراطورة إلى عزل عمه، واستلام القيادة العليا بدلاً عنه. ولكن الإمبراطورة كانت تعارض مجرد محادثة العم وابن أخيه في لحظة تسليم السلطات؛ ولذا نراها تكتب إلى القيصر القابع في مقر القيادة العليا رسالة تقول فيها: "حاول يا عزيزي أن تكون حذرًا، ولا تقع ضحية أي وعود يقدمها نيقولاشا، أو ضحية أي شيء آخر. وتذكر أن غريغوري (راسبوتين) قد أنقذك منه ومن رجاله الفاسدين... إنني أحلفك باسم روسيا أن تتذكر ما كانوا يودون عمله، لقد كانوا يبغون طردك (وليس هذا لغوًا فارغًا، فقد كانت كافة الأوراق جاهزة عند أورلوف) كما كانون ينوون إبعادي إلى أحد الأديرة...".

ولقد قال شقيق القيصر ميخائيل لرودزيانكو: "تعترف كافة العائلة بمدى الأذى الناجم عن الكسندرا فيدوروفنا، ويحيط بأخي وبها عدد كبير من الخونة، ولقد ابتعد عنهما جميع الشرفاء في العمل فما مثل هذه الحالة؟" حقًا، ما العمل في مثل هذه الحالة؟

وعبرت الأميرة ماريا بافلوفنا عن مشاعرها بأن قالت أمام أبناءها بأن على رودزيانكو أن يحزم أمره ويتخلص من الإمبراطورة. واقترح رودزيانكو اعتبار هذا الحديث وكأنه لم يكن، وإلا فإن قسم الإخلاص يجبره على أن يرفع إلى القيصر تقريرًا يعلمه فيه بأن إحدى أميرات الأسرة المالكة دعت رئيس مجلس الدوما إلى التخلص من الإمبراطورة. وهكذا حول هذا الموظف الإمبراطوري المبدع مسألة اغتيال الإمبراطورة إلى نكتة لطيفة من النكات المتبادلة في الأوساط العليا.

ووقفت الوزارة نفسها في بعض الحالات موقف معارضة للقيصر. فمنذ عام ١٩١٥، أي قبل الثورة بـــ ١٨ شهرًا، كان الوزراء يتحدثون في اجتماعاتهم بشكل يبدو لنا اليوم غير معقول. وفي اجتماع مجلس الـــوزراء بتـــاريخ ٢١ أغـــسطس (آب) ١٩١٥ تحدث وزير الحربية بوليفانوف فقال: "إن سياسة المصالحة مع المجتمع وحدها قادرة على إنقاذ الموقف. ومن المؤكـــد أن الحواجز الضعيفة القائمة في الوقت الحاضر عاجزة عن إيقاف الكارثة في المستقبل". وقال وزير البحرية غريغـــوروفيتش: "ولا أذيع سرًا إذا قلت بأن الجيش لا يثق بنا، وينتظر وقوع تغييرات". وقال وزير الخارجية سازونوف: "إن شـــعبية القيـــصر وسلطته مهزوزتان في نظر الجماهير". وتحدث وزير الداخلية شتشيرباتوف فقال: "إننا جميعًا عاجزون عن حكم روســـيا فـــي الظروف الحالية.... ونحن بحاجة إلى ديكتاتورية أو لسياسة توفيقية". ولم يكن هذا الحل أو ذاك قادرًا على إنقاذ الموقف. ولـــم يكن تنفيذ أية فكرة من هذه الأفكار ممكنًا. ولم يقرر القيصر اللجوء إلى الديكتاتورية، ورفض السياسة التوفيقيـــة، ولـــم يقبـــل استقالة الوزراء الذين أقروا بعجزهم عن حكم البلاد. وكان أحد كبار الموظفين يسجل ملاحظاته على حديث مجلـــس الـــوزراء فأضاف إلى كل هذه المناقشات الوزارية الجملة الموجزة التالية: "إننا سنذهب إذن إلى المشنقة".

وليس من المستغرب أن يتحدث الناس في مثل هذه الظروف، حتى في الأوساط البيروقراطية العليا، عن ضرورة القيام بثورة القصر، على اعتبار أنها الوسيلة الوحيدة لدرء ثورة شاملة عارمة. ولقد كتب أحد المشتركين في اجتماع مجلس الوزراء المذكور آنفًا ما يلي: "لو أنني أغمضت عيني، لاعتقدت بأني وسط مجموعة من الثوريين المتطرفين إلى أبعد مدى".

وقام عقيد من الدرك بمهمة سرية لمعرفة الوضع في جيوش الجنوب فقدم في تقريره لوحة قاتمـــة: لقـــد أدت الدعايـــة الطويلة المنصبة على تواطؤ القيصر وزوجته مع الألمان إلى جعل الجيش مؤهلاً لتقبل فكرة ثورة القصر "ويتحدث الضباط في مجالسهم بكل صراحة عن هذا الموضوع، ولا تقوم القيادة العليا بأي رد فعل إزاء ذلك"، وأعلن بروتوبوبوف "بأن عددًا كبيـــرًا من شخصيات القيادة العليا كان يؤيد فكرة الثورة. وكان بعضهم على صلة وثيقة بزعماء الكتلة المسماة **بالكتلة التقدمية**".

وصرح الأمير كولتشاك -الذي اشتهر فيما بعد كقائد من قوات الثورة المضادة- أمام لجنة مـــن الـــسوفييتات، بعـــد أن هُزمت قواته أمام **الجيش الأحمر**، بأنه كان على صلة بعدد من أعضاء المعارضة في مجلس الدوما، وكان يؤيد مواقفهم، وهذا يعني "أن موقفه إزاء السلطة القائمة قبل الثورة كان سلبيًا". ومع هذا، فإن كولتشاك لم يأخذ علمًا بمخططات ثورة القصر.

وبعد اغتيال راسبوتين، وتدابير النفي والإبعاد التي شملت عددًا من أفراد الأسرة المالكة، بدأت أوساط المجتمـــع العليـــا تتحدث بصوت أقوى من أي وقت مضى عن ضرورة ثورة القصر. ويتحدث يوسوبوف عن أن عم القيصر ديميتـــري الـــذي فُرضت عليه الإقامة الإجبارية في قصره، تقابل مع ضباط من مختلف الأفواج، وعرضوا عليه عددًا مـــن مخططـــات العمـــل الحاسمة "التي لم يكن قادرًا بالطبع على قبولها".

وكان من المتعارف عليه أن دبلوماسيي الحلفاء، وسفير بريطانيا بصورة خاصة، شاركوا في إعداد المؤامرة. وفي يناير (كانون الثاني) ١٩١٧، حاول السفير البريطاني بتكليف من الليبراليين الروس التأثير على نيقولا الثاني بعد أن طلـــب الموافقـــة من حكومته. واستمع نيقولا لحديث السفير بانتباه وأدب جم، ثم شكره... وانتقل إلى الحديث بموضوع آخر. وأعلم بروتوبـــوف القيصر عن وجود علاقات بين بوشانان وأهم زعماء الكتلة التقدمية، واقترح إخضاع السفارة البريطانية لمراقبة مشددة. ويبـــدو أن نيقولا رفض اتخاذ هذا التدبير، على اعتبار أن مراقبة السفير "عمل مخالف للتقاليد الدبلوماسية العالمية". وفي تلـــك الفتـــرة أعلن كورلوف بشكل مكشوف بأن "أجهزة الاستخبارات كانت تسجل يوميًّا اتصال ميليوكوف زعيم حزب الكاديت مع الـــسفارة البريطانية"، وهكذا لم تمنع التقاليد الدولية أي شيء. ولكن خرق هذه التقاليد لم يعط أية نتيجة؛ إذ لم يتم اكتشاف أي أثر لمؤامرة القصر.

فهل كان هناك حقًا مؤامرة؟ ليس لدينا ما يثبت ذلك. فلقد كانت هذه "المؤامرة" "**منفلشه**" إلى أبعد الحدود، وكانت تضم عددًا كبيرًا من الحلقات بشكل يجعلها تفقد صفة المؤامرة. وكانت تحلق في الهواء على اعتبار أنها حالة الرأي السائد في أوساط مجتمع بطرسبورغ العليا، وفكرة غامضة لإنقاذ البلاد، وصيغة من صيغ اليأس. ولكنها لم تتركز لتصبح خطة عملية واضحة.

ولقد قامت طبقة النبلاء في القرن الثامن عشر أكثر من مرة بإدخال كثير من التعديلات على تسلسل وصول القياصرة إلى العرش. فكانت تسجن القياصرة المزعجين أو تخنقهم. ولقد تم تنفيذ ذلك لآخر مرة ضد بولص الأول في عام ١٨٠١؛ لذا فإننا لا نستطيع القول بأن ثورة القصر كانت تتعارض مع تقاليد الملكية الروسية، بل كانت على العكس عنصرًا ضروريًا لا بُدَّ منه. ولكن الأرستوقراطية كانت تحس منذ أمد بعيد بأنها لا تمتلك مقاليد الأمور بشكل تام؛ لذا قررت ترك شرف خنق القيصر للإمبراطورة والبرجوازية الليبرالية. ولكن زعماء هذه الليبرالية لم يكونوا أكثر من الأرستوقراطيين تصميمًا على العمل.

ولقد أشير بعد الثورة أكثر من مرة إلى أن الرأسماليين الليبراليين غوتشكوف وتيريشتشنكو كانا يشكلان مع صديقهما الجنرال كريموف نواة المؤامرة. ولقد تحدث غوتشكوف وتيريشتشنكو بهذا الصدد دون أن يقدما أية تفصيلات دقيقة. وكان اشتراك المناكف العدواني غوتشكوف في جيش البوير كمتطوع للقتال ضد الإنكليز يجعل منه في نظر "الرأي العام" رجلاً مؤهلاً للتآمر أكثر من غيره. ولم يكن هذا لينطبق على البروفسور المتحذلق ميليوكوف! ولا شك في أن غوتشكوف فكَّر أكثر من مرة بأن ضربة جيدة سريعة يسددها فوج من أفواج الحرس كافية للقيام بدور الثورة، ومنع اندلاع هذه الثورة. وكان ويت قد تحدث في مذكراته عن غوتشكوف الذي يكرهه، ووصف بأنه من أنصار الأساليب التي استخدمها أفراد **جماعة تركيا الفتاة** لتصفية حسابهم مع سلطان لا يرغبون بوجوده. ولكن غوتشكوف الذي لم تتح له الظروف ليبرهن في شبابه على شجاعة تماثل شجاعة جماعة تركيا الفتاة، أصبح الآن عجوزًا مسنًا. خاصة وأن منافس ستوليبين كان يرى بوضوح الفرق القائم بين الأوضاع الروسية وأوضاع تركيا القديمة. وكان يخشى أن لا تكون ثورة القصر تدبيرًا وقائيًّا ضد الثورة، بل ضربة أخيرة تثير الانهيار، أي ألا يكون الدواء أسوأ من المرض؟

وإننا لنجد في الكتابات المخصصة لثورة فبراير (شباط) كثيرًا من الأحاديث عن الإعدادات لثورة القصر، وكأنها أمر تم تنفيذه. ويتحدث ميليوكوف عن ذلك بقوله: "وتقرر تنفيذ هذه الخطة في فبراير (شباط)". ولكن دينيكين يؤكد أن موعد العملية كان في مارس (آذار). ويشير كلٌ من هذين الشخصين إلى أنه كان مشتركًا في "خطة" توقيف القطار الإمبراطوري خلال تِجواله، وإجبار القيصر على التنازل عن العرش، واللجوء إلى "تصفية القيصر جسديًّا" إذا ما رفض التنازل عن العرش كما هو متوقع. ويضيف ميليوكوف أن احتمال وقوع الانقلاب العسكري دفع زعماء الكتلة التقدمية، الذين لم يشتركوا في المؤامرة أبدًا، ولم يكونوا على إطلاع كامل بإعدادات المتآمرين، إلى إجراء المناقشات داخل لجان صغيرة؛ بغية اكتشاف أفضل الأساليب للإفادة من الانقلاب العسكري بعد نجاحه. ولقد ظهرت في السنوات الأخيرة دراسات ماركسية متعددة تؤكد صحة وجود الاستعدادات العملية لثورة القصر. ويدلنا هذا المثال إلى كيفية احتلال الأساطير بسهولة وقوة مكانًا مرموقًا في علم التاريخ.

وكثيرًا ما يقدم الكتاب كدليل على وجود المؤامرة الحديث البليغ الذي قدمه رودزيانكو، وأكد فيه عدم وجود أية مؤامرة. ففي يناير (كانون الثاني) ١٩١٧ كان الجنرال كريموف عائدًا من الجبهة إلى العاصمة، فاشتكى أمام مجلس الدوما من الوضع الذي لا يُحتمل: "وسنقدم لكم الدعم إذا ما حزمتم أمركم لتنفيذ هذا التدبير الأقصى (عزل القيصر)". **إذا ما حزمتم أمركم**... وصرخ الأكتوبري شيدلوفسكي بعصبية: "أن من غير المجدي معاملته برفق ورأفة طالما أنه يقود روسيا إلى الضياع!" ووسط نقاش حامٍ، ذُكر حديث صحيح أو مشكوك به على لسان بروسيلوف الذي قال: "إذا توجب عليَّ أن أختار بين القصر وروسيا فإنني أختار روسيا"، **إذا توجب!** وبدا المليونير الشاب تيريشتشنكو مصممًا على التخلص من الإمبراطور. وأعلن شينغاريف

وهو من حزب الكاديت ما يلي: "إن الجنرال على حق، والانقلاب ضروري لا بُدَّ منه، **ولكن من ذا الذي سيقرر القيام به؟**" إن المسألة كلها كامنة هنا: من ذا الذي سيقرر القيام به. هذا هو موجز تصريحات رودزيانكو الذي وقف ضد فكرة الانقلاب. ولم يحز المخطط خلال الأسابيع القليلة التالية على أي تقدم ملحوظ. وتحدث الكثيرون عن إيقاف القطار الإمبراطوري، ولكننا لا نرى من هو الشخص المكلف بتنفيذ هذه العملية.

عندما كانت الليبرالية الروسية فتية، كانت تدعم بمالها وتعاطفها الثوريين – الإرهابيين؛ لاعتقادها بأن قنابل الإرهابيين ستجبر الملكية على السقوط بين ذراعيها. ولم يكن أي واحد من هؤلاء الوجهاء المحترمين قد اعتاد على المخاطرة برأسه. ولم يكن الخوف خوف أشخاص بقدر ما هو خوف طبقة، وكانوا يفكرون كما يلي: الأمور تسير الآن بشكل سيء. ولكن ماذا إذا ما وقعنا في الأسوأ! ولو سار غوتشكوف وتيريشتشنكو وكريموف خطوات جادة على طريق الانقلاب العسكري، وأعدوه عمليًّا، وعبئوا القوى والإمكانات اللازمة له، لعلمنا بذلك بعد الثورة بكل دقة، لأن المشتركين في مثل هذا العمل، وخاصة المنفذين الشبان اللازمين الذين لا بُدَّ من وجودهم بأعداد كبيرة، كانوا سيتكلمون بكل بساطة، دون أن يكون هنالك ما يمنعهم من التحدث عن عمل تم تنفيذه "تقريبًا"، خاصة وأن هذه المشاركة تُؤمِّن لهم منذ فبراير (شباط) مستقبلاً سياسيًّا أفضل. ومع هذا لم يتقدم أحد بمثل هذه المعلومات. ومن المؤكد أيضًا أن غوتشكوف وكريموف لم يدفعا الأمر إلى أبعد من حدود التنهدات الوطنية بين كأس من الخمر وسيجار. وهكذا لم يجد أفراد الطبقة الأرستوقراطية الحمقى، ورجال المعارضة المالية الأغبياء الشجاعة الكافية للقيام بعمل يصحح مسيرة البلاد الخاطئة.

وفي مايو (آيار) ١٩١٧، عقد اجتماع خاص في مجلس الدوما تحدث به ماكلاكوف، وهو واحد من أكثر الليبراليين ثرثرة وأشدهم سخفاً، وقال بأن الثورة ستطرد الدوما مع الملكية: "فإذا ما لعنت الأجيال المقبلة هذه الثورة، فإنها ستلعننا أيضًا لأننا لم نعرف كيف نستبعد الأحداث في الوقت الملائم بانقلاب عسكري يأتي من الأعلى!" ثم تحدث كرنسكي في منفاه بعد ذلك وعبر عن ندمه وأساه بقوله: "نعم، لقد ترددت روسيا الموسرة طويلاً أمام فكرة القيام بانقلاب عسكري يأتي من الأعلى (الذي تحدث الكثيرون عنه، وتم إعداده بشكل كامل [؟])، وهذا ما جعلها تتأخر في درء انفجار القوى الأولية في الدولة".

وتكمِّل هاتان الشهادتان المفعمتان بالاستغراب والأسى اللوحة التي تُؤكد بأنه رغم اندفاع الثورة، ورغم انطلاق كافة قوى الثورة الجامحة، فإن هنالك علماء تافهين يصرون على الاعتقاد بأنه كان من الممكن استباق الثورة ودرؤها عن طريق استبدال الرأس الملكي الصغير! "في الوقت الملائم".

ولم يتمتع أنصار ثورة القصر بجرأة كافية لشن ثورتهم "الكبرى" فنجم عن ذلك ظهور خطة انقلاب صغير. ولم يجرؤ المتآمرون الليبراليون على التخلص من الشخص الأساسي في الملكية، وقرر أفراد الأسرة المالكة المقربون التخلص ممن يقف وراء القيصر ويوحي له بأفكاره: فاعتبروا اغتيال راسبوتين الوسيلة النهائية لإنقاذ الأسرة المالكة.

وأمَّن الأمير يوسوبوف، المتزوج من إحدى أميرات رومانوف، دعم عم الملك ديميتري بافلوفيتش، والنائب الملكي بوريشكيفيتش. وحاول هؤلاء الثلاثة اجتذاب الليبرالي ماكلاكوف لإعطاء عملية القتل طابعًا وطنيًّا. وانسحب المحامي الشهير بكل تَعَقُّل، بعد أن حصل على السم وسلمه للمتآمرين. وهذا تفصيل كبير الأهمية! ورأى المتآمرون بأن وجود سيارة من سيارات القصر الإمبراطوري معهم يسهل عملية التخلص من الجثة، ووجد شعار الأسرة الملكية السبيل إلى استخدامه. ومرت الأحداث وكأنها تجري وفق تعليمات مخرج سينمائي يعد فيلمًا لا يتمتع بذوق رفيع. وفي ليلة ١٦ – ١٧ ديسمبر (كانون الأول) تم اجتذاب راسبوتين إلى وليمة في قصر يوسوبوف، حيث أجهز عليه.

فإذا استثنينا شلة ضيقة جدًا، وعددًا من المعجبات براسبوتين إلى درجة العبادة، وجدنا أن الطبقات المالكة اعتبرت مقتل "القديس العجوز" عملاً من أعمال الخلاص. وأوقفت السلطات عم الملك في قصره، بعد أن خضب يديه، حسب تعبير القيصر نفسه، بيد الموجيك -ومن المقبول أن يلقب راسبوتين بالمسيح، أما أن يكون موجيكا، فهذا أمر كبير!- وكان ديميتري يتلقى في قصره زيارات المجاملة التي يقوم بها أفراد الأسرة الإمبراطورية المقيمين في بتروغراد. حتى أن أخت الإمبراطورة نفسها، وهي أرملة الأمير سيرج أحد أفراد الأسرة المالكة المقربين بعثت إلى المتهمين ببرقية تبارك فيها عملهم الوطني. وأخذت الصحف تنشر، قبل منع الإشارة إلى راسبوتين، عددًا من المقالات المتحمسة. وجرت بعض المحاولات في المسارح لتقديم عدد من المشاهد على شرف القتلة. وتبادل المارة في الشارع التهاني. وكتب الأمير يوسوبوف: "وشرب الناس نخبنا في المنازل الخاصة، واجتماعات الضباط، وأطلق العمال في المصانع صيحات التأييد على شرفنا". وهناك ما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن العمال استقبلوا نبأ مصرع راسبوتين دون أن يحسوا بأي أسًى. ولكن تأييدهم لم يصل إلى حد الآمال المبنية على استبدال الأسرة المالكة.

وقبعت شلة راسبوتين في موقف الانتظار والترقب، وكانت مراسم دفن "القديس العجوز" بسيطة لا تتسم بالأبَّهة. واشترك في الجنازة القيصر وزوجته وبناتهما وفيروبوفا. وأحست الأسرة المالكة أمام جثة القديس الصديق، وسارق الخيول السابق الذي قتله أقرباء الإمبراطور بشيء من الانعزال. ولم يجد راسبوتين الراحة حتى بعد موته. فعندما وضعت السلطات الثورية نيقولا والكسندرا رومانوف في حالة التوقيف، نبش بعض جنود تساركويه – سيلا قبره، وفتحوا التابوت، فوجدوا عند رأس الجثة أيقونة نقش عليها ما يلي: "الكسندرا، أولغا، تاتيانا، ماريا، اناستازيا، آنيا" وأرسلت الحكومة المؤقتة ممثلاً عن السلطة -وإننا لنتساءل لم فعلت ذلك- بغية جلب الجثة إلى بتروغراد. ولكن الجماهير وقفت ضد هذه العملية، واضطر ممثل السلطة إلى إحراق الجثة في مكانها.

ولم تعش الملكية بعد مقتل الصديق سوى عشرة أسابيع. ولكنها امتلكت هذه الفترة من الزمن بلا جدال. واختفى راسبوتين، ولكن شبحه ظل يمارس الحكم. وتصرف الإمبراطور وزوجته بعد مقتل راسبوتين على عكس ما توقعه المتآمرون. وأصرا على أن يكون على رأس البلاد أسوأ عناصر شلة راسبوتين، وأكثرهم استقطابًا لاحتقار الشعب. وأراد القيصر أن يثأر لدم القتيل فعيَّن في منصب وزير العدل شخصًا تافهًا تمامًا. ونُفي عدد من أقارب الإمبراطور إلى خارج العاصمة. وتناقل الناس خبرًا يقول بأن بروتوبوبوف كان يعمل على استحضار الأرواح، ويستحضر روح راسبوتين. وضاقت عقدة الوضع العصيب الذي لا مخرج له.

ولعب اغتيال راسبوتين دورًا كبيرًا، ولكنه لم يصل إلى حدود الدور الذي تطلع إليه المنفذون والمتآمرون. وأدى الاغتيال إلى زيادة خطورة الأزمة بدلاً من تخفيف حدتها. وأخذ الجميع يتحدثون عن حادثة القتل في القصر، ومقرات هيئات الأركان، والمصانع، وأكواخ القرويين. واستنتج الجميع بأن أفراد الأسرة المالكة لم يجدوا وسيلة للصراع ضد "الشلة المجذومة" سوى السم والمسدس. وكتب الشاعر بلوك عن اغتيال راسبوتين ما يلي: "وأصابت الرصاصة التي قتلته قلب الأسرة المالكة".

* * *

لقد تحدث روبسبيير من قبل أمام المجلس التأسيسي، وذكر بأن معارضة النبلاء أضعفت الملكية، وحركت البرجوازية، والجماهير الشعبية من بعدها. ثم **أطلق روبسبيير هذا التحذير**: لن تستطيع الثورة في بقية أرجاء أوروبا أن تتطور بالسرعة التي عرفتها في فرنسا؛ لأن الطبقات المتميزة في البلاد الأخرى تعلمت من تجربة طبقة النبلاء الفرنسية دروسًا تمنعها من البدء بشن الثورة. وبالرغم من دقة تحليل روبسبيير وصحته، فلقد أخطأ هذا السياسي عندما اعتقد بأن حماقة طبقة النبلاء الفرنسية

خلال المعارضة أعطت للأرستوقراطيين في كافة البلاد درسًا لا يُنسى. وأثبتت روسيا في عام ١٩٠٥، وعام ١٩١٧ بأن الثورة الموجهة ضد نظام أوتوقراطي نصف استعبادي، أي بالتالي ضد الطبقة النبيلة تتلقى في بداية مسيرتها دعمًا فعالاً رغم تناقضه وانعدام منهجيته. ولا يأتي هذا الدعم من طبقة النبلاء المتوسطة فحسب، بل من القمة المتميزة لهذه الطبقة أيضًا، بما في ذلك بعض أفراد الأسرة المالكة. وتبدو هذه الظاهرة التاريخية غير منسجمة مع نظرية مجتمع يضم عدة طبقات، ولكنها لا تناقض في الحقيقة سوى المفهوم البدائي لهذه النظرية.

إن الثورة تندلع عندما تصل الصراعات الاجتماعية إلى أعلى درجات توترها. ولكن ارتفاع التوتر هذا يجعل الوضع غير محتمل حتى بالنسبة لطبقات المجتمع القديم، أي بالنسبة للطبقات التي حُكم عليها بالزوال. ونحن لا نريد إعطاء التشابه بين الظواهر الطبيعية والظواهر الاجتماعية أهمية أكبر مما ينبغي، ولكننا نود الإشارة إلى أن الولادة تغدو في لحظة معينة عملية ضرورية محتومة بالنسبة للأم وللوليد الجديد أيضًا. وتبرهن معارضة الطبقات المتميزة على أن وضعها الاجتماعي التقليدي عاجز عن تأمين متطلبات بقاء المجتمع. وتبدأ البيروقراطية الحاكمة بترك الأمور تجري على أعنتها، وتحس الأرستوقراطية بأن العِداء العام موجه إليها بصورة خاصة، فتلقي وزر الخطأ على كاهل البيروقراطية التي تتهم بدورها الأرستوقراطية، ثم توجه الأرستوقراطية والبيروقراطية عداءهما بصورة مجتمعة أو منفردة ضد الملكية التي تتوج سلطتهما.

ويكتب الأمير شتشيرباتوف، الذي دُعي إلى الوزارة وكان يشغل عدة وظائف في مؤسسات طبقة النبلاء: "أن سامارين وأنا مارشالان قديمان من مارشالات طبقة النبلاء. وليس هناك من يعتبرنا حتى الآن شخصين يساريين، كما أننا لا نعتبر أنفسنا كذلك. ولكننا عاجزان عن فهم الوضع القائم في الدولة: فالملك وحكومته مختلفان بشكل جذري مع كل القوى الحكيمة العاقلة في المجتمع كالنبلاء، والتجار، والبلديات، والزيمستفو، والجيش (ولا يستحق المتآمرون الثوريون أن نتحدث عنهم). فإذا كانت السلطة العليا عازفة عن سماع آرائنا، فإن من واجبنا أن نترك كل شيء ونرحل".

وهكذا ترى طبقة النبلاء أن مصدر كل بلاء كامن في أن الملكية أصيبت بالعمى، أو فقدت الرشد. ولا تعتقد الطبقة المتميزة بأنه لم يعد من الممكن بصورة عامة إيجاد سياسة تُؤَمن توافق المجتمعين القديم والجديد وتعايشهما. أي أن طبقة النبلاء ترفض قبول فكرة موتها، وتقف خلال حشرجة النزع الأخير ضد أقدس ما في النظام القديم، أي ضد الملكية. ويمكن تفسير عنف المعارضة الأرستوقراطية ولا مبالاتها، بالامتيازات التي تمتعت بها أوساط النبلاء العُليا تاريخيًا، وبخوف هذه الأوساط من فكرة اندلاع الثورة. كما يمكن تفسير انعدام منهجية ثورة الطبقة الأرستوقراطية في القرن السابع عشر (ثورة الفروند) وتناقضاتها بأنها كانت مقاومة طبقة وجدت كافة السبل أمامها مسدودة. وكما يرتجف لهب المصباح ويشع منه ضوء قوي -لا يخلو من دخان- قبل انطفائه، فإن طبقة النبلاء عرفت قبل انطفائها إشعاعات معارضة قدَّمت لأخطر أعدائها أفضل الخدمات. وهكذا كانت جدلية هذا التطور الذي لا يتطابق مع نظرية طبقات المجتمع فحسب، بل ويتعذر تفسيره دون هذه النظرية.

احتضار الملكية

لقد سقطت الأسرة المالكة من جراء الهزة وكأنها ثمرة فاسدة. وتم كل ذلك قبل أن يتاح للثورة الوقت اللازم لحل معضلاتها المُلحة. ولا يمكن أن تكتمل صورة الطبقة الحاكمة القديمة إلا إذا تحدثنا عن وضع الملكية في فترة سيرها نحو ساعة سقوطها.

كان القيصر في آخر أيام حكمه قابعًا في مقر القيادة العليا، في موهيليف. ولم يكن ذهابه إلى هذا المكان ناجمًا عن الحاجة الملحة لوجوده، بل للهروب من المشاكل التي تسببها له بتروغراد. وتقول مذكرات **مؤرخ البلاط** الجنرال دوبينسكي الذي رافق القيصر إلى مقر القيادة العليا ما يلي: "الحياة هنا هادئة. وستسير كافة الأمور كما كانت من قبل. ولا ينتظر منه (من القيصر) هنا القيام بأي شيء، إلا إذا وقعت ظروف استثنائية قاهرة، وسبَّب عن طريق الصدفة بعض التعديل...". وفي ٢٤ إبريل (شباط) كتبت الإمبراطورة (بالإنكليزية على عادتها) إلى نيقولا الثاني المقيم في مقر القيادة العليا: "آمل أن يشنق نائب الدوما كدرنسكي (وهي تقصد كرنسكي) لمعاقبته على الخطب الشنيعة التي يلقيها، إن هذا ضروري (قانون الطوارئ)، وسيكون عبرة لمن يعتبر. ويرغب الجميع في رؤيتك أكثر شدة، وهم يرجونك أن تكون كذلك". وفي ٢٥ فبراير (شباط) تلقى مقر القيادة العليا برقية صادرة عن وزارة الحربية تعلن اندلاع الإضرابات في العاصمة، وابتداء الإضرابات في الأوساط العمالية، كما تعلن عن اتخاذ تدابير مشددة، وعدم وقوع حوادث خطيرة. وهذا يعني أن ما حصل بسيط مشابه لما شهدته البلاد من قبل وما ستشهده فيما بعد.

وحاولت الإمبراطورة تقوية عزيمة زوجها الذي اعتادت مناشدته بعدم الخضوع والانصياع، فأرسلت في ٢٦ فبراير (شباط) برقية تستهدف منها استثارة شجاعته المهزوزة وتقول فيها: "كل شيء هادئ في المدينة". ولكنها لم تلبث أن أرسلت في المساء برقية اعترفت فيها بأن "الأمور لا تسير في المدينة كما ينبغي". ثم كتبت رسالة تؤكد بها ما يلي: "ينبغي أن نعلن للعمال بكل وضوح بأن الإضراب ممنوع. وأن مخالفة هذا الأمر تعني إرسالهم إلى الجبهة لمعاقبتهم. إن إطلاق النار لا يجدي فتيلاً، والمهم تأمين استتباب النظام، ومنع العمال من اجتياز الجسور". نعم لقد كان الأمر بحاجة لشيء من النظام فحسب! وعدم السماح للعمال بالوصول إلى مركز المدينة، وتركهم يموتون خنقًا وسط عجزهم الغاضب في الضواحي.

وفي صبيحة ٢٧ استُدعِي الجنرال إيفانوف من الجبهة إلى العاصمة على رأس كتيبة من فرسان القديس جورج، وزُود بسلطات مطلقة ديكتاتورية على أن لا يستخدمها إلا بعد الوصول إلى تساركويه – سيلا. ولقد كتب الجنرال دينيكين -الذي حاول فيما بعد تطبيق أساليب الديكتاتور العسكري- ما يلي: "يصعب أن نتخيل شخصًا أقل ملاءمة للوضع من هذا الجنرال. إنه عجوز متهالك، لا يعي حقيقة الوضع السياسي، ولم يعد يمتلك القوة أو الفاعلية أو الإرادة أو العزم". ووقع الاختيار على إيفانوف بناء على الصورة التي تركها عمله في الأذهان خلال الثورة الأولى؛ إذ أنه سحق قبل إحدى عشرة سنة انتفاضة كرونشتادت. ولكن هذه السنوات لم تمض دون أن تترك آثارها؛ فلقد أنهكت الأيام المعاقبين، وغدا من تعرضوا للعقاب رجالاً أكثر نضجًا. وتلقت الجبهتان الشمالية والغربية أمرًا بإعداد القطعات اللازمة لإرسالها إلى بتروغراد. واعتقدت السلطات دون ريب أن أمامها وقتًا كافيًا للعمل. واعتقد إيفانوف بأنه سيُنهي كل شيء بنجاح، ولم ينس أن يكلف أحد مرافقيه بأن يشتري له من موهيليف بعض المؤن والهدايا ليقدمها لمعارفه في بتروغراد.

وفي صبيحة ٢٧ فبراير (شباط) بعث رودزيانكو إلى القيصر برقية ختمها بما يلي: "لقد أزفت الساعة الأخيرة، ومصير الوطن والأسرة المالكة رهن بها". وقال القيصر لوزير البلاط الكونت فريدريكس: "ها هو رودزيانكو البدين يكتب لي مرة ثانية هذا النوع من الهراء الذي لن أعمد إلى الرد عليه أبدًا". ولكنه لم يكن هراءً! ووجد القيصر نفسه بعد قليل مجبرًا على الرد.

وفي ظهيرة يوم ٢٧ نفسه، تلقى مقر القيادة العليا تقريرًا من الجنرال خابالوف عن عصيان فوج بافلوفسكي، وفوج بريوبر اجينسكي، والفوجين الفولهيني والليتواني. وعن ضرورة إرسال قطعات عسكرية موثوقة من الجبهة. وبعد ساعة واحدة جاءت من وزير الدفاع برقية مطمئنة تمامًا تقول: "تم سحق الاضطرابات التي بدأت هذا الصباح في بعض عناصر الحامية، ونفذت عملية السحق بفضل وفعالية سرايا وكتائب مخلصة لواجبها... وإنني على ثقة تامة من عودة الهدوء بسرعة...". ولم تأت الساعة السابعة مساء حتى كتب هذا الوزير (بيلائيف) نفسه تقريرًا يقول فيه: "لم تتمكن الوحدات القليلة الباقية على إخلاصها لواجبها من الإجهاز على العصيان"، ويطالب الإسراع بإرسال قطعات مضمونة فعلاً، على أن تكون كافية "للعمل في مختلف قطاعات المدينة بآنٍ واحد".

واعتقد الوزراء في هذا اليوم أن الوقت ملائم لتطهير وسطهم من وزير الداخلية بروتوبوبوف، بعد أن اعتبروه المسئول الأول عن تدهور الوضع كله. ونشر الجنرال خابالوف في الوقت نفسه وثيقة يُعلن فيها الأحكام العرفية في بتروغراد، دون إذن من الحكومة، معتمدًا بذلك على أوامر جلالته. بهذا الشكل كانوا يحاولون جمع الساخن مع البارد، ويعملون بدون تفكير أو إعداد أو أي أمل بالنجاح. ولم تتمكن السلطات من تعليق الأمر الخاص بإعلان الأحكام العرفية على جدران المدينة؛ إذ لم يجد **بالكا** محافظ العاصمة الصمغ والفراشي اللازمة لذلك. والحقيقة أنه لم يعد لدى هذه السلطات أي شيء متماسك، فقد غدت جزءًا من مملكة الظلال.

وكان أكبر هذه الظلال في آخر وزارة من وزارات القيصر رجل في العقد السابع من عمره هو الأمير غوليتزين، الذي قام من قبل ببعض الأعمال لمساعدة الإمبراطورة، بشكل جعلها تعينه رئيسًا للحكومة في فترة الحرب والثورة. وعندما كان الأصدقاء يسألون هذا "النبيل الروسي الدمث"، وهذا "العجوز المتهالك"، (حسب تعبير البارون الليبرالي نولد)، لم قَبِل مثل هذا المنصب مع كل ما يحمله من متاعب، كان غولتزين يجيب: "لكي أجمع ذكريات طيبة إضافية"، ولكنه لم يحقق حتى هذه النتيجة. ولوصف الحالة المعنوية لآخر حكومة قيصرية في هذه الساعات لا يسعنا سوى الاستشهاد بأقوال رودزيانكو: "وما أن جاءت أول أخبار حركة الجماهير نحو قصر ماري؛ حيث يجتمع مجلس الوزراء، حتى أطفئت كافة أنوار المبنى. وأصبح هَم الوزراء الوحيد أن لا تلحظ الثورة وجودهم. بَيْد أن الخبر لم يكن صحيحًا، ولم يهاجم أحد القصر. وعندما أضيئت الأنوار من جديد وجد أحد الوزراء نفسه مختبئًا تحت طاولة كبيرة، ولسنا نعرف ما هي الذكريات التي كان يجمعها في هذا المكان".

ولكن الحالة المعنوية لرودزيانكو لم تكن على مستوى الأحداث. فلقد حاول رئيس مجلس الدوما أكثر من مرة الاتصال هاتفيًّا مع الأمير غوليتزين ولكن الأمير أجابه: "أرجو أن لا تتصل بي بعد الآن، فلقد قدمت استقالتي"، ويقول أمين سر رودزيانكو أنه ما إن سمع رئيس مجلس الدوما هذا النبأ حتى تهالك على أحد المقاعد، وغطى وجهه بكلتا يديه... "يا إلهي! هذا رهيب! لم يعد لدينا سلطة! إنها فوضى مؤكدة!.. إنه الدم!.." وبكى بهدوء. وعندما اختفى شبح السلطة القيصرية الهرمة أحس رودزيانكو بأنه تعيس، منبوذ، يتيم. فكم كان في تلك الساعة بعيدًا عن التفكير بأنه سيقف في اليوم التالي "على رأس الثورة".

وتفسر إجابة غوليتزين الهاتفية كما يلي: "في مساء ٢٧ اعترف مجلس الوزراء نهائيًّا بعجزه عن السيطرة على الموقف. وطلب من القيصر أن يضع على رأس الحكومة شخصية تتمتع بثقة الجميع. ورد القيصر على غوليتزين: "إنني أعتبر أن أي

تبديل في الأشخاص وسط هذه الظروف العصيبة أمر غير مقبول. نيقولا". فما هي الظروف التي كان ينتظرها؟ لقد كان يــصر على ضرورة اتخاذ "تدابير جد حازمة" لسحق الانتفاضة. ولكن الحديث في هذا الصدد أسهل من التنفيذ.

وفي ٢٨ فقدت الإمبراطورة الصامدة بدورها شجاعتها. فبعثت إلى نيقولا برقية تقول فيها: "لقد غدت التنــازلات أمــرًا ضروريًا، فالإضرابات مستمرة، كما انضم عدد كبير من القوات إلى صفوف الثورة، ألــيس (الكــسندرا)". وهكــذا انتظــرت الإمبراطورة الألمانية الأصل، المتمسكة بالحكم المطلق، حتى ثارت كافة قطعات الموقع وأفواج الحرس الإمبراطوري قبــل أن تعترف بأن "التنازلات غدت أمرًا ضروريًا". عندها بدأ القيصر يلاحظ بأن "رودزيانكو البدين" لم ينقل له هراءً؛ فقرر الالتحــاق بأسرته. ومن المحتمل أن يكون وراء إبعاده عن مقر القيادة العليا عدد من جنرالات القيادة الذين أحسوا بــبعض الــضيق مــن وجوده.

وسار القطار الإمبراطوري في بداية الأمر دون حوادث. وكان رؤساء الشرطة وحكام المقاطعات يأتون كالمعتاد لتحية القيصر في المحطات. وكان القيصر يبدو في عربة قطاره بعيدًا عن خضم الثورة، ووسط حاشيته المألوفة، وكأنه فقد الإحساس بوجود أزمة حادة واسعة النطاق. في الساعة الثالثة من بعد ظهر ٢٨ فبراير (شباط)، كان تطور مسار الأحداث قد حدد مصير القيصر، ومع هذا بعث نيقولا من فيازما إلى الإمبراطورة البرقية التالية: "الطقس جميل جدًا، آمل أن تكوني هادئــة وبــصحة جيدة. لقد أرسلت قوات عديدة من الجبهة، بكل ود، المخلص نيكي (نيقولا)". وبدلاً من أن يقدم القيصر الودود التنازلات التــي ألحت الكسندرا بطلبها، نراه يرسل قوات من الجبهة. ولكن "جمال الطقس" لم يمنع القيصر من أن يقابل العاصفة الثوريــة بعــد عدة ساعات. ووصل القطار الإمبراطوري إلى محطة فيتشيرا، ولكن عمال السكة الحديدية رفضوا السماح له بالذهاب إلى أبعد من ذلك؛ "فهناك جسر لا تسمح حالته بالعبور". ومن المحتمل أن تكون حاشية الإمبراطور وراء اختلاق هذه الحجة بغية تخفيف خطورة الموقف أمام القيصر. وحاول نيقولا المرور، أو حاولوا إيجاد مسلك لقطاره عبر بولوغوايه الواقعة على السكة الحديدية الواصلة بين موسكو وبتروغراد. ولكن عمال السكة الحديدية رفضوا فتح هذا السبيل أمام القطار الإمبراطوري. وبدا الوضــع الملموس أكثر بلاغة من كافة البرقيات القادمة من بتروغراد. لقد وجد القيصر نفسه مقطوعًا عن مقر القيــادة العليــا، دون أن يجد السبيل إلى عاصمته. وهكذا استطاعت الثورة هزيمة الملك بعدد من "البيادق"! الممثلة بعمال السكك الحديدية.

وتذكر مذكرات مؤرخ البلاط دوبينسكي الذي رافق القيصر في قطاره ما يلي: "يعترف الجميع بــأن الانعطــاف الــذي أصاب الموقف في هذه الليلة في فيتشيرا يتمتع بأهمية تاريخية... وإنني أرى بوضوح بأن مسألة الدستور قد حُلت. ومن المؤكد أن الشعب سيحصل على هذا الدستور... ويقول الجميع بأن من الضروري مساومتهم، أي مساومة أعضاء الحكومة المؤقتــة". إن طريق السكة الحديدية مقطوع بإشارة ضوئية يكمن بعدها خطر الموت. والكونت فريدريكس، والأمير دولغــوروكي، ودوق لوشتينبيرغ، وغيرهم من السادة المحترمين يؤيدون اليوم فكرة منح الدستور، ولا يفكرون لحظــة واحــدة بمتابعــة الــصراع. وينصب همهم فقط على ضرورة المساومة، أي على ضرورة محاولة خداع الناس، بأسلوب عام ١٩٠٥.

وعندما كان القطار الإمبراطوري يتسكع باحثًا عن سبيل ملائم، بعثت الإمبراطورة لزوجها برقية تلو الأخرى، ترجــوه فيها أن يعود بأسرع وقت ممكن. ولكن البرقيات كانت تعود إليها وقد كتب عليها بقلم رصاص أزرق "المرسل إليــه مجهــول الإقامة"، وغدا عمال البرق عاجزين عن العثور على قيصر روسيا...

وسارت الأفواج نحو قصر توريد تتقدمها الأعلام والموسيقى. وانتفض بحّارة أسطول الحرس تحــت قيــادة ابــن عــم القيصر كيريل فلاديميروفيتش الذي أخذ فجأة -حسب شهادته الكونتيسة كلينميشيل- موقفًا ثوريًا. وتبعثر الموظفون فــي كــل مكان. وهجرت حاشية القصر المكان. ووصفت فيروبوفا ذلك بأنه: "كان فرارًا يحاول كل واحد بــه إنقــاذ جلــده". وأخــذت

جماعات الجنود الثوريين تتجول في أبهاء القصر، وتتفحص كل شيء بكثير من حب الاطلاع، وقبل أن تقرر الأوساط العليا مصير الملكية، كانت عناصر القاعدة قد حولت قصر القياصرة إلى متحف.

واتجه القيصر، الذي فقد عنوان إقامته، إلى بسكوف محاولاً الوصول إلى مقر قيادة الجبهة الشمالية العاملة تحت رئاسة الجنرال العجوز روسكي. وقدم أفراد الحاشية الإمبراطورية اقتراحات متتالية. وتردد القيصر طويلاً. فقد كان يعتمد على الأيام والأسابيع، على حين كانت الثورة تحسب الوقت بالدقائق.

ولقد وصف الشاعر الكسندر بلوك القيصر في أشهر حكمه الأخيرة كما يلي: "إنه عنيد ولكنه بلا إرادة، وعصبي ولكنه فَقَد حدَّته من كافة الوجوه، ولا يثق بأي إنسان، انفعالي ولكنه حريص في أقواله. لقد فَقَد سيطرته على نفسه، كما فَقَد القُدرة على فهم الموقف، وغدا لا يحس بمعنى ما يقوم به، ويترك نفسه بين أيدي أولئك الذين رفعهم إلى سدة السلطة". فإلى أي درجة تصاعدت هذه الصفات الخاصة، كنقص الإرادة، والعصبية، والحرص، والحذر في نهاية فبراير (شباط) وبداية مارس (آذار)!

وأخيرًا قرر نيقولا أن يبعث إلى رودزيانكو الذي يكرهه برقية تقول بأن خلاص البلاد يتطلب تكليف رئيس مجلس الدوما بتشكيل وزارة جديدة شريطة أن يحتفظ القيصر لنفسه بتوزيع وزارات الخارجية والحربية والبحرية. ولكن يبدو أن هذه البرقية لم تُرسل أبدًا. وهكذا كان القصر راغبًا بالمساومة مع "هؤلاء الناس"، ولكن هل تحركت "القطعات العديدة" نحو بتروغراد أم لا؟

لقد وصل الجنرال إيفانوف إلى تساركويه - سيلا دونما عناء؛ إذ لم يكن عمال السكك الحديدية قادرين على مجابهة كتيبة من فرسان القديس جورج. واعترف الجنرال فيما بعد، أنه اضطر خلال الطريق إلى استخدام "التأنيب الأبوي" إزاء جنود عاديين تحدثوا معه بجلافة وغلظة؛ إذ كان يجبرهم على الركوع استغفارًا. وما أن وصل "الديكتاتور" إلى تساركويه - سيلا حتى أعلمته السلطات المحلية بأن أي نزاع بين كتيبة فرسان القديس جورج وقطعات الجيش الأخرى سيحمل في طياته خطرًا كبيرًا على أفراد الأسرة المالكة. والحقيقة أن هذه السلطات التي خشيت على مركزها، نصحت هذا القادم "لإحلال السلام" بالتراجع قبل أن ينزل جنوده من عرباتهم.

وطرح "الديكتاتور" إيفانوف على "الديكتاتور" الآخر خابالوف عشرة أسئلة، رد عليها خابالوف بكل جلاء. وها نحن نقدم نصها الحرفي؛ نظرًا لأهميتها:

أسئلة إيفانوف	أجوبة خابالوف
١) ما هي القطعات التي بقيت منضبطة، والقطعات السائرة على طريق الفوضى؟	١) عندي تحت تصرفي في مباني الأميرالية أربع سرايا حرس، وخمس سرايا (كواكب) من خيالة القوزاق. وبطاريتي مدفعية. أما بقية القطعات فقد انضمت إلى صفوف الثورة، أو اتفقت مع الثوريين على الوقوف موقفًا محايدًا. وهناك جنود وعصابات يتجولون في المدينة ويجردون الضباط من سلاحهم.
٢) ما هي المحطات الواقعة تحت سيطرة قوات الحكومة؟	٢) لقد سقطت كافة المحطات بِيد القوات الثورية التي تحرسها حراسة مشددة.
٣) ما هي أحياء المدينة التي يستتب فيها النظام؟	٣) المدينة كلها في قبضة الثوار، والهواتف معطلة، وليس هناك أي اتصال مع الأحياء.
٤) ما هي السلطات المسيطرة على الإدارة في هذه الأحياء؟	٤) لا أستطيع الإجابة عن هذا السؤال.
٥) هل تعمل كافة الوزارات بشكل اعتيادي؟	٥) لقد أوقف الثوريون كافة الوزراء.
٦) ما هي سلطات الشرطة الخاضعة لكم الآن؟	٦) ليس هناك أية سلطة.
٧) ما هي المؤسسات التقنية والإدارية التابعة لوزارة الحربية؟	٧) لا يوجد.
٨) ما هي كمية المئونة التي تمتلكونها؟	٨) لا أمتلك أية مئونة. ولقد كان في المدينة بتاريخ ٢٥ فبراير (شباط) ٥,٦٠٠,٠٠٠ بود من الدقيق الاحتياطي.
٩) هل استولى العُصاة على كمية كبيرة من الأسلحة والمدفعية والذخائر؟	٩) إن كافة قطعات المدفعية بيد الثوار.
١٠) ما هي السلطات العسكرية وهيئات الأركان المتبقية تحت أوامركم؟	١٠) يوجد تحت تصرفي رئيس أركان الفيلق، وليس لدي أي اتصال مع مراكز القيادة الأخرى.

وما أن اطلع الجنرال إيفانوف على الوضع بهذا الشكل العام غير الدقيق حتى "وجد" أن عليه إرجاع قواته التي لم تنزل بعد من القطار إلى الخلف، والوقوف بها عند محطة دنو. ويستنتج الجنرال لوكومسكي، أحد كبار شخصيات القيادة العامة ما يلي: "وبهذا لم ينتج عن قدوم الجنرال إيفانوف أي شيء سوى تحول مهمة هذا القائد الذي حضر مزودًا بكافة سلطات الديكتاتور إلى فضيحة".

ومع هذا لم تنتشر أخبار الفضيحة التي غرقت وسط مد الأحداث دون أن تترك أثرًا. وأرسل الديكتاتور إلى معارفه في بتروغراد شيئًا من المؤن. وتحادث مع الإمبراطورة التي تحدثت عن إخلاصها في عملها في المستشفيات العسكرية، واشتكت من جحود الجيش والشعب.

وجاءت في هذه الفترة إلى بسكوف، عن طريق موهيليف أخبار تحمل المزيد من أنباء الكوارث. حتى أن رجال الحرس الخاص للإمبراطور، الذين بقوا في بتروغراد، والذين كان القيصر يناديهم بأسمائهم الصغرى، وتقدم لهم الأسرة المالكة كل ضروب المساعدة والتأييد، فقد تقدموا إلى مجلس دوما الإمبراطورية طالبين الإذن باعتقال ضباطهم الذين رفضوا المشاركة في الانتفاضة. وأعلم نائب الأميرال كوروش بأنه لا يرى الوسيلة التي تمكنه من اتخاذ التدابير الكفيلة بسحق انتفاضة كرونشتادت، خاصة وأنه لا يمتلك أية قوة مقاتلة. وبعث الأميرال نيبينين برقية يقول فيها بأن أسطول البلطيق اعترف باللجنة المؤقتة لدوما الإمبراطورية. واتصل مروزوفسكي قائد فيلق موسكو ليُعلم القيادة "بأن معظم القطاعات العسكرية ووحدات المدفعية انضمت إلى الثوار الذين غدوا بالتالي سادة المدينة. وأن محافظ موسكو ومساعداه تركا مكان إقامتهما". ولا شك أن تركا تعني هنا هربا.

وعلم القيصر بكل هذا في مساء يوم ١ مارس (آذار). ودار البحث حتى ساعة متأخرة من الليل حول تشكيل وزارة مسئولة. وفي الساعة الثانية صباحًا وافق القيصر أخيرًا على هذا الأمر، وتنفس المحيطون به الصعداء، واعتقدوا بأن هذا القرار يحل المعضلة الثورية، فأصدروا إلى القطعات المستدعاة إلى بتروغراد لسحق الانتفاضة أمرًا بالعودة إلى الجبهة. وهرع روسكي منذ الفجر لينقل النبأ السعيد لرودزيانكو، ولكن عقارب ساعة القيصر تأخرت أكثر مما ينبغي، وكان رودزيانكو قد تعرض في قصر توريد لضغوط الديموقراطيين، والاشتراكيين، والجنود، ومندوبي العمال، فرد على روسكي بقوله: "إن ما تنوون القيام به غير كافٍ. ويتعلق الأمر الآن بمصير الأسرة المالكة كلها... وتقف القطعات العسكرية في كل مكان إلى جانب الشعب ومجلس الدوما. وتطالب باستقالة الإمبراطور لصالح ولي العهد على أن يكون ميخائيل الكسندروفيتش وصيًّا على العرش".

والحقيقة أن القطعات لم تفكر أبدًا بالمطالبة بولي العهد أو بميخائيل الكسندروفيتش، ولكن رودزيانكو طرح على لسان الجيش والشعب شعارًا يستطيع مجلس الدوما بواسطته احتواء الثورة. ومهما يكن من أمر، فإن قبول القيصر جاء متأخرًا. وصرح رودزيانكو بأن "الفوضى أخذت حجمًا دفعني في هذه الليلة إلى تعيين حكومة مؤقتة. ولكن المرسوم جاء مع الأسف متأخرًا..."، وتؤكد هذه الأقوال الفخمة على أن رئيس مجلس الدوما وجد الوقت اللازم لتجفيف الدموع التي ذرها على غوليتزين. وقرأ القيصر التقرير الذي يذكر حديث رودزيانكو وروسكي، وتردد برهة، ثم أعاد قراءة الوثيقة، وجلس ينتظر. وهنا دق قادة الجيش ناقوس الخطر، لأنهم أحسوا بأن وضعهم نفسه معرض للخطر!

وقام الجنرال ألكسييف بشبه استفتاء داخل القيادة العُليا لكافة الجبهات، ودام ذلك طوال الليل. ومن الأمور الجيدة أن الثورات الحديثة تتم مع استخدام البرقيات اللاسلكية، بشكل يؤمن بقاء ردود الفعل الأولى التي يبديها الماسكون لمقاليد السلطة مسجلة على الشريط الورقي كشاهد أمام التاريخ. وتشكل المباحثات التي أجراها الفيلد مارشالات مع القيصر خلال ليلة ١ - ٢ مارس (آذار) وثيقة إنسانية تتمتع بأهمية لا تُجَارَى، فهل كان على القيصر أن يستقيل أم لا؟ ولم يعط الجنرال إيفرت قائد الجبهة الغربية رأيه إلا بعد أن عرف رأي الجنرالين روسكي وبروسيلوف. وطالب قائد الجبهة الرومانية الجنرال ساخاروف أن يطلع على مجمل آراء القادة الكبار الآخرين قبل أن يدلي برأيه. وبعد سلسلة من المظاهر المصطنعة أعلن هذا المحارب الممتاز أن ارتباطه الوثيق بالقيصر لا يسمح لروحه وضميره بقبول "الاقتراح الدنيء". ومع هذا فقد طلب من القيصر وهو "ينتحب" بأن يستقيل بغية "التخلص من طلبات أسوأ". وشرح الجنرال إيفرت بشكل مقنع ضرورة الاستسلام: "وقد اتخذت

كافة التدابير كيلا تتسرب المعلومات الخاصة بالوضع الحالي في العاصمتين إلى داخل الجيش؛ بغية منع وقوع الاضطرابات. وليس هناك أية وسيلة لإيقاف مسيرة الثورة في العاصمتين". وأرسل عم الملك نيقولا نيقولا ييفيتش من الجبهة القفقاسية برقية يرجو القيصر فيها اتخاذ "تدبير استثنائي" والاستقالة. وأرسل الجنرالان الكسييف وبروسيلوف، والأمير نيبينين برقيات مماثلة تحمل الرجاء نفسه. وقدم روسكي الطلبات ذاتها بشكل شفهي. وهكذا سدد سبعة من كبار القادة مسدساتهم إلى صدغ الإمبراطور المعبود. ويرجع السبب في ذلك إلى أن هؤلاء القادة الكبار الذين اعتادوا تسليم مواقعهم للعدو، خافوا من ضياع فرصة التفاهم مع النظام الجديد، وأحسوا بخوف أكبر من قطعاتهم نفسها، فأعطوا قيصرهم -القائد الأعلى- نصيحة واحدة مشتركة هي: الاختفاء من المشهد نهائيًّا. ولم تكن هذه النصيحة قادمة من بتروغراد النائية، التي ظن البعض أن إرسال القوات ضدها ممكن، ولكنها كانت قادمة من الجبهة التي كان من المفروض سحب بعض قواتها وإرسالها إلى بتروغراد لإخضاعها.

وبعد أن اطلع القيصر على تقرير واضح مقنع، قرر التخلي عن عرش لم يَعد مُلكه. وأعدت برقية بهذا الصدد بغية إرسالها إلى رودزيانكو: "وليس هناك تضحية أتردد عن تقديمها في سبيل مصلحة أمن روسيا وسلامتها؛ لذا فإنني أرى ضرورة استقالتي لصالح ابني شريطة أن يبقى إلى جانبي حتى يبلغ سن الرشد، وأن يكون أخي ميخائيل الكسندروفيتش وصيًّا على العرش. نيقولا". ولكن هذه البرقية لم ترسل "نظرًا لورود أنباء من العاصمة تتحدث عن قدوم النائبين غوتشكوف وشولغين إلى بسكوف. وكان هذا سببًا كافيًّا لتأجيل القرار. وطلب القيصر أن تعاد له البرقية؛ إذ خشي القيام بصفقة خاسرة، وكان ينتظر أنباء مطمئنة، أو لعله كان يعتمد بالأحرى على وقوع معجزة. وما أن وصل النائبان حتى استقبلهما نيقولا في منتصف ليلة ٢ - ٣ مارس (آذار). ولم تقع المعجزة، ولم يعد هناك أي مجال للتملُّص. وأعلن القيصر فجأة بأنه لا يستطيع مفارقة ابنه (فما هي الآمال الغامضة التي كانت تعتمل في رأسه؟)، ووقَّع وثيقة التنازل عن العرش لأخيه. ووقَّع في الوقت نفسه مراسيم عين بها الأمير لفوف رئيسًا لمجلس الوزراء، ونيقولا نيقولا ييفيتش قائدًا أعلى. ووجدت شكوك الإمبراطورة بالأسرة المالكة ما يؤكدها؛ إذ عاد "نيقولاشا" المكروه إلى السلطة مع المتآمرين. ومن المحتمل أن يكون غوتشكوف قد اعتقد بأن الثورة ستكتفي بالحصول على قائد حربي محترم. واعتبر نيقولا نيقولا ييفيتش هذا المنصب عملة مضمونة، حتى أنه حاول خلال عدة أيام إصدار الأوامر، وإعلان النداءات لتنفيذ الواجب الوطني. فلم تلبث الثورة أن طردته دون عناء.

ولكن يظهر تصرف القيصر ذاتيًّا بعيدًا عن كل ضغط، ذُكر في وثيقة التنازل عن العرش أنها وُقِّعت في الساعة الثالثة من بعد الظهر، على اعتبار أن القيصر اتخذ القرار مسبقًا في تلك الساعة. والحقيقة أن "الحل" المقرر خلال اليوم، والذي يؤمن التنازل عن العرش لصالح الابن لا الأخ كان قد سُحب بانتظار تطور الأحداث باتجاه أفضل. ومع هذا لم يكشف أي شخص هذا الخطأ بصراحة. وحاول القيصر للمرة الأخيرة إنقاذ ماء وجهه أمام النواب المنفرين الذين كانوا ينظرون بإعجاب إلى هذا التزوير التاريخي، أي إلى هذا التدجيل على الشعب. وتركت الملكية المسرح محتفظة بأسلوبها الخاص. وبقي ورثتها أيضًا مخلصين لأنفسهم. ولعلهم اعتبروا خطأهم نوعًا من تسامح المنتصر أمام المهزوم.

وفي ٢ مارس (آذار) تخلى نيقولا عن أسلوبه المألوف في كتابة مذكراته الشخصية، وكتب ما يلي: "جاءني روسكي في هذا الصباح وقرأ لي نص محادثة طويلة أجراها مع رودزيانكو. ويدل حديثه على أن الوضع في بتروغراد يجعل أية وزارة مشكلة من أعضاء مجلس دوما الإمبراطورية عاجزة عن القيام بأي عمل، نظرًا لأنها ستلقى معارضة الحزب الاشتراكي - الديموقراطي الممثل بلجنة عمالية. إن تنازلي عن العرش ضروري. ونقل روسكي مجمل هذه المحادثة إلى الكسييف في مقر القيادة العليا، كما نقله إلى كافة قادة الجيش. ولقد قررت القيام بهذه الخطوة في سبيل خلاص روسيا وتماسك الجيش على الجبهة. وأعلنت عن قبولي، وأرسلت مشروع مرسوم إلى مقر القيادة العليا. وفي المساء حضر غوتشكوف وشولغين من

بتروغراد وتباحثت معهما طويلاً، وقدمت لهما وثيقة التنازل المُعدَّلة بعد توقيعها. وفي الساعة الواحدة صباحًا تركت بسكوف وقلبي مفعم بالأسى. إن كل ما حولي خيانة، وجبن، وخديعة".

والحقيقة أنه كان للمرارة التي عبر عنها نيقولا الثاني ما يبررها؛ فمنذ فترة قريبة، أي في ٢٨ فبراير (شباط)، بعث الجنرال الكسييف إلى كافة قادة الجبهات برقية تقول: "إن واجبنا المقدس حيال القيصر والوطن يجبرنا على أن نؤمن في قطعات الجبهة الإخلاص للواجب والقسم الذي قطَعه كل واحد منا على نفسه". وها هو الكسييف يطلب من القادة أنفسهم بعد يومين أن يتخلوا عن "واجبهم" ويتجاهلوا "قسمهم". ولم يتحرك أي شخص في القيادة العليا لصالح إمبراطورة. وأسرع الجميع لأخذ أماكنهم على مركب الثورة، والبحث عن غرف إقامة مريحة داخل هذا المركب. وخلع الجنرالات وأمراء البحر الشارات القيصرية، وتزينوا بالشرائط الحمراء. ولقد شوهدت حالة وحيدة تنم عن بعض الصدق والإخلاص؛ فلقد سقط أحد قادة الفيالق ميتًا بالسكتة القلبية خلال أداء القسم الجديد. ولكننا لا نملك ما يثبت أن الأزمة القلبية أصابته من جراء الإهانة التي أصابت شعوره الملكي، لا من جراء شيء آخر. ولم يكن وضع الوجهاء وكبار الشخصيات من المدنيين ليجبرهم على التصرف بشجاعة تفوق شجاعة العسكريين. وتملص كل فرد من المسئولية على طريقته.

والحقيقة أن ساعة الملكية لم تكن تسير وفق ساعة الثورة. ففي فجر ٣ مارس (آذار) تلقى روسكي من العاصمة مكالمة بالخط المباشر "التيليتيب" طالب رودزيانكو والأمير لفوف بها سحب وثيقة التنازل التي جاءت متأخرة. وقال سيدا السلطة الجديدان بشكل ملتوٍ بأن وصول أليكس إلى العرش قد يكون مقبولاً -من قبل من؟- ولكن تنصيب ميخائيل أمر غير مقبول البتة. وعبَّر روسكي بشيء من الحِدة عن أسفه بأن يجهل نائبًا الدوما اللذان حضرا في اليوم السابق الهدف الحقيقي من رحلتهما. ولكن تصرف النائبين وجد ما يبرره عندما شرح رودزيانكو لروسكي الموقف بقوله: "لقد فوجئ الجميع عندما قام الجنود بعصيان لم أشهد مثله من قبل". وكأن رودزيانكو أمضى حياته كلها في مراقبة عمليات العصيان التي يقوم بها الجنود. "إن تنصيب ميخائيل إمبراطورًا، يعني صب الزيت على النار. وعندها ستبدأ إبادة كل ما يمكن إبادته" وهكذا عاد الجميع إلى القلق والمتاعب والشكوك!

وتلقى الجنرالات هذا "التحدي الوقح" من الثورة دون أن يردوا عليه بكلمة واحدة. إلا أن الكسييف حاول تخفيف بعض العبء عن ضميره فبعث إلى قادة الجيش البرقية التالية: "يتعرض رئيس مجلس الدوما لضغط قوي من أحزاب اليسار والنواب العماليين. وليس في برقيات رودزيانكو أية صراحة أو إخلاص". والحقيقة أن الإخلاص كان مفقودًا في هذه الساعات لدى الجنرالات أنفسهم.

وبدل القيصر رأيه مرة ثانية. فما أن انتقل من بسكوف إلى موهيليف حتى سلم رئيس هيئة أركانه السابق الكسييف ورقة طلب منه إرسالها إلى بتروغراد. وتضم الورقة قراره على التخلي عن العرش لابنه. ولا شك في أن هذا الحل بدا له في نهاية المطاف وكأنه يحمل قسطًا أكبر من الأمل. ويقول دينيكين أن الكسييف أخذ البرقية... ولكنه لم يبعثها إلى بتروغراد أبدًا؛ لأنه وجد أن المرسومين السابقين الموجهين إلى الجيش والبلاد كافيان، ولا حاجة لإضافة مرسوم ثالث. ولم يأت عدم تماسك القرارات من أن القيصر ومستشاريه فحسب فكروا بشكل أبطأ من الثورة، بل من أن النواب الليبراليين في مجلس الدوما فكروا ببطء مماثل أيضًا.

وفي ٨ مارس (آذار) اعتبر القيصر موقوفًا. ولكنه لم يشأ ترك موهيليف بصورة نهائية قبل أن يبعث إلى جميع الجيوش نداء ختمه بما يلي: "إن كل من يفكر في هذه اللحظة بالسلم، وكل من يرغب به عبارة عن جبان، خائن للوطن". وكان في القول

محاولة أوحى بها أحدهم للرد على الليبراليين الذين يتهمونه بممالأة الألمان. وفشلت هذه المحاولة؛ إذ لم يجرؤ أحد على نشر هذا النداء.

وهكذا انتهى هذا الحكم الذي كان منذ بدايته حتى نهايته سلسلة من الأخطاء، والمآسي، والكوارث، والأعمال الإجرامية، بدءًا من الكارثة على أرض خودينكا في يوم التتويج، ومرورًا بإطلاق النار على المضربين والفلاحين الثائرين، والحرب الروسية - اليابانية، وسحق ثورة ١٩٠٥ بكل قسوة وعنف، والعدد العديد من عمليات الإعدام، والحملات التأديبية، وعمليات التعسف القومي وانتهاءً باشتراك روسيا الجنوني الدنيء في الحرب العالمية الجنونية الدنيئة.

وتقول فيروبوفا بأنه ما أن وصل القيصر إلى تساركويه - سيلا وفرضت عليه وعلى عائلته الإقامة الإجبارية في القصر، حتى تمتم بصوت منخفض: "لم يعد الناس يعرفون معنى العدالة"، وهكذا فإن كلماته نفسها تشهد بشكل لا يقبل الجدل على وجود **عدالة تاريخية**، قد تقع في بعض الأحيان بصورة متأخرة، دون أن يُفقدها ذلك شيئًا من حقيقتها.

ويبدو تشابه آخرِ عاهلين من أسرة رومانوف مع آخر ملكين فرنسيين في فترة الثورة الفرنسية الكبرى، تشابهًا واضحًا لا يُنكر. ولقد تطرق بعض الكتاب والمؤلفين لهذا التشابه من قبل، بَيْد أنهم عالجوه بإيجاز ولم يخرجوا منه باستنتاجات. ولكننا نرى أن مثل هذه المقارنة مفيدة أكثر مما يبدو لأول وهلة، وأنها تقدم مادة ثمينة تساعد على الوصول إلى استنتاجات هامة.

وبالرغم من وجود فترة زمنية تعادل قرنين ونصف بين قيصر روسيا وملك فرنسا، فكثيرًا ما بدا هذان العاهلان وكأنهما ممثلان يقومان بالدور نفسه. وكان كلاهما يتسمان بخيانة سلبية عدوانية وحذرة بآن واحد. مع اختلاف واحد هو أن رياء لويس السادس عشر كان يختفي وراء سذاجة مشبوهة، على حين كان رياء نيقولا الثاني بشوشًا مفعمًا بالود. وكان كل واحد منهما يعطي لمن يراه انطباعًا بأنه رجل يرزح تحت أعباء مهمته، ولكنه يرفض التخلي عن أتفه حقوقه وسلطاته التي لا يعرف كيف يحسن استخدامها. وتكشف مذكراتهما الخاصة المتشابهة بأسلوبها، أو بالأحرى بانعدام أسلوبها، مدى فراغهما الفكري المشترك.

وكانت النمساوية (ماري انطوانيت) والإمبراطورة المنحدرة من بلاد الهيس (الكسندرا) متشابهتين أيضًا؛ إذ كانت كل واحدة منهما أطول من زوجها قامة وأشد منه بأسًا. وكانت ماري أنطوانيت أقل تدينًا من الكسندرا فيدوروفنا، وتمتاز عنها بالميل إلى التسلية واللهو. ولكنهما كانتا تحتقران الشعب، ولا تقبلان فكرة تقديم التنازلات ولا تؤمنان برجولة زوجيهما، وتنظران إليهما من عل. وكانت نظرة ماري انطوانيت الاستعلائية تمتزج بالاحتقار، على حين تمتزج نظرة الكسندرا بالشفقة.

ولقد أكد بعض كتاب المذكرات الذين كانوا على علاقة وثيقة مع بلاط بطرسبورغ، بأنه لو كان نيقولا الثاني شخصًا عاديًا لترك ذكريات طيبة. وكان كلامهم هذا تكرارًا للأحكام الطيبة التي أطلقها المؤرخون على لويس السادس عشر. ولم يقدم لنا مثل هذا الكلام أية ثروة على الصعيد التاريخي، أو على صعيد معرفة الطبيعة البشرية.

ونحن نعرف أن الأمير لفوف استغرب خلال أخطر أحداث الثورة الأولى وأشدها مأوساية لأنه لم يقابل قيصرًا غارقًا في الحزن، بل قابل "فتى مرحًا، خفيف الحركة، في قميص قرمزي" وهكذا كرر لفوف من حيث لا يدري تقريرًا كتبه الحاكم موريس عن لويس السادس عشر وبعثه إلى واشنطن في عام ١٧٩٠، وقال فيه: "ماذا يمكن أن ننتظر من رجل، يأكل في وضعه الحالي جيدًا، ويشرب جيدًا، وينام جيدًا، ويعرف كيف يضحك. **ماذا يمكن أن ننتظر من هذا الإنسان الطيب الذي يبدو أمرح من أي شخص آخر؟**".

وقبل سقوط الملكية بثلاثة أشهر تنبأت الكسندرا فيدوروفنا "يسير كل شيء نحو الأفضل، إن أحلام صديقنا ذات دلالات كبيرة" وكان عملها هذا مشابهًا لتصرف ماري انطوانيت التي كتبت قبل سقوط الملكية بشهر واحد: "إنـي أحس بالحماس والاندفاع، وأشعر وكأن شيئًا يقول لي بأننا سنغدو سعداء عما قريب، وسنبتعد عن كل خطر". وهكذا غرقت العاهلتان وهما تحملان أحلامًا وردية.

وهناك عدد من أوجه الشبه الناجمة عن الصدفة، والتي تأخذ في التاريخ مكانة القصة النادرة. والأهم منها هي: أوجه الشبه الناجمة عن الظروف القاهرة، والتي تلقي ضوءًا ساطعًا على العلاقات المتبادلة بين الرد والعوامل التاريخية الموضوعية.

ويتحدث أحد المؤرخين الفرنسيين الرجعيين عن لويس السادس عشر فيقول: "إنه لا يعرف كيف يريد، وهذه هي الصفة الأساسية لشخصيته". ويبدو هذا القول وكأنه يصف نيقولا الثاني. فلقد كان العاهلان عاجزين عن الإرادة. ولكنهما كانا قادرين على عدم الإرادة. ولكن ماذا كان بِوُسع آخر ممثلي قضية تاريخية خاسرة أن "يريدوا"؟

وكان يستمع عادة، ويبتسم، ولا يقرر إلا نادرًا، ويبتدئ القول غالبًا بكلمة: "كلا" فعمن يتحدث هذا القول؟ إنه يتحدث عن الملك المنحدر من سلالة كأبيه (لويس السادس عشر) ولكن أسلوب تصرف نيقولا في مثل هذه الحالة كان مشابهًا دائمًا. لقد سار كلاهما إلى الهاوية "والتاج غائص يغطي العينين". ولكن هل يمكن للمرء أن يسير بسهولة أكبر نحو وهدة محتومة إذا كانت عيناه مفتوحتين؟ وماذا كان بوسعهما أن يبدلا، حتى ولو دفعنا التاج حتى القذال؟

ويمكننا أن نطالب علماء النفس الأخصائيين أن يقدموا لنا صورة كاملة عن تناظر تقييم نيقولا مع لويس، والكسندرا مع ماري انطوانيت، وأتباعهم المقربين إليهم. ولا تنقص المواد اللازمة لإجراء مثل هذه المقارنات. ولا شك في أن النتيجة ستكون شهادة تاريخية تحمل كثيرًا من العبر والفوائد لصالح علم النفس المادي. **إن وقوع إثارات من النوع نفسه** (ولا نقصد هنا إثارات مماثلة تمامًا) **في ظروف مشابهة، تؤدي إلى ردود الفعل نفسها**. وكلما زادت قوة عامل الإثارة، كلما تم تفوقه على الصفات الفردية بسرعة أكبر. ويتأثر الناس بالدغدغة بشكل متباين، ولكن تأثرهم بالحديد المحمي واحد. وتسحق ضربات الأحداث الكبيرة المحتومة المقاومين وتفقدهم كل ما يميزهم من خصائص "فردية"، تمامًا كما تسحق المطرقة الآلية أية كتلة معدنية وتحولها إلى صفيحة، سواء كانت الكتلة كرة أم مكعبًا.

لقد كان لويس ونيقولا آخر ملوك أسرتين حاكمتين عاشتا حياة عاصفة. ويدل اتصافهما بالاتزان، والهدوء، والمرح خلال اللحظات العصبية، على فقر قواهما الداخلية وضعف ردود فعلهما العصبية، وبؤس إمكاناتهم الفكرية. ولقد كان كلاهما خصيًا معنويًا، كما كانا محرومين من كل خيال وقدرة على الإبداع. ولم يكن لديهما من الذكاء إلا ما يكفي للإحساس بتفاهتهما، وكانا يحسان بحسد لا يوصف نحو كل ما هو موهوب أو محترم. وجاء حكمهما في فترة الأزمات الداخلية الحادة، وخلال حقبة استيقاظ روح الثورة بين صفوف الشعب. ودافع كل واحد منهما عن نفسه ضد اجتياح الأفكار الحديثة، وتصاعد القوى المعادية. وكان النفاق، والتردد، والرياء عندهما تعبيرًا عن ضعف شخصي، وعجز كامل عن البقاء في المواقع الموروثة.

ولكن كيف جرت الأمور بالنسبة للزوجتين؟ لقد ارتفعت الكسندرا أكثر من ماري انطوانيت إلى ذروة أحلام أية أميرة، عندما تزوجت هذه الفتاة العادية المنحدرة من دوقية الهيس القيصر المطلق لبلد قوي. ووعت كل واحدة منهما مهمتها العُليا إلى أبعد حد. ونظرت ماري انطوانيت إلى الأمر بشكل أكثر طيشًا، على حين نظرت إليه الكسندرا بعقلية متدينة بروتستانتية، تحولت إلى سلافية أرثوذكسية. ودمرت مآسي الحكم وازدياد نقمة الشعب عالم التخيلات الذي بنته أدمغة مغرورة، لم تكن في نهاية المطاف أكثر من أدمغة حمقاء متبجحة. ونجم عن كل هذا كره متصاعد، وحقد جارف نحو شعب أجنبي لم يشأ الخضوع

أمامهما. وكراهية تامة لوزراء يقيمون بعض الاعتبار لمعسكر العدو، أي للبلاد والشعب. وأدت هذه الأمور كلها إلى انعـزال هاتين المرأتين وسط بلاطهما، ونقمتهما الدائمة على الزوج الذي لم يحقق كثيرًا من الآمال التي أيقظتها فترة الخطوبة.

ويبحث المؤرخون وكتاب السيرة الميالون إلى التحليل النفسي عن العنصر الصُدفي الفردي البحـت، ويكتـشفونه، فـي النقاط التي تنعكس بها القوى التاريخية الكبرى عبر الصفات الفردية. ولكن هذا وهم في الرؤيا يشبه الخطأ الذي وقع به رجـال البلاط الذين اعتبروا آخر قيصر روسي كشخص "فاشل" منذ ولادته. وكان هو نفسه يعتقد بأنه مولود في برج سـيء الطـالع. والحقيقة أن حظه السيئ ومتابعه الجمة جاءت من التناقض القائم بين المفاهيم القديمة التي ورثهـا عـن أسـلافه والظـروف التاريخية التي عاشها. لقد كان الأقدمون يقولون: إن جوبيتر كان يعمد إلى انتزاع العقل من الإنسان إذا ما شاء إضاعته. وكانوا يوجزون بشكل خرافي ملاحظات تاريخية عميقة. وإننا لنجد في حديث غوته عن **العقل الذي ينقلب إلى حماقة** فكـرة جـوبيتر عن الجدلية التاريخية التي تحرم المؤسسات البائدة من العقل، وتحكم على المدافعين عنها بالتعرض لكافـة الحظـوظ الـسيئة. والحقيقة أن تطور المأساة التاريخية حدد بشكل مسبق نصوص أدوار أفراد أسرتي رومانوف وكابيه. ولم يبق على الممثلين إلا أن يدخلوا بعض التعديلات على فهم الدور وإلقائه. ولم تأت معضلات نيقولا ولويس ومآسيهما من سوء طالعهما بل من سـوء طالع ملكية تعتمد على طغمة بيروقراطية. فلقد كان العاهلان قبل كل شيء منحدرين من الحكـم الفـردي المطلـق. وجـاءت تفاهتهما الناتجة عن وضعهما كشخصين منحدرين من عائلتين مالكتين، فأعطت هذا الوضع طابعًا مشئومًا.

وقد يعترض أحدهم فيقول: لو أن الكسندر الثالث شرب كمية أقل من الخمرة، لعاش فترة زمنية أطول، ولقابلت الثـورة قيصرًا من طينة أخرى، ولاختفت كل احتمالات المقارنة مع لويس السادس عشر. ولكن هذا الاعتراض لا يبـدل شـيئًا ممـا ذكرناه من قبل. ونحن لا ننوي تجاهل أهمية العامل الفردي في ميكانيكية التطور التاريخي، أو تناسي معنى الصدفة في العامل الفردي. إن من الضروري النظر إلى الشخصية التاريخية بكل خصائصها، ولكن علينا أن لا نعتبرها مجرد مجمـوع الـصفات النفسية، بل حقيقة حية منبثقة من الظروف الاجتماعية المحددة بدقة، والمؤثرة على هذه الظروف. وكما أن الـوردة لا تتوقـف عن نشر شذاها إذا ما حدد علماء الطبيعة المواد التي تمتصها من الأرض أو تكتسبها من الجو. **فإن تعرية الجذور الاجتماعية لشخصية ما لا يفقد هذه الشخصية شيئًا من عبيرها أو رائحتها الكريهة.**

فلو افترضنا جدلاً أن الكسندر الثالث عاش حق سن متأخرة، لظهرت المعضلة أمامنا من ناحية أخرى. ويحق لنا هنا أن نفترض بأن الكسندر الثالث ما كان ليشتبك في عام ١٩٠٤ بحرب مع اليابان، ولأدى ذلك إلى تأجيل الثورة الأولى. ولكن إلـى متى؟ لقد كان من المحتمل أن تصبح "ثورة ١٩٠٥" أي المجابهة المسلحة الأولى، والثغرة الأولى في النظام التـسلطي، مجـرد بداية للثورة الثانية الجمهورية، والثورة الثالثة البروليتارية. ولا يمكننا في هذا المجال إلا أن نقوم بافتراضـات تتمتـع بـبعض الأهمية. ولكن من المؤكد على كل حال أن الثورة لم تنجم أبدًا عن طبيعة نيقولا الثاني. وأنه ما كان لالكسندر الثالث أن يحمـل كافة المعضلات بشكل أفضل. ويكفي أن نذكر هنا بأن الانتقال من النظام الإقطاعي إلى النظام البورجوازي لم يتم في أي بلـد من البلاد دون هزات عنيفة. ولقد لاحظنا هذا الأمر بالأمس في الصين، وها نحن نلاحظه اليوم في الهند. وكل ما يمكننا قولـه هو أن هذه السياسة الملكية أو تلك، وهذا الملك أو ذاك، قادرين على تقريب ساعة الثورة أو إبعادها. وإعطاء الثـورة خاتمًـا سطحيًّا شكليًّا.

ترى لم حاولت القيصرية في آخر شهورها، وآخر أسابيعها، وآخر أيامها، التصرف بعناد صاخب عاجز، طالمـا أنهـا فقدت الجولة بشكل لا يقبل الجدل! لقد كان نيقولا ضعيف الإرادة، ولكن زوجته عدلت ضعفه. وكان راسبوتين أداة شلة تناضل بكل شراسة في سبيل خَلاصها. وكانت شخصية القيصر، حتى ضمن هذا الإطار الضيق، ذائبة في المجموعة التي يتركز فيهـا

الماضي كله، وتتمثل في داخلها آخر رعشات الأسرة المالكة. ولم تكن "سياسة" الحكام التافهين القابعين في تساركويه - سيلا، والواقفين في وجه الثورة العارمة "سوى ردود" فعل، شبيهة بردود فعل وحش محصور منهك. إن من يطارد ذئبًا في البراري بسيارة سريعة يجبره في نهاية المطاف على السقوط من التعب. ولكن حاولوا أن تضعوا الطوق حول عنقه، وسترون كيف يحاول تمزيقكم إربًا، أو يجرحكم على الأقل. وماذا بقي له أن يفعل غير ذلك في مثل هذه الظروف؟

لقد كان الليبراليون يعتقدون بأن الأمر لم ينته بعد، وأن بوسعهم أن يفعلوا شيئًا. ولكن نيقولا رفض في الوقت الملائم البحث عن اتفاق مع البرجوازية الموسرة بشكل يحتوي معه كل احتمالات الثورة (هذا هو الاتهام الذي وجهته الليبرالية لآخر قيصر من أسرة رومانوف) كما رفض بعناد تقديم أية تنازلات. وبقي على موقفه هذا حتى في الأيام الأخيرة؛ حيث أخذ يتردد ويساوم القدر رغم وجود رقبته تحت تهديد سكين لا ترحم، وفي وضع يجعل كل دقيقة شيئًا ثمينًا. فأضاع بذلك آخر احتمالات الخلاص. ويبدو كل هذا مقنعًا إلى حد بعيد، ولكن من المؤسف أن الليبرالية التي كانت تعرف هذا الدواء الناجع لإنقاذ الملكية لم تستطع إيجاد الوسائل اللازمة لإنقاذ نفسها!

إن من السخف الاعتقاد بأن القيصرية لم تقدم أية تنازلات في ظرف من الظروف. فلقد خضعت في كل مرة اضطرت بها إلى ذلك في سبيل إنقاذ نفسها؛ إذ ما أن انتهت كارثة حرب القرم حتى قام الكسندر الثاني بتحرير الفلاحين بصورة نصفية، ووافق على عدد من الإصلاحات الليبرالية في مجالات الزيمستفو، والمحاكم، والصحافة والتعليم، ...إلخ. وعبَّر القيصر نفسه عن الفكرة الكامنة وراء إصلاحاته بقوله: تحرير الفلاحين من الأعلى حتى لا يتحرروا من الأسفل، وجاءت الثورة الأولى لتجبر نيقولا الثاني على تقديم نصف دستور. ولجأ ستوليبين إلى تحطيم المشاعية الزراعية بغية توسيع مجال القوى الرأسمالية. ولم تكن الملكية تنظر إلى هذه الإصلاحات إلا على اعتبار أن التنازلات الجزئية ستنقذ الأمور الأساسية، وتحافظ على قواعد مجتمع المجموعات المتميزة، وقواعد الملكية نفسها. وكانت الملكية تتراجع بسرعة عندما تتجاوز نتائج الإصلاحات هذه الحدود. ومن المعروف أن الكسندر الثاني ألغى في النصف الثاني من حكمه الإصلاحات التي قام بها في النصف الأول. ودفع الكسندر الثالث الرِدة المضادة للإصلاحات إلى مدى أبعد. وقاتل نيقولا الثاني قتالاً تراجعيًّا أمام الثورة في أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٠٥، ثم لم يلبث أن حل مجالس الدوما التي خلقها بنفسه. ولما ضعفت الثورة قام بانقلاب عسكري. فإذا نظرنا إلى الأحداث خلال ثلاثة أرباع القرن، اعتبارًا من إصلاحات الكسندر الثاني، لوجدنا أن صراع القوى التاريخية الأكبر من الصفات الشخصية للقياصرة بكثير، قد جري بصورة مكشوفة تارة وسرية تارة أخرى، حتى انتهى بقلب الملكية. ولا يمكن وضع القياصرة، وصفاتهم، وسيرتهم الذاتية إلا ضمن الإطارات التاريخية لهذا التطور.

إن أكثر الحكام الفرديين تسلطًا يشبه إلى حد ما الشخصية "الحرة" التي لا تجد خيرًا في وضع بصماتها على الأحداث بمحض إرادتها. ويكون مثل هذا الحاكم عادة العميل المتوَّج للطبقات المتميزة التي تصنع المجتمع بالصورة التي ترغبها. وتبقى الملكية قوية وواثقة بنفسها طالما أن هذه الطبقات لم تستنفذ كل مهمتها؛ ذلك لأن الملكية تمتلك في هذه الحالة أداة سلطة مضمونة، ومجالاً رحبًا لاختيار المنفذين، طالما أن الرجال القادرين لم ينحازوا إلى معسكر الخصم بعد. وفي هذه الحالة يلعب القيصر -بصورة شخصية أو عن طريق أحد المقربين له- دورًا تاريخيًا كبيرًا، وينفذ مهمة تقدمية لا تنكر. ويختلف الأمر كل الاختلاف عندما تميل شمس المجتمع القديم إلى الغروب؛ لأن الطبقات المتميزة المنظمة للحياة الوطنية تنقلب آنذاك إلى ورم طفيلي. ويؤدي حرمانها من وظائفها القيادية إلى ضياع إيمانها بمهمتها، وثقتها بقواها. وتقلب سخطها على نفسها إلى سخط على الملكية، وتنعزل الأسرة المالكة، وتنكمش حلقة المتحمسين المخلصين للملكية، وينخفض مستوى هؤلاء المخلصين، وتتزايد الأخطار في تلك الفترة، وتبدأ القوى الجديدة بالضغط، وتفقد الملكية قدرتها على البداهة الخلاقة، وتقف موقف الدفاع، وتقاتل، وتتراجع، وتأخذ أفعالها شكل "ردود فعل" آلية بحتة. ولقد عرفت تسلطية رومانوف نصف الآسيوية مثل هذا المصير.

فإذا شبهنا القيصرية خلال احتضارها بمقطع شاقولي (رأسي)، وجدنا أن القيصر يمثل محور طغمة تستند في قواعدها إلى ماضٍ تَحدَّد مصيره بشكل نهائي لا يقبل الجدل. وإذا أخذنا مقطعًا أفقيًا لتاريخ القيصرية، وجدنا أن نيقولا الثاني يمثل آخر حلقة من حلقات الأسرة المالكة. ولقد كان آخر أسلافه ينتمون إلى نفس المجموعة التي تضم الأسرة المالكة، والطغمة، والبيروقراطية، ولكن على نطاق أوسع. وحاول هؤلاء الأسلاف تطبيق مختلف التدابير، ومختلف أساليب الحكم، لحماية النظام الاجتماعي القديم ضد الأخطار التي تهدده، ومع هذا فقد أورثوا نيقولا الثاني إمبراطورية مضطربة تحمل جنين الثورة بين أحشائها. ولو كان على نيقولا أن يختار، لما وجد أمامه سوى عدد من الطرق المؤدية كلها إلى الضياع.

وكان الليبراليون يحلمون بملكية من الطراز البريطاني. ولكن هل كانت البرلمانية على التايمز وليدة تطور سلمي، أم نتيجة فطنة العاهل الملكي وتصرفه بشكل "حر"؟ كلا، إن البرلمانية الإنكليزية لم تترسخ إلا بفضل نضال طويل دام عدة قرون، وأطاح برأس أحد الملوك على مفترق الطرق.

ويمكن نقل التشابه التاريخي والنفسي الذي تحدثنا عنه من قبل والذي يشمل القيصر نيقولا وزوجته، ولويس السادس عشر، وماري أنطوانيت، وتطبيقه على ملك بريطانيا العظمى وزوجته في فترة الثورة الأولى. إذ كان شارل الأول يمثل في الحقيقة مجموعة الصفات الأساسية التي أسبغها المؤرخون وأصحاب المذكرات على لويس السادس عشر ونيقولا الثاني، رغم بعض أخطاء هؤلاء المؤرخين وكُتَّاب السيرة، وابتعادهم أحيانًا عن جادة الصواب. ويقول مونتيغو: "وكان شارل يقف بسلبية، ويرضخ مرغمًا عندما يجد المقاومة مستحيلة، ولكنه يلجأ إلى الحيلة، ولم يعرف كيف يكتسب الشعبية أو الثقة". ويتحدث مؤرخ آخر عن شارل ستيوارت فيقول: "ولم يكن عنيدًا أبدًا، ولكنه كان يفتقر إلى الحزم... وجاءه أكبر الأذى من زوجته الفرنسية هنرييت أخت لويس الثالث عشر، والتي كانت تؤمن بأفكار الحكم الفردي المطلق أكثر من زوجها..." ولن نتحدث بالتفصيل عن هذا الزوج الملكي الثالث -الأول من الناحية الزمنية- الذي سحقته ثورة وطنية. ولكننا نود الإشارة فقط إلى أن حقد الشعب في إنكلترا كان منصبًا على الملكة، الفرنسية البابوية والمتهمة بالتآمر مع روما، وخلق علاقات سرية مشبوهة مع الإيرلنديين الثائرين، بالإضافة إلى الاتصالات الجانبية مع البلاط الفرنسي.

ولكن إنكلترا عرفت قروناً من الراحة. فقد كانت رائدة الحضارة البرجوازية. ولم تتعرض لضغط الأمم الأخرى، بل كانت تفرض سيطرتها الخارجية بصورة متزايدة، وتستغل العالم بأسره، وهذا ما خفف من حدة الصراعات الداخلية، وأمّن تركيز العقلية المحافظة، وشارك في مضاعفة واستقرار الشرائح المستغلة الطفيلية التي أخذت شكل الملكية، ولوردات الأرض الإقطاعيين، ومجلس الشيوخ، وكنيسة الدولة. وأدَّت الامتيازات التاريخية الاستثنائية التي حصلت عليها إنكلترا البرجوازية خلال تطورها إلى انتقال العقلية المحافظة بكل مرونة من المؤسسات إلى الأخلاق والعادات والتقاليد. وهذا هو ما يستجلب حتى اليوم إعجاب الجبناء المتخاذلين في العالم أجمع، من أمثال البروفسور ميليوكوف أو الماركسي النمساوي أوتو بوير. أما الآن، فإن بريطانيا تحس بالإزعاج في كل مكان، وتبدد آخر ما اكتسبته من امتيازات الماضي؛ لذا فإن روحها المحافظة تفقد مرونتها، بل إنها تصبح عن طريق حزب العمال رجعية مسعورة. ولم يجد "الاشتراكي" مكدونالد وسيلة يجابه بها الثورة في الهند سوى الوسيلة التي استخدمها نيقولا الثاني ضد الثورة الروسية. ولا بُدَّ أن يكون المرء مصابًا بالعمى حتى لا يرى أن بريطانيا العظمى تسير نحو اضطرابات ثورية كبيرة، تختفي خلالها بقايا عقليتها المحافظة، وقدرتها العالمية، وآلتها الحكومية الحالية. ويتعامل مكدونالد مع هذه الهزات بخبرة تشبه خبرة نيقولا الثاني، وهو لا يقل عن هذا القيصر الروسي عمى. وها نحن نمتلك هنا تجسيدًا ممتازًا للدور الذي تلعبه "شخصية" حرة في التاريخ!

كلنا نعرف بأن روسيا دولة متخلفة تقف في مؤخرة الشعوب الأوروبية، وتعتمد على قواعد اقتصادية فقيرة. فكيف استطاعت هذه الدولة خلق "عقلية محافظة مرنة" داخل الأشكال الاجتماعية -ووضعت هذه العقلية دون شك في خدمة الأساتذة

الليبراليين وظلهم اليساري المتمثل بالاشتراكيين الإصلاحيين؟- لقد بقيت روسيا متأخرة فترة طويلة من الزمن، وعندما أطبقت عليها كماشة الإمبريالية العالمية، التي اضطرتها أن تعيش تاريخها السياسي بشكل موجز إلى حد بعيـد. ولـو أحـسن نيقـولا استخدام الليبراليين، واستبدل سترومر بميليوكوف لتبدل مسار الأحداث جزئيًّا، ولبقي جوهره مع ذلك على حالـه. فلقـد سـار لويس السادس عشر على هذا السبيل من قبل خلال المرحلة الثانية للثورة، عندما استدعى الجيرونديين. ولكن هذا لم ينقذ رأسه من المقصلة، كما لم ينقذ رأس الجيرونديين من بعده. لقد كان على الصراعات الاجتماعية المتراكمة أن تنفجر، وأن تترك بعـد الانفجار مكانًا حرًا نظيفًا. ولم يكن للحلول السطحية التي طرحتها الملكية مع الليبراليين سوى قيمة افتراضية أمام مد الجمـاهير التي عبَّرت أخيرًا وبصورة مكشوفة عن متاعبها، ومآسيها، وتذمرها، وأهوائها، وآمالها، وأوهامها، ومطالبها. ولم تكـن هـذه الحلول قادرة إلا على تبديل تسلسل تطور الأحداث، أو عددها. ولكنها كانت عاجزة كل العجز عن التأثير على التطـور العـام للمأساة، أو على الحل الرهيب لعقدتها.

خمسة أيام: من ٢٣ إلى ٢٧ فبراير (شباط) ١٩١٧

كان يوم ٢٣ فبراير (شباط) "يوم المرأة العالمي" وكانت دوائر الحزب الاشتراكي - الديموقراطي ترسم خططها ليكون لهذا الموسم دلالته بالوسائل الشائعة: المؤتمرات، والخطب، والمنشورات. وفي مساء هذا اليوم لم يكن يخطر على بال أحد أن يكون "يوم المرأة" فاتحة للثورة؛ وذلك لأن أي تنظيم من التنظيمات لم يوجه الدعوة إلى الإضراب في هذا اليوم. وفضلاً عن هذا فقد نصحت لجنة دائرة فيبورغ العمالية بعدم القيام بأي إضراب، رغم أنها تنظيم من أكثر التنظيمات البلشفية كفاحًا ونضالاً. وكانت حالة الجماهير الفكرية متوترة جدًا بحسب شهادة كييوروف، أحد القادة العماليين في دائرة فيبورغ. وكان كل إضراب يهدد بالتحول إلى صدام مكشوف بين العمال والسلطات. ولكن نظرًا لأن هذه اللجنة كانت تقدر أن لحظة الصدام لم تحن بعد -لأن الحزب ليس قويًا حتى الآن، كما أن الالتحام بين العمال والجنود غير كافٍ- فقد قررت أن لا تدعو إلى الإضراب، وأن تستعد للعمل الثوري في تاريخ غير محدد. هذا هو خط السلوك الذي دعت لجنة فيبورغ إلى اتباعه في مساء ٢٣، ويبدو أن جميع التنظيمات تبنته وأقرته. ولكن في صباح اليوم التالي، رغم كافة التوجيهات الصادرة عن اللجنة امتنعت عاملات النسيج عن العمل في عدة مصانع، وأرسلن مندوبات عنهن إلى عمال المعادن يطلبوهم دعم الإضراب. وقد كتب كييوروف عن هذه الفترة يقول: بأن البلاشفة ساروا "على كُره منهم"، وتبعهم العمال المناشفة، والاشتراكيون - الثوريون. ولكن **عندما يقع إضراب جماهيري، لا بُدَّ من جر كل الناس إلى الاشتراك به، ودفعهم للنزول إلى الشارع**، وذلك من أجل أن يتزعم البلاشفة الحركة. هذا هو القرار الذي اقترحه كييوروف بعد حدوث إضراب العاملات. ووجدت لجنة فيبورغ نفسها مضطرة للموافقة عليه. ويستطرد كييوروف قائلاً: "كانت فكرة التظاهر تنضج منذ وقت طويل في أوساط العمال، ولكن في هذه اللحظة لم يكن أحد قد توصل إلى تصور ما سينتج عنها". هذه هي الشهادة التي أدّلى بها أحد المشتركين الهامين جدًا. ويجب علينا أن نمعن النظر فيها لكي نفهم آليَّة الأحداث القادمة.

وكان الجميع يعتقدون مسبقًا أن القطعات العسكرية ستخرج حتمًا من الثكنات عند وقوع المظاهرات، وستتصدى للعمال. فما الذي حدث؟ نحن في حالة حرب، والسلطات غير مستعدة للمزاح. وليس الجندي "الاحتياطي" في تلك الأيام هو الجندي الذي عرفناه في الماضي في ملاكات "الجيش العامل"؛ إذ لم يكن جنديًّا مخيفاً حقًا! وكانت الدوائر الثورية تُمعن النظر وتُفكر في هذا الموضوع الحساس وتُحاكمه، ولكن محاكماتها كانت تجريديَّة، لأنه لم يكن أحد ليفكر -وبوسعنا أن نؤكد ذلك بصورة قاطعة استنادًا إلى كل الوثائق الملتقطة- أن يوم ٢٣ فبراير (شباط) سيكون بداية هجوم حاسم ضد الحكم المطلق المستبد. فلم تكن المسألة سوى مظاهرة محدودة جدًا ما زالت أبعادها غير واضحة.

ونتيجة لهذا كله فقد أصبح بحكم المقرر أن القواعد التي تغلبت على معارضة تنظيماتها الثورية الخاصة هي التي شنت ثورة فبراير (شباط) وأن شريحة البروليتاريا المستغلة والمضطهدة أكثر من غيرها من الشرائح هي التي اتخذت المبادرة الثورية بصورة عفوية -عاملات النسيج، اللواتي يوجد بينهن عدد لا بأس به من زوجات الجنود- وقد جاء الزخم الأخير ولا شك نتيجة لوقفات الانتظار التي لا تنتهي أمام أبواب المخابز. وكان عدد المشتركين في الإضراب خلال هذا اليوم، من نساء ورجال، حوالي ٩٠,٠٠٠ شخص. وترجمت التدابير النضالية إلى مظاهرات، واجتماعات، ومعارك مع الشرطة. وتطورت الحركة بادئ الأمر في دائرة فيبورغ؛ حيث تتمركز المشروعات الضخمة، ثم شملت فيما بعد الضاحية المسماة "بطرسبورغ". أما في الأجزاء الأخرى من المدينة، فلم تقع إضرابات أو مظاهرات، طِبقًا لتقارير إدارة الأمن. وقد دعمت قوات الشرطة في هذا اليوم بمفارز صغيرة العدد ظاهريًّا انتُدبت من القطعات العسكرية، ولكن لم تقع أية صدامات. وتوجهت مجموعة من النساء، لم تكن كلها من العاملات إلى دوما البلدية للمطالبة بتوفير الخبز، ولكنها كانت كمن يطلب الحليب من تيس. وظهرت الأعلام الحمراء في أحياء متفرقة تحمل لافتات تقول بأن العمال يطالبون بالخبز، ويرفضون الحكم المستبد، كما أنهم لا يريدون

الحرب. وقد نجح "يوم المرأة" وكان حافلاً بالحيوية، ولم تقع فيه أية ضحايا. ولكن أحدًا لم يكن ليستطيع أن يقدر ما سيحمله مساء هذا اليوم من أحداث.

وفي اليوم التالي، اشتدت حركة الإضراب وأصبحت أكثر هديرًا؛ ففي يوم ٢٤ فبراير (شباط) أضرب نصف العمال الصناعيين تقريبًا في بتروغراد. ففي الصباح وصل العمال إلى مصانعهم، وبدلاً من أن يبدءوا بالعمل، عقدوا الاجتماعات، ثم توجهوا إلى مركز المدينة؛ حيث انجرَّت إلى الحركة بعض الأحياء، ومجموعات جديدة من السكان. واستبعد شعار "الخبز!" أو غُطِّي بصيغ أخرى: "فليسقط الاستبداد!" و"لتسقط الحرب!". ولم تنقطع المظاهرات في شارع نييفسكي: فقد كانت هناك جماهير غفيرة من العمال تُنشد الأناشيد الثورية. كما كانت هناك مجموعات مختلفة من سكان المدينة، وجماهير من الطلبة الذين يرتدون القبعات الزرقاء. "وكان الجمهور الذي يتنزه يُعرب عن تعاطفه مع المتظاهرين، كما كان الجنود يحيون المظاهرات من نوافذ المستشفيات العديدة، ويقذفون في الهواء كل ما يقع تحت أيديهم". فهل كان عدد الذين فهموا أبعاد هذه الحركات التعاطفية للجنود المرضى إزاء المتظاهرين كبيرًا؟ ومع كل هذا، كان القوزاق يهاجمون الجماهير، ولكن بدون شراسة. وكانت خيولهم مغطاة بالزبد. وكان المتظاهرون يتدافعون هنا وهناك نتيجة لهجوم القوزاق، ثم يعيدون تشكيل أنفسهم بشكل مجموعات منضمة. ولم يكن هناك خوف وسط الجحافل الغفيرة. وسرت إشاعة من فم إلى آخر تقول: "لقد تعهد القوزاق بأن لا يطلقوا النيران". وكان من الواضح أن العمال نجحوا في التفاهم مع عدد من القوزاق. ومع هذا فقد ظهرت بعض وحدات الخيالة، وكان رجالها نصف سكارى. وأخذ بعض هؤلاء الرجال يوجهون الشتائم للمتظاهرين، ثم خرقوا بعد ذلك صفوف الجماهير وأخذوا يضربون رءوسهم بالحراب. ولكن المتظاهرين صمدوا بكل قواهم ولم يتقهقروا. وسَرَت بين الجماهير الإشاعة التي تقول: "إنهم لن يطلقوا الرصاص". ولم يطلق القوزاق الرصاص في هذا اليوم.

وقد لاحظ أحد النواب الليبراليين وجود بعض حافلات الترام معطلة في الشوارع (ولكن ألم تتوقف حافلات الترام في اليوم التالي؟) وبعضها الآخر قد تكسَّر زجاجها، في حين توقف البعض الآخر على طول السكك، لاحظ النائب الليبرالي ذلك فأعاد للأذهان ذكرى أيام يوليو (تموز) ١٩١٤، وخاصة ذكرى أمسية إعلان الحرب، وقال: "إن المرء ليعتقد أنه يرى المحاولة السابقة تتجدد". وكانت رؤية هذا النائب صائبة تمامًا؛ إذ كان هناك بالتأكيد صلة تربط الحاضر بالماضي وتجعل ذلك الماضي مستمرًا، فقد جمع التاريخ أطراف الخيط الثوري الممتد من الماضي إلى الحاضر، ذلك الخيط الذي قطعته الحرب، وأعادت ربطه من جديد.

ولم تفعل الجماهير الشعبية شيئًا طيلة هذا اليوم، سوى التحرك من حي إلى حي؛ إذ كانت الشرطة تطاردها بعنف، وتردها الخيالة مع بعض مفارز المشاة وتحتويها. وكانت الجماهير تصيح: "فلتسقط الشرطة!"، ثم تطلق بعد ذلك هتافات التهليل والترحيب بالقوزاق مرارًا وبمزيد من الإصرار. وكان هذا العمل ذا معنى، فقد كانت الجماهير تُضمر حقدًا شرسًا لأفراد الشرطة. وكانت تستقبل خيَّالة الشرطة بالصفير، وبالأحجار وبقطع الجليد. وكان احتكاك العمال بالجنود مختلفًا تمام الاختلاف. فقد كان العمال والعاملات يتجمعون حول الثكنات، وعلى مقربة من الحراس، والدوريات، وأمام صفوف السدود، ويتبادلون الأحاديث الودِّية مع أفراد الجيش. كانت هذه المرحلة مرحلة جديدة تعزي إلى امتداد الإضراب وإلى التقاء العمال بأفراد الجيش. وهذه المرحلة حتميَّة في كل ثورة، ولكن يبدو أنها لم تكتب ولم تنشر، وتبرز في كل مرة مرتدية طابعًا جديدًا، فالذين قرءوا أو كتبوا في هذا الموضوع لا يعون الحدث عندما يقع.

في هذا اليوم كان النواب يقصون، في مجلس الدوما الإمبراطوري قصة تقول: إن جموعًا غفيرة من الشعب كانت تغطي كل ميدان زنامنسكايا، وشارع نييفسكي وكل الشوارع المجاورة، وكانوا يتحدثون أيضًا عن وجود ظاهرة غير عادية؛ فقد كانت الجماهير الثورية، تحيي القوزاق والأفواج التي كانت تسير على أنغام الموسيقى العسكرية. ولما سأل أحد النواب عما

تعني هذه الظاهرة أجابه أحد المارة -وكان أول مواطن مر في تلك اللحظة- "لقد ضرب أحد أفراد الشرطة امرأة بسوطه الجلدي فتدخل جنود القوزاق وطردوا الشرطة". ومن الممكن أن لا تكون الأمور قد حدثت على هذا الشكل، ولكن أحدًا لا يستطيع التحقق من ذلك. وكانت الجماهير تعتقد أن هذا هو ما حدث بالفعل، وأن حدوثه لا يتسم بأية غرابة. ولم يسقط هذا الاعتقاد من السماء، ولكنه أتى من تجربة سابقة، كانت فيما بعد ضمانة الانتصار.

وتجمهر عمال مصنع إيريكسون -الذي يعتبر من أحدث مصانع دائرة فيبورغ- وتجمعوا منذ الصباح، بشكل جمهرة تعدادها ٢٥٠٠ رجل، ثم تقدم هؤلاء العمال في شارع سامبسونيفسكي، فالتقوا بالقوزاق، فدفع ضباط القوزاق خيولهم، وشقوا طريقًا وسط الجمهرة. وعلى عرض الطريق كله، كان القوزاق يخبون بخيولهم. وكانت لحظة حاسمة! ولكن الخيالة مرت بحذر، وبرتل طويل، في الممر الذي فتحه ضُباطها. وقد كتب كييوروف يصف هذا المنظر قائلاً: "كان بعض الجنود يبتسم، وغمز أحدهم بعينه للعمال كرفيق". كانت غمزة العين هذه تعني أمرًا ما! ونتيجة لذلك فقد أظهر العمال للقوزاق روحًا وديـة ليس فيها أي عداء. وبهذا نقل العمال إلى القوزاق عدوى الثورة بصورة خفيفة. فالجندي الذي غمز بعينه، قلده رفاقه. وبرغم المحاولات الجديدة للضباط، لم يطرد جنود القوزاق الجمهرة بإصرار وإلحاح ومروا فقط وسطها دون أن يخالفوا الانضباط بصورة مكشوفة. حدث هذا ثلاث أو أربع مرات؛ حيث وجد الطرفان المتقابلان بعد ذلك أنهما توصلا إلى شيء من التقارب. وبدأ القوزاق يردون بصورة فردية على أسئلة العمال، وتمت أحاديث قصيرة بينهم. ولم يبق من الانضباط إلا أضعف مظاهره، وأدقها، مع خطر تمزق وشيك الوقوع. واندفع الضباط لإبعاد قطعاتهم عن هذه الجموع وقاموا بترتيب تلك القطعات بشكل حاجز يمنع اجتياز الشارع ويحول بين المتظاهرين وبين الوصول إلى المركز، ولقد عمد الضباط إلى ذلك بعد أن امتنع جنودهم عن تفريق العمال، ولكن جهدهم كان ضائعًا. ومع كل هذا يجابه القوزاق الذين كانوا يتمركزون للحراسة بكل شرف "الغطسات" التي قام بها العمال بين سيقان الخيول. **إن الثورة لا تختار سُبُلها بمحض إرادتها.** فقد عبرت طريقها تحت بطن حصان أحد القوزاق قبل مسيرتها إلى النصر. إنها لفترة رائعة! حتى أن اللمحة التي أعطاها الراوية الذي حدد كل هذه التحولات رائعة أيضًا. وليس هناك ما يدهش في روايته. فالرواية كان زعيمًا من زعماء هذه الثورة، وكان يسير في ميادين الثورة ومن خلفه ٢٠٠٠ رجل. وإنه من الطبيعي أن نقول إن عين الزعيم الذي يحترس من ضربات الأسواط الجلدية أو رصاصات العدو عين حادة.

ويبدو أن تحول الرأي في الجيش لصالح الثورة قد برز في صفوف القوزاق أولاً، مع أنهم كانوا أول أدوات القمع والحملات التأديبية. ورغم كل هذا فإن ذلك لا يعني أن القوزاق كانوا ثوريين أكثر من غيرهم. فعلى العكس، كان هؤلاء الملاكين الموسرين الذين يمتطون خيولهم الخاصة، ويغارون على ميزان طبقتهم وخصائصها ومكتسباتها، ويعاملون الفلاحين البسطاء بنوع من الازدراء، ويحذرون من العمال، كان هؤلاء القوزاق مشبعين بالروح المحافظة. ولهذا فإن التغيرات التي أحدثتها الحرب كانت أبرز لديهم من غيرهم. وبالإضافة إلى هذا، ألم يكونوا هم الذين يُرسلون في كل الاتجاهات ويُعينون للقيام بالحملات التأديبية بصورة دائمة، ويُزج بهم أمام تيار الشعب، ويُستثار غضبهم؟ ألم يكونوا هم أول من تعرض لاختبار الحرب وتجربتها؟ لقد سئموا هذا الوضع، وأرادوا العودة إلى بيوتهم، ولهذا غمزوا بأعينهم للعمال، وكأنهم يقولون لهم: "افعلوا ما يحلوا لكم إذا كنتم قادرين على ذلك؛ إذ أننا لن نضايقكم". ومع كل هذا، لم تكن هذه الحركات سوى أعراض مؤقتة، ولكنها أعراض كثيرة الدلالة، بَيْد أن الجيش ما زال مرتبطًا بالانضباط. وما زالت خيوطه القيادية بين يدي الحكم الملكي. والكتل العمالية محرومة من السلاح. ولا يفكر قادة هذه الكتل حتى الآن بإنهاء الأزمة وحسمها.

وفي هذا اليوم، كان جدول أعمال مجلس الوزراء يتضمن فيما يتضمن من الأعمال مسألة الاضطرابات في العاصــمة، فما هو موقف الحكومة من الإضراب وما هو موقفها من المظاهرات؟ لقد بحث مجلس الوزراء مسائل أخرى... كل شيء كان متوقعًا، وقد أعطيت الأوامر لمواجهة كل شيء. وانتقل المجلس بكل بساطة إلى تسيير الأمور العادية.

فما هي الأوامر التي أعطيت؟ ومع أن ٢٨ شرطيًّا أصيبوا بضربات على رءوسهم في يومي ٢٣، ٢٤ -وهو إحــصاء دقيق مذهل- فإن الجنرال خابالوف قائد منطقة بتروغراد العسكرية الذي كان يتمتع بسلطات شبه مطلقة، لم يلجأ بعد إلى إطلاق النار. حقًا! لم يكن عدم لجوئه إلى إطلاق النار بسبب طيبة نفسه! وإنما كان ذلك معدًا وتم التفكير فيــه وإنــضاجه. فــستنطلق طلقات البنادق في وقتها.

ولم يكن في الثورة شيء غير متوقع بالنسبة للسلطات سوى اللحظة التي ســتندلع فيهــا. والخلاصــة، كــان القطبــان المتضادان، قطب الثوريين وقطب الحكومة قد استمدا بعناية منذ سنوات طويلة. أما فيما يتعلق بالبلاشــفة، فقــد انــصب كــل نشاطهم منذ عام ١٩٠٥ على تحضير هذه الاستعدادات. أما الحكومة فكانت تلجأ إلى حد كبير للمكيدة ونصب الحِيــل لــسحق الثورة الثانية قبل وقوعها. وابتداء من خريف عام ١٩١٦ اتخذ عمل الحكومة -في هذا المجال- طابعًا منهجيًّا. وفي منتــصف شهر يناير (كانون الثاني) ١٩١٧ انتهت لجنة مشكلة برئاسة خابالوف من إعداد خطة دقيقة لسحق الانتفاضــة الجديــدة. وقــد قُسِّمت العاصمة بموجب هذه الخطة إلى شبه قطاعات إدارية يشرف عليها "ضباط الشرطة"، كما جُزِّئت هذه القطاعــات إلــى قُطَيعات. ووضع الجنرال تشيبيكين -القائد العام لاحتياط الحرس- على رأس كل القوات المسلحة. ووزعــت الأفــواج علــى القطيعات. ووضعت الشرطة والدرك والجيش تحت قيادة ضباط أركان عينوا خصيصًا في كل قطاع من القطاعــات الرئيــسية الستة. وبقيت خياله القوزاق تحت تصرف تشيبيكين شخصيًّا للقيام بعمليات واسعة النطاق. ونظمت طريقة القمع بالشكل التالي: تشتبك الشرطة أولاً مع المتظاهرين، ثم يزج القوزاق بأسواطهم الجلدية في المعركة، وأخيرًا توضع القطعات المسلحة بالبنــادق والرشاشات في كل طرف من أطراف القطاعات. كانت هذه الخطة، تطبيقًا موسعًا لتجربة عام ١٩٠٥، وهي التي طبقــت فــي فبراير (شباط). ولم يكن الخطر كامناً في الافتقار إلى التوقع، ولا في التصميم السيئ، وإنما كان الخطر كامنًــا مــن العنــصر البشري. وسيتوقف السلاح عن الحركة بسبب هذا العنصر.

وكانت الخطة تعتمد على مجموع الحامية التي يصل تعدادها إلى ١٥٠,٠٠٠ رجل، ولكن السلطات أعدت فــي حقيقــة الأمر عشرة آلاف جندي آخرين لاستخدامهم في العمل. وكان الأمل الكبير ينصب على طلاب مــدارس ضــباط - الــصف، بصورة مستقلة عن أفرد الشرطة الذين كان تعدادهم ٣٥٠٠ رجل. ونجد تفسير هذا العمل في تأليف الحامية ذاتهــا فــي هــذا التاريخ. فقد كانت مشكلة تقريبًا من الاحتياطيين فقط، وتضم ١٤ كتيبة احتياطية مرتبطة بأفواج الحرس الموجودة في الجبهــة. وكانت الحامية تتضمن بالإضافة إلى هذا: فوج مشاة احتياطي، وكتيبة سيارات احتياطية، وفرقة آليات مدرعة احتياطية، وعددًا قليلاً من المجندين النقابيين والمدفعيين، وفوجين من قوزاق الدون. كانت هذه القطعات كثيرة جدًا، بل أكثر مما يلــزم لاحتــواء الثورة. وكانت أعداد الاحتياط الغزيرة مؤلفة من كتلة بشرية مدربة ومروضة إلى حد ما، أو لــم تتعــرض بعــد إلــى هــذا الترويض. وبالإضافة إلى كل هذا، ألم يكن الجيش يملك التشكيل ذاته؟

وكان خابالوف يتمسك بالخطة التي وضعها بكل دقة، ففي اليوم الأول وبتاريخ ٢٣، تدخلت الــشرطة. وفــي ٢٤ أمــر خابالوف الخيَّالة بالتقدم في الشوارع، وكانت هذه الخيالة مسلحة بالأسواط الجلدية والرماح. وكان خابالوف لا يفكــر باســتخدام المشاة وفتح النار إلا إذا تطورت الأحداث، غير أن الأحداث لم تتركه ينتظر.

وفي ٢٥، اتسع نطاق الإضراب، وامتد حتى شمل ٢٤٠,٠٠٠ عامل، طبقًا للأرقام الرسمية. وتدخلت بعـض العناصـر المختلفة وراء الطليعة، كما اشترك عدد لا بأس به من عمال المؤسسات الصغيرة التي أوقفت العمل، وتوقفت حـافلات التـرام عن السير، وبقيت البيوتات التجارية مغلقة، وفي خلال اليوم نفسه انضم طلاب التعليم العالي إلى الحركة. وفي الظهيرة أخـذت الجموع تحتشد بعشرات الألوف وتتجمع حول كاتدرائية قازان وفي الشوارع المجاورة. وحاولت هذه الجموع تنظيم اجتماعـات مفتوحة، فاشتبكت مع الشرطة. وبدأ بعض الرجال بالخطابة أمام تمثال الكسندر الثالث ففتح خيالة الشرطة النار. وسـقط أحـد الخطباء جريحًا. وانطلقت بعض الطلقات النارية وسط الحشود، فقتل أحد مفوضي الشرطة، وجرح أحد ضباطها كمـا جـرح بعض أفرادها. وقامت الجماهير بقذف رجال الدرك بالزجاجات والمتفجرات، والقنابل. وقد أعطت الحرب دروسًا ممتازة فـي هذا الفن. وبرهن الجنود عن سلبية، كما برهنوا عن عداء للشرطة. وأخذت الجماهير تتناقل بانفعال إشاعات مفادهـا أن أفـراد الشرطة تعرضوا لنيران كثيفة من القوزاق عندما بدءوا بإطلاق النيران على الشعب في جوار تمثال ألكـسندر الثالـث. ولقـد اضطر "الفراعنة" الذين يمتطون الخيول (هكذا كانوا يسمون أفراد الشرطة) إلى الفرار هَيْدَبَى. ولم يكن هذا الذي حدث أسطورة نشرت في أوساط الجماهير عن تصور وتصميم لشحذ شجاعتها وتأجيج حماسها، لأن الحادثة ذاتها -مع أنها حكيـت بـصورة مختلفة- قد تأكدت من جهات مختلفة.

ويقول العامل البلشفي كييوروف أحد الزعماء الحقيقيين في هذه الأيام بأن المتظاهرين فروا جميعًا، في نقطـة معينـة، تحت ضربات سياط خيالة الشرطة، بحضور فصيلة من القوزاق. فنزع كييوروف وبعض العمال الـذين لـم يتبعـوا الفـارين قبعاتهم واقتربوا من القوزاق، وقبعاتهم في أيديهم، وصاح فيهم كييوروف قائلاً: "أيها الأخوة القوزاق، تعالوا لنجدة العمال فـي كفاحهم من أجل مطالبهم السلمِيَّة! ألا ترون هؤلاء الفراعنة كيف يعاملوننا، نحن العمال الجائعين؟ ساعدونا!" يا لها مـن نغمـة مجاملة مقصودة!، وهذه القبعات التي يمسكون بها في اليد، ألا تُعبر عن حساب نفسي، وعن حركة لا يُمكن تقليـدها! إن كـل تاريخ قتال الشوارع والانتصارات الثورية يزخر بمثل هذه الأعمال الارتجالية. ولكنها تضيع عادة في هاوية الأحداث الكبـرى، ولا يجمع المؤرخون منها سوى القشور. وانبرى كييوروف يصف ما حدث بعد ذلك بقوله: تبادل القوزاق فيما بينهم غمـزات غريبة، وقبل أن نجد الوقت الكافي للابتعاد عنهم وجدناهم يندفعون بكل قواهم وسط هذه الجموع المختلطة". وبعد بضع دقائق، كانت الجماهير تحمل على أكتافها أمام سُلم المحطة أحد القوزاق الذي بتر بجسامه جسد أحد مفوضي الشرطة.

واختفى الفراعنة بعد ذلك، أو بعبارة أخرى لم يعودوا يعملون إلا سرًا. وظهر الجنود مشرعين حرابهم. فأخـذ العمـال يسألونهم بقلق: "أيها الرفاق، أتأتون لمساعدة الشرطة؟" وكان الجنود يصرخون بفظاظة: "تحركوا!" وكانت محاولة جديدة لتبادل أطراف الحديث بين العمال والجنود. وحصل العمال على نفس النتيجة التي حصلوا عليها في السابق. وكان الجنود يتـصرفون بلا مرح، وتراودهم نفس الأفكار، ويصيب المواطنون النقاط الحساسة التي تضايقهم.

في هذه الغضون، كان الشعار العام الذي رُفع ينادي بضرورة نزع سلاح الفراعنة؛ فالشرطة هم العدو العنيد، الـذي لا يرحم، والخائن الحقود. ولا يُمكن أن يكون هناك مجال للتفاهم معهم. وينبغي ضرب أفرادهم أو قتلهم. ولكن الوضع يختلف كل الاختلاف مع قطعات الجيش، فالجموع تحاول بكل الوسائل تجنب الصراع مع الجيش. وهي على العكس تفتش عـن الوسـائل التي تسمح بغزو قلوب الجنود وكسبهم، وإقناعهم، والتقارب معهم، وجعلهم من أنصار الجماهير، عندما تقف وجهًا لوجه أمـام الجيش. وبالرغم من الإشاعات الملائمة -التي بولغ فيها بعض الشيء- التي سرت عن سلوك القوزاق، فإن الجموع ما زالـت تنظر إلى الخيالة بنوع من القلق، فالفارس يتحكم بالجماهير من علٍ. وتقف سيقان الحـصان الأربعـة بـين عقليتـه وعقليـة المتظاهر. فالشخصية التي نضطر إلى النظر إليها من الأسفل إلى الأعلى تبدو شخصية أكثر أهمية ورهبة. ومع المـشاة يجـد المرء نفسه واقفًا معهم على الأرض ذاتها وعلى قدم المساواة. ولهذا فالمشاة أقرب إلى الجماهير وأدنى متناولاً. وتحاول الكتلة

الجماهيرية الوصول إلى جندي المشاة، وكشفه بصراحة، وتحاول أيضًا أن تنفخ فيه أنفاسها الخارقة. وتلعب العاملات في هــذه اللقاءات بين الجنود والعمال دورًا هامًا. فهن يتقدمن بجرأة أكبر من جرأة الرجال إلى صفوف القطعــة، ويخــتطفن البنــادق، ويتوسلن بل يأمرن الجنود تقريبًا بما يلي: "انزعوا حرابكم، انضموا إلينا"! وعندئذ تتحرك مشاعر الجنود، ويحــسون بالخجــل والاضطراب ويتبادلون النظرات بقلق، ويترددون. وأخيرًا يقرر أحدهم الامتثال لأوامر العاملات قبل الآخرين، وهكــذا يرفــع الجنود حرابهم في حركة ندم، وينفتح السد، ويمتلئ الجو بهتافات الفرح والعرفان، وتحيط الجماهير بالجنود، وتعلو المناقــشات والعتابات من كل الجهات، وترتفع النداءات التالية: الثورة تتقدم خطوة إلى الأمام.

أمام هذه التحولات الخطيرة أبرق القيصر نيقولا من مقر القيادة العامة للقوات المسلحة إلى خابالوف يطالبه بوضع حــد للفوضى "اعتبارًا من الغد". وكانت إرادة القيصر تتطابق مع الجزء الثاني من خطة خابالوف. فلم يكن للبرقية إذن نتيجة ســوى إعطاء دفع إضافي لخابالوف. وأصبح من واجب القطعات أن تتكلم عندما يأتي الغد. ألم يكن الوقت متأخرًا جدًا؟ لا نستطيع أن نقول ذلك الآن. فالمسألة مطروحة، ولكنها ما تزال تنتظر الحل. فتنازلات القوزاق، وميوعة بعض ســدود المــشاة ليــست إلا حوادث مليئة بالآمال والوعود ذات أصداء هائلة لدى الرأي العام في الشارع، وكان موقف القوزاق والمــشاة كافيًــا لتحريــك الجمهرة الثورية، ولكنه كان شحنة قليلة جدًا لا تكفي للحصول على النصر، وخاصة وقد حدثت حوادث ذات طــابع معــاكس تمامًا. وفتحت فصيلة من فصائل المدرعات النار لأول مرة على المتظاهرين في فترة ما بعد الظهيرة أمام الأروقــة التجاريــة (جوستني دفور)، مدعية أن إطلاقها للنيران جاء ردًا على طلقات مسدس صدرت من بين صفوف الجماهير. وطبقًــا لتقريــر خابالوف إلى مقر القيادة العامة للقوات المسلحة، وقع ثلاثة قتلى وعشرة جرحى. وكان هذا بمثابة إنذار جدي! وهدد خابــالوف في الوقت نفسه بإرسال كل العمال الذين يمكن دعوتهم لخدمة العلم إلى الجبهة إذا لم يلتحقوا بأعمالهم قبل يوم ٢٨. وكان إنذار الجنرال يعطي للعمال مهلة ثلاثة أيام، وكانت هذه المدة أكثر من كافية للثورة لكي تقلب خابالوف والحكم المستبد. ولكن لم ينتبه الحكام إلى ذلك إلا بعد النصر. وفي مساء ٢٥ لم يكن أحد يعلم شيئًا عما سيحمله الغد.

ولنحاول أن نتصور بوضوح أكبر المنطق الداخلي للحركة. فلقد قامت جماهير عمال بتروغراد تحت علم "يوم المــرأة" بتاريخ ٢٣ فبراير (شباط) بانتفاضة. ثم تم إنضاجها والتفكير فيها واحتوائها خلال مدة طويلــة. وكانــت أول مراحلهــا هــي الإضراب. ثم توسع هذا الإضراب خلال ثلاثة أيام حتى أصبح عامًا من الناحية العملية، وكان هذا الحدث الوحيد كافيًا لإعطاء ضمان للجماهير ودفعها إلى أمام. وامتزج الإضراب الذي اتخذ طابعًا يحمل المزيد من الروح الهجومية والحِدة مع مظــاهرات وَضعت الجماهير الثورية في مواجهة القطعات العسكرية. وانتقلت المشكلة بمجموعها إلى مستوى أعلى؛ حيــث أصــبح مــن الواجب حلها بالقوة المسلحة. وتميزت الأيام الأولى بانتصارات جزئية للحكومة ولكنها كانت انتصارات عرضية أكثــر منهــا فعلية.

ولا يمكن للانتفاضة الثورية التي تستمر عدة أيام أن تتخذ تطورًا ظافرًا إلا إذا سجلت خلال انتقالها مــن درجــة إلــى درجة، نجاحات جديدة تتحقق بصورة دائمة، فأي توقف في مسار الانتصارات يشكل خطرًا على الثورة. والمُراوحة في المكان وعدم إحراز أي تقدم يعني الخسارة والضياع. وكذلك فإن النجاحات الثورية غير كافية بحد ذاتها؛ إذ ينبغي أن تأخذ الجمــاهير علمًا بها في الوقت الملائم، وأن تتمكن من تقديرها حق قدرها. ومن الممكن أن تخسر انتصارًا في لحظة كان يكفي فيها أن نمد يدنا لالتقاطه. وقد حدث هذا في التاريخ وعرفناه.

وتميزت الأيام الثلاثة الأولى بتصعيد المعركة وتأزيمها بشكل ثابت. ولهذا السبب بالذات وصلت الحركة إلى مــستوى أصبحت فيه النجاحات العرضية غير كافية لها. فقد نزلت كل الجماهير الفعَّالة إلى الشوارع. وصمدت فــي وجــه الــشرطة، وحققت نتائج حسنة دون صعوبات كبيرة. وتورطت القطعات في اليومين الأخيرين من الأيام الثلاثة في الأحداث. ففــي اليــوم

الثاني سارت الخيَّالة وحدها. وفي اليوم التالي سارت المشاة، وأخذت تصد الجماهير، وتشكل السدود، وتتــرك حريـــة العمــل للجماهير في بعض الأحيان، ولكنها في كل هذا لم تلجأ إلى الأسلحة النارية أبدًا. ولم تسارع السلطة العليا إلى تعــديل خطتهـــا، لأنها قللت من أهمية الأحداث (وتكامل وَهم رؤيا الرجعية مع خطأ موازٍ ارتكبه زعماء الثورة) من جهة، ولأنها لم تكــن تثــق بجيشها من جهة أخرى. ولكن الحكومة اضطرت إلى حشد القطعات في اليوم الثالث، بسبب تطور المعركة بعد أمر القيــصر، وكان هذا من حسن حظ الثورة. وقد فهم العمال ضَعف الحكومة. وكان الفهم واضحًا لدى النخبة العمالية وخاصة وأن القــوات المدرعة قد فتحت النيران. فمنذ هذا الوقت، أصبحت المسألة مطروحة من الجانبين في كل سعتها.

وفي ليلة ٢٥ - ٢٦ أوقف حوالي مائة من المناضلين الثوريين في مختلف الأحياء، من بينهم خمسة أعضاء مــن لجنـــة بلاشفة بتروغراد. وكان هذا بمثابة إشارة أيضًا إلى أن الحكومة بدأت الهجوم. فما الذي حدث إذن خلال اليوم؟ وكيف يـــستيقظ العمال بعد التراشق بالنيران الذي جرى في اليوم السابق؟ وماذا ستقول القطعات -وقولها مـــسألة أساســـية- ..؟ إن فجـــر ٢٦ سيكون محمَّلاً بالشكوك والقلق العنيف.

ونظرًا لأن أعضاء لجنة بتروغراد أوقفوا، فقد نُقلت إدارة العمليات في المدينة إلى ناحية فيبورغ. وربما كان هذا النقــل من مصلحة العمليات الثورية. وترددت الإدارة العليا للحزب بصورة يائسة وعجزت عن اتخاذ قرار. وأخيرًا، وفي صـــباح ٢٥ فقط قرر مكتب اللجنة المركزية البلشفية طبع منشور يدعو إلى الإضراب العام في كل روسيا. وفي اللحظة التي ظهـــر فيهـــا المنشور -إذا كان قد ظهر- كان الإضراب العام في بتروغراد قد تحول إلى انتفاضة مسلحة. أما قيادة الحزب فكانـــت تراقـــب الموقف من عليائها، وتتردد، وتؤخر، أي أنها لم تكن تقود؛ فقد كانت تابعة للحركة الثورية لا محركة لها.

وكلما كان المرء يقترب من المصانع، كلما كان يكتشف التصميم والعناد اللذين يسودان العمل. ومع كل هـــذا، وصـــل المنشور في يوم ٢٦ إلى النواحي. وكان قادة فيبورغ يتضورون جوعًا، وكانوا عاجزين عن الحركة، يرتعـــدون مـــن البـــرد ويعقدون الاجتماعات السرية خارج المدينة في البساتين؛ حيث يتبادلون في هذه الاجتماعات انطباعاتهم ويحاولون وضع مسلك عام لهم. فما هو المسلك الذي سيتبعون؟... هل هو القيام بمظاهرة جديدة؟ ولكن ما الذي ستفعله مظاهرة أفراد مجـــردين مـــن السلاح إذا كانت الحكومة مصممة على المسير إلى النهاية؟ إنها لمسألة تعذب الضمائر: "يخيل إليَّ بأن الحكومة ستقضي علـــى الانتفاضة"، بهذا الشكل عبر صوت كييوروف المعروف عن الموقف. وبدا هذا الصوت لأول وهلة غريبًا عنه فقد هبط مؤشـــر الميزان الجوي قبل العاصفة.

وفي الساعات التي انتشر التردد فيها فشمل أكثر الثوريين قُربًا من الجماهير، انطلقت الحركة وامتدت إلـــى أبعـــد ممـــا يتصور المشتركون فيها. فبالأمس أي في مساء ٢٥، كانت أحياء فيبورغ بكاملها بيَد الثوار. فقد نُهبت مفوضـــيات الـــشرطة، وذُبح بعض أفرادها، وفر معظم الباقين واختفوا. وقُطعت خطوط هاتف المركز البلدي لقطاع (غرادونات – شالـــستوفر) مـــع الجزء الأكبر من العاصمة. وفي صباح ٢٦، تبين أنه لم يكن هذا القطاع بيَد الثوار فحسب، بل إن أحياء بسكي حتـــى شـــارع ليتييني كانت بيد الثوار أيضًا. وعلى الأقل، هذا هو الوضع الذي وصفته تقارير الشرطة في ذلك اليوم. كان هذا صحيحًا بمعنى ما، مع أنه من المحتمل أن لا يكون الثوار قد انتبهوا إلى ذلك. ومما لا شك فيه أن الشرطة قد تخلت في كثير من الحالات عن مراكزها قبل أن تجد نفسها تحت تهديد الهجوم العمالي. ولكن لم يكن لإخلاء الأحياء الصناعية في نظر العمال معنى حاســـمًا، وذلك بصرف النظر عن الأحداث التي وقعت وبصورة مستقلة عنها، ذلك لأن القطاعات لم تكن قد قالت بعد كلمتها الأخيـــرة. "ستقضي الحكومة على الانتفاضة" ... هذا ما فكر به أشجع الشجعان عندما كانت الانتفاضة سائرة على طريق تطورها.

وكان يوم ٢٦ يصادف يوم أحد، وقد بقيت المصانع في هذا اليوم مغلقة. وصار من المستحيل حساب قوة اندفاعة الجماهير منذ الصباح استنادًا إلى اتساع الإضراب وامتداده. وبالإضافة إلى هذا، لم يتمكن العمال من الاجتماع في مؤسساتهم، كما فعلوا في الأيام السابقة، وكان التظاهر أكثر صعوبة بالنسبة لهم. وفي فترة الصباح كان شارع نييفسكي هادئًا. وهكذا أبرقت زوجة القيصر إلى زوجها تقول: "إن الهدوء يخيم على المدينة". ولكن هذا الهدوء لم يدم طويلاً. وأخذ العمال يحتشدون بصورة تدريجية، ويتلاقون في المراكز قادمين من كل الضواحي. وقد منعوا من عبور الجسور. فساروا على الجليد؛ إذ كان نهر النييفا يشكل جسرًا من جليد في شهر فبراير (شباط). ولا يكفي الرمي على جمع يجتاز نهرًا جليديًّا لمنعه واحتوائه. وقد غيَّرت المدينة شكلها تمامًا. فالدوريات في كل مكان، وقد انتشرت الحواجز ودوريات استطلاع الخيالة في كل مكان. وتحت حراسة الممرات الرئيسية المؤدية إلى شارع نييفسكي بصورة جيدة وبشكل خاص. وغالبًا ما كان ينطلق دوي رشات من المخافر والكمائن. وازداد عدد القتلى والجرحى. فمن أين كانت النيران تنطلق؟ ومن كان يطلق النيران؟ ليس من الممكن دومًا معرفة ذلك. ومما لا شك فيه أن الشرطة التي تعرضت لتأديب قاسٍ قد قررت أن لا تُعَرض أفرادها للأخطار. فكانت ترمي من النوافذ، والشرفات، ومن خلف الأعمدة، ومن الأمكنة العالية. وأخذ الناس يضعون الفرضيَّات عن التدخل، وأصبحت هذه الفرضيات أساطير بكل سهولة. ويُحكي أن كثيرًا من الجنود قد لبسوا لباس الشرطة لإرهاب المتظاهرين. ويتناقل الناس قصة تقول أن بروتوبوبوف وضع عدة مراكز للرشاشات فوق الأسطحة، ولكن لجنة التحقيق التي شكلت بعد الثورة لم تجد أثرًا لهذه المراكز. وعلى كل حال، لم تحصل اللجنة على دليل يؤكد عدم وجودها. ومع ذلك، انتقلت الشرطة في هذا اليوم لتقف في الصف الثاني؛ إذ تدخَّل الجيش في النهاية. وتلقى الجنود أوامر مشددة بإطلاق النار، وأطلَق النار بصورة خاصة الأفراد المنتمون إلى مدارس ضباط الصف. ووقع في هذا اليوم، طبقًا للأرقام الرسمية، حوالي أربعين قتيلاً، وأربعين جريحًا، هذا عدا الجرحى والقتلى الذين استطاع الجماهير إسعافهم أو حملهم. ووصلت المعركة إلى مرحلتها الحاسمة. فهل ستتراجع الجماهير، تحت طلقات الرصاص إلى أحيائها؟ كلا، إنها لن تتراجع أبدًا. إنها تريد أن تنتصر.

وعاشت بطرسبورغ مدينة الموظفين والبورجوازيين، والليبراليين، وسط الهلع. وكان رودزيانكو -رئيس مجلس دوما الإمبراطورية- يُطالب في هذا اليوم بإرسال قطعات موثوقة من الجبهة. ثم "بدل رأيه" فيما بعد ونصح بيليائيف -وزير الحربية- بعدم استخدام البنادق واللجوء إلى استخدام الحِراب وخراطيم رجال الإطفاء لصب الماء البارد على المتظاهرين... وبعد أن استشار بيليائيف الجنرال خابالوف أجاب بأن حمامات الماء البارد تحدث أثرًا مضادًا "لأنها منشِّطة". تلك هي المحادثات التي كان يتبادلها الليبراليون مع أصحاب المقامات الرفيعة ورجال الشرطة عن الحسنات النسبيَّة للحمام البارد أو الساخن لسحق شعب ثائر، وبرهنت تقارير الشرطة في هذا اليوم على أن خراطيم رجال الإطفاء لا تكفي: "لوحظ أثناء الاضطرابات، بصورة عامة أن تجمعات المتمردين تحرِّض أفراد القطعات على الثورة. وكانت الجموع ترد على الضرب بقذف الحجارة وقطع الجليد التي تنتزعها من الطريق. وعندما كانت القطعات تطلق الرصاص في الهواء، للتحذير، كانت الجموع ترد على الرشات بالضحكات بدلاً من أن تتفرق. وقد نجحت القطعات في تفريق التجمعات عندما أطلق أفرادها النيران وسط كتل الجموع فقط، "وحتى عندما كانوا يطلقون الرصاص وسط هذه الجموع، كان معظم المشتركين يختبئون في ساحات البيوت المجاورة لمكان وجودهم، وعندما يتوقف إطلاق النار، يعودون إلى الشارع من جديد". ويشهد هذا التقرير الذي قدمته الشرطة على ارتفاع حرارة حماس الجماهير إلى درجة كبيرة. والحقيقة، هناك احتمال ضعيف في أن تكون الجموع هي التي بدأت بقذف الأحجار وقطع الجليد على الجنود، وعلى طلاب مدارس ضباط الصف أيضًا؛ ففي هذا تناقض كبير مع نفسية المتمردين وتكتيكهم العاقل إزاء الجيش. ولقد لوَّن رجال الشرطة تقاريرهم ورتبوها بشكل لا يتفق مع الوقائع بغية تبرير المذابح التي قاموا بها بين صفوف الجماهير. ومع كل هذا، فجوهر الأمر ممثل بصورة صحيحة، وبقوة رائعة في هذه التقارير: لا تريد الجماهير أن تتراجع، فهي تقاوم بشراسة المتفائل، وتتمسك بوجودها في الشارع حتى بعد أن تتعرض لرشات رصاص قاتلة. ولا تتمسك هذه الجماهير بالحياة أبدًا، إنها تتمسك وتتعلق ببلاط الطريق، وبالأحجار، وبقطع الجليد. وهي ليست ساخطة

فحسب، بل إنها جريئة ومقدامة. ولم تفقد ثقتها بالقطعات العسكرية برغم إقدام هذه القطعات على إطلاق النيران عليها. وتسعى هذه الجماهير للحصول على النصر مهما كان الثمن.

وازدادت حدة الضغط الذي مارسه العمال على الجيش، وأحبط هذا الضغط أثر السلطات ونفوذها على القوات العسكرية. وقد أصبحت حامية بتروغراد، بصورة نهائية، النقطة التي تتجه إليها كافة الأنظار في الأحداث. ووصلت مرحلة التفرج التي التزمت القطعات العسكرية بها إلى نهايتها بعد أن استمرت قرابة ثلاثة أيام تمكن فيها الجزء الأكبر من الحامية من الحفاظ على حياد ودي إزاء المتمردين. فقد كانت الملكية المستبدة تأمر بما يلي: "أطلقوا النار على العدو!". أما العمال والعاملات فكانوا يصيحون موجهين أقوالهم إلى أفراد هذه القطعات: "لا تطلقوا النار على أخوتكم وأخواتكم!" وهكذا جرت في الشوارع وفي الميادين وأمام الجسور وعلى أبواب الثكنات معركة مستمرة، كانت مأساوية أحيانًا وغير ملموسة أحيانًا أخرى، ولكنها كانت معركة مستميتة دومًا لكسب الجندي. وكان مصير السلطة والحرب والبلاد يتقرر في هذه المعركة، وفي هذه الاتصالات الوثيقة بين العمال والعاملات والجنود، التي كانت تتم تحت دوي البنادق والرشاشات.

وزاد إطلاق النيران الموجه ضد المتظاهرين من شكوك قادة الثورة. وبدا شمول الحركة ذاته واتساعها محفوفين بالمخاطر. وأخذ البعض يتساءل عما إذا كان الوقت قد حان لإنهاء الإضراب، وشمل التساؤل أيضًا أعضاء لجنة فيبورغ التي اجتمعت مساء يوم ٢٦، أي قبل الانتصار باثنتي عشرة ساعة. وقد تبدو هذه الواقعة مدهشة ومذهلة. ولكن ينبغي أن نفهم أن النصر قد لوحظ بسهولة أكبر في اليوم التالي أكثر مما لوحظ بالأمس. وبالإضافة إلى هذا، غالبًا ما تتبدل الأوضاع النفسية حسب انعكاس الأحداث والأخبار الواردة. ويتلو الوهن نشاط جديد بسرعة. ويملك أتباع كييوروف وتشوغورين ما يكفي من الشجاعة، ولكن الذي يلدغ قلوبهم في بعض اللحظات هو الإحساس بمسئولياتهم أمام الجماهير. أما في صفوف العمال فقد كان التردد فيها باديًا بصورة أقل. ونحن نملك تقريرًا يوضح إجراءات الحكومة وتدابيرها في ذلك الوقت وكان شوركانوف أحد عملاء الأمن المزوِّدين بالمعلومات وقد وجه هذا التقرير إلى السلطة العليا. وقد لعب شوركانوف هذا دورًا هامًا في التنظيم البلشفي. يقول هذا المحرِّض في تقريره إلى سلطات الأمن ما يلي: "نظرًا لأن القطعات العسكرية لم تمنع الجماهير من التظاهر ولم تجابهها، وإنما اتخذت تدابير في بعض الحالات لشل مبادرات الشرطة وتعطيلها، نظرًا لكل هذا فقد أحست الجماهير بالثقة من عدم إنزال القِصاص بها. وبعد أن قامت هذه الجماهير بعد يومين من الحركة الحرة بطرح الشعارات التالية في الشوارع: "فلتسقط الحرب!" و"ليسقط الحكم المستبد!"، اقتنع الشعب بأن الثورة قد بدأت، وأن النجاح مضمون للجماهير، وأن السلطة ستعجز عن قمع الحركة، نظرًا لأن القطعات تنحاز إلى جانب الثوار الذين أصبح نصرهم الحاسم قريبًا، لأن الجيش، اليوم أو غدًا، سينحاز بصورة صريحة إلى جانب القوى الثورية. وعندئذ تنمو هذه الحركة الثورية لا يمكن أن تهدأ إلى أن يتحقق لها النصر الكامل وقلب النظام. كان هذا التقدير يتمتع بوضوح وإشراق رائعين! ويشكل هذا التقدير وثيقة تاريخية ذات قيمة كبرى. إلا أن تقدير هذا المحرض والإشادة بدقة حساباته لم تمنع العمال من إعدامه بعد الانتصار.

وكان عدد المحرضين الوشاة كبيرًا في بتروغراد بصورة خاصة وكانوا يخشون انتصار الثورة أكثر من أي شخص آخر. ولهؤلاء المحرضين سياستهم التي ينفذونها: ففي مؤتمرات البلاشفة كان شوركانوف -الذي ألمحنا إلى أنه لعب دورًا في داخل التنظيم البلشفي- يدلي بتصريحات تؤيد اتخاذ أقسى التدابير. ويقترح في تقاريره إلى إدارة الأمن في الوقت ذاته ضرورة استخدام السلاح. وربما كان شوركانوف يسعى للمبالغة في تأكيد انتصار العمال في هجومهم بغية تحريض السلطات على استخدام السلاح. ولكنه كان على حق في جوهر الموضوع، وقد بررت الأحداث فيما بعد صحة تقديره ودقة حساباته.

وكانت الدوائر العليا للمعسكرين تتردد وتضع الافتراضات، لأنه لم يكن بوسع أي منهما حساب ميزان القوى، بصورة مسبقة. فلم يعد من الممكن أخذ الدلائل الخارجية كمقياس. ويتألف أحد الملامح الرئيسية لأية أزمة ثورية، من التناقض العنيف

بين الوعي والأشكال القديمة للعلاقات الاجتماعية. وكانت النِسب الجديدة للقوى كامنة بصورة غريبة في وعي العمال والجنود. ولكن انتقال الحكومة إلى هجوم سبقه واستدعاه هجوم الجماهير الثورية حوّل ميزان القوى الجديد من ميزان كامن إلى ميزان فعلي. فقد حدق العامل في وجه الجندي، بشراهة وبصورة آمرة. وحوّل الجندي نظره عن العامل بعد أن أحس بالقلق والاضطراب من وطأة هذه النظرات. كل هذا يبرهن على أن الجندي لم يكن واثقًا بعد من نفسه. ثم تقدم العامل بجرأة أكبر نحو الجندي. وكان الجندي شرسًا ضجرًا، ولكنه لا يحمل أي عداء على الإطلاق، ويشعر في أغلب الأحيان بالندم ووخز الضمير. وكان يدافع عن نفسه بالصمت، ويرُد أحياناً بلهجة قاسية منفعلة ليخفي القلق الذي يدق فؤاده. بهذا الشكل تحقق المِكْسَر. كان الجندي يتخلص بالطبع من الروح العسكرية. ولكنه مع تجرده منها لم يجد ذاته فورًا. وكان القادة يقولون إن الجندي قد سكر بخمر الثورة. ولكن كان يخيل للجندي بأنه يستعيد حواسه بعد تبدد تأثير أفيون الثكنة. هكذا أعد اليوم الحاسم: يوم ٢٧ فبراير (شباط).

وبالأمس، وقع حادث ثانوي، ولكنه أعطى لوناً جديدًا لكل أحداث ٢٦ فبراير (شباط)، ففي المساء تمردت السرية الرابعة من فوج بافلوفسكي، حرس صاحب الجلالة. وفي التقرير الذي كتبه أحد مفوضي الشرطة ظهر سبب هذا التمرد موضحًا بعبارات قاطعة تقول: "إنه حركة سخط موجهة ضد طلاب ضباط الصف في الفوج ذاته، أولئك الطلاب الذين أطلقوا النيران على الجماهير عندما كانوا مكلفين بحراسة شارع نييفسكي"، فمن الذي أعلم السرية الرابعة بما حدث وحرضها بهذا على التمرد؟ وحول هذه النقطة نجد المعلومات في شهادة محفوظة بالصدفة. ففي الساعة الثانية بعد الظهر، هرعت جماعة صغيرة من العمال إلى ثكنات فوج بافلوفسكي. وبأقوال متقطعة أعلموا الجنود بتراشق النيران الذي جرى في شارع نييفسكي، وقالوا لهم: "قولوا للرفاق أن رفاقكم أيضًا أطلقوا النار علينا. لقد رأينا في الشارع جنودًا يرتدون بزاتكم!". كان اللوم شديدًا، كما كان النداء حارًا. "وقد تضايق الجميع وازرقّت وجوههم". ولم تذهب المحاولة أدراج الرياح. وحوالي الساعة السادسة، تركت السرية الرابعة ثكنتها بمحض إرادتها تحت قيادة ضابط صف، فمن هو هذا ضابط الصف؟ لقد ضاع اسمه دون أن يترك آثارًا، ضاع اسمه وسط مئات وألوف من أسماء الأبطال الآخرين المجهولين، وتوجهت السرية إلى شارع نييفسكي لأخذ مكان الطلاب ضباط الصف في الفوج. ولم يكن عملهم هذا فتنة أو تمردًا من أجل لحم أتلِف. بل كان عملاً يتسم بمبادرة ثورية رفيعة. وفي الطريق، وقعت مناوشة بين السرية الرابعة ودورية من خيالة الشرطة، فأطلقت السرية النار، وقتلت أحد أفراد الشرطة وحصاناً، وجرحت شرطيًّا آخر وحصاناً. ولم يتمكن أحد من معرفة المسلك الذي اتبعته سرية بافلوفسكي وسط الجموع الغفيرة. وعاد أفراد السرية إلى ثكنتهم وحرضوا الفوج بكامله، ولكن الأسلحة أخفِيَت. وتبعًا لبعض المعطيات، استولى الثوار على ٣٠ بندقية. وبعد قليل حاصرهم فوج بريوبراجينسكي، وأوقف تسعة عشر جنديًّا من جنود الفوج وتم سجنهم في القلعة. أما الآخرون فقد استسلموا. وتبعًا لمعلومات أخرى، فقد اختفى ٢١ جنديًّا بسلاحهم في هذا المساء، واكتشف ذلك عند التفقد. وكان هذا "فرارًا" خطيرًا حقًا. وذهب هؤلاء الجنود المفقودين يفتشون طيلة الليل عن حلفاء لهم ومدافعين عنهم. ولم يكن هناك من يستطيع إنقاذهم إلا انتصار الثورة. وعلم العمال من أفراد السرية بكل ما جرى. ولم يكن الحادث إلا نذيرًا لما سيتخذه مسار معارك الغد.

وقد عاد نابوكوف -أحد أشهر الزعماء الليبراليين وأكثرهم شعبية- على إقدامه في الساعة الواحدة صباحًا من تلك الليلة، بعد سهرة قضاها عند أصدقائه مارًا في شوارع مظلمة وموحشة. وكان نابوكوف "فزعًا ومشبعًا بإحساسات غامضة". وتعتبر مذكرات نابوكوف الحقيقية الصحيفة الداخلية لحزبه وطبقته. ومن المحتمل أنه التقى بأحد الفارين من فوج بافلوفسكي في أحد المنعطفات. فسارع الاثنان إلى الابتعاد عن بعضهما. فلم يكن لديهما شيء يقولانه لبعضهما. وفي الأحياء العمالية وفي الثكنات سهر البعض أو كانوا يتشاورون، في حين راح البعض الآخر في نصف نوم وأخذ يحلم بالغد بحرارة. وفي هذا المكان وجد الجندي الفار من فوج "بافلوفسكي" ملجأ.

* * *

فكم كانت الملاحظات المأخوذة عن معارك الجماهير في فبراير (شباط) عاجزة عن شرح الوضع الحقيقي، إذا ما قورنت بالتقارير الموجزة التي أعطيت عن معارك أكتوبر (تشرين الأول). ففي أكتوبر (تشرين الأول)، كان المتمردون تحت قيادة الحزب الذي كان يقودهم يوميًا، وتمثل المقالات، والمنشورات، والوثائق الرسمية على الأقل الاستمرار الخارجي للكفاح. ولكن الأمر لم يكن كذلك في فبراير (شباط). فمن الأعلى لم تكن الجماهير مُقادة. وكانت الصحف تسكت، وكان الإضراب قويًا جدًا. وكانت الجماهير تصنع تاريخها الخاص بنفسها دون أن تنتظر خلفها. وأن إعادة تشكيل لوحة حية للأحداث التي وقعت في الشارع أمر غير قابل للتصور تقريبًا. وينبغي أن نكون سعداء إذا نجحنا في اكتشاف التتابع العام للأحداث ومنطقها الداخلي.

كانت الحكومة، التي لم تتخل بعد عن جهاز السلطة، تنظر إلى الأحداث بمجملها بصورة متشائمة أكثر مما تراها أحزاب اليسار التي لم تكن -كما نعرف جميعًا- على مستوى هذه الأحداث. وبعد التراشق "الناجح" بالنيران الذي حدث في ٢٦، أحس الوزراء للحظةٍ من اللحظات بالارتياح. وفي فجر يوم ٢٧، أكد بروتوبوبوف في بيان مطمئن أن "عددًا لا بأس به من العمال قد أصبح مستعدًا لمزاولة العمل" طبقًا للمعلومات التي تلقاها. بَيْد أن العمال لم يكونوا يفكرون أبدًا في الالتحاق بآلاتهم. فإطلاق النيران ونكسات الأمس لم تثبط عزيمة الجماهير. فكيف يمكن تفسير الحادث؟ بالطبع كان العمال الذين أبدوا استعدادهم للالتحاق بأعمالهم أقل بكثير من العمال الجدد الذين انضموا إلى الإضراب. فبعد أن انتشرت الجماهير الثائرة في الشوارع، واشتبكت مع العدو، وهزت أكتاف الجنود، وتسللت تحت بطون الخيول، وانقضت إلى أمام، وفرَّت متقهقرة ومتراجعة تاركة جثث أفرادها على مفارق الطرق، واستولت أحيانًا على بعض السلاح، ونقلت الأخبار، والتقطت الإشاعات، بعد كل هذا أصبحت الجماهير الثائرة إنسانًا جماعيًا له عيون وآذان ولوامس لا تُعد ولا تُحصى. وعندما تركت الجماهير في الليل أرض المعركة لتعود إلى دورها، في أحياء المصانع، كررت من جديد انطباعات اليوم، وأسقطت الوقائع الصغيرة، والأحداث العارضة، ووضعت حساب يومها الثقيل. وفي ليلة ٢٧ كان الحساب بمجمله مشابهًا للصورة التي قدمها المحرض شوركانوف للسلطات.

ومنذ الصباح، تقاطر العمال إلى المصانع، وقرروا في جمعياتهم العامة متابعة الكفاح. وظهر أن عمال حي فيبورغ هم أكثر العمال تصميمًا، كما كانوا دومًا. ولكن الاجتماعات التي انعقدت في الدوائر الأخرى خلال هذا اليوم كانت مليئة بالنشاط. وكان القرار العام هو متابعة المعركة! ولكن ماذا يعني هذا القرار الذي أعلن في هذا اليوم بالذات؟ لقد أدَّى الإضراب العام إلى قيام مظاهرات ثورية ضمت جماهير غفيرة، واصطدمت جماهير المظاهرات مع القطعات. إن قرار متابعة المعركة يعني في هذا اليوم الدعوة إلى العصيان المسلح. ومع ذلك، لم يوجه أحد ما هذه الدعوة. ومن المؤكد أن الأحداث تفرض العصيان المسلح، ولكن هذا العصيان لم يكن مسجلاً أبدًا على جدول أعمال الحزب الثوري.

ويشتمل تسعة أعشار فن القيادة الثورية، في أحرج اللحظات، على معرفة استجلاء صوت الجماهير وإرادتها -كما استنتج كييوروف من غمزة أحد القوزاق التي باركت حركة العمال الثورية- مع أن من الضروري أن تكون الرؤية أوسع مدى ومجالاً. وكان الذي يصنع أكبر قوة في وجود **لينين** هو قدرته التي لا يمكن أن تجارى في الخوض إلى أعماق الجماهير. ولكن لينين لم يكن موجودًا في بتروغراد. وكانت القيادات "الاشتراكية" الشرعية أو نصف الشرعية، وأتباع كرنسكي، وأنصار تشخيدزه، وأتباع سكوبوليف، وكل من كان يتحلق حولهم يكررون الإنذارات ويعاكسون الحركة. حتى أن هيئة الأركان المركزية للبلاشفة التي تتألف من شليابنيكوف وزالوتسكي ومولوتوف، أظهرت عجزًا وافتقارًا واضحًا جدًا إلى البديهة. والواقع، كانت أحياء المدينة كما كانت الثكنات تعمل من تِلقاء ذاتها. ولم يوزع أول منشور موجه إلى القطعات وضعته منظمة

الاشتراكيين - الديموقراطيين القريبة من البلاشفة إلا في يوم ٢٦. وفي صباح يوم ٢٧ وزع هذا المنشور الذي كتب بعبارات تحمل بعض التردد في كل النواحي، وقد لُوحظ أن هذا المنشور لا يحرض الجيش على الانحياز إلى جانب الشعب. وقد صرح أيورينييف أحد زعماء التنظيم قائلاً ما يلي: "ومع ذلك، كان سير الأحداث الثورية سريعًا حتى أن شعاراتنا جاءت متأخرة. وعندما انتشرت منشوراتنا في أوساط الجنود، كانت هذه الأوساط قد تحركت". وفيما يتعلق بقيادة البلاشفة، فإن شليابنيكوف لم يكتب منشورًا فيه دعوة إلى الجنود إلا في صبيحة يوم ٢٧ بعد أن ألح عليه تشوغورين، وهو واحد من أفضل الزعماء العماليين الذين ظهروا في فبراير (شباط). فهل تمت طباعة هذا المنشور؟ إنه لم يظهر في أفضل الحالات إلا في نهاية الجلسة، وفي ساعة انفضاض الاجتماع. ومن المستحيل أن نعتقد بأنه كان لهذا المنشور أثر على أحداث يوم ٢٧ فبراير (شباط). وعلينا أن نقبل مبدئيًّا القول بأن الزعماء كانوا متخلفين في هذه الأيام عن الجماهير وأنهم كانوا يسيطرون عليها من الأعالي.

ولكن الانتفاضة التي لم يشر إليها أحد حتى ذلك اليوم كانت وضعت نفسها على جدول الأعمال. وتركز الفكر العمالي كله على الجيش. وكان السؤال الذي يتردد: ألا يمكن جر الجيش؛ إن الاضطرابات المتفرقة لم تعد كافية بعد الآن. ونظم عمال حي فيبورغ اجتماعًا أمام ثكنات الفوج الموسكوفي. غير أن هذه الفكرة أعطت نتيجة سيئة؛ فهل من الصعب على ضابط أو مساعد أن يضغط على زناد رشاش؟ لقد حدث هذا بالفعل وانهالت على العمال نيران غزيرة وكثيفة. وتمت محاولة مماثلة أمام ثكنات الفوج الاحتياطي، وكانت النتيجة ذاتها. ووقف الضباط بين العمال والجنود وهم مسلحون بالرشاشات. وقد أخذ الغضب يملأ زعماء العمال الذين أصبحوا يبحثون عن السلاح، ويطالبون الحزب بتزويدهم به. ورد عليهم الحزب بقوله: إن السلاح في حوزة الجنود، وعليهم أن يتزودوا به منهم. كان العمال يعرفون هذا، ولكن كيف يمكن الحصول على السلاح؟ وماذا يحدث لو أنهم خسروا المعركة تمامًا في ذلك اليوم؟ وهكذا وصلوا إلى النقطة الحرجة في المعركة. إن الرشاش سيقضي على الانتفاضة ويكنسها، إنْ لم تتسلح الانتفاضة بالرشاشات.

ويذكر شليابنيكوف -الذي كان آنذاك عضوًا رئيسيًّا في قيادة بلاشفة بتروغراد- في مذكراته، أنه رفض إعطاء العمال السلاح، وأرسلهم إلى الثكنات لمطالبة الجنود به عندما جاءوه ملحين على تزويدهم بالبنادق أو بالمسدسات على الأقل. وكان الغرض من رفضه هو تجنب الصدامات الدموية بين العمال والجنود، والاعتماد على الاضطرابات والإغراء فقط، أي الاعتماد على كسب الجنود بالكلمة الحسنة والمثل المضروب. ونحن لا نعرف أية شهادات أخرى تؤكد أو تنفي هذا التدبير الذي قام به واحد من أشهر زعماء تلك الأيام. وهو تدبير تهربي أكثر منه تدبير بعيد النظر. ولقد كان من الأسهل أن يعترف القادة للعمال بأنهم لا يملكون السلاح. ومما لا شك فيه أن مصير كل ثورة من الثورات، في مرحلة من المراحل، يتقرر بتحول الرأي العام في الجيش. فليس بوسع الجماهير الشعبية المجردة من السلاح تمامًا أو تقريبًا انتزاع النصر حينما تواجه قطعة كثيرة التعداد، منضبطة، حسنة التجهيز، ومُقادة بمهارة. ولكن لا بُدَّ لأية أزمة وطنية من أن تؤثر على الجيش، بدرجة معينة. وفي شروط ثورة شعبية حقيقية، لا بُدَّ من انفتاح بعض الاحتمالات -بدون ضمانة بالطبع- لانتصار الحركة. ومع هذا لا يتم انتقال الجيش إلى جانب المتمردين لوحده، ولا يكون محصلة الاضطراب وحده. **فالجيش مؤلف من عناصر غير متجانسة وترتبط عناصره المتعادية بالرعب الانضباطي.** وفي أمسية الساعة الحاسمة، لا يعرف الجنود الثوريون ما يمثلونه من قوة وإلى أي مدى يمتد تأثيرهم. ومن الطبيعي أيضًا أن الجماهير العمالية ليست متجانسة أيضًا، ولكنها تملك أكثر من الجنود إمكانية إعادة النظر بتكوينها أثناء إعداد نفسها للنزاع الحاسم. فالاضطرابات، والاجتماعات، والمظاهرات أعمال نضالية ووسائل لقياس القدرة على النضال. كما أن الكتل الجماهيرية لا تتورط كلها في الإضراب. وليس كافة المضربين مستعدين للقتال. ففي آخر اللحظات، نجد في الشوارع أكثر العمال تصميمًا على القتال. أما الذين يترددون بدافع الخمول، أو بسبب الروح المحافظة فيبقون في دُورهم. وعندئذ يتم الانتقاء الثوري من تلقاء ذاته؛ فالتاريخ يغربل الرجال. أما الوضع في الجيش فيختلف كل الاختلاف؛ فالجنود

الثوريون، والمتعاطفون، والمترددون، والمعادون يبقون مرتبطين بانضباط قاسٍ، وتبقى مقاليدهم في قبضة الضباط حتى آخر لحظة. ويحسب الجنود كما كانوا يحسبون في السابق صف "أول" و"ثاني". فكيف إذن يتوزعون إلى متمردين وإلى خاضعين؟

وتحضر اللحظة النفسية التي ينتقل فيها الجنود إلى الثورة بسياق طويل ودقيق، يبلغ نقطته الحرجة، ككل سياق طبيعي. ولكن أين نضع هذه النقطة؟ ربما تكون القطعة مستعدة كل الاستعداد للانضمام إلى الشعب، ولكنها لا تتلقى من الخارج الدفع الضروري، وربما كانت القيادة الثورية لا تعتقد بإمكانية ربح الجيش إلى جانبها، وبهذا الاعتقاد تُضَيِّع القيادة الثورية احتمالات انتصارها. وبعد هذا التمرد الناضج الذي لم يتحقق، من الممكن أن يحدث رد فعل لدى القطعات، ويفقد الجنود الأمل الذي يحركهم، ويخضعون من جديد لنير الانضباط، ويجدون أنفسهم لدى أي لقاء جديد مع العمال يقفون في وجه الثوار. وخاصة إذا ما تلاقوا على مسافات بعيدة. وهنا نجد في هذا السياق أن العوامل التي لا توزن أو توزن بصعوبة، والتيارات المتقاطعة، والتلقين الجماعي أو الفردي عديدة جدًا. ولكننا نستنتج من هذا المركب الذي يمزج بين القوى المادية والنفسية استنتاجًا واضحًا بصورة لا يقاوم. إن الجنود بكتلتهم، قادرون بصورة أكبر على تحويل حرابهم، أو الانتقال إلى صفوف الشعب بسلاحهم، عندما يرون أن المتمردين في حالة انتفاضة حقيقية، وليسوا في مظاهرة سيعود الجندي بعد مواجهتها إلى ثكنته مرة أخرى ليقدم الحساب عن أعماله. يجب أن يحس الجنود بأن هناك معركة حياة أو موت، وأن الشعب قادر على الانتصار إذا ما انضم الجيش إليه، وبهذا الشكل لا يضمن الجندي عدم إنزال القصاص به فحسب، ولكنه يضمن بعض التحسن في وجوده. وبعبارات أخرى، لا يستطيع الثوار إحداث تحول في الوضع الفكري للجندي إلا بعد أن يكونوا هم مستعدين تمام الاستعداد لانتزاع النصر بأي ثمن حق، ولو كان الدم هو الثمن. ولا يمكن أن يتم هذا التصميم العلوي بدون سلاح.

وفي الساعة الحرجة لاحتكاك الجمهرة المهاجمة بالجنود الذين يسدون الطريق عليها دقيقة حاسمة. وتأتي هذه الدقيقة عندما لا يكون الحاجز الذي أقامه ذوو المعاطف الرمادية قد تفكك بعد، وعندما يتماسك الجنود كتفًا إلى كتف، ولكنهم رغم تماسكهم الظاهر يعانون من التردد، في حين يأمر الضابط الذي يجمع كل ما بقي له من شجاعة بإطلاق النار. وتطغى أصوات الجماهير، وصيحات الرعب والتهديد على صوت القائد، ولكنها تغطي نصف هذا الصوت فقط. وتتوقف البنادق، وتضغط الجماهير. عندئذ يوجه أحد الضباط مسدسه على أحد الجنود المشبوهين. وها هي الثانية الحاسمة، في الدقيقة الحاسمة. ويسقط أشجع جندي يستقطب أنظار الآخرين بصورة لا شعورية. ويلتقط ضابط صف بندقية الجندي القتيل، ويطلق النار على الجماهير، فإذا بالحاجز يتماسك من جديد، وتنطلق البنادق لوحدها، تكنس الجمع الغفير في الشوارع والميادين. ولكن كم من المرات حدث ما هو مخالف لهذا منذ عام ١٩٠٥. ففي اللحظة الحرجة، في اللحظة التي سيضغط فيها الضابط على الزناد، كانت حركته هذه مسبوقة بطلقة رصاص انبعثت من صفوف الجماهير التي كان فيها قادة من أمثال كييوروف وتشوغورين. إن هذا العمل لا يقرر نتيجة مناوشة من المناوشات تتم في الشارع فقط، بل ربما يقرر نتائج كل اليوم الثوري أو مصير الانتفاضة الثورية كلها.

إن المهمة التي وضحها شليابنيكوف لحماية العمال من الصدامات العنيفة مع الجنود، برفضه توزيع الأسلحة على العمال ليست مهمة ممكنة التحقيق بصورة عامة. فقبل أن يتوصل العمال إلى الصدام مع القطعات، حدثت مناوشات كثيرة مع الشرطة. وبدأت معركة الشوارع بنزع سلاح الفراعنة المكروهين، وانتقلت مسدساتهم إلى أيدي الثوار. إن المسدس -بحد ذاته- سلاح ضعيف، وهو عبارة عن لعبة من اللعب إذا جابه البنادق والرشاشات، ومدافع العدو. ولكن هل يملك العدو حقًا هذه الأسلحة؟ إن العمال يطالبون بالسلاح لكي يتحققوا من هذا. والمسألة مسألة نفسية. ومع هذا **لا يمكن فصل السياقات النفسية عن الوقائع المادية، حتى في العصيان المسلح**. فلكي نصل إلى بندقية الجندي، ينبغي أن نجرد الفراعنة من مسدساتهم أولاً.

وكانت انفعالات الجنود في هذه الساعات أقل أثرًا من انفعالات العمال، ولكنها لا تقل عنها عمقًـــا. ولنتـــذكر أيـــضًا أن الحامية كانت تتألف أساسًا من كتائب احتياطية تعد بآلاف من الرجال المخصصين لتكملة كتائب الجبهة. ومعظم هؤلاء الرجال، من أصحاب العائلات الذين لا يريدون أن يذهبوا إلى الخنادق، في وقت كانت قوات الجبهة فيه قد خسرت المعركة، وتعرضت البلاد للخراب. وكان هؤلاء الرجال لا يريدون الحرب، بل يريدون العودة إلى بيوتهم، وإلى حياتهم العائلية السابقة. وكانوا على علم كافٍ بكل ما يُحَاك في القصر، ولا يحسون بأية رابطة مع الحكم المستبد. إنهم لا يريدون محاربة الألمان، كما لا يبغـــون محاربة عمال بتروغراد أبدًا. وكانوا يحتقرون الطبقة الحاكمة في العاصمة، هذه الطبقة التي كانت تقـــيم الـــولائم فـــي زمـــن الحرب. ونجد بين هؤلاء الرجال عمالاً يتمتعون بماضٍ ثوري عريق، ويعرفون كيف يعطون لهذه الأوضاع الفكريـــة تعبيـــرًا شائعًا.

وكانت المشكلة الأساسية هي قيادة الجنود باستغلال استياء ثوري عميق، ولكنه استياء مستتر، للقيـــام بأعمـــال تمـــرد واضحة، أو بغرض الامتناع عن العمل، للبدء بالتمرد. وقد فقد الجنود في اليوم الثالث من الصراع كل إمكانية للبقاء في موقـــع الحياد الحذر إزاء الانتفاضة. وقد وصلتنا معلومات مجزأة ومتفرقة بطريق الصدفة عما حدث في هذه الساعات بـــين العمـــال والجنود. ونحن نعرف الآن كيف رفع العمال في هذه الساعات أصواتهم في مواجهة جنود فوج "بافلوفـــسكي"، وكيـــف قـــدموا شكاويهم الحادة من سلوك طلاب ضباط الصف. فقد وقعت مسرحيات، ومحادثات، وعتابات في كل مكان من المدينة. ولم يعد هناك أمام الجنود متسع من الوقت للتردد. لقد اضطرتهم السلطات بالأمس إلى إطلاق النار. وستـــضطرهم اليـــوم أيـــضًا. إن العمال لا يتنازلون أبدًا، ولا يتراجعون، وهم مصممون على بلوغ أهدافهم تحت وابل الرصاص. وتقف بالقرب منهم العاملات، والأمهات، والشقيقات، والزوجات، والزميلات. ودقت الساعة التي تحدث عنها الجميع بصوت منخفض، في الزوايا والمخابئ، وكانت في دقاتها كأنما تردد الشعار الذي يقول: "لو أننا كلنا معًا؟". وارتفعت أصوات الثورة الصريحة في الثكنة خلال لحظـــة الأهوال الكبرى والرعب المؤكد مما يحمله اليوم التالي الذي يدق أبواب الزمن. وكانت هذه الأصوات مشبعة بحقد خانق مـــن أولئك الذين فرضوا على الجيش دور الجلاد. وأصبحت الثكنة متحمسة، ومرتاحة الضمير بعد أن وجدت ذاتها وعرفت نفسها. وهكذا أشرق على الأرض اليوم الذي تداعت فيه ملكية أسرة رومانوف.

وقرر أربعون مندوبًا عن المصانع خلال اجتماع الصباح، الذي عقد عند كييوروف الزعيم العمـــالي الـــذي لا يعـــرف التعب، قرروا متابعة الحركة واستمرارها بالأكثرية. ومن المؤسف أننا لا نستطيع أن نعرف الآن قيمة هـــذه الأكثريـــة وعـــدد الأصوات التي كانت لصالح الاستمرار. فلم يكن الوقت ملائمًا في ذلك الوقت لوضع محاضر الجلسات. وعلى كل حال، كـــان هذا القرار متخلفًا عن الوقائع؛ فقد توقف الاجتماع بسبب خبر يثير النشوة؛ لقد انتفض الجنـــود، واقتحمـــوا أبـــواب الـــسجون. "وتبادل شوركانوف القبلات مع كل الموجودين"، قبلات يهوذا التي لم تعلن، من حسن الحظ، عن صلب المسيح.

ومنذ الصباح تمردت كتائب الاحتياط، كتيبة بعد أخرى، قبل أن تخرج من الثكنات، واتبعت المثل الذي أعطته بـــالأمس السرية الرابعة من فوج بافلوفسكي، ولم يبق في الوثائق والملاحظات والمذكرات عن هذا الحدث العظيم في التاريخ الإنـــساني إلا آثار باهتة ومظلمة. فالكتل المضطهدة -حتى عندما ترتفع إلى أعلى قمم الخلق التاريخي- لا تكتب كثيرًا من الأشـــياء عـــن نفسها وتغمض حق ذاتها في كثير من مواقفها، وتسجل ملاحظاتها عن نفسها بشكل قليل شاحب. ثم يـــأتي الإحـــساس المثيـــر بالانتصار فيما بعد ليمحو عمل الذاكرة. فلنعد بعد هذا الاستطراد لنتحدث عما بقي من أعمال هذه الكتلة.

كان جنود فوج فولهيني هم أول المتمردين. فمنذ الساعة السابعة صباحًا، اتصل أحد قادة الكتائب بخابالوف هاتفيًّا لينقـــل إليه خبرًا مفزعًا يقول: إن طلاب ضباط الصف، أي أن القوة المخصصة بصورة محددة لعملية القمع قد **رفضت المـــسير**، وأن

قائدها قُتل أو انتحر أمام صفوف قطعته. أما الرواية الثانية فقد استبعدت فورًا. فبعد أن حرق جنود فوج "فولهيني" مراكبهم من خلفهم، حاولوا توسيع قاعدة الانتفاضة، وكانت هذه العملية هي فرصتهم الوحيدة للسلامة. فقد هرعوا إلى الثكنات المجاورة التابعة للفوج "الليتواني" وفوج "بريوبراجينسكي" لكي "يحرضوا" جنودهما. وكان بعض المضربين يركضون من مصنع إلى مصنع لكي "يحرضوا" العمال. وبعد وقت قصير علم خابالوف أن جنود فوج "فولهيني" لا يرفضون تسليم أسلحتهم كما أمر الجنرال بذلك فحسب، بل إنهم اشتركوا مع جنود الفوج "الليتواني" وفوج "بريوبراجينسكي" **و"اعتبروا قضية العمال قضيتهم"، وهذا الاعتبار هو أخطر بكثير من عدم استعمال السلاح،** وبعد ذلك فقد قام جنود فوج "فولهيني" بنهب ثكنات فرقة الدرك. وهذا يثبت أن التجربة التي خاضها جنود فوج "بافلوفسكي" بالأمس لم تكن تجربة خاسرة: فقد وجد المتمردون زعماء لهم، ووجدوا أيضًا خطة عمل في الوقت ذاته.

وفي الساعات الأولى من يوم ٢٧، كان العمال يتصورون أن حل مسألة العصيان أبعد بكثير مما كانت عليه في الحقيقة. فقد كان هؤلاء العمال يعتقدون بأن عليهم أن يقوموا بعمل كل شيء، في حين كانت تسعة أعشار مهمتهم قد تحققت. فقد تطابق الدفع الثوري للعمال من جهة الثكنات مع الحركة الثورية للجنود الذين كانوا قد خرجوا فعلاً إلى الشارع. وامتزج هذان التياران العاصفان خلال النهار ليكنسا معًا سقف البناء القديم أولاً، ثم جدرانه، وأسسه وقواعده فيما بعد.

وكان تشوغورين أول من حضر إلى مقر البلاشفة، وبندقيته بيده، وكان يتمنطق بشريط من الرصاص "بينما العرق يتصبب منه، ولكنه رغم ذلك كان مشرقًا تبدو عليه إمارات الانتصار". فكيف لا يشرق وجهه ويضيء فرحًا! لقد انحاز الجنود إلى جانبنا بسلاحهم! وهنا وهناك **نجح العمال في عملية الالتحام مع الجنود،** والدخول إلى الثكنات والحصول على البنادق والذخائر. ووضعت مجموعة فيبورغ، بالتعاون مع أكثر الجنود تصميمًا خطة عمل تتضمن الاستيلاء على مفوضيات الشرطة؛ حيث تخندق رقباء المدينة ونزع سلاح كل أفراد الشرطة، وتم إطلاق سراح العمال الموقوفين في المفوضيات، والموقوفين السياسيين في السجون، وتم سحق القطعات الحكومية في المدينة، وضمت القطعات التي لم تتمرد بعد، كما ضم عمال بقية الأحياء إلى الانتفاضة.

وانضم الفوج "الموسكوفي" أيضًا إلى الانتفاضة. غير أن انضمامه أثار معركة داخلية. ومما يلفت النظر أن مثل هذه المعارك الداخلية في الجيش قليلة جدًا. وبدأت قشرة الحكم الملكي الرقيقة العاجزة تتساقط بعد أن خسرت دعم كتل الجنود وأخذت تتخندق في بعض الشقوق أو تتعجل بارتداء ألوان جديدة من جديد. ويحكي كاروليف وهو عامل في مصنع "أرسنال" ما يلي: "في الساعة الثانية بعد الظهر أخذنا الأسلحة لأن الفوج "الموسكوفي" قد خرج... كان كل واحد منا مسلحًا بمسدس وبندقية. وقدنا جماعة من الجنود اقتربت منا (وقد رجانا بعض أفرادها قيادتهم وتحديد ما ينبغي أن يعملوه) واتجهنا إلى شارع تيخفينسكايا لفتح النار على مفوضية الشرطة". وهكذا لم يتردد العمال للحظة واحدة وأظهروا للجنود "ما ينبغي عليهم عمله".

وكانت أخبار الانتصارات المفرحة تأتي خبرًا إثر خبر، وكنا نملك آليات مدرعة. وكانت هذه الآليات المزينة بالأعلام الحمراء تنشر الرعب في كل الأحياء التي لم تخضع للثورة بعد. ولم يعد الثائر بحاجة إلى الزحف تحت بطن حصان قوزاقي؛ فقد انتصبت الثورة بكل قامتها.

وحوالي الظهر عادت بتروغراد من جديد لتصبح ساحة معركة، ودوت طلقات البنادق والرشاشات في كل الجهات. وليس من السهل دومًا معرفة الذي يرمي والمكان الذي يرمي منه. ولكن الواضح أن الرمي كان يدور بين الماضي والمستقبل. ودوّى صوت الكثير من الطلقات النارية التي لا جدوى منها؛ فقد كان هناك بعض المراهقين يطلقون النار من مسدسات حصلوا عليها عن طريق الصدفة. وجرى نهب مستودعات الأسلحة: "وطبقًا لما قيل، لو جرى إحصاء لمسدسات البراونينغ فقط لوجد

أن عدد المسدسات الموزعة بلغ عشرات الألوف"، وكانت سُحب الدخان تصعد إلى السماء منبعثة مــن قــصر العــدل ومــن مفوضيات الشرطة التي كانت تحترق. وفي بعض الأماكن ازدادت حدة المناوشات، وازداد تبادل إطلاق النار حتى تحول إلـــى معارك حقيقية. وفي شارع سامبسونيفسكي وأمام بعض المعسكرات التي يحتلها الجنود، اقتربت بعض الآليات الحربيـــة، التـــي تجمع بعضها على أبواب المعسكرات، كما اقترب بعض العمال. وقد ذكر أحد الشهود أن العمال كانوا يقولون للجنود ما يلـــي: "ماذا تنتظرون أيها الرفاق"؟ "وكان الجنود يردون بالصمت وبابتسامة ماكرة". وكان الــضباط يــأمرون العمـــال بالانــصراف بشراسة.

وقد برهن أفراد سرايا النقل في الجيش كما برهنت الخيالة في فبراير (شباط)، وفي أكتوبر (تشرين الأول) علـــى أنهــم أكثر القوى محافظة في الجيش. وتجمع بعض العمال وبعض الجنود الثوريين أمام سياج من الأشجار مــشكلين مفــرزة مــن المفارز وأخذوا يتبادلون الآراء حول ضرورة إجبار الكتيبة المشكوك بها على الخروج. وجاء أحدهم ليقول إنه يجري البحــث عن سيارات مدرعة، فإذا لم نحصل على سيارات الجيش المدرعة لن يكون لدينا احتمالاً سيارات الجيش. وقد تقوَّت المفــرزة وتسلحت بالرشاشات. ولكن مفرزة الثوار وجدت الانتظار صعبًا، وعيل صبرها، وبدا عليها القلق، وكانت على حق في مللهـا وجزعها. وانطلقت طلقات الرصاص الأولى من الجانبين. ومع ذلك كان سياج الأشجار حاجزًا بين الجنــود والثــورة. فقــرر المهاجمون اقتلاع هذا الحاجز. وبدءوا باقتلاع جزء منه، وأحرقوا الجزء الآخر. وتعرت المعــسكرات التـــي تــشكل حــوالي عشرين براكة. وتخندق أفراد سرايا النقل في براكتين أو ثلاث. وأحرقت البراكات التي أخليت فورًا. وقد كتب كيبوروف عــن هذا الحادث في مذكراته بعد ست سنوات ما يلي: "كانت معسكرات البراكات التي اشتعلت فيها النيران وحولها الــسياج الــذي قطعت أشجاره وهدمت معالمه، وكان رمي الرشاشات والبنادق، والحركة الظاهرة للمهاجمين، ووصول سيارة نقــل بمنتهـــى السرعة تحمل ثوريين مسلحين، وأخيرًا وصول سيارة مدرعة تبرق مدافعها كان هذا كله يشكل لوحة رائعة لا تنسى". كانـــت هذه هي روسيا القيصرية القديمة، روسيا الكهنة والشرطة بثكناتها وأسيجتها التي تبصق النار والدخان، وتتصدع تحـــت تـــأثير رشات الرشاشات المزمجرة. فكيف لا يتحمس أتباع كيبوروف، والعشرات، والمئات والألوف من أمثاله؟ لقد أطلقـــت الــسيارة المدرعة التي ظهرت فجأة عدة طلقات من مدفعها على البراكات؛ حيث اختبأ ضباط وجنود سيارات النقل. وقتل قائــد الــدفاع. وفر الضباط بعد أن تخلصوا من شاراتهم وأوسمتهم عبر البساتين المجاورة. واستسلم الآخرون. وربما كان هذا الــصدام مــن أضخم صدامات هذا اليوم.

وفي هذه الغضون، كانت الانتفاضة في الجيش تنتشر كالوباء. وكان الجنود الذين لم ينتفضوا في هذا اليــوم هــم فقــط أولئك الذين لم يجدوا الفرصة للانتفاض. وفي المساء، انضم إلى الحركة جنود فوج "سيمينوفسكي" المعروف بصورة جيدة لأنه سحق بصورة شرسة عصيان موسكو في ١٩٠٥، وقد انقضى أحد عشر عامًا على هذا الحادث، ورغم ذلك فقد ترك الحـــادث بصماته على هذا الفوج، وقام جنود فوج "سيمينوفسكي" ليلاً بمعونة القناصة بخطف جنود فوج "إسماعيلوفسكي" الذين حبـــسهم قادتهم في ثكناتهم. وكان هذا الفوج الذي طوق بتاريخ ٣ ديسمبر (كانون الأول) أعضاء أول مجلـــس ســـوفييتات شُـــكل فـــي بتروغراد وأوقفهم، كان هذا الفوج يعتبر من أكثر الأفواج تخلفًا، وكانت حامية القيصر في العاصمة، التي بلغ عـــدد أفرادهـــا ١٥٠,٠٠٠ جنديًّا تنحل وتتفكك، وتذوب، وتختفي. وفي الليل، كانت هذه الحامية غير موجودة.

وحاول خابالوف، بعد أن وصلته معلومات عن انتفاضة الأفواج، إبداء بعض المقاومة فأرسل مفرزة منتقاة مؤلفـــة مـــن ألف جندي لتقاوم الثوار، وزودها بأكثر التعليمات شدة وقسوة. ولكن مصير هذه المفرزة أحيط بالغموض. وقد قص خابـــالوف، هذا الرجل الذي لا يمكن مقارنته برجل آخر القصة التالية: "حدثت في هذا اليوم أمور لا تـــصدق، فقـــد تحركـــت المفـــرزة، وانطلقت بقيادة ضابط شجاع مصمم هو العقيد كوتيبوف، ولكننا... لم نحصل على أية نتائج"! واختفت أيضًا بعض السرايا التي

أرسلت خلف المفرزة دون أن تترك أثرًا. وبدأ الجنرال خابالوف تشكيل وحدات احتياطية في ميدان القصر، ولكن "الذخيرة كانت غير متوفرة، ولا يعلم أحد من أين يتزود بها". وقد سجل هذا بصورة فعلية في أقوال خابالوف أمام لجنة التحقيق التي شكلتها الحكومة المؤقتة. فأين اختفت إذن المفارز المخصصة لعملية القمع؟ ليس من الصعب أن نتكهن بذلك، لقد اختلطت هذه المفارز بالثوار بعد أن وجدت نفسها خارج الثكنات. فقد كان العمال، والنساء، والفتيان، والجنود المتمردون يمسكون بأفراد قطعات خابالوف من كل الجهات، ويعتبرونهم مجندين جدد، ويحاولون تغيير آرائهم، وكانوا لا يتيحون لهم إمكانية الحركة إلا مع الجموع الغفيرة التي لا تعد. وأحس أفراد قطعات خابالوف أن الاشتباك بهذه الجمهرة اللزجة التي لا تخشى شيئًا، والتي تتزاحم باستمرار، وتتسلسل في كل مكان يعني الانقضاض بالسيف داخل معجنة!

وفي الوقت الذي كانت تصل فيه التقارير عن امتداد الثورة وشمولها للأفواج كان خابالوف يطالب بتزويده بقطعات موثوقة ليحقق بواسطتها عملية القمع. ويحمي المقسم الهاتفي، وقصر ليتوفسكي، وقصر ماري، وبعض الأماكن الأخرى المقدسة أيضًا. واتصل الجنرال هاتفيًا بقلعة كرونشتادت، مطالبًا بإرسال نجدات إليه، ولكن القائد رد عليه بأنه يحس ببعض المخاوف من حامية موقعه. ولم يكن خابالوف يعرف حتى الآن أن الانتفاضة قد شملت المواقع المجاورة. وحاول -أو تظاهر بمحاولة- تحويل قصر الشتاء إلى قلعة حصينة. ولكنه تخلى عن هذه الخطة فورًا واعتبرها خطة متعذرة التحقيق، وانتقلت آخر قبضة من القطعات "الموالية" إلى الأميرالية. وعندئذ اهتم الطاغية أخيرًا باتخاذ أهم التدابير وأكثرها إلحاحًا. فطبع بلاغين إلى السكان يمثلان آخر الأعمال الرسمية للنظام؛ ويتضمن الأول استقالة بروتوبوبوف "بسبب مرضه"، ويتضمن البلاغ الآخر إنذارًا بإعلان الأحكام العرفية في بتروغراد. وكان من الضروري اتخاذ هذا التدبير الأخير لأن جيش خابالوف ألغى بعد عدة ساعات "الأحكام العرفية"، وتسلل من الأميرالية، وتفرق، والتحق كل فرد من أفراده بعائلته. وأدى إهمال الثوار إلى عدم اعتقال الجنرال المرهوب في مساء ٢٧، رغم أن هذا الشخص لم يعد يخيف أحدًا بعد أن فقد قواته، وقد تم توقيفه في اليوم التالي بدون مضاعفات أو تعقيدات.

هل كانت هذه هي كل المقاومة التي أبداها النظام الإمبرطوري الرهيب لروسيا أمام خطر الموت؟ نعم، هذه هي كل المقاومة تقريبًا، برغم تجربة كبيرة حصل عليها النظام في القمع، وبرغم الخطط التي وضعت بدقة. وبعد أن عاد الملكيون إلى أنفسهم، فسروا هذا الانتصار السهل للشعب في فبراير (شباط) بالطبيعة الخاصة لحامية بتروغراد. ولكن كل المسار اللاحق للثورة يدحض هذا التفسير. حقًا لقد اقترحت حاشية القيصر عليه منذ بداية العام المشئوم ضرورة إعادة النظر في أمر حامية العاصمة. واعتقد القيصر دون صعوبة أن خيالة الحرس -التي تعتبر مخلصة موالية- "قد تعرضت للنار مدة طويلة وبما فيه الكفاية"، وأنها تستحق الراحة في ثكناتها في بتروغراد. ووافق القيصر على تبديل أربعة أفواج من خيالة الحرس بثلاث وحدات من سدنة أسطول الحرس بناء على ملاحظات وجيهة وصلته من الجبهة. وقد كان بوسع القيادة إجراء هذا التبديل بدون موافقة القيصر، استنادًا إلى رؤية بروتوبوبوف؛ إذ أنه كانت نتيجة بُعد بصر سابق وماكر للقادة الكبار؛ "فقد كان البحارة يجندون من بين العمال، ويشكلون العنصر الأكثر ثورية في الجيش كله"، ولكن هذا التفسير سخافات واضحة. فقد كان كبار ضباط الحرس، وبصورة خاصة في الخيالة، يقومون في الجبهة بخدمة رائعة بهدف العودة إلى الداخل. وبالإضافة إلى هذا، أحس هؤلاء الضباط الكبار ببعض الخوف عندما فكروا بعملية القمع التي فرضت عليهم، ورءوا أنهم سيكونون على رأس أفواج لا تشبه أبدًا الأفواج التي كانت في حامية العاصمة من قبل. ولم يكن الحرس الراكب يتميز أبدًا عن بقية الخيالة، كما برهنت على ذلك أحداث الجبهة فيما بعد، ولم يلعب بحارة الحرس الذين تمركزوا في بتروغراد دورًا فعالاً في ثورة فبراير (شباط)؛ لأن نسيج النظام ذاته كان قد اهترأ ولم يبق فيه أي خيط سليم.

وفي يوم ٢٧ أفرجت الجماهير بدون قتال عن الموقوفين السياسيين، وأطلقتهم من سجون متعددة في العاصمة، وبينهم المجموعة الوطنية في الصناعات الحربية التي اعتقلت بتاريخ ٢٦ يناير (كانون الثاني)، وأعضاء اللجنة البلشفية في بتروغراد التي سجنها خابالوف منذ أربعين ساعة. وظهرت المسافات السياسية منذ الخروج من السجن، فقد توجه المناشفة - الوطنيون إلى مجلس الدوما؛ حيث وزعت الأدوار والمراكز. وانتقل البلاشفة إلى النواحي، وتوجهوا إلى العمال والجنود لينهوا معهم غزو العاصمة. وينبغي أن لا نعطي للعدو أبدًا الوقت لكي يلتقط أنفاسه بل ينبغي أن تقاد الثورة بسرعة حاسمة أكثر من أي عمل آخر حتى تحقق هدفها.

ويبرز بعد ذلك السؤال التالي: من الذي أوحى بفكرة توجيه أفواج المتمردين إلى قصر توريد؟ إننا في الحقيقة لا نستطيع أن نجيب عن هذا السؤال. فقد نجم هذا المسلك السياسي عن الوضع العام. وقد توجهت بالطبع إلى قصر توريد -الذي يعتبر مركز استعلامات لمعارضة كل العناصر الراديكالية غير المرتبطة بالجماهير- ومن المحتمل جدًا أن تكون هذه العناصر، التي أحست بمد مفاجئ في القوى الحيوية، قد استلمت قيادة الحرس المنتفض. كان هذا الدور دورًا مشرفًا لا يشتمل تقريبًا على أي خطر. وكان قصر بوتميكين، بكل ترتيباته، هو القصر الذي يُمكن أن يكون أفضل مركز للثورة. ولا تنفصل حديقة توريد عن المدينة العسكرية الكاملة التي أقيمت فيها ثكنات الحرس والمصانع الإدارية المختلفة للجيش إلا بشارع واحد. ومن الصحيح القول بأن الثوريين أو الحكومة كانوا يعتبرون طيلة سنوات عديدة هذا الجزء من المدينة قلعة من قلاع الحكم المستبد. ولقد كان كذلك. أما الآن، فقد تقوض كل شيء. فمن قطاع الحرس يخرج الآن عصيان الجنود وتمردهم. ولم يعد أمام القطعات المتمردة إلا عبور الشارع للوصول إلى حديقة توريد التي لا يفصلها عن النيبفا إلا مجموعة من البيوت. ومن الناحية الأخرى للنيبفا تمتد دائرة فيبورغ، مرجل الثورة. ولم يكن أمام العمال إلا عبور جسر الكسندر، أو النزول على جليد النيبفا إذا قطع هذا الجسر، للوصول إلى ثكنات الحرس أو قصر توريد. وهكذا انضمت هذه التشكيلة المتنافرة، ذات الأصول المتناقضة إلى المثلث شمال شرقي بتروغراد -الحرس، وقصر بوتميكين، والمصانع الجبارة- وغدا هذا المثلث موقعًا عسكريًّا للثورة.

وأنشئت في داخل قصر توريد المراكز المختلفة، أو خطط إنشاؤها، ومنها هيئة أركان الحرب الثورية. ولا نستطيع أن نقول إن هيئة الأركان هذه كانت ذات طابع جدي. فهناك بعض الضباط "الثوريين" أي ضباط ارتبطوا في الماضي بالثورة حتى ولو كان ارتباطهم فيها بسبب خلاف أو سوء تفاهم وقع بينهم وبين رؤسائهم، ثم ناموا ملء عيونهم في الساعات الأولى من الانتفاضة، ثم ما لبثوا أن تسارعوا للتذكير بوجودهم، بعد الانتصار، ثم هناك ضباط رجاهم ضباط آخرون فجاءوا ليضعوا أنفسهم في "خدمة الثورة". وهم يتحرون الوضع العام بصورة ذكية ويهزون رءوسهم علامة على التشاؤم. لأن هذه الجموع من الجنود الساخطين، العزل من السلاح أحيانًا، عاجزة عن القيام بأي عمل. إنها لا تملك مدفعية ولا رشاشات ولا اتصالات ولا قادة. وسيتغلب العدو على هذا الوضع بمفرزة متينة واحدة! وهكذا يبدو جليًّا واضحًا كيف لم تكن هيئة الأركان الثورية هيئة جدية. وفي الوقت الحاضر، تمنع الجماهير الثورية حقًا كل عملية منهجية في الشارع. ولكن عندما يأتي الليل، سيعود العمال إلى أعمالهم، وسيهدأ السكان، وستقفز المدينة. فإذا ضرب خابالوف، بواسطة قطعة قوية، وهاجم الثكنات فمن الممكن أن يصبح سيد الموقف. ونجد هذه الفكرة، حتى ولو قيلت بصورة عرضية، تقترح بصيغ مختلفة، في كل مراحل الثورة. وكان كل العقداء يتبارون في الشجاعة ويردد كل منهم القول التالي: "أعطوني فوجًا قويًّا، وأنا أكنس لكم هذه القذارة". وحاول بعض الضباط القيام بهذه المغامرة كما سنرى. ولكنهم لم يستطيعوا إلا ترديد التصريح الذي قال خابالوف فيه: "تحركت المفرزة وانطلقت بقيادة ضابط شجاع ومصمم ولكننا.. لم نحصل على أية نتائج..!".

فمن أين أتت هذه المفرزة إذن، وما هو مصدرها؟ كانت القوات التي لا تتزعزع مؤلفة من أفراد الشرطة، والدرك، ومن بعض طلاب ضباط صف بعض الأفواج. ولكن تبين أن هذه الأعداد مضحكة أمام زخم الجماهير الحقيقية واندفاعها،

شأنها في ذلك شأن كتائب القديس جورج، ومدارس الضباط في أكتوبر (تشرين الأول) بعد ثمانية أشهر. فكيف كان بوسع الملكية إيجاد القوة المسلحة المستعدة والقادرة على الدخول في صراع مستمر وبأس من أجل سلامتها ضد مدينة مؤلفة من ٢ مليون من السكان؟ إن الثورة تبدو لقادة الجيوش المقدامين -حسب الأقوال التي يرددونها- حركة لا يمكن الدفاع عنها لأنها فوضوية. ففي كل مكان حركات بلا هدف، وتيارات معاكسة، وتحركات بشرية، ووجوه بدت عليها الدهشة وأصابها الذهول فجأة، ومعاطف تتطاير أذيالها في الهواء، وجنود بدون بنادق، وبنادق بدون جنود، وأطفال يطلقون النار في الهواء، ودوي آلاف الأصوات وزوابع إشاعات منطلقة، ومخاوف لا تبرير لها، وأفراح مخادعة... ويبدو أنه يكفي أن يستل سيف من السيوف ضد هذا الجمع الغفير لكي يتفرق فورًا لا يلوي على شيء. كان هذا هو السراب الفظيع في الرؤيا. فلقد كان هذا الاختلاط ظاهريًّا فقط. وقد حدث هنا تبلور لا يقاوم للجماهير على محاور جديدة؛ إذ أن هذه الجماهير الغفيرة لم تكن قد وعت أهدافها بصورة كافية، ورغم ذلك فقد كانت مشبعة بحقد عنيف ضد من لا تريدهم. وقد تركت خلفها انهيارًا تاريخيًّا لا يمكن إصلاحه. وليس هناك من تراجع ممكن. فإذا انبرى أحد لتفريقها، فإنها ستتجمع من تلقاء ذاتها بعد ساعة واحدة، وسيكون ارتفاع المجد الجديد أكثر شراسة وأشد دموية. ومنذ أيام فبراير (شباط) أصبح جو بتروغراد متوهجًا وحارًا لدرجة أصبحت معها قطعة معادية تسقط في هذه البؤرة النارية القوية، بل يكفي أن تقترب منها فقط لكي تتعرض للهبها الحارق، فتنقلب، وتفقد كل ضمانتها، وتحس بالشلل، وتستسلم لرحمة المنتصر دون قتال. هذا ما فهمه الجنرال إيفانوف في اليوم التالي من وصوله إلى العاصمة بعد أن استدعاه القيصر من الجبهة مع كتيبة من فرسان القديس جورج. وبعد خمسة أشهر، احتفظ التاريخ بالمصير ذاته للجنرال كورنيلوف. وبعد ثمانية أشهر تعرض كرنسكي للمصير ذاته أيضًا.

وكان القوزاق يبدون في الشارع خلال الأيام السابقة أكثر العناصر ميلاً إلى التوفيقية والمصالحة، ولأنهم كانوا هكذا فقد أزعجتهم الجماهير أكثر من غيرهم. ولكن عندما وصل الأمر إلى مرحلة الانتفاضة الحقيقية برهنت خيالة القوزاق مرة أخرى على أنها عنصر محافظ، وتركت المشاة تسبقها. وفي ٢٧، كانت الخيالة مستمرة في الحفاظ على مظهر الحياد مصممة على الوقوف موقف المتفرج. ولم يكن خابالوف يعتمد عليها، ولكن هذا لم يكن ليمنع الثورة من الخوف منها.

يبقى أخيرًا لغز قلعة بطرس وبولص، الواقعة على جزيرة يغمرها نهر النيفا بمياهه، في مواجهة قصر الشتاء، ومقر إقامة كبار الدوقات. وكانت هذه القلعة تبدو من خلف أسوارها وكأنها عالم صغير محمي جدًا من التأثيرات الخارجية. ولم يكن في موقع القلعة مدفعية دائمة، فيما عدا مدفع قديم يعلن يوميًّا ساعة الظهر. ولكن في هذا اليوم انتصبت مدافع الميدان فوق الأسوار، وصوبت إلى الجسر. فماذا يُحضر في هذا الموقع؟ لقد تحطم عقل هيئة أركان قصر توريد في الليل وهي تتساءل عن السلوك الواجب اتخاذه إزاء قلعة "بطرس وبولص". وفي القلعة كان هناك رجال يتعذبون ويتساءلون عما ستفعله الثورة بهم. وفي صبيحة اليوم التالي، انكشف اللغز؛ إن حامية الموقع ستستسلم وستضع نفسها تحت تصرف قصر توريد "شريطة إعطاء الضباط حرية التصرف الشخصية". وسارع الضباط إلى استباق الحوادث التي لا تقاوم بعد أن رأوا أخيرًا الوضع بوضوح كامل.

وفي مساء ٢٧ تقدم إلى قصر توريد جنود وعمال، وطلاب، وأفراد من عامة الشعب. وكانوا يأملون أن يجدوا في القصر أولئك الذين يعرفون كل شيء، ليحصلوا على معلومات أو توجيهات. وأدخلت إلى القصر الأسلحة التي جمعت من مختلف الجهات بحزم كبيرة ووضعت في قاعة تحولت إلى مستودعات سلاح. في هذه الغضون، بدأت هيئة الأركان العامة الثورية بالعمل ليلاً في هذه الأبنية. وراحت ترسل مفارز لمراقبة المحطات وتبعث بالدوريات في كل الاتجاهات التي يمكن توقع انطلاق التهديد منها. ونفذ الجنود بمحض إرادتهم ودون نقاش كل توجيهات السلطة الجديدة، بالرغم من أن التنفيذ كان يتم وسط فوضى شاملة. وكان الجنود يطالبون دائمًا بأمر خطي. ولعل مصدر هذه المبادرة، قادم من رواسب القيادة القديمة التي

بقيت مرتبطة بالإفراج، أو بالكتبة العسكريين. ولكنهم كانوا على حق في طلبهم، فمن الضروري تنظيم هذا المزيج المشوش دون تأخير. إن هيئة الأركان الثورية، ومجلس السوفييت الذي أنشئ مجددًا، لا يملكان أختامًا خاصة حتى الآن. وكان على الثورة أن تشكل أجهزتها البيروقراطية. ومن المؤسف! أنها شكلتها بعد فترة من الوقت، بصورة تجاوزت الحدود المطلوبة.

وبدأت الثورة في التفتيش عن أعدائها. وحدثت بعض الاعتقالات في المدينة، وقد قال الليبراليون إن الاعتقالات كانت "تعسفيَّة"، ورددوا هذه الكلمة بنغمة اللوم. ولكن كل الثورة كانت تعسفيَّة. وأخذ الثوار يجلبون الموقوفين إلى قصر توريد، وكان من بينهم رئيس مجلس الدولة، والوزراء، ورقباء المدينة، وعملاء الأوخرانا، وكونتيسة "ممالأة للألمان"، وعدد كبير من ضباط الدرك. وقد سلم بعض الوجهاء أنفسهم للسجن كبروتوبوبوف لأنهم رأوا أن ذلك أضمن لهم. وقد قالت الكونتيسة التي أخلي سبيلها فيما بعد ما يلي: "إن جدران هذه القاعة التي كانت تردد الأناشيد على شرف الحكم المطلق، لم تسمع أبدًا في هذا اليوم سوى الآهات والإجهاش بالبكاء. وقد جلس جنرال معتقل، وهو فاقد لقواه، على أقرب كرسي. واشترك عدة أعضاء من الدوما في تقديم فنجان من الشاي إليَّ بصورة ودية. وقال لي الجنرال الذي تأثر حتى الأعماق: أيتها الكونتيسة، إننا نشهد خراب دولة كبرى".

ومع ذلك، فإن هذا البلد الكبير الذي لم يكن مستعدًا أبدًا للهلاك كان يمشي مرحًا أمام من سقطوا عن السلطة، ويضرب الأرض بحذائه، ويقرعها بأعقاب بنادقه، ويزعزع الهواء بنداءاته ويعتدي على حقوق غيره. وقد تميز الثوريون دائمًا بالافتقار إلى الروح الحضرية، ومن المحتمل أن ذلك كان نتيجة لعدم عناية الطبقات الحاكمة بتلقين الشعب الطرق الحسنة للحياة.

وأصبح قصر توريد مؤقتًا مقرًا عامًا، ومركزًا حكوميًّا، ومستودعًا للأسلحة، وسجنًا تابعًا للثورة التي لم تمسح بعد وجهها المغطى بالدم والعرق. وفي هذا المكان، وفي هذه الدوامة تسلل أعداء مقدامون. وكشف بالصدفة أمر عقيد من الدرك تسلل متنكرًا ووقف في زاوية من زوايا المبنى ليأخذ بعض الملاحظات وينطلق بها إلى المحاكم العرفية كي يخبرها بما يحدث، لا لكي يخدم التاريخ. وأراد بعض الجنود والعمال إعدامه فورًا. ولكن بعض أفراد "هيئة الأركان" تدخلوا وخلصوا هذا الدركي من أيدي الجمع المحتشد. في هذا التاريخ كانت الثورة واسعة الأحلام، واثقة بنفسها، ومشبعة بالحلم والوداعة. ولم تصبح قاسية لا تعرف الرحمة إلا بعد سلسلة من الخيانات، وعمليات الخداع والتجارب الدموية.

كانت الليلة الأولى للثورة الظافرة مليئة بالإنذارات؛ فقد بدأ المفوضون الذين عينوا على عجل لمراقبة المحطات والنقاط الأخرى -ومعظمهم من المثقفين الذين قادتهم علاقاتهم الشخصية إلى ميادين الثورة، والمغامرون، والذين ينحتون احترامًا للثورة (ضباط الصف، الذين كانوا من أصل عمالي... وكم كان هؤلاء مفيدين للثورة!)- بدأ كل هؤلاء يثورون ويرون الأخطار في كل مكان، يثورون ويرون الأخطار في كل مكان، ويثيرون غضب الجنود، وراحوا يطالبون في كل لحظة بإرسال نجدات إلى قصر توريد. وفي قصر توريد، أخذ الناس ينفعلون، ويتصلون بالهاتف، ويرسلون النجدات التي لم تكن تصل في غالب الأحيان إلى النقاط المحددة لها. وقد عبر واحد من أولئك الذين كانوا يشكلون جزءًا من "هيئة الأركان" في تلك الليلة عن الوضع قائلاً ما يلي: "إن الذين يتلقون الأوامر لا ينفذونها، والذين يعملون، يعملون دون أوامر...".

وكانت الأحياء العمالية تعمل بدون أوامر. ولم يتعجل قادة الثورة أمر الالتحاق الفوري بقصر توريد وهيئات الأركان ومراكز القيادة. بعد أن حركوا قوى مصانعهم، واستولوا على المفوضيات، ثم عملوا على انتفاضة الأفواج. ودمروا ملاجئ الثورة المضادة. بل إنهم على العكس حركوا رءوسهم بسخرية وحذر من هذه الجهة، كل هذا يعني أن بعض الأقوياء قد هرعوا ليقتسموا جلد الدب الذي لم يصطادوه، والذي لم يجهز عليه نهائيًّا. وقضى العمال البلاشفة كما قضى عمال أحزاب اليسار الأخرى أيامهم في الشارع ولياليهم في "هيئات أركان" النواحي، وبقوا على اتصال بالثكنات؛ حيث بدأ إعدادهم للمستقبل. وخلال

أول سهرة بعد الانتصار كانوا يتابعون ويطورون العمل الذي حققوه في هذه الأيام الخمسة الأولى. وهم يشكلون الهيكل الجنيني للثورة، التي ما زالت طرية العود، ككل ثورة في بدايتها.

وقد ذهب نابوكوف الذي يعرفه القارئ معرفة جيدة كعضو في الكاديت، والذي كان في ذلك الوقت متقاعسًا شرعيًا، ومختبئا في هيئة الأركان الكبرى للجيش القيصري، ذهب نابوكوف إلى مكتبه كالعادة بتاريخ ٢٧ وبقي فيه جاهلاً كل شيء عن الأحداث حتى الساعة الثالثة بعد الظهر. وفي المساء سُمعت طلقات ناريَّة في شارع مورسكايا -وكان نابوكوف يُصيخ السمع في شقته- ومرَّت سيارات مدرعة بمنتهى السرعة وكان الجنود والبحارة يركضون ويتسللون أمام الجدران... وراقبهم الليبرالي المحترم من وراء الزجاج الجانبي لنافذة أسطوانية الشكل. "وكان الهاتف يعمل، ونقل إلى بعض الأصدقاء أخبار ما تم طيلة اليوم، على ما أذكر، ونمنا في الساعة المعتادة". وقد أصبح هذا الرجل بعد فترة قصيرة أحد مُلهمي الحكومة المؤقتة الثورية (!) وتسنَّم منصب الأمين العام للحكومة. وفي اليوم التالي، اقترب منه رجل مسن مجهول، ربما كان مستخدمًا في أحد المكاتب أو صاحب مدرسة، ورفع قبعته، وقال له: "شكرًا لكل ما فعلته من أجل الشعب". ولقد حدثنا نابوكوف عن هذه الواقعة بنفسه بكبرياء متواضعة.

من الذي قاد انتفاضة فبراير (شباط)

هناك كثير من المحامين والصحفيين المنتمين إلى الطبقات التي أضيرت من قِبل الثورة، ولقد بدد هؤلاء فيما بعد كثيـرًا من الحِبر ليبرهنوا على أنه لم يحدث في فبراير (شباط) إلا شغب قامت به النساء وعززته فتنة قام بها الجنود. بهذا الشكل قدم البعض الثورة لنا. وقد تصور لويس السادس عشر أيضًا، أيام حكمه، أن الاستيلاء على الباستيل كـان نتيجـة تمـرد، ولكـن المقربين إليه فسروا له باحترام أن هذا العمل عمل ثوري. ونادرًا ما يكون الخاسرون في ثورة مـن الثـورات ميَّـالين إلـى الاعتراف لها باسمها الشرعي، لأن هذا الاسم، برغم كل جهود الرجعيين الساخطين يتخذ في الذاكرة التاريخية للبـشرية هالـة تحرر من القيود القديمة والأحكام السابقة. وقد حاول أصحاب الامتيازات وأتباعهم في كل الأزمان تصوير الثورة التي أسقطتهم كثورة مختلفة عن الثورات السابقة، وكفتنة واضطراب من اضطرابات وفتن الرِعاع والسُوقة. وهم يرون أن الطبقـات التـي تبقيها الثورة لا تتميز بروح الإبداع.

وبعد ٢٧ فبراير (شباط) حاول البعض إجراء مقارنات بين الثورة الروسية والانقلاب العسكري الذي قام به الأتـراك - الشبان، ذلك الانقلاب الذي حلمت الدوائر العليا البرجوازية الروسية بقيام مثله في روسيا. وكانـت محاولـة تـشبيه الحـدثين ببعضهما ضعيفة الإقناع، حتى أن إحدى الصحف البرجوازية رفضت هذه المقارنة رفـضًا كـاملاً. وقـد كتـب توغـان - بارانوفسكي، وهو اقتصادي كان قد درس في شبابه أعمال ماركس، كتب بتاريخ ١٠ مارس (آذار) فـي صـحيفة بيرجيفييـه فيديموستي ما يلي:

"كانت الثورة التركية انتفاضة ظافرة للجيش، أعدها ونفذها قادة الجيش. ولم يكن الجنود في هذه الانتفاضة سوى مُنَفذين طيِّعين لمخططات ضباطهم. وفي الثورة الروسية كان الأمر على العكس؛ إذ سار جنود أفواج الحرس التـي قوَّضـت عـرش روسيا في ٢٧ فبراير (شباط) دون ضباطهم... فلم يكن الجيش هو الذي شن العصيان، وإنما العمال. ولم يذهب إلـى مجلـس دوما الإمبراطورية جنرالات بل جنود. ودعم الجنود العمال لا لكي ينفذوا أوامر ضباطهم، ولكن لأنهم كانوا يحسون بدم العُمال يجري في عروقهم، كطبقة عمالية مثلهم. ويشكل الفلاحون والعمال الطبقتين الاجتماعيتين اللتين صنعتا الثورة الروسية".

ولو حاولت تعديل هذه التدابير أو تتميمها لما وجدت أفضل منها؛ فقد أثبتت هذه التعابير تطور الثورة فيما بعد وعزَّزت معناها بما فيه الكفاية.

وفي بتروغراد، كان آخر يوم من أيام فبراير (شباط) هو اليوم الأول الذي تلا النصر، يوم حماس، وعناق، انهمرت فيه دموع الفرح والمُكاشفات الودية الطويلة، ولكنه أيضًا كان اليوم الذي وجهت فيه آخر الطلقات ضد العدو؛ حيث كانت طلقـات البنادق تلعلع في الشوارع. ويحكي أن فراعنة بروتوبوبوف الذين لم يعلموا بعد بانتصار الشعب، قد تابعوا إطلاق النـار مـن أعلى الأسطحة. ومن الأسفل كان الثوار يطلقون النار نحو الأعالي ونحو الكُوي والأجراس؛ حيث كانوا يتخيلون رؤية أشـباح القيصر المسلحين. وتم في الساعة الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم احتلال الأميرالية، التي اختفى فيها آخر رجال سلطة الدولـة السابقة. وقامت بعض التنظيمات الثورية، وبعض المجموعات التي تم تأليفها بارتجال بعمليات اعتقال في المدينـة. كمـا تـم الاستيلاء على سجن قلعة شلوسلبورغ دون قتال. وكانت الأفواج الجديدة في العاصمة والضواحي تعلن انضمامها في كل لحظة للثورة.

ولم يكن قلب النظام في موسكو سوى صدى لانتفاضة بتروغراد. ولو أنعمنا النظر لوجدنا اتفاقًا في وجهات النظر بين العمال والجنود، بالرغم من ضعف التعبير عنها لدى البعض منهم. واتخذت البرجوازية بعض المواقف اليسارية. وكان ضعف التنظيمات الثورية واضحًا جدًا في بتروغراد. وعندما بدأت الأحداث على النييفا، تشاور المثقفون الراديكاليون في موسكو عما ينبغي عمله. فلم يتوصلوا إلى أي حل. وفي ٢٧ فبراير (شباط) فقط انفجرت الإضرابات في مصانع موسكو، وتلتها المظاهرات. وكان الضباط يقولون للجنود في الثكنات إن الرعاع يثيرون الفتن في الشوارع ومن الواجب قمعهم. ويقول الجندي شيشيلين: "ولكن جنودنا -منذ هذه اللحظة- أعطوا لكلمة "الرعاع" معنًى مخالفًا تمامًا! وفي الساعة الثانية بعد الظهر، قدم عدد من الجنود، ينتمون إلى مختلف الأفواج، إلى مجلس الدوما البلدي يحاولون التفتيش عن وسيلة للانضمام إلى الثورة. وفي اليوم التالي توسع الإضراب وامتد. وتقدمت الجماهير تحمل أعلامها واتجهت إلى الدوما. وقاد مورالوف أول مفرزة متينة وانضباطية من القطعات التي اتجهت إلى الدوما، واحتلت محطة الإذاعة وبعض المخافر. ومورالوف هذا جندي من سرية السيارات، وبلشفي قديم، وخبير زراعي، وعملاق شهم يتمتع بكثير من الصفات. وقد قاد مورالوف منطقة موسكو العسكرية بعد ثمانية أشهر من قيام الثورة.

وفتحت أبواب السجون. وأطلق مورالوف ذاته سراح مجموعة من المسجونين، ونقلهم بإحدى سيارات النقل. وسأله معاون مفوض الشرطة، بعد أن أدَّى التحية للثورة عما إذا كان من الواجب إطلاق سراح اليهود. وما أن أطلق سراح دزيرجينسكي حتى توجه بألبسة السجن إلى مجلس الدوما؛ حيث كان العمل يجري لتشكيل مجلس السوفييتات وألقى خطابًا. وقص المدفعي دوروفييف فيما بعد كيف قدم عمال متجر سيو للحلويات أنفسهم إلى ثكنة لواء المدفعية في أول مارس (آذار) وكيف دخلوها وهم يحملون الأعلام الحمراء وتآخوا مع الجنود، وكيف لم يستطع بعضهم أن يمنع نفسه من البكاء في غمرة الفرح. وقد أطلقت بعض الطلقات النارية من كمين، ولكن لم تحدث بصورة عامة صدامات مسلحة، كما لم يقع ضحايا، وكانت بتروغراد تصمد من أجل موسكو.

وفي عدد من مدن المناطق، لم تبدأ حركة الانتفاضة إلا في الأول من مارس (آذار)؛ حيث كانت الثورة قد تحققت في موسكو. وفي **تغير** تظاهر العمال في شوارع المدينة، بعد أن امتنعوا عن العمل خلال هذه الفترة، وكانت الجماهير ما تزال تغني **المارسيلييز** لا نشيد الأممية. وفي نيجني توفوغورود، تجمع ألوف من الرجال أمام مبنى البلدية. وكانت مباني البلدية قد تحولت في معظم المدن إلى "قصر تورية" آخر، أي إلى مقر لهيئة أركان الثورة. وبعد أن ألقى عمدة المدينة خطابًا حماسيًّا تحرك العمال، وهم يحملون أعلامهم الحمراء، وأطلقوا سراح الموقوفين السياسيين. ومن أصل ٢١ مجندًا كانوا يشكلون حامية المدينة، وصل ثمانية عشر منهم قبل أن يعرفوا بما حدث، وانضموا إلى الثورة بصورة عفوية. وفي سامارا وساراتوف انعقدت الاجتماعات. وتشكلت سوفييتات المندوبين. وفي خاركوف صعد رئيس الشرطة -بعد أن أتيح له الوقت للاستعلام من المحطة عن الأحداث- على متن إحدى السيارات أمام الجمع الهائج إلى حد كبير ورفع قبعته، وصاح بأعلى صوته، وبكل ما تسعفه به رئتاه قائلاً: "فلتعش الثورة! هورا!" وتلقت إيكاتيرينوسلاف الخبر من خاركوف وسار على رأس المظاهرة معاون رئيس الشرطة وهو يمسك بيده مقبض حسامه الكبير، في الوضعية النظامية للاستعراضات التي كانت تجري في مناسبات الأعياد الإمبراطورية، وبدأ الموظفون ينتزعون صور القياصرة من كل المؤسسات العامة عندما عرفوا أن الملكية لن تقوم لها قائمة نهائيًّا، وذلك احتياطًا وتحفظًا. وأخذوا يضعونها في العلالي. وسرت النوادر المختلفة، التي تتهكم على الثورة سواء أكانت حقيقية أو خيالية. وتناقلت الدوائر الليبرالية التي لم تفقد بعد روح الدعابة هذه النوادر. أما العمال فكانوا كجنود الحاميات يعيشون الأحداث بصورة مختلفة.

أما فيما يتعلق بما حدث في عدد من المدن الأخرى (بسكوف، أوريل ريبينسك، بينزا، قازان، تساريتسين ...إلخ) فإن مجموعة الوقائع والأخبار تشير بتاريخ ٢ مارس (آذار) إلى ما يلي: "علمنا بأن السلطة قد تقوضت، وأن الشعب انضم للثورة."

وفي الأرياف أتت الأخبار من المدن المجاورة، كما جاء بعضها من السلطات، ولكن الأخبار وصلت أساسًا من الأسواق ومن العمال، ومن الجنود المجازين. واستقبلت القُرى الحدث الثوري برد فعل أقل بطئًا وحماسًا من رد فعل المدينة، ولكنه لم يكن أقل عمقًا، ورأت القرية علاقة الثورة بالحرب ومسألة الأرض.

وليس من المبالغة القول بأن بتروغراد حققت ثورة فبراير (شباط) لوحدها؛ حيث لم تفعل بقية البلاد شيئًا سوى الانضمام إليها. ولم تقع معركة إلا في بتروغراد. ولم تكن هناك مجموعات شعبية وأحزاب ومؤسسات أو قوات عسكرية وقفت للدفاع عن النظام القديم في كل البلاد عدا بتروغراد. ويظهر هذا إلى أي حد كانت محاكمات الرجعيين المتأخرة ضعيفة الأساس، تلك المحاكمات التي تقول لو أن خيالة الحرس وُجدت في بتروغراد، أو لو أن إيفانوف استدعى لواء موثوقًا من الجبهة، لتغير مصير الملكية. فلو فعل إيفانوف ذلك لما وجد في الجبهة ولا في المؤخرات لواءً أو فوجًا واحدًا مستعدًا للقتال من أجل نيقولا الثاني.

وقد تم تقويض السلطة ببديهة وبقوى مدينة كانت تشكل تقريبًا جزءًا من ٧٥ جزءًا من سكان البلاد. وبوسعنا بعد هذا أن نقول: **إن أكبر الأعمال الديمقراطية قد تحققت بطريقة غير ديمقراطية**، ووضعت البلاد كلها أمام الأمر الواقع. وإذا كانت قيادة الثورة قد فكرت بإقامة مجلس تأسيس، فإن ذلك لن يغير من الأمر شيئًا، لأن التمثيل الوطني وطرق استدعاء الممثلين الوطنيين تحددها أجهزة تنبعث من انتفاضة بتروغراد الظافرة. وهذا الأسلوب في العمل يلقي نورًا ساطعًا على مسألة وظيفة الأشكال الديمقراطية بصورة عامة، وفي الفترات الثورية، بشكل خاص. وقد وجهت الثورات دومًا ضربات قاسية للتأليه القانوني "للإدارة الشعبية" وكانت هذه الضربات قاسية لا ترحم كلما كانت الثورات أعمق، وأجرأ وأكثر ديمقراطية.

وغالبًا ما قيل، وبصورة خاصة فيما يتعلق بالثورة الفرنسية الكبرى، إن المركزية الهائلة للنظام الملكي سمحت فيما بعد للعاصمة الثورية بأن تفكر وأن تعمل باسم البلاد كلها. إن هذا التفسير تفسير مصطنع ولا شك، فإذا كانت الثورة تعبر عن اتجاهات مركزية، فإنها تعمل، لا تقليدًا للملكية المفوضة، وإنما تعمل بسبب المطالب التي لا مفر منها لبناء مجتمع جديد والتي لا يمكن أن تعتبر مطالب إقليمية أبدًا. فإذا لعبت العاصمة في ثورة من الثورات دورًا حيويًّا بمثل هذه القوة، وجسدت إلى حد ما إرادة الشعب، فذلك لأنها تعبر بصورة أقوى عن الاتجاهات الأساسية للمجتمع الجديد تلك الاتجاهات التي دفعتها إلى تحقيق هدفها. وتعتبر المناطق عادة خطوات العاصمة صادرة عن نواياها الخاصة، ولكن هذه النوايا تحولت إلى عمل ثوري. فالمبادرات التي تقوم بها المراكز والعواصم لا تسيء إلى الديمقراطية، بل هي التحقيق الديناميكي لتلك الديمقراطية. ومع ذلك فإن إيقاع هذه الديناميكية، في الثورات الكبرى، لم يتناسب أبدًا مع إيقاع الديمقراطية الصورية والتمثيلية. وتنضم المنطقة عادة إلى أعمال المركز ولكنها تنضم متأخرة. وبسبب سرعة تطور الأحداث في ثورة من الثورات، تصاب البرلمانية الثورية بعدد من الأزمات الخطيرة التي لا يُمكن حلها بالطرق الديمقراطية. وفي كل الثورات الحقيقية حطم التمثيل الوطني رأسه بصورة حتمية، واصطدم بالديناميكية الثورية التي كانت العاصمة بؤرتها الرئيسية. ولقد كان الوضع على هذه الشاكلة في إنكلترا خلال القرن السابع عشر، وكان الوضع هكذا أيضًا في فرنسا خلال القرن الثامن عشر، وفي روسيا خلال القرن العشرين. ولا يتحدد دور العاصمة بتقاليد المركزية البيروقراطية، بل يتحدد بوضع الطبقة الحاكمة الثورية، التي تتجمع طليعتها وتحتشد في العاصمة، وينطبق هذا القول على البرجوازية وعلى البروليتاريا أيضًا.

وعندما استتب انتصار فبراير (شباط) بصورة متينة، اهتم الجميع بإحصاء الضحايا؛ حيث قدر عدد هؤلاء الضحايا في بتروغراد بـ١٤٤٣ قتيلاً وجريحًا، من بينهم ٨٦٩ عسكريًا، كان بينهم ٦٠ ضابطًا. وتعتبر أرقام الضحايا صغيرة جدًا إذا ما قورنت بعدد الرجال الذين سقطوا في أية معركة من معارك الحرب الكبرى. وهكذا أعلنت الصحافة الليبرالية أن ثورة فبراير (شباط) لم تكن دموية. وفي أيام الانفتاح والصفاء والعفو المتبادل بين الأحزاب الوطنية لا يحاول أحد إعادة سرد الحقيقة وتقصيها من جديد. فقد كتب ألبرت توماس الذي كان دومًا صديق المنتصر، وصديق كل انتفاضة ظافرة أيضًا، كتب في تلك الفترة أن الثورة تبدت له "مشرقة تمامًا وحافلة بالبُشرى، وخالية من كل إراقة للدماء!". ومما لا شك فيه أنه كان يأمل أن تبقى الثورة تحت أوامر بورصة باريس. ولكن ألبرت توماس لم يخترع تراب الثورة كي يحدد له المصير الذي يراه مناسبًا له. ومنذ زمن، وبتاريخ ٢٧ يونيو (حزيران) ١٧٨٩ صاح ميرابو قائلاً ما يلي: "أية سعادة تغمر الإنسان عندما يرى هذه الثورة الكبرى تتحقق دون حاجة إلى القتل الجماعي، ودون ذرف للدموع!.. إن التاريخ لم يحدثنا كثيرًا إلا عن أعمال الوحوش المفترسة... وبوسعنا الآن أن نترك تاريخ الوحوش لنبدأ في كتابة التاريخ الإنساني". وعندما تشكلت الدول الثلاث في جمعية وطنية، كتب أجداد ألبرت توماس ما يلي: "انتهت الثورة، دون أن تكلف قطرة دم". وينبغي أن نعترف بأنه لم يحدث فعلاً أية إراقة للدماء في هذه الفترة. ولكن حدث ما هو مخالف تمامًا في أيام فبراير (شباط). ومع ذلك، دعم الكُتاب والمؤرخون بعناد أسطورة الثورة غير الدموية، متجاوبين مع المطلب الذي قدمه البورجوازيون الليبراليون في تمثيل الوقائع وكما لو أن السلطة قد سقطت بين أيديهم من تلقاء ذاتها.

فإذا لم تستثن ثورة فبراير استثناء تامًا من إراقة الدماء فإننا لن نستطيع مع ذلك إلا أن نبقى مذهولين إزاء العدد الصغير من الضحايا الذين سقطوا سواء في وقت الانتفاضة أو في الفترة الأولى التي تلتها. فقد تمت في هذه الفترة تسوية الحسابات بعد الاضطهاد، والإعدامات، والإذلال، وبعد المعاملة الدنيئة التي تعرضت لها الجماهير الشعبية الروسية منذ قرون! وانبرى البحَّارة والجنود في كل مكان يسوون حساباتهم مع أسوأ جلاديهم، ومع ضباطهم. ومع كل هذا، كان عدد الأعمال الانتقامية التي ارتكبوها تافهة جدًا في البدء، بالمقارنة مع كمية الإهانات الدموية التي تعرضوا لها في الماضي. ولم تتخلص الجماهير من طيبة قلبها إلا فيما بعد، عندما لاحظت أن الطبقات الحاكمة تحاول استعادة الأرض في كل مكان، واستغلال الثورة التي لم تصنعها، وعندما لاحظت الجماهير أيضًا أن تلك الطبقة الحاكمة تمتلك أموالاً لم تبذل شيئًا من أجل امتلاكها.

لقد كان توغان - بارانوفسكي على حق عندما قال إن ثورة فبراير (شباط) كانت من صُنع العُمال والفلاحين الذين مثلهم الجنود في الثورة.. ومع ذلك بقي هناك سؤال ضخم هو: من الذي قاد الانتفاضة إذن؟ ومن الذي أعدَّ العمال وحضَّرهم؟ ومن الذي جرَّ الجنود وقادهم في الشارع؟ لقد أصبحت هذه الأسئلة بعد الانتصار هدفًا لصراع الأحزاب. وأبسط جواب على هذه الأسئلة هو في هذه الصيغة الشاملة: لم يقُد أحد الثورة، فقد انفجرت لوحدها. ولم تكن نظرية "القوى الأولية" أفضل من غيرها من النظريات ملاءمة لهؤلاء الأسياد الذين قادوا بالأمس بهدوء، وحكموا، واتهموا، ودافعوا، وتاجروا، أو أمروا، والذين يتعجلون الآن الانضمام إلى الثورة، لم تكن هذه النظرية أفضل ملاءمة لهؤلاء فحسب، بل إنها كانت ملائمة لعدد من السياسيين المحترفين، والثوريين السابقين الراغبين بالاعتقاد بأنهم لم يتصرفوا بصورة مخالفة للآخرين، بعد أن ناموا نومًا طويلاً أثناء الثورة.

وقد تحدث الجنرال دينيكين القائد العام السابق للجيش الأبيض في كتابه الغريب: (تاريخ الاضطرابات في روسيا)، عن يوم ٢٧ فبراير (شباط) فقال ما يلي: "في هذا اليوم الحاسم، لم يكن هناك قادة، بل كان هناك عناصر ثائرة وهائجة. ولم يكن من الممكن في مسار هذا اليوم العاصف، التمييز بين هدف، وخطة، وشعارات". ولم يقدم ميليوكوف المؤرخ الفقيه أكثر من الجنرال المُولع بالخربشة على الورق. وكان الزعيم الليبرالي يقدم حتى حدوث الانتفاضة كل فكرة ثورية على أنها فكرة لقنتها

هيئة الأركان العامة الألمانية وأوحت بها. ولكن الوضع تعقد بعد الانتفاضة التي حملت الليبراليين إلى السلطة. منذ ذلك الوقت، لم تعد مهمة ميليوكوف التجريح بالثورة عن طريق ربطها بمبادرة ظهرت من أسرة الهوهنزولرن، بل على العكس أصبحت مهمته أن لا يترك للثوريين شرف المبادءة.

وتبنت الليبرالية نظرية الطابع الأولي واللا شخصي للانتفاضة تبنيًا تامًّا. وانتسب ميليوكوف إلى ستانكيفيتش نصف - الليبرالي، ونصف الاشتراكي، وصاحب المحاضرات، والذي كان لفترة من الفترات مفوَّضًا للحكومة في القيادة العامة للقوات المسلحة. وقد كتب ستانكيفيتش عن أيام فبراير (شباط) ما يلي: "تحركت الجماهير من تلقاء ذاتها، مطيعة لنداء داخلي ولا شعوري... فما هو الشعار الذي تحرك الجنود على أساسه؟ وما الذي قادهم عندما استولوا على بتروغراد، وعندما أحرقوا قصر العدل؟ لم تقدم فكرة سياسية، ولا شعار ثوري ولا مؤامرة ولا شغب، بل قادتهم حركة القوى الأولية التي حولت كل النظام القديم فجأة إلى رماد دون أن تترك له أثرًا" وتتخذ القوة الأولية هنا طابعًا صوفيًّا.

ويقدم ستانكيفيتش ذاته حكمًا ذا قيمة كبرى حينما يقول: "في نهاية يناير (كانون الثاني)، أتيحت لي فرصة اللقاء بكرنسكي في حلقة ضيقة من الأصدقاء الحميمين، واتفق الجميع على رفض اندلاع انتفاضة شعبية وجاء الرفض من خوفهم أن تقع حركة الجماهير في قبضة التيارات المتطرفة، وأن تخلق بهذا الشكل صعوبات كبرى للمسئولين في إدارة الحرب". وكانت آراء الدائرة الكرنسكية لا تختلف أبدًا في جوهرها عن آراء الكاديت. إذن فالمبادرة لا يمكن أن تخرج من هنا.

وقد قال زينوفييف ممثل الحزب الاشتراكي - الثوري: "لقد وقعت الثورة كصاعقة من سماء ليس فيها سحب". ثم استطرد قائلاً: "لنكن صريحين: لقد حدثت الثورة كمفاجأة كبرى ومفرحة لنا أيضًا، نحن الثوريين، الذين عملنا خلال سنوات طويلة منتظرين حدوثها بفارغ الصبر".

ولم يقدم المناشفة الثورة بصورة أفضل. وقد ذكر صحفي تابع للهجرة البرجوازية اللقاء الذي جرى بينه وبين سكوبوليف -الذي أصبح فيما بعد وزيرًا في الحكومة المؤقتة- بتاريخ ٢٤ فبراير (شباط)، قال الصحفي ما يلي: "صرح لي هذا الاشتراكي - الديموقراطي، أحد زعماء الحركة بأن الفوضى تتحول الآن إلى تخريب بحيث أصبح من الضروري قمعها. ولكن هذا لم يمنع سكوبوليف، بعد شهر، من الادعاء بأنه صنع الثورة مع أصدقائه". فالألوان هنا ثقيلة جدًا. ولكن موقف الاشتراكيين - الديموقراطيين المناشفة، تحوَّل هنا في جوهره بطريقة تلائم الحقيقة.

وقد تحدث مستيسلافسكي الذي أصبح فيما بعد أحد زعماء الجناح اليساري للاشتراكيين - الثوريين، وانتقل بعدها إلى صفوف البلاشفة، فقال عن ثورة فبراير (شباط) ما يلي: "لقد فاجأتنا الثورة، نحن أيضًا رجال الحزب، الذين كنا نستغرق في النوم كعذارى الإنجيل المجنونات". ولا يهم هنا تشبيه هؤلاء الرجال بالعذارى إلى حد ما. ولكنهم كانوا نائمين بالفعل.

ولكن ماذا حدث للبلاشفة؟ إننا نعرف جزءًا مما حدث لهم. كان الزعماء الرئيسيون للتنظيمات البلشفية السرية في بتروغراد مؤلفين من ثلاثة أشخاص هم: العاملان القديمان شليابنيكوف وزالوتسكي، والتلميذ القديم مولوتوف. كان شليابنيكوف الذي عاش مدة طويلة في الخارج وارتبط ارتباطًا وثيقًا بلينين، أنضج سياسيًّا من زميليه وأكثرهم نشاطًا في مكتب اللجنة المركزية التي يشكلونها. ومع ذلك فإن ذكريات شليابنيكوف نفسه تؤكد بصورة أفضل من أي شيء آخر بأن الثلاثي لم يكن على مستوى الأحداث أبدًا. وكان الزعماء يتصورون حتى الساعة الأخيرة بأن ما يقومون به ليس إلا تظاهرة ثورية من بين التظاهرات الأخرى، ولم يكونوا يتصورونه انتفاضة مسلحة. ويؤكد كييوروف، الذي أشرنا إليه، وهو أحد زعماء ناحية

فيبورغ، ما يلي: "كنا لا نحس بوصول أي أمر توجيهي من مراكز الحزب... كانت لجنة بتروغراد مسجونة، وكـان الرفيـق شليابنيكوف، ممثل اللجنة المركزية عاجزًا عن إعطاء توجيهات اليوم الثاني".

وكان ضعف التنظيمات السرية ناجمًا بصورة مباشرة عن مناورات السحق البوليسية التي أعطـت للحكومـة ميـزات استثنائية أمام الرأي العام الوطني في مطلع الحرب. ويميل كل تنظيم وكل تنظيم ثوري أيـضًا إلـى البقـاء خلـف قاعدتـه الاجتماعية. ولم تكن التنظيمات السرية للبلاشفة، في بداية عام ١٩١٧، قد قامت على قدميها بعد عملية سحقها وتفتيتهـا، فـي حين، كان المناخ الوطني لدى الجماهير يتخذ مكانه فجأة بدلاً عن السخط الثوري.

ولكي نتمثل بصورة أوضح الوضع في مجال القيادة الثورية، ينبغي أن نتذكر أن الثوريين المسئولين، وزعماء أحـزاب اليسار كانوا لاجئين في الخارج، وكان جزء منهم في السجون أو في المنافي. وكلما كان الحزب مخيفًا بالنسبة للنظـام القـديم، كلما كان يجد نفسه مقطوع الرأس بشدة في بداية الثورة. وكان للشعبيين في الدوما مفرزة يقودها كرنسكي الراديكالي المستقل. أما تشيرنوف الزعيم الرسمي للاشتراكيين - الثوريين فكان لاجئًا في الخارج. وكان للمنافشة فـي الـدوما مفـرزة يتزعمهـا تشخيدزه وسكوبوليف. أما مارتوف فكان لاجئًا، وأما دان وتسيريتلي فكانا منفيين. ويتجمع الشعبيون والمناشفة حـول المفـارز اليسارية، وهم يشكلون عددًا لا بأس به من المثقفين الاشتراكيين ذوي الماضي الثوري. وكانوا يشكلون في الظاهر هيئة أركان سياسية، لكنها لم تكن قادرة على الظهور إلا بعد النصر. أما البلاشفة فكانوا لا يملكون أية مفرزة في الـدوما؛ فقـد اعتقلـت الحكومة منذ الأشهر الأولى للحرب الممثلين العماليين الخمسة الذين اعتبرتهم السلطات عماد المركز التنظيمي للثـورة. وكـان لينين مهاجرًا مع زينوفييف. وكان كامنييف منفيًّا، كما كان الزعماء التنفيذيون الذين لم يكونوا معروفين كثيرًا في ذلك الوقـت، سفردلوف، ريكوف، ستالين منفيين أيضًا. وكان الاشتراكي - الديموقراطي البولوني دزيرجينسكي الذي لم يكن منتميًا لحـزب البلاشفة بعد في السجن. أما الزعماء الذين كانوا موجودين، بالصدفة، لأنهم اعتادوا على العمل تحت قيـادة مـصرح بهـا ولا جدوى منها، فقد كانوا لا يعتبرون أنفسهم قادرين على القيام بدور قيادي في الأحداث، كما لا يعتبرهم الآخرون قـادرين علـى ذلك.

ولكن إذا لم يستطع الحزب البلشفي أن يؤمن للثوار قيادة مصرحًا بها، فماذا نقول عن التنظيمات السياسية الأخرى؟ بهذا الشكل تعززت القناعة العامة بحركة القوى الأولية في ثورة فبراير (شباط). ومع ذلك، فإن هذا الرأي خاطئ تمامًا، ولا يتضمن في أفضل الحالات أي محتوى.

ولم تستمر المعركة في العاصمة ساعة أو ساعتين، بل استمرت خمسة أيام. وحاول الزعماء احتواءها. وردت الجماهير على ذلك بدفع جماعي متزايد فتقدمت إلى الأمام. وبوسعنا أن نفترض أن هذه الجماهير كانت تواجه الدولة القديمة التـي مـا زالت واجهتها التقليدية تخفي قوة هائلة هي قوة البرجوازية الليبرالية، مع دوما الإمبراطورية، واتحاد الزيمستفو والمدن، ولجان الصناعات الحربية، والأكاديميات، والجامعات وصحافة متفرعة. وكانت الجماهير تواجه أخيـرًا حـزبين اشـتراكيين قـويين يقاومان الاندفاعة من القاعدة ويعارضانها وطنيًّا. ووجدت الانتفاضة أن الحزب البلشفي هو أقرب التنظيمات إليها، ولكنه تنظيم مقطوع الرأس، ذو كوادر مفككة، وخلايا سرية ضعيفة. ومع ذلك امتدت الثورة التي لم يتوقعها أحد في هذه الأيام. وفي حـين كانت الدوائر العليا تؤمن بإمكانية إطفاء الحركة، حصلت الحركة على الانتصار بدفع عنيف وباختلاجات قوية.

فمن أين أتت إذن هذه القوة التي لا مثيل لها في المثابرة والعنف؟ لا يكفي أن نسوق السخط كدليل. فالسخط لا يفسر كل شيء. فمهما فقدت العناصر العمالية في بتروغراد تركيزها خلال الحرب، بسبب اختلاطها مع عناصر جديدة، فإنها تحمل فـي

ذاتها تجربة ثورية كبرى. وكان لدى العمال في مثابرتهم واندفاعهم -بالرغم من افتقارهم للقيادة، وبرغم مقاومتهم من الأعلى- قوة كبيرة ناجمة عن تقدير للقوى، لم يعبروا عنه دومًا، ولكنه تقدير مستند إلى تجربة الحياة، وإلى حساب إستراتيجي عفوي.

وقد سارت العناصر العمالية الثورية مع البلاشفة في عشية الحرب، وقادت الجماهير خلفها. ومنذ بدء الحرب، تبدل الوضع فجأة؛ إذ رفعت الطبقات المحافظة الوسيطة رأسها وقادت خلفها جزءًا هائلاً من الطبقة العمالية. ووجدت العناصر الثورية نفسها معزولة ومضطرة إلى الصمت. وبدأ الوضع بالتحول في بداية الحرب ببطء، ثم تسارع التحول بعد الهزائم حتى غدا أكثر جذرية. وللحق نقول، كان هذا التحول موجودًا في دوائر واسعة، مصبوغة بالوطنية، ولكنها لا تملك شيئًا مشتركًا مع الوطنية المحسوبة والجبانة للطبقات المالكة التي كانت تؤجل حل كل المسائل الداخلية إلى ما بعد النصر؛ لأن الحرب، وضحاياها، وأهوالها، وأعمالها الشائنة دفعت الطبقات العمالية القديمة، كما دفعت الجديدة منها للعمل ضد النظام القيصري بعنف مضاعف، كما دفعتها إلى الاستنتاج التالي: إن هذا الوضع لا يمكن أن يستمر! كان هذا الرأي رأيًا عامًا يصنع تماسك الجماهير ويعطيها قوة كبرى للهجوم.

كان الجيش قد انتفخ، وتضخم بملايين العمال والفلاحين. وكان لكل مواطن أو مواطنة قريب بين صفوف الجيش: ابن، أو زوج، أو أخ، أو قريب، ولم يعد الجيش وسطًا منعزلاً عن الشعب كما كان في السابق. وأصبح من المتعارف عليه وقوع لقاءات بين المواطنين والجنود؛ إذ يرافق المواطنون أقرباءهم من الجنود عندما يذهب هؤلاء إلى الجبهة، ويعيشون حياتهم عندما يأتون لقضاء الأجازات، ويتم تبادل الأحاديث معهم في الشارع، وفي حافلات الترام، وتدور هذه الأحاديث عن الخنادق، ويذهب أقرباؤهم وأصدقاؤهم لرؤيتهم في المستشفيات. وقد أصبحت الأحياء العمالية، والثكنات والجبهة، كما أصبحت القرى كالأوعية المتصلة. وكان العمال يعرفون ما يحس به الجندي وما يفكر فيه. وكانت تتم بينهم أحاديث لا تنتهي عن الحرب وعن الرجال الذين يثرون على حسابها، وعن الجنرالات، وعن الحكومة، وعن القيصر وزوجة القيصر. كان الجندي يقول عن الحرب: "اللعنة!" وكان العامل يجيب متحدثًا عن أعضاء الحكومة: "فلتحل عليهم اللعنة!" وكان الجندي يقول للمواطن: "لماذا تسكتون هنا في المركز؟" فيجيبه العامل قائلاً: "عندما تكون أيدينا فارغة، لا نستطيع أن نفعل شيئًا، ففي عام ١٩٠٥، اصطدمنا بالجيش ولم نكن سعداء بهذا الاصطدام". ويرد الجندي بعد تفكير: "آه! لو أن الجميع ينتفضون معًا" ويرد العامل عليه قائلاً: "نعم، كلنا جميعًا". ومثل هذه الأحاديث لم تكن تتم قبل الحرب إلا بين أفراد منعزلين وبصورة سرية. أما الآن، فإنهم يتحدثون بهذا الشكل في كل الأنحاء، وفي كل لحظة، وبصورة شبه مكشوفة في الأحياء العمالية على الأقل.

وكانت الأوخرانا القيصرية تنجح أحيانًا في القيام ببعض عمليات السبر الجيدة. وقبل الثورة بخمسة عشر يومًا، قدم جاسوس من بطرسبورغ، كان يوقع إخبارياته بالاسم المستعار (كريستيانينوف) قدم هذا الجاسوس تقريرًا عن حديث سمعه في إحدى حافلات الترام التي كانت تجتاز إحدى الضواحي العمالية. وطبقًا للتقرير، قال أحد الجنود: إن ثمانية جنود من فوجه أرسلوا إلى السجن لأنهم رفضوا في الخريف الماضي أوامر إطلاق النار على عمَّال مصنع نوبل، وأطلقوا النار على الشرطة. وقد جرى هذا الحديث بصورة مكشوفة، نظرًا لأن رجال الشرطة والجواسيس في الأحياء العمالية يفضلون البقاء في الخفاء. وأنهى الجندي الحديث قائلاً: "سنسوي الحساب معهم". ويستطرد كاتب التقرير قائلاً: "عندها قال أحد العمال: لهذا، ينبغي علينا أن ننظم صفوفنا، لكي نصبح كلنا كرجل واحد. فرد عليه الجندي قائلاً: لا نحتاج إلى عناء في هذا، فقد انتظمنا منذ زمن طويل... لقد شرب رجالنا بعض الدماء، وهم يعانون في الجبهة ويقاسون، ولكننا نحس بأن الناس هنا مصابون بالتُخمة!..." وأنهى الجاسوس تقريره بقوله: "ولم تقع حوادث خاصة ١٠ فبراير (شباط) ١٩١٧. كريستيانينوف." حقًا إن تقرير الجاسوس عبارة عن ملحمة لا مثيل لها! "لم تقع حوادث خاصة!"، فلقد وقعت هذه الحوادث فيما بعد: وأشار الحديث في حافلة الترام إلى حتمية وقوع هذه الحوادث بعد فترة وشيكة.

وقد أبرز مثل غريب أعطاه مستيسلافسكي الطابع الأولي للانتفاضة وكان هذا المثل يقول: عندما حاول "اتحاد ضباط ٢٧ فبراير (شباط)"، الذي تشكَّل بعد الانتفاضة مباشرة أن يقوم بالتحقيق عن أول من جر فوج "فولهيني" إلى الشارع، وجد أن هناك سبع إفادات تتعلق بسبعة محركين لهذا العمل الحاسم. ونحن نضيف، إلى أنه من المحتمل إلى حد كبير أن جزءًا من المبادرة يعود فعلاً لبعض الجنود. وهذا لا يمنع أن يكون القائد الرئيسي لهذه العملية قد سقط قتيلاً في معارك الشوارع، وحمل معه اسمه ليبقى في عالم المجهول. ولكن الجهل باسمه لا يقلل من القيمة التاريخية لمبادرته المجهولة. وأن ما هو أكثر أهمية أيضًا هو جانب آخر من المشكلة، وهو الجانب الذي خرجنا بواسطته من داخل أسوار الثكنة. لم تكن انتفاضة كتائب الحرس التي أعلنت -وكانت مفاجأة كبرى للدوائر الليبرالية والاشتراكيين القانونيين- لم تكن هذه الانتفاضة غير متوقعة من قِبل العمال. فلو أن العمال لم يثوروا، لما خرج الفوج "الفولهيني" من الثكنة. ولقد تم اللقاء بين العمال والقوزاق، وراقبه أحد المحامين من نافذة منزله فأخبر به أحد النواب فيما بعد بالهاتف، وظهر هذا اللقاء بين الفريقين كمشهد من تطور لا شخصي: فقد التقت جموع المصانع بمجموع الثكنات. ولكنها بدت بشكل آخر مختلف كل الاختلاف لجندي القوزاق الذي تجرأ وغمز أحد العمال بعينه، كما بدت بشكل مختلف أيضًا للعامل الذي قرر فجأة أن القوزاقي "ينظر إليه بعين الرضى". ويتتابع التداخل الجزيئي للجيش والشعب، بصورة لا تنقطع. وكان العمال يقيسون حرارة الجيش باستمرار، وأحسوا فورًا نتيجة لهذا القياس باقتراب المؤشر من النقطة الحرجة. هذا الإحساس بتصاعد حرارة الجيش هو الذي أعطى لزخم واندفاع الجماهير المؤمنة بالنصر قوة لا تقاوم.

وعلينا أن نذكر هنا الملاحظة المدهشة لأحد الوجهاء الذي حاول إظهار خلاصة ملاحظاته في فبراير (شباط) فقال: "من الشائع أن نقول إن الحركة قد بدأت بانطلاق القوى الأولية، وأن الجنود خرجوا إلى الشارع من تلقاء ذاتهم. وإنني لا أستطيع بأية حال من الأحوال أن أتفق مع أحد حول هذه النقطة. وماذا تعني هذه الكلمة: "أولية"؟... إن "خلق الأشياء من العدم[1]، نظرية لا تتمتع في علم الاجتماع بصحة تفوق صحتها بالنسبة للعلوم الطبيعية. فإذا لم يربط أي قائد ثوري علامته بالحركة، فإن الحركة ستكون مجهولة، دون أن تكون لا شخصية". وتعزى طريقة طرح المسألة بهذا الشكل، تلك المسألة التي لا يمكن مقارنة دقتها مع ادعاءات ميليوكوف ومزاعمه المتعلقة بعملاء ألمانيا والقوى الدولية في روسيا، تعزى هذه الطريقة وترجع إلى وكيل للقيصر كان نائبًا عندما انفجرت الثورة. وربما كانت التجربة القانونية هي التي سمحت لزافادسكي في الإدراك بأن الانتفاضة الثورية لا يمكن أن تنبعث من توجيهات عملاء لدولة أجنبية ولا من تطور طبيعي لا تتدخل فيه الشخصيات.

ويستشهد المؤلف ذاته بواقعتين سمحتا له بإلقاء نظرة فاحصة على مخبر التطور الثوري، من خلال ثقب في القفل. وفي يوم الجمعة ٢٤ فبراير (شباط)، بينما لم يكن أحد في الدوائر العليا يتوقع قيام انتفاضة بمثل هذه السرعة، ركب النائب الذي كان وكيلاً للقيصر حافلة الترام، ودارت الحافلة فجأة وأحدثت بدورانها ضجة رنَّ على أثرها زجاج الحافلة، الذي تحطم أحد ألواحه، بين شارع ليتييني وشارع مجاور وتوقفت الحافلة. وطلب السائق من كل الركاب النزول وقال لهم: "إن العربة لن تسير إلى مسافة أبعد". واحتج الركاب وأخذوا يذمون الوضع ولكنهم نزلوا. وكتب النائب المذكور قائلاً ما يلي: "ما زلت أرى وجه السائق، صامتًا، ولكنه يتسم بالتصميم الغامض، وما زلت أذكر رأس الذئب الذي كان يحمله". وتوقفت حركة حافلات الترام في كل مكان على مرمى النظر. ويبدو أن هذا السائق المصمم الذي كان يوحي للوجيه الليبرالي بصورة "رأس ذئب" يتمتع بوعي لواجبه لأنه تجرأ لوحده على إيقاف عربته المملوءة بالموظفين، في شارع من شوارع بطرسبورغ الإمبراطورية في وقت الحرب. إن أمثال هؤلاء السائقين هم الذين أوقفوا عربة الملكية، وأطلقوا نفس التعبير التي أطلقها سائق حافلة الترام عندما قال: "إن العربة لن تسير إلى مسافة أبعد" وأنزلوا البيروقراطية دون أن يفرقوا بين جنرالات الدرك والنواب الليبراليين، لأنهم على عجلة من أمر الثورة. وكان سائق شارع ليتييني أداة واعية للتاريخ. ولا بُدَّ أنه كان قد تعلم من قبل دروسًا كثيرة.

وأثناء حريق قصر العدل، عبر أحد الحقوقيين الليبراليين، التابعين لعالم النائب القيصري ذاته، عن أسفه لحضوره تدمير مخبر الكشوف القضائية والقضاء على المصنفات المتعلقة بتوثيق العقود. ولكن رجلاً ناضجًا في العمر، مقطب الوجه، يبدو أنه عامل من العمال رد عليه قائلاً وهو يتأفف: "إننا سنعرف كيف نقتسم البيوت والأراضي بـــدون عقــودك ومــصنفاتك". ومــن المحتمل أن تكون الواقعة بين العامل والحقوقي قد سويت على نحو أدبي. ولكن عدد هذا الطراز من العمال في سن النــضوج والقادرين على إعطاء الرد الضروري لم يكن قليلاً في هذه الجموع الغفيرة. وهم لا شأن لهم بحريق قصر العدل، فما جــدوى إحراقه؟ وعلى كل حال فإن مثل هذه الأعمال "المتطرفة" لا يمكن أن ترهبهم. فقد كانوا يسلحون الجماهير، ولا يوحــون إليهــا بالأفكار الضرورية ضد شرطة القيصر فحسب، بل ضد الحقوقيين الليبراليين، الذين كانوا يخشون بصورة خاصة أن تلتهم نــار الثورة وثائق عقود التملك. إن هؤلاء القادة المجهولين، وهؤلاء السياسيين القساة في المصنع والشارع لم يسقطوا من الــسماء، فقد تعلموا وتدربوا من قبل دون شك.

وكانت الأوخرانا التي تسجل أحداث الأيام الأخيرة من فبراير (شباط) تصف الحركة بأنها "أولية"، أي أنها غير موجهــة بصورة منهجية من الأعلى، ولكنها أضافت شيئًا جديدًا يقول: "لقد تأثرت البروليتاريا كلها بالدعاية". وهذا التأكيد صحيح: فقــد ميَّز محترفو مقاومة الثورة قبل أن يرسلوا لأشغال حجرات السجن الضيقة المنفردة التي كانت مخصصة للثوريين الذين أخلــي سبيلهم، ميز أولئك المحترفون، التطور الحالي أفضل بكثير من تمييز زعماء الليبرالية له.

إن أسطورة "القوى الأولية" لا توضح شيئًا. فلكي تقدر الجماهير الوضع بالضبط، ولكي تحدد لحظــة الانتفاضــة ضــد العدو، كان من الضروري أن تطرح الجماهير، متجسدة بعناصرها القيادية، مطالبها الخاصة إزاء الأحداث التاريخية، وأن تملك معاييرها لكي تضع تقديرها وحسابها. وبعبارات أخرى لم تكن هناك حاجة للجماهير بصورة عامة، بل كانت هناك حاجة لكتلة عمال بتروغراد روسيا كلها، هذه الكتلة التي عانت من ثورة عام ١٩٠٥، وقامت بالعصيان الموسكوفي الذي تم فــي ديــسمبر (كانون الأول) ١٩٠٥، ذلك العصيان الذي حطمه فوج الحرس المسمى بفوج "سيمينوفسكي". وكان من الــضروري أن ينتــشر وسط هذه الكتلة الجماهيرية عمال فكروا بتجربة عام ١٩٠٥، ونقدوا الأوهام الدستورية لليبراليين والمناشفة، وهــضموا أبعــاد الثورة، وتحروا مئات ومئات المرات مسألة الجيش وبحثوها، وراقبوا بانتباه ما يجري في هذا الوسط، وكــانوا قــادرين علــى استخلاص استنتاجات ثورية من ملاحظاتهم، ونقل هذه الاستنتاجات إلى الآخرين. وأخيرًا كان من الضروري إيجاد جنود فــي صفوف الحامية يتمتعون بفكر متقدم، ويحملون آثار الدعاية الثورية.

وفي كل مصنع، وكل مجموعة حرفية، وكل سرية عسكرية، وكل فندق، وفي مستشفيات الجيش، وفي كــل معــسكر، وحتى في الأرياف المقفرة من السكان، في كل هذه الأماكن يقوم عمل جزيئي دعائي للفكرة الثورية. وكان هناك في كل مكــان معلقون على الأحداث، معظمهم من العمال، وكانت العناصر الأخرى تستمد الأخبار وتنتظر الكلمة الضرورية منهم. إن رؤساء الأرتال هؤلاء كانوا متروكين لأنفسهم، وكانوا يكتشفون من تلقاء ذاتهم ومن خلال قراءتهم لما بين سطور الصحف الليبراليــة كل ما يحتاجون إليه. وقد ازدادت حدة غريزة الطبقة لديهم بالمعيار السياسي، وإذا كانوا لا يدفعون بكل أفكارهم إلــى النهايــة، فإن فكرهم كان يعمل باستمرار، وبعناد، وفي الاتجاه ذاته دومًا. وكانت العناصر المجربة، والناقدة، صاحبة المبادءة، تتسلل إلى الجماهير وتشكل الآلية الداخلية للحركة الثورية التي لا يمكن لأية نظرة سطحية أن تدركها مع أنها عناصر حاســمة للحركــة الثورية إذا ما اعتبرنا هذه الحركة تطورًا واعيًا.

إن كل ما يحدث في أوساط الجماهير يبدو لسياسي الليبرالية والاشتراكية المدجنة المدعين، تطورًا غريزيًّا كمــا لــو أن هذا التطور يحدث في خلية نحل. والحقيقة، أن الفكر الذي يحضر في أوساط الجمهرة العمالية كان أجرأ بكثير، وكان أكثر حدة وأشد وعيًا من الأفكار الصغيرة التي كانت تتسلى بها الطبقات المثقفة. بل هناك ما هو أفضل: فالفكر العمالي كان أكثر علميــة

من غيره. ولا يرجع الفضل في ذلك إلى أن الطرق الماركسية قد أخصبته فحسب، ولكنه يرجع قبل كل شيء إلى أنـــه تغـــذى بصورة دائمة بالتجربة الحية للجماهير التي دخلت فيما بعد إلى حلبة الثورة.

ويظهر الطابع العلمي للفكرة في مطابقته للتطور الموضوعي وفي قابليته للتأثير على هذا التطور وتنظيم مساره. فهـــل ترتقي هذه القدرة، حتى في أضيق حد ممكن، إلى عقلية الدوائر الحاكمة، التي يستلهم أعضاؤها قراراتهم مـــن رؤيـــا القـــديس يوحنا، ويؤمنون بأحلام راسبوتين ومرئياته؟ أو هل تأسست أفكار الليبرالية المغامرة على أساس علمي، هـــذه الليبراليـــة التـــي كانت تأمل بأن تتمكن روسيا المتخلفة، المشاركة في صراع عمالقة الرأسمالية، من الانتصار والحصول على نظام برلماني في الوقت ذاته؟ أو لربما نتساءل أيضًا هل كانت مفاهيم الدوائر المثقفة علمية، هذه الدوائر التي كانت تخضع بصورة ذليلة لليبرالية متهدمة وعاجزة منذ طفولتها، وتخفي بهذا الشكل استقلالها الوهمي تحت حشو لفظي عفي عليه الزمن منذ مدة طويلة؟ حقًا، إننا هنا في مملكة خمول فكري قوي جدًا، وفي بلاد الأشباح، والخرافات والأوهام، وإذا أردنا أن نكون أكثر صراحة قلنا إننا هنـــا في مملكة "القوى الأولية".

وبناء على هذا ألا نملك الحق في إعادة النظر بصورة شاملة في الفلسفة الليبرالية لثورة فبراير (شباط)؟ نعـــم! إن لنـــا الحق بأن نقول: في حين كان المجتمع الرسمي -هذه البنية الفوقية المؤلفة من عدة طوابق، والتي تتألف منها الطبقات الحاكمة، بشرائحها المميزة، ومجموعاتها، وأحزابها، وشراذمها- يعيش يومًا بيوم في عطالته وآليته، وهو يتغذى بأفكار مهترئة، ويـــصم أذنيه عن مطالب الثورة الحتمية، تفتنه الأشباح، ولا يتوقع شيئًا، في حين كان يتم هذا تحققه في أوساط الجماهير العمالية تطور عفوي وعميق يشمل تعاظم الحقد ضد الحكام، وتزايد الحكم النقدي على عجز أولئك الحكام، وتراكم التجربة والـــوعي الخـــلاق الذي تأكد في الانتفاضة الثورية وانتصارها.

فإذا ما عدنا إلى السؤال السابق: من الذي قاد إذن انتفاضة فبراير (شباط)؟ أجبنا على هذا السؤال بقولنا: إن الـــذي قـــاد انتفاضة فبراير (شباط) عمال وأعون، متمرسون، تدربوا وتعلموا في مدرسة حزب لينين. ولكن علينا أن نضيف أن هذه القيادة حتى ولو كانت كافية لتأمين انتصار الانتفاضة، فإنها لم تكن قادرة على وضع إدارة الثورة، منذ البـــدء، بـــين يـــدي الطليعـــة البروليتارية.

الهوامش

(١) خلق الأمور من العدم "Generation Spontanee" نظرية كانت سائدة قبل باستور وقبل اكتشاف الجراثيم وكانت تقول بإمكانية ولادة الأجسام من لا شيء بفضل قوة الطبيعة، ثم دحضتها الاكتشافات الحديثة التي أكَّدت بأنه ليس هناك ما يأتي من العدم. ولا بُدَّ لكل جسم من أصل يأتي منه. (المعربان).

مفارقة ثورة فبراير (شباط)

لقد انتصرت الانتفاضة، ولكن لمن نقلت الانتفاضة السلطة المنتزعة من الملكية؟ بالرد على هذا السؤال نصل إلى المسألة الرئيسية لثورة فبراير (شباط): كيف انتقلت السلطة فأصبحت بين يدي البرجوازية الليبرالية ولماذا؟

عندما انفجرت الاضطرابات بتاريخ ٢٣ فبراير (شباط)، لم تعلق دوائر الدوما و"المجتمع" البورجوازي عليها أهمية كبيرة، وكان النواب الليبراليون والصحفيون الوطنيون يلتقون كالعادة في الصالونات ويناقشون معًا مسألة تريستا وفييوم، وكانوا يؤكدون من جديد أن روسيا بحاجة ماسة لمضائق الدردنيل. وفي حين كان مرسوم حل الدوما قد وُقع، كانت لجنة برلمانية ما زالت تدرس بسرعة مرسوم نقل مصالح التموين إلى البلدية. وقبل انتفاضة كتائب الحرس باثنتي عشرة ساعة، كان اتحاد السلافيين يستمع بهدوء إلى تقريره السنوي. وقد كتب أحد المندوبين في هذا الاتحاد ما يلي: "عندما كنت عائدًا على قدمي من هذا الاجتماع تأثرت بالصمت الموحش وبالمظهر المقفر للشوارع التي كانت فيها الحياة في الأوقات العادية". وهكذا أحاط بالطبقات الحاكمة القديمة فراغ موحش، وقد انقبض قلب ورثتها من هذا الجو القلق.

وبتاريخ ٢٦ أصبح واضحًا للحكومة ولليبراليين أن الحركة جدية. وتم في هذا اليوم بين الوزراء وأعضاء الدوما محاولات توفيقية تستهدف التوصل إلى اتفاق، لم يكشف الليبراليون الستار عنه فيما بعد. وقد صرح بروتوبوبوف في إفادته أن زعماء كتلة الدوما كانوا ما زالوا يطالبون، كالعادة، بتعيين وزراء جدد يتمتعون بالثقة العامة؛ "فربما يهدئ هذا الإجراء الشعب"، ولكن يوم ٢٦ جدد كما نعرف، فترة توقف في تطور الثورة وأحست الحكومة، لعدة ساعات، أنها في وضع أفضل. وعندما قابل رودزيانكو غاليتزين رئيس الوزراء لإقناعه بالاستقالة، أشار رئيس الوزراء إلى مرسوم على طاولة مكتبه ينص على حل مجلس الدوما، كان نيقولا قد وقَّعه، ولكنه ما زال بدون تاريخ. وكان غاليتزين هو الذي وضع التاريخ على هذا المرسوم. فكيف صممت الحكومة على اتخاذ هذه الخطوة في وقت كان فيه زخم الثورة في تزايد مستمر؟ كانت البيروقراطية قد اتخذت قرارها حول هذا الموضوع منذ زمن طويل، وكان قرارها هو التالي: سواء أكُنَّا مع الكتلة أو بدونها، فليس لهذا أهمية كبرى بالنسبة للحركة العمَّالية. وبوسعنا التغلب على هذه الحركة بوسائل أخرى، ولقد تصرفت وزارة الداخلية حتى الآن بصورة جيدة. هكذا تحدث غوريميكين منذ شهر أغسطس (آب) ١٩١٥. ومن ناحية أخرى كانت البيروقراطية تعتبر أنه لو انحل الدوما فإنها لن تقوم عندئذ بأية خطوة جريئة. وفي أغسطس (آب) ١٩١٥ أيضًا صرح الأمير شتشيرياتوف، وزير الداخلية، أثناء نقاش كان يدور حول حل الدوما المستاء قائلاً ما يلي: "من غير المحتمل أن يقرر النواب عدم الانصياع. إن معظمهم جبناء، ويخشون على جلدهم." ولم يكن الأمير يعبر عن رأيه هذا بلباقة، ولكنه كان يصيب كبد الحقيقة. وكانت البيروقراطية في كفاحها ضد المعارضة الليبرالية تحس بأنها تقف على أرض صلبة.

وفي صبيحة يوم ٢٧، اجتمع المندوبون الذين أقلقهم امتداد الأحداث وتوسعها وعقدوا جلسة اعتيادية. وعندئذ فقط علمت الأكثرية أن مرسوم حل الدوما قد صدر. وكان هذا الإجراء غير متوقع أبدًا، خاصة وأن هناك محادثات توفيقية كانت قد تمت بالأمس. وقد كتب رودزيانكو معلقًا على المرسوم الصادر بحل الدوما قائلاً: "ومع ذلك، انحنى مجلس الدوما أمام القانون، وهو ما زال يأمل بإيجاد مخرج لهذا الوضع المضطرب. فلم يصوت على أي قرار يُسْتَشَم منه رفض الحل أو استخدام العنف لعقد الجلسات بالقوة"، واجتمع النواب في مؤتمر خاص؛ اعترفوا فيه بعجزهم. وقد ذكر شيدلوفسكي الليبرالي المعتدل -بشيء من التهكم فيما بعد- أن نيكراسوف وهو من الجناح اليساري المتطرف للكاديت، والذي أصبح فيما بعد شريكًا لكرنسكي، قد اقترح "إقامة ديكتاتورية عسكرية وتسليم كل السلطة لجنرال يتمتع بالشعبية". في هذه الغضون، كان بعض زعماء الكتلة التقدمية -الذين لم يحضروا هذا المؤتمر الخاص- يحاولون التوصل إلى تدبير عملي لإنقاذ الوضع ورجوا ميخائيل -شقيق القيصر-

للمجيء إلى بتروغراد، واقترحوا عليه ممارسة الديكتاتورية، و"إجبار" أعضاء الحكومة على الاستقالة وإجراء اتـصال مباشـر بالقيصر لمطالبته بأن "يُنعم" على الشعب بوزارة مسئولة. وفي الساعات التي انتفضت فيها أفواج الحرس الدولي، قـام زعمـاء البرجوازية الليبرالية بمحاولة أخيرة لسحق العصيان بمساعدة ديكتاتورية الأسرة الحاكمة، وللاتفاق في الوقت ذاته مع الملكيـة على حساب الثورة. وصرح رودزيانكو بلهجة تنم عن الأسف: "كانت نتيجة التردد الذي أظهره شقيق القيـصر هـو خـسارة الفرصة الملائمة".

فكم يعتقد المثقفون الراديكاليون بما يرغبون به بصورة سهلة. ونجد هذه السهولة في شهادة سوخانوف، وهو اشـتراكي غير ملتزم بدأ في تلك الفترة يلعب دورًا سياسيًّا في قصر توريد. وقد كتب سوخانوف في مذكراته المسهبة ما يلي: "لقد أخبرني البعض بجوهر ما حدث سياسيًّا من جديد في الساعات الأولى من هذا اليوم الذي لا يُنسى؛ فقد صدر المرسـوم الملكـي بحـل الدوما، وأن الدوما يرفض الانفضاض، بعد أن انتخب لجنة عليا". ولقد كتب هذا رجل لم يكن يخرج أبدًا مـن قـصر توريـد، وكان يعامل النواب المشهورين بألفة متناهية. وصرح ميليوكوف في كتابه تاريخ الثورة بصورة قاطعة: "بعد سلسلة من الخطب المليئة بالحماسة، تقرر أن لا يغادر النواب بتروغراد، ولكن القرار لم يتضمن أبدًا رفض أعضاء الدوما الانفـضاض كممثلـين في مؤسسة دستورية، على عكس الأسطورة التي سرت واعتمدها الكثيرون". **فرفض الانفضاض** يعني اتخاذ مبادرة، حتى ولو كانت هذه المبادرة متأخرة. **وعدم مغادرة العاصمة**، يعني غسل اليدين وانتظار انعطاف الأحداث وتحويلها. ويمكن إيجاد العذر لسذاجة سوخانوف وسرعة تصديقه ببعض الظروف المخففة؛ فلقد نشر الصحفيون البرلمانيون في نشرتهم الإخباريـة، وهـي الصحيفة الوحيدة في ذلك الوقت نظرًا للإضراب العام، نشر الصحفيون بسرعة إشاعة اتخاذ الدوما قرارًا ثوريًّا يتـضمن عـدم الانصياع للمرسوم الملكي. ولكن بما أن الانتفاضة قد انتصرت في ذلك اليوم، لم يسارع النواب إلى دحض الخطـأ المرتكـب، وشجعوا بهذا الشكل أصدقاءهم اليساريين وجعلوهم يستمرون في الوهم، ولم يحاولوا نشر الحقيقة إلا بعد الهجرة. والواقعة كما يبدو، ذات أهمية ثانوية ولكنها في الحقيقة ذات دلالة كبيرة. فقد كان الدور الثوري للدوما في يوم ٢٧ فبراير (شـباط) خرافـة ولدت من السذاجة السياسية للمثقفين الراديكاليين، الذين ابتهجوا بالثورة وتملكهم الرعب، وكانوا عاجزين عـن الاعتقـاد بـأن الجماهير تمكنت من قيادة العملية قيادة جيدة، والذين بادروا إلى إيجاد دعم بأسرع ما يمكن لدى البرجوازية المؤسـرة التـي لا يحق لها الانتخاب.

وقد قرأنا من حسن الحظ كثيرًا من مذكرات النواب الذين كانوا ينتمون في ذلك الوقت إلى أكثرية الدوما، وتشرح هـذه المذكرات كيفية استقبال الدوما للثورة. ويؤكد الأمير مانسيرييف -وهو من الجناح اليميني للكاديت- بأنه لم يكـن هنـاك بـين النواب الذين اجتمع عدد كبير منهم في صباح ٢٧، أحدًا من أعضاء المكتب، ولا أحدًا من زعماء الأحزاب، ولا أحدًا من قـادة فروع الكتلة التقدمية، وقد وصلت للغائبين معلومات بحل الدوما والانتفاضة. وبالإضافة إلى هذا، وفي تلك الساعات بالـضبط، من المحتمل أنهم كانوا يجرون محادثات مع ميخائيل شقيق القيصر حول إقامة نظام ديكتاتوري. وقد قال مانـسيرييف: "كـان القلق في داخل الدوما عامًا وشاملاً، كما كانت البلبلة عميقة. وكنا لا نستمع أبدًا إلى محادثات حية. وكانت الأحاديـث مجـرد آهات وردودًا قصيرة من النوع التالي: "ها نحن قد وصلنا!" أو اعترافات تنم عن مخاوف شخصية. هذا هو ما سرده نائب مـن أكثر النواب اعتدالاً، وأشدهم تحسرًا.

وقبل الساعة الثانية بعد الظهر، وجد الزعماء أنهم مضطرون للظهور في الدوما، فجلب أمين سر المكتب خبرًا مفرحًـا، لا أساس له من الصحة: "إن أعمال الفوضى ستقمع وقد اتخذت التدابير اللازمة لذلك". ومن المحتمل أنهم فهموا "التدابير" التـي ستتخذ من المحادثات التي تمت حول إقامة نظام ديكتاتوري. ولكن كان الدوما مرهقًا، ينتظر كلمة حاسمة مـن زعـيم الكتلـة التقدمية. غير أن ميليوكوف صرح بما يلي: "إننا لا نستطيع أن نتخذ، في هذه اللحظة، أي قرار. **أولاً**: لأننا لا نعـرف مـدى

الاضطرابات وسعتها، **ثانيًا**: لأننا نجهل الجانب الذي انحازت إليه أكثرية قطعات الحامية، والعمال، والتنظيمات الاجتماعية. ومن الواجب علينا أن نلتقط معلومات دقيقة وواضحة عن كل هذا، ومن ثَم نقوم بفحص الوضع. وما زال الوقت مبكرًا جدًا للقيام بهذه العملية". وفي الساعة الثانية بعد ظهر يوم ٢٧ فبراير (شباط) كان الوقت ما زال "مبكرًا جدًا" لليبرالية!؛ إن "جمع المعلومات" يعني غسل اليدين وانتظار نهاية المعركة.

ولكن ما كاد ميليوكوف ينهي خطابه الذي بدأه بفكرة، وخَتَمه بلا شيء حتى سارع كرنسكي إلى القاعة، وهو منفعل إلى حد كبير وأعلن ما يلي: إن جموعًا غفيرة من أبناء الشعب والجنود تتقدم إلى قصر توريد، وهي تنوي مطالبة الدوما باستلام السلطة!.. إن النائب الراديكالي يعرف بالضبط ما تطالب به الجماهير الشعبية القوية. والحقيقة، كان كرنسكي هو الذي يطالب لأول مرة بأن يستلم مجلس الدوما السلطة، هذا المجلس الذي يأمل من قرارة نفوس أعضائه قمع الانتفاضة. وأثار تدخل كرنسكي "اضطرابًا عامًا" وبدت في العيون "نظرات الهلع" ومع ذلك لم يتح لكرنسكي الوقت الكافي لإنهاء كلامه حتى قاطعه حاجب الدوما، الذي هرع إلى القاعة فزعًا وقال ما يلي: هناك مفارز من الجنود تقترب من القصر وهي تسبق تجمعات أخرى، ورفض رجال الحرس السماح لهم بالدخول، وقد جرح قائد الحرس جرحًا بليغًا. وبعد دقيقة، وجد النواب أن الجنود قد دخلوا إلى القصر.

وقد قيل فيما بعد، في الخطب والمقالات أن الجنود جاءوا ليحيوا أعضاء الدوما ويقسمون يمين الولاء أمامه. ولكن في اللحظة الحالية ساد ذعر قاتل، صعد مده إلى الحناجر. وأخذ الزعماء يتوشوشون فيما بينهم: ينبغي أن نربح الوقت. وسارع رودزيانكو بأن عرض على التصويت الاقتراح الذي قدم إليه بتشكيل لجنة مؤقتة. فقوبل قراره بالتهليل. ولكن النواب لم يكن لديهم سوى فكرة الهروب بأسرع ما يمكن، ولم يكن الموضوع موضوع انتخابات! واقترح رئيس الدوما الذي لم يكن أقل ذعرًا من الآخرين تكليف مجلس من الوجهاء وكبار الشخصيات بتأليف اللجنة. وقوبل اقتراحه بابتهاجات جديدة، وموافقة صاخبة من العدد الصغير من النواب الذين بقوا في القاعة، لقد وجدت الأكثرية وسيلة للهروب. بهذا الشكل رد الدوما الذي حله القيصر على الانتفاضة الظافرة.

في هذا الوقت، كانت الثورة، في نفس المبنى، ولكن في قاعة أقل زينة من قاعة مجلس الدوما، تُنشئ جهاز سلطة جديد. ولم يكن من واجب الزعماء الثوريين أن يخلقوا أو يبدعوا شيئًا جديدًا. فتجربة سوفييتات ١٩٠٥ حُفِرت وللأبد في ضمير العمال. وفي كل مد للحركة الثورية، حتى خلال الحرب، كانت فكرة تشكيل السوفييتات تولد بصورة آلية تقريبًا. ومع أن تصور دور السوفييتات كان مختلفًا إلى حد كبير لدى البلاشفة والمناشفة (لم يكن لدى الاشتراكيين - الثوريين حول هذا الموضوع رأي قاطع)، فإن شكل التنظيم ذاته، كما يبدو، كان لا يحتاج إلى نقاش. والتقى المناشفة وأعضاء لجنة الصناعات الحربية الذين أخلي سبيلهم من السجن، في قصر توريد بممثلين نشيطين عن الحركة النقابية وحركة التضامن المنتمين إلى الجناح اليميني ذاته، ومع البرلمانيين المناشفة تشخيدزه وسكوبوليف وشكلوا فورًا لجنة تنفيذية مؤقتة لسوفييت مندوبي العمال، انضم إليها بصورة أساسية في ذلك اليوم الثوريون القدماء، الذين فقدوا الاتصال مع الجماهير ولكن أسماءهم ما زالت معروفة. وانضم البلاشفة أيضًا إلى اللجنة التنفيذية، ودعت هذه اللجنة العمال إلى انتخاب مندوبيهم بسرعة.

وحددت الجلسة الأولى لمجلس السوفييتات في مساء اليوم ذاته في قصر توريد. وافتتحت في الساعة التاسعة صباحًا، وأقر مجلس السوفييتات تشكيل اللجنة التنفيذية. وعُين فيها ممثلون رسميون عن كل الأحزاب الاشتراكية بالإضافة إلى أعضائها السابقين. ولكن لم يكن هذا هو المعنى الحقيقي لهذه الجمعية الأولى لممثلي البروليتاريا المنتصرة في العاصمة. فقد وصل

مندوبون عن الأفواج الثائرة إلى الجلسة وقدموا تهانيهم. وكان من بينهم جنود أميون، فاجأتهم الثورة إلى حد بعيد، وكانوا يتكلمون بصعوبة. ومع ذلك وجدوا كلمات لم تخطر على بال أي خطيب من الخطباء.

وكان أكثر المشاهد المؤثرة في الثورة التي أخذت تحس بقوتها هو يقظة الجماهير العديدة، وسعة المهام التي ينبغي القيام بها، وكبرياء نجاحاتها، وخفقان قلب مرح لفكرة: غدًا سيكون مشرقًا أكثر من اليوم. وكانت الثورة لا تملك بعد تقاليدها وطقوسها، والشارع تنبعث منه أعمدة الدخان، ولا تعرف الجماهير حتى الآن كيف تغني نشيدها الجديد، ويتم انعقاد الجلسة وسط الفوضى، وتندفع المياه الربيعية الطافحة، ويختنق مجلس السوفييت حماسة. إن الثورة قوية، ولكنها ما زالت تتسم بسذاجة طفولتها.

وقد تقرر في هذه الجلسة الأولى توحيد الحامية مع العمال في مجلس واحد هو سوفييت مندوبي العمال والجنود. فمن كان أول من اقترح هذا القرار؟ من المحتمل أن هذا القرار جاء من مختلف الجهات، أو بالأحرى من كل الجهات كصدى للتآخي بين العمال والجنود. وقد قرر هذا التآخي مصير الثورة في هذا اليوم. ومع هذا فإننا لا نستطيع أن نمتنع عن الإشارة إلى أن الاشتراكيين - الوطنيين قد احتجوا -طبقًا لرأي شليابنيكوف- ضد تدخل الجيش في السياسة.

وبدأ مجلس السوفييت منذ اللحظة التي تشكل فيها يمارس عمله كسلطة حكومية بواسطة لجنته التنفيذية. فقد انتخبت لجنة مؤقتة للتموين والاهتمام بمطالب الثوار والحامية بصورة عامة. ونظم المجلس هيئة أركانه الثورية (**كل التشكيلات التي أعلنت في هذا اليوم تشكيلات مؤقتة**) التي تحدثنا عنها سابقًا. وقرر المجلس أن تحتل قطعات حرس ثورية المصرف المركزي فورًا، ووزارة الخزينة ومصالح سك العملات الورقية التابعة للدولة لحرمان موظفي النظام القديم من القدرة على التصرف بالموارد المالية. وازدادت أعباء مجلس السوفييت ووظائفه تحت ضغط الجماهير. ووجدت الثورة مركزها وقد أصبح لا يتزعزع؛ إذ أن العمال والجنود والفلاحين لن يتوجهوا بعد الآن إلا إلى مجلس السوفييت. فقد أصبح هذا المجلس في نظرهم نقطة تركيز كل الآمال وكل السلطات، كما أصبح تجسيدًا للثورة ذاتها. ولكن ممثلي الطبقات المالكة سيتوجهون أيضًا إلى المجلس ليطلبوا منه -وأسنانهم تصر- الحماية والتوجيهات، وحل النزاعات.

وفي حين كانت السلطة الثورية الجديدة تتشكل بسرعة خارقة وقوة لا تقاوم، كان الاشتراكيون منذ الساعات الأولى للانتصار ينظرون من حولهم نظرات يشوبها القلق، مفتشين عن "زعيم" حقيقي. وكانوا يعتبرون انتقال السلطة إلى أيدي البرجوازية أمرًا طبيعيًّا. وهنا تشكلت العقدة الرئيسية للنظام الجديد؛ فمن جهة هناك الخط الذي يؤدي إلى قاعة اللجنة التنفيذية للعمال والجنود؛ ويؤدي هذا الخط من الناحية الأخرى إلى مركز الأحزاب البرجوازية.

وانتخب مجلس وجهاء الدوما في الساعة الثالثة "لجنة مؤقتة لأعضاء مجلس الدوما"، في الوقت الذي كان فيه الانتصار في العاصمة حاسمًا تمامًا. وتألفت اللجنة بانضمام عناصر من أحزاب الكتلة التقدمية، وضمت إليها تشخيدزه وكرنسكي. ورفض تشخيدزه هذه العضوية. ولكن كرنسكي بدأ بالمراوغة. ويشير اسم اللجنة، بعبارات متحفظة أن اللجنة لا تشكل جهازًا رسميًّا للدوما الإمبراطوري، وأنها تشكل فقط، وبصورة شخصية، جهازًا لمؤتمرات أعضاء مجلس الدوما. ولم يفكر زعماء الكتلة التقدمية مليًّا وحتى النهاية إلا بمسألة واحدة: كيف يتهربون من المسئوليات مع بقاء أيديهم حرة طليقة؟

وتحددت **مهمة اللجنة** بعبارات غامضة، انتقيت بعناية: "**إعادة النظام وإقامة العلاقات مع المؤسسات والشخصيات**"، ولم تحدد المهمة كلمة واحدة عن طبيعة النظام الذي يرغب هؤلاء الأسياد إعادته، كما لم تحدد شيئًا عن المؤسسات التي يريد مجلس الدوما إقامة علاقات معها. فهم ما زالوا يمدون يدهم بعد إلى جلد الدب... فمن الممكن أن لا يكون الدب قد فارق الحياة،

أو أنه أصيب بجرح بليغ فقط!... وفي الحادية عشرة من مساء يوم ٢٧ فبراير (شباط) فقط "عندما توضحت معـالم الحركـة الثورية بكل أبعادها"، "قررت اللجنة المؤقتة القيام بخطوة إلى أمام واستلام السلطة التي تخلت الحكومة عنهـا" حـسب أقـوال ميليوكوف. وقد تحولت لجنة أعضاء الدوما، بصورة غير ملموسة، إلى لجنة المجلس الدوما؛ فعندما يراد الاحتفـاظ بالمظـاهر القانونية لتتابع السلطة، ليس هناك من وسيلة أفضل من التزييف.

ولكنه ميليوكوف أسدل ستارًا من الصمت على الموضوع الرئيسي؛ فقد وجد زعماء اللجنة التنفيذية التي تشكلت في ذلك اليوم الوقت للمثول أمام اللجنة المؤقتة وطلبوا منها بإلحاح استلام السلطة. وكان لهذا الضغط الودي نتائجه. ثم فسر ميليوكوف قرار لجنة الدوما قائلاً: بأن الحكومة ستكون مستعدة لتحريك قطعات موثوقة ضد العُصاة، وأنه "من الممكـن توقـع معـارك حقيقية في شوارع العاصمة". والحقيقة، لم تكن الحكومة تملك قطعة عسكرية واحدة، وكانت قد فقدت سلطتها نهائيًّـا. وكتـب رودزيانكو -فيما بعد- أنه "لو رفض مجلس الدوما استلام السلطة، لاعتقل أعضاؤه وذبحوا، ولأصبح المجلس فورًا بين يـدي البلاشفة". ومما لا شك فيه أن في هذا القول مبالغة سخيفة ولدت في ذهن حاجب الإمبراطور المحترم. ولكن هذه المبالغة تعبر دون أي ظل للخطأ عن الحالة النفسية التي سادت أعضاء مجلس الدوما، هذا المجلس الذي يعتبر انتقال السلطة من بـين يديـه نوعًا من الخرق السياسي لحرمته.

ووسط هذه التدابير، لم يكن الحل سهلاً، فقد كان تردد رودزيانكو مشوبًا بالقلق والاضطراب، وكـان يوجـه الأسـئلة للآخرين: "ماذا سيحدث؟ هل هو تمرد، نعم أم لا؟" وقد رد عليه شولغين أحد النواب الملكيين قائلاً: "ليس هذا إلا تمرد. اسـتلم السلطة بصفتك من الرعايا المخلصين... فإذا كان الوزراء قد فروا، فلا بُدَّ على كل حال من أن يحل محلهم أحد مـا... وقـد يكون هناك مخرجان: إما أن يسوى كل شيء، أو أن يعين الإمبراطور حكومة جديدة، ونعطيها السلطة. فإذا لم ينجح هذا، ولـم نستلم السلطة، فإن السلطة ستنتقل إلى أيدي رجال انتخبهم الرعاع في المصانع...". وقد نقلنا للقـارئ حرفيًّـا التعـابير الـذي استخدمها شولغين ذاته. ومن العبث أن نرفع الألفاظ الخشنة التي يوجهها سيد رجعي للعمال؛ فقد وضعت الثورة قـدمها علـى رءوس هؤلاء الأسياد. و**الاستنتاج من هذه الأقوال** واضح كل الوضوح: **إذا انتصرت الملكية، فسنكون معها. وإذا انتـصرت الثورة فلنحاول تعريتها**.

وطالت الاستشارات. وكان الزعماء الديموقراطيون ينتظرون الحل وهم مضطربون. وأخيرًا خرج ميليوكوف من مكتب رودزيانكو وكان يبدو شامخًا. وتقدم إلى وفد السوفييت وصرح لهم قائلاً: "لقد اتخذنا القـرار. سنـستلم الـسلطة..." فـصاح سوخانوف قائلاً بحماس، تبعًا لما كتبه في مذكراته" لم أسأل ماذا تعني كلمة "نحن" هذه. لم أسأل شيئًا. ولكن أحسست من كـل كياني، حسب التعبير الشائع، بالوضع الجديد. أحسست كيف أن مركب الثورة الذي أخفق في هذه الساعات، بدأ يرفع أشـرعته بإرادة العناصر الثائرة، واستعاد استقرار حركاته وانتظامها، وسط العاصفة المخيفة التي كانت تهـزه". فأيـة عبـارات نقيـة اختيرت للاعتراف بنذالة، بعبودية ديمقراطية البرجوازية الصغيرة إزاء الرأسمالية الليبرالية! وأي خطأ مخيف ارتكب في البعد السياسي؛ فالتخلي عن السلطة لليبراليين لن يتيح أي استقرار لمركب الدولة، بل على العكس سيصبح بالنسبة للثورة اعتبارًا من هذا التاريخ سببًا للعجز، والفوضى الهائلة، وإثارة الجماهير، وهزيمة الجبهة، والاستماتة في الحرب الأهلية.

فإذا ألقينا نظرة على القرون الماضية، يبدو لنا أن وقوع السلطة بين يدي البرجوازية كان يتبع دومًا القاعـدة المحـددة التالية: في كل الثورات السابقة، كان العمال وصغار الصناع وعدد من الطلاب يقاتلون على السدود والمتاريس. وكان بعـض الجنود ينحازون إلى جانبهم. وكانت البرجوازية المترفة، التي تراقب قتال المتاريس من النافذة تلتقط السلطة. ولكن ثورة فبراير (شباط) ١٩١٧ تختلف عن الثورات السابقة بطابعها الاجتماعي الرفيع وبالمستوى السياسي العالي الـذي تتمتـع بـه الطبقـة

الثورية، وبحذر معاد للعصاة إزاء البرجوازية الليبرالية، وبالتالي بإنشاء جهاز جديد للسلطة الثورية، في لحظة الانتصار ذاتها: مجلس سوفييت يعتمد على القوة المسلحة للجماهير. وفي هذه الشروط، فإن تسليم السلطة للبرجوازية المنعزلة سياسيًّا، والمنزوعة السلاح يتطلب تفسيرًا.

ينبغي، بادئ بدء، أن نقدر عن كثب موازين القوى التي قامت في نهاية الانتفاضة. ألم تكن الديمقراطية السوفييتية مضطرة بحكم الظروف الموضوعية إلى الامتناع عن استلام السلطة والتنازل عنها لصالح البرجوازية الكبيرة؟ إن البرجوازية ذاتها لم تكن تفكر بذلك. ونحن نعرف مسبقًا أن البرجوازية التي كانت لا تتوقع استلام السلطة من الثورة أبدًا، كانت تجد في الثورة خطرًا مميتًا لمجمل وضعها الاجتماعي. وقد كتب رودزيانكو قائلاً: "لم تكن الأحزاب المعتدلة غير راغبة بالثورة فحسب، بل كانت تخشاها أيضًا، وكان حزب حرية الشعب ("الكاديت")، بشكل خاص، عبارة عن جناح يساري للمجموعات المعتدلة، ويعتبر بالتالي على صلة أقوى من غيره بالأحزاب الثورية في البلاد، وكان هذا الحزب أكثر الأحزاب انشغالاً بالمأساة الوشيكة الوقوع". وقد ذكرت تجربة عام ١٩٠٥ الليبراليين بصورة مقنعة جدًا أن انتصار العمال والفلاحين لا يقل خطرًا على البرجوازية من خطره على الملكية. وأكد سير انتفاضة فبراير (شباط)، حسب كل الظواهر، هذا التوقع. ومهما كانت الأفكار السياسية للجماهير الثورية مشوهة من كل النواحي، في هذه الأيام، فقد رسم خط الفصل بين الكادحين والبرجوازية بصورة لا يمكن تغييرها.

وقد وصف ستانكيفيتش، صاحب محاضرات (Privat - docent) في الجامعة، والذي كان على صلة وثيقة بالدوائر الليبرالية، وصديقًا للكتلة التقدمية لا عدوا لها، الحالة النفسية لهذه الأوساط في اليوم التالي للانتفاضة التي لم ينجح الليبراليون في الحيلولة دون وقوعها فقال: "لقد انتصروا رسميًّا، واحتفلوا بالثورة وأطلقوا هتافات الفرح على شرف المقاتلين من أجل الحرية، وتزينوا بالشرائط الحمراء، وساروا تحت الأعلام الحمراء... ولكنهم كانوا خائفين في أعماق أنفسهم، وبينهم وبين أنفسهم كانوا يرتعدون من الخوف ويحسون بأنهم أسرى العنصر المعادي الذي كان يتحرك في سبل مجهولة. لقد شحبت ملامح وجه رودزيانكو، الملاك الكبير، ذو المشية المتثاقلة، والشخصية الكبيرة عندما شق طريقه وسط جمهرة من الجنود تعرت صدورهم في ممرات قصر توريد، وهو يحتفظ بمظهر وقاره الرفيع، وظهرت على وجهه علامات الألم واليأس العميقين. إن هذا الوجه وتلك الملامح لا يمكن أن تنسى أبدًا. ولقد قيل رسميًّا إن "الجنود جاءوا لدعم مجلس الدوما في معركته ضد الحكومة"، ولكن الدوما انحل في الواقع منذ الأيام الأولى. وإننا لنجد التعابير التي وجدناها على وجه رودزيانكو على كل وجوه أعضاء اللجنة المؤقتة للدوما وفي الأوساط المحيطة به. وقد قيل إن بعض ممثلي الكتلة التقدمية بكوا عندما عادوا إلى منازلهم، وانفجروا في أزمات هيستيرية كان سببها بأسهم وعجزهم".

ولهذه الشهادة الحية قيمة أكبر من كل الأبحاث الاجتماعية الأخرى عن موضوع العلاقات بين القوى. وطبقًا للرواية التي رواها رودزيانكو كان رودزيانكو ذاته يرتعد سخطًا يتسم بالعجز من رؤية جنود مجهولين "يطيعون أوامر لا نعرف من أعطاها" على حد قوله، هؤلاء الجنود الذين عمدوا إلى اعتقال شخصيات من أصحاب المقامات الرفيعة في النظام القديم وأحضروها إلى مجلس الدوما. ووجد حاجب الإمبراطور نفسه بهذا الشكل مدير سجن إلى حد ما لتلك الشخصيات التي لم يكن متفقًا معها حقًا، ولكنها رغم كل هذا تبقى بالنسبة إليه شخصيات تنتمي إلى نفس الوسط الذي ينتمي إليه. وقد استدعى رودزيانكو شتشيفلوفيتوف الذي اعتقله الجنود إلى مكتبه ورفض الجنود تسليمه له لأنهم يحتقرونه. وكان رودزيانكو مذهولاً من هذه التدابير "التعسفية" وكتب رودزيانكو قائلاً: "وبما أنني كنت أحاول إظهار سلطتي فإن الجنود أحاطوا بسجينهم وقد شرعوا بنادقهم، في وضع مثير ووقح. ثم اقتيد شتشيفلوفيتوف دون أية إجراءات إلى مكان أجهله". فهل هناك تأكيد أروع وأقوى من

هذا التأكيد الذي يبرهن على عدم صحة تصريحات ستانكيفيتش القائلة بأن الأفواج أتت إلى مجلس الدوما لتقدم تأييدها ودعمها له، في حين جاءت هذه الأفواج في الحقيقة لإلغائه وعدم الاعتراف به.

لقد انتقلت السلطة بالفعل ومنذ الساعة الأولى إلى مجلس السوفييت. وبوسع أعضاء مجلس الدوما أن يستمروا في وهم بقاء السلطة بين أيديهم أقل من أي إنسان آخر. وقد كتب شيدلوفسكي -وهو نائب أكتوبري وأحد زعماء الكتلة التقدمية- في مذكراته قائلاً: "استولى السوفييت على كل مكاتب البريد والبرق، وعلى كل محطات بتروغراد، وكافة المطابع، حتى أنه كان من المستحيل إرسال برقية أو مغادرة بتروغراد، أو طبع بيان ما دون إذن منه". ولا تحتاج هذه الميزة الخاصة التي لا التباس فيها عن موازين القوى إلى أي إيضاح إلا من وجهة نظر واحدة: إن "استيلاء" السوفييت على كل مكاتب البريد والبرق، وعلى السكك الحديدية، والمطابع ...إلخ، يعني أن عمال ومستخدمي هذه المؤسسات لا يريدون الخضوع لأحد، فيما عدا مجلس السوفييت.

وقد اشتهرت شكوى شيدلوفسكي بصورة هائلة بواقعة حدثت إبان المفاوضات حول موضوع السلطة، عندما كانت هذه المحادثات في أوج حيويتها بين زعماء السوفييت والدوما. وقد علق اجتماعهم العام ببيان عاجل صدر من بسكوف -حيث استقر القيصر بعد أن تاه وضل على خطوط السكك الحديدية- يدعو رود زيانكو إلى اتصال هاتفي مباشر بالقيصر. وقد صرح رئيس الدوما القوي القدير أنه لن يذهب إلى مبنى البريد وحده وقال: "فليعطني مندوبو العمال والجنود مفرزة حراسة أو فليأتوا معي، وإلا فإنني سأعتقل عند وصولي إلى المبنى..." واستطرد قائلاً بانفعال: "طبعًا! إنكم تملكون الآن السلطة والقوة. وبوسعكم اعتقالي بالطبع! وربما اعتقلتمونا الآن ما دمنا في الدوما! نحن لا نستطيع أن نؤكد أو ننفي ذلك!" وقد حدث هذا في الأول من مارس (آذار) بعد انقضاء ٤٨ ساعة على استلام رودزيانكو رئاسة اللجنة المؤقتة التي "استلمت" السلطة.

ومع كل هذا فإننا لنتساءل كيف وجد الليبراليون، في مثل تلك الظروف في السلطة؟ ومن (وكيف؟) خولهم حق تشكيل هذه الحكومة المنبثقة عن ثورة يخشونها، وعملوا ضدها، وحاولوا سحقها، هذه الثورة التي حققتها الجماهير التي كانوا يكرهونها، وهذه الثورة التي تمت بجرأة نادرة وبتصميم رائع، وكان مجلس سوفييت العمال والجنود، الذي خرج من صفوفها هو سيد الموقف بالتأكيد؟

ولنستمع الآن إلى الجانب الآخر، وهو الجانب الذي تخلى عن السلطة. فقد كتب سوخانوف عن أيام فبراير (شباط) ما يلي: "لم يكن الشعب ميَّالاً أبدًا إلى مجلس الدوما، وكان لا يهتم به، ولا يفكر أن يجعل منه -من الناحية السياسية أو التقنية- مركزًا لحركته". ويستحق هذا الاعتراف مزيدًا من الانتباه نظرًا لأن سوخانوف بذل كل جهده في الساعات الأولى لنقل السلطة إلى لجنة مجلس الدوما الإمبراطوري. واستطرد سوخانوف قائلاً فيما بعد عن المساومات التي جرت في الأول من مارس (آذار): "وقد فهم ميليوكوف جيدًا أن بوسع اللجنة التنفيذية نقل أو عدم نقل السلطة إلى حكومة من البرجوازية الكبيرة". فهل هناك تعبير أكثر بتًّا وحسمًا من هذا التعبير؟ وهل يمكن لوضع سياسي أن يكون أكثر وضوحًا من هذا الوضع؟ ومع ذلك أدلى سوخانوف بتصريح متناقض تمام التناقض مع الوضع السياسي، ومتناقض مع نفسه أيضًا، قال سوخانوف: "ينبغي أن لا تكون السلطة التي ستحل محل القيصرية إلا سلطة برجوازية... وينبغي أن نتوجه على أساس هذا الاستنتاج. وإلا فإن الانتفاضة ستفشل، وتضيع الثورة". وستضيع الثورة نظرًا لعدم وجود رودزيانكو.

وهكذا قام مقام العلاقات الحية بين القوى الاجتماعية هنا تصور ترسيمي، وُضع بصورة مسبقة، وعبر عنه بتعابير تقليدية: هنا بالطبع يكمن لباب عقائدية المثقفين. وسنرى فيما بعد أن هذه العقائدية لا تنطوي على أية أفلاطونيات، فهي تقوم بوظيفة سياسية واقعية تمامًا، مع أنها معصوبة العينين.

ولم نستشهد بسوخانوف عن طريق المصادفة؛ ففي هذه الفترة لم يكن ملهم اللجنة التنفيذية ووحيها رئيسها تشخيدزه الشريف والريفي المحدود التفكير، بل كان سوخانوف، وهو آخر من تسمح له إمكاناته بالحديث عن قيادة ثورة من الثورات بصورة عامة؛ فهو نصف شعبي، ونصف ماركسي، ومراقب وجداني أكثر من رجل سياسي. وهو صحفي أكثر مما هو ثوري وحجيج أكثر من صحفي. ولم يكن قادرًا على التمسك بأي مفهوم ثوري إلا حتى اللحظة التي ينبغي أن يطبق فيها هذا المفهوم. وقد كان أمميًّا سلبيًّا أثناء الحرب. وقرر منذ اليوم الأول للثورة أن من الواجب فورًا تسليم السلطة والحرب للبرجوازية، وإذا ما قارناه مع الأعضاء الآخرين في اللجنة التنفيذية آنذاك، وجدنا أنه متفوق عليهم كمنظِّر يعرف كيف يُنظِّر لمصلحته، وكيف يدبر الأمور ويجمع المتناقضات. ولكن قوته الرئيسية كامنة في أنه كان يعبر عن الملامح العضوية لهذه الروح التي تجمع أناسًا من كل جنس، يتسمون رغم تباينهم، بالافتقار إلى الإيمان بقواهم الخاصة، والخوف من الجماهير، الموقف الفظ رغم تسامحه إزاء البرجوازية. وكان لينين يقول عن سوخانوف أنه كان واحدًا من أفضل ممثلي البرجوازية الصغيرة. وهذا ما يمكن قوله عنه كأفضل ما قيل عنه لمجاملته.

وقبل كل شيء ينبغي أن لا ننسى هنا أن البرجوازية الصغيرة هذه من نموذج رأسمالي جديد، فهي تضم: مستخدمي الصناعة، والتجارة والمصارف، وموظفي رأس المال **من جهة** والبيروقراطية العمَّالية **من جهة أخرى**، أي هذه الطبقة الثالثة Tries-Etat التي قام الاشتراكي - الديموقراطي إدوارد برنشتاين باسمها بمراجعة المفهوم الثوري لماركس في نهاية القرن الماضي. فلكي نقول كيف تنازلت الثورة العمالية والفلاحية عن السلطة البرجوازية، ينبغي أن نُدخل حلقة وسيطة في تتابع الوقائع السياسية، هي حلقة صغار البورجوازيين الديموقراطيين والاشتراكيين من نموذج سوخانوف، والصحفيين والسياسيين من الطبقة الثالثة الجديدة Tires-Etat الذين كانوا يعلمون الجماهير أن البرجوازية هي الخصم، ولكنهم يخشون فوق كل شيء تخليص الجماهير من سلطة هذا الخصم. ويفسر التناقض بين طابع الثورة وطابع الحكومة التي خرجت منها بالطابع المتناقض للوسط الجديد البورجوازي الصغير - الرأسمالي. وسينكشف لنا تمامًا خلال الأحداث المقبلة للثورة الدور السياسي لديمقراطية البرجوازية الصغيرة من النموذج الجديد. فلنقتصر قبل كل شيء على الحديث عنها ببضع كلمات.

في خلال الانتفاضة، تدخلت أقلية الطبقة الثورية مباشرة، واستمدت قوتها من دعم الأكثرية لها أو من تعاطفها على الأقل. ووضعت الأقلية الفعالة والنشيطة والمقاتلة أكثر عناصرها ثورية وتجردًا عن الذات في الطليعة، وتعرضت لنيران العدو. وكان العمال البلاشفة بالطبع في معارك فبراير (شباط) هم الذين شكلوا المخافر الأمامية. ولكن الوضع يتبدل مع النصر، عندما يبدأ الوضع في الاستقرار سياسيًّا. وعندما حدثت الانتخابات لتشكيل أجهزة الثورة ومؤسساتها دعيت جماهير كثيرة، كما توافدت جماهير أكثر عددًا بكثير من الجماهير التي قاتلت وسلاحها بأيديها. ولا يقتصر هذا الأمر على المؤسسات العامة للديمقراطية كمجلس الدوما البلدي، والزيمستفو، أو المجلس التأسيسي فيما بعد، بل يتعدى ذلك إلى أجهزة الطبقات الشعبية كسوفييتات مندوبي العمال.

وقد دعمت أكثرية العمال الساحقة، والمناشفة، والاشتراكيون - الثوريون، والاشتراكيون غير المنتمين لأحزاب سياسية، دعم كل هؤلاء البلاشفة عندما أصبحت المعركة ضد القيصرية في مرحلة الالتحام. ولكن لم يكن هناك سوى أقلية ضئيلة من العمال فهمت بم يتميز البلاشفة عن غيرهم من الأحزاب الاشتراكية الأخرى. ومع ذلك، رسم كل الكادحين خطَّ فصلٍ واضح كل الوضوح بينهم وبين البرجوازية. وهذا هو الذي حدد الوضع السياسي بعد الانتصار. كان العمال ينتخبون الاشتراكيين، أي كانوا ينتخبون أولئك الذين لم يكونوا معادين للملكية فحسب، بل يعادون البرجوازية أيضًا. وكانوا لا يجدون أي فرق تقريبًا بين الأحزاب الاشتراكية الثلاثة. وكان المناشفة والاشتراكيون - الثوريون يملكون كوادر مثقفة يزيد عددها بشكل لا يقارن عن عدد كوادر الأحزاب الأخرى، وكانت هذه الكوادر تتوافد إلى صفوفهم من كل الجهات، وهذا ما أمَّن لهم احتياطًا

هائلاً من المحرضين؛ لذا أتاحت الانتخابات تفوقًا هائلاً للمناشفة والاشتراكيين - الثوريين، حتى في انتخابات المصانع والمؤسسات.

وسار ضغط الجيش الذي استيقظ من سباته في الاتجاه ذاته ولكن بقوة يتعذر حسابها بصورة أكثر. فقد سارت حامية بتروغراد في اليوم الخامس للانتفاضة خلف العمال. ودُعيت الحامية بعد الانتصار إلى انتخابات مجالس السوفييتات. فأعطى الجنود أصواتهم، ومنحوا ثقتهم لأولئك الذين وقفوا ضد الضباط الملكيين، وإلى جانب الثورة، وعرفوا كيف يقولون ذلك بصوت عالٍ، وكان الذين أدلوا بأصواتهم متطوعين، وكتبة في الجيش، وضباط صحة، وضباطًا شبانًا شُكلوا خلال الحرب وجُندوا من أوساط المثقفين، ومستخدمين صغارًا في الإدارات العسكرية، أي أن الذين صوتوا هم الطبقة الدنيا من "الطبقة الثالثة الجديدة" ذاتها. وقد انتسب معظمهم تقريبًا منذ شهر مارس (آذار) إلى الحزب الاشتراكي - الثوري الذي يتجاوب جموده الفكري أفضل التجاوب مع وضعهم الاجتماعي الوسيط، وقصورهم السياسي. ولقد كان ممثلو الحامية بناء على هذا أكثر اعتدالاً وبرجوازية من كتلة الجنود ذاتها. ومع هذا، لم تكن كتلة الجنود ترى الفرق، هذا الفرق الذي لم يصبح جليًا وواضحًا إلا بعد تجربة الأشهر التالية.

ومن جهة أخرى، كان العمال يريدون توثيق صلاتهم بالجنود وجعلها قوية قدر الإمكان لتعزيز التحالف المُشترى بالدم، ولتسليح الثورة بصورة أكثر قوة. وبما أن آخر أشكال الاشتراكيين - الثوريين هم الذين كانوا يتحدثون باسم الجيش بصورة خاصة، كانت سلطة هذا الحزب وسلطة حلفائه المناشفة تزداد في نظر العمال. وهكذا، تأكدت سيطرة الحزبين الداعيين إلى المصالحة في مجالس السوفييتات. ويكفي أن نقول إن العمال المناشفة قاموا بدور الزعماء في الأيام الأولى، حتى أن زعامتهم امتدت إلى سوفييت دائرة فيبورغ. وكانت البلشفية في هذه الفترة تغلي في أعماق الثورة فقط. ويمثل البلاشفة الرسميون أقلية ضئيلة، حتى في داخل سوفييت بتروغراد، حتى أن هذه الأقلية لم تحدد لنفسها مهمتها بوضوح.

بهذا الشكل تشكلت مفارقة ثورة فبراير (شباط). وسقطت السلطة بين يدي الاشتراكيين - الديموقراطيين. فهم لم يمسكوا بالسلطة عن طريق الصدفة، أو بضربة قوة بلانكية. كلا! لقد سلمت الجماهير الشعبية الظافرة السلطة إليهم. ولا ترفض هذه الجماهير منح ثقتها ودعمها للبرجوازية فحسب، بل إنها لا تفرق بينها وبين الطبقة النبيلة أو البيروقراطية. وتضع هذه الجماهير سلاحها تحت تصرف مجالس السوفييتات فقط. ولكن الهم الوحيد للاشتراكيين الذين وصلوا في منتهى السهولة ليصبحوا على رأس السوفييتات هو معرفة ما إذا كانت البرجوازية، المعزولة سياسيًا، والممقوتة من قبل الجماهير، والمعادية للثورة عداء مرًّا، ستقبل استلام السلطة من بين أيديهم. وينبغي الحصول على موافقتها مهما كان الثمن. ولكن لما كانت البرجوازية غير قادرة بالطبع على التخلي عن برنامجها الخاص، فإن علينا نحن "الاشتراكيين" أن نتنازل عن برنامجنا، وأن نسكت عن الملكية والحرب، والمسألة الزراعية، شريطة أن تقبل البرجوازية هدية السلطة.

وتابع "الاشتراكيون" وكأنهم يسخرون من أنفسهم تسمية البرجوازية بالعدو الطبقي دون أي إضافات أخرى، وهم يكرسون أنفسهم لعملية التنازل عن برنامجها وتسليم السلطة إليها. وعادة ما يتم القيام بالتحريض المدنس في احتفال شبه ديني. إن الصراع الطبقي الذي يُخاض حتى النهاية يستهدف الاستيلاء على السلطة. وإن الخاصية الأساسية للثورة هي دفع الصراع الطبقي إلى نهايته. وإن كل ثورة من الثورات هي بالضبط صراع مباشر في سبيل الاستيلاء على السلطة. بَيْد أن "اشتراكيينا" لا يهتمون بانتزاع السلطة من العدو الطبقي (حسب قولهم)، هذا العدو الذي لا يملك السلطة ولا يستطيع أخذها بقواه الخاصة، بل يهتمون بتسليم السلطة إليه مهما كان الثمن. ألا يشكل هذا الموقف مفارقة من المفارقات؟ وتزداد دهشتنا عندما نعرف أن تجربة الثورة الألمانية في عام ١٩١٨ لم تكن قائمة بعد، وأن الإنسانية لم تكن قد شهدت العملية العجيبة من النوع ذاته، التي نجحت بصورة أفضل، والتي حققتها "الطبقة الثالثة الجديدة" التي تقود الحزب الاشتراكي - الديموقراطي الألماني.

فكيف كان دعاة التوفيقية والمصالحة يفسرون موقفهم؟ كانوا يملكون في بادئ الأمر حجة المذهبيين: بما أن الثورة برجوازية، فإن على الاشتراكيين أن لا يتورطوا باستلام السلطة، وأن على البرجوازية أن تتكفل بنفسها! وكانوا يقولون هذا بلهجة متشددة جدًا. ولكن في الحقيقة، كانت البرجوازية الصغيرة تُخفي تحت ظواهرها المتشددة تزلفها لقوة الثروة، والتعليم والضريبة. وكان صغار البورجوازيين يعترفون للبرجوازية الكبيرة بنوع من الحق الأساسي باستلام السلطة، بصرف النظر عن موازين القوى. كان هذا تقريبًا في جوهره، الحركة الغريزية للبائع الصغير أو الأستاذ المتواضع، الذي يبتعد باحترام، في محطة أو مسرح لمرور... روتشيلد! وكانت حجج المذهبيين تشكل تعويضًا عن وعيهم بعجزهم وعدم أهليتهم. وبعد شهرين عندما أصبح احتفاظ البرجوازية بالسلطة بقواها الخاصة، هذه السلطة التي تنازل الاشتراكيون عنها، تخلى التوفيقيون دون عناء عن حججهم "الاشتراكية" ودخلوا في وزارة ائتلافية. ولم يدخلوا الوزارة ليطردوا البورجوازيين منها، بل على العكس لإنقاذهم. ولم يدخلوا الوزارة ضد إرادة البورجوازيين، بل على العكس دخلوها بناء على دعوة منهم لها **صفة الأمر**، وكانت البرجوازية تهدد الديمقراطية بإسقاط السلطة على رءوسهم في حالة رفضهم.

وكانت حجتهم الثانية التي استندوا إليها لحرف السلطة، حجة عملية في الظاهر، دون أن تكون في جوهرها أكثر جدية. وقد استند سوخانوف، الذي عرفناه في الصفحات السابقة، قبل كل شيء إلى "تناثر" روسيا الديمقراطية، "فلو حكمت الديمقراطية روسيا، لما بقي عندئذٍ تنظيمات متينة ومؤثرة إلى حد ما، ولما بقيت أحزاب أو نقابات، أو بلدية". ولهذا الكلام رنة السخرية! وأما عن سوفييتات مندوبي العمال والجنود، فإن أي اشتراكي يتحدث باسم السوفييتات لم يفه بكلمة عنها، مع أن السوفييتات خرجت من الأرض وأصبحت فورًا أقوى وبصورة لا تقارن من كل التنظيمات الأخرى التي حاولت فيما بعد منافستها (البلديات، والتعاونيات، والنقابات جزئيًا). وفيما يتعلق بالطبقة الفلاحية. وهي قوة مشتتة بطبيعتها، فقد كانت منظمة أكثر مما كانت عليه في أي يوم آخر، بسبب الحرب والثورة؛ إذ جمعت الحرب الفلاحين في الجيش، وأعطت الثورة للجيش طابعًا سياسيًّا! وكان هناك عدد لا يقل عن ثمانية ملايين من الفلاحين جمعوا في سرايا وكوكبات، هذه السرايا والكوكبات التي شكلت فورًا وفودها الثورية، وأصبح بالإمكان إعدادها وتجهيزها بواسطة هذه الوفود، في كل لحظة، وبنِدَاء هاتفي فقط. فهل يشبه هذا الوضع "التناثر" الذي تحدث عنه سوخانوف.

ويمكن القول بالتأكيد إنه في اللحظة التي تقرر فيها مسألة السلطة كان الديموقراطيون لا يعرفون بعد موقف الجيش على الجبهة. ونحن لا نثير هنا مسألة معرفة ما إذا كان هناك دافع حتى ولو كان ضعيفًا للخوف أو الأمل بأن يريد جنود الجبهة الذين أرهقتهم الحرب، دعم البرجوازية الإمبريالية. ويكفي أن نلاحظ بأن هذه المسألة كانت محلولة تمامًا في اليومين أو الثلاثة أيام التي استخدمها التوفيقيون لإعداد الحكومة البرجوازية في الكواليس. وقد اعترف سوخانوف بما يلي: "انتهت الانتفاضة بصورة سعيدة في ٣ مارس (آذار)" ومع أن كل الجيش قد أعلن انضمامه للسوفييتات، فإن قادته رفضوا السلطة بكل قواهم؛ فقد كانوا يخشونها بمقدار ما كانت تتركز كاملة بين أيديهم.

ولكن لماذا حدث هذا إذن؟ كيف أمكن للديموقراطيين، و"الاشتراكيين" الذين اعتمدوا مباشرة على مثل هذه الجماهير البشرية التي لم تعرف أية ديمقراطية في التاريخ مثلها في حاشيتها، واستندوا إلى جماهير مزودة بتجربة هائلة، وجماهير منضبطة ومسلحة، ومنظمة في سوفييتات. كيف أمكن لهذه الديمقراطية القوية التي لا تتزعزع كما كان واضحًا، أن تخشى الاستيلاء على السلطة؟ وتفسير هذا اللغز الذي يبدو دقيقًا لأول وهلة هو أن الديمقراطية لم تكن تثق بدعمها الخاص، وكانت تخاف من الجماهير، وتشك في قوة الثقة التي منحتها لها الجماهير وصلابتها، وكانت ترهب "الفوضى" بصورة خاصة، أي أنها كانت تخشى، بعد أن قطفت السلطة، أن تصبح عند ممارستها لعبة بين يدي ما يسمى بالعناصر الهائجة. وبعبارات أخرى، كانت الديمقراطية لا تحس بأنها مدعوة لاستلام قيادة الشعب، في لحظة المد الثوري، بل معينة كجناح يساري للنظام

البورجوازي، ونوعًا من الهوامش لهذا النظام ممدود باتجاه الجماهير. كانت تقول عن نفسها وتعتبر نفسها اشتراكية لا لتحجب دورها الفعلي عن الجماهير فحسب، بل لتحجب هذا الدور أيضًا عن يمينها؛ فلو أنها لم تثمل هكذا بذاتها، لما استطاعت أن تلعب هذا الدور. هذا هو تفسير المفارقة الرئيسية لثورة فبراير (شباط).

وفي مساء الأول من مارس (آذار) ذهب مبعوثو اللجنة التنفيذية تشخيدزه، ستيبكلوف، وآخرون إلى جلسة لجنة مجلس الدوما لمناقشة شروط دعم السوفييتات للحكومة الجديدة. وسكت برنامج الديموقراطيين عن مسألة الحرب سكوتًا تامًّا، كما أسقط مسألة إعلان الجمهورية، وتوزيع الأراضي، وتحديد يوم العمل بثماني ساعات، ولم يتوصل إلا إلى مطلب واحد ووحيد: هو **مطلب حرية التحريض بالنسبة للأحزاب اليسارية**. وكم كان مثلاً حسنًا في التجرد بالنسبة للشعوب وللقرون أن نرى الاشتراكيين الذين يملكون كل السلطة، ويرتبط بهم منح حرية التحريض للآخرين أو رفضها ارتباطًا كاملاً، يتنازلون عن السلطة "لأعدائهم الطبقيين" شريطة أن يكيل هؤلاء لهم الوعود... حرية التحريض! إن رودزيانكو لم يكن ليجرأ على الذهاب إلى مبنى البريد، وكان يقول لتشخيدزه ولسوخانوف: "إن السلطة بين أيديكم، وبوسعكم اعتقالنا جميعًا". ورد عليه تشخيدزه وسوخانوف: "استلموا السلطة ولكن لا تعتقلونا لتجعلوا منا أدوات للدعاية". وإذا درسنا مساومات دعاة المصالحة والتوفيقية مع الليبراليين، وكل وقائع العلاقات المتبادلة بين الجناح اليساري والجناح اليميني لقصر توريد في تلك الأيام، لقلنا إن مجموعة من الممثلين الريفيين استفادوا من زاوية خالية على المسرح ومن استراحة بين مشاهد المسرحية ومثلوا مشهدًا خفيفًا ممجوجًا بلباس تنكري على المسرح الهائل الذي كانت تجري فوقه مأساة شعبية تاريخية.

لم يكن زعماء البرجوازية يتوقعون مثل هذا، وهذا حق ينبغي أن نعترف به. وربما كان خوفهم من الثورة أقل من الخوف الذي أحسوا به لو أنهم حسبوا أن زعماءها سيطبقون مثل هذه السياسة، ولارتكبوا والحق يقال خطأ في الحساب في هذه الحالة، ولكن هذا الخطأ خطأ مشترك بينهم وبين زعماء الثورة. وخشي الليبراليون أن لا توافق البرجوازية على استلام السلطة حتى في الشروط المقترحة؛ لذا قدم سوخانوف إنذارًا تهديديًّا، قال فيه: "لا يمكن لأحد غيرنا السيطرة على العناصر الثائرة.... ليس هناك إلا مخرج واحد: هو أن تقبلوا شروطنا". وبعبارات أخرى، كان إنذار سوخانوف يقول: "اقبلوا برنامجًا هو برنامجكم أيضًا. ولكننا نعدكم بالمقابل بكبح الجماهير التي أعطتنا السلطة"، وكم كانوا مروضين مساكين للعناصر الثائرة!

واعترت ميليوكوف الدهشة من هذه الأحداث، وكتب عنه سوخانوف يقول: "لم يكن يفكر أبدًا في إخفاء رضاه ودهشته. ولكن عندما أضاف مندوبو السوفييت أن شروطهم كانت "نهائيَّة" كيما يعطوا لأقوالهم وزنًا أكبر، أصبح ميليوكوف عاطفيًّا وشجعهم بالجملة التالية: "نعم لقد سمعتكم جيدًا، وفكرت كثيرًا بعد ذلك قائلاً لنفسي كم تقدمت حركتنا العمالية منذ عام ١٩٠٥..." وكانت نغمته هي نفس النغمة السمحة التي استخدمها تماسيح دبلوماسية الهوهنزولرن عندما كانوا يتفاوضون، في بريست - ليتوفسك مع مندوبي الرادا الأوكرانية وهم يقدمون لهم الاحترام لنضوجهم كرجال دولة قبل أن يبلعوهم. فإذا لم تتمكن البرجوازية الروسية من بلع الديمقراطية السوفييتية، فلا يعود الفضل في هذا إلى سوخانوف، كما أنه لا يعود لخطيئة ارتكبها ميليوكوف.

واستلمت البرجوازية السلطة من وراء ظهر الشعب. وكانت لا تملك أي دعم في أوساط الطبقات العاملة. ولكنها استلمت مع السلطة وباليد الثانية شيئًا آخر كدعم لها، فقد سلَّم المناشفة والاشتراكيون ـــ الثوريون الذين دفعتهم الجماهير للانتفاضة، تفويضًا بالثقة للبرجوازية. فإذا اعتبرنا هذه العملية من زاوية الديمقراطية الصورية، تشكلت لدينا لوحة انتخابات على درجتين، أخذ فيها المناشفة والاشتراكيون – الثوريون الدور التقني للوسطاء، أي لناخبي الدرجة الأولى. وإذا اعتبرنا المسألة من وجهة نظر سياسية، استطعنا أن نقول إن التوفيقيين خانوا ثقة الجماهير بدعوتهم إلى السلطة، أولئك الذين رفعهم

الشعب إلى سدة السلطة ليقفوا ضدهم. وأخيرًا من وجهة نظر اجتماعية أعمق، فإن المسألة تُطـــرح بالـــشكل التـــالي: أحـــست الأحزاب البرجوازية الصغيرة، التي كانت تبدو في شروط الحياة اليومية مدَّعية وراضية عن نفسها بصورة غريبة، أحست هذه الأحزاب عندما حملتها الثورة إلى قمة السلطة بالقلق من عجزها. فسارعت بنقل المِقْوَد إلى ممثلي رأس المال. وفي هذا العمـــل العاجز برزت فجأة عدم صلابة الطبقة الثالثة Tiers-Etat المروع، وارتباطها المذل بالبرجوازيـــة الكبيـــرة. وبعـــد أن فهـــم الديموقراطيون أو أحسوا فقط أنهم لن يكونوا قادرين على الاحتفاظ بالسلطة لمدة طويلة، وأنهم سيتنازلون عنها، سواء لليمين أو لليسار، استنتجوا بأن من الأفضل لهم تسليم هذه السلطة في اليوم ذاته إلى ليبراليين أقوياء بدلاً من أن يسلموها في الغـــد إلـــى الممثلين المتطرفين للبروليتاريا. وبعد أن أوضحنا دور التوفيقيين بهذا الشكل مهما كان تقييمه الاجتمـــاعي، فإنـــه لا يعـــدُو أن يكون خيانة للجماهير.

وبعد أن منح العمال والجنود ثقتهم للاشتراكيين، وجدوا أنفسهم بصورة لم يتوقعوها وقد تمت تـــصفيتهم مـــن الناحيـــة السياسية. فتشوشوا وجزعوا ولكنهم لم يجدوا المخرج فورًا. وقد أذهلهم المنتخبون من قبلهم بحجج لم يكـــن لـــديهم عليهـــا أي جواب جاهز، ولكنها كانت تخالف كل مشاعرهم وأهدافهم. وكانت الاتجاهات الثورية للجماهير لا تتطابق أبدًا، عنـــد انتفاضـــة فبراير (شباط) مع الاتجاهات التوفيقية للأحزاب البرجوازية الصغيرة. ولم يصوت البروليتاري والفـــلاح لـــصالح المنـــشفي أو الاشتراكي – الثوري، على اعتبارهما توفيقيين، بل انتخباهما وصوتا إلى جانبهما كعدوين للقيـــصر، وللمـــلاك، والرأســـمالي. ولكنهما عندما صوتا لصالح هذين الأخيرين، أقاما فاصلاً بينهما وبين أهدافهما. ولم يعد بوسعهما التقدم أبدًا إلـــى الأمـــام دون الاصطدام بالفاصل الذي أقاماه بأيديهما ودون أن يقوضاه. ذلك هو الخلاف في العلاقات الطبقية الذي أبرزتـــه ثـــورة فبرايـــر (شباط).

* * *

وأضيف إلى المفارقة الرئيسية مفارقة أخرى فورًا. فقد كان الليبراليون موافقين على قطف الـــسلطة مـــن بـــين يـــدي الاشتراكيين شريطة أن تقبل الملكية استلامها من أيديهم.

وبينما ذهب غوتشكوف، مع الملكي شولغين، الذي عرفه القارئ في الصفحات السابقة إلى بسكوف لينقذ الأسرة المالكة، أصبحت مسألة الملكية الدستورية محور المفاوضات بين لجنتي قصر توريد. وسعى ميليكوف جهده كيما يبرهن للديموقراطيين، الذين قدموا له السلطة على راحة اليد، على أن أسرة رومانوف لا يمكن أن تشكل أي خطر بعـــد الآن، وأن مـــن الـــضروري بالطبع إقصاء نيقولا والتخلص منه، ولكن الكسيس ولي العهد يستطيع، تحت وصاية شقيق القيصر الأميـــر ميخائيـــل ضـــمان الرخاء في البلاد؛ "فأحدهما طفل مريض، والآخر نذل". ولنضف إذن إلى هذا الوصف الخاص الذي أعطاه شيدلوفسكي الملكـــي الليبرالي للمرشح لمنصب الوصي على عرش القيصر: "كان ميخائيل الكسندروفيتش يتجنب بكل الصور التـــدخل فـــي مـــسائل الدولة، مهما كانت، ويكرس كل طاقاته لرياضة الفروسية". فكم كانت توصية ترشيحه للوصاية على العرش أو لاستلام العرش نفسه مدهشة، وخاصة إذا ما أريد دعمها أمام الجماهير. وعندما فر لويس السادس عشر إلى فارين، صرح دانتون بكبرياء أمام اليعاقبة، أن رجلاً يتمتع بفكر سقيم لا يستطيع أن يكون ملكًا. ولكن الليبراليين الروس كانوا يعتقدون على العكـــس أن ملكـــًا ذا فكر ضعيف هو أجمل زينة للنظام الدستوري. وعلى كل حال، كانت هذه الحجة غير مبالغ فيها، ومحسوبة على أساس نفـــسية أغبياء اليسار، وكانت فظة جدًا بالنسبة إليهم أيضًا. ونشر في الدوائر الواسعة للبرجوازية الليبرالية أن ميخائيل الكـــسندروفيتش رجل "إنكليزي العادات" دون أن يوضحوا ما إذا كانت عاداته الإنكليزية متعلقة بسباق الخيول أو النظام البرلماني. وكان المهـــم بالنسبة إليهم هو وجود "رمز مألوف للسلطة" إذا فُقد هذا الرمز تصور الشعب أن السلطة غير موجودة.

وكان الديموقراطيون يستمعون ويراقبون كل هذا بإعجاب وتهذيب. فهل نصحوا... بإعلان قيام الجمهورية؟ كلا، ينبغي أن لا نسبق الأحداث حول هذه المسألة. فالمادة الثالثة من شروط اللجنة التنفيذية تقول صراحة بما يلي: "ينبغي أن لا تقوم الحكومة المؤقتة بأية حال من الأحوال بخطوات تحدد مسبقًا شكل الحكومة المقبل". وكان ميليوكوف يطرح مسألة الملكية كإنذار. وكان الديموقراطيون في حالة يأس. ولكن الجماهير هرعت عندئذ لمساعدتهم، وفي الاجتماعات التي انعقدت في قصر توريد، لم يكن هناك شخص أو عمال أو جنود يريدون قيصرًا، ولم تكن هناك أية وسيلة لفرض أي قيصر عليهم. ومع كل هذا حاول ميليوكوف معاكسة التيار، وإنقاذ العرش والأسرة المالكة من فوق رءوس حلفائه اليساريين.

وقد أشار ميلكوف في كتابه "تاريخ الثورة" بنوع من الاحتراس، إلى أن الاضطراب الذي أحدثه بيانه في مساء ٢ مارس (آذار) حول موضوع وصاية ميخائيل "قد ازداد لدرجة هائلة". وقد رسم رودزيانكو بألوان حية الأثر الذي أحدثته مكائد الليبراليين الملكية على الجماهير. وما أن عاد غوتشكوف من بسكوف، بعد أن حصل على وثيقة تنازل نيقولا لصالح ميخائيل، حتى انتقل بناء على طلب عمال السكك الحديدية، إلى ورشات السكك، ووصف ما حدث، وقرأ على الجماهير الوثيقة وأنهاها صائحًا: "عاش الإمبراطور ميخائيل!" واعتقل الخطيب فورًا حسب شهادة رودزيانكو، من قبل العمال وقيل إنه هُدد بالإعدام، "وتوصلنا بعد عناء كبير إلى تخليصه بمساعدة سَرِية كانت مناوبة في أحد الأفواج القريبة". وكالعادة، بالغ رودزيانكو في بعض النقاط، ولكنه أعاد تصوير الوقائع في جوهرها بصورة صحيحة. فقد لفظت البلاد الملكية بصورة جذرية حتى أصبحت هذه الملكية عاجزة عن العودة إلى حلق الشعب بأية صورة من الصور؛ فالجماهير الثورية لا تقبل أبدًا بقيصر جديد.

وما أن واجه أعضاء اللجنة المؤقتة هذه الظروف، حتى أخذوا يبتعدون عن ميخائيل واحدًا إثر الآخر، ولكن لم يكن ابتعادهم عنه بصورة نهائية، وإنما "بانتظار انعقاد المجلس التأسيسي". وسنرى ذلك جيدًا. وكان ميليوكوف وغوتشكوف هما الوحيدان اللذان دعما الملكية حتى النهاية، واستمرا في طرح هذا الشرط المبدئي لاشتراكهما في الوزارة. فما العمل؟ فكر الديموقراطيون أنه لن يكون بالإمكان تشكيل حكومة برجوازية بدون اشتراك ميليوكوف، وأنه لن يكون بالإمكان، بدون حكومة برجوازية إنقاذ الثورة. وامتدت المحاورات والمناقشات المضنية إلى ما لا نهاية. ويبدو أن اللجنة المؤقتة في جلستها التي انعقدت في صباح ٣ مارس (آذار) قد انحازت كلها إلى الرأي القائل "بضرورة تنازل شقيق الملك..." فقد كان ميخائيل قد اعتُبِر إذن كالقصر! وكان لدى نيكراسوف -أحد أعضاء الجناح اليساري لحزب الكاديت- نصٌ جاهز لإعلان تنازل شقيق القيصر، ولكن نظرًا لأن ميليوكوف كان يرفض التنازل بعناد، وجدوا أخيرًا بعد جدال مثير الصيغة التالية: "يضع الحزبان أمام شقيق الإمبراطور آراءهما المسببة، ويفوضانه باتخاذ القرار، ويعلقان المناقشة في الموضوع".

وهكذا أصبح الرجل "السخيف" الذي حاول شقيقه البكر الذي خلعته الانتفاضة نقل العرش إليه خلافًا لأعراف السلطة المالكة وتقاليدها، أصبح هذا الرجل حَكَمًا في مسألة شكل الدولة الملائمة لبلد ثائر. ومهما يبدو هذا غير متصور، فإن النقاش والجدال حول مصير الدولة قد وقع فعلاً. وأكد ميليوكوف لشقيق القيصر أن هناك إمكانية كبرى لجمع قوات عسكرية خارج بتروغراد تدافع عن حقوقه كيما يقنعه بالتخلي عن اصطبلاته احترامًا للعرش. وبعبارات أخرى ما أن تلقى ميليوكوف السلطة من أيدي الاشتراكيين حتى وضع خطة انقلاب ملكي. وعندما انتهت الخطب الموالية والمعارضة، التي ألقاها عدد كبير من الأعضاء، طلب شقيق الملك منحه بعض الوقت للتفكير. ودعا رودزيانكو للاجتماع به في غرفة مجاورة لقاعة الاجتماع، وطرح عليه بصراحة السؤال التالي: هل بوسع الزعماء الحاليين أن يضمنوا له العرش ورأسه أيضًا؟ فرد عليه هذا الموظف الملكي -الذي لا مثيل له- إنه لا يستطيع أن يعد الملك إلا بالموت معه إذا اقتضى الأمر.

ولكن هذا لم يكن كافيًا لمدعي السلطة، فبعد أن عانق ميخائيل رومانوف رودزيانكو عاد نحو النواب الذين كانوا ينتظرون، وفسر لهم "بصورة حازمة نوعًا ما" تنازله عن المنصب الكبير الذي عرض عليه، هذا المنصب المرعب الذي قدم

إليه ويخشى استلامه. وعندئذ، تحرك كرنسكي -الذي كان يجسد في هذه المحادثات ضمير الديمقراطية- وقفز من مقعده صائحًا: "إن لسموكم قلبًا نبيلاً!" وأقسم أنه سيذهب لإعلان ذلك في كل مكان. وأبدى ميليكوف ملاحظة خشنة قائلاً: "لم يكن تفخيم كرنسكي منسجمًا مع القرار الدنيء المتبني" وليس بوسع المرء إلا أن يتفق معه حول هذا الرأي. فنص هذا المشهد لا يتطلب بالتأكيد خطبًا تفخيمية. وينبغي أن نكمل المقارنة التي أجريناها حول هذا المشهد مع المسرحية التي تدور في زاوية ميدان قديم، بقولنا بأن المسرح قطع إلى مسرحين ووضعت بينهما الحواجز، فمن الجهة الأولى للمسرح كان الثوريون يستعطفون الليبراليون لإنقاذ الثورة، ومن الجهة الأخرى كان الليبراليون يستعطفون الملكية لإنقاذ الليبرالية.

ودهش ممثلو اللجنة التنفيذية بصورة بالغة من رؤية رجل متنور وحاذق كميليوكوف، يظهر جموحًا ورفضا، ويعاند من أجل بقاء الملكية، ويبدي استعداده أيضًا للتخلي عن السلطة إذا لم يعط بالإضافة إليها أحد أفراد أسرة رومانوف كهدية. ومع كل هذا لم يكن تمسك ميليوكوف بالملكية ناجمًا عن مذهبية أو رومانطيقية، بل على العكس كان تمسكه ناجمًا عن حساب واضح قام به الملاكون الخائفون. ويكمن في صفاقتهم أيضًا ضعفهم الذي لا يداوى. ومما لا شك فيه أنه كان بوسع المؤرخ ميليوكوف أن يتعلل بأن ميرابو أحد زعماء البرجوازية الثورية الفرنسية، حاول أيضًا، في مطلع الثورة الفرنسية، التوفيق بين الثورة والملك. وهنا نجد أن السبب أيضًا يعود إلى خوف الملاكين على ملكياتهم؛ فمن التعقل أكثر وضعها في حماية الملكية، في الوقت الذي تقف فيه الملكية تحت غطاء الكنيسة. ولكن في عام ١٧٨٩، بقي تقليد السلطة الملكية في فرنسا معترفًا به من كل الشعب، هذا إذا لم نأخذ بعين الاعتبار أن كل الدول الأوروبية المجاورة لفرنسا، إبان الثورة، كانت ملكية. وعندما تمسكت البرجوازية الفرنسية بالملك، كانت تتمسك بالبقاء على الأرضية نفسها مع الشعب، وكانت تجد مبرراتها لدى الشعب ضد نفسها على الأقل.

وكان الوضع في روسيا في عام ١٩١٧ مختلفًا كل الاختلاف. وبصرف النظر عن المآسي والمثالب التي تعرض لها النظام الملكي في بلدان مختلفة، كانت الملكية الروسية قد تصدعت منذ عام ١٩٠٥، ولم يعد رأب هذا التصدع ممكنًا. وبعد ٩ يناير (كانون الثاني) حَرم البابا غابون القيصر و"عائلته من الملعونين". وكان سوفييت مندوبي العمال الذي تشكل في عام ١٩٠٥ يقف على أرضية جمهورية. وظهر أن مشاعر طبقة الفلاحين الموالية للملكية، والتي اعتمدت عليها القيصرية خلال فترة قصيرة، واتخذتها البرجوازية حجة ومبررًا لتغطية ولائها الخاص للملكية، ظهر أن هذه المشاعر لا وجود لها. وكانت الثورة المضادة المؤيدة للحرب -والتي ظهرت بوضوح ابتداء من تاريخ مغامرة كورنيلوف- تُعلن عن رفضها الجازم للسلطة القيصرية، رغم انبثاق جزء كبير من هذا الرفض عن المراءاة والخبث؛ فقد فقدت الفكرة الملكية جذورها في الشعب.

ومع ذلك، فإن ثورة ١٩٠٥ ذاتها، التي وجهت ضربة مميتة للنظام الملكي، كانت تقوم بتخريب الاتجاهات الجمهورية للبرجوازية "المتقدمة". وقد تحقق هذان التطوران التكميليان، الواحد مع الآخر. ومنذ الساعات الأولى لثورة فبراير (شباط) تعلقت البرجوازية التي أحست بأنها تغرق، بقشة. وكانت بحاجة للملكية، لا لأنها تشترك بهذا الإيمان مع الشعب، بل على العكس، لأنها لا تستطيع مجابهة القناعات الشعبية بشيء آخر غير شبح متوج. وتقدمت الطبقات "المتعلمة" في روسيا على أرض الثورة لا كمبشرات بقيام دولة عقلانية، بل كبطلات لمؤسسات من مؤسسات القرون الوسطى، وحاولت أن تفتش عن السند فوقها؛ لأنها لم تكن تملك أية نقطة استناد في الشعب، أو في ذاتها.

لقد كان أرخميدس يدعي أن بوسعه رفع الأرض، لو أُعطي نقطة استناد. وكان ميليكوف على العكس، يفتش عن نقطة استناد ليمنع تقويض الملكية وقلبها. وفي هذه النقطة كان يحس بأنه أقرب إلى جنرالات القيصر الهرمين، وإلى أصحاب المقامات الرفيعة في الكنيسة الأرثوذكسية، من قربه للديموقراطيين المستأنسين الذين لم يكونوا يهتمون إلا بمجاملة الليبراليين. وقد وجد ميليكوف نفسه عاجزًا عن إحباط الثورة، فراح يغرر بها ويكيد لها. وكان مستعدًا لقبول أمور كثيرة؛ كالحريات المدنية للجنود، والبلديات الديمقراطية، والمجلس التأسيسي، شريطة أن تترك له نقطة استناد أرخميدس: وهي الملكية. وكان

يخطط ليجعل من الملكية المحور الذي يتجمع حوله الجنرالات، والبيروقراطية المجددة، وأمراء الكنيسة، والملاكون، وكل المستائين من الثورة، وذلك بصورة تدريجية وخطوة أثر خطوة، ومبتدئًا "برمز". كما كان يخطط لخلق كابح ملكي حقيقي بصورة تدريجية تتزايد مع تعب الجماهير من الثورة. ولم يكن الهدف بالنسبة إليه سوى كسب الوقت.

وفسر نابوكوف، وهو زعيم آخر من زعماء حزب الكاديت، فيما بعد الميزة الأساسية التي كان من الممكن الحصول عليها لو أن ميخائيل قَبِل العرش: "استبعاد المسألة القاتلة الخاصة بدعوة مجلس تأسيسي في زمن الحرب". وعلينا أن نحفظ هذه الكلمات: فقد اتخذت المعركة القائمة لتأجيل انعقاد المجلس التأسيسي من موعد إلى آخر أهمية كبيرة في الفترة الواقعة بين فبراير (شباط) وأكتوبر (تشرين الأول). وتابع زعماء الكاديت بإصرار وعناد سياسة الشعوذة في هذه المعركة، مع إنكارهم بصورة مطلقة أن فكرتهم كانت تأجيل استدعاء ممثلي الشعب. ولكن وا أسفاه! كان عليهم أن لا يعتمدوا إلا على أنفسهم بلجوئهم إلى هذا الأسلوب، ولم يتهيأ لهم الاحتماء خلف الملكية في نهاية المطاف. وبعد فرار ميخائيل، لم يعد بإمكان ميليوكوف أن يتعلق حتى بقشة.

السلطة الجديدة

لم يكن بوسع البرجوازية الروسية المعزولة عن الشعب، والمرتبطة برأس المال النقدي الأجنبي بصورة أوثق بكثير من ارتباطها بالجماهير العاملة في بلدها، والتي ظهرت بصورة متأخرة على المسرح، ووقفت تعادي الثورة التي حققت الانتصار، لم يكن بوسع هذه البرجوازية بنفوذها وحده أن تجد أي سبب يبرر ادعاءاتها بالسلطة. ومع ذلك كان وجود قاعدة مبرَّرة أمرًا ضروريًّا، لأن الثورة لم تخضع الحقوق الموروثة لرقابة قاسية فحسب، بل أخضعت الادعاءات الجديدة. وكان رودزيانكو رئيس اللجنة المؤقتة، الذي كان على رأس بلد ثائر في الأيام الأولى بعد الانتفاضة، أقل الناس قدرة على طرح الدوافع المقنعة أمام الجماهير.

كان رودزيانكو غلامًا في القصر في ظل الكسندر الثاني، ثم أصبح ضابطًا في فوج خيَّالة الحرس، ثم مارشالاً يمثل طبقة النبلاء في المناطق، وموظفًا في حاشية نيقولا الثاني، ثم غدا ملكيًّا متعصبًا للنظام الملكي، وإقطاعيًّا غنيًّا وعضوًا مؤثرًا في الزيمستفو، وعضوًا في الحزب الأكتوبري، ومندوبًا في مجلس الدوما الإمبراطوري، ثم انتخب فيما بعد رئيسًا لمجلس الدوما. وقد انتخب لرئاسة مجلس الدوما بعد أن جُرد غوتشكوف من سلطاته الكاملة لأنه كان مكروهًا في البلاط، ومعتبرًا من المتحمسين لحركة "تركيا الفتاة"، وكان مجلس الدوما يأمل عن طريق هذه الشخصية الوصول بسهولة أكبر إلى قلب الملك.

كان رودزيانكو يفعل كل ما بوسعه، وكان يؤكد للقيصر إخلاصه للأسرة المالكة بدون خبث أو مراءاة، ويطلب تقديمه لولي العهد الوريث كدليل على إخلاصه، ويتبجح أمام ولي العهد بأنه "أضخم وأقوى رجل في روسيا كلها". ورغم هذه المداعبات البيزنطية، لم يستطع اكتساب القيصر في مسألة الموافقة على الدستور. وكانت زوجة القيصر تسمي رودزيانكو في رسائلها بصورة موجزة بالسافل. وخلال الحرب، نقل رئيس مجلس الدوما من دون شك دقائق مزعجة للقيصر؛ إذ وضعه في مآزق حرجة، بتحذيرات مشوشة وجهها إليه، وبالنقد الوطني والتنبؤات الغامضة. وكان راسبوتين يعتبر رودزيانكو خصمه الشخصي. وكان كورلوف أحد زعماء شلة القصر يتحدث عن "الوقاحة" الطبيعية التي يتصف بها رودزيانكو بالإضافة إلى "فكره الضيق". أما ويت فكان يتحدث عن رئيس الدوما بتسامح أكبر، ولكن دون أن يمتدحه: "ليس رودزيانكو شخصًا بليدًا، إنه معقول إلى حد ما. ومع ذلك لا تكمن صفته الرئيسية في فكره، بل في صوته، إن له صوتًا جهوريًّا". وحاول رودزيانكو في بادئ الأمر التغلب على الثورة بواسطة خراطيم رجال الإطفاء. وبكى عندما علم بأن حكومة الأمير غاليتزين قد تخلت عن موقعها. ورفض مذعورًا السلطة التي قدمها له الاشتراكيون، ثم قبِل استلامها، ولكنه قَبل استلامها، كمواطن أمين، ليعيد السلطة الضائعة للملك في أول فرصة تسنح له. وإذا كانت هذه الفرصة لم تسنح، فإن ذلك لم يكن بسبب خطأ ارتكبه رودزيانكو. وبالمقابل، أتاحت الثورة لرودزيانكو، بفضل مساعدة الاشتراكيين أنفسهم القدرة الواسعة على استخدام صوته الجهوري أمام الأفواج الثائرة.

وكان رودزيانكو رئيس سرايا الحرس قد صرح بتاريخ ٢٧ فبراير (شباط) لأحد أفواج الخيالة الذي ظهر في قصر توريد: "أيها المحاربون الأرثوذوكس، اسمعوا نصيحتي، إني رجل كبير السن ولن أحاول خداعكم، استمعوا إلى الضباط فهم لن يعلمونكم شيئًا سيئًا، وسيقررون كل شيء باتفاق كامل مع مجلس الدوما الإمبراطوري. فلتعش روسيا المقدسة!". وكان كل ضباط الحرس مستعدين لقبول مثل هذا التحول. ولكن الدهشة أصابت الجنود؛ لماذا ينبغي أن يستمعوا إلى الضباط؟ كان رودزيانكو يخشى الجنود والعمال، ويعتبر تشخيدزه ورجال اليسار الآخرين عملاء لألمانيا، وكان ينظر حوله في كل لحظة، بعد أن وُضع على رأس الثورة، ليرى ما إذا كان مجلس السوفييت سيعتقله.

إن شخصية رودزيانكو مضحكة بعض الشيء، ولكنها لا تخلو من التفكير. ولهذه الشخصية صوت جهوري رائع وهي تمثل تحالف طبقتين حاكمتين في روسيا؛ الملاكون النبلاء، والبرجوازية، وينضم إليهما الإكليروس التقدمي. وكان رودزيانكو ذاته تقيًّا جدًا؛ فقد تعلم الأغاني الدينية، في حين كان البورجوازيون الليبراليون، بصرف النظر عن رأيهم في الأرثوذكسية، يجدون أن التحالف مع الكنيسة ضروري للنظام بقدر ضرورة التحالف مع الملكية.

وكان مظهر الملكي المحترم الذي استلم السلطة من المتآمرين، والمشاغبين، وقتلة الحكام يبدو في هذه الأيام في وضع محزن. ولم يكن وضع الأعضاء الآخرين في اللجنة أفضل من وضعه. وكان بعضهم يتجنب بصورة عامة الحضور إلى قصر توريد، نظرًا لرأيه بعدم جلاء الوضع بعد. وكان أعقل أعضاء اللجنة يسير على رئوس الأصابع حول مخزن حطب الثورة، ويسعل بسبب الدخان، ويقول لنفسه: سنحاول عمل اللحم المشوي عندما ينتهي اشتعال الحطب. ولم تقرر اللجنة فورًا تشكيل الوزارة، بعد قبولها استلام السلطة واكتفت، على حد تعبير ميليوكوف، "بانتظار لحظة تشكيل الحكومة" بتعيين المفوضين من بين أعضاء الدوما، لأعلى المؤسسات الحكومية الكبرى، وتركت اللجنة بهذا الشكل مجالاً لها للتراجع.

وأرسل إلى وزارة الداخلية نائب تافه هو كاراولوف. ولكنه ربما كان أقل جبنًا من الآخرين، وأصدر كاراولوف بتاريخ الأول من مارس (آذار) مرسومًا بانتقال كل موظفي الشرطة العامة أو السرية وأفراد الدرك. وكان لهذه الحركة الثورية الرهيبة طابع أفلاطوني، نظرًا لأنه تم اعتقال أفراد الشرطة قبل صدور كل الأوامر والمراسيم، وكان السجن بالنسبة إليهم الملاذ الوحيد من اقتصاص الجماهير الثائرة. واعتبرت الرجعية بعد فترة طويلة من الزمن العمل التظاهري لكاراولوف بداية كل النكبات.

وعين العقيد أنجلهاردت قائدًا لحامية بتروغراد، وهو ضابط في أحد أفواج الحرس، وملاك اسطبلات لخيول السباق، وسيد إقطاعي كبير. وبدلاً من أن يعتقل أنجلهاردت "الديكتاتور" إيفانوف الذي وصل من الجبهة ليعيد العاصمة إلى صوابها، نراه يضع تحت تصرفه ضابطًا رجعيًّا للعمل كرئيس للأركان: حقًا لقد كان الاثنان من العجينة ذاتها.

وأرسل إلى وزارة العدل ماكلاكوف، وهو نجم من نجوم المحامين الليبراليين في موسكو، وفصيح وفارغ في الوقت ذاته. وقد فهم البيروقراطيون الرجعيون منه في بادئ الأمر أنه لا يريد أن يصبح وزيرًا بفضل الثورة و"ألقى نظرة على رفيق أرسل خصيصًا إلى هناك وهو يدخل"، فقال باللغة الفرنسية: "إن الخطر إلى اليسار".

ولم يكن الجنود والعمال بحاجة لمعرفة الفرنسية ليحسوا أن هؤلاء السادة هم ألد خصومهم.

ومع كل هذا لم يشوش رودزيانكو على رأس اللجنة خلال فترة طويلة. وسقط ترشيحه لرئاسة الحكومة الثورية من تلقاء ذاته؛ فقد كان الوسيط بين الملاكين والملكية غير قادر بالطبع على القيام بالدور ذاته بين الملاكين والثورة. ولكن لم ينزل من على خشبة المسرح أبدًا، وبقي يعاند في محاولة إثارة الدوما كوزن معاكس للسوفييت، وبقي مركزًا لكل محاولات الثورة المضادة التي قام بها البورجوازيون والملاكون. وسنعود للحديث عنه في الصفحات التالية.

وفي الأول من مارس (آذار) اهتمت اللجنة المؤقتة بتشكيل مجلس وزراء، ووضعت في مقدمة لائحة الترشيح الشخصيات التي أوصى بها القيصر مرارًا منذ عام ١٩١٥، كشخصيات تتمتع بثقة البلاد، من كبار المزارعين والصناعيين، ومندوبي المعارضة في الدوما، وزعماء الكتلة التقدمية. حتى كأن الثورة التي قام بها العمال والجنود لم يكن لها أي أثر على

تشكيل الحكومة الثورية، فيما عدا استثناء وحيد تقريبًا. وكان هذا الاستثناء هو كرنسكي. وكان رودزيانكو - كرنسكي وامتدادهما وشمولهما يعبران عن ثورة فبراير (شباط).

وقد دخل كرنسكي في الحكومة، كسفير مفوض فوق العادة إذا أمكننا أن نقول ذلك، ومع ذلك، فإن موقفه إزاء الثورة كان موقف محامٍ يعمل في الأرياف وانتقل منها وبدأ بالمرافعة في القضايا السياسية. ولم يكن كرنسكي ثوريًّا، بل كان يحتك بالثورة ويتصل بها فقط. وأصبح كرنسكي رئيسًا لمفرزة الترودوفيكيون (العماليون). وهي ثمرة ضعيفة لزواج سياسي تم بين الليبرالية والشعبية.

ولم يكن كرنسكي يملك إعدادًا نظريًّا، أو انضباطًا سياسيًّا، أو قدرة على التعميمات، أو إرادة كسياسي. وقد استبدلت كل هذه الصفات بانفعالية شاردة، وبغليان سهل، وببلاغة لا تؤثر على الفكر أو الإرادة، بل تؤثر على الأعصاب. ولقد ألقى كرنسكي في مجلس الدوما، خطبًا مشبعة بفكر راديكالي مفخم لا يخلو من الدوافع، استحق عليها الشهرة لكنها لم تجعله شعبيًا. وخلال الحرب كان كرنسكي يعتبر وطنيًا، وكان يرى مع الليبراليين أن فكرة الثورة ذاتها تؤدي إلى الضياع. واعترف بالثورة عندما وقعت. وحملته الثورة إلى أعلى المناصب عندما تعلق بشعبيته الظاهرية. وتجسدت الانتفاضة بالطبع بشخصه في السلطة الجديدة.

وقد قررت اللجنة التنفيذية مع ذلك أن من الواجب إعطاء السلطة للبرجوازية في ثورة برجوازية. وكانت هذه الصيغة تبدو خاطئة لكرنسكي لأنها تغلق عليه باب الوصول إلى الوزارة. وكان مقتنعًا تمامًا بما يلي: إن إيمانه بالاشتراكية لن يمنع الثورة البرجوازية، كما أن الثورة البرجوازية لن تسبب أي ضرر لمبدئه الاشتراكي. وقررت اللجنة المؤقتة لمجلس الدوما محاولة انتزاع النائب الراديكالي من السوفييت، وتوصلت إلى تحقيق ذلك دون عناء؛ إذ اقترحت عليه استلام حقيبة وزارة العدل، التي تسنّى لماكلاكوف الوقت الكافي للتنازل عنها. وكان كرنسكي يوقف أصدقاءه في الممرات ويسألهم: هل أقبل الوزارة أم لا؟ وكان هؤلاء الأصدقاء على ثقة من أن كرنسكي قد قرر القبول. ولاحظ سوخانوف، الذي كان آنذاك ميَّالاً لكرنسكي في مذكراته التي كتبها فيما بعد، لاحظ في كرنسكي ما يلي: "ضمانة القيام بمهمة من المهمات... والتصرف بخشونة وفظاظة إزاء الذين لم يتنبئوا له بهذه المهمة". وأخيرًا نصح الأصدقاء، ومنهم سوخانوف، كرنسكي بقبول الحقيبة الوزارية؛ فسيكون ذلك أضمن، وسيكون لديهم رجل يعمل لنفسه لمعرفة ما يجري لدى هؤلاء الخبثاء من الليبراليين. ولكن زعماء اللجنة التنفيذية، وهم يدفعون كرنسكي بصوت منخفض إلى ارتكاب الإثم القاتل الذي كان يطمح إلى ارتكابه بكل قواه دون مساعدتهم، كانوا يرفضون منحه موافقة رسمية؛ لأن اللجنة التنفيذية كانت قد أعلنت رأيها، كما ذكر سوخانوف كرنسكي بذلك، وأصبح "من الخطر" طرح المسألة أمام السوفييت الذي يستطيع الرد ببساطة: "إن السلطة من حق الديمقراطية السوفييتية".

ذلك هو حرفيًّا سرد سوخانوف ذاته، وهو تركيب غير معقول من السذاجة والوقاحة. واعترف ملهم كل كوميديا السلطة المقدسة بصراحة أن سوفييت بتروغراد كان مستعدًا منذ ٢ مارس (آذار) لاستلام السلطة التي هي من حقه بحكم الأمر الواقع منذ مساء ٢٧ فبراير (شباط)، وأن الزعماء الاشتراكيين نزعوا هذه السلطة من أيدي السوفييت لصالح البرجوازية من وراء ظهر العمال والجنود، وبدون معرفتهم وضد إرادتهم الفعلية. واكتسبت الصفقة المعقودة بين الديموقراطيين والليبراليين في رواية سوخانوف كل الظواهر القانونية الضرورية لجريمة مرتكبة ضد الثورة، ولمؤامرة سرية ضد السلطة وحقوق الشعب.

وفيما يتعلق بعدم صبر كرنسكي، كان زعماء اللجنة التنفيذية يهمسون فيما بينهم أنه ليس من الأدب والحشمة أبدًا لاشتراكي قبول جزء من السلطة من بين أيدي رجال مجلس الدوما الذين استلموا السلطة الكاملة منذ فترة قصيرة من أيدي الاشتراكيين. ولقد كان من الأفضل لو أن كرنسكي فعل ذلك تحت طائل مسئوليته الشخصية. والحقيقة، كان هؤلاء السادة

يجدون في كل وضع، وبغريزة عاجزة أكثر المخارج تشويشاً وخطأ. ولكن كرنسكي لم يكن يريد الدخول في الحكومة تحت رداء نائب راديكالي. كان يحتاج إلى رداء كبير لمفوض مطلق الصلاحيات تعطيه له الثورة الظافرة. ولكي لا يتعرض لمعارضة ومقاومة، فإنه لم يطلب موافقة الحزب الذي أعلن انتماءه كعضو فيه، ولا موافقة اللجنة التنفيذية التي يتسنَّم منصب الرئيس فيها.

وطلب كرنسكي الكلام ليدلي بتصريح عاجل دون أن يخطر زعماء مجلس السوفييت في جلسته التي انعقدت بكامل هيئتها، هذا المجلس الذي كان يمثل في تلك الأيام اجتماعًا فوضويًّا، طلب كرنسكي الكلام ليدلي بتصريح عاجل، وطلب منحه الثقة، في خطاب وصفه البعض بأنه مشوش، كما وصفه الآخرون بأنه هيستيري -وليس في هذين الوصفين أي تناقض- وتحدث عن تصميمه الكامل للموت من أجل الثورة وقراره الفوري لاستلام وزارة العدل. وكان يكفي أن يشير إلى ضرورة إصدار عفو سياسي، وإلى ضرورة محاكمة أصحاب المقامات العليا في النظام القيصري؛ لكي يثير عاصفة من التصفيق في مجلس يفتقر إلى التجربة والقيادة. وقد قال شليابنيكوف في ذكرياته ما يلي: "أثارت هذه المزحة لدى كثير من الأشخاص سخطًا عميقًا وكرهًا ضد كرنسكي". ولكن أحدًا لم يرد عليه؛ فبعد أن نقل الاشتراكيون السلطة إلى البرجوازية، تجنبوا إثارة هذه المسألة أمام الجماهير. ولم يحدث أي تصويت. فقرر كرنسكي تفسير التصفيق بأنه منح للثقة. وكان على حق في هذا الأسلوب الذي اتبعه. وكان أعضاء السوفييت من أنصار دخول الاشتراكيين في الوزارة، ووجد كرنسكي في دخولهم خطوة نحو القضاء على الحكومة التي لم يتفق معها، ولو لدقيقة واحدة. ومهما يكن من أمر، فإن كرنسكي قبل بتاريخ ٢ مارس (آذار) منصب وزير العدل، بعد أن قلب العقيدة الرسمية للسلطة. ويرى الأكتوبري شيد لوفسكي "أن كرنسكي كان مسرورًا جدًا من تعيينه. وإنني أذكر تمامًا أنه كان متمددًا في مبنى اللجنة المؤقتة، ويتعلق نفسه بحرارة في أنه سينقل العدالة في روسيا ويحملها على قاعدة لا يمكن لأحد الوصول إليها". وهذا ما برهن عليه كرنسكي بالفعل بعد عدة أشهر في القضية المرفوعة ضد البلاشفة.

ورفض المنشفي تشخيدزه -الذي أراد الليبراليون استنادًا إلى حساب بسيط ومعتمدين على التقليد الدولي- فرض وزارة العمل عليه في لحظة صعبة، رفض هذا المنصب بصورة قاطعة وبقي رئيسًا لسوفييت المندوبين. وكان تشخيدزه مع ذلك من معدن أصلب من معدن كرنسكي، ولكنه أقل بريقًا.

كان ميليوكوف محور الحكومة المؤقتة، مع أنه لم يكن رئيسها. فهو بلا جدال زعيم حزب الكاديت. وقد كتب نابوكوف بعد أن قطع صلاته بميليوكوف قائلاً: "كان ميليوكوف على العموم من طراز غير طراز زملائه في الوزارة كقوة فكرية، وكفرد يتمتع بمعارف عديدة لا ينضب معينها، وفِكر واسع". ثم كتب سوخانوف الذي حمّل شخصية ميليوكوف مسئولية سقوط الليبرالية الروسية، ما يلي: "كان ميليوكوف في ذلك الوقت الوجه المركزي، وروح كل الدوائر السياسية البرجوازية وعقلها... وبدونه لم يكن من الممكن وجود أية سياسة برجوازية في الفترة الأولى من الثورة". ومهما تكن هذه الأحكام متطرفة، فهي تشير إلى تفوق ميليوكوف المؤكد على سياسي البرجوازية الروسية الآخرين. وتكمن قوته فيما يشكل ضعفه أيضًا؛ فقد كان يعبر بصورة كاملة أكثر من الآخرين، وفي لغة السياسة عن مصير هذه البرجوازية، أي عن عجزها التاريخي. وإذا كان المناشفة قد حزنوا لأن ميليوكوف أفسد الليبرالية، فإن بوسعنا أن نقول بصورة أدق أن الليبرالية دمرت ميليوكوف.

فبرغم اتسام ميليوكوف بسُلافية جديدة تؤججها أهداف إمبريالية، فإنه بقي دائمًا نصيرًا بورجوازيًا للغرب. وكان يعتبر انتصار الحضارة الأوروبية في روسيا هدفًا لحزبه، ولكنه كان يخشى الطرق الثورية التي مرت فيها الشعوب الغربية. ولهذا تحوّل ولاؤه للغرب إلى غِيرَة عاجزة إزاءه.

لقد أشادت البرجوازية الإنكليزية والبرجوازية الفرنسية مجتمعًا جديدًا على صورتها. وأتت البرجوازية الألمانية فيما بعد واضطرت خلال فترة طويلة للاكتفاء بحساء من الشوفان الفلسفي. واخترع الألمان كلمة Weltanschauung (رؤية العالم) التي لم يعرفها الإنكليز، أو الفرنسيون. وفي حين كانت الشعوب الغربية تبني عالمًا جديدًا، كان الألمان يتأملون هذا العالم بإمعان. ولكن البرجوازية الألمانية، العاجزة في العمل السياسي، خلقت الفلسفة التقليدية -وليس هذا بحصيلة ضعيفة- ثم جاءت البرجوازية الروسية متأخرة جدًا. حقًا، إن **البرجوازية الروسية**، ترجمت الكلمة الألمانية Weltanschauung إلى الروسية، وأوجدت لها كثيرًا من الكلمات البديلة، بَيْد أنها لم تبرهن بذلك إلا على فقرها الفلسفي القاتل، بالإضافة إلى عجزها السياسي. **وكانت تستورد الأفكار والتقنية بعد أن وضعت على التقنية تعرفة جمركية عالية، كما وضعت على الأفكار حجر الخوف.** وكان ميليوكوف مدعوًا إلى إعطاء تعبير سياسي بمثل هذه الملامح لطابع طبقته.

كان ميليوكوف أستاذ تاريخ في موسكو، ومؤلف عدة كتب علمية، ثم أصبح مؤسسًا لحزب الكاديت الذي اندمج فيه اتحاد الملاكين الليبراليين واتحاد المثقفين اليساريين. ولم يكن ميليوكوف يمارس السياسة كهواية منبثقة عن كبرياء السيادة وسمو الثقافة، تلك الهواية التي اتسمت بها أكثرية السياسيين الليبراليين الروس، بل كان ميليوكوف يمارس مهنته بجدية، ويكفي هذا لإبراز قيمته.

وكان الليبراليون الروس حتى عام ١٩٠٥ يحسون عادة بالإزعاج من كونهم ليبراليين. وكانت صبغة الشعبية، وصبغة الماركسية فيما بعد بالنسبة إليهم اللون الضروري للحماية. ويعبر هذا الاستسلام المُخجل أمام الاشتراكية والذي لا يتسم بأي عمق في واقع الأمر لعدد واسع من الدوائر البرجوازية، وبينهم عدد من صغار الصناعيين، يعبر هذا الاستسلام عن الافتقار إلى الثقة الوثيقة لطبقة ظهرت في الوقت المناسب تقريبًا لجمع الملايين، واستلام قيادة الأمة. وقد كنز الأموال آباء ملتحون وموجيك وأصحاب دكاكين أثروا دون أن يفكروا بدورهم الاجتماعي. وخرج الأبناء من الجامعات في فترة التخمر ما قبل الثوري للأفكار، وعندما حاولوا أن يجدوا لأنفسهم مكاناً في المجتمع، لم يسارعوا إلى العمل تحت عَلَم الليبرالية، الذي أفنته الدول المتقدمة وذهبت كثرة الاستعمال بلونه وغطته بالرقع والشقوق المرتقة. وخلال فترة من الوقت، تخلوا للثوريين عن جزء من نفوسهم، وعن قسط من عائداتهم. وبالإضافة إلى ذلك كان عدد هائل منهم قد مرَّ في سنوات شبابه في مرحلة التعاطف مع الاشتراكية. وهذا يخص ممثلي الحِرف الليبرالية. ولم يُصب الأستاذ مليوكوف بحصبة الاشتراكية. وكان بورجوازيًّا بكل معنى الكلمة، ولم يكن يخجل من ذلك.

حقًا! إن مليوكوف خلال فترة الثورة الأولى لم يكن قد تخلَّى نهائيًّا عن الأمل في الاعتماد على الجماهير الثورية بواسطة الأحزاب الاشتراكية المُستأنسة. ويقول ويت إنه في اللحظة التي كان يشكل فيها حكومته الدستورية، في أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٠٥، ونظرًا لأنه كان يطالب الكاديت "بقطع ذيل الثورة" ردوا عليه بأنهم لا يستطيعون التخلي عن القوة المسلحة للثورة، تمامًا كما لا يستطيع ويت التخلي عن الجيش. والحقيقة، كان هذا الادعاء منذ ذلك الوقت نوعًا من المُزَايدة. فقد كان أعضاء حزب الكاديت يحاولون إرهاب ويت بالجماهير التي يخشونها، كما يسودوا ويسيطروا. وتبعًا لتجربة عام ١٩٠٥ لاحظ مليوكوف أن القوى الحقيقية للثورة -الجماهير- لن تسلم أبدًا سلاحها للبرجوازية -مهما كان تعاطف المجموعات الاشتراكية المثقفة قويًّا- وأن خطرها على البرجوازية سيزداد كلما أصبحت أفضل تسليحًا. وعندما أعلن مليوكوف بصراحة أن العلم الأحمر هو خرقة حمراء، توصَّل إلى رضًى طبيعي عن قصة لم يبدأ قراءتها بصورة جدية.

وكان انعزال الطبقة المسماة بالأنتليجنسيا عن الشعب يُشكل أحد المواضيع التقليدية للصحافة الروسية؛ حيث كان الليبراليون، على عكس الاشتراكيين، يعنون بالأنتليجنسيا كل الأشخاص "المتعلمين" أي الطبقات المالكة. ومنذ أن انكشف هذا

الانعزال وأصبح كاملاً ومهددًا لليبراليين خلال الثورة الأولى عاش أيديولوجيو الطبقات "المتعلمة" كما لو أنهم بانتظـار أبـدي لحكم أخير. وقد عبَّر أحد الكتاب الليبراليين، وهو فيلسوف غير ملتزم سياسيًّا عن خوفه من الجماهير بعنـف مـستميت يُـذكر بالفكر الرجعي الصرعي لدوستويفسكي: "مهما كُنَّا فنحن لا نستطيع أن نحلم باندماج الشعب فحسب، بل ينبغي علينا أيـضًا أن نخشاه أكثر من كل عمليات الإعدام التي تقوم بها الحكومة، وأن نقدس هذه السلطة التي تحمينا لوحدها، بحرابهـا وسـجونها، وتنقذنا من الجنون الشعبي". فهل يستطيع الليبراليون في مثل هذه الإجراءات السياسية أن يحلموا بقيادة شعب ثـوري؟ إن كـل سياسة مليوكوف مطبوعة ببصمة خاتم اليأس. وفي لحظة الأزمة الوطنية، كان الحزب الذي وجد على رأسه مليوكوف يفكـر في تجنب الضربة، لا في توجيهها.

وكان مليوكوف كاتبًا جامد الأسلوب، مُطنبًا، ومضجرًا. وينطبق هذا القول عليه كخطيب. ولـم يكـن شخـصًا يـزين المجالس. وكان من المحتمل أن يكون واحدًا "زائدًا" لو أن السياسي البخيل مليوكوف لم يكن بحاجة لقناع، أو كان لديـه علـى الأقل ملاذ موضوعي يتمثل في تقاليد كبيرة. بَيْد أنه لم يكن يملك حتى تقاليد صغيرة. وللسياسة الرسمية في فرنسا، وهي لباب أنانية البورجوازيين ومكرهم دعمان قويان: التقاليد والبلاغة. وهي تتكامل وتغلف بحجاب واقٍ كل سياسي بورجوازي، حتـى ولو كان هذا السياسي مثل بوانكاريه التافه المتطفل على مواد رأس المال الكبير. وليس من خطأ مليوكوف إذا كان قد افتقر إلى أسلاف سبقوه وحددوا أساليب الاستهواء وإثارة العواطف، وإذا اضطر إلى تطبيق سياسة الأنانية البرجوازية في بلاد تقع علـى حدود أوروبا مع آسيا.

ونقرأ في ذكريات الاشتراكي – الثوري سوكولوف، عن ثورة فبراير (شباط) ما يلي: "إلى جانب مشاعر التعاطف مـع كرنسكي، كان هناك منذ البدء، نفور كبير واضح وغريب في نوعه من ميليوكوف. وإني لا أفهم وما زلت لا أفهم لماذا كـان هذا السياسي المحترم لا يتمتع بأية شعبية إلى هذه الدرجة". ولو أن غير المثقفين فهموا سبب حماستهم لكرنسكي واشـمئزازهم من ميليوكوف، لكفوا عن كونهم غير مثقفين. ولم يكن البورجوازي المتوسط يحب ميليوكوف لأنه كان يعبـر بمعـان نثريـة، متزنة، لا تلوين فيها، عن الجوهر السياسي للبرجوازية الروسية. فعندما ينظر مليوكوف إلى نفـسه فـي المـرآة، يجـد هـذا البورجوازي أنه تافه، وجشع وجبان، ويغضب من مرآته كما يحدث عادة.

وكان مليوكوف يقول بهدوء وثبات، وهو يلاحظ من ناحيته تكشيرات الاستياء من البورجوازي الليبرالـي: "إن رجـل الشارع مغفل". وكان يتكلم دون انفعال، وبلهجة المداعبة تقريبًا، وهو يتمنى أن يقول: إذا لم يفهمني رجل الشارع اليـوم، فلـن يكون ذلك كارثة، لأنه سيفهمني فيما بعد. وكان مليوكوف يعيش هذه الضمانة العميقة من أن البورجوازي لن يخونه، وينقاد إليه وهو يطبق منطق الوضع، نظرًا لعدم وجود أي مخرج آخر. والواقع أن كل الأحزاب البرجوازية، حتى أحزاب اليمين تبعـت زعيم الكاديت بعد انتفاضة فبراير (شباط)، وهي تشتمه أحيانًا وتلعنه أيضًا.

وكان الوضع مختلفًا بالنسبة لسوخانوف السياسي الديموقراطي ذو الطابع الاشتراكي. ولم يكن سوخانوف رجلاً يـسعى لاكتساب الشارع، بل كان على العكس سياسيًّا محترفًا، خبيرًا إلى حد ما بمهنته الصغيرة. أما ذكاؤه فلا يمكن أن يبدو عليه لأن هناك تناقضًا مستمرًا قائمًا يقفز إلى العيون فجأة بين ما كان يريده وما يصل إليه. ولكنه كان خبيثًا يشوش ويـضايق. فلِجَـرِّه ينبغي خداعه لا بإعطائه استقلالاً كاملاً فحسب، بل باتهامه يتجاوز الحدود في القيادة، واتهامه بالاستبداد. وهذا النوع من الكلام يتملقه ويجعله يعتاد على دوره في المجاملة. وفي حديث مع هؤلاء الماهرين في الاشتراكية ألقى مليوكوف جملته القائلـة: "إن رجل الشارع مغفل". كانت تملقًا دقيقًا؛ "ليس هناك أذكياء إلا أنتم ونحن". وكان مليوكوف يضع في هذه اللحظة الحلقة في أنـف أصدقائه الديموقراطيين. ثم أدَّت هذه الحلقة إلى استبعادهم فيما بعد.

ولم تكن شعبية مليوكوف الشخصية تسمح له برئاسة الحكومة؛ فقد تكفل بالشئون الخارجية، التي كانت من اختصاصه في مجلس الدوما.

وكان غوتشكوف وزير حرب الثورة من أكبر رجال الصناعة في موسكو. وقد عرفناه سابقًا فهو ليبرالي منذ شبابه مع استعدادات للمغامرة. ثم أصبح فيما بعد رجل ثقة البرجوازية الكبيرة في عهد ستوليبين خلال فترة سحق الثورة الأولى. وقد أدَّى حل مجلسي الدوما الأولين اللذين كان الكاديت يسيطرون عليهما، إلى انقلاب ٣ يونيو (حزيران) ١٩٠٧، الذي استهدف تعديل حق الانتخاب لصالح حزب غوتشكوف، وهو الحزب الذي قاد فيما بعد مجلسي الدوما الأخيرين حتى قيام الثورة. وفي عام ١٩١١، عندما احتفل في كييف بتشييد ضريح ستوليبين الذي قتله أحد الإرهابيين، وضع غوتشكوف إكليلاً من الزهور وانحنى بصمت إجلالاً واحترامًا، وكانت حركته هذه باسم طبقة كاملة. وكرَّس غوتشكوف كل جهوده بصورة خاصة في الدوما لمسائل "**الطاقة العسكرية**". وكان يتعاون مع مليوكوف في إعداد الحرب. وجمع غوتشكوف الصناعيين تحت شعار **المعارضة الوطنية**، بوصفه رئيسًا للجنة المركزية للصناعات الحربية، دون أن يمنع في الوقت ذاته زعماء الكتلة التقدمية، ومنهم رودزيانكو من "تحقيق الأرباح" في تجهيز المواد العسكرية. وقد نشر أحد الثوريين نصف الأسطورة المرتبطة باسمه عن إعداد ثورة القصر. وكان المدير السابق للشرطة يؤكد بالإضافة إلى هذا أن غوتشكوف "سمح لنفسه في محادثات خاصة فيما يتعلق بالإمبراطور، أن يطلق على القيصر لقبًا مهينًا إلى حد كبير" وهذا معقول جدًا. ولكن غوتشكوف لا يخالف في هذا المجال. فقد كانت زوجة القيصر التقية تكره غوتشكوف، وتوجه إليه إهانات كبيرة في رسائلها وتتمنى له أن يشنق "على أعلى شجرة"، وكانت زوجة القيصر تتمنى هذا المصير لأكثر من شخص في الدولة. ومهما يكن من أمر فإن الذي حيا منحنيًا حتى الأرض جلاد الثورة الأولى، أصبح وزيرًا للحربية خلال الثورة الثانية.

وسمي شينغاريف أحد أعضاء الكاديت وزيرًا للزراعة، وهو طبيب ريفي، أصبح فيما بعد نائبًا في الدوما. وكان أقرب أنصاره إليه يعتبرونه إنسانًا شريفًا دون المتوسط في ذكائه، أو حسب تعبير نابوكوف "مثقف روسي ريفي، لم يخلق للعمل في قيادة الدولة، بل في ناحية أو قسم من الأقسام". وفسدت الراديكالية المحيرة التي اتسمت بها سنوات شباب شينغاريف مدة طويلة، وأصبح همه الرئيسي أن يُظهر للطبقات المالكة نضوجه كرجل دولة. ومع أن البرنامج القديم لحزب الكاديت تحدث عن "نزع إجباري لملكية أراضي الملاكين النبلاء طبقًا لتقدير صحيح" فإن الملاكين لم يحملوا هذا المنهاج على محمل الجد، وبصورة خاصة الآن، خلال سنوات تضخم الحزب. ووجد شينغاريف أن الشيء الأساسي في مهمته هو تأجيل حل المسألة الزراعية بإعطاء الفلاحين الأمل، مع سراب انعقاد مجلس تأسيس كان أعضاء الكاديت لا يريدون دعوته. وسنرى كيف دقت ثورة فبراير (شباط) عنقها حول مسألة الأرض، ومسألة الحرب.

وساعدها شينغاريف بقدر ما استطاع.

وآلت حقيبة وزارة المالية إلى شاب يدعى تيريشتشنكو. وهنا لا بُدَّ من التساؤل أين وجدوه؟ كان كل من في قصر توريد يطرح هذا السؤال بدهشة. وكانت الشخصيات العليمة تفسر بأنه ملاك لمصافي السكر، وأن له أملاكًا وغابات وثروات لا تحصى يقدر ثمنها بـ٨٠ مليون روبل ذهبي، وأنه كان رئيسًا للجنة الصناعات الحربية في كييف، ويتحدث الفرنسية بطلاقة، ويعتبر خبيرًا في الباليه. وكانوا يضيفون أن تيريشتشنكو، باعتباره موضع ثقة غوتشكوف، قد شارك في المؤامرة الكبرى التي كانت نتيجتها تنازل نيقولا الثاني. وساعدت الثورة التي أحبطت المؤامرة تيريشتشنكو.

وخلال الأيام الخمسة من فبراير (شباط)، بينما كانت المعارك الثورية تجري في شوارع العاصمة التي غطاها الجليد، مر أمامنا مرارًا ظل ليبرالي وُلد من عائلة وجيهة، إنه ابن الوزير السابق للقيصر نابوكوف، وهو شخصية تمثل الأدب واحترام

الذات، والأنانية المتزنة. ولقد قضى نابوكوف الأيام الحاسمة من الانتفاضة بين أربع جدران ديوان من الدواوين، أو بين أفـراد عائلته "في ترقب مذهل وقلق". ثم أصبح الآن أميناً لسر الحكومة المؤقتة، وكان بالفعل وزيرًا بلا وزارة. وعندما هـاجر إلـى برلين دوّن هناك ملاحظات لا تخلو من الفائدة عن الحكومة المؤقتة، تركها بعد أن أطلق عليه أحد الحراس البـيض رصاصـة حمقاء. فلنسجل هذه المزية لحسابه.

ولكننا نسينا تسمية رئيس الوزراء، الذي كان الجميع ينسونه في أكثر اللحظات جدية من هيمنته المؤقتة. فبعد أن أوصى مليوكوف بتشكيل الحكومة الجديدة في الاجتماع الذي انعقد في قصر توريد بتاريخ ٢ مارس (آذار) عين مليوكوف الأمير لفوف "كتجسيد للأوساط الاجتماعية الروسية التي اضطهدها النظام القيصري". وأشار مليوكوف بحذر فيما بعد فـي كتابـه "تـاريخ الثورة" أنه وضع الأمير لفوف "غير المعروف شخصيًّا من أكثرية أعضاء اللجنة المؤقتـة". علـى رأس الحكومـة. ويحـاول المؤرخ هنا تحرير السياسي من مسئوليته في هذا الاختيار. والحقيقة، كان الأمير يُعتبر منذ فترة طويلة فـي الجنـاح اليمينـي لحزب الكاديت.

وبعد حُل أول مجلس للدوما، في جلسة النواب المشهورة التي انعقدت في فيبورغ، والتي وجه فيها الأعـضاء للـسكان نداء الليبرالية المهانة الشعائري -"لا تدفعوا الضرائب"- كان الأمير لفوف حاضرًا ولم يُوقع البيـان. ويـذكر نـابوكوف فـي ذكرياته أن الأمير مرض منذ وصوله إلى فيبورغ، وأن توعكه "يُعزَى إلى الانفعال الذي أحسَّ به". ولكن جميع الظواهر تـشير إلى أن الأمير لم يخلق للهزات الثورية. وكان الأمير لفوف المعتدل إلى حد كبير يتحمل في كل المنظمات التـي وجـد علـى رأسها عددًا كبيرًا من مثقفي اليسار والثوريين القدماء، والوطنيين الاشتراكيين الموجودين في المـؤخرات الأمينـة، بـسبب لا مبالاة سياسية تشبه سعة الأفق. وكان هؤلاء لا يعملون بصورة أسوأ من الموظفين الآخرين، ولا يسرقون أبدًا، ويخلقـون فـي الوقت ذاته للأمير مظهرًا من مظاهر الشعبية. وكان لفوف أميرًا غنيًّا وليبراليًّا، الأمر الذي كان له وقـع علـى البورجـوازي المتوسط. ولهذا كان يُرشح دومًا كرئيس للوزراء منذ أيام القيصر. فلو أردنا تلخيص ما قيـل، وجـدنا أن مـن الـضروري الاعتراف بأن **رئيس حكومة ثورة فبراير (شباط) يمثل فراغًا واضحًا للعِيان، مع أنَّة صاحب سمو**. وكان لرودزيانكو على كل حال رونقًا أكبر.

إن التاريخ الأسطوري للدولة الروسية يبدأ بمجموعة أخبار تحكي أن مبعوثين من العشائر السلافية أتوا ورجوا الأمـراء السكاندينافيين وقالوا لهم: "تعالوا واملكونا، وكونوا أمراءنا". وقد حوّل ممثلو الديمقراطيـة الاشـتراكية التعـساء الأسـطورة التاريخية إلى حركة في القرن العشرين، لا في القرن التاسع، مع الفارق التالي: أنهم لم يتوجهوا إلى أمراء ما وراء البحار، بل إلى أمراء البلاد. وهكذا أدَّت انتفاضة العمال والجنود إلى أن يعتلي السلطة عدة ملاكين وصناعيين في منتهى الغنى لم يكونـوا بارزين في شيء، وهواة للسياسة لا يملكون أي برنامج، على رأسهم أمير لا يتحمل الاضطرابات.

وتلقت سفارات الحلفاء تأليف الحكومة بالرضا، كما عـمَّ الرضـا الـصالونات البرجوازيـة والبيروقراطيـة ودوائـر البرجوازية المتوسطة والواسعة، وجزءًا من الطبقة البرجوازية الصغيرة. وكانت أسماء الأمير لفوف، والأكتوبري غوتشكوف، وعضو الكاديت مليوكوف تحمل رنة جمهورية مهدئة. وربما كان اسم كرنسكي هو الاسم الوحيد من أسـماء الـوزراء الـذي اضطر الحلفاء إلى التكشير عند سماع تعيينه، ولكنه لم يكن يرعبهم على كل حال. وقد فهم الأذكياء ما يلي: هناك ثـورة فـي البلاد على كل حال. إن وجود حصان جر موثوق مثل مليوكوف يجعل وجود حصان نشيط إلى جواره أمرًا لا يخلو من الفائدة. بهذا الشكل وُصِف الوضع من قِبل سفير فرنسا باليولوغ، الذي كان يحب الاستعارات الروسية.

وولَّد تأليف الحكومة مشاعر عدائية لدى العمال والجنود، أو ولَّد في أفضل الحالات ارتباكًا مكتومًا. ولم يكن اسما مليوكوف أو غوتشكوف يثيران أي تهليل في المصانع والثكنات. ولدينا في هذا المجال شهادات عديدة. فقد عبر الضابط مستيسلا فسكي عن القلق الكئيب الذي اعترى الجنود، الذين رأوا السلطة تنتقل من القيصر إلى أمير، كانوا يتساءلون هل كان مثل هذا النقل يستحق عناء سفك الدماء؟ وفي ٣ مارس (آذار) قام ستانكيفيتش المُقرَّب من كرنسكي بجولة تفتيشية في كتيبته، كتيبة النقابيين، وزار سرية بعد الأخرى، وامتدح الحكومة الجديدة التي كان يعتبرها هو شخصيًّا أفضل كل الحكومات الممكنة، وكان يتحدث عنها بحماسة كبرى. ولكن "استقبل الجنود المستمعون كلماته ببعض البرود". ولم "ينفجر الجنود مهللين" إلا عندما ذكر الخطيب اسم كرنسكي. في هذا الوقت، كان الرأي العام في أوساط البرجوازية الصغيرة للعاصمة قد وصل إلى تحويل كرنسكي إلى بطل يقف في مركز الثورة. وكان الجنود يريدون أكثر من العمال أن يروا في كرنسكي وزنًا معاكسًا للحكومة البرجوازية. وكانوا مدهوشين فقط لأنه وحيد في هذا المكان. ولكن كرنسكي كان في الحقيقة متممًا للحكومة، لا وزنًا معاكسًا لها، وكان تمويهًا، ونوعًا من الزينة؛ إذ كان يدافع عن نفس المصالح التي يدافع عنها مليوكوف ولكن ببريق كبريق المغنيزيوم.

* * *

كيف كان التكوين الحقيقي للبلاد بعد إقامة السلطة الجديدة؟

لقد اختفت الرجعية الملكية في الشقوق، وعندما ظهرت المياه الأولى للطوفان تجمَّع الملاكون من كل نوع ومن كل اتجاه تحت عَلَم حزب الكاديت، الذي أصبح دفعة واحدة، الحزب الوحيد اللا اشتراكي، وأصبح في الوقت نفسه أقصى اليمين في الحلبة المكشوفة.

واتجهت معظم الجماهير تقريبًا نحو الاشتراكيين، الذين تمتزج آراؤهم بآراء السوفييتات، ولم يبتعد العمال وجنود الحاميات الضخمة في المؤخرة عن الحكومة المؤقتة فحسب، بل ابتعد عنها الشعب الصغير الخليط في المدن، والصناع، وباعة الصحف، والموظفون الصغار، والحوذيون، والبوابون من الصبيان، والخدم من كل نوع، كما ابتعدوا عن مكاتبها، وكانوا يفتشون عن أكثر قربًا وأشد لينًا. وتزايد عدد مندوبي الأرياف الذين كانوا يتوافدون إلى قصر توريد. وتوافدت الجماهير إلى السوفييتات وكأنها تتوافد تحت أقواس نصر الثورة. وسقط كل ما بقي خارج مجلس السوفييتات بعيدًا عن الثورة، وبدا وكأنه منتمٍ إلى عالم آخر. وكان الوضع على الشكل التالي: كل ما هو خارج مجالس السوفييتات هو عالم المالكين الذين امتزجت كل ألوانه فورًا في لون واحد رمادي ميَّال إلى الحمرة للحماية.

ولم تكن كل جمهرة الكادحين هي التي انتخبت السوفييتات. فلم تستيقظ هذه الجمهرة كلها دفعة واحدة، ولم تكن كل الأوساط المضطهدة هي التي تجرأت فورًا على الاعتقاد بأن الثورة تهمها أيضًا. ولم يتحرك في وعي الكثيرين سوى أمل بسيط لا يتمتع بوضوح كافٍ. ولم يهرع نحو السوفييتات سوى القوى الفعالة في الجماهير، وفي وقت الثورة أكثر من أي وقت آخر، تنتصر الفعالية والحيوية. وبما أن حيوية الجماهير وفعاليتها كانت تزداد يومًا بعد يوم، فإن قاعدة السوفييتات كانت تتسع بصورة دائمة. وكانت هي القاعدة الوحيدة الحقيقية للثورة.

وانعقد مجلس الدوما ومجلس السوفييت في قصر توريد. وكانت اللجنة التنفيذية في البدء محشورة في مكاتب ضيقة كان يمر منها سيل بشري لا ينقطع. وحاول مندوبو الدوما التظاهر بأنهم أسياد الوضع في قاعاتهم الفخمة. ولكن المياه الكبرى للثورة جرفت الفواصل معها. وكان مجلس السوفييت يتوسع بصورة لا تقاوم، رغم تردد زعمائه، في حين كان مجلس الدوما يُستبعد دومًا إلى الساحة الخلفية. وشق ميزان القوى الجديد طريقه من كل الجهات.

وأحس مندوبو قصر توريد، والضباط في أفواجهم، والجنرالات في مقرات أركـانهم، والمـديرون والإداريـون فـي المصانع، وموظفو السكك الحديدية، وموظفو البرق، والملاكون، ووكلاء الممتلكات، أحس كل هؤلاء منذ الأيام الأولى للثـورة بأنهم تحت الرقابة الشريرة الدءوبة للجماهير. وكان مجلس السوفييت في أعين هذه الجماهير التعبير المنظم عـن حـذرها إزاء كل أولئك الذين اضطهدوها، وكان ضاربو الآلة الكاتبة والمختزلون يراقبون بعناية قُصوى نص المقالات المؤلفة، كمـا كـان عمال السكك الحديدية يراقبون القطارات العسكرية بيقظة مشوبة بالقلق، وينكب عمال البرق على قـراءة البرقيـات الـصادرة بانتباه خاص جديد بالنسبة إليهم. ويتبادل الجنود فيما بينهم النظرات لدى أول حركة مشبوهة يقوم بها أحد الـضباط، ويطـرد العمال من المصنع رئيس العمال التابع للمائة السود، ويراقبون المدير الليبرالي. وأصبح مجلس الدوما، منذ الـساعات الأولـى للثورة، كما أصبحت الحكومة المؤقتة منذ الأيام الأولى أيضًا أشبه بخزّان تصب فيه شكاوَى ومطالب الطبقة العليا، واحتجاجاتها ضد "الأعمال المتطرفة"، وملاحظاتها الحزينة، وإحساساتها الغامضة.

ويتمحك البورجوازي الصغير الاشتراكي قائلاً: "لن نستطيع السيطرة على جهاز الدولة بدون البرجوازية" وهـو يلقـي نظرة خاطفة مذعورة إلى مؤسسات الدولة؛ حيث كان يبدو أن هيكل النظام القديم ينظر من محاجره الجوفاء. وكـان المخـرج الذي وجدوه هو تعليق رأس ليبرالي على الجهاز الذي قطعت الثورة رأسه. وتمركز الـوزراء الجـدد فـي وزارات القيـصر وأصبحوا أسياد الآلات الكاتبة، والهواتف، والمراسلين، والمختزلين، والضاربين على الآلة الكاتبة، والموظفين، واقتنعوا يومًـا بعد يوم أن الآلة تدور في فراغ.

وتذكر كرنسكي فيما بعد كيف "استولت الحكومة المؤقتة على السلطة في اليوم الثالث من الفوضى التـي شـملت كـل روسيا، عندما لم يبق على كل امتداد الأرض الروسية أية سلطة، ولم يبق فيها أي شرطي". ولا تدخل في الحساب سـوفييتات مندوبي العمال والجنود، هذه السوفييتات التي كانت تقود عدة ملايين من الجماهير؛ لأن هذه الملايين لا تـشكل برأيـه سـوى عنصر فوضوي. وكانت البلاد قد تُركت لنفسها، ودليل ذلك اختفاء رجال الشرطة من ربوعها. ويكمـن مفتـاح كـل سياسـة الحكومة في هذا الاعتراف الذي أدلي به أحد الوزراء الذي كان أكثر يسارية من الآخرين.

واحتُلت وظائف حكام المناطق من قبل رؤساء إدارات مقاطعات الزيمستفو بقرار من الأمير لفوف، مع أنهم لم يكونـوا يتميزون عن أسلافهم! وفي أكثر من حالة، كان هؤلاء الحكام الجدد من الملاكين الإقطاعيين الذين كانوا يعتبرون حكام المناطق كاليعاقبة. وعُين على رأس النواحي رؤساء لإدارتها. ووجد السكان تحت التسمية الجديدة "للمفوضين" أعداء قـدماء. وانطبـق على البلاد قول ميلتون القديم بصدد إصلاح الكالفانيين: "إنهم الكهنة القدماء أنفسهم، ولكن بتسمية فيها تفخيم أكبـر". واسـتولى مفوضو المناطق والنواحي على الآلات الكاتبة، وعلى الموظفين الذين كانوا في خدمة الحكام ورؤساء الشرطة "أتسبرافنيك" لكي يلاحظوا جيدًا أن هؤلاء لا يعطونهم أية سلطة. وتركزت الحياة، في المناطق والنواحي حول مجالس السوفييتات. هكذا انتقلـت ازدواجية السلطة من القمة إلى القاعدة. ولكن زعماء السوفييتات في المديريات، وهم من الاشتراكيين – الثـوريين والمناشـفة كانوا يعملون ببساطة أكثر، ولا يرفضون -بعكس ذلك- السلطة التي كانت تفرضها كل الظروف. وفي النتيجة، كـان نـشاط مفوضي المناطق يتضمن أساسًا شكواهم من الاستحالة المطلقة لممارسة سلطاتهم الكاملة.

وفي اليوم التالي لتشكيل الوزارة الليبرالية، أحست البرجوازية بأنها لم تحصل على السلطة بل خسرتها. ومهمـا كـان تعسف الزمرة الراسبوتينية خارقًا قبل الانتفاضة، فإن سلطتها الحقيقية كانت تتسم بطابع محدود. وكان نفوذ البرجوازيـة علـى شئون الدولة هائلاً جدًا. حتى أن اشتراك روسيا في الحرب كان إلى حد كبير من صنع البرجوازية أكثر من أن يكون من صنع الملكية. ولكن الشيء الرئيسي هو أن السلطة القيصرية كانت تحمي للملاكين مصانعهم وأراضـيهم، ومـصارفهم، ومبـانيهم، وصحفهم. وبناء على هذا كانت السلطة سلطتهم في أكثر المسائل حيوية. وقد عدلت ثورة فبراير (شباط) الوضع في اتجـاهين

متضادين؛ فقد منحت رموز السلطة الخارجية للبرجوازية بصورة تتسم بالأبهة، ولكنها انتزعت منها في الوقت ذاته الجزء الأكبر من القوة الحقيقية التي كانت تملكها قبل الثورة. وأصبح أولئك الذين خدموا بالأمس في اتحاد الزيمستفو، الذي كان يرأسه الأمير لفوف، وفي لجنة الصناعات الحربية التي كان يقودها غوتشكوف، أصبح كل هؤلاء بعد الآن أسياد الوضع في البلاد، وفي الجبهة، وفي المدينة وفي القرية، تحت تسمية "الاشتراكيين – الثوريين" و"المناشفة"، وعينوا لفوف وغوتشكوف وزيرين، وفرضوا عليهما بهذه المناسبة شروطًا معينة وكأنهم استأجروهما لحسابهم كموظفين كبيرين.

ومن ناحية أخرى، لم تكن اللجنة التنفيذية التي شكلت حكومة برجوازية لتستطيع أن تحزم أمرها وتصرح بأن إنشاءها كان حسنًا، شأنها في ذلك شأن آلة التوراة. وعلى العكس سارت اللجنة فورًا لتكبير المسافة بينها وبين عملها، مؤكدة أنها تستعد لدعم السلطة الجديدة ما دامت هذه السلطة ستخدم الثورة الديمقراطية بأمانة. وكانت الحكومة المؤقتة تدرك تمام الإدراك أنها لن تصمد ولو لساعة واحدة بدون دعم الديمقراطية الرسمية! بَيْد أنه لم يكن مقررًا دعمها إلا مقابل حسن سلوكها، أي لتحقيق مهام كانت تحس بأنها غريبة عنها، وجاءت الديمقراطية ذاتها لترفض حلها. ولم تعرف الحكومة أبدًا الحدود التي كانت تستطيع إظهار سلطتها ضمن نطاقها كسلطة "نصف مهربة". ولم يستطع زعماء اللجنة التنفيذية أبدًا إعلامها مسبقًا حول هذا الموضوع؛ إذ كان من الصعب عليهم أيضًا أن يتوقعوا الحد الذي يتفجر فيه الاستياء في وسطهم الخاص، كانعكاس لاستياء الجماهير. وكانت البرجوازية تتظاهر بأن الاشتراكيين قد خدعوها. ومن ناحية أخرى، كان الاشتراكيون يخشون من أن يهيج الليبراليون الجماهير، بادعاءاتهم السابقة لأوانها، ويفسدون بهذا الشكل وضعًا لم يكن سهلاً. ولقد عبَّرت الصيغة الغامضة "**ضمن الحد الذي... فإننا نرى كذلك...**" عن كل الفترة التي سبقت أكتوبر (تشرين الأول)، وأصبحت الصيغة الحقوقية لكذبة داخلية في النظام الهجين لثورة فبراير (شباط).

وانتخبت اللجنة التنفيذية لجنة خاصة سمتها بصورة مهذبة "**لجنة الاتصال**"، لكنها لجنة مضحكة للتأثير على الحكومة. وهكذا بُني تنظيم السلطة الثورية رسميًّا على مبادئ النصح المتبادل. ولقد وجد ميرجكوفسكي -وهو كاتب صوفي يتمتع ببعض السمعة- سابقة لمثل هذا النظام، ولكنه وجدها في العهد القديم فقط، **على مقربة من ملوك إسرائيل، يمكث الأنبياء**. ولكن أنبياء التوراة كانوا كنبي آخر ملوك رومانوف يتلقون على الأقل الوحي من السموات، ولم يكن الملوك ليتجرءوا على معارضتهم، هكذا تأمَّنت وحدة السلطة. وكان الوضع مختلفًا كل الاختلاف لأنبياء مجلس السوفييت الذين كانوا يتنبئون بوحي من فكرهم الضيق. ومع ذلك كانت الوزارات الليبرالية تجد أنه لا يصدر شيء جيد عن السوفييت. وكان تشخيدزه وسكوبوليف وسوخانوف وغيرهم يقدمون الاقتراحات للحكومة. ويكثرون من نصحها بضرورة الخضوع! وكان الوزراء يردون. وكان المندوبون يتحولون عنهم إلى اللجنة التنفيذية، ويفرضون عليها ضغط السلطة الحكومية. ثم يعودون للاتصال مع الوزراء... وهكذا يعيدون الكرَّة، ويبدءون اللعبة ذاتها من جديد. ولم تكن هذه الطاحونة المعقدة تطحن شيئًا.

وكان الجميع دائمي الشكوى في "لجنة الاتصال". وكان غوتشكوف بشكل خاص، يتبرم أمام الديموقراطيين من الفوضى التي تجتاح الجيش بسبب تسامح السوفييت. وكان وزير حرب الثورة "يسكب الدموع"، أو على الأقل كان يفرك عينيه بمنديله بإكباب، بكل معنى الكلمة". وكان يرى عن حق ومعرفة بأن تجفيف بكاء الكهنة والملوك يدخل مباشرة في صلب وظائف الأنبياء.

وأبرق الجنرال الكسييف الذي كان على رأس مقر القيادة العامة للقوات المسلحة بتاريخ ٩ مارس (آذار) إلى وزير الحربية قائلاً: "إن النير الألماني يقترب منا إذا أظهرنا أننا مستعدون للمصالحة مع السوفييت". ورد عليه غوتشكوف بعبارات

متباكية: وا أسفاه على الحكومة! إنها لا تملك السلطة الحقيقية. فمجلس السوفييت هو الذي يملك القطعات، والسكك الحديدية، والبريد، والبرق: "وبوسعنا القول بوضوح إنه لا وجود للحكومة المؤقتة إلا بمقدار ما يسمح مجلس السوفييت بذلك".

ومن أسبوع إلى آخر، لم يطرأ أي تحسن على الوضع. وعندما أرسلت الحكومة المؤقتة، في مطلع أبريل (نيسان) مندوبين من مجلس الدوما إلى الجبهة، أمرتهم رسميًا وهي تصر على أسنانها، أن لا يتظاهروا بوجود أي خلاف مع مندوبي السوفييت. وأحس النواب الليبراليون، خلال الرحلة، وكأنهم تحت الحراسة، ولكنهم فهموا أيضًا أنهم لولا هذه الحراسة لما استطاعوا أن يتقدموا للجنود، ولما وجدوا مكانًا لهم في عربة قطار. ويتمم هذا الخبر التفصيلي في مذكرات الأمير مانسيرييف بصورة رائعة الاتصال بين غوتشكوف والقيادة العامة للقوات المسلحة حول المحتوى الأساسي لتكوين حكومة فبراير (شباط). ووصف هذا المفكر الرجعي الوضع على الشكل التالي: "كانت السلطة القديمة محبوسة في قلعة بطرس وبولص، أما السلطة الجديدة فكانت موقوفة في منازلها". وكان في وصفه هذا كثير من الصواب.

ولكن ألم تكن الحكومة المؤقتة تملك دعمًا آخر غير الدعم المشكوك به لزعماء السوفييت؟ أين اندست الطبقات المالكة؟ إنه سؤال ثابت. لقد سارعت هذه الطبقات التي ارتبطت في ماضيها بالملكية إلى التجمع على محور جديد بعد الانتفاضة. وانحنى مجلس الصناعة والتجارة، الذي يمثل رأس المال الموحد لكل البلاد منذ ٢ مارس (آذار)، "انحنى أمام العمل الباهر لمجلس الدوما الإمبراطوري" ووضع نفسه "تحت التصرف الكامل" للجنته. وسارت اتحادات الزيمستفو والبلديات في الطريق ذاته. وفي ١٠ مارس (آذار) كان مجلس الطبقة النبيلة الموحدة، سند العرش، يدعو بلغة الجبن المثيرة للمشاعر، كل المواطنين الروس، "لضم الصفوف حول الحكومة المؤقتة، هذه الحكومة التي تمثل في الوقت الحاضر السلطة الشرعية الوحيدة في روسيا". وفي الوقت ذاته تقريبًا، بدأت المؤسسات وأجهزة الطبقات المالكة بإدانة ازدواجية السلطة، وألقت مسئولية الفوضى على عاتق السوفييتات، وكان موقفها هذا حذرًا في بادئ الأمر، ثم لم يلبث أن ازداد جرأة فيما بعد.

وخلف الزعماء، اصطف المستخدمون الكبار، واتحادات المهن الليبرالية، وموظفو الدولة وكانت ترد من الجيش برقيات صيغت في هيئة الأركان، ومنشورات وقرارات من النوع ذاته. وبدأت الصحافة الليبرالية حملة هجومية "من أجل السلطة الموحدة" التي اتخذت في الأشهر التالية طابع سد ناري ضد زعماء السوفييتات. وكان لكل هذا معًا نغم جليل جدًا. ومارَس هذا العدد الكبير من المؤسسات، والأسماء المعروفة، والقرارات، والمقالات، ولهجة التصميم، مارَس كل هذا بلا ريب أثرًا على زعماء اللجنة التنفيذية الحساسين. ومع ذلك لم يكن هناك جدية خلف هذا الموكب المهدد للطبقات المالكة، ورد الاشتراكيون من صغار البورجوازيين "ولكن أين قوة الملكية؟". إن الملكية علاقة بين الرجال. إنها تمثل قوة ضخمة ما دامت تتمتع باعتراف عام يسنده جهاز قهر يسمى "الحق والدولة". ولكن الوضع يشتمل بالضبط على انهيار الدولة القديمة، ووضع كل الحق القديم بالنسبة للجماهير تحت إشارة استفهام.

ووجد العمال أنفسهم في المصانع، وقد بدءوا يصبحون أرباب عمل، وأصبح رب العمل ضيفًا جاء في وقت غير ملائم. وكان هناك ضمانة أقل لدى الملاكين الزراعيين، في مواجهة الموجيك الحمقى العدوانيين البعيدين عن سلطة آمَنَ أصحاب الممتلكات بوجودها نظرًا لبعدهم عنها. ولكن الملاكين لم يعودوا ملاكين حقيقيين بعد أن فقدوا إمكانية التصرف بممتلكاتهم وحمايتها وصيانتها، وأصبحوا مجرد مواطنين مهزوزين بقوة، ولا يستطيعون، بأية وسيلة من الوسائل، منح دعم لحكومتهم؛ لأنهم كانوا هم أنفسهم في أمس الحاجة لمساعدتها. وبدأ هؤلاء الملاكين في وقت مبكر يلعنون الحكومة نظرًا لضعفها. ولكن صب اللعنات على الحكومة كان يعني أنهم يهاجمون مصيرهم الخاص.

في هذا الوقت ظهر أن مهمة العمل المتضافر للجنة التنفيذية ولمجلس الوزراء قد أصبحت البرهان على أن فن القيادة في زمن الثورة يتضمن تضييع الوقت بإطلاق سيل من الأقوال. وكان هذا الفن لدى الليبراليين مسألة حساب واعٍ. وينبغي في نظرهم تأجيل كل المسائل إلى ما بعد، فيما عدا قسم الولاء للتحالف.

وأطلع مليوكوف زملاءه على المعاهدات السرية. وتظاهر كرنسكي بأنه لم يسمع شيئًا. ومن البدهي أن يحتدَّ وكيل المجلس الأعلى للكنيسة الأرثوذكسية الروسية، وهو واحد من أسرة لفوف يملك قسطًا كبيرًا من المصروفات غير المنظورة وسمي لرئيس الوزراء، ولكنه ليس أميرًا، من البدهي أن يحتد مثل هذا الرجل بعنف ويصرح بما يلي: "إن الاتفاقات جديرة بالعصابات والنشَّالين"، وبهذا التصريح أثار بلا ريب ابتسامة حليمة ظهرت على وجه ميليوكوف القائل ("إن رجل الشارع مغفل")، فاقترح مليوكوف الانتقال إلى جدول الأعمال. ويكيل التصريح الرسمي للحكومة الوعود باستدعاء المجلس التأسيسي في أقرب وقت ممكن، ولكن تاريخ انعقاده لم يحدد عمدًا.

ولم يكن شكل الدولة مطروحًا على بساط المناقشة؛ فقد كانت الحكومة تأمل إعادة استتباب فردوس الملكية الضائع. ولكن التصريح اشتمل في الحقيقة الالتزام بمتابعة الحرب حتى النصر و"احترام الاتفاقات المعقودة مع الحلفاء". وفيما يتعلق بأخطر مشكلة للوجود الشعبي، فقد تمت الثورة على ما يبدو لتصرح بما يلي: يبقى كل شيء على ما كان عليه في الماضي. وبما أنهم كانوا يعطون لاعتراف دول التحالف بالسلطة الجديدة معنى صوفيًّا -لأن التاجر الصغير لا يساوي شيئًا ما دام المصرف لا يعتبره مليئًا- فقد تحملت اللجنة التنفيذية بصمت، التصريح الإمبريالي بتاريخ ٦ مارس (آذار). وقد صرح سوخانوف بعد عام، بنغمة مؤسفة قائلاً: "لم يكن هناك أي جهاز رسمي للديمقراطية لم يعارض علنًا عمل الحكومة المؤقتة الذي شوَّه ثورتنا منذ ولادتها في أعين أوروبا الديمقراطية".

وأخيرًا بتاريخ ٨ مارس (آذار) خرج من المخبز الوزاري مرسوم عفو عام عن المعتقلين والمسجونين. وفي هذا الوقت كان الشعب قد فتح كل أبواب السجون، وكان المنفيون السياسيون يعودون وسط تيار هائل من الاجتماعات، والحماسة، والموسيقى العسكرية، والخطب، والزهور. وكان للمرسوم دوي صدى متأخر صادر عن المستشاريات. وبتاريخ ١٢ أعلن إلغاء عقوبة الإعدام. وبعد أربعة أشهر، أعيد تطبيق هذه العقوبة على الجنود. وكان كرنسكي قد وعد بأنه سيرتفع بالعدالة إلى مستوى لم يُعرف من قبل. وفي فورة حماسية، ساعد على إقرار اقتراح قدمته اللجنة التنفيذية ينص على قبول ممثلي العمال والجنود كقضاة صلح. وكان هذا الإجراء هو الإجراء الوحيد الذي أحس الناس فيه بنبضات قلب الثورة، وهو إجراء سبب رعب كل خصيان العدالة. ولكن هنا توقفت التكاليف. وقرر المحامي دميانوف "الاشتراكي"، الذي كان يشغل منصبًا عاليًا في الوزارة لدى كرنسكي، قرر التمسك بمبدأ الاحتفاظ بكل الموظفين السابقين واستخدام التعبير التالي: "ينبغي على سياسة الحكومة الثورية أن لا تكدر أحدًا إذا لم يكن هناك داعٍ إلى ذلك". وكان هذا المبدأ الجديد القاعدة التي اعتمدت عليها كل الحكومة المؤقتة، هذه الحكومة التي كانت تخشى بالإضافة إلى كل هذا إهانة أي شخص من الطبقات المالكة، حتى أنها تخشى إهانة البيروقراطية القيصرية. ولم يبق القضاة في أماكنهم فحسب، بل بقي المدعون العامون القيصريون أيضًا. ومن الطبيعي أن يكون من حق الجماهير أن تغضب من هذا العمل. ولكن غضبها لم يصل إلا إلى السوفييتات؛ فالجماهير لا تدخل في أفق الحكومة.

وهبَّ نوع من الهواء البارد ذاته من شخصية سميناها سابقًا، هبت هذه الطراوة من المدعي العام لفوف الذي كان يضع التقارير الرسمية عن "البلداء والأنذال" المتمركزين في المجلس الأعلى للكنيسة الأرثوذوكسية الروسية. وكان الوزراء يستمعون بقلق إلى هذه التقديرات العذبة، ولكن هذا المجلس عبارة عن مؤسسة للدولة، كالأرثوذوكسية التي هي دين الدولة. واحتفظوا أيضًا بتأليف المجلس الأعلى؛ إذ أن على الثورة أن لا تتشاجر مع أحد.

وتابع أعضاء مجلس الدولة والأتباع الموالون لاثنين أو ثلاثة من القياصرة على عقد الجلسات، أو تابعوا علـــى الأقــل تقاضي رواتبهم وأتعابهم. وكان لهذا الحادث معنى رمزيًّا. وفي المصانع والثكنات كان العمال والجنود يحتجون بصوت عـــالٍ. واضطربت اللجنة التنفيذية وعقدت الحكومة جلستين ناقشت فيهما مصير أعضاء مجلس الدولة ورواتبهم، ولم تتوصل إلـــى أي قرار. نعم! لم تتوصل إلى قرار؛ إذ كيف يمكنها أن تزعج شخصيات محترمة بينها عدد لا بأس به من أصدقائها الطيبين؟

كان الوزراء الراسبوتينيون في القلعة، لكن الحكومة المؤقتة سارعت إلى تحديد رواتب لهم. وكان لعملهـــا هـــذا نغمـــة ساخرة أو رنة صوت قادم من العالم الآخر. ولكن الحكومة لم تكن تريد أن تختلف مع أعضاء الحكومة السابقة، حتى ولو كانوا معتقلين.

وتابع النواب نعاسهم في بزاتهم المزركشة. وعندما تجرأ سوكولوف النائب اليساري، الذي رفعه كرنسكي مؤخرًا لهـــذا المنصب وحضر الاجتماع "بالردنغوت" الأسود، طرده الوزراء من الجلسة؛ فلم يكن نواب القيصر يخشون الاختلاف مع ثـــورة فبراير (شباط) حيث اقتنعوا بأنه ليس لحكومة هذه الثورة أسنان حادة.

وقد رأى ماركس أن سبب انهيار ثورة مارس (آذار) في ألمانيا سابقًا هو أن الحركة "أصلحت فقط أعلى قمة سياســـية، دون أن تمس كل الطبقات تحت هذه القمة؛ فهي لم تمس البيروقراطية القديمة، والجيش القديم، والقضاة القدماء الـــذين ولـــدوا، وعُلِّموا، ونُظِّفوا في خدمة الحكم المستبد". وقد فتش الاشتراكيون من نموذج كرنسكي عن الخَلاص؛ حيث كان ماركس يـــرى سبب الضياع. وكان الماركسيون المناشفة مع كرنسكي لا مع ماركس.

وكان المجال الوحيد الذي أظهرت الحكومة فيه شيئًا من البديهة، واتخذت فيه مسلكًا ثوريًّا، هو التشريع الذي أصـــدرته حول الشركات المساهمة، فقد أصدرت مرسومًا إصلاحيًّا بتاريخ ١٧ مارس (آذار). ولم تُلغ القيود القومية والمذهبيـــة إلا بعـــد ثلاثة أيام من تاريخ صدور هذا المرسوم. وكانت الحكومة تضم عددًا لا بأس به من الشخصيات التي لم تعانِ، في ظل النظـــام القديم، إلا من مساوئ قانون الشركات المساهمة.

وكان العمال يطالبون بإلحاح لا يعرف الكلل بتحديد يوم العمل بثماني ساعات. وتظاهرت الحكومة بالـــصَمم فـــي كـــلا الأذنين. فقد كانت حالة الحرب قائمة، وعلى كل فرد أن يضحي من أجل الوطن. وبالإضافة إلى هذا فإن مهمة السوفييت تهدئة العمال.

وكانت مسألة الأرض تنطوي على تهديد أكبر. وكان من الضروري عمل شيء ما في هذا المجال. وأوصى شينغاريف وزير الزراعة بعد أن أزعجه إلحاح الفلاحين بإنشاء لجان محلية، ولكنه كان حذرًا فلم يحـــدد وظائفهـــا ومهامهـــا. وتـــصور الفلاحون أن اللجان ستسلمهم الأراضي. وقدر الملاكون أن اللجان ذاتها ستحمي ممتلكاتهم. وهكذا أحس نظام فبرايـــر (شـــباط) منذ البدء بأنه مربوط من عنقه بعقدة الموجيك، القاسية أكثر من كل العقد والأربطة الأخرى.

واستنادًا إلى العقيدة الرسمية، أجِّلت كل المسائل التي انبثقت عنها الثورة إلى أن ينعقد المجلس التأسيسي. فهـــل يمكـــن للديموقراطيين الدستوريين الذين لا عيب فيهم والذين لم ينجحوا، أن يلبوا الإرادة الوطنية! وأن يمتطي ميخائيل رومانوف هـــذه الإرادة؟ كم كان هذا مدعاة للأسف! وفي هذه الغضون كان تحضير التمثيل الوطني المقبل يتم بجدية بيروقراطية كبيرة، وبـــطء محسوب لدرجة تحول معها المجلس التأسيسي إلى سراب. وفي ٢٥ مارس (آذار) فقط، أي بعد شهر من الانتفاضة -والحيـــاة شهرًا في ظل الثورة!- قررت الحكومة تشكيل مؤتمر حافل خاص لوضع قانون الانتخابات. ولكن هذا المؤتمر لم ينعقد أبـــدًا.

وصرح مليوكوف في كتابه "تاريخ الثورة"، الخاطئ دومًا، وبلهجة مضطربة مشوشة "لم يشرع بعمل المؤتمر الخاص في ظـــل أول حكومة" بسبب تعقيدات مختلفة. وتتعلق هذه التعقيدات بتشكيل اللجنة والتزاماتها. وكانت المهمة تأجيـــل انعقـــاد المجلـــس التأسيسي إلى وقت أفضل، حتى النصر، وحتى السلم أو حتى الأحداث الكورنيلوفية.

كانت البرجوازية الروسية، التي جاءت للعالم متأخرة جدًا، تكره الثورة كرهًا مميتًا. ولكن حقدها كان يفتقر إلى القـــوة. وكان عليها أن تبقى في موقف المتفرج لتناور. وبما أن البرجوازية لا تملك إمكانية قلب الثورة وخنقها، فإنها اعتمدت السيطرة عليها عن طريق إطفاء لهيبها.

ازدواجية السلطات

على ماذا تشتمل ازدواجية السلطات؟ ليس بوسعنا إلا أن نتوقف عند هذه المسألة التي لم نجد إيضاحًا لها في الكتابات التاريخية. ومع ذلك، فإن ازدواجية السلطة حالة خاصة لأزمة اجتماعية. وهي خاصية مميزة لا تتسم بها الثورة الروسية في عام ١٩١٧ فقط، وإن كانت هذه الخاصية بارزة وواضحة فيها أكثر من غيرها من الثورات.

فالطبقات المتعادية موجودة في المجتمع دومًا. وتحاول الطبقة المحرومة من السلطة دفع مسار الدولة كيما يميل نحوها إلى درجة معينة. ومع ذلك فإن هذا لا يعني وجود ازدواجية أو تعدد سلطات في المجتمع. ويتحدد طابع النظام السياسي بصورة مباشرة عن طريق علاقة الطبقات المضطهدة مع الطبقات الحاكمة. وتبقى وحدة السلطة، التي تعتبر شرطًا مطلقًا لاستقرار نظام من الأنظمة، ما دامت الطبقة الحاكمة ناجحة في فرض أشكالها الاقتصادية والسياسية على المجتمع، كما لو أنها الأشكال الوحيدة التي يمكن تطبيقها.

إن تحكم اليونكرز والبرجوازية معًا -سواء تبعًا لصيغة الهوهنزولرن أو صيغة الجمهورية- لا يشكل ازدواجية في السلطات، مهما بدت النزاعات عنيفة في بعض الأحيان بين المستلمين للسلطة، إن لهم قاعدة اجتماعية مشتركة، وليس هناك خوف من وقوع انشطار في الجهاز الحكومي من جراء خلافاتهم. إن نظام السلطة المزدوجة لا ينبعث إلا من نزاع طبقي لا يمكن التغلب عليه، وهو بالتالي نظام لا يمكن إقامته إلا في فترة ثورية، ويشكل أحد العناصر الأساسية لهذه الفترة.

وتشتمل الآلية السياسية للثورة على الانتقال من سلطة طبقة إلى أخرى. وتتم الانتفاضة العنيفة في حد ذاتها بصورة اعتيادية خلال فترة قصيرة. ولكن من الناحية التاريخية لا ترتفع أية طبقة من وضع التبعية إلى السيطرة فجأة، وفي ليلة واحدة، حتى ولو كانت هذه الليلة ليلة الثورة. فلا بُدَّ من أن تحتل في عشية الثورة موقعًا مستقلاً تمام الاستقلال إزاء الطبقة المسيطرة رسميًّا. وبالإضافة إلى هذا، ينبغي أن تتركز في هذه الطبقة آمال الطبقات والشرائح الوسطى المستاءة من الوضع القائم، والعاجزة عن القيام بدور مستقل. ويؤدي الإعداد التاريخي لانتفاضة ما، في فترة تسبق الفترة الثورية إلى أن تركز الطبقة المخصصة لتحقيق النظام الاجتماعي الجديد في يديها بالفعل جزءًا هامًا من سلطة الدولة، دون أن تصبح سيدة للبلاد بشكل كامل، في حين يكون الجهاز الرسمي بين يدي المالكين القدماء للسلطة. هذه هي نقطة انطلاق ازدواجية السلطة في كل ثورة.

ولكن ليس هذا الطابع هو طابعها الوحيد. فإذا كانت الطبقة الجديدة التي حملتها ثورة من الثورات إلى السلطة، لا تريد هذه الثورة أبدًا، وكانت في حقيقة أمرها طبقة شاخت، وتخلَّفت تاريخيًا، واهترأت قبل أن تتوج رسميًّا، ووقعت عند وصولها إلى السلطة على خصم ناضج بما فيه الكفاية ويحاول الاستيلاء على مقود الدولة. يستبدل التوازن المزعزع للسلطة المزدوجة، في الثورة السياسية، بتوازن آخر قد يكون أحيانًا أقل ثباتًا. ويشكل الانتصار على "فوضى" السلطة المزدوجة في كل مرحلة جديدة، مهمة الثورة، أو... مهمة الثورة المضادة أحيانًا.

إن ازدواجية السلطة لا تفترض فقط، بل إنها تستبعد أيضًا بصورة عامة تقسيم السلطة على حصص متساوية، وتستبعد إجمالاً كل توازن قطعي للسلطات. وليست هذه الحقيقة حقيقة دستورية، بل إنها حقيقة ثورية. وهي تبرهن على أن خرق التوازن الاجتماعي قد خرَّب البنية الفوقية للدولة. وتبرز ازدواجية السلطة حيثما تعتمد الطبقات المتصارعة على تنظيمات دولة متنافرة للغاية -بعضها عفَى عليه الزمن، وبعضها الآخر يتشكل- تتدافع فيما بينها في مجال إدارة البلاد في كل خطوة. ويتحدد

الجزء من السلطة الذي تحصل عليه كل طبقة من الطبقات المتصارعة في هذه الظروف بميزان القوى، ومراحل المعركة نفسها.

ولا يمكن أن يكون مثل هذا الوضع مستقرًا بطبيعته ذاتها. ويحتاج المجتمع إلى تركيز السلطة، سواء في الطبقة المسيطرة، أو في الحالة الحاضرة، في الطبقتين اللتين تتقاسمان القوة. ويفتش المجتمع عن هذا التركيز بصورة لا تقاوم. ولا تعلن تجزئة السلطة عن شيء آخر غير الحرب الأهلية. ومع ذلك قد تجد الطبقات والأحزاب المتصارعة نفسها مضطرة إلى الصبر فترة طويلة قبل أن تقرر خوض هذه الحرب، وخاصة إذا كانت تخشى تدخل قوة ثالثة. وتضطر إلى الموافقة على أسلوب السلطة المزدوجة. ومع ذلك لا بُدَّ من أن تنفجر هذه السلطة. وتعطي الحرب الأهلية للسلطة المزدوجة أوضح تعبير عنها وخاصة من الناحية الإقليمية، وتقاتل كل سلطة من السلطات -بعد إنشاء موقعها المحصن- لغزو ما تبقى من الأراضي، هذه الأراضي التي تتحمل في الغالب ازدواج السلطة بشكل غزوات متناوبة تقوم بها القوتان المتصارعتان ما دامت قوة إحداهما لم تتفوق على القوة الأخرى بصورة نهائيَّة.

لقد كانت الثورة الإنكليزية التي تمت في القرن السابع عشر، ثورة كبرى قلبت الأمة من الرأس حتى أخمص القدمين، وهي تمثل بوضوح تناوب ازدواجية السلطات مع انتقالات عنيفة من سلطة إلى أخرى، تحت طابع الحرب الأهلية.

ففي بداية الأمر عارضت البرجوازية والطبقات القريبة منها، والمؤلفة من نبلاء الريف السلطة الملكية المدعومة بالطبقات المتميزة أو بقمم الطبقات، من أرستوقراطيين وأساقفة. وكانت حكومة البرجوازية هي البرلمان الكالفاني الذي يعتمد على القوى اللندنية. وانتهى الصراع الطويل بين هذين النظامين بحرب أهلية مكشوفة. وخلق المركزان الحكوميان: لندن وأوكسفورد جيوشهما، واتخذت ازدواجية السلطات شكلاً إقليميًّا، مع أن الحدود الإقليمية كانت مزعزعة إلى حد كبير، كما هي الحال في كل حرب أهلية. وانتصر البرلمان وأسِر الملك، وانتظر مصيره.

وبدا أن شروط وجود سلطة موحدة للبرجوازية الكالفانية قد وجدت وتشكلت. ولكن قبل أن تتحطم السلطة الملكية، تحول جيش البرلمان إلى قوة سياسية مستقلة. وجمع في صفوفه المستقلين، والبورجوازيين الصغار، والصنَّاع، والزُرَّاع، والأتقياء، والمناضلين المتشددين. وتدخَّل الجيش ومارس سلطته في الحياة الاجتماعية لا كقوة مسلحة ولا كحرس "ديكتاتوري" فحسب، بل مارسها أيضًا كتمثيل سياسي لطبقة جديدة تعارض البرجوازية الغنية الميسورة. وأنشأ الجيش جهازًا جديدًا للدولة انتصب فوق القادة العسكريين؛ هو مجلس مندوبي الجنود والضباط ("المحرضون"). عندها جاءت فترة جديدة من ازدواجية السلطة، فهنا سلطة البرلمان الكالفاني، وهناك سلطة الجيش المستقل. وأدَّت ازدواجية السلطة إلى نزاع صريح وواضح. ووجدت البرجوازية نفسها عاجزة عن الوقوف في وجه "الجيش النموذجي" لكرومويل -أي الدهماء المسلحين- بقطعاتها الخاصة. وانتهى الصراع بتطهير البرلمان الكالفاني بمساعدة سيف الاستقلال. وبقي من البرلمان أثر بسيط، وتوطدت ديكتاتورية كرومويل. وحاولت الشرائح الدُنيا في الجيش، بقيادة "الممهدين" "LEVELLERS" الذين يشكلون الجناح اليساري المتطرف للثورة، مواجهة سيطرة الدوائر العسكرية العليا، وكبار ضباط الجيش، بنظامهم الخاص الشعبي. ولكن السلطة المزدوجة الجديدة لم تتمكن من النمو والامتداد؛ إذ لم يكن "الممهدون"، وأفراد الشرائح الدنيا من البرجوازية الصغيرة يملكون آنذاك، ولا يستطيعون أن يملكوا، طريقًا مستقلاً في التاريخ. وقد تعجل كرومويل فصفَّى حساب خصومه. وظهر نظام سياسي جديد غير مستقر، وبقي قائمًا خلال عدة سنين.

وفي زمن الثورة الفرنسية الكبرى، كان العمود الفقري للمجلس التأسيسي مؤلفًا من نخبة الطبقة الثالثة Tires-Etat. ولقد ركز هذا المجلس السلطة بين يديه دون أن يُلغي مع ذلك كل امتيازات الملك. وكانت فترة المجلس التأسيسي فترة ازدواجية خطيرة في السلطات انتهت بفرار الملك إلى فارين، ولم يُقضَ عليها بصورة حاسمة إلا بإعلان الجمهورية.

وكان أول دستور فرنسي (دستور عام ١٧٩١) المبني على وهم الاستقلال المطلق للسلطة التشريعية عن السلطة التنفيذية، يُخفي في الواقع أو يحاول أن يخفي عن الشعب ازدواجية حقيقية في السلطات؛ سلطة البرجوازية التي تخندقت بصورة نهائية في المجلس الوطني بعد استيلاء الشعب على الباستيل، وسلطة الملكية القديمة، التي ما زالت مدعومة بالطبقة النبيلة الرفيعة، ورجال الكنيسة، والبيروقراطية، والطغمة العسكرية، دون أن نتحدث عن الآمال المعتمدة على التدخل الأجنبي. وكان انهيار هذا النظام الحتمي يعد ويتهيأ من خلال تناقضاته. ولم يكن هناك أي مخرج ممكن إلا في القضاء على تمثيل الرجعية الأوروبية للبرجوازية أو في إحالة الملك والملكية إلى المقصلة. وكان على باريس وكوبلانس أن تتجابها.

ولكن كومونة باريس التي اعتمدت على الشرائح الدنيا للطبقة الثالثة Tiers-Etat في العاصمة والتي دافعت عن السلطة، بمزيد من الإقدام والجسارة ضد الممثلين الرسميين للشعب البورجوازي، دخلت إلى الساحة قبل أن يصل الوضع إلى الحرب والمقصلة. وقامت ازدواجية جديدة للسلطات، سجلنا مظاهرها الأولى منذ عام ١٧٩٠ عندما كانت البرجوازية الكبيرة والمتوسطة متمركزة بقوة في الإدارة والبلديات. فكم كانت اللوحة مدهشة رائعة -ومعرضة مع ذلك للنقد والتجريح الشنيعين- لجهود الشرائح العامية للصعود من الأسفل، ومن الأقبية الاجتماعية، ومن سراديب الموت، والدخول في الساحة الممنوعة؛ حيث كان رجال يرتدون الشعر المستعار والسروال الضيق يحددون مصائر الأمة. وأصبح واضحًا أن نفس الأسس التي داستها البرجوازية المتعلمة، قد بُعثت إلى الحياة وبدأت بالحركة. وانبثقت من الكتلة المتماسكة رءوس بشرية، وامتدت أيد خشنة، وانبعثت أصوات صالحة، ولكنها لم تتسم بالرجولة. وعاشت ضواحي باريس، التي تُعتبر قلاع الثورة، حياتها الخاصة. وتم الاعتراف بها -فقد كان من المستحيل عدم الاعتراف بها!- وتحولت إلى دوائر. ولكنها كانت تحطم دومًا فواصل الشرعية، وتكتسب مدًا دمويًّا جديدًا قادمًا من الأسفل، ضد الشرعية البرجوازية التي تحمي الملكية الإقطاعية. وهكذا ارتفعت أمة ثالثة في ظل أمة ثانية.

ووقفت الأقسام الباريسية في أول الأمر تعارض الكومونة التي كانت تتصرف بها البرجوازية المبجلة. واستولت الأقسام باندفاعة ١٠ أغسطس (آب) ١٧٩٢ الجريئة، على الكومونة. وقاومت الكومونة الثورية بعد ذلك المجلس التشريعي، ثم قاومت المجلس الثوري (الكونفانسيون)، اللذين تخلفا عن المسيرة، وأخرا إنجاز مهام الثورة، وسجلا الأحداث لكنهما لم يحدثانها، لأنهما لا يملكان القوة والجرأة، والإجماع الذي تملكه هذه الطبقة الجديدة التي أتيح لها الوقت للانبعاث من أعمال النواحي الباريسية ووجدت الدعم في أكثر القرى تخلفًا. وكما أن الأقسام استولت على الكومونة، استولت الكومونة بانتفاضة جديدة على المجلس الثوري (الكونفانسيون). وتميزت كل من هذه المراحل بازدواجية واضحة في السلطات كان جناحاها يسعيان إلى إقامة سلطة موحدة وقوية، وكان الجناح اليميني يلجأ إلى الدفاع، على حين يلجأ الجناح اليساري إلى الهجوم.

وتنبعث الحاجة إلى الديكتاتورية -هذه الحاجة التي تميز الثورات والثورات المضادة- عن التناقضات التي لا تحتمل للسلطة المزدوجة. ويتم الانتقال من أحد هذين الشكلين إلى الآخر بطريق الحرب الأهلية. ولكن المراحل الكبرى للثورة، أي انتقال السلطة إلى طبقات جديدة أو شرائح اجتماعية، لا تتطابق والحالة هذه أبدًا مع دورات المؤسسات البرلمانية التي تسير وراء ديناميكية الثورة وكأنها ظلها المتخلف. وفي نهاية المطاف اندمجت الديكتاتورية الثورية لعامة الشعب الكادح مع ديكتاتورية المجلس الثوري (الكونفانسيون)، ولكن مع أي مجلس ثوري؟ مع مجلس تخلَّص بالإرهاب من الذين كانوا يسيطرون عليه بالأمس، مجلس قل عدد أعضائه، وأصبح متطابقًا مع سيادة قوة اجتماعية جديدة. وهكذا ارتفعت الثورة الفرنسية خلال

أربع سنوات إلى نقطتها الحرجة، بواسطة درجات سلطة مزدوجة. وبدأت بالنزول اعتبارًا من ٩ ترميدور، ومن جديد بدرجات سلطة مزدوجة. ومرة أخرى أيضًا، سبقت الحرب الأهلية كل نزول، كما رافقت كل عملية صعود. وبهذا الشكل يفتش المجتمع الجديد عن توازن جديد للقوى.

وقد حصنت البرجوازية الروسية -التي قاتلت مع البيروقراطية الراسبوتينية وتعاونت معها- مواقعها السياسية خلال الحرب بصورة غريبة. وحشدت بين يديها قوة كبرى بواسطة اتحادات الزيمستفو والبلديات ولجان الصناعات الحربية، مستغلة هزائم القيصرية. وكانت تتصرف حسب أهوائها بأموال الدولة وميزانياتها الضخمة. وكانت تمثل في الوقت ذاته حكومة موازية. وكان وزراء القيصر يشتكون في فترة الحرب من رؤية الأمير لفوف يُمَوّن الجيش، ويغذّي الجنود ويعتني بهم، وينشئ لهم مؤسسات الحلاقين. وكان الوزير كريفوشيئين يقول منذ عام ١٩١٥: "ينبغي أن ننتهي من لفوف أو نسلمه كل السلطة". ولم يكن يتصور آنذاك أن لفوف سيستلم "كل السلطة" بعد ثمانية عشر شهرًا، لا من يد القيصر، ولكن من أيدي كرنسكي وتشخيدزه وسوخانوف. ومع ذلك فقد برزت في اليوم التالي لانتقال السلطة إليه، ازدواجية جديدة للسلطة، فإلى جانب نصف - الحكومة الليبرالية التي كانت سائدة بالأمس، والتي صبغت بعد ذلك الوقت بالطابع الشرعي، انبعثت حكومة غير رسمية ولكنها حكومة فعلية أكثر، هي حكومة الجماهير الكادحة، المشابهة للسوفييتات. واعتبارًا من هذا الوقت، بدأت الثورة الروسية بالارتفاع إلى مستوى حدث له دلالة تاريخية عالمية.

وفي هذا تكمن مع ذلك طرافة ازدواجية سلطات ثورية فبراير (شباط)؟ لقد شكلت ازدواجية السلطة في أحداث القرنين السابع عشر والثامن عشر، مرحلة طبيعية للصراع، مفروضة على أطراف الصراع بميزان مؤقت للقوى. وحاول كل طرف منهما عندئذ استبدال الازدواجية بسلطته الموحدة. وها نحن نرى في ثورة عام ١٩١٧ كيف شكلت الديمقراطية الرسمية، بوعي، وتبصر سابق، سلطة مزدوجة تدافع عن نفسها بكل قواها بغية الاستئثار بالسلطة لها وحدها. وتأسست الازدواجية، لأول وهلة، لا بعد صراع طبقي على السلطة بل نتيجة "لتنازل" بلا مقابل من طبقة إلى الأخرى. وعندما حاولت "الديمقراطية" الروسية الخروج من الازدواجية، لم تجد مخرجًا سوى الامتناع عن استلام السلطة. وهذا هو بالضبط ما سميناه "**مفارقة ثورة فبراير (شباط)**".

وربما كان بوسعنا أن نجد بعض التماثل في سلوك البرجوازية الألمانية في عام ١٨٤٨ إزاء الملكية، ولكن التماثل ليس كاملاً. صحيح أن البرجوازية الألمانية كانت تحاول بأي ثمن اقتسام السلطة مع الملكية على أسس اتفاق يتم بينهما. ولكن البرجوازية لم تكن تملك كامل السلطة بين يديها، لم تكن راغبة بالتنازل عنها كلية للملكية. "كانت البرجوازية البروسية تملك السلطة اسميًّا، ولم تشك لدقيقة واحدة أن قوى النظام القديم ستضع نفسها تحت تصرفها بدون أفكار سابقة، أو ستتحول إلى أنصار مخلصين لقوتها الخاصة" (ماركس وأنجلس) ولم تحاول الديمقراطية الروسية لعام ١٩١٧، التي كانت تملك السلطة بكاملها منذ وقوع الانتفاضة، اقتسام السلطة مع البرجوازية فحسب، بل حاولت أيضًا أن تتنازل لها بصورة كاملة عن الشئون العامة. وربما يعني هذا أن الديمقراطية الرسمية الروسية قد وصلت في الربع الأول من القرن العشرين إلى تفكك سياسي أكبر من تفكك البرجوازية الليبرالية الألمانية في منتصف القرن التاسع عشر. وإن هذا لمن طبيعة الأشياء لأنه هو الوجه السيئ للصعود الذي قامت به البروليتاريا في خلال هذه الحقبة الزمنية، واحتلت مكان حرفيي كرومويل وجماهير روبسبيير الشعبية.

فإذا ما درسنا الواقع بعمق أكبر، وجدنا أنه كان للسلطة المزدوجة للحكومة المؤقتة واللجنة التنفيذية طابع واضح. وكان المدعي بالسلطة الجديدة لا يمكن أن يكون بلا ريب سوى البروليتاريا. وكان التوفيقيون المعتمدون على العمال والجنود دون أية ضمانة مضطرين إلى الحفاظ على المحاسبة ذات القيد المزدوج للقياصرة والأنبياء، وكانت سلطة الليبراليين والديموقراطيين

المزدوجة تعكس فقط اقتسامًا للسلطة غير ظاهر بين البرجوازية والبروليتاريا. وعندما استعبد البلاشفة فيما بعد التوفيقيين من قمة السوفييتات -وقد حدث هذا بعد بضعة شهور- برزت الازدواجية الخفية للسلطات، وتم هذا في عشية ثورة أكتوبر (تشرين الأول) وقد عاشت الثورة حتى هذا التاريخ في عالم من الانحرافات السياسية. وتحولت ازدواجية السلطات، التي هي مرحلة من الصراع الطبقي، إلى فكرة منظمة. وأخذت تنحرف عبر مماحكات المثقفين الاشتراكيين. وهنا أخذت مكانها في المناقشة النظرية. لا شيء يضيع. وقد سمح لنا طابع بريق سلطة فبراير (شباط) المزدوجة بفهم مراحل التاريخ التي ظهرت فيه هذه الازدواجية كفترة فيض وسط صراع نظامين. وهكذا فإن ضوء القمر الضعيف يسمح لنا بالوصول إلى استنتاجات هامة حول ضوء الشمس.

وتكمن الخاصية الأساسية للثورة الروسية، التي قادت في أول الأمر إلى مفارقة ازدواجية السلطات نصف - الطيفية، في النضوج الكبير للبروليتاريا الروسية، بالمقارنة مع الجماهير الحضرية للثورات السابقة، ثم منعت فيما بعد الازدواجية الحقيقية من التحول لصالح البرجوازية؛ لأن المسألة كانت مطروحة على الشكل التالي: إما أن تستولي البرجوازية فعلاً على جهاز الدولة القديم، بعد أن جددته ليخدم مخططاتها، وعندها يصبح على السوفييتات أن تزول. أو تشكل السوفييتات قاعدة الدولة الجديدة، بعد أن تقضي، لا على جهاز الدولة القديم فحسب، بل على تفوق الطبقات التي كانت تستخدمه أيضًا. وقد توجه المناشفة والاشتراكيون – الثوريون نحو الحل الأول. وتوجه البلاشفة إلى الحل الثاني. ووجدت الطبقات المضطهدة نفسها، هذه الطبقات التي لم تكن تملك في الماضي حسب تعبير (مارات) معارف كافية، وتجربة، وقيادة لقيادة عملها حتى النهاية، وجدت هذه الطبقات نفسها، في ثورة القرن العشرين، مسلحة بهذه الصفات الثلاثة وانتصر البلاشفة.

وبعد عام من انتصار هذه الطبقات، طرحت المسألة ذاتها من جديد أمام ميزان آخر للقوى في ألمانيا. فقد كان الحزب الاشتراكي - الديموقراطي يتوجه نحو إقامة سلطة ديمقراطية للبرجوازية والقضاء على السوفييتات. وكانت روزا لوكسمبورغ وكارل ليبكنخت يتماسكان بديكتاتورية السوفييتات. وقد انتصر الاشتراكيون - الديموقراطيون. واقترح هيلفردينغ وكاوتسكي في ألمانيا، وماكس آلدر في النمسا "مزج" الديمقراطية بالأسلوب السوفييتي، وذلك عن طريق إدخال السوفييتات العمالية في الدستور. وكان هذا يعني تحويل الحرب الأهلية، الكامنة أو المعلنة إلى مركبة لنظام الدولة. ولا يمكن تصور مثل هذه الأفلاطونية الغريبة. وربما يكون تبريرها الوحيد فوق الأراضي الألمانية تقليد قديم؛ فلقد كان ديموقراطيو فرتمبرغ يريدون في عام ١٨٤٨ جمهورية يرأسها الدوق شقيق الإمبراطور.

فهل تتناقض ظاهرة ازدواجية السلطة، التي لم تقدر بصورة كافية حتى الآن، مع النظرية الماركسية للدولة التي تعتبر الحكومة كاللجنة التنفيذية للطبقة السائدة؟ أي يعني: هل يناقض تذبذب الأسعار، تحت تأثير العرض والطلب، نظرية القيمة المستندة إلى العمل؟ وهل تدحض تضحية الأنثى التي تدافع عن صغيرها نظرية الصراع من أجل البقاء؟ كلا، إننا نجد في هذه الظواهر فقط، مزجًا أكثر تعقيدًا للقوانين ذاتها. فإذا كانت الدولة هي منظمة التفوق الطبقي، وكانت الثورة هي بديل الطبقة السائدة، فإن انتقال السلطة من أيدي الأولى إلى أيدي الأخرى، يخلق بالضرورة صراعًا في وضع الدولة، يظهر في بادئ الأمر على شكل ازدواجية في السلطة. وليس الميزان الطبقي للقوى عددًا حسابيًّا صالحًا لحساب مسبق. فعندما خسر النظام القديم توازنه، لم يكن من الممكن إقامة ميزان جديد للقوى إلا نتيجة لتحقق القوى المتبادلة في المعركة. وهذه هي الثورة.

وقد يبدو أن هذا الاستطراد النظري قد شغلنا عن أحداث عام ١٩١٧. والحقيقة، إن هذا الاستطراد يدخلنا في قلب الموضوع. فقد كان الصراع المأساوي للأحزاب والطبقات يتطور حول مسألة ازدواجية السلطة. ومن قمة هذه النظرية فقط يمكننا أن نحتضن بأنظارنا هذا الصراع، وأن نفهمه بصورة صحيحة.

اللجنة التنفيذية

في ٢٧ فبراير (شباط) تشكل في قصر توريد لجنة أطلق عليها اسم "**اللجنة التنفيذية لسوفييت مندوبي العمال**" دون أن يكون تركيبها منطبقًا على اسمها. ومن المعروف أن أول سوفييت لمندوبي العمال تشكل في عام ١٩٠٥ أثر إضـــرابٍ عـــام. وكان يمثل بشكل مباشر الجماهير المناضلة؛ إذ أن زعماء الإضراب غدوا مندوبين في السوفييت، وتـــم اختيـــار الأشـــخاص وتصنيفهم تحت النار. وانتخب السوفييت جهاز القيادة (اللجنة التنفيذية) لمتابعة النضال فيما بعد. وقامت اللجنة التنفيذية في عام ١٩٠٥ بطرح مسألة الانتفاضة المسلحة ووضعها موضع التنفيذ.

ولكن ثورة فبراير (شباط) انتصرت بفضل انتفاضة الأفواج العسكرية قبل أن يشكل العمال سوفييتاتهم. وهكذا تـــشكلت اللجنة التنفيذية بشكل اعتباطي قبل تكوين السوفييت، وبصورة مستقلة عن المصانع والأفواج، وبعـــد انتـــصار الثـــورة علـــى القيصرية. وإننا لنرى هنا المبادهة التقليدية للراديكاليين الذين يقفون موقف المتفرج خلال الصراع الثوري، ثم ينـــدفعون بعـــد النصر لاقتطاف الثمار. ولم يكن الزعماء العماليون الحقيقيون قد تركوا الشارع بعد، وكانوا يجردون الـــبعض مـــن ســـلاحهم ليسلحوا البعض الآخر، ويدعموا النصر بقوة السلاح. وتلقى أكثر هؤلاء الزعماء فطنة خبرًا يقول بأن المحاولات تجـــري فـــي قصر توريد لخلق سوفييت مندوبي العمال. ففهموا دلالة هذا الخبر وأبعاده. وكما قامت البرجوازية الليبرالية في خريـــف عـــام ١٩١٦، وخلال انتظار ثورة القصر التي لا بُدَّ أن يقوم بها أحدهم بإعداد حكومة احتياطية لفرضها على القيصر الجديد في حالة النجاح فإن المثقفين الراديكاليين شكَّلوا شبه حكومة احتياطية في لحظة انتصار فبراير (شباط). وبما أنهم كانوا -فـــي الماضـــي على الأقل- جزءًا من الحركة العمالية، فإنهم عملوا على التستر وراء تقاليد هذه الحركة، فأطلقوا على مولودهم الجديـــد لقـــب "**اللجنة التنفيذية للسوفييت**". وهذا مثال واضح لعمليات التزوير شبه الواعية التي تملأ التاريخ عامـــة، وتـــاريخ الانتفاضـــات الشعبية بصورة خاصة.

عندما تأخذ الأحداث اتجاهًا ثوريًا، ويتحطم نظام التسلسل كله، تتمسك الشرائح "المثقفة" المدعوة للمشاركة بالسلطة بالأسماء والرموز المرتبطة بالذكريات البطولية للجماهير. وتخفي الكلمات عادة روح الأشياء وجوهرها، وخاصة عندما يتعلق الأمر بمصالح الشرائح المسيطرة. ولقد استمدت اللجنة التنفيذية سلطتها الكبيرة منذ يوم تشكيلها، من ادعائها بأنهـــا اســـتمرار لسوفييت ١٩٠٥. وأقِّر تشكيل هذه اللجنة في الاجتماع الأول الذي عقده السوفييت وسط فوضى شاملة. ولـــم تلبـــث أن أثَّـــرت بشكل ملحوظ على تركيب السوفييت وعلى السياسة كلها. وكان هذا التأثير محافظًا؛ نظرًا لتوقف الاختيار الطبيعـــي للممثلـــين الثوريين، والذي يتم عادة وسط مناخ النضال. فلقد غدت الانتفاضة جزءًا من الماضي، وانتشى الجميع بخمرة النصر، وأخـــذوا يعيدون تنظيم وجودهم، وبدا الضعف على النفوس، وأصاب هذا الضعف بعض الرءوس. واحتاج الأمر فيما بعد إلى شهور من الصراع الجديد والنضال في ظروف جديدة حددت إعادة تجمعات الرجال، قبل أن تصبح السوفييتات التي أكملت النـــصر بعـــد وقوعه، أجهزة حقيقية للنضال وإعداد ثورة جديدة. وإننا لنؤكد على هذا المظهر من مظاهر القضية بعد أن بقي في الظل حتـــى الآن.

ولكن الطبيعة المعتدلة التوفيقية التي اتسمت بها اللجنة التنفيذية والسوفييت لم تأت من الظروف التي أحاطت بتـــشكيلها فحسب، بل ساعد على ذلك أسباب أكثر عمقًا وأبعد مدى.

فلقد كان في بتروغراد أكثر من ١٥٠ ألف جندي. وكان عدد العمال والعاملات من مختلف المستويات يعـــادل أربعـــة أضعاف ذلك. ومع هذا كان كل مندوبَين للعمال يقابلهما خمسة مندوبين عن الجنود. وكانت نسبة التمثيل مطَّاطة مرنة إلى حـــد

بعيد. وكانت كافة الامتيازات لصالح الجنود. وكان كل ألف عامل ينتخبون مندوبًا واحدًا على حين كانت وحدات عسكرية صغيرة ترسل مندوبين. وهكذا غدا لون المعاطف الرمادية اللون السائد في لوحة السوفييت.

وبالإضافة إلى ذلك فإن انتخاب كافة المندوبين المدنيين لم يتم من قبل العمال! فلقد قَبل السوفييت عددًا من الأشخاص بناء على دعوة شخصية، أو لتمتعهم بحماية مجموعة ما، أو بفضل ألاعيبهم الفردية، وكانوا من المحامين والأطباء الراديكاليين، والطلاب، والصحفيين الذين يمثلون أحيانًا مختلف المجموعات المعقدة، ويمثلون في أغلب الأحيان تطلعاتهم الخاصة. ولقد وافق الزعماء على هذا الإفساد الأكيد لطبيعة السوفييت، نظرًا لرغبتهم في تخفيف حدة مندوبي المصانع والثكنات ببعض ممثلي البرجوازية الصغيرة المثقفة. ونجح عدد من هؤلاء القادمين الصدفيين الجدد، والباحثين عن المغامرات، والدجالين، والثرثارين المعتادين على الخطابة، والقادرين على فرض شخصيتهم والتحدث بحزم وشدة، وفرضوا سيطرتهم فترة طويلة على العمال الصامتين والجنود المترددين.

وإذا كان الأمر كذلك في بتروغراد فإن بوسعنا أن نتصور سير الأمور في المحافظات التي تحقق فيها النصر دون أي نضال. وكانت البلاد كلها تعج بالجنود. وكان تعداد حامية كييف وهلسنغفورز وتفليس لا يقل عن تعداد حامية بتروغراد. وكانت حامية ساراتوف وسامارا وطامبوف وأومسك تتراوح بين ٧٠ و٨٠ ألف جندي. على حين كانت الحامية في كل من ياروسلاف وإيكاتيرينوسلاف وإيكاتيرينبورغ تضم ٦٠ ألف جندي. وكانت في سلسلة طويلة من المدن تضم ٥٠ أو ٤٠ أو ٣٠ ألفًا. وتم تنظيم التمثيل السوفييتي بصورة متباينة حسب اختلاف الأماكن، ولكنه أعطى القطعات العسكرية في كل مكان وضعًا متميزًا. وهكذا تجسدت محاولة العمال للتقارب من الجنود إلى أبعد حد ممكن. وسعى الزعماء سعيًا حثيثًا إلى إرضاء الضباط. فبالإضافة إلى عدد كبير من الملازمين والملازمين الأولين الذين خرجوا في المرحلة الأولى من صفوف الجنود، منحت السلطات للقادة وخاصة في المحافظات حق تقديم ممثلين عنهم. ونجم عن ذلك أن حصل العسكريون في العديد من السوفييتات على أكثرية ساحقة. وهكذا استطاعت جماهير الجنود التي لم تأخذ بعد طابعًا سياسيًّا تحديد طابع السوفييتات عن طريق مندوبيها.

إن كل تمثيل يضم عنصر انعدام التناسب. وتزداد أهمية هذا العامل بصورة خاصة في الفترة التي تلي الثورة مباشرة. وكثيرًا ما كان المندوبون في البداية من الجنود العاجزين سياسيًّا، والأشخاص الذين لا علاقة لهم بالجيش أو بالثورة، والمثقفين وأنصاف المثقفين من كل نوع، وللقابعين في حاميات المؤخرة، والقادرين على الظهور بمظهر الوطنيين المتطرفين. وهكذا حصل تباين بين عقلية الثكنات وعقلية السوفييتات. ولقد تحدث الضابط ستانكيفيتش -الذي استقبلته كتيبته بعد الانتفاضة بكثير من التجهم والحذر- أمام فصيلة من الجنود عن موضوع الانضباط الشائك وتساءل: "لم تبدو الحالة الفكرية في السوفييت أكثر عذوبة وأشد لطفًا من الحالة الفكرية السائدة في الكتيبة؟" ويدل عدم الفهم هذا على الصعوبات التي تَلَقاها أحاسيس القاعدة عندما تحاول فتح طريقها نحو القمة.

ومع هذا، فقد بدأت اجتماعات الجنود والعمال منذ ٣ مارس (آذار) تطالب السوفييت بحل الحكومة البرجوازية الليبرالية المؤقتة فورًا، واستلام السلطة بصورة مباشرة. وانطلقت المبادهة بالنسبة لهذه النقطة أيضًا من حي فيبورغ. وهل كان هناك مطلب تفهمه الجماهير وتتقبله مثل هذا المطلب؟ ثم لم يلبث هذا التحريض أن توقف؛ لأن أنصار الدفاع الوطني عارضوه بشدة وعنف؛ ولأن القيادة البلشفية انحنت منذ النصف الأول من شهر مارس (آذار) أمام ازدواجية السلطة. مع أنه لم يكن أي تنظيم باستثناء البلاشفة قادرًا على طرح مسألة السلطة بشكل كامل. واضطر زعماء فيبورغ إلى التراجع. ولم يمنح عمال بتروغراد ثقتهم للحكومة الجديدة ساعة واحدة، ولم يعتبروها حكومتهم أبدًا. ولكنهم كانوا يستمعون جيدًا إلى الجنود، ويبذلون قصارى جهدهم كيلا يجابهونهم بعنف. أما الجنود الذين بدءوا يتلمسون أول المفاهيم السياسية، فقد كانوا من الفلاحين المعدمين، ولا

يعطون ثقتهم لأحد من السادة، ويصغون باهتمام كبير إلى مندوبيهم الذين يستمعون بدورهم لزعماء اللجنـــة التنفيذيـــة، أولئـــك الزعماء الذين كانوا يجسون بقلق نبض البرجوازية الليبرالية. وكان كل شيء من الأسفل إلـــى الأعلـــى -مـــستندًا إلـــى هـــذا الموضوع- مؤقتًا.

وفي هذه الفترة كانت الحالة المعنوية للقاعدة تظهر بوضوح متزايد، وأخذت مسألة السلطة تظهر بعد إبعادها المصطنع، وتأخذ غالبًا شكلاً مموَّهًا. وأعلنت النواحي والمناطق "أن الجنود لا يعرفون من يطيعون"، وكان إعلانها هـــذا تـــذكيرًا للجنـــة التنفيذية بوجود ازدواجية السلطة. وفي ١٦ مارس (آذار) أعلنت وفود أسطولي البلطيق والبحر الأحمر أنها مستعدة للاعتـــراف بالحكومة المؤقتة إذا ما سارت هذه الحكومة وفق خطوات اللجنة التنفيذية. وهذا يعني أن هؤلاء المندوبين لا يقيمون للحكومـــة المؤقتة أي وزن. وتزايد إلحاح هذه الفكرة ووضوحها مع مرور الزمن. وذكرت مقررات الفوج ١٧٢ ما يلي: "علـــى الجـــيش والشعب أن لا يطيعا سوى قرارات السوفييت" ثم أضافت إلى ذلك: "أن تعليمات الحكومة المؤقتة المتعارضـــة مـــع قـــرارات السوفييت لا تستوجب التنفيذ". ووافقت اللجنة التنفيذية على هذا الموقف وسط إحساس مفعم بالرضى والقلق بآن واحد. وقبلـــت الحكومة ذلك وهي تصر على أسنانها غيظًا. ولم يكن بوسع الحكومة المؤقتة المتعارضة مع قرارات الـــسوفييت لا تـــستوجب التنفيذ". ووافقت اللجنة التنفيذية على هذا الموقف وسط إحساس مفعم بالرضى والقلق بآن واحد. وقبلت الحكومـــة ذلـــك وهـــي تصر على أسنانها غيظًا. ولم يكن بوسع الحكومة المؤقتة أو اللجنة التنفيذية القيام بأي شيء آخر.

ومنذ بداية مارس (آذار) ظهرت السوفييتات في جميع المدن الرئيسية والمراكز الصناعية. ثم انتقلت بعد عدة أسابيع إلى كافة أرجاء البلاد. ولكنها لم تشمل الريف كله إلا في أبريل - مايو (نيسان - أيار). وكان الجيش يتحدث مبدئيًّا باسم الفلاحين.

وأخذت اللجنة التنفيذية لسوفييت بتروغراد بصورة طبيعية أهمية مؤسسة كبرى على مستوى الدولـــة. وســـارت بقيـــة السوفييتات على خطى سوفييت العاصمة، وأخذت توافق بصورة متدرجة على مقررات دعم الحكومـــة المؤقتـــة المـــشروط. وسارت العلاقات بين سوفييت بتروغراد وسوفييتات المناطق في الأشهر الأولى بكل سهولة، ولم تشهد هـــذه العلاقـــات أيـــة صراعات أو خلافات جادة. ولكن الوضع كله كان يؤكد ضرورة وجود تنظيم على مستوى الدولة. وبعد قلب الحكـــم المطلـــق بشهر واحد، دُعي إلى عقد المؤتمر الأول للسوفييتات، وكان هذا المؤتمر ناقصًا وحيد الاتجـــاه. وكانـــت ســـوفييتات المـــدن الصغرى تشكل ثلثي التنظيمات الـــ ١٨٥ الممثلة، ويتألف معظمها من سوفييتات الجنود. فإذا أضفنا إلى ذلك مندوبي تنظيمـــات الجبهة، وجدنا أن المندوبين العسكريين، ومعظمهم من الضباط، كانوا يشكلون أكثرية ساحقة داخل المؤتمر. وانطلقت الخطـــب التي تتحدث عن الحرب حتى النصر الكامل، كما انطلقت الشتائم الموجهة إلى البلاشفة رغم اعتدال موقفهم أكثر ممـــا ينبغـــي. وألحق المؤتمر بسوفييت بتروغراد ١٦ مندوبًا محافظًا من المقاطعات، على اعتبار أنه مؤسسة على نطاق الدولة كلها.

ووجد الجناح اليميني كل دعم. ومنذ ذلك الوقت أخذ البعض يضغط على المتذمرين بصورة متزايـــدة ويهـــددهم بقـــوة المناطق. ولم يُنفذ القرار المتخذ في ١٤ مارس (آذار) والخاص بإعادة تشكيل سوفييت بتروغراد. ولم يكن هـــذا فـــي الحقيقـــة مهمًا، فليست القرارات بيد أي سوفييت محلي بل بيد اللجنة التنفيذية لعموم روسيا. واحتل الزعماء الرسميون وضـــعًا يتعـــذر الوصول إليه تقريبًا. واتخذت أهم القرارات في اللجنة التنفيذية، أو بالأحرى داخل نواتها القيادية بالتفاهم مع نـــواة الحكومـــة. وتُرك السوفييت بعيدًا عن كل قرار، واعتبر وكأنه اجتماع عام لا سلطة له، "ولا تتقرر السياسة هنا في الجمعيـــات العموميـــة، وليس لكل هذه "الاجتماعات العامة أية أهمية علمية" (سوخانوف). وأعجب زعمـــاء مـــصير الـــبلاد بأنفـــسهم، واعتبـــروا أن السوفييتات أنهت مجمل مهمتها عندما سلمتهم مقاليد الأمور. ولكن المستقبل القريب جاء ليؤكد فيما بعد خطـــأ هـــذا التفكيـــر. صحيح أن الجماهير صبورة، ولكنها لا تشكل عجينة يسهل للمرء تكييفها على هواه. وهي تتعلم في الفترات الثوريـــة بـــسرعة بالغة. وهنا تكمن أكبر قوة تتمتع بها الثورة.

ولفهم تطور الأحداث اللاحق بشكل أفضل، لا بُدَّ لنا من الوقوف عند صفات الحزبين اللذين شكلا في بداية الثورة كتلة متماسكة، وسيطرا على السوفييتات والبلديات الديمقراطية، وحصلا على الأكثرية في مؤتمرات الديمقراطية الملقبة "بالثورية"، وحافظا على أكثريتهما المتزايدة يومًا بعد يوم حتى انعقاد المجلس التأسيسي الذي كان آخر انعكاس لسلطتهم القديمة، تمامًا كما يكون احمرار ذروة الجبل عندما تضيئها شمس غاربة!

وإذا كانت البرجوازية الروسية قد ظهرت بشكل جد متأخر عرقل انقلابها إلى قوة ديمقراطية، فإن الديمقراطية الروسية أرادت الظهور بمظهر الاشتراكية للسبب نفسه. فلقد استنزفت الأيديولوجية الديمقراطية إلى حد بعيد خلال القرن التاسع عشر. وكان على الأنتليجنسيا الراديكالية الروسية في مطلع القرن العشرين أن تأخذ طابعًا اشتراكيًّا إذا ما أرادت التقرب من الجماهير. وكان هذا هو مجمل السبب التاريخي الكامن وراء خلق حزبين وسطيين هما: المناشفة، والاشتراكيون - الثوريون. علمًا بأنه كان لكل واحد منهما أصله الخاص وأيديولوجيته المستقلة.

فلقد بنى المناشفة مفاهيمهم على قاعدة ماركسية وكان من جراء تخلف روسيا التاريخي أن اعتبرت الماركسية فيها في بداية الأمر حجة لصالح التطور البورجوازي المحتوم في البلاد، لا نقدًا موجهًا إلى المجتمع الرأسمالي. وعندما ظهرت الحاجة لعقيدة ما، استخدم التاريخ بخبث النظرية المخصصية للثورة البروليتارية بغية العمل بعقلية برجوازية لتطور أجزاء واسعة من الأنتليجنسيا الشعبية الزنخة، وإعطائها طابعًا أوروبيًّا. ولقد احتل المناشفة في هذا المجال أكبر مكان. وكانوا يشكلون الجناح اليساري للأنتليجنسيا البرجوازية، ويربطون هذه الأنتليجنسيا بالشرائح الوسطية التي تضم العمال المعتدلين المؤمنين بالعمل الشرعي حول مجلس الدوما وداخل النقابات.

وكان الاشتراكيون - الثوريون على العكس يعارضون النظرية الماركسية ويتلقون جزءًا من تأثيرها. وكانوا يعتبرون أنفسهم حزبًا يحقق تحالف المثقفين، والعمال، والفلاحين، تحت لواء العقل النقاد. وتبدو أفكارهم على الصعيد الاقتصادي مزيجًا فجًا من مختلف الترسبات التاريخية، بعكس الظروف المتناقضة التي يعيشها الفلاحون في بلد تنمو فيه الرأسمالية بسرعة متزايدة.

وكان الاشتراكيون - الثوريون يرون بأن على الثورة المقبلة أن لا تكون برجوازية أو اشتراكية، بل "ديمقراطية"، وهذا يعني أنهم استعاضوا عن المحتوى الاجتماعي بصيغة سياسية. فشقوا لأنفسهم بذلك طريقًا بين البرجوازية والبروليتاريا، وأخذوا دور الحكم بين هاتين الطبقتين. وبدا للبعض بعد فبراير (شباط) أن الاشتراكيين - الثوريين اقتربوا من هذا الوضع إلى حد بعيد.

وكانت جذور الاشتراكيين - الثوريين منذ الثورة الأولى ممتدة إلى طبقة الفلاحين. وفي الأشهر الأولى من عام ١٩١٧ تشبعت الأنتليجنسيا الريفية كلها بشعار الشعبيين التقليدي: "الأرض والحرية". وكان المناشفة يعتمدون على سكان المدن، على حين كان الاشتراكيون - الثوريون يعتمدون على قواعدهم الريفية. ومع هذا فقد مد الاشتراكيون - الثوريون سيطرتهم حتى شملت المدن، خاصة وأنهم اكتسبوا غالبية الأصوات داخل السوفييتات، وفصائل الجنود، وأول البلديات الديمقراطية. وبدت قوة هذا الحزب الظاهرية بلا حدود، ولم يكن هذا سوى وهم سياسي محض لا يستند إلى أية حقيقة راسخة.

إن حزبًا يصوّت له الجميع، باستثناء أقلية تعرف لمن ينبغي أن تصوت، لا يشكل حزبًا. كما أن الألفاظ التي يستخدمها الرُضَّع في كل بلاد العالم لا تشكل لغة قومية.

والحقيقة أن الحزب الاشتراكي - الثوري أعطى اسمه إلى كل ما هو بدائي، معدوم الشكل، مضطرب، داخل ثورة فبراير (شباط). وكان كل من لم يملك قبل الثورة ماضيًا يجبره على التصويت لصالح الكاديت أو البلاشفة يصوت للاشتراكيين - الثوريين. ولكن الكاديت كانوا يتمركزون في معسكر الملاكين. وكان البلاشفة آنذاك قلة، غير مفهومة، ينظر البعض إليها بهلع. وكان التصويت للاشتراكيين - الثوريين يعني التصويت للثورة بمجملها مع عدم الالتزام بشيء. وكان تأييد هذا الحزب يمثل في المدن محاولة الجنود للتقارب مع الحزب المدافع عن مصالح الفلاحين، ومحاولة العناصر العمالية المتخلفة للتقارب مع الجنود، ومحاولة من صغار سكان المدن تستهدف عدم الانفصال عن الجنود والفلاحين. وكانت بطاقة العضوية في الحزب الاشتراكي - الثوري تعطي المرء خلال هذه الحقبة حقًا مؤقتًا بالدخول إلى المؤسسات الثورية، وتحتفظ بقيمتها حتى يتم استبدالها بوثيقة ذات قيمة أكبر. ولم يكن من قبيل الصدف أن أطلق على هذا الحزب الكبير الذي يضم كل من هبَّ ودبَّ اسم "الصفر الضخم".

ومنذ الثورة الأولى استنتج المناشفة من الطبيعة البرجوازية للثورة ضرورة التحالف مع الليبراليين، وأعطوا هذا التحالف أهمية تفوق أهمية التعاون مع الطبقة الفلاحية التي نظروا إليها كحليف غير مضمون. وكان البلاشفة على العكس يرون آفاق الثورة في تحالف البروليتاريا مع الفلاحين ضد البرجوازية الليبرالية. وكان اعتبار الاشتراكيين - الثوريين لأنفسهم حزبًا فلاحيًّا قبل أي شيء آخر، يدفع إلى الاعتقاد بأنهم سيؤيدون أي تحالف بين البلاشفة والشعبيين ضد تحالف المناشفة والبرجوازية الليبرالية. ولكننا نرى في الحقيقة أن ثورة فبراير (شباط) شهدت تجمعًا معكوسًا؛ إذ عمل المناشفة والاشتراكيون - الثوريون بتنسيق وثيق كمَّل كتلتهم مع البرجوازية الليبرالية. على حين كان البلاشفة على الصعيد السياسي الرسمي معزولين كل الانعزال.

ولكن هذا الواقع الغريب ظاهريًّا هو في الحقيقة واقع جد منطقي؛ إذ لم يكن (الاشتراكيون – الثوريون) حزبًا فلاحيًّا، رغم تعاطف الأرياف الكبيرة مع شعاراتهم. وكانت نواة الحزب الأساسية التي تحدد السياسية العملية، وتقدُّم الوزراء والموظفين مرتبطة بأوساط الليبراليين والراديكاليين في المدن أكثر من ارتباطها مع جماهير الفلاحين الثائرة. ولقد انتفخت هذه النواة القيادية إلى حد بعيد بفضل مد الاشتراكيين - الثوريين من أنصار الحرب. وبدأت تخاف من سعة الحركة العمالية السائرة تحت شعاراتها. صحيح أن أفراد الرعيل الأخير من الشعبيين كانوا يتمنون كل الخير للفلاحين، ولكنهم لم يكونوا يودون رؤية "الديك الأحمر"[١]، ولا يرغبون باندلاع الحريق. وكان خوف الاشتراكيين - الثوريين أمام الأرياف الثائرة، يشبه إلى حد بعيد خوف المناشفة من زخم هجوم البروليتاريا. و**الخلاصة** أن خوف الديموقراطيين كان يعكس خطرًا حقيقيًّا كامنًا في حركة المعدمين ضد الطبقات المالكة، وهذا ما دفع الطبقات المالكة إلى التجمع في معسكر واحد يضم الرجعية البرجوازية والنبيلة. وجاء تكتل الاشتراكيين - الثوريين مع النبيل الإقطاعي لفوف ليحدد انفصال هذا الحزب عن الثورة الزراعية، تمامًا كما حدد تكتل المناشفة مع الصناعيين وكبار الممولين من أمثال غوتشكوف وتيريشتشنكو وكونوفالوف انفصال هذا الحزب عن البروليتاريا. وكان تحالف المناشفة مع الاشتراكيين الثوريين لا يعني في هذه الظروف تعاون البروليتاريا مع الفلاحين، بل تحالف حزبين قطعا كل صلاتهما مع البروليتاريا والريف؛ بغية خلق كتلة مشتركة مع الطبقات المالكة.

ويدلنا كل هذا على زيف اشتراكية هذين الحزبين الديموقراطيين. ولكن هذا لا يعني أن ديموقراطيتهما كانت حقيقة. كلا، إن فقر ديموقراطيتهما هو الذي دفعهما إلى البحث عن تمويه اشتراكي. لقد شنَّت البروليتاريا الروسية نضالها في سبيل الديمقراطية عبر صراع رهيب مع البرجوازية الليبرالية. وكان على الأحزاب الديمقراطية المتكتلة مع البرجوازية الليبرالية الدخول في صراع محتوم ضد البروليتاريا. هذه هي الجذور الاجتماعية للصراع الطويل الذي دار فيما بعد بين التوفيقيين والبلاشفة.

إذا أعدنا التطورات المذكورة آنفًا إلى آليتها الطبقية المجردة، التي لم يعِ كل إبعادها ولا شك أفراد الحـزبين التـوفيقيين وزعماؤهما، توصلنا إلى توزيع المهمات التاريخية التقريبي التالي: لم تعد البرجوازية قادرة على امتلاك الجماهير؛ لـذا فإنهـا باتت تخشى الثورة. ولكن الثورة ضرورية لتطور البرجوازية. وانفصل عن البرجوازية الموسرة مجموعتان تـضمان أخوتهـا وأبناءها الشبان. واتجهت إحدى هاتين المجموعتين نحو العمال، على حين اتجهت الثانية نحو الفلاحين. وحاولت كـل واحـدة منهما اجتذاب العمال والفلاحين وبرهنتا بإخلاص وحماس على أنهما اشتراكيتان معاديتان للبرجوازية. وحصلت بـذلك علـى تأثير حقيقي كبير داخل صفوف الشعب. ولم تمضِ فترة قصيرة حتى تجاوزت تأثيرات أفكارهما حـدود تفكيرهمـا. وأحـست البرجوازية بخطر الموت المحدق بها، فأعطت إشارة الإنذار، وردت المجموعتان اللتان انفصلتا من قبل عن البرجوازيـة (أي المناشفة والاشتراكيين - الثوريين) على نداء الأخ الأكبر. وتجاوزتا عددًا من الخلافات القديمة، وتعاضدتا، وأدارتا ظهريهمـا للجماهير، واندفعتا لنجدة المجتمع البورجوازي.

ويتسم الاشتراكيون - الثوريون، حتى بالمقارنة مع المناشفة، بقسط كبير من التفتت والتراخي. وكان البلاشفة يعتبرونهم في كافة اللحظات الحرجة عبارة عن كاديت من الدرجة الثالثة. على حين كان الكاديت يعتبرونهم بلاشفة من الدرجـة الثالثـة. وكانت الدرجة الثانية في الحالتين من نصيب المناشفة. وكانت قاعدة الاشتراكيين - الثوريين المتحركة، وأيـديولوجيتهم الـلا واضحة تؤديان إلى اختيار أشخاص يتسمون بالصفات نفسها؛ لذا كان كافة زعماء هـذا الحـزب يحملـون طـابع الـنقص، والسطحية، والخفَّة المعنوية. ويمكننا أن نقول دون أية مبالغة، بأن أي بلشفي من القاعدة، كان يتمتع بوضوح سياسـي، وفهـم للعلاقات بين الطبقات، أكثر من أكبر زعماء الاشتراكيين - الثوريين وأكثرهم شهرة.

ولم تكن مقاييس الاشتراكيين - الثوريين ثابتة، وهذا ما جعلهم يخضعون لكثير من المتطلبات الأخلاقية. ومن الواضـح أن ادعاءاتهم بالتمسك بالأخلاقيات لم يمنعهم من اللجوء خلال تنفيذ السياسة الكبرى إلى الخبث الدنيء الذي تتـسم بـه عـادة الأحزاب الوسطية المحرومة من القاعدة الصلبة، والعقيدة الواضحة، والمحور الخلقي الصحيح.

وكان المناشفة يحتلون منصب القيادة داخل الكتلة التي شكلوها مع الاشتراكيين - الثوريين، رغـم أن الغالبيـة كانـت لصالح الاشتراكيين - الثوريين. ويترجم توزيع الأدوار بهذا الشكل سيطرة المدينة على الريف. وتفوُّق البرجوازيـة الـصغيرة الحضرية على البرجوازية الصغيرة الريفية. والامتياز الأيديولوجي الذي تحس به الأنتليجنسيا "الماركسية" بالنسبة للأنتليجنـسيا الأخرى المتمسكة بالأفكار الاجتماعية الوطنية "للروس الحقيقيين"، والمنبثقة من فقر تاريخ البلاد القديم.

ولم يكن لأحزاب اليسار في العاصمة خلال الأسابيع الأولى بعد الثورة أية قيادة حقيقيـة؛ إذ كـان زعمـاء الأحـزاب الاشتراكية يعيشون في المنفى. واتجه زعماء الصف الثاني نحو المركز قادمين من الشرق الأقصى. ونجم عن ذلـك وقـوف الزعماء المؤقتين موقف الانتظار الحذِر الذي قرَّب فيما بينهم. ولم تذهب أية مجموعة قيادية في هـذه الأسـابيع إلـى طـرح أفكارها بشكل كامل. وكان صراع الأحزاب داخل السوفييت يسير بشكل سلمي تمامًا، وبدا الأمر وكأنه يتعلق بتمايزات بـسيطة داخل "ديمقراطية ثورية" واحدة. ومن المؤكد أن وصول تسيريتلي القادم من منفاه في ١٩ مارس (آذار)، جعل القيادة السوفييتية تنحرف فجأة نحو اليمين، وتؤكد على ضرورة تحمل مسئولية السلطة والحرب. كما أن البلاشفة أنفسهم اتجهوا بـسرعة نحـو اليمين في منتصف مارس (آذار) تحت تأثير كامنييف وستالين بعد عودتهما من المنفى. وهذا ما جعل المـسافة الفاصـلة بـين الغالبية السوفييتية والمعارضة اليسارية في بداية إبريل (نيسان)؛ أي في اليوم التالي لقدوم لينين إلى بتروغراد.

وكان على رأس الميول المختلفة في الحزب المنشفي وجوه شهيرة معروفة، دون أن يكون بينها قائد ثوري واحد. وكان أقصى اليمين تحت قيادة الأساتذة القدماء في الحزب الاشتراكي - الديموقراطي الروسي: بليخانوف وزاسوليتش ودوتـش، قـد

وقف موقفًا وطنيًّا منذ أيام الحكم القيصري. وفي عشية ثورة فبراير (شباط)، نشر بليخانوف في إحدى الصحف الأمريكية مقالاً مفعمًا بالشكوى، أشار فيه إلى أن الإضرابات وكافة أساليب العمال النضالية في روسيا تعتبـر منـذ الآن أعمـالاً إجراميـة. وارتبطت أوساط واسعة من المناشفة القدماء المتمثلين بـ: مارتوف ودان وتسيريتلي بمعسكر الزيمرفالديين، ورفـضت كـل المسئولية الخاصة بالحرب. ولكن أُممية المناشفة اليساريين، والاشتراكيين – الثوريين اليساريين كانت تخفي في معظم الحالات عقلية المعارضة الديمقراطية. وأدَّت ثورة فبراير (شباط) إلى عودة معظم هؤلاء "الزيمرفالديين" إلى تأييد فكرة الحـرب التـي أخذوا يرون فيها وسيلة للدفاع عن الثورة. وكان تسيريتلي أكثر المتحمسين في هذا المجال، ولقد جـر وراءه (دان) وآخـرين غيره.

وفوجئ مارتوف بالحرب وهو في فرنسا، ولم يعد إلى البلاد إلا في ٩ مايو (آيار) ولكنه رأى بكل وضوح أن زمـلاء البارحة وصلوا بعد ثورة فبراير (شباط) إلى النقطة التي انطلق منها غيسد وسيمبا وغيرهما في عام ١٩١٤، عندما دافعوا عـن الجمهورية البرجوازية ضد التسلطية الجرمانية. وأخذ مارتوف قيادة جناح المناشفة اليساري الذي لم يتح له أن يلعـب أي دور هام في الثورة، ودفعه هذا إلى الوقوف موقف المعارضة من سياسة تسيريتلي - دان، ومعارضة أي تقـارب بـين المناشـفة اليساريين والبلاشفة. وكان تسيريتلي المتحدث الرسمي باسم المناشفة، وسار وراء غالبية أعضاء الحزب؛ إذ اتحد وطنيـو مـا قبل الثورة دونما عناء، مع وطنيي نداء فبراير (شباط). وكان مع بليخانوف مجموعته الشوفينية إلى أبعد مدى، والواقفة خارج الحزب وخارج السوفييت أيضًا. ولم يترك جناح مارتوف الحزب، ولم يعمد إلى إصدار صحيفة خاصة، ولم يكن لـه سياسـة مستقلة. وطاش صواب مارتوف كعادته في الأحداث الكبيرة، ولم يعد يستقر على رأي، ولا شك في أن الثورة لم تلحـظ فـي عامي ١٩٠٥ و١٩١٧ وجود هذا الشخص الهام الجليل.

وترأس سوفييت بتروغراد، واللجنة التنفيذية المركزية، بصورة شبه آلية، تشخيدزه زعيم المجموعة المنشفية في مجلس الدوما. وحاول هذا الزعيم أن يضم إلى واجباته كل ما كان لديه من شرف وأخلاق، مستخدمًا المزاح الفاشل لتغطية قلقه الدائم. وكان يحمل البصمات التي تركها أصله الريفي على شخصيته. فلقد انحدرت من جورجيا الجبلية، بلاد الشمس، وكروم العنـب، والفلاحين، والأمراء الإقطاعيين، التي لم يكن فيها سوى عدد قليل من البروليتاريين، شريحةٌ واسعة من المثقفـين اليـساريين، المرنين، المتحمسين، الذين لم يرتفع معظمهم عن أفق البرجوازية الصغيرة. وأرسلت جورجيا إلى مجـالس الـدوما الأربعـة مندوبين من المناشفة. ولعب هؤلاء النواب في المجموعات البرلمانية الأربع دورًا قياديًّا. وغدت جورجيـا "جيرونـد" الثـورة الروسية. وإذا كان جيرونديو القرن الثامن عشر قد اتهموا بالفدرالية، فإن جيرونديي جورجيا بدءوا بالدفاع عن روسيا الواحـدة التي لا تتجزأ، وانتهوا بعد ذلك بالانفصالية.

وكان تسيريتلي النائب القديم في مجلس الدوما الثاني أهم الوجوه الجيروندية الجورجية بلا منازع. ومـا أن عـاد مـن منفاه، حتى تربع لا على زعامة المناشفة فحسب، بل على زعامة الغالبية السوفييتية آنذاك. ولم يكن مُنَظرًا أو كاتبًـا صـحفيًّا، ولكنه كان خطيبًا مفوهًا، ويمكن اعتباره راديكاليًّا يشبه الفرنسيين الجنوبيين. ولو عاش وسط الروتين البرلماني لأحـس بأنـه سمكة في الماء. ولكنه عاش في عصر ثوري، وكان قد تأثر في صباه ببعض الأفكار الماركسية. وعلى كل حال، فقـد أظهـر تسيريتلي خلال الأحداث الثورية اندفاعًا يفوق أي منشفي آخر، وبذل جهدًا لا يجارى ليكون صادقًا مع نفسه؛ لذا فإنـه شـارك أكثر من غيره في انهيار نظام فبراير (شباط). وكان تشخيدزه يتبع تسيريتلي تبعية كاملة، رغم أن هناك لحظات أحـس فيهـا بالخجل أمام أفكاره القديمة كمنظِّر، نظرًا لأنه يعمل على تقارب الثوري الذي كان بالأمس سـجينًا مـع ممثلـي البرجوازيـة المحافظين.

أما المنشفي سكوبيليف الذي اكتسب شهرته الحديثة من وضعه كنائب في آخر مجلس دوما، فقد كان مظهره الشاب، وعدد من الصفات التي يتصف بها، تجعله يبدو كطالب يمثل على مسرح صغير دور رجل الدولة. ولقد تخصص سكوبيليف بتخفيف "المبالغات"، والقضاء على الصراعات المحلية، وكان اهتمامه ينصب على سد الشروخ الناجمة عن ازدواجية السلطة. حتى جاءت لحظة استلم فيها منصب وزير العمل في وزارة مايو (آيار) الائتلافية فكان استلامه مأساةً.

وكان (دان) من أهم الشخصيات بين صفوف المناشفة. وهو مناضل حزبي قديم، لعب دائمًا دور الشخصية الثانية بعد مارتوف. وإذا كانت المنشفية قد تشربت في لحمها ودمائها عادات تفكير الاشتراكية - الديمقراطية الألمانية في فترة انحطاطها، فإن دان يبدو كعضو في قيادة الحزب الألماني، أو **أيبرت** من نوع متدنٍ. ولقد طبق دان الألماني بعد سنة من الزمن بنجاح السياسة التي عجز أيبرت الروسي عن تطبيقها. ولا يعود سبب هذا التباين بالنتائج إلى تباين بين الأشخاص، بل إلى اختلاف الظروف.

وإذا كان تسيريتلي الكمان الأول في جوقة الأكثرية السوفييتية، فقد كان ليبر ينفخ بكل ما أوتى من قوة في مزمار صغير، وعيناه الجاحظتان محتقنتان بالدم من فرط الإعياء. إنه منشفي من الاتحاد العمالي الإسرائيلي (البوند)، وهو يتمتع بماض ثوري طويل مليء بالإخلاص، مفعم بالحماس والفصاحة، ولكنه متعنت محدود، يحاول جاهدًا أن يفرض نفسه كوطني ثابت، ورجل صلب متشدد. وكان ليبر مشبعًا بالحقد على البلاشفة.

ويمكن تكملة مجموعة الزعماء المناشفة بالبلشفي القديم واليساري المتطرف فويتينسكي الذي لعب دورًا ملحوظًا في الثورة الأولى، وأمضى جزءًا من حياته في السجن، ثم قطع صلاته مع الحزب في مارس (آذار) نظرًا لاختلافه معه بالنسبة للقضايا الوطنية. وما أن انضم فويتينسكي إلى المناشفة حتى غدا ألد أعداء البلاشفة. ولكنه لم يملك من الحماس ما يجعله مشابهًا لليبر في مهاجمة رفاق الفكر القدماء.

وكانت قيادة الشعبيين تماثل قيادة المناشفة في عدم الانسجام ولكنها كانت أقل أهمية وأخفت بريقًا. وكان على رأس "الاشتراكيين الشعبيين" الذين يمثلون أقصى اليمين، المهاجر العجوز تشايكوفسكي الذي كانت شوفينيته تذكرنا بشوفينية بليخانوف دون أن يتمتع بمواهب بليخانوف أو ماضيه النضالي. وتقف إلى جانب تشايكوفسكي امرأة مسنة تدعى بريشكو - بريشكو فسكايا، وكان الاشتراكيو ن - الثوريون يطلقون عليها لقب "جدة الثورة"، ولكنها كرست كل حماسها واندفاعها لتكون أشبينة الثورة المضادة. أما المناضل الفوضوي كروبتكين الذي كان يشعر منذ صباه بميل للشعبيين، فقد وقف إلى جانب الحرب، ونقض كل ما نادى به خلال نصف قرن تقريبًا، ووقف هذا الرافض لوجود الدولة موقفًا مؤيدًا للحلفاء. ولم يكن تنديده بازدواجية السلطة يستهدف إلغاء السلطة، بل يستهدف المناداة بسلطة البرجوازية وحدها. ولم يلعب كل هؤلاء المسنين سوى دور تزييني غير فعال، رغم أن تشايكوفسكي تربَّع فيما بعد على رأس حكومة بيضاء موَّلها تشرشل خلال الحرب ضد البلاشفة.

واحتل كرنسكي المكان الأول عند الاشتراكيين - الثوريين، ولكنه لم يكن داخل الحزب بل فوقه، وهو شخص لا يملك أي ماض حزبي. وسنجد أكثر من فرصة لفحص هذا الشخص "مبعوث العناية الإلهية"، والذي تكمن قوته خلال فترة ازدواجية السلطة في توافق نقاط ضعف الليبرالية مع نقاط ضعف الديمقراطية. ولم يؤد انضمام كرنسكي الشكلي إلى الحزب الاشتراكي - الثوري إلى تبديل رأيه الذي يزدري الأحزاب بصورة عامة؛ نظرًا لأنه يعتبر نفسه منتخب الأمة المباشر. ولكن ألم يفقد الحزب الاشتراكي - الثوري في هذه الفترة صفته كحزب، بعد أن أصبح صفرًا وطنيًا ضخمًا؟ حقًا، لقد وجد الحزب في كرنسكي زعيمًا ملائمًا.

وكان تشيرنوف الذي تبوأ منصب وزير الزراعة، ثم لم يلبث أن غدا رئيسًا للمجلس التأسيسي، أفضل وجـوه الحـزب الاشتراكي - الثوري القديم. وليس من قبيل الصدفة أن اعتبره الجميع منظِّر هذا الحزب وملهمه ودليله. ولقد كـان تـشيرنوف يملك معلومات واسعة، ولكنها لا ترتبط مع بعضها في كلٍّ متماسك. ويمكن اعتباره قارئًا كبير الاطلاع دون أن يكون مثقفًـا. وهذا ما جعله قادرًا على الاستشهاد في كل مناسبة بجمل مشهورة تلائم الموقف. وكانت هذه الاستشهادات تنصب على الشبيبة الروسية دون أن تعلمها شيئًا كبير الأهمية. وكان هذا الزعيم المفوَّه قادرًا على الرد على كل سؤال، باستثناء سؤال واحد هـو: من هم الأشخاص الذين يقودهم، وإلى أين يسير بهم؟ وكانت صيغ تشيرنوف المتنوعة، المفعمة بالحديث عن الأخلاق والمفاسد، تجتذب في فترة من الفترات مجموعة من المستمعين المتباينين الذين يختفون في اللحظات الحرجة، ويتبعثرون في كـل اتجـاه. وليس من المستغرب قيام تشيرنوف بكل سخف وتبجح بطرح أسلوبه الخاص ببناء الحزب كبديل "لتشيّع" لينين.

ولقد عاد تشيرنوف من الخارج بعد لينين بخمسة أيام؛ إذ سمحت له إنكلترا أخيرًا بالمرور. ووسط الحمـاس ومظـاهر التأييد التي أبداها السوفييت، ألقى زعيم أكبر حزب خطابًا طويلاً وصفه سوخانوف -وهو نصف اشتراكي ثوري- كمـا يلـي: "وكنت مع كثيرين غيري من الوطنيين أفراد الحزب الاشتراكي - الثوري مكشرين نهز رءوسنا استخفافًا. وتساءلت لِمَ يتحدث تشيرنوف بهذا الشكل المنفر، ولم يستخدم مثل هذه المواقف الغريبة وهو يدور بعينيه الكبيرتين، ويتحدث بلا انقطاع عـن كـل شيء، وعن لا شيء؟". وكان كل نشاط تشيرنوف محصورًا ضمن حدود خطابه الأول. فلقد حاول في بداية الأمر اتخاذ موقف المعارضة اليسارية أمام كرنسكي وتسيريتلي، ثم لم يلبث أن وجد نفسه محاصرًا من كل جانب، فاستـسلم مـن غيـر قتـال، وتخلص من زيميرفالديته التي اكتسبها في المنفى، ودخل في "لجنة الاتصال"، ثم انضم بعد ذلك إلى حكومـة التـآلف. وكـان يخطئ في كل ما يقوم به؛ ولذا فقد قرر الابتعاد عن أي عمل. وأصبح الامتناع عن التصويت عنده شكلاً من أشـكال الوجـود السياسي. وذابت سلطته بين إبريل (نيسان) وأكتوبر (تشرين الأول) بسرعة تفوق سرعة ذوبان حزبه. فإذا مـا أخـذنا بعـين الاعتبار الفرق القائم بين تشيرنوف وكرنسكي -اللذين يكرهان بعضهما بصورة متبادلة- وجدنا أن جذور هذين الرجلين ممتـدة إلى ماضيهما الذي سبق الثورة، وإلى المجتمع الروسي القديم المهترئ، وإلى الأنتليجنسيا الضعيفة المغرورة، التي كانت تتحرق شوقًا لتعليم الجماهير الشعبية، والوصاية عليها، وتأمين راحتها ومصالحها، مع العجز الكامل عن الاستماع إليها، أو فهمهـا أو التعلم من دروسها وتجاربها. ومن المعروف أن اختفاء هذه الأمور يعني انعدام السياسة الثورية.

وكان اكسنتييف الذي رفعه حزبه إلى أعلى المناصب الثورية -رئيس اللجنة التنفيذيـة لمنـدوبي الفلاحـين، ووزيـر الداخلية، ورئيس المجلس التأسيسي- يمثل الصورة الممسوخة لرجل السياسة: فهو مدرس أدب سـلس، فـي مدرسـة البنـات الثانوية باورل، وهذا كل ما يمكننا أن نقول عنه. ومن المؤكد أن نشاطه السياسي كان أكثر حداثة من شخصيته.

ولعب غوتز دورًا هامًا وراء كواليس المجموعة الاشتراكية - الثورية، ونواة السوفييت القيادية. وكان إرهابيًا ينحدر من أسرة ثورية مشهورة؛ لذا فإننا نجده أكثر عملاً وأقل تبجحًا من أقرب أصدقائه السياسيين. وكان رفاقه يطلقون عليه لقب "الرجل العملي"، ولكنه كان يختار العمليات الداخلية الصغيرة، تاركًا للآخرين حل المسائل الكبرى. ولا بُدَّ لنا من أن نضيف أنه لم يكن خطيبًا أو كاتبًا. وأن مصدر قوته كامن في سيطرته الشخصية الناجمة عن قضاء سنوات طويلة في السجن.

وهكذا نكون قد أتينا على ذكر كل من يمكننا ذكرهم من الحلقة القيادية للشعبيين. ولقد تحلَّق من حولهم وجـوه رفعتهـا الثورة بصورة صدفية، مثل فيلييوفسكي، الذي لا يستطيع أي امرئ أن يفسر السبب الحقيقي الكامن وراء وصوله إلى أعلى قمة معبد فبراير (شباط)، وقد يكون سبب هذا الصعود هو لباس ضابط البحرية الذي كان يرتديه.

ووقف إلى جانب الزعماء الرسميين للحزبين المسيطرين داخل اللجنة التنفيذية عدد كبير من "المتوحـــشين"، المـــستقلين، الذين اشتركوا بالحركة خلال مختلف مراحلها الماضية. ومن بينهم أناس ابتعدوا عن النضال قبل الانتفاضة بزمن بعيد، ولكنهم عادوا بعدها على جناح السرعة، وانضموا تحت لواء الثورة الظافرة، دون أن يسعوا إلـــى الخـــضوع لنيـــر الحـــزب. وكـــان "المتوحشون" يتبعون خط الأكثرية السوفييتية بالنسبة لكافة المسائل الأساسية. ولقد احتلوا في بداية الأمر مراكز قياديـــة هامـــة. ولكن عودة الزعماء الحزبيين الرسميين من المنفى أو اللجوء، كانت تدفع المستقلين إلى الصف الثاني، وتعطي السياسة شكلها، وتعيد لفكرة الحزب كل قوتها.

ولقد أشار أعداء اللجنة التنفيذية في معسكر الرجعية أكثر من مرة فيما بعد إلى سيطرة الأجانب في هذه اللجنة؛ كاليهود، والجورجيين، والليتونيين، والبولونيين، وغيرهم. وبالرغم من قلة عدد الأجانب بالنسبة لمجموع أعضاء اللجنة التنفيذية، فإن من المؤكد أنهم احتلوا مكانة ملحوظة في المكتب، ومختلف اللجان، وكمراسلين، ...إلخ، وبما أن مثقفي الجنسيات المضطهدة كانوا يجتمعون عادة في المدن، ويكملون الصفوف الثورية بعدد غفير منهم، فإن من الطبيعي أن نجد في الرعيل الأول من الثـــوريين عددًا كبيرًا من الأجانب. وكانت خبرتهم رغم ضحالتها في بعض الأحيان ضرورية لبناء الأشكال الاجتماعية الجديدة.

ولكن من السخف تصديق المحاولات الرامية إلى اعتبار سياسة السوفييت، ومسيرة الثورة كلها، ناجمتين عـــن ســـيطرة الأجانب. وتعبر الوطنية في هذه الحالة أيضًا عن احتقار للأمة الحقيقية، أي للشعب، وتمثله في فترة يقظته الوطنيـــة الكبـــرى كشعب بسيط، معدوم الإمكانات، تتصرف به أيد أجنبية جاءت صدفة. ولكن لِمَ استطاع الأجانب تحقيق هذه الـــسيطرة الكبيـــرة على الملايين من أبناء البلاد، وكيف تم ذلك؟ والحقيقة أن جماهير الأمة تستفيد عادة في لحظـــات الانعطـــاف التاريخيـــة مـــن إمكانات العناصر التي كانت بالأمس مضطهدة مسحوقة، والتي تحاول أكثر من غيرها التعبير عن المعضلات الجديدة. ولا يقود الأجانب الثورة، ولكن الثورة الوطنية تستفيد منهم. ولقد تمت الأمور بالشكل نفسه حتى في فترات الإصلاح الفوقية. ولم تفقـــد سياسة بطرس الأول وطنيتها عندما تخلَّت عن الطرق القديمة، واستخدمت عددًا من الأجانـــب. وكـــان المعلمـــون الحرفيـــون والألمان، وقباطنة المراكب الهولنديين، يعبرون في هذه الفترة عن متطلبات التطور الوطني لروسيا أكثر مـــن رجـــال الـــدين الروس الذين استخدمهم اليونانيون في قديم الأزمان، أو النبلاء الموسكوفيون الذين كانوا يشتكون من الغزو الأجنبي، مع أنهـــم منحدرون من الأجانب القدماء الذين أسسوا الدولة الروسية من قبل. وعلى كل حال فقد كانت الأنتليجنسيا الأجنبيـــة فـــي عـــام ١٩١٧ موزعة على مختلف الأحزاب التي تضم الأنتليجنسيا الروسية، وتشتكي من السلبيات نفسها، وترتكب الأخطـــاء ذاتهـــا. ومن المعروف أن الأجانب في حزبي المناشفة، والاشتراكيين - الثوريين كانوا أكثر الناس حماسًا في الدفاع عن وحدة روسيا.

وهكذا تكونت اللجنة التنفيذية؛ أي الجهاز الأعلى للديمقراطية. وتربَّع حزبان فقدا كل أوهامهما، وحافظا على أفكارهمـــا المسبقة، وزعماء عاجزون عن الانتقال من الأقوال إلى الأفعال، على رأس ثورة مدعوة إلى قطـــع قيـــود القـــرون الماضـــية، وإرساء قواعد المجتمع الجديد. وغدا كل نشاط التوفيقيين سلسلة متلاحقة من التناقضات الأليمة التي أضعفت الجماهير الشعبية، وأعدَّت تشنجات الحرب الأهلية.

ونظر العمال والجنود والفلاحون إلى الأمور نظرة جدية. ورءوا أن على السوفييتات التي خلقوها بأنفسهم أن تعمل فورًا للقضاء على النوائب والنقائص التي أنجبت الثورة. وتوجهوا بأنظارهم نحو السوفييتات. وكان البعض يحمل شكواه الشخـــصية. ومن كان آنذاك لا يرزح تحت بلواه الخاصة؟ وطالب الشعب بقرارات حاسمة. وبات على الأمل، ينتظر العدالة، وأخذ يـــصر على ضرورة شن حملات التأديب. وهكذا اعتبر المطالبون، والمشتكون، والعارضون، والمتهون، أن السلطة المعادية قد اختفت وحلت محلها سلطتهم. إن الشعب واثق بالسوفييت، وهو يحمل السلاح. إذن فالسوفييت يمثل الحكومة. وهكـــذا اعتبـــر النـــاس السوفييت. أفلم يكن معهم الحق كل الحق؟..

وأخذ سيل لا ينقطع من الجنود، والعمال، وزوجات الجنود، وصغار الباعة، والمستخدمين، والآباء، والأمهات يفتحــون الأبواب ويغلقونها، ويبحثون، ويتساءلون، ويبكون، ويطالبون، ويفرضون اتخاذ التدابير، ويحددون هذه التــدابير فــي بعــض الحالات بكل دقة، ويقلبون السوفييت بذلك إلى سلطة ثورية حقيقية. وجمجم سوخانوف الذي كان يناضل ضد هذا التطور "لــم يكن هذا لصالح السوفييت، كما لم يكن أبدًا ضمن مخططاته". ثم اعترف مع الأسف! بأن "الأداة السوفييتية، بدأت تعمل آليًا على طرد الآلة الرسمية للدولة، رغمًا عنها، وضد إرادة السوفييت؛ نظرًا لأن هذه الآلة كانت تدور بلا جدوى". فماذا كــان يفعــل آنذاك منظرو الاستسلام، وميكانيكيو الدوران بلا جدوى؟ ويعترف سوخانوف بأسًى: "واضطررنا إلى القبــول بتــسنم بعــض المناصب الحكومية، وتمسكنا بوهم وجود القيادة في قصر ماري". هذا ما اهتم به هؤلاء الرجال في بلد مُهدم مستنزف، يحــف به لهيب الحرب والثورة، لقد عملوا على استخدام الوسائل التافهة لتغطية هيبة حكومة كان الشعب يرفضها بصورة عــضوية؛ فلتمت الثورة، على أن يعيش الوهم! وهكذا طرد هؤلاء الأشخاص السلطة من الباب، فعادت إليهم من النافذة، وفاجأتهم في كل مرة، ووضعتهم في وضع سخيف أو غير لائق.

ومنذ ليلة ٢٧ - ٢٨ فبراير (شباط) منعت اللجنة التنفيذية صدور الصحف الملكية، ووضعت نظامًــا خاصًــا لــصدور الصحف؛ عندها انطلقت الاحتجاجات. وكان أعلى الصارخين صوتًا أولئك الذين اعتادوا إسكات الجميــع. وبعــد عــدة أيــام اصطدمت اللجنة من جديد بمعضلة حرية النشر. فهل تسمح بصدور الصحف الرجعية أم لا؟ وظهرت الخلافات فــي وجهــات النظر بالنسبة لهذه المسألة. ودافع بعض المنظِّرين كسوخانوف وأمثاله عن الحرية المطلقة للصحافة. ولم يوافقه تشخيدزه فــي بداية الأمر؛ فكيف نترك مثل هذا السلاح دون رقابة بِيد الأعداء الألداء؟ ولم يفكر أي شخص لحظة واحدة بإخــضاع المــسألة لقرار الحكومة. ولو قررت الحكومة أي شيء لذهب قرارها أدراج الرياح، لأن عمال المطابع كانوا يرفــضون كــل قــرار لا يصدر عن السوفييت.

وفي ٥ مارس (آذار) أعطت اللجنة التنفيذية التأكيد التالي: منع المطبوعات اليمينية، وإخضاع صدور الصحف الجديــدة لموافقة السوفييت. ولكن ما أن جاء يوم ١٠ مارس (آذار) حتى أُلغي هذا القرار تحت تأثير هجمــات الأوســاط البرجوازيــة. وصرح سوخانوف بغبطة: "لقد عادوا إلى الصواب بعد ثلاثة أيام"، ولم يكن لهذا النصر أي أساس! فليــست الــصحافة فــوق المجتمع. وتعكس شروط وجودها في فترة الثورة خط مسيرة الثورة نفسها. فعندما تأخذ الثورة أو توشك أن تأخذ منحى الحرب الأهلية، يرفض كل طرف من الأطراف المتنازعة وجود صحافة معادية داخل منطقة نفوذه، ولا يتخلى بمحض إرادتــه عــن السيطرة على مستودعات الأسلحة، والسكك الحديدية، والمطابع. وليست الصحافة في الصراع الثوري سوى وسيلة من وســائل التسليح. وليس حق الكلام على كل حال فوق حق الحياة. وتتمسك الثورة بحق الحياة قبل كل شيء آخــر. ويمكننــا أن نــضع القانون التالي: تكون الحكومات الثورية أكثر ليبرالية، وأشد تساهلاً، وأكبر "كرمًا" تجاه الرجعية كلما كــان البرنــامج الثــوري تافهًا، وكانت هذه الحكومات مرتبطة بالماضي، وكان دورها محافظًا. وعلى العكس: كلما عظمت المهمات وسمت، كلمــا زاد عدد الحقوق والمصالح التي تتجاهلها الحكومات الثورية، وتضاعفت مركزية السلطة الثورية، وظهــرت ديكتاتوريتهــا بــشكل أوضح. وسواء كان هذا الأمر حسنًا أم سيئًا، فلقد تقدمت الإنسانية على مثل هذه السبل حتى وقتنا هذا.

وكان السوفييت محقًا عندما أراد السيطرة على الصحافة. فلم تتراجع عن هذا المطلب الهام بكل سهولة؟ لأنــه تراجــع بصورة عامة أمام كل احتمالات الصراع الجدي. فلقد صمت أمام مسألة الحرب، ومسألة الجمهورية نفسها. ولم يعــد يخــشى الصحافة اليمينية أو يرى ضرورة النضال ضدها، طالما أنه سلم السلطة للبرجوازية المحافظة. ولم تمض عدة أشــهر، حتــى قامت الحكومة المدعومة بالسوفييت بضرب الصحافة اليسارية بكل عنف. ومنعت الصحف البلشفية واحدة تلو الأخرى.

وفي ٧ مارس (آذار) أعلن كرنسكي في موسكو ما يلي: "أن نيقولا الثاني بين يدي... ولن أكون مارات[*] الثورة الروسية... وسيذهب نيقولا الثاني إلى إنكلترا تحت مراقبتي الشخصية..." ونثرت بعض السيدات الزهور على الخطيب، وصفق عدد من الطلاب. ولكن الجماهير تحركت باتجاه معاكس؛ إذ لا يمكن لأية ثورة جادة يتعلق مصيرها بنجاحها أن تترك الملك المخلوع يرحل إلى خارج البلاد. ولم يتوقف العمال والجنود لحظة واحدة عن المطالبة بتوقيف عائلة رومانوف. وأحست اللجنة التنفيذية بأن عليها أن لا تعبث بالنسبة لهذا الأمر. واتُخذ قرار يقضي بأن يأخذ السوفييت على عاتقه مسألة عائلة رومانوف، وهذا اعتراف واضح بأن الحكومة غير أهل للثقة. وأصدرت اللجنة التنفيذية أمرًا إلى السكك الحديدية بمنع حركة أي فرد من هذه العائلة؛ وهذا هو السبب الذي جعل قطار القيصر يتسكع على الخطوط الحديدية. وكلف أحد أعضاء اللجنة التنفيذية، وهو المنشفي اليميني العامل غفوزدييف، بتوقيف نيقولا. وكذب هذا القرار العمالي كل تصريحات كرنسكي وحكومته. فلم يقدم كرنسكي استقالته احتجاجًا على ذلك، بل لزم الصمت. وفي ٩ مارس (آذار) صرح تشخيدزه أمام اللجنة التنفيذية بأن الحكومة "تخلت" عن فكرة نفي نيقولا إلى إنكلترا. وتم توقيف القيصر وأسرته في قصر الشتاء. وهكذا أخفت اللجنة التنفيذية سلطتها تحت الوسادة. وجاءت من الجبهة طلبات متتالية تصر على نقل القيصر المخلوع إلى قلعة بطرس وبولص.

لقد عرفت الثورة دائمًا انقلابات في الملكية لا على صعيد التشريع فحسب، بل على صعيد عمليات الاستيلاء التي تمارسها الجماهير. ولم تسر أية ثورة زراعية في التاريخ على غير هذا السبيل؛ فلقد جاء الإصلاح الشرعي بعد سيطرة "الديك الأحمر" واندلاع الحرائق. ولعبت المصادرات في المدن دورًا أصغر؛ إذ لم تكن الثورات البرجوازية تستهدف هز أسس الملكية البرجوازية. ولكن ليس هناك ثورة لم تستول فيها الجماهير، لأهداف اجتماعية على المؤسسات التي كانت من قبل ملكًا لأعداء الشعب. وما أن انتصرت انتفاضة فبراير (شباط)، حتى خرجت الأحزاب من حالتها اللا شرعية وظهرت إلى الوجود. وولدت نقابات متعددة، وعقدت الاجتماعات، وشكلت الأحياء سوفييتاتها، وأحس الجميع بحاجتهم لأبنية ومقرات. واستولت التنظيمات على الفيلات المهجورة التي تركها وزراء القيصر، كما استولت على قصور محظيات القيصر من راقصات الباليه. واشتكى الضحايا أو تدخلت السلطات بمبادهتها الخاصة. ولكن بما أن القائمين بالاستيلاء كانوا يملكون في الحقيقة كل السلطة، وبما أن السلطة الرسمية لم تكن سوى شبح، فلقد وجد أصحاب الادعاء أنفسهم مجبرين على اللجوء أخيرًا إلى اللجنة التنفيذية نفسها، مع التماس بإعادة الحقوق المهضومة لراقصة الباليه، التي كان أفراد الأسرة المالكة من قبل يدفعون لها مقابل خدماتها المتعددة المتشابكة المعروفة والخفية أموالاً طائلة يقتطعونها من خزانة الشعب. وبدأت "لجنة الاتصال" حركتها. وعقد الوزراء الاجتماعات. وأخذ مكتب اللجنة التنفيذية يجري المشاورات. وذهبت الوفود إلى المسئولين على البيوت، وطالت العملية عدة شهور.

وأعلن سوخانوف أنه لا يعارض "كيَساري" أي تدخل شرعي في حقوق الملكية، ولكنه سيكون "عدوًا عنيفًا لكل عمليات وضع اليد الاعتباطية العنيفة". وبمثل هذه المهارة كان اليسار التافه يخفي في العادة عجزه. ولو كانت الحكومة ثورية حقًا لاستطاعت دون شك تخفيف المصادرات الاعتباطية الفوضوية إلى الحد الأدنى، عن طريق الإسراع بإصدار مرسوم يحدد في الوقت الملائم أساليب مصادرة الأبنية. ولكن توفيقيي اليسار سلموا السلطة إلى دعاة الحفاظ على الملكية، ثم طالبوا الجماهير بعد ذلك دون جدوى بضرورة احترام الشرعية الثورية... أنَّي لهم ذلك. إن مناخ بتروغراد غير ملائم للطوباوية.

لقد أعطى الانتظار الطويل أمام أبواب المخابز الدفعة الأخيرة للثورة. ولكن "طوابير" الانتظار هذه كانت أول خطر يهدد النظام الجديد. وكان الاجتماع التأسيسي للسوفييت قد اتخذ قرارًا بتشكيل لجنة تموين. ولم تسأل الحكومة نفسها كيف ستعمل على تموين العاصمة. ولم يكن يقلقها أن تعيش العاصمة في قلب المجاعة. وأثقلت المسألة بعد ذلك كاهل السوفييت الذي كان يضم عددًا من الاقتصاديين وعلماء الإحصاء المحرومين من الخبرة العملية، والذين خدموا من قبل في الأجهزة الاقتصادية

والإدارية البرجوازية. وكان معظمهم من جناح المناشفة اليميني، مثل غرومان وتشيريفانين، أو بعض البلاشفة القدامى الـذين انحرفوا نحو اليمين مثل بازاروف وآفيلوف. ولكن ما أن جابه هؤلاء الأشخاص مسألة تموين العاصمة، حتى أجبرتهم مختلـف الظروف على اقتراح تطبيق عدد من التدابير الراديكالية لإيقاف التلاعب وتنظيم السوق.

وعقد السوفييت سلسلة من الاجتماعات أقر فيها مجموعة تدابير "اشتراكية الحرب" التي اعتبرت كافة مخزونات القمـح ملكًا للدولة، ونظمت توزيع الخبز بصورة متوازية مع تنظيم توزيع المنتجات الصناعية، ومراقبـة الدولـة للإنتـاج، وتنظـيم مبادلات البضائع مع القرية. وتبادل زعماء اللجنة التنفيذية نظرات مفعمة بالقلق. ولما لم يجدوا ما يقولونه وافقوا على التـدابير الراديكالية. ونقل أعضاء "لجنة الاتصال" هذه المقررات إلى الحكومة بكل خجل. ووعدت الحكومة بدراستها. ولم يكن الأميـر لفوف أو غوتشكوف أو كونوفالوف راغبين بالمراقبة، والمصادرة، والتقشف مع أصدقائهم بأي شكل من الأشـكال. وتحطمـت كافة مقررات السوفييت الاقتصادية على المقاومة السلبية التي أبدتها الأداة الحكومية، إلا في الحالات التي نفذتها بها السوفييتات المحلية بكل شدة. وكان التدبير الوحيد الذي تم تنفيذه في مجال تموين بتروغراد، هو تحديد حصة غذائية يومية ثابتة للمـستهلك تشمل: ليبرة ونصف من الخبز للعامل اليدوي، وليبرة واحدة للأشخاص الآخرين. والحقيقة أن هذا التحديد لم يعادل شـيئًا فـي تموين سكان العاصمة؛ إذ يستطيع المرء أن يعيش بليبرة أو بليبرة ونصف من الخبز. ولم تأت مآسي الجوع اليـومي إلا فيمـا بعد.

إننا سنرى أن على الثورة خلال سنوات لا خلال أشهر أن تشد الحزام على البطن. وستتغلب الثورة على هذه الصعوبة. ولم يكن قلقها الآن ناجمًا عن الخوف من المجاعة، بل الخوف من المجهول، وتبدل مسيرة الأحداث، وانعـدام الثقـة بالنـسبة للمستقبل. وأخذت الصعوبات الاقتصادية المتفاقمة بسبب ٣٢ شهرًا من الحرب تقرع أبواب النظـام الجديـد ونوافـذه. وكـان اضطراب المواصلات، ونقص مختلف المواد الأولية، واهتراء جزء كبير من الآلات والمعدات، والتضخم المنتظر، واضطراب دورة البضائع، تتطلب تدابير جريئة عاجلة. وكان الوصول إلى ذلك على الصعيد الاقتصادي ممكنًا، ولكن التـوفيقيين جعلـوا تطبيقها على الصعيد السياسي مستحيلاً، وكانوا يقبلون كل معضلة اقتصادية إلى اتهام وتنديد موجهين إلى ازدواجيـة الـسلطة. وكان توقيع أي قرار من القرارات يحرق أصابعهم بشكل لا يحتمل.

ووقع في هذه الفترة تدقيق هام للقوى ولموازين القوى عند بحث مسألة يوم العمل المؤلف مـن ثمـاني سـاعات. لقـد انتصرت الانتفاضة، ولكن الإضراب العام مستمر. ويعتبر العمال بكل جدية أن تبديل النظام يـستدعي تبـديلات هامـة فـي أوضاعهم الذاتية، ومن هنا جاء قلق الزعماء الجدد الليبراليين والاشتراكيين على حد سواء. وأطلقت الصحف الوطنيـة شـعار "الجنود إلى الثكنات! والعمال إلى الآلات!" فتساءل العمال: هل هذا يعني أن يبقى كل شيء على ما كان عليه من قبل؟ وأجـاب المناشفة على ذلك بشكل مضطرب. نعم، سيبقى الأمر كذلك في الوقت الحاضر. وفهم العمال أنه إذا لم تقع تبـديلات فوريـة تعرضوا للخديعة مرة أخرى. وترك الاشتراكيون للبرجوازية مهمة حل المسألة مع العمال. وقررت اللجنة التنفيذية في مـارس (آذار) متابعة العمل في منطقة بتروغراد، ونادت بشعار: "العمال إلى الآلات!" اعتمادًا على أن النصر الذي حققته الثـورة "قـد قوّى موقع الطبقة العاملة في صراعها الثوري"؛ أفلم يكن في السلطة الآن عدد من المالكين الليبراليين؟

هذه هي قوة الأنانية المدرعة التي تتسم بها الطبقات المثقفة، والليبراليون، واشتراكيوهم. ولقد اعتقد هـؤلاء النـاس أن ملايين العمال والجنود الذين اندفعوا إلى الانتفاضة بقوة التذمر والآمال سيخضعون بشكل طيِّع بعد الانتـصار علـى ظـروف الحياة القديمة. وتدل كتب التاريخ على أن الزعماء كانوا على قناعة تامة بأن الأمور جرت بهذا الشكل في الثـورات الـسابقة. ولكن هذا خطأ فاحش؛ إذ لم تجر الأمور أبدًا على هذه الصورة، ولا تستطيع الثورة المضادة إعادة الكادحين إلى إسطبلهم القديم إلا باستخدام طرق ملتوية، وبعد تعرض الكادحين إلى سلسلة من الهزائم والخدع.

ولقد أحس مارات بكل أبعاد النكسة الاجتماعية الثورية السياسية؛ لذا هاجمه المؤرخون الرسميون وطعنوه إلى حد بعيد. فقبل يوم ١٠ أغسطس ١٧٩٢ بحوالي شهر، كتب مارات ما معناه: إن تنفيذ الثورة ودعمها لا يتمان إلا بفضل الطبقات الدنيا من السكان. ومن قبل هؤلاء الأشخاص المحرومين الذين يعتبرهم الأغنياء رعاعًا، والذين أطلق عليهم قدماء الرومان بكل سخرية لقب "البروليتاريون"، فماذا تعطي الثورة لهذه الكائنات المحرومة؟ "تحقق الحركة في بداية الأمر بعض النجاحات، ثم لا تلبث أن تُغلب؛ إذ تنقصها دائمًا المعلومات، وأساليب العمل، والإمكانات، والأسلحة، والقادة وخطة العمل. وتقف عزلاء عاجزة عن الدفاع أمام المتآمرين المزودين بالخبرة، والمهارة، والحيلة" فهل نستغرب بعد ذلك أن كرنسكي لم يشأ أن يكون مارات الثورة الروسية؟

ويتحدث (ف. أورباخ) أحد زعماء الصناعة الروسية بكل اشمئزاز عن أن "حثالة الشعب كانت تفهم الثورة كنوع من التسلية؛ فلقد كان الخدم مثلاً يختفون خلال أيام متتالية، ويتنزهون بعد أن يتوشحون بالشرائط الحمراء، ويمتطون السيارات، ولا يعودون إلا مع الصباح، ليغتسلوا ويرتبوا هندامهم، وينطلقوا إلى النزهة من جديد". ومن الجدير بالاهتمام أن محاولة هذا الرجعي لوصف الضرر الذي تلحقه الثورة بالأخلاق، جعلته يصف تصرف الخدم بشكل يماثل الحياة العادية لنبيلة برجوازية - باستثناء ارتداء الشارة الحمراء- نعم، إن المضطهدين يعتبرون الثورة كالعيد أو كالليلة التي تسبق العيد، وأول ما يفعله الخدم - العبيد المستيقظون بفضل الثورة، التخلص من نير عبودية يومية، مهينة، بائسة، بلا نهاية.

ولم تكن غالبية الطبقة العمالية تود أو تستطيع الاكتفاء بالشرائط الحمراء التي ترمز إلى انتصار مكرس لخدمة الآخرين. فلقد ساد مناخ التحريض في مصانع بتروغراد.

ورفض عدد من المؤسسات علانية الخضوع لمقررات السوفييت. وكان على العمال أن يعودوا بالفعل إلى آلاتهم، فهم مضطرون إلى ذلك. ولكن ما هي شروط هذه العودة؟ لقد طالبوا بيوم العمل المؤلف من ٨ ساعات. وصرح المناشفة بأن الكادحين تعرضوا للهزيمة في عام ١٩٠٥ لأنهم حاولوا فرض يوم العمل المؤلف من ٨ ساعات. وكانت فكرتهم الأساسية بأن "الصراع على جبهتين -ضد الرجعية والرأسماليين- كان فوق مستوى قوة البروليتاريا". وكان المناشفة يرون بصورة عامة أن القطيعة ستكون مع البرجوازية في المستقبل محتومة. ولكن هذا الاعتراف النظري البحت لا يلزمهم بأي شيء. لأنهم رعوا أن عليهم عدم الإسراع بالقطيعة. بيد أن انتقال البرجوازية إلى معسكر الرجعية بفعل حركة الجماهير الكادحة لا بفعل جمل الخطباء أو الصحفيين الملتهبة، جعل المناشفة يعرقلون بكل قواهم النضال الاقتصادي للعمال والفلاحين. وكان المناشفة يقولون: "لا تعتبر المسائل الاجتماعية اليوم بالنسبة للطبقة العمالية مسائل من الدرجة الأولى. وما على هذه الطبقة في الوقت الحاضر سوى أن تكتسب حريتها السياسية".

ولكن مم تتألف هذه الحرية الموهومة؟ إن العمال عاجزون عن تحقيقها. لقد أرادوا في بداية الأمر الحصول على جزء من الحرية لعضلاتهم وأعصابهم. وضغطوا على أصحاب العمل. وفي ١٠ مارس (آذار) كتبت صحيفة منشفية بأن يوم العمل المؤلف من ثماني ساعات غير مطروح على بساط البحث. ومن سخرية القدر أن رابطة أصحاب المصانع والمعامل التي اضطرت بالأمس إلى إقامة علاقات رسمية مع السوفييت، صرحت في اليوم نفسه (١٠ مارس) بأنها وافقت على مسألة العمل ٨ ساعات كل يوم، ومسألة تنظيم لجان المعامل والمصانع. وهكذا أثبت كبار الصناعيين أنهم أكثر حنكة وأشد بصيرة من إستراتيجيي السوفييت الديموقراطيين. وليس في هذا ما يثير الاستغراب: فلقد وقف أصحاب الأعمال في المصانع في مواجهة العمال الذين كانوا يعمدون في نصف أكبر المصانع على الأقل، إلى ترك الآلات بصورة جماعية بعد العمل مدة ٨ ساعات. وهكذا أخذوا بأنفسهم ما رفضت الحكومة والسوفييت تقديمه لهم.

ولقد اقتربت الصحافة الليبرالية من الحقيقة أكثر مما تصورت، عندما قارنت برقة تصرف الصناعيين الروس في يـوم ١٠ مارس (آذار) ١٩١٧ مع تصرف طبقة النبلاء الفرنسيين يوم ٤ أغسطس (آب) ١٧٨٩. ذلك لأن إقطاعيي فرنسا في نهاية القرن الثامن عشر، ورأسماليي روسيا انحنوا أمام الضرورة القاهرة. ورأوا أن تقديم تنازل مؤقت يساعدهم على اسـتعادة كـل شيء في المستقبل. ولقد كذَّب أحد كتاب الكاديت هذه الأكذوبة الرسمية بقوله: "ومن سوء حظ المناشفة، أن البلاشفة استطاعوا بفضل الإرهاب إجبار رابطة أصحاب المصانع والمعامل على تطبيق يوم العمل المؤلف من ٨ ساعات فورًا"، فما هو الإرهاب الذي يتحدث عنه. إننا نعرفه جيدًا. ولا شك في أن العمال البلاشفة كانوا في مقدمة الحركة. وسارت غالبية العمال معهم هـذه المرة. تمامًا كما سارت معهم في أحداث فبراير (شباط).

واستقبل السوفييت وقيادته المنشفية بشعور مختلف هذا النصر الذي حققه العمال ضدها إلى حد ما. واضـطر الزعمـاء رغم عارهم إلى السير خطوة أخرى إلى الأمام، ودعوة الحكومة المؤقتة إلى إصدار المراسيم التي تحدد يـوم العمـل بثمـاني ساعات في روسيا كلها، قبل أن يقوم المجلس التأسيسي بذلك. ولكن الحكومة المتفقة مع أربـاب العمـل، حرنـت، ورفـضت الخضوع لمطلب لا يقدم بإلحاح وعنف كافيين، ومكثت تنتظر أيامًا أفضل.

وشهدت منطقة موسكو الصراع نفسه. ولكن مدة الصراع كانت أطول. وهنا أيضًا طالب السوفييت بالعودة إلى العمـل رغم مقاومة العمال. واجتمع العمال في واحد من أكبر المصانع، وصوّت على رفض إنهاء الإضراب ٧ آلاف عامل مقابـل ٦ آلاف عامل وافقوا على العودة للعمل. وتصرف العمال في مختلف المصانع والمؤسسات بشكل مماثل. وفي ١٠ مارس (آذار)، أكد السوفييت مرة أخرى على ضرورة العودة إلى الآلات. صحيح أن العمل بدأ في معظم المصانع بعد هـذا التأكيـد، ولكـن العمال شنوا في كل مكان نضالاً دءوبًا من أجل تخفيض ساعات العمل اليومية. وصحح الكادحون تـصرفات زعمـائهم عـن طريق الأفعال لا الأقوال. وبعد مقاومة طويلة اضطر سوفييت موسكو في ٢١ مارس (آذار) إلى إصدار المراسيم الخاصة بيوم العمل المؤلف من ٨ ساعات. ووافق الصناعيون على هذه الخطوة فورًا. واستمر النضال في المقاطعات حتى إبريل (نيـسان). ومنذ بداية الأمر، حاولت السوفييتات في كل مكان إيقاف الحركة أو عرقلتها، ثم أجبرها ضغط العمـال علـى الـدخول فـي مفاوضات مع أرباب العمل، وعندما كان أرباب العمل هؤلاء يرفضون الإذعان كان العمال يرفضون يوم العمل المؤلف من ٨ ساعات. وهذا ما يدل على حجم الثغرة القائمة في النظام كله!

وتعمدت الحكومة الوقوف بعيدة عن هذا النزاع. وفي تلك الفترة بدأت حملة مسعورة ضـد العمـال أثارهـا الزعمـاء الليبراليون. وكان إخضاع العمال يتطلب استخدام الجنود ضدهم. أفلا يعني تخفيض ساعات العمل إضعاف الجبهة؟ وهل يحـق للمرء ألا يفكر إلا بنفسه خلال الحرب؟ وهل يحسبون ساعات العمل في خنادق القتال؟ إن سير الطبقات المالكة علـى طريـق الديماغوجية يجعلها لا تقف عند أي حد. وأخذ التحريض شكلاً مسعورًا، ثم لم يلبث أن انتقل إلى الخنادق. ويعتـرف الجنـدي بيريكو في مذكراته التي كتبها في الجبهة، بأن التحريض الذي حمل لواءه الضباط المنضمون حديثًا إلى معـسكر الاشـتراكية؛ كان فعالاً إلى حد بعيد. "ولكن السيئة الوحيدة لمجموعة الضباط التي حاولت إثارة الجنود ضد العمال، كانت كامنة فـي كونهـا مؤلفة من الضباط. وكانت ذكريات الجنود عما كان يمثله الضباط بالنسبة لهم لا تزال حية في الأذهان".

ومع هذا فقد تعرض عمال العاصمة إلى الضغط أكثر من أي مكان آخر؛ إذ وجد الصناعيون بالتعاون مع قيادة الكاديت كثيرًا من الوسائل والقوى للتحريض بين صفوف حامية الموقع. ويتحدث سوخانوف عن ذلك بقوله: "ومنذ يوم ٢٠ وما بعـده، غدا من المألوف مشاهدة العمال والجنود مشتبكين بمعركة كلامية حادة عند مفارق الطرق، وداخل حافلات التـرام، وفـي أي مكان عام". ولم يقتصر الأمر على الكلام، بل انتقل في بعض الحالات إلى العراك. وفهم العمال مدى الخطأ فـدرءوه بمهـارة. واعتمدوا في ذلك على الحديث بصراحة، وذكر أرقام الأرباح التي حققها الصناعيون من الحرب، واصـطحاب الجنـود إلـى

المصانع والورشات التي تهدر فيها الآلات، ويرتفع لهيب الأفران الجهنمي؛ أي إلى الجبهة الدائمة التي يتعرض العمال فيها لخسائر لا تحصى. وأخذ العمال المبادهة لتنظيم زيارات مفارز من حامية الجيش لعدد من المصانع، وخاصة المصانع العاملة لتأمين متطلبات الدفاع. وأخذ الجندي ينظر ويصغي، وبدأ العامل يكشف ويشرح. وكانت الزيارات تنتهي بتآخ رائع. ونشرت الصحف الاشتراكية العديد من مقررات الوحدات العسكرية التي تؤكد تضامنها مع العمال بشكل لا يتزعزع. وفي منتصف إبريل (نيسان) اختفى موضوع النزاع من أعمدة الصحف. وصمتت الصحافة البرجوازية. وهكذا حقق العمال نصرًا اقتصاديًّا أعقبوه بنصر سياسي ومعنوي.

وكان للأحداث الناجمة عن الصراع من أجل يوم العمل المؤلف من ٨ ساعات تأثير كبير على تطور الثورة ومسيرتها فيما بعد. وربح العمال عدة ساعات حرة في الأسبوع كرسوها للقراءة، وعقد الاجتماعات، والتدريب على البنادق الذي غدا منتظمًا منذ لحظة تشكيل الميليشيا العمالية. وأخذ العمال بعد هذا الدرس البليغ يراقبون زعماء السوفييت عن كثب. وأصيبت سلطة المناشفة بضرر بالغ. وقويت مكانة البلاشفة داخل المصانع، كما قويت بشكل جزئي داخل الثكنات. وغدا الجندي أكثر انتباهًا، وأعمق تفكيرًا وأشد يقظة، وفهم بأن هنالك من يراقبه. وعاد مخطط الديماغوجية السيئ بالضرر على من وضعوه. وتلاحم الجنود والعمال بشدة بدلاً من أن يتباعدوا أو يتباغضوا.

وكانت الحكومة، تكره السوفييت، وزعماءه، والأوصياء عليه، رغم كل محاولات "لجنة الاتصال"، ولقد كشفت عن هذه الكراهية عندما سنحت الفرصة بذلك. وبما أن السوفييت كان ينفذ مهمات حكومية بحتة، بناء على طلب الحكومة نفسها عندما يتطلب الأمر إخماد حركات الجماهير، فقد طلبت اللجنة التنفيذية ميزانية صغيرة لمصروفاتها. ولكن الحكومة رفضت تلبية هذا الطلب، وبقيت متمسكة برفضها رغم إلحاح السوفييت المتواصل، وأكدت عدم استطاعتها إعطاء جزء من خزينة الدولة "لتنظيم خاص". وصمت السوفييت، وألقى عبء ميزانية السوفييت على عاتق العمال الذين لم يترددوا أبدًا عن جمع التبرعات لصالح متطلبات الثورة.

وفي الوقت نفسه حافظ الحزبان الليبرالي والاشتراكي على صداقة حميمة متبادلة ووُصفت ازدواجية السلطة في مؤتمر سوفييتات عموم روسيا بأنها اختراع لا وجود له. وأكد كرنسكي لمندوبي الجيش أن بين الحكومة والسوفييت وحدة كاملة بالأهداف والمهمات. وأنكر وجود ازدواجية السلطة بحماس مشابه لحماس كل من تسيريتلي ودان وغيرهما من زعماء السوفييت. وهكذا كانوا يحاولون بالكذب تدعيم نظام مبنيٍ على الكذب.

ومع هذا فقد تعثر النظام منذ الأسابيع الأولى. وأبدى الزعماء قدرة كبيرة على خلق التركيبات التوفيقية بين التنظيمات؛ خاصة وأنهم كانوا يحاولون الاستناد إلى مندوبين صُدفيين للوقوف بوجه الجماهير. ويعملون على استرضاء الجنود للعمل ضد العمال. ويستخدمون المجالس الجديدة، والزيمستفو، والتعاونيات، ضد السوفييتات. ويتكئون على المقاطعات ضد العاصمة، وعلى مجموعة الضباط ضد الشعب بأسره.

ولم يكن شكل التمثيل السوفييتي يحمل في ذاته سرًا غامضًا. وهو لا يخلو مطلقًا من السلبيات التي يحملها كل شكل من أشكال التمثيل الاضطرارية، طالما بقي هذا التمثيل ضروريًّا. ولكن قوة التمثيل السوفييتي تكمن في أنه يخفض قيمة هذه السلبيات إلى أدنى حد ممكن. ويمكننا القول بكل ثقة -وهذا ما أكدته التجربة فيما بعد- إن كل تمثيل آخر يقسم الجماهير، قادر على التعبير عن إرادة هذه الجماهير داخل الثورة، ولكن بشكل أكثر سوءًا وأشد بطئًا. فإذا أخذنا كافة أشكال التمثيل الثوري، وجدنا أن السوفييت هو أكثرها مرونة وصفاء والتصاقًا مباشرًا بالجماهير. ولكنه يبقى مع ذلك شكلاً من الأشكال. ولا يستطيع

أن يقدم أكثر مما تستطيع الجماهير أن تضع فيه في كل لحظة محددة. ولكنه يستطيع في الوقت نفسه أن يسهل على الجماهير فهم الأخطاء المرتكبة، وسبل إصلاحها. وهنا يكمن واحد من أكبر ضمانات تطور الثورة.

فما هي إذن الآفاق السياسية للجنة التنفيذية؟ إننا نشك في أن يكون أي واحد من الزعماء قد حدد هذه الآفاق بعد إمعان الفكر. ولقد أكد سوخانوف -فيما بعد- بأن خطته كانت ترمي إلى التخلي عن السلطة للبرجوازية خلال فترة قصيرة محدودة، بغية إعطاء الديمقراطية الفرصة الكافية لتجميع قوتها، واستعادة هذه السلطة بشكل مضمون. ومع هذا، فإن هذا التسلسل الساذج للأحداث يتحدث عن هذه الأحداث بعد وقوعها. ولم يقم أحد آنذاك بطرح هذا التسلسل أو تحديده. ولقد استمر تذبذب اللجنة التنفيذية تحت قيادة تسيريتلي حتى غدا أسلوبًا دائمًا. وأعلن تسيريتلي بكل صراحة، بأن عدم قيام سلطة برجوازية قوية سيدفع الثورة إلى دمارها المحتوم. وأن على الديموقرطية أن تكتفي بالضغط على البرجوازية الليبرالية، مع الحذر من التصرف حيالها بطيش يدفعها إلى معسكر الرجعية، ودعمها على العكس بشكل يجعلها تثبت مكتسبات الثورة ومنجزاتها. وهذا يعني أن على النظام أن يصل في نهاية المطاف إلى تشكيل جمهورية برجوازية يلعب الاشتراكيون فيها دور المعارضة البرلمانية.

وبدا حجر الأساس لدى الزعماء في برنامج العمل أكثر مما بدا في الآفاق. فلقد وعد التوفيقيون الجماهير بأن يحصلوا من البرجوازية "عن طريق الضغط" على سياسة ديمقراطية داخلية وخارجية. ومن المؤكد أن الطبقات الحاكمة قدمت التنازلات خلال التاريخ أكثر من مرة عندما وقعت تحت ضغط الجماهير الشعبية. وكان "الضغط" يعني في نهاية المطاف تهديد الطبقة المالكة بعزلها عن السلطة وأخذ مكانها. ولم تكن الديمقراطية تمتلك مثل هذا السلاح. فلقد سلمت السلطة للبرجوازية بمحض إرادتها. ولم تكن الديمقراطية عند تفجر الصراع تهدد بإلغاء السلطة، بل كانت البرجوازية تهدد برفض قبول هذه السلطة. وهكذا كانت الرافعة الأساسية في ميكانيكية الضغط بين يدي البرجوازية، وهذا ما يفسر قدرة الحكومة العاجزة على مقاومة كافة أوامر زعماء السوفييت بنجاح، رغم قلة جدية هذه الأوامر.

وفي منتصف إبريل (نيسان)، غدت اللجنة التنفيذية جهازًا كبيرًا لا يسمح بإجراء التصرفات السياسية السرية التي ترغبها نواة قيادية استدارت نحو الليبراليين بصورة نهائية. ونجم عن ذلك تشكيل مكتب كان كافة أعضائه من اليمين، أنصار الدفاع الوطني. ومنذ ذلك الوقت، أصبح تخطيط السياسة العليا يتم داخل حلقة ضيقة محدودة. وبدت الأمور وكأنها سائرة على طريق الترتيب والتماسك. وكان تسيريتلي مسيطرًا داخل السوفييت بشكل غير محدود. وأخذ كرنسكي يصعد بسرعة مذهلة. وفي هذه اللحظة بالذات، ظهرت أول البوادر المنذرة القادمة من القاعدة، ومن قلب الجماهير. ولقد كتب ستانكيفيتش المقرب من مجموعة كرنسكي: "ومن المدهش أن اللجنة التنفيذية فقدت القدرة على قيادة الجماهير، التي ابتعدت عنها في اللحظة التي تم فيها تنظيم هذه اللجنة، وألقيت مسئولية العمل على عاتق مكتب اختير أعضاؤه من أحزاب الدفاع الوطني" من المدهش؟ كلا. إن هذا الأمر طبيعي جدًا.

الهوامش

(١) يشير المؤلف هنا إلى الثورة الفرنسية الكبرى على اعتبار أن الديك هو شعار الأمة الفرنسية منذ عصر الغول.

(*) يشير كرنسكي هنا إلى أنه لا يود أن يكون جلاد الثورة الروسية، مستعيرًا اسم الثوري الفرنسي جان بول مارات مؤلف كتاب "صديق الشعب"، وأحد منظمي مذابح سبتمبر (أيلول) ١٧٩٢.

الجيش والحرب

كان الانضباط قد تعرض لهزة عنيفة خلال الأشهر التي سبقت الثورة. ويمكننا أن نجد عددًا من شكاوي الضباط في تلك الفترة على غرار: لا يحترم الجنود ضباطهم كما ينبغي، وهم يتصرفون إزاء خيولهم ومعداتهم وأسلحتهم نفسها بشكل يستدعي كل نقد، وتسود الفوضى في القطارات العسكرية. ولم تكن الحالة على هذا المستوى من السوء بالنسبة لكافة النقاط، ولكن الأمور تسير كلها باتجاه واحد نحو التفتت.

ويضاف الآن إلى ما سبق الهزة الناجمة عن الثورة. ولم تتم انتفاضة حامية بتروغراد دون مشاركة ضباطها فحسب، بل جاءت ضدهم. واختفى القادة في اللحظات الحرجة. وفي ٢٧ فبراير (شباط) تحدث النائب الأكتوبري شيدلوفسكي مع عدد من ضباط فوج بريوبر اجينسكي بغية سبر موقفهم حيال مجلس الدوما، ولكنه لاحظ أن ضباط الحرس الأرستوقراطيين لا يعون حقيقة ما يجري حولهم بشكل نصف خفي، وكان كل هؤلاء الرجال عبارة عن ملكيين خائفين متذمرين. ويقول شيدلوفسكي: "وكم أصبت بالدهشة عندما شاهدت في صبيحة اليوم التالي فوج بريوبر اجينسكي يسير في الشارع بكل نظام، تتقدمه الموسيقى، دون أن يكون معه أي ضابط..."، والحقيقة أن عددًا من الجنود جاءوا إلى قصر توريد مع رؤسائهم، أو اصطحبوا رؤساءهم بالأحرى معهم. وكان الضباط يحسون بأنفسهم كالأسرى وسط الموكب الظافر. ولقد رأت الكونتيسة كلينميشل الموقوفة آنذاك هذه المشاهد، وعبَّرت عن انطباعها بكل صراحة فقالت: لقد كان الضباط يشبهون الخِراف المُقادة إلى المسلخ.

ولم تخلق ثورة فبراير (شباط) أي انقسام بين الجنود والضباط، ولكنها كشفت هذا الانقسام وعرته. وكان الجنود يعتبرون الثورة ضد الملكية ثورة على الضباط قبل أي شيء آخر. ويتحدث أحد أعضاء حزب الكاديت نابوكوف، الذي كان يرتدي آنذاك بذة الضباط، عن هذا الأمر في "مذكراته" فيقول: "منذ صبيحة ٢٨ فبراير (شباط)، أصبح خروج المرء من بيته خطرًا، وانتزعت كتافيات عدد من الضباط". هكذا بدا الموقع في أول أيام النظام الجديد!

وكان أول اهتمامات اللجنة التنفيذية إصلاح العلاقات بين الجنود والضباط. ويعني ذلك في نهاية المطاف إخضاع القطعات من جديد لقياداتها السابقة. ورأى سوخانوف أن عودة الضباط إلى أفواجهم سيحفظ الجيش "من الفوضى الشاملة، أو من ديكتاتورية كتلة الجنود الجاهلة المتفسخة"، وكان هؤلاء الثوريون والليبراليون يخشون الجنود لا الضباط. أما العمال المؤيدون "لكتلة الجنود الجاهلة" فقد كانوا يتوجسون خيفة من الشرور التي ستأتي من جانب الضباط المرموقين. ونجم عن كل ذلك إصلاح العلاقات بشكل مؤقت غير متين.

ويصف ستانكيفيتش موقف الجنود إزاء الضباط الذين عادوا إليهم بعد الانتفاضة بقوله: "لقد خرق الجنود قواعد الانضباط، وخرجوا من الثكنة لا دون ضباطهم فحسب، بل... ضد إرادة هؤلاء الضباط في كثير من الحالات، وبعد قتل عدد ممن حاولوا القيام بواجبهم، ووجد الجنود أنهم حققوا بفضل ذلك إنجازًا تحرريًّا كبيرًا. فإذا كان هذا العمل إنجازًا جيدًا، وإذا كان الضباط يؤدونه الآن؛ فلِمَ لَم يخرج القادة الجنود إلى الشارع بأنفسهم؟ خاصة وأن عملاً كهذا كان أكثر سهولة وأقل خطورة. والآن، وما أن تمَّ تحقيق النصر، حتى عادوا لينضموا إلى الظافرين الشجعان. ولكن هل يتسم عملهم بالإخلاص، وهل سيدوم إخلاصهم طويلاً؟" ومما يزيد من أهمية هذه الأقوال أن الناطق بها ضابط من الضباط "اليساريين" الذين لم يخطر ببالهم أن يقودوا جنودهم، أو يخرجوا بهم إلى الشارع.

وفي صبيحة ٢٨ فبراير (شباط)، وقف ضابط من سلاح المهندسين في شارع سامبسونيفسكي يشرح لجنوده بأنه "تم قلب الحكومة التي يكرهها الجميع"، وأن حكومة جديدة تشكلت برئاسة الأمير لفوف، وأن من الضروري الاستمرار في طاعة الضباط. "والآن، أرجو من كل واحد منكم أن يعود إلى مكانه في الثكنة"، وأطلق بعض الجنود الجملة التقليدية المعهودة "سعداء بتنفيذ أوامركم!" ولكن الامتعاض بدا على غالبية الجنود. ما هذا هل هذا هو كل شيء؟ وشهد كييوروف هذا الموقف عن طريق الصدفة. وهزَّه الأمر من الأعماق فقال: "اسمح لي أيها السيد القائد بكلمة واحدة"... ودون أن ينتظر الإذن بالكلام طرح السؤال التالي: "هل سالت دماء العمال في شوارع بتروغراد خلال ثلاثة أيام في سبيل استبدال مالك بمالك آخر؟" وهكذا أمسك كييوروف الثور مرة أخرى من قرنيه، وكان السؤال الذي طرحه هو محور النضال خلال الأشهر التالية. وكان الخلاف بين الجندي والضابط انعكاسًا للعداء المستحكم بين الفلاح والمالك النبيل.

وتلقى قادة القطعات في كافة أرجاء البلاد تعليمات محددة، فأخذوا يطرحون الأحداث بشكل موحد، ويقولون لجنودهم: لقد أنهك القصر قواه في سبيل الدفاع عن البلاد، ووجد نفسه مضطرًا لإلقاء عبء الحكومة الثقيل على كاهل أخيه. ولقد صرح أحد الضباط العاملين في القرم بلهجة تنم عن الشكوى بأن من ينظر إلى الجنود خلال الطرح يرى بأنهم يعتبرون نيقولا وميخائيل شخصًا واحدًا. ولكن هذا الضابط يعترف بأنه عندما وجد نفسه في اليوم التالي مضطرًا إلى إعلام كتيبته بانتصار الثورة، تبدل موقف الجنود بشكل ملحوظ. وكانت أسئلتهم، وحركاتهم، ونظراتهم تشهد بوضوح على "أن هناك من قام بعمل دؤوب مستمر للتأثير على هذه العقول الجاهلة، والرمادية، التي لم تعتد التفكير". وما أكبر الهاوية القائمة بين الضباط الذي يتلاءم دون صعوبة مع آخر برقية قادمة من بتروغراد، وهؤلاء الجنود الذين يحددون موقفهم إزاء الأحداث بصعوبة وبطء، ولكن بكل شرف. ويزنون هذه الأحداث بأيديهم العجفاء!

واعترفت القيادة العليا بالانتفاضة بصورة شكلية، ولكنها قررت منع الثورة من الامتداد إلى الجبهة. وأصدر رئيس هيئة أركان القيادة العليا أمرًا إلى قادة الجبهات باعتقال المبعوثين الثوريين -الذين أطلق عليهم الجنرال الكسييف اختصارًا لقب "العصابات"- في حالة قدومهم إلى القطاعات، وتقديمهم إلى محكمة ثورية دون انتظار. وفي اليوم التالي طلب هذا الجنرال من الحكومة باسم "سمو" عم الإمبراطور نيقولا نيقولاييفيتش "أن تضع حدًا لكل ما يجري على مؤخرة الجيش" أي أن تضع حدًا للثورة.

وتحاشت القيادة ما في وسعها إبلاغ الجيش المعسكر في الجبهة بأحداث الانتفاضة ولم يكن عملها هذا ناجمًا عن إخلاصها للملكية، بقدر ما كان ناجمًا عن خشيتها من الثورة، وتمت مصادرة الرسائل الصادرة من بتروغراد، كما تم توقيف الأشخاص القادمين من العاصمة؛ وهكذا حلَّق النظام القديم ساعات أخرى نحو الخلود. ولم تصل أخبار الثورة إلى خطوط القتال إلا في ٥ أو ٦ مارس (آذار)، ولكن بأي شكل؟ لقد سمعنا شيئًا مما يلي: تم تعيين عم الملك قائدًا عامًا، واستقال القيصر باسم الوطن. وليس هناك أي تبديل آخر. ووصلت أخبار الثورة إلى عدد كبير من الخنادق إن لم يكن إلى معظمها عن طريق الألمان، بدلاً من أن تصل عن طريق بتروغراد. وغدا واضحًا لدى كافة الجنود أن القيادة كلها كانت متواطئة لإخفاء الحقيقة. فهل كان بوسع هؤلاء الجنود أن يكنوا شيئًا من التقدير لهؤلاء الضباط الذين توشحوا بعد يوم أو يومين بالأشرطة الحمراء؟

ويقول رئيس هيئة أركان أسطول البحر الأسود أن أثر أحداث بتروغراد لم يؤثر على البحارة في بداية الأمر تأثيرًا كبيرًا. ولكن ما إن جاءت الصحف الاشتراكية الأولى من العاصمة "حتى تبدلت حالة البحارة الفكرية بطرفة عين، وبدأت الاجتماعات، وخرج من الشقوق عدد من المحرضين المجرمين"، ولم يفهم الأميرال ما يجري تحت بصره. إن الصحف لم تخلق تغييرًا في الحالة الفكرية، ولكنها بددت شكوك البحارة حول أبعاد الانتفاضة. وسمحت لهم بالتعبير عن حقيقة مشاعرهم بكل صراحة، بعد أن اختفى الخوف من قهر القيادة. ويمكن تصور الواقع السياسي لضباط أسطول البحر الأسود، ولرئيس هيئة

أركان هذا الأسطول من جملة واحدة قالها الأميرال: "يرى معظم الضباط أن البلاد ستسير دون القيصر نحو الضياع" على حين كان الديموقراطيون يعتقدون بأن الوطن كان معرضًا للضياع لو لم تصل مثل هذه الأنوار إلى البحارة الجاهلين.

وانقسمت قيادة الجيش والأسطول إلى جناحين واضحين، وحاول أفراد الجناح الأول البقاء في مراكزهم، والعمل مع الثورة، والانضمام إلى الحزب الاشتراكي - الثوري، كما حاول بعضهم فيما بعد التسرب إلى صفوف البلاشفة. على حين رفض أفراد الجناح الثاني ذلك وحاولوا معارضة النظام الجديد، ثم لم يلبثوا أن فقدوا توازنهم وسط صراع حاد، وجرفهم مد الجنود الصاعد. ومثل هذه التجمعات طبيعية لدرجة تجعلها تظهر في كافة الثورات. فلقد كان ضباط الملكية الفرنسية المتشددين الذين وصفهم أحد زملائهم بأنهم "قاتلوا بعنف زائد" يتضايقون من خضوع زملائهم من الضباط النبلاء، أكثر من ضيقهم الناجم عن عدم انصياع الجنود للأوامر. وأخيرًا تمت تصفية غالبية جهاز القيادة القديم وسحقها، ولم يتلاءم مع الوضع الجديد سوى عدد صغير جدًا من الضباط، وتعرضت مجموعة الضباط لنفس المصير الذي تعرضت له الطبقة التي اختيروا منها، ولكن بشكل أشد مأساوية.

يمثل الجيش عادة صورة المجتمع الذي يخدمه، مع تميزه بأن يعطي العلاقات الاجتماعية طبيعة مركزة، ويدفع العلاقات إلى أقصى مظاهرها الإيجابية أو السلبية. وليس من قبيل الصدفة أن الحرب لم تبرز في الجانب الروسي اسم أي قائد كبير. وها هو الجنرال زاليسكي أحد أفراد القيادة الروسية العليا يقدم لنا صورة حية عن هذه القيادة: "كثير من روح المغامرة، وكثير من الجهل، والدسائس، والبحث عن المناصب والشكليات، والجشع، والعجز، وضعف البصيرة، وقليل جدًا من العلم، والمواهب، والأعداد، والرغبة بالتعرض للخطر أو التضحية حتى ولو لم تشمل التضحية سوى الرفاهية والصحة. وكان القائد الأعلى نيقولا نيقولايفيتش لا يمتاز إلا بقامته الفارهة، وبذاءة تبدو متنافرة مع مقامه الرفيع. والجنرال الكسييف عبارة عن تفاهة حمقاء، وهو مؤسس قديم من مؤسسي الجيش، اشتهر بين الضباط بحدته وعنفه. أما القائد المصمم كورنيلوف، فكان حتى المعجبون به يعتبرونه إنسانًا ساذج التفكير. ولقد تحدث خميرخوفسكي -وزير الحربية في وزارة كرنسكي- عن كورنيلوف فيما بعد فقال بأنه يتمتع بشجاعة أسد وعقل خروف. وكان بروسيلوف والأميرال كولتشاك أفضل من الآخرين من بعض الوجوه، وأحسن منهم من الناحية الفكرية، وكان هذا هو كل ما يمتازان به. وكان دينيكين قوي الشخصية، ولكن إذا نظرنا إليه من مختلف الزوايا الأخرى، وجدناه جنرالاً عاديًّا من جنرالات الجيش، ربما قرأ في حياته خمسة أو ستة كتب. ثم يأتي بعد ذلك يودينيتش ودراغوميروف ولوكومسكي وأضرابهم. وسواء أكان هؤلاء يتقنون الفرنسية أم لا، فقد كانوا كلهم مدمنين على شرب الخمرة، وتافهين إلى حد بعيد.

وكان معظم مجموعة الضباط يمثلون روسيا البرجوازية والديمقراطية لا روسيا النبلاء. فلقد دفعت الحرب إلى صفوف الجيش عشرات الآلاف من شباب البرجوازية الصغيرة: ضباط، وموظفين في الإدارة العسكرية، وأطباء، ومهندسين. وكانت كل هذه الأوساط تؤيد استمرار الحرب حتى النصر، وتحس بضرورة أخذ تدابير واسعة النطاق، ولكنها تخضع في نهاية المطاف لسلطة الأوساط الرجعية العليا -عن خوف خلال عهد القيصرية، وعن قناعة بعد الثورة- تمامًا كما كانت الديمقراطية في المؤخرة تخضع لسلطة البرجوازية. ولقد لاقت عناصر الضباط التوفيقية فيما بعد نفس المصير المشئوم الذي لاقته الأحزاب التوفيقية، مع فارق واحد، هو أن الوضع على الجبهة كان أخطر إلى حد بعيد من الوضع على المؤخرة. واستطاع بعض السياسيين الصمود طويلاً داخل اللجنة التنفيذية عن طريق التلاعب المشبوه، ولكن الصمود أمام الجنود كان أشد صعوبة.

ولم تؤد الغيرة والاحتكاكات بين الضباط الديموقراطيين والضباط الأرستوقراطيين إلى تجديد الجيش، ولكنها أدخلت فيه رغم ذلك عنصرًا إضافيًّا من عناصر التفتيت. وكان شكل الجيش محددًا بشكل روسيا القديمة، ومطبوعًا إلى حد بعيد بطابع العبودية؛ لذا كان الضباط يتمسكون بالفكرة القديمة القائلة بأن أفضل جندي هو القروي الشاب، الذي يطيع دون تفكير، والذي لم

يستيقظ في داخله بعد وعيه بشخصيته. هكذا كان التقليد الوطني الذي ابتدعه سوخوروف داخل الجيش الروسي المستند إلى زراعة بدائية، وحق القنانة، والمشاعية الزراعية. ولقد صنع سوخوروف في القرن الثامن عشر بناء رائعًا من هذه المادة.

ويجسد تولستوي في شخصية أفلاطون كاراتاييف، وبأسلوب النبيل السامي، الجندي الروسي القديم، الذي كان يخضع دون جدال لقوى الطبيعة، والظلم والموت (الحرب والسلام). وما أن اندلعت الثورة الفرنسية وفتحت السبيل واسعًا أمام اندفاع الفردية ونموها في كل مجالات النشاط البشري، حتى ألغت فن سوفوروف العسكري. وطوال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، أي خلال المرحلة الفاصلة بين الثورتين الفرنسية والروسية، تعرض الجيش القيصري الإقطاعي إلى هزائم متلاحقة. وكانت القيادة المؤهلة فوق هذه الأرضية "الوطنية" تتميز باحتقارها لشخصية الجندي. وتحمل عقلية المثقفين السلبية، وتجهل أسرار المهنة العسكرية، وتتسم بانعدام الشجاعة، والقدرة الكبيرة على الخيانة. وكانت سلطة الضباط تستند إلى إشارات التمييز الخارجية، ومراسم الاحترام، وأسلوب الضغط، وطريقة معينة للحديث والتخاطب، لا تتميز عن حوار العبيد المبتذل -"مفهوم، أنا لا أعرف"- كان الجندي مجبرًا على استخدامها عند التحدث مع الضابط.

وعندما قبل مارشالات القيصر الثورة لفظيًّا، وأقسموا على الولاء أمام الحكومة المؤقتة، كان عملهم هذا يعني إلقاء تبعية أخطائهم كلها على عاتق الأسرة المالكة. ولقد قبل الجميع بكل مهارة أن يكون نيقولا الثاني كبش الفداء للماضي بأسره. ولكنهم كانوا يرفضون الذهاب إلى أبعد من ذلك. فكيف كان بوسعهم أن يفهموا أن جوهر أخلاق الثورة يكمن في استثارة الجماهير البشرية ضد الجمود الفكري الذي يشكل أساس رفاههم ووضعهم المتميز؟ وعندما عين دينيكين لقيادة الجبهة صرح في منسك بما يلي: "إنني أقبل الثورة كلية ودون تحفظ. ولكنني أرى أن تثوير الجيش وإدخال الديماغوجية بين صفوفه أمر يعرض البلاد للأذى". إنها صيغة تقليدية لفكرة يحملها أي جنرال أحمق! أما الجنرالات المساعدون، فيقول زالسكي: إن طلباتهم كانت محدودة بشيء واحد هو؛ "لا تلمسونا، ولا يهمنا أي شيء آخر عدا ذلك!". ولم يكن بوسع الثورة أن لا تلمسهم. ولم يكن أمام هؤلاء الضباط المنحدرين من الطبقات المتميزة أن يريحوا شيئًا، بل كان عليهم أن يخسروا الكثير. وجابههم خطر فقدان الامتيازات التي يتمتعون بها كقادة، بالإضافة إلى خسارة ممتلكاتهم وأراضيهم. وأخذ الضباط الرجعيون موقفًا مواليًا للحكومة المؤقتة، ولكنهم ناضلوا بشراسة ضد السوفييتات. وعندما اقتنعوا بأن الثورة تغلغلت بعمق وسط جماهير الجنود، وفي قلب أريافهم، اعتبروا أن هذا التغلغل خيانة وضيعة ارتكبها كرنسكي وميليوكوف ورودزيانكو. وغني عن الذكر أن اتهامهم الأكبر كان موجهًا إلى البلاشفة.

وكانت ظروف حياة الأسطول الحربي تحمل أكثر من ظروف حياة الجيش بذورًا دائمة وحياة للحرب الأهلية. وكانت حياة البحارة داخل علب الفولاذ؛ حيث يتكدسون بالقوة خلال عدة سنوات، لا تتميز كثيرًا -حتى من ناحية التغذية- عن حياة السجناء، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان الضباط المنحدرون من الطبقات المتميِّزة، والذين اختاروا الخدمة في سلاح البحرية عن قناعة وبمحض إرادتهم، يعتبرون أن الوطن متمثل بالقيصر، وأن القيصر متمثل بهم. وكانوا يرون في الجندي البحَّار أقل أجزاء المركب الحربي قيمة. وكان هذان العالَمان المختلفان المغلقان يعيشان على اتصال وثيق دائم. ويراقبان بعضهما بشكل متبادل. وكانت قواعد المراكب الحربية تقع في الموانئ الصناعية التي تضم عددًا كبيرًا من العمال اللازمين لبناء السفن وإصلاحها. وكان سدنة الآلات وعمال الخدمات التقنية على المراكب نفسها يضمون عددًا كبيرًا من العمال المؤهلين. هذه هي الظروف التي قلبت الأسطول الحربي إلى لغم ثوري حقيقي. ومن المعروف أن البحارة يشكلون في الانتفاضات وعمليات التمرد العسكرية في كافة البلاد عنصرًا شديد الانفجار؛ فهم يعمدون دائمًا إلى التصرف بعنف إزاء الضباط عند ظهور أول فرصة سانحة. ولم يختلف البحارة الروس بهذا الصدد عن بحارة العالم أجمع.

فلقد رافق الانتفاضة في كرونشتادت انفجار عمليات انتقام عنيفة ضد القادة، الذين علمهم الماضي الأليم أن عليهم إخفاء أخبار الثورة عن بحَّارتهم. وكان أول ضحايا الثورة الأميرال نيرن، القائد العام للأسطول الذي كان يستقطب كراهية الجميع. وأوقف البحارة جزءًا من الضباط، وتركوا القسم الآخر حرًا بعد أن جردوه من سلاحه.

ومنع الأميرال نيبينين وصول أية معلومات من بتروغراد الثائرة إلى هلسنغفورز وسفيابورغ حتى ليلة ٤ مارس (آذار)، وهدد البحارة والجنود باتخاذ أقسى التدابير وأشدها. ولكن الانتفاضة اندلعت بعد ذلك بعنف أكبر، ودامت يومًا وليلة. وتم اعتقال عدد كبير من الضباط، وألقي بالضباط المكروهين تحت الماء المتجمد. بَيْد أن سوخانوف الذي لا يميل إلى التساهل مع "الجنود الجهلة" كتب ما يلي: "إذا حكمنا على تصرف سلطات هلسنغفورز وسلطات الأسطول بناء على أقوال سكوربيليف استغربنا قلة عدد التصرفات العنيفة المتطرفة".

ولم يخل الجيش البري من عمليات القمع الدموية التي انطلقت بموجات متعاقبة. وكان الجنود ينتقمون في بداية الأمر من تصرفات الماضي، والمعاملة القاسية التي تعرضوا لها طويلاً. ولم تكن الذكريات السيئة الأليمة المشابهة للقرحة قليلة العدد. فمنذ عام ١٩١٥؛ أي منذ أقر الجيش بصورة رسمية استخدام الجلد الانضباطي لمعاقبة الجنود، لجأ الضباط إلى استخدام هذه الوسيلة للانتقام من جنودهم، وضربوا كثيرًا من الجنود، بما فيهم الجنود القدامى أرباب العائلات. ولكن الأمر لم يتعلق بضرورة الانتقام من الماضي فحسب. ففي مؤتمر سوفييتات عموم روسيا، أشار التقرير الخاص بمسألة الجيش، إلى أن الضباط أمروا في الفترة الواقعة بين ١٥ و١٧ مارس (آذار) بتعذيب عدد من جنود الجبهة تعذيبًا جسديًّا. وتحدث أحد نواب مجلس الدوما بعد عودته من الجبهة عن أن القوزاق قالوا له عند غياب الضباط: "حسنًا، إنك تتحدث عن الأمر (يبدو أنهم كانوا يقصدون "الأمر رقم ١" الذي سنتحدث عنه فيما بعد) لقد تلقيناه البارحة، ومع هذا فقد ضربني القائد اليوم على بوزي". وهرع البلاشفة والتوفيقيون إلى منع أعمال الجنود العنيفة المتطرفة، ولكن الانتقام الدموي كان محتومًا كالصدمة التي تنجم بعد انطلاق الرصاصة. والحقيقة أن الليبراليين لم يصفوا ثورة فبراير (شباط) بأنها غير عنيفة، إلا لأنها رفعتهم إلى السلطة.

ووجد بعض الضباط الفرصة لإثارة صراعات عنيفة بسبب الوشاح الأحمر الذي اعتبره الجنود رمزًا لقطع العلاقات مع الماضي. ولهذا السبب قتل قائد فوج سومي. ولما طلب قائد أحد الفيالق نزع الوشاح الأحمر الذي يرتديه أفراد وحدة احتياطية قادمة حديثًا، أوقفه الجنود وسجنوه سجنًا انفراديًّا. ووقعت احتكاكات أخرى بصدد صور القيصر المعلقة في أماكن إقامة الضباط. فهل كان الحفاظ على الصورة دليلاً على الإخلاص للملكية؟ كلا. إنه لم يكن في غالب الحالات أكثر من تحد لصلابة الثورة، وحيطة شخصية للمستقبل. ولم يخطئ الجنود عندما رأوا شبح النظام القديم مختفيًا وراء هذه الصور.

وهكذا نجم النظام الجديد عن تدابير اعتباطية من الأعلى، وقفزات عنيفة من الأسفل. ولم تُلغ سلطة الضباط الانضباطية أو تُحدد، ولكنها سقطت لوحدها بصورة متدرجة خلال الأسابيع الأولى من شهر مارس (آذار). وقال رئيس هيئة أركان أسطول البحر الأسود ما يلي: "وكان من الواضح أنه لو شاء أحد الضباط تطبيق عقوبة انضباطية على جندي من الجنود، لما وجد القوى اللازمة لتنفيذها" وهذه دلائل وجود ثورة شعبية حقيقية.

ومنذ سقوط السلطة الانضباطية، ظهر عجز الضباط بشكل لا يدع مجالاً للشك. ويتحدث ستانكيفيتش المشهور بدقة مراقبته وشدة اهتمامه بالأمور العسكرية، حديثًا دقيقًا عن القيادة من هذه الناحية فيقول: بأن التدريب كان يتم وفق أنظمة قديمة لم تعد تصلح لمتطلبات الحرب أبدًا "ولم تكن مثل هذه التمارين سوى تجارب لمعرفة قدرة الجنود على التحمل، واستعدادهم للخضوع". وحاول الضباط بلا شك إلقاء تبعة عجزهم على عاتق الثورة.

وبالرغم من قيام الجنود بتصفية حساباتهم القديمة بعنف لا يرحم، فقد كانوا يتسمون بسذاجة طفولية، واعتـراف عميـق بالجميل. حتى أن جنود الجبهة، رأوا خلال فترة من الزمن في النائب الليبرالي القسيس فيلونينكو رجلاً يحمل أفكـار التحـرر، وداعية من دعاة الثورة. وكانت المفاهيم الدينية القديمة تتحد مع الإيمان الجديد بشكل عجيب. وحمل الجنـود القـسيس كبطـل ظافر، ورفعوه على الأعناق، ووضعوه بكل تبجيل واحترام داخل زحافته. ولم يلبث هذا النائب أن تحدث أمام مجلـس الـدوما بحماس بالغ قائلاً: "ولم نكن نستطيع الانتهاء من مظاهر الوداع، وكانوا يقبّلون أيدينا وأقدامنا" واعتقد هذا النائب أن للدوما فـي داخل الجيش سلطة رائعة. وكانت السلطة في الحقيقة ملك الثورة التي كانت تلقي أحياناً بعض انعكاسات النور على عـدد مـن الوجوه التي تبرز عن طريق الصدفة.

وقام غوتشكوف بعمليات تطهير داخل القيادة العليا عندما سرح عشرات الجنرالات. ولم يحـظ هـذا التـدبير برضـى الجنود، مع أنه خلق بين صفوف الضباط حالة من القلق. وكان كل واحد يخشى التقصير في تقديم البراهين على ولائه، وتـرك معظم الضباط أنفسهم لمشيئة التيار، وكانوا يمالئون الوضع على مضض، ويخفون قبضاتهم المضمومة فـي جيـوبهم. وكـان الوضع أسوأ بين صفوف الضباط القادة والأعوان الذين يتعاملون مع الجنود بصورة مباشرة. ولم تقم الحكومة في هذا المجـال بأي تطهير. وحاول رماة إحدى بطاريات مدفعية الجبهة إتباع سبل التسلسل النظامية فكتبوا إلى اللجنة التنفيذية لمجلـس دومـا الدولة رسالة بخصوص قائدهم قالوا فيها: "أيها الأخوة... إننا نرجوكم بكل تواضع، أن تعدوا عدونا الداخلي فانتشيخاسا" وكـان الجنود الذين لا يتلقون ردًا على رسائلهم يلجئون عادة إلى التصرف ببداهتهم؛ فيخالفون النظام، ويطردون الضباط أو يعتقلونهم؛ عندها كانت القيادة تضطر إلى الاستيقاظ فتبعد الضباط أو المضروبين، وتحاول أحياناً معاقبة الجنود، ولكنها تتركهم غالبًا بـلا عقاب، خشية تعقيد الأمور بشكل أوسع. ونجم عن كل ذلك مناخ لا يحتمل من قبل الضباط، دون أن يحدد هذا المنـاخ وضـع الجنود بشكل واضح.

وظهر عدد كبير من الضباط المقاتلين الذين نظروا إلى مصير الجيش بجدية، فألحوا على ضرورة إجراء تطهيـر عـام بين صفوف القيادة. وأكدوا أن عدم اللجوء إلى هذا التدبير سيجعل إعادة تنظيم قدرات القوات القتالية أمرًا متعذرًا. وقدم الجنود إلى نواب مجلس الدوما حججًا لا تقل عن هذه الحجج إقناعًا. ولما أحجم المجلس عن تلبية رغبـاتهم، رفعـوا الطلبـات إلـى رؤسائهم الذين لم يهتموا غالبًا بشكايات الجنود وطلباتهم. وتساءل الجنود كيف يمكن أن يتصرفوا؟ ورأوا بأن الشكايات سـتلقى المصير نفسه طالما أن القيادة القديمة باقية على حالها، واعترف أحد النواب بأن "الإجابة عن هذا الـسؤال صـعبة"، مـع أن الإجابة عنه كانت تتعلق بمصير الجيش، وتحدد مستقبله.

بَيْد أن علينا أن لا نتصور بأن العلاقات داخل الجيش كانت متشابهة في كافة أرجاء الـبلاد، وفـي جميـع التـشكيلات والقطعات العسكرية. كلا. فلقد كان هناك صور جد متناقضة. فإذا كان بحارة أسطول البلطيق قد لجئوا إلى استخدام العنف ضد الضباط منذ وصول أول أنباء الثورة، فإن ضباط هلسنغفورز كانوا يحتلون حتى مطلع إبريل (نيسان) موقعًا قياديًا في سـوفييت الجنود. وكان أحد الجنرالات المهيبين يمثل الاشتراكيين - الثوريين في الاحتفالات الرسمية. ولم يكن مثل هذا التنـاقض بـين الحقد والثقة نادرًا. ومع هذا فقد كان الجيش يمثل جهازًا يشبه الأواني المستطرفة، وأخذت المواقف السياسية للجنود والبحـارة تتقارب من بعضها البعض لتأخذ مستوى واحدًا متماثلاً.

واستمر الحفاظ على النظام طالما كان الجنود يعتمدون على تبديل سريع حاسم، ويصرح أحد مندوبي الجبهة أنه مـا أن رأى الجنود بأن الأمور تسير بشكل مشابه لما كانت عليه في الماضي، وأنهم يتعرضون للقهـر نفـسه، والعبوديـة نفـسها، والظلمات ذاتها، والإهانات عينها، حتى بدأت الاضطرابات. لقد زودت الطبيعة الجنود ويا للأسف بجهاز عصبي، ووضـعتهم بعد ذلك في موقف صعب. وتفيد الثورة في أنها تذكر بهذا الخطيئة المزدوجة ما بين آونة وأخرى.

وكانت الأسباب العرضية تثير على الجبهة وفي المؤخرة صراعات أليمة. وكانت القيادة قد منحت الجنود حق ارتياد المسارح والاجتماعات وصالات الموسيقى ...إلخ، بشكل حر "أسوة بباقي المواطنين" وفهم عدد كبير من الجنود من ذلك أن لهم الحق بدخول المسارح مجانًا. وشرح لهم الوزير أن عليهم فهم معنى "الحرية" بصورة سامية. ولكن الجماهير الشعبية الثائرة لم تبرهن في أي يوم من الأيام على ميلها إلى الأفلاطونية أو الكانتية المثالية.

وتمزق رداء الانضباط من كل مكان، وفي كل لحظة، وفي مختلف القطعات والمواقع. وكان قائد الوحدة يعتقد أن الأمور تسير في فوجه أو فرقته سيرًا حسنًا، حتى تصل الصحف، أو يأتي محرض من الخارج. والحقيقة أن القوات كانت تتعرض لتأثيرات قوى أشد عمقًا وأكثر تأثيرًا.

وحمل النائب الليبرالي يانوشكيفيتش من الجبهة الفكرة العامة القائلة بأن الفوضى تظهر في القطعات المدعوة باسم القطعات "الخضراء" أي قطعات الموجيك قبل أي مكان آخر. "وكانت الوحدات الأكثر ثورية تتفاهم مع الضباط بشكل أفضل". والحقيقة أن الانضباط يثبت أطول مدة في قطبين هما: الخيالة المتميزة، المكونة من الفلاحين الموسرين؛ والمدفعية والوحدات التقنية التي تضم أكبر عدد من العمال والمثقفين بصورة عامة. واستمرت المقاومة أطول مدة ممكنة داخل صفوف القوزاق - الملاكين، الذين كانوا يخشون اندلاع ثورة زراعية يخسر معظمهم فيها الكثير دون أن يربح شيئًا. وقامت بعض عناصر وحدات القوزاق بعمليات القمع أكثر من مرة، حتى بعد الثورة. ولكن الاختلاف بين الوحدات لم يكن سوى في سرعات التفتت ومدده.

وعرف الصراع العنيف مدًا وجزرًا. وحاول الضباط التلاؤم. وتمسك الجنود بالأمل. ولكن ما أن انتهت فترة التهدئة المؤقتة، وانقضت أيام السكون والراحة، حتى ظهر من جديد الحقد الاجتماعي الذي فتت جيش النظام القديم، ولكنه أخذ هذه المرة حدة متزايدة. ولقد عقد في سيرك موسكو اجتماع لمشوهي الحرب حضره الجنود والضباط. وصعد أحد الخطباء من المشوهين إلى منصة الخطابة، وامتدح الضباط. فارتفعت صيحات الاستنكار من كل جانب، وتصاعدت قرعات الأرجل والعُصي والعكازات على الأرض. "هل مضى زمن طويل، على العهد الذي كنتم تجلدون فيه أيها السادة الضباط جنودكم، وتضربونهم بقبضات أيديكم؟" ووقف الرجال الجرحى، والمصابون والعُرج تجاه بعضهم، وشكلوا جدارين بشريين هائلين. وانتصب الجنود المشوهون أمام الضباط المشوهين، ووقفت الأغلبية مقابل الأقلية، وارتفعت العكازات ضد العكازات. ووسط هذا الكابوس الدائر داخل السيرك، ظهرت بوادر عنف الحرب الأهلية.

* * *

وفوق كافة التناقضات داخل الجيش والبلاد ظهرت مسألة يمكن تلخيصها بكلمة واحدة: الحرب. فمن البلطيق إلى البحر الأسود، ومن البحر الأسود إلى بحر قزوين وما وراءه انتشر ٦٨ فيلقًا من المشاة، و٩ فيالق من الخيَّالة على جبهة طويلة لا نهاية لها. فما هو مصير هذه الفيالق؟ وما هو مصير الحرب كلها؟

ولقد تدعم الجيش بالمعدات الحربية في بداية الثورة، إذ ارتفع الإنتاج الداخلي لصالح الجبهة ارتفاعًا محسوسًا، وتزايد وصول المعدات الحربية وخاصة المدفعية المرسلة من قبل الحلفاء إلى مورمانسك وأرخانجلسك وأصبحت روسيا تمتلك من البنادق والمدافع والذخائر أكثر مما كان لديها خلال أولى سنوات الحرب. فعمدت إلى تشكيل فرق مشاة جديدة، وتطوير سلاح المهندسين، واستند إلى هذه الحقائق فيما بعد بعض القادة الكبار من ذوي الطالع السيئ، وأكدوا بأن روسيا كانت تقف على عتبة النصر، وأن الثورة وحدها حرمتها من تحقيق هذا النصر. وقبل ذلك باثنتي عشرة سنة أكد كوروباتكين ولينيفيتش للسبب نفسه

أن ويت منعهما من سحق اليابانيين. والحقيقة أن روسيا كانت في مطلع عام ١٩١٧ بعيدة عن تحقيق النصر أكثر من أي يـوم آخر. وبالرغم من تزايد الذخائر الحربية، فقد لوحظ تناقص المئونة داخل الجيش في نهاية عام ١٩١٦، وسـبب التيفـوس وداء الأسقربوط (الحفر) خسائر تفوق الخسائر الناجمة عن القتال، وعرقلت فوضى وسائل النقل حركة القطعات بـصورة متزايـدة، فنجم عن ذلك تعطيل المناورات الإستراتيجية المبنية على نقل قوات عسكرية كبيرة من مكان إلى آخر. وجاء نقـص الخيـول الفاحش فحرم المدفعية من الحركة.

ومع هذا فلم تكن النقطة الأساسية هنا؛ فالمهم هو أنه لم يعد بالإمكان الاعتماد على معنويات الجيش. ويمكن التعبير عن الموقف بما يلي: لم يعد الجيش قائمًا كجيش؛ فلقد هزت الهزائم، والتراجعات، وفضائح القادة روح القطعات هزًا عنيفاً. ولم يعد من الممكن معالجة هذا الأمر بتدابير إدارية، كما لم يعد من الممكن تعديل جهاز البلاد العصبي. وأصبح الجندي ينظر الآن إلى أكداس القنابل باشمئزاز، وكأنه ينظر إلى أكداس لحم متفسخ يعبث فيه الدود فسادًا، وبَدَا له كل هذا زائدًا، لا يمكن اسـتخدامه، بالإضافة إلى كونه خديعة محققة. ولم يعد الضابط قادرًا على أن يقول له ما يقنعه، كما لم يعد قادرًا على ضربه ودفعـه إلـى العمل بالقوة. واعتقد الضابط نفسه أن القيادة العليا خدعته، وكثيرًا ما وجد نفسه مسئولاً عن رؤسائه أمام الجنود. وهكـذا غـدا الجيش مصابًا بمرض عضال لا شفاء له. وكان قادرًا على أن يقول كلمته في الثورة. أما بالنسبة للحرب، فإنه لـم يعـد مـن الناحية العملية موجودًا. ولم يعد أحد يؤمن بتحقيق النصر، وينطبق هذا القول على الضباط كانطباقه على الجنـود. ولـم يعـد الجيش والشعب راغبين باستمرار الصراع.

صحيح أن المسئولين في الأوساط العليا المعزولة كانوا يتحدثون عن العمليات الكبيرة، وعن هجوم الربيـع، واحـتلال المضائق التركية، بحكم الاستمرار والعادة. حتى أنهم أعدوا في بلاد القرم قوة كبيرة لتحقيق الهدف الأخير. وأشارت الوثـائق إلى أن القيام بالإنزال على الشواطئ التركية دفع القيادة إلى تعيين خيرة عناصر الجيش لهذه المهمة. وجاءت قطعات الحـرس من بتروغراد للمشاركة في العملية. ولكن أحد الضباط الذين بدءوا تدريب هذه القطعات في ٢٥ فبراير (شباط)، أي قبل الثورة بيومين، أشار إلى أن مستوى أفراد الوحدات التكميلية كان أقل من أن يستحق النقد. ولم يشع في هذه العيون اللا مبالية الزرقاء، والبنية، والرمادية.... أي حماس للحرب. "وكانت جميع أفكارهم، وكل رغباتهم تتركز على نقطة واحدة هي السلم".

وبوسعنا ذكر عدد كبير من الشهادات المشابهة. ولم تعمل الثورة إلا على إظهار ما كان معدًا قبلها. ولذا غـدا شـعار "فلتسقط الحرب!". أحد نداءات التجمع الأساسية في أحداث فبراير (شباط). وكنت تسمعها على لـسان النـساء المتظـاهرات، وعمال حي فيبورغ، وجنود قطعات الحرس.

وعندما أخذ النواب يتجولون في جبهات القتال في مطلع مارس (آذار)، كان الجنود، المسنون منهم بـصورة خاصـة، يسألون دائمًا: "وماذا يقال عن الأرض؟". وكان النواب يردُّون بأسلوب متهرب بأن مسألة الأرض ستجد حلها على يد المجلـس التأسيسي. وهنا يرتفع صوت يعبر عن الفكرة الكامنة في صدر كل جندي: "لِمَ الأرض؟ إنني لن أكون بحاجة لها إذا لـم أعـد موجودًا". وكان هذا هو برنامج الجنود الثوري: السلم أولاً، ثم الأرض.

وفي نهاية مارس (آذار)، عقد مؤتمر سوفييتات عموم روسيا، وشهد هذا المؤتمر عددًا من الخطب الوطنيـة، وتحـدث أحد مندوبي الجنود المتمركزين في الخنادق، شارحًا بكل دقة، كيف تصرفت الجبهة عندما سمعت نبأ انـدلاع الثـورة: "وقـال جميع الجنود: حمدًا لله، قد نحصل الآن على السلم بعد فترة قصيرة". وطلب جنود الخنادق من هـذا المنـدوب أن يقـول فـي المؤتمر: "نحن على استعداد للتضحية بأنفسنا في سبيل الحرية، ولكننا نود أيها الرفاق الانتهاء من الحرب". وكـان هـذا هـو

صوت الحقيقة الحي، وخاصة في النصف الثاني من الطلب. وهو يعني أنه إذا كنتم تودون مزيدًا من الصمود، فإننا سنصمد، ولكن ليعجل الرؤساء بإحلال السلام.

وعاشت قوات القيصر المتمركزة في فرنسا، أي في وَسَط أجنبي عنها، نفس الأحاسيس، ومرت بنفس مراحل التفتت التي مر بها الجيش الموجود في البلاد. ولقد تحدث أحد الجنود القدامى -وهو فلاح أمِّي- من القوات المتمركزة على الأرض الأجنبية، وقال لأحد الضباط: "عندما علمنا بأن القيصر تنازل عن العرش، تصورنا أن هذا سيؤدي إلى انتهاء الحرب... لأن القيصر هو الذي دفعنا إلى الحرب... وماذا أفعل بالحرية طالما أنَّ علي حتى الآن أن أموت في الخنادق؟" هذه هي فلسفة الجندي الحقيقية النابعة من ذاته دون تدخل أحد، ولا يمكن لأي محرض أن يبتدع مثل هذه الكلمات البسيطة المقنعة.

وحاول الليبراليون والاشتراكيون نصف الليبراليين بعد وقوع الأحداث اعتبار الثورة انتفاضة وطنية. وفي ١١ مارس (آذار)، تحدث ميليوكوف أمام الصحفيين الفرنسيين فقال: "لقد وقعت الثورة الروسية لإبعاد الحواجز القائمة على الطريق الذي يُوصل روسيا إلى النصر" وهنا يلتقي الدجل بالوهم، ولكن نسبة الدجل في هذا المجال أكبر. ورأى الرجعيون الحقيقيون الأمور بشكل أوضح. فلقد شرح فون ستروف المؤيد للوحدة السلافية مع أنه من أصل ألماني، والأرثوذكسي الذي كان لوثريًا، والملكي ذو الثقافة الماركسية، بلهجة تنم عن الحقد الرجعي، ولكنها تعبر عن المنابع الحقيقية للانتفاضة عندما كتب: "كان اشتراك الجماهير الشعبية، وجماهير الجنود بصورة خاصة في الثورة عبارة عن تحلل الجيش بصورة عفوية وكارثوية، وكان هذا التحلل موجهًا بشكل محدد ضد استمرار الحرب. وعاملاً أساسيًا في توقيف جميع العمليات الحربية".

وتحمل هذه الأقوال فكرة صحيحة، ولكنها تخفي بين طياتها قسطًا كبيرًا من الافتراء. فلقد نجم تحلل الجيش الكارثوي عن الحرب نفسها. ولم ينجم أبدًا عن الثورة؛ ويمكننا أن نقول إن الثورة أوقفت هذا التحلل فترة من الزمن. ومن المعروف أن حالات الفرار العديدة التي شهدتها الوحدات العسكرية قبيل الثورة، تضاءلت في الأسابيع الأولى التي تلت الانتفاضة. ووقف الجيش موقف الانتظار آملاً أن تقدم له الثورة السلم، وكان الجندي مستعدًا لدعم الجبهة وسط هذا الأمل على اعتبار أن دعمه ضروري حتى تستطيع الحكومة الجديدة تحقيق السلام.

وفي ٢٣ مارس (آذار) كتب أحد قادة فرق رماة القنابل تقريرًا قال فيه: "يؤكد الجنود بكل وضوح، أن علينا أن نركن إلى الدفاع، وأن لا نعتمد إلى الهجوم أبدًا"، وكانت التقارير العسكرية والتقارير السياسية تكرر هذه الفكرة نفسها بأشكال متعددة. ويقول الملازم الثاني كريلنكو -وهو ثوري قديم غدا فيما بعد قائدًا عامًا لجيوش البلاشفة- أن الجنود لخَّصوا مسألة الحرب في هذه الفترة بالصيغة التالية: "الصمود على الجبهة، وعدم شن الهجمات". وهذا يعني بكل صدق وإخلاص الدفاع عن الحرية.

"علينا أن لا نغرس الحِرَاب في الأرض!"(١) هكذا عبَّر الجنود عن رأيهم تحت تأثير الأفكار المضطربة المتناقضة، وكانوا يرفضون الاستماع إلى البلاشفة. واعتقد البعض تحت تأثير بعض الأحاديث الخرفاء أن البلاشفة لا يهتمون بالدفاع عن الثورة، وأن بوسعهم منع الحكومة من إقرار السلام. ومع تقدم الأيام ازدادت هذه القناعة لدى الجنود ترسخًا بفضل الصحف والمحرضين والاشتراكيين - الوطنيين. ولكن الجنود الذين كانوا يمنعون البلاشفة أحيانًا من الحديث، كانوا يرفضون منذ اندلاع الثورة فكرة الانتقال إلى الهجوم. ورأى ساسة العاصمة في هذا الأمر نوعًا من سوء التفاهم الذي يمكن تبديده إذا ما تم الضغط على الجنود بشكل ملائم.

وتزايد التحريض لصالح استمرار الحرب إلى أقصى درجة. وأخذت ملايين النسخ من الصحف البرجوازية تطرح مهمات الثورة على ضوء الحرب حتى النصر. ودعم التوفيقيون هذا التحريض في بادئ الأمر بصوت منخفض، ثم ازدادت

جرأتهم مع الأيام. أما تأثير البلاشفة الذي كان ضعيفاً في لحظة الانتفاضة، فقد أخذ يتناقص عندما بدا من الواضح أن آلاف العمال الذين ترسلهم القيادة إلى الجبهة عقابًا لهم على إضرابهم يتركون الجيش ويتخلون عن الواجب. ولم يجد الميل إلى السلم تعبيرًا صريحًا وواضحًا، وخاصة في الأماكن التي كان فيها هذا الميل قويًّا. ووجد القادة والمفوضون الباحثون عن الأوهام المطمئنة أن هذا الوضع يحمل إمكانية الإفادة من حقائق الأشياء. وإننا لنشهد في مقالات هذه الفترة وخطبها كثيرًا من الجمل التي تؤكد بأن الجنود رفضوا العودة إلى الهجوم لأنهم لم يفهموا جيدًا معنى صيغة "**بلا إلحاق أو ضم**". وبدأ التوفيقيون يشرحون أن **الحرب الدفاعية** تشتمل على الهجوم، بل وتتطلب شن هذا الهجوم في كثير من الحالات. وكأن الأمر يتعلق بمثل هذه السكولاستيكية الخرقاء! لقد كان الهجوم يعني عودة الحرب. أما الترقب على الجبهة فهو فترة استراحة. وكانت نظرية الحرب الدفاعية وتطبيقها يتمثلان عند الجنود بتفاهم ضمني مع الألمان، انقلب بعد ذلك إلى تفاهم صريح: "لا تلمسونا، وسوف لن نلمسكم". ولم يعد الجيش قادرًا على أن يقدم للحرب أكثر مما قدم.

وكان تقبل الجنود للدعايات الحربية يتناقص كلما حاول الضباط الرجعيون استغلال فكرة الإعداد للهجوم في سبيل استعادة السيطرة على قطعاتهم. وانتشرت الجملة التالية بين صفوف الجنود: "**الحربة ضد الألمان، وعقب البندقية ضد العدو الداخلي**"، ومع هذا فقد كانت الحربة معدة للدفاع فقط. ولم يفكر جنود الخنادق لحظة واحدة في احتلال المضائق التركية. وكانت الرغبة بالسلم تشكل تيارًا قويًّا خفيًّا لم يلبث أن ظهر على السطح.

ولقد اعترف ميليوكوف بأن الجيش كان يحمل بعض الظواهر السلبية قبل الثورة. ولكنه حاول بعد الانتفاضة جاهدًا، التأكيد على أن الجيش كان قادرًا على تنفيذ المهمات التي يكلفه بها الحلفاء. ولقد عبَّر ميليوكوف عن رأيه كمؤرخ عندما كتب: "وكانت الدعاية البلشفية أبعد من أن تتغلغل في الجهة كلها. وبقي الجيش سليمًا بشكل لا يقبل الشك خلال الأسابيع الستة التي تلت الثورة". وينظر ميليوكوف هنا إلى المسألة كلها من وجهة نظر الدعاية، وكأن التطور التاريخي يتوقف عند مثل هذه الأمور. والحقيقة أن ميليوكوف الذي أخذ يقاتل البلاشفة بصورة متأخرة، ويصفهم بصفات سحرية، لم يكن يقاتل سوى الحقائق القائمة الملموسة. ولقد رأينا كيف كان الجيش بصورته الحقيقية. ولنر الآن كيف قيم القادة قدرته القتالية في الأسابيع الأولى أو الأيام الأولى التي أعقبت الثورة.

في ٦ مارس (آذار) أعلم الجنرال روسكي قائد الجبهة الشمالية اللجنة التنفيذية بأن الجنود يرفضون الانصياع لأوامر السلطات رفضًا باتًا، وأن من الضروري قدوم رجال شعبيين إلى الجبهة، بغية إعادة بعض الهدوء إلى صفوف الجيش.

ويقول رئيس هيئة أركان أسطول البحر الأسود في مذكراته: "وبدا لي بوضوح منذ الأيام الأولى للثورة بأننا لم نعد قادرين على متابعة الحرب، وأننا خسرنا الجولة". وينطبق هذا القول على رأي كولتشاك الذي عبَّر عنه بأسلوبه، وقال بأنه سيبقى في منصب القائد الأعلى للأسطول، بغية حماية الضباط من أعمال العنف الموجهة ضدهم.

وكتب الكونت إيغناتييف، الذي كان يشغل مركزًا مرموقًا في قيادة قطعات الحرس، رسالة إلى نابوكوف قال فيها: "ينبغي أن نفهم من كل هذا أن الحرب قد انتهت، وأننا عاجزون عن متابعتها. وعلى الرجال الأذكياء أن يجدوا وسيلة لإنهاء الحرب بلا ألم، وإلا وقعت كارثة ماحقة".

وفي تلك الفترة قال غوتشكوف لنابوكوف الذي كان يتلقى العديد من الرسائل المشابهة إن بعض الأفكار النادرة الملائمة ظاهريًّا تفقد قيمتها بسبب التعليمات المُرفَقة بها. وإننا لنجد في تقرير كتبه دانيلوف قائد الجيش الثاني ما يلي: "إن الرغبة بتحقيق النصر موجودة داخل القطعات، كما أنها تزايدت في بعض وحداتنا"، ولكننا نجد بعد ذلك مباشرة هذه الملاحظة: "لقد

انهار الانضباط... ومن الأفضل تأجيل العمليات الهجومية (من شهر إلى ثلاثة شهور) حتى تنخفض حدَّة الموقف الحرج". وفجأة تبرر هذه الفكرة غير المنتظرة: "ولا تصل النجدات الدائمة إلا بنسبة ٥٠٪، فإذا ما استمرت على الذوبان بهذا الشكل، وبدت بهذا المظهر اللا انضباطي، تعذر علينا الاعتماد على نجاح أي هجوم".

ويقول تقرير قائد فرقة المشاة الواحدة والخمسين ما يلي: "الفرقة مستعدة كل الاستعداد للعمل دفاعيًّا" ثم يضيف بعد ذلك: "ومن الضروري أن يلغي الجيش تأثير مندوبي العمال والجنود" ولكن تطبيق فكرته لم يكن بمثل هذه البساطة.

ورفع قائد الفرقة ١٨٢ إلى قائد الفيلق تقريرًا قال فيه: "ويتزايد مع الأيام وبشكل متسارع ظهور سوء التفاهم حول أمور تافهة في حد ذاتها، ولكنها تحمل مع ذلك طابعًا خطيرًا. ويبدو الجنود عصبيون بشكل متزايد، كما يبدو الضباط أكثر عصبية أيضًا".

إننا لم نذكر حتى الآن سوى شهادات متفرقة متعددة. ولكن ما أن جاء يوم ١٨ مارس (آذار) حتى عُقد في مقر القيادة العامة مؤتمر خاص خصصته السلطة العليا لمسألة الوضع داخل الجيش. وكانت استنتاجات القيادات المركزية واحدة وهي: "يستحيل علينا في الأشهر التالية إرسال القسط الكافي من النجدات التكميلية إلى الجبهة، نظرًا لانتشار التخمُّر بين القطعات الاحتياطية، ويعيش الجيش حالة مرضِية. ومن المحتمل أن لا نصل إلى تحسين العلاقات بين الضباط والجنود وتوطيدها إلا بعد شهرين أو ثلاثة أشهر، (ولم يفهم الجنرالات أن الحالة المرضية ستسير نحو التزايد). وينتشر اليأس في الوقت الحاضر بين صفوف الضباط، كما يسري التخمر داخل القطعات، وتستشري حالة الفرار من الخدمة على نطاق واسع. لقد انخفضت قدرة الجيش القتالية، ويصعب الاعتماد على هذه القدرة الآن في سبيل القيام بأية حركة إلى الأمام. استنتاج: "يتعذر الآن تنفيذ العمليات الفعَّالة المحددة لفترة الربيع".

وتفاقم سوء الحالة بسرعة في الأسابيع التالية. وتكرر ظهور الشهادات المنذرة بلا انقطاع.

وفي نهاية مارس (آذار) كتب قائد الجيش الخامس الجنرال دراغوميروف إلى الجنرال روسكي يقول: "انخفضت الروح القتالية. ولم يفقد الجنود حماسهم للهجوم فحسب، بل إن إمكانات الصمود في الدفاع تضاءلت إلى درجة خطرة تضر بنتيجة الحرب كلها... إن السياسة التي اجتاحت كل صفوف الجيش على أوسع نطاق... قد أقنعت جماهير الجنود بأن عليهم أن يرغبوا شيئًا واحدًا؛ هو إيقاف القتال، والعودة إلى بيوتهم".

أما الجنرال (لو كومسكي)، وهو أحد دعائم القيادة العليا الرجعية، فقد أبدى تذمره من الوضع الجديد، ونقل في بداية الثورة لاستلام قيادة أحد الفيالق، فوجد أن الانضباط مفقود إلا في وحدات المدفعية والمهندسين التي تضم عددًا كبيرًا من ضباط الكوادر والجنود المتطوعين، "أما فرق المشاة الثلاث، فكانت تسير على سبيل التفتت الشامل. وعادت حالات الفرار إلى الظهور بشكل عنيف بسبب خيبة الأمل، علمًا بأنها كانت قد تضاءلت بعد الثورة، وما أيقظته الثورة من آمال. ويقول تقرير الجنرال الكسييف أن حوالي ٨٠٠٠ جندي هربوا من الجبهتين الشمالية والغربية في الفترة الواقعة بين ١ و٧ إبريل (نيسان). وكتب الكسييف إلى غوتشكوف يقول: "إنني أقرأ باستغراب كبير تقارير رجال غير مسئولين يتحدثون عن معنويات الجيش "الرائعة"، وماذا يفيد كل هذا؟ إننا لم نخدع الألمان بعد الآن، أما بالنسبة لنا فهذا تبجح قاتل".

ومن الجدير بالملاحظة، أن التقارير لم تشر حتى الآن إلى البلاشفة، ولم يكن معظم الضباط قد وعوا بعد معنى هذه التسمية الغريبة. وكانت التقارير كلها تتحدث عن أسباب تفتت الجيش، وتُلقي الوِزر على عاتق الصحف، والمحرضين، والسوفييتات، والسياسة بصورة خاصة، أي باختصار على عاتق ثورة فبراير (شباط).

ومع هذا فقد بقي حتى ذلك الوقت عدد من القادة المتفائلين الذين يأملون بتحسن الأوضاع. وكان العدد الأكبر يغلق عينيه عن رؤية الأمور عامدًا متعمدًا حتى لا يسبب للسلطة الجديدة أية متاعب. بَيْد أن عددًا كبيرًا من ضباط القيادات العليا، كان يتعمد المبالغة بذكر مظاهر التفتت بغية دفع الحكومة إلى اتخاذ تدابير حاسمة لا يستطيع الضباط أخذها على عاتقهم، أو الأمر بها باسمهم. ولكن اللوحة بمجملها كانت واضحة لا تقبل الجدل. لقد وجدت الثورة أمامها جيشًا مريضًا، فغلَّفت مسيرة تحلله المحتوم الذي لا يقاوم بأشكال سياسية، أخذت مع الأسابيع وضوحًا متزايدًا أكيدًا. ولم تكتف الثورة بدفع الرغبة بالسلام إلى أبعد مدى، بل زادت أيضًا عداء جماهير الجنود نحو القيادة والطبقات الحاكمة بصورة عامة.

وفي منتصف إبريل (نيسان)، بعث الكسييف إلى الحكومة بتقرير شخصي حول معنويات الجيش، وكان تقريره مفعمًا بالتفاصيل والحقائق. فكتب نابوكوف عن هذا التقرير ما يلي: "وإنني لأذكر جيدًا كيف اجتاحني عند سماعه شعور بالهلع وخيبة الأمل"، ومن المؤكد أن ميليوكوف حضر قراءة هذا التقرير الخاص بالأسابيع الست الأولى للثورة، ومن المحتمل أن يكون هذا السياسي قد دفع الكسييف لكتابة التقرير بغية تحذير زملائه ولفت أنظار الأصدقاء الاشتراكيين عن طريقهم. ولقد تحدث غوتكشكوف بعد هذا التقرير دون ريب مع ممثلي اللجنة التنفيذية، وتمتم بأسًى "لقد وصلت الأمور إلى حد التآخي الكارثوي مع جنود العدو. وهناك حالات كان فيها رفض الانصياع للأوامر واضحًا. وتخضع الأوامر لنقاش مسبق داخل الاجتماعات وتنظيمات الجيش. ولم يشأ الجنود في هذه القطعة العسكرية أو تلك الاستماع إلى الحديث عن أية عمليات إيجابية.. وعندما يأمل الرجال بقدوم السلام في الغد، يصبح إجبارهم اليوم على التضحية بحياتهم متعذرًا". ثم استنتج وزير الحربية ما يلي: "لا بُدَّ من إيقاف الحديث بصوت عالٍ عن السلم". ولكن الثورة علمت الناس أن يتحدثوا بصوت عالٍ عن كل ما كانوا يخفونه من قبل في أعماق نفوسهم، ومنع الناس من الحديث عن السلم بصوتٍ عالٍ يعني ضرورة التخلص من الثورة.

ومن المؤكد أن الجندي كان عازفًا عن القتال والموت منذ أول أيام الحرب. ولكنه كان يكره هذه الحرب كما تكره خيول المدفعية جر المدافع الثقيلة وسط الوحل. وكان الجندي كالحصان يعتقد أنه عاجز عن التخلص من العبء الثقيل الملقَى على عاتقه. ولم يكن بين إرادة الجندي وإحداث الحرب أية علاقة، وجاءت الثورة لتكشف له هذه العلاقة. وكانت الثورة تعني بالنسبة لملايين الجنود حق الحياة بشكل أفضل. وهذا يعني حق الحياة، وحق الحماية من الرصاص والقنابل، وحق حماية الوجه من لكمات الضباط وصفعاتهم. ولقد قلنا من قبل إن التطور النفسي الأساسي داخل الجيش أخذ في هذا المجال شكل استيقاظ الشخصية الفردية. ورأت الطبقات المثقفة أن ظهور الفردية بعنف بركاني، وفوضوية، يعني خيانة الأمة. والحقيقة أن الأمة أخذت تتشكل من مواد أولية، قديمة، لا شكل لها، وسط مظاهرات الجنود الفوضوية، واحتجاجاتهم المحمومة، وتطرفهم الدموي أيضًا. وكان تزايد فردية الجماهير الذي تندد به البرجوازية ناجمًا عن طبيعة ثورة فبراير (شباط)، أي عن كونها ثورة برجوازية.

ولكن الثورة كانت تتسم بصفات إضافية أخرى. فقد اشترك بها العامل بالإضافة إلى الفلاح وابنه الجندي. وكان العامل يحس بقيمته الشخصية منذ أمد بعيد. ولم يشترك العامل في الحرب على كُره منه فحسب، بل دخل الحرب وهو مصمم على النضال ضدها. ولم تكن الثورة تعني بالنسبة له انتصارًا فحسب، بل تعني انتصار جزء من أفكاره أيضًا. ولم يكن يرى في قلب الملكية سوى خطوة أولى لا ينبغي الوقوف عندها، بل السير بعدها نحو أهداف أخرى. وكانت المسألة الأساسية التي تشغل باله هي معرفة إلى أي مدى سيدعمه الفلاح والجندي فيما بعد. وكان الجندي يقول "ماذا تفيدني الأرض إذا لم أعد موجودًا؟" ولما

رأى العامل أن أبواب المسرح مقفلة في وجهه قال: "وماذا تفيدني الحرية، إذا كانت مفاتيحها في أيدي السادة؟". وهكــذا لمــع الإطار الفولاذي لأكتوبر (تشرين الأول) وسط الاضطراب الكبير الذي عاشته ثورة فبراير (شباط).

الزعماء والحرب

تُرى ماذا كانت الحكومة المؤقتة واللجنة التنفيذية ترجوان من هذه الحرب وهذا الجيش؟

إن من الضروري قبل كل شيء فهم سياسة البرجوازية الليبرالية، نظرًا لأنها كانت تلعب الدور الأول. ولقد كــان مــن الواضح أن السياسة الحربية الليبرالية بقيت سياسة الهجوم الوطني، أي سياسة الفريسة التي لا أمــل لهــا. والحقيقــة أن هــذه السياسة كانت متناقضة مخادعة، لم تلبث أن تحولت إلى سياسة انهزامية.

ولقد كتب رودزيانكو فيما بعد: "وكنا سنخسر الحرب بالشكل نفسه حتى ولو لم تقع الثورة، وكنا سنضطر على ما يبــدو إلى تحقيق سلم منفرد". ولا تتميز أفكار رودزيانكو وكتاباته بطابع خاص، ولكنها تعبر أفضل تعبير عن الرأي العام السائد بــين أوساط (الليبراليين - المحافظين). ولم ترَ الطبقات المالكة في انتفاضة كتائب الحرس بشيرًا بتحقيق نصر خارجي، بــل نــذيرًا بوقوع هزيمة داخلية. وكانت أوهام الليبراليين بهذا الصدد محدودة نظرًا لأنهم توقَّعوا الخطر، وناضلوا ضده على قدر طاقاتهم. وكان التفاؤل الثوري المفاجئ الذي عبَّر عنه ميليوكوف عندما صرح بأن الثورة خطوة نحو النصر، عبارة عن آخــر مظــاهر خيبة الأمل. ولم تعد مسألة الحرب والسلام تشكل بالنسبة لليبراليين مسألة مستقلة. وأحس هؤلاء الليبراليون بأنه لن يسمح لهــم باستخدام الثورة في سبيل الحرب. وظهرت أمامهم مهمة جديدة مختلفة هي: استخدام الحرب ضد الثورة.

وعند هذه اللحظة، تكدست معضلات وضع روسيا الدولية بعد الحرب -كالديون القديمة، والقروض الجديدة، وأســواق رءوس الأموال، وأسواق البضائع- أمام زعماء البرجوازية الروسية. ولكنهم لم يحددوا سياستهم مباشرة وفق تــأثيرات هــذه المعضلات. ولم تكن المسألة الملحة المطروحة أمامهم آنذاك تأمين أفضل الظروف الدولية لروسيا البرجوازية، بل إنقاذ النظــام البورجوازي نفسه، حتى ولو أدَّى ذلك إلى إضعاف روسيا فوق ضَعفها. وقالت الطبقة الجريحة بشكل خطير: "ينبغي علينا قبل كل شيء أن نُشفى، ثم نضع الأمور في نصابها بعد ذلك"؛ ولا يعني الشفاء سوى سحق الثورة.

* * *

وكان الحفاظ على الروح الحربية، والأخلاق الشوفينية يفتح أمام البرجوازية الإمكانيــة الوحيــدة الأخيــرة للاتــصال بالجماهير والجيش، وإعدادهما ضد من أطلقوا عليهم لقب "معمِّقي" الثورة. وكانت مهمة البرجوازية تتمثل في إقناع الشعب بأن الحرب الموروثة من القيصرية، والتي حافظت على حلفائها وأهدافها، عبارة عن حرب جديدة ودفاع عن المكتــسبات والآمــال الثورية.

وكانت الليبرالية تأمل الوصول إلى هذه النتيجة، ولكن كيف؟ حتى توجه ضد الثورة الرأي العام الوطني الــذي خــدمها عشية الثورة عندما كانت تناضل ضد راسبوتين وشلته. وما دام إنقاذ الملكية، كآخر وسيلة للعمل ضد الشعب قد غَدا متعــذرًا، فإن من الضروري التمسك بالحلفاء؛ خاصة وأن الحلفاء كانوا يشكلون خلال الحرب قوة أكبر بكثير مما كان بوسع الملكيــة أن تقدمه.

* * *

وكان استمرار الحرب يبرر الحفاظ على الأداة العسكرية البيروقراطية القديمــة، وتأجيــل عقــد المجلــس التأسيــسي، وإخضاع البلاد الثورية لمتطلبات الجبهة، أي لأوامر الجنرالات المتواطئين مع البرجوازية الليبرالية. وهكذا كانت كافة المسائل الداخلية، وخاصة المسألة الزراعية، وقضايا القوانين الاجتماعية، مؤجلة حتى انتهاء الحرب. وكانــت نهايــة الحــرب نفــسها مرتبطة بالنصر الذي لم يكن الليبراليون يؤمنون بإمكانية تحقيقه. وانقلبت حرب استنزاف العدو إلى حرب استنزاف للثورة. ولم يأت كل هذا بناء على مخطط مدروس ومعد مسبقًا داخل اجتماعات رسمية. ولكن الأمر لم يكن بحاجة إلى كل هذا. فلقد جــاء المخطط من مجمل السياسة السابقة التي سارت عليها الليبرالية، ومن الوضع الناجم عن الثورة.

وكان ميليوكوف مضطرًا للسير على سبيل الحرب، ولم يكن هناك ما يدفعه مسبقًا إلى رفض اقتسام الغُنم؛ خاصــة وأن الآمال المتعلقة بانتصار الحلفاء بقيت قائمة، ثم تزايدت مع اشتراك الولايات المتحدة الأمريكية في الحرب. صحيح أن الحلفــاء شيء، وروسيا شيء آخر. ولقد فهم زعماء البرجوازية الروسية خلال السنوات الماضية، بــأن ضــعف روســيا الاقتــصادي والعسكري يجعل انتصار الحلفاء على الإمبراطورية الألمانية وحلفائها يعني انتصارهم على روسيا، التي ستخرج من الحــرب في كافة الحالات محطمة منهوكة. ولكن الإمبرياليين قرروا التعامي بوعي عن هذا الأفق المظلم. ولم يكن بوسعهم أن يفعلــوا غير ذلك. وتحدث غوتشكوف إلى خلصائه بكل صراحة بأن إنقاذ روسيا بحاجة لمعجزة، وأن الأمل بوقــوع معجــزة يــشكل برنامجه كوزير للحربية.

وكان ميليوكوف يرى أن السياسة الداخلية بحاجة لعقيدة تؤمن بالنصر. وليس من المهم أن نعرف إلــى أي حــد كــان ميليوكوف نفسه يؤمن بهذه الأفكار. ولكنه كان يردد بإصرار بأن من الضروري الاستيلاء على القسطنطينية. وكان يتــصرف في هذا المجال بصفاقته المعهودة. وفي ٢٠ مارس (آذار) طلب وزير الخارجية الروسي من سفراء الحلفاء أن يدفعوا حكوماتهم إلى خيانة صربيا والتخلي عنها، حتى يشتروا بذلك خيانة بلغاريا لألمانيا وحلفائها. وكشَّر السفير الفرنــسي عنــد ســماع هــذا الاقتراح. وهنا أكد ميليوكوف "على ضرورة الاعتبارات العاطفية في هذه المسألة"، والتخلِّي عن السلافية الجديدة التي نادى بها منذ سحق الثورة الأولى. حقًا لقد كان أنجلس مصيبًا عندما كتب لبرنشتاين في عام ١٨٨٢ ما يلــي: "مــاذا تــستهدف شــعوذة الروس من أنصار الاتحاد السلافي؟ الاستيلاء على القسطنطينية، وهذا هو كل شيء".

وتبدلت وجهة الاتهامات التي وجِّهت بالأمس إلى شلة البلاط، والخاصة بممالأة الألمان، والعمل في خــدمتهم، واتجــه رأسها المسموم نحو الثورة. ومع مرور الأيام تزايدت حِدة هذه النغمة وقوتها ووقاحتها في خطابات الكاديت ومقالاتهم. وهكــذا كان على الليبرالية أن تعكر منابع الثورة، وتسمم آبارها، قبل أن تستولى على المياه التركية.

ولم يكن كافة الزعماء الليبراليين قد تبنوا بعد الانتفاضة موقفًا حازمًا من مسألة الحرب، أو أن معظمهم لم يتــبن هــذا الموقف بعد الانتفاضة مباشرة على الأقل. وكان قسم كبير منهم لا يزال يعيش المناخ المعنوي الذي سبق الثورة، والذي ارتــبط بمطلب السلم المنفرد. ولقد تحدث بعض زعماء الكاديت عن هذه الحقيقة فيما بعد بكل صراحة، ويعترف نابوكوف أنه تآمر مع بعض أعضاء الحكومة منذ يوم ٧ مارس (آذار) بغية تحقيق سلم منفرد. وعمل عدد من أعضاء الوسط فــي حــزب الكاديــت بصورة جماعية لإقناع زعيمهم باستحالة استمرار الحرب. ويتحدث البارون نولد أن "ميليوكوف طرح ببروده الواضح المعهود، أنه ينبغي تحقيق أهداف الحرب مهما كلف الأمر". وفي هذه الأثناء تقارب الجنرال الكسييف مع الكاديت، وأخذ يدعم ميليوكوف مؤكدًا "بأن الجيش قادر على النهوض من كبوته". وألقت السلطة على عاتق هذا الضابط المختص بتنظيم الكوارث مهمة تحقيق النهوض.

ولم يفهم بعض السذج من الليبراليين والديموقراطيين أبعاد السبيل الذي سار عليه ميليو كوف، واعتبروه فارس الإخلاص للحلفاء، ودون كيشوت الدول المتحالفة. أية سخافة هذه! عندما استولى البلاشفة على السلطة، لم يتردد ميليوكوف دقيقة واحدة في الذهاب إلى كييف المحتلة من قبل الألمان، وعرض خدماته على حكومة الهوهنزولرن التي لم تتحمس كثيرًا لقبول هذه الخدمات. وكان هدف ميليوكوف المباشر من هذه العملية، الصراع ضد البلاشفة بعد الحصول على الذهب الألماني الذي حاول من قبل استخدام شبحه لتلويث سمعة الثورة. ورأى عدد كبير من الليبراليين أن نداء ميليوكوف لألمانيا في عام ١٩١٨ غريب عن الفهم مثل برنامجه الخاص بسحق ألمانيا، والذي طرحه في الأشهر الأولى من عام ١٩١٧. ولم يكن كل هذا سوى الوجهين المتباينين للميدالية نفسها. ولم يخن ميليوكوف نفسه أو طبقته عندما كان يستعد لخيانة الحلفاء بالشكل الذي خان به صربيا من قبل. ولكنه كان يتبع على العكس سياسة واحدة لا تتبدل، وما ذنبه إذا كان مظهر هذه السياسة سيئًا إلى هذا الحد. لقد جس ميليوكوف النبض في عهد القيصرية بغية تحقيق سلم منفرد يجنب البلاد خطر اندلاع الثورة، ثم أعلن ضرورة استمرار الحرب إلى أبعد مدى بغية ضرب ثورة فبراير (شباط)، ثم حاول فيما بعد عقد حلف مع الهوهنزولرن لِقَلب ثورة أكتوبر (تشرين الأول)، وكان في جميع هذه المواقف مخلصًا للمالكين. صحيح أنه لم يستطع مساعدتهم، وأنه اصطدام في كل مرة بجدار جديد، وما ذلك إلا لأن موكليه كانوا يسيرون على طريق مسدود.

وكان ميليوكوف بحاجة في الأيام الأولى التي أعقبت الثورة لهجوم ألماني قوي، وصفعة ألمانية شديدة على رأس الثورة. ومن سوء حظه أن طقس مارس (آذار) وإبريل (نيسان) لم يكن ليسمح بإجراء عمليات كبيرة على الجبهة الروسية. وبالإضافة إلى ذلك فإن وقوع الألمان في الصعوبات، وتفاقم سوء حالتهم، دفعهم بعد كثير من التردد إلى اتخاذ قرار يقضي بترك الثورة الروسية لتتابع تطورها الداخلي. بَيْد أن الجنرال الألماني لينسينجن عمد إلى تصرف فردي عندما هاجم قطاع ستوخود في ٢٠ - ٢١ مارس (آذار). وأخاف نجاحه الحكومة الألمانية على حين أشاع الفرح في قلب الحكومة الروسية. ولم تتورع القيادة الروسية العليا عن استخدام صفاقتها التي كانت تضخم في زمن القيصرية أتفه الانتصارات، فضخمت هذه المرة هزيمة ستوخود، وأعطتها حجمًا أكبر مما تستحقه. وسارت الصحافة الليبرالية على منوالها. وبدأت الأقلام تصف اضطراب الجيش الروسي، وهلعه، وخسائره بمرح يشبه المرح الذي كانت تصف فيه من قبل ما خسره العدو من أسرى وعتاد. ووصلت البرجوازية والجنرالات إلى أقصى حالات الانهزامية. ولكن لينسينجين تلقَّى من قيادته أمرًا بإيقاف الهجوم، وعادت الجبهة لتقف موقف الانتظار وسط أوحال الربيع.

وكان بوسع فكرة استخدام الحرب ضد الثورة أن تنجح شريطة أن تقبل الأحزاب الوسطية التي تتبعها الجماهير الشعبية، القيام بدور آلية نقل السياسة الليبرالية. وكان ربط فكرة الحرب بفكرة الثورة يتجاوز حدود قوى الليبرالية؛ فلقد قالت بالأمس أن تأثير الثورة على الحرب يشبه الكارثة؛ لذا كان لا بُدَّ من إلقاء هذه المهمة على عاتق الديمقراطية، ولكن دون إعلامها "بسر" هذا التصرف المفاجئ. وكان على الليبرالية أن لا تُعلم الديمقراطية عن خطتها وأن تكتفي باصطيادها بسنارتها. كما كان عليها أن تلتقط الديمقراطية بواسطة أفكارها المسبقة، وادعاءاتها المستمرة بالحكمة السياسية، وتخوفها من الفوضى، ومجاملتها المتفائلة أمام البرجوازية.

ولم يكن **الاشتراكيون** -ونحن مضطرون هنا إلى استخدام هذا التعبير المختصر **للدلالة على المناشفة والاشتراكيين الثوريين**- يعرفون في الأيام الأولى ماذا يمكنهم أن يفعلوا بمسألة الحرب. ولقد قال تشخيدزه وهو يبدي ضيقه: "لقد تحدثنا طويلاً ضد الحرب فكيف يمكنني الآن أن أدعو إلى متابعة الحرب؟". وفي ١٠ مارس (آذار) قررت اللجنة التنفيذية إرسال برقية لتهنئة فرانز ميهرينغ. ولقد رمى الجناح اليساري من هذا التصرف إلى إرضاء ضميره الاشتراكي الذي لم يكن ملحاحًا. وتابع السّوفييت صمته بالنسبة لمسألة الحرب. وكان زعماء السوفييت يخشون إثارة هذا الموضوع حتى لا يؤدي ذلك إلى

صدام مع الحكومة المؤقتة، ويشوه شهر عسل "لجنة الاتصال". كما كانوا يخشون وقوع الاختلافات داخل صفوفهم. فقد كان بينهم عدد من أنصار الدفاع الوطني، ومن الزيميرفالديين. وكان كل طرف من الأطراف يبالغ في تقدير خلافاته.

لقد عرفت مجموعات كبيرة من أوساط المثقفين الثوريين تحولاً بورجوازيًا ملحوظًا خلال الحرب. واستطاعت الوطنية المكشوفة أو المموهة انتزاع المثقفين من الجماهير وربطهم بالطبقات الحاكمة. ولم يكن اللواء الزيميرفالدي الذي يسير الجناح اليساري تحته يفرض على أنصاره قيودًا كثيرة، بَيْد أنه كان كافيًا لإخفاء التضامن الوطني مع شلة راسبوتين. أما الآن، فقد سقط نظام أسرة رومانوف بأسره. وغدت روسيا بلدًا ديموقراطيًّا. وها هي حريتها على اختلاف درجاتها ومظاهرها، تظهر ببريق يخطف الألباب، فوق المظهر البوليسي الذي يغطي أوروبا الواقعة بين براثن ديكتاتورية عسكرية. وصرخ الوطنيون القدامى والجدد القابعون في قمة اللجنة التنفيذية، هل ينبغي علينا أن لا ندافع عن ثورتنا ضد الهوهنزولرن؟ وتحدث الزيميرفالديون من أمثال سوخانوف وستيكلوف بلهجة فاترة بأن الحرب لا تزال إمبريالية: لأن الليبراليين يؤكدون ضرورة قيام الثورة بتنفيذ عمليات الضم والإلحاق التي خططتها القيصرية. وصرخ تشخيدزه "كيف يمكنني أن أدعو الآن إلى متابعة الحرب"؟ ولكن احتجاج الزيميرفالديين بقي معلقًا، خاصة وأنهم كانوا أول من ساعد على تسليم السلطة لليبراليين. وبعد عدة أسابيع من التردد والمقاومة، نجح تنفيذ الجزء الأول من خطة ميليوكوف بمساعدة تسيريتلي؛ إذ ارتبط بعجلة الحرب كافة الديموقراطيين السيئين مُدعيي الاشتراكية. وأخذ هؤلاء الديموقراطيون يعملون تحت ضربات سِياط الليبراليين، ويبذلون كل جهودهم القميئة في سبيل تحقيق انتصار... الحلفاء على روسيا، وانتصار أمريكا على أوروبا.

وكانت المهمة الأساسية التي تَنَطَّح التوفيقيون لتنفيذها هي: ربط قوة الجماهير الثورية بتيار الوطنية. ولقد انصبت جهودهم على عملين أساسيين؛ **أولهما**: إيقاظ الروح القتالية داخل الجيش، وهذا أمر صعب، و**ثانيهما**: مطالبة حكومات الحلفاء بالتخلي عن عمليات النهب، وهذا مطلب على غاية من السخف. ولقد سار التوفيقيون على هذين السبيلين من الأوهام إلى خيبة الأمل، ومن الأخطاء إلى العار والمذلة. ولنحدد بهذا أول علامة على طريقهم.

* * *

واستطاع رودزيانكو خلال عظمته التي لم تدم إلا ساعات معدودات، إصدار الأوامر إلى الجنود بالعودة إلى ثكناتهم، وخضوعهم من جديد لأوامر الضباط. ونجم عن هذه الأوامر حالة غليان شملت قوات حامية الموقع، واضطر السوفييت إلى تخصيص أولى جلساته لدراسة مصير الجنود في المستقبل. ووسط الحمى المسيطرة في هذه الساعة، ووسط اضطراب جلسة لا تختلف عن أي اجتماع عام، وتحت ضغط الجنود المباشر الذي لم يستطع الزعماء الغائبون إيقافه، وُلد "**الأمر رقم واحد**" **المشهور، والذي يعتبر الوثيقة المحترمة الوحيدة في ثورة فبراير (شباط)، وقانون حريات الجيش الثوري**. ولقد رسمت فقراته الجريئة أمام الجنود منحًى منظمًا على الطريق الجديد، وحددت: خلق لجان منتخبة في كافة القطعات العسكرية، وانتخاب مندوبي الجنود في السوفييت، وإخضاع القطعات في الأمور السياسية لسلطة السوفييت ولجانه، ووضع الأسلحة تحت مراقبة لجان السرايا والكتائب، "وعدم تسليم هذه المسئولية إلى الضباط في أية حال من الأحوال"، وتأمين الانضباط العسكري الشديد خلال الخدمة، والحصول خارج أوقات الخدمة على كافة حقوق المواطن المدنية، وإلغاء التحية العسكرية وألقاب الرتب التسلسلية خارج أوقات الخدمة، ومنع الضباط من معاملة الجنود بغلظة أو بذاءة، أو مخاطبتهم بصيغة المفرد[٢]، ...إلخ.

هذا هو ما استنتجه جنود بتروغراد من مشاركتهم في الانتفاضة. وهل يمكن الوصول إلى استنتاجات مغايرة؟ ولم يستطع أحد مقاومة هذه المطالب. وكان زعماء السوفييت خلال صياغة "الأمر رقم واحد" مشغولين بأمور أكبر من ذلك وأشد أهمية؛ إذ كانوا يتباحثون مع الليبراليين. وأعطاهم هذا الغياب حجة برَّءوا فيها أنفسهم أمام البرجوازية والقيادة العسكرية.

وفي الوقت الذي ظهر به "الأمر رقم واحد"، استعادت اللجنة التنفيذية وعيها، وأرسلت إلى المطبعة نداء إلى الجنود يندد بقتل الضباط وسحلهم، ويطالب الجنود بالخضوع للقيادات القديمة. واعتبرت هذا النداء علاجًا يخلص الجيش من بعض السموم التي استشرت في جسده. ولكن عمال المطابع رفضوا طبع النداء. وثار واضعو الوثيقة من الديموقراطيين بغيظ وقالوا: إلى أين نحن سائرون؟ ومن الخطأ الاعتقاد هنا بأن عمال المطابع كانوا يدفعون إلى ممارسة العنف ضد الضباط، ولكن هؤلاء العمال وجدوا أن دعوة الجنود إلى الخضوع لأوامر ضباط القيصر في اليوم التالي للثورة، يعني فتح الأبواب على مصراعيها أمام الثورة المضادة. صحيح أن عمال المطابع تطاولوا بهذا العمل على السلطة وتجاوزوا بعض حدودهم. ولكنهم لم يكونوا يعتبرون أنفسهم مجرد عمال مطابع، بل كانوا يرون أن النداء يهدد رأس الثورة.

وفي الأيام الأولى، وعندما كان مصير الضباط العائدين إلى أفواجهم يقلق الجنود والعمال إلى حد بعيد، تشجع التنظيم الاشتراكي - الديموقراطي المدعو "**منظمة المناطق**"[٣] القريب من البلاشفة، وطرح هذه المسألة الحساسة بجرأة ثورية. وقال نداؤهم إلى الجنود ما يلي: "انتخبوا بأنفسكم قادة الجماعات والسرايا والأفواج حتى لا يستطيع النبلاء والضباط خداعكم. ولا تقبلوا بين صفوفكم من الضباط إلا الذين تعرفون بأنهم أصدقاء للشعب"، فماذا حصل بعد ذلك؟ لقد صادرت اللجنة التنفيذية الوثيقة المتلائمة مع الموقف، ونددد بها تشخيدزه في خطابه، واعتبرها تحريضًا ضارًا. وهكذا نرى أن الديموقراطيين لا يتورعون عن تحديد حرية الصحافة عندما يتعلق الأمر بتسديد الضربات إلى اليسار. ولكن حريتهم كانت لحسن الحظ محدودة. فبالرغم من دعم الجنود والعمال للجنة التنفيذية على اعتبارها جهازهم الأعلى، فقد كان هؤلاء العمال والجنود يصححون سياسة الزعماء في اللحظات الحرجة عن طريق التدخل المباشر.

وبعد عدة أيام، أصدرت اللجنة التنفيذية "الأمر رقم ٢" الذي حاولت به إلغاء "الأمر رقم واحد" بعد اعتباره أمرًا مقصورًا على قطعات فيلق بتروغراد، ولكن جهودها ذهبت أدراج الرياح! لأن "الأمر رقم واحد" كان أقوى من كل إلغاء، إنه لم يبتدع شيئًا، بل اكتفى بتثبيت المسائل التي تنفجر من كل ناحية، في الجبهة وعلى المؤخرة، وتتطلب حلاً لها، واعترافًا بها. وكان النواب الليبراليون يتهربون من بحث القضايا والانتقادات الموجهة إلى "الأمر رقم واحد" أمام الجنود. ولكن البرجوازية اعتبرت هذا الأمر الجريء، حجة أساسية موجهة ضد السوفييتات. ووجد الجنرالات الروس المهزومون أن "الأمر رقم واحد" هو الحاجز الأساسي الذي منعهم من الانتصار على الجيوش الألمانية. وذهب بعضهم إلى اعتبار هذا "الأمر" منبثقًا عن أصول ألمانية. وتابع التوفيقيون تآمرهم، وأخذوا يزعجون الجنود بمحاولاتهم المتكررة لكي يأخذوا بيدهم اليمنى ما أعطوه باليد اليسرى.

وفي هذه الفترة، كانت الغالبية في السوفييت تطالب بانتخاب الضباط من قبل جنودهم. وتم قلب الديموقراطيين. ولم يجد سوخانوف حجة أفضل من قوله بأن البرجوازية التي استلمت السلطة لم تكن لتقبل فكرة الانتخاب. واختفى الديموقراطيون وراء ظهر غوتشكوف؛ إذ كان الليبراليون يشغلون في لعبتهم المكانة التي كان على الملكية أن تحتلها في لعبة الليبرالية. ويحدثنا سوخانوف بقوله: "وعندما عدت من المنصة إلى مكاني تعثرت بجندي يسد طريقي، ويلوح بقبضته أمام وجهي، ويهاجم السادة الذين لم يرتدوا معطف الجندي أبدًا". ولقد أضاع هذا الديموقراطي توازنه بعد هذا "التطرف"، فهرع يبحث عن كرنسكي الذي ساعده "في تدبير الأمر بشكل ما". حقًا، لم يكن هؤلاء الأشخاص يهتمون إلا بتدبير الأمور.

وتظاهر التوفيقيون خلال ١٥ يومًا بأنهم لا يعرفون شيئًا عن الحرب. وفي ١٤ مارس (آذار) قدمت اللجنة التنفيذية إلى السوفييت مشروع بيان "إلى شعوب العالم أجمع" وضعه سوخانوف.

ولم تلبث الصحف الليبرالية أن أعلنت بأن هذه الوثيقة التي تجمع توفيقيي اليمين إلى توفيقيي اليسار تشكل "الأمر رقم واحد، في مجال السياسة الخارجية". ولكن هذا التقييم المفعم بالمديح كان خاطئاً كالوثيقة التي يتحدث عنها. فلقد قدم "الأمر رقم واحد" إجابة القاعدة بصورة شريفة مباشرة على الأسئلة التي تطرحها الثورة أمام الجيش. على حين كان بيان ١٤ مارس (آذار)، إجابة فوقية مزيفة على الأسئلة التي طرحها الجنود والعمال بكل شرف.

ويعبر البيان ولا شك عن الرغبة بالسلام. والسلام الديموقراطي بصورة محددة. ولكن الإمبرياليين الغربيين تعلموا استخدام هذه الجعجعة اللفظية قبل انتفاضة فبراير (شباط) بزمن بعيد. ونحن نعرف أن ويلسون دخل الحرب في هذه الحقبة باسم سلام متين شريف "ديموقراطي". كما قدم المتدين أسكيث إلى البرلمان الإنكليزي تصنيفاً علميًا لعمليات الضم، يتطلب في نهاية المطاف إدانة كل عمليات الضم المتعارضة مع مصالح بريطانيا العظمى، واعتبارها عمليات لا أخلاقية. وكانت الدبلوماسية الفرنسية تستهدف تحرير جشع المرابين وأصحاب الحوانيت إلى أبعد مدى.

وسقطت مذكرة السوفييت المتمتعة بإخلاص ساذج وسط أخدود الدجل الفرنسي الرسمي. وكان البيان يضمن "الدفاع عن حريتنا بكل تصميم" ضد الروح العسكرية الأجنبية. ويدخل مثل هذا القول ضمن إطار بضاعة الاشتراكيين - الوطنيين الفرنسيين التي طرحوها منذ أغسطس (آب) ١٩١٤. ويقول البيان "لقد آن الوقت لكي تمسك الشعوب بنفسها حل مسألة الحرب والسلام" مع أن واضعيه، كانوا قد تخلَّوا عن هذه المهمة منذ فترة قريبة، وألقوها على عاتق البرجوازية الكبيرة. ويطلق البيان هذا النداء الموجه إلى العمال الألمان، والنمساويين - الهنغاريين: "كفوا عن العمل كأدوات للغزو والعنف بين أيدي الملوك، والملاكين، وأصحاب المصارف"! ويحتوي هذا القول على زبدة الكذب، لأن زعماء السوفييت لم يسعوا إلى قطع علاقاتهم مع ملكي إنكلترا وبلجيكا، أو مع إمبراطور اليابان، أو مع الملاكين وأصحاب المصارف في روسيا وفي بلاد الحلفاء. ولقد طالب زعماء السوفييت العمال الألمان والنمساويين والهنغاريين إلى إتباع المثل الروسي، وذلك بعد أن سلَّم السوفييت السياسة الخارجية لميليوكوف، الذي كان يدعو منذ فترة قصيرة إلى تحويل بروسيا الشرقية إلى مقاطعة روسية. إن إدانة المجزرة بشكل مسرحي لا يبدل من الأمر شيئًا. ولقد اهتم البابا نفسه بمثل هذه الأمور. وهكذا استخدم التوفيقيون جُملاً جوفاء موجهة ضد ظلال الملك والملاكين النبلاء وأصحاب المصارف، فجعلوا من ثورة فبراير (شباط) سلاحًا بِيد الملوك والملاكين وأصحاب المصارف الحقيقيين.

وإننا لنلاحظ في البرقية التي أرسلها لويد جورج لتهنئة الحكومة المؤقتة، أن هذا السياسي الإنكليزي يرى بأن اندلاع الثورة الروسية دليل على أن "الحرب الحالية في جوهرها عبارة عن نضال من أجل الحكومة الشعبية والسلام". ويتضامن بيان ١٤ مارس (آذار) "في جوهره" مع لويد جورج، ويعطي دعمًا قويًّا للدعاية العسكرية في أمريكا. ولقد كان ميليوكوف مصيبًا عندما كتب في مذكراته بأن: "**النداء الذي بدأ بنغمة سِلمية، يتضمن في أعماقه أيديولوجية تماثل أيديولوجية جميع حلفائنا**". ومع كل هذا، هاجم الليبراليون الروس البيان أكثر من مرة بكل شراسة، ومنعت الرقابة الفرنسية دخوله إلى بلادها. ويرجع السبب في ذلك إلى خوف هؤلاء جميعًا من التفسير الذي يمكن أن تعطيه الجماهير الثورية لهذه الوثيقة؛ نظرًا لأن ثقتها بواضعيها كانت لا تزال قائمة.

وكانت صياغة البيان على أيدي الزيميرفالديين دليلاً على انتصار مبدأ الجناح الوطني. وأخذت سوفييتات المناطق هذه الإشارة بعين الاعتبار. وأسقط من الحسبان شعار "الحرب ضد الحرب"، وحصل البيان الوطني على تأييد مطلق حتى في الأورال وكوستروما؛ حيث يسيطر البلاشفة. ولم يكن هذا غريبًا؛ طالما أن البلاشفة في سوفييت بتروغراد نفسه لم يطرحوا شيئًا ضد هذه الوثيقة المخادعة.

وبعد عدة أسابيع، اضطرت الحكومة الروسية لدفع جزء من ديونها الخارجية. فأعلنت عن افتتاح **قرض حربي**، أطلقت عليه اسم "**قرض الحرية**". وأكد تسيريتلي على أن قيام الحكومة بكافة واجباتها يفرض على الديمقراطية أن تدعم القرض. وحصل جناح المعارضة في اللجنة التنفيذية على أكثر من ثلث الأصوات، وفي ٢٢ أبريل (نيسان) اجتمع مجلس السوفييت بكل أعضائه فلم يصوت ضد القرض سوى ١١٢ مندوبًا من أصل ٢٠٠٠ مندوب تقريبًا. ومن هنا استنتج البعض: بأن اللجنة التنفيذية كانت أكثر يسارية من السوفييت. ولم يكن هذا الاستنتاج صحيحًا، وكل ما في الأمر أن السوفييت كان أشرف من اللجنة التنفيذية. ويرى بأنه إذا كانت الحرب تمثل الدفاع عن الثورة، فإن من الواجب تقديم المال للحرب ودعم القرض. ولم تكن اللجنة التنفيذية أشد ثورية بل أكثر قدرة على التهرب. فهي تعيش على الحيل والخداع. وتدعم "كُلِّية وإلى النهاية" الحكومة التي خلقتها، وتتحمل مسئولية الحرب فقط "ضمن الحدود التي، وإذا كان...". ولم تكن الجماهير تتقن هذه الحيل الصغيرة. ولم يعد الجنود قادرون على القتال "ضمن الحدود التي" أو الموت "كلية وإلى النهاية".

* * *

ولتدعيم انتصار مفهوم الدولة على الخطرفات الفارغة، وُضع الجنرال الكسييف رسميًا على رأس القوات المسلحة في ١ إبريل (نيسان) وهو الذي أمر في ٥ مارس (آذار) بضرورة إعدام "عصابات" المحرضين. وهكذا عادت كافة الأمور إلى نصابها؛ إذ أصبح موجه السياسة الخارجية القيصرية ميليوكوف وزيرًا للخارجية، وغدا القائد الأعلى للجيش القيصري، قائدًا أعلى لجيش الثورة. وأعيد مبدأ تسلسل استلام السلطة إلى ما كان عليه من قبل.

وكان على زعماء السوفييت في الوقت نفسه أن يخضعوا لقوة منطق الموقف، ويخففوا ضغط حلقات الشبكة التي نسجوها بأيديهم. وكانت الديمقراطية الرسمية تخشى قادة الجيش الذين دعمتهم وقبلت بوجودهم. ولم يكن بوسعها تجاهل ضرورة إخضاعهم لمراقبتها، مع محاولة تدعيم هذه المراقبة بالجنود، شريطة أن تكون المراقبة مستقلة عن إرادة هؤلاء الجنود إلى أكبر حد ممكن. وفي اجتماع ٦ مارس (آذار) رأت اللجنة التنفيذية أن من المستحسن تعيين مفوضين من قبلها في كافة القطعات والإدارات العسكرية. وهكذا تشكل رباط مثلث؛ إذ كانت القطعات تبعث مندوبيها إلى السوفييت، وتبعث اللجنة التنفيذية بمفوضيها إلى القطعات، وتقف على رأس كل قطعة عسكرية لجنة منتخبة تمثل خلية قاعدية من خلايا السوفييت.

وكان من أهم واجبات المفوضين السهر على سلامة تصرفات الضباط وهيئات الأركان في الناحية السياسية. ويتساءل دينيكين بضجر وتأفف "ترى هل تجاوز النظام الديموقراطي النظام الفردي"، ثم يتبجح بمهارة أركانه التي كانت تنقل إليه اتصالات المفوضين السياسيين السرية "المشفَّرة" مع بتروغراد. (مراقبة الملكيين وأنصار العبودية) هل هناك أمر أكثر إهانة من ذلك؟ ولكن الإجابة على هذا السؤال تتبدل كلية إذا ما طالعنا رسائل المفوضين السياسيين إلى الحكومة. ومهما تكن الزاوية الأخلاقية التي ننظر منها إلى الأمور، فقد كانت التقارير الداخلية لجهاز القيادة في الجيش تكشف بوضوح تام، أن كل واحد من الطرفين يخشى الآخر ويراقبه بعداء. وكان كل ما يجمعهما كامن في خوفهما من جنودهما. وكان الجنرالات وأمراء البحر أنفسهم يرون، على اختلاف آمالهم ومخططاتهم المقبلة، أن عدم لجوئهم إلى غطاء ديموقرطي سيُسيء إلى قضيتهم إساءة بالغة. وأشرف كولتشاك على تشكيل لجان الأسطول. وكان عمله هذا يستهدف تسهيل عملية خنقها فيما بعد. ولكنه رأى في تلك الفترة أنه عاجز عن السير خطوة واحدة دون مساعدة اللجان، فطلب من القيادة العليا السماح بتشكيلها. وسار الجنرال ماركوف -الذي غدا أحد قادة الجيش الأبيض فيما بعد- على السبيل نفسه، وقدم في مطلع إبريل (نيسان) مشروعًا يطالب بتعيين المفوضين السياسيين في القطعات بغية مراقبة ولاء القادة. وهكذا تحطمت "قوانين الجيش القديمة" وكافة التقاليد البيروقراطية العسكرية تحت ضغط الثورة، وكأنها عصافة من قش.

وجاء الجنود إلى اللجان من نقطة مختلفة، والتفوا حول هذه اللجان ضد القادة. وكانت اللجان تحمي القادة من الجنـــود، ولكن حمايتها بقيت محدودة. وكان موقف الضابط الذي يدخل مع اللجنة في صراع ينقلب بسرعة إلى موقف لا يحتمل. وهكـــذا تشكل حق الجنود غير المكتوب بعزل ضباطهم. ويقول دينيكين أن جنود الجبهة الغربية عزلوا في يوليو (تمـــوز) حـــوالي ٦٠ ضابطًا من قادة الفيالق والفرق والأفواج. ووقعت تبديلات مماثلة داخل الأفواج أيضًا.

وشهدت هذه الفترة عملاً دئوبًا في وزارة الحربية، واللجنة التنفيذية، واجتماعات "لجنة الاتـــصال" وكـــان هـــذا العمـــل يستهدف خلق أشكال "معقولة" للعلاقات داخل الجيش، ورفع مستوى سلطة القادة، وتخفيض دور لجان الجـــيش إلـــى مـــستوى ثانوي يتسم بطابع إداري. ولكن على حين كان كبار القادة يكنسون ظل الثورة بظل مكنسة، كانت اللجان تنمو وتتطور، حتـــى غدت جهازًا مركزيًّا، يرتفع حتى يصل إلى لجنة بتروغراد التنفيذية، ويدعم سلطة هذه اللجنة على الجيش. ولكن اللجنة التنفيذية استغلت هذه السلطة، واستخدمت المفوضين السياسيين واللجان لدفع الجيش إلى الحرب من جديد. وأخذ الجنود يتساءلون بإلحاح لم لا تعبر اللجان التي ينتخبونها بأنفسهم عما يدور بخاطرهم، بل عما يريد القادة منهم.

وأخذت الخنادق ترسل إلى العاصمة مندوبين بأعداد متزايدة لمعرفة ما يجري هناك. وغدت حركة جنود الجبهة مستمرة بلا انقطاع في مطلع أبريل (نيسان). وشهد قصر توريد محادثات جماعية يومية. ووجد الجنود القادمون صعوبة في فهم أسرار سياسة اللجنة التنفيذية العاجزة عن الرد بوضوح على أي سؤال. واتجه الجيش نحو السوفييت؛ ليكتشف بوضـــوح أكبـــر عـــدم تماسك خط السوفييت نفسه.

ولم يجرؤ الليبراليون على مجابهة السوفييت بشكل مكشوف، ولكنهم كانوا يحاولون مع ذلك الـــسيطرة علـــى الجـــيش. ويعتبرون الشوفينية الرباط القوي القادر على ربط الجيش بهم. وعندما تحدث شينغاريف (كاديت) مع مندوبي الخنـــادق، دافـــع هذا الوزير عن أوامر غوتشكوف ضد "التساهل الكبير" إزاء الأسرى، وأشار "إلى أعمال الألمان البربرية"، ولكن شينغاريف لم يكتسب تعاطف المندوبين. وقرر المجلس بحزم ضرورة تحسين أوضاع الأسرى. وكان وراء هذا القرار رجال كثيرًا ما اتهمهم الليبراليون بالعنف والوحشية. بَيْد أنه كان لرجال الخنادق الجهلاء مقاييسهم الخاصة؛ إذ كانوا يتقبلون الانتقام من الضابط الـــذي يسيء إلى الجنود أو يحقرهم، ولكنهم يرون أن من الجبن تعذيب جندي ألماني أسير انتقامًـــا للأعمـــال البربريـــة الحقيقيـــة أو المختلفة التي يرتكبها لودندوروف وأمثاله. لقد كانت مقاييس الأخلاق الأزلية، ويا للأسف! غريبة عن هؤلاء الموجيك الخشنين المقمّلين.

وأدت محاولات الليبراليين لاكتساب الجيش إلى منافسة بين الليبراليين والتوفيقيين في مؤتمر مندوبي الجبهة الغربية (من ٧ إلى ١٠ أبريل - نيسان). ولكن هذه المنافسة لم تتطور أبدًا. وكان على أول مؤتمر لجبهة من الجبهات أن يقدم صورة أكيدة لماهية سياسة الجيش، وأرسل الطرفان إلى منسك خيرة مندوبيهما. ومثَّـــل الـــسوفييت كـــل مـــن: تـــسيريتلي، وتـــشخيدزه، وسكوبوليف، وغفوزدييف. ومثَّل البرجوازية رودزيانكو نفسه. وكان روديتشيف هو ديموستين(*) الكاديت. وكان الاضـــطراب واضحًا في مسرح منسك الغاص بالحضور. وأخذ الاضطراب ينتقل من المسرح إلى المدينة كلها على شكل دفعـــات. ويمكننـــا اكتشاف لوحة الوضع الحقيقي من شهادات النواب أنفسهم. وتدل هذه اللوحة على أن حالات التآخي منتشرة على طوال الجبهة، وأن الجنود يأخذون المبادهة في هذا الموضوع بجرأة متزايدة، ولا تفكر القيادة باتخـــاذ أي تـــدبير زجـــري. فمـــاذا يـــستطيع الليبراليون أن يقولوا حول هذه الأمور؟ وأمام هذا الخطاب الحماسي تخلَّى الليبراليون فورًا عن فكرة طرح مقررات تعـــارض مقررات السوفييت. واكتفوا بتقديم ملاحظات وطنية في خطابات الافتتاح، ثم لم يلبثوا أن خضعوا نهائيًّا. وكسب الديموقراطيون المعركة دون جهد. ولم يكن عليهم أن يحرضوا الجماهير ضد البرجوازية بل أن يوقفوا اندفاع هذه الجماهير. وســـيطر علـــى المؤتمر شعار السلام المتشابك بشكل غامض مع شعار الدفاع عن الثورة في روح بيان ١٤ مارس (آذار). وتمت الموافقة على

مقررات السوفييت الخاصة بالحرب بأكثرية ٦١٠ أصوات ضدّ ٨ أصوات، وامتناع ٤٦ عن التصويت. وهكذا فقد الليبراليـــون آخر أمل بإثارة الجبهة ضد المؤخرة، وتحريض الجيش على السوفييت. ولكن الزعماء الديموقراطيين لم يتحمـــسوا مـــن هـــذه النتيجة، وعادوا من المؤتمر وفي قلوبهم خوف من انتصارهم. فلقد رأوا بأم أعينهم الأفكار التي أيقظتها الثورة، وأحـــسوا بـــأن مستوى هذه الأفكار أكبر من قوتهم بمراحل.

الهوامش

(١) أي أن لا نلقي السلاح ونتوقف عن حماية البلاد. (المعربان)

(٢) في اللغة الروسية كما في اللغة الفرنسية طريقتان للمخاطبة. إحداهما بصيغة الجمع للدلالة على الاحترام، والأخرى بصيغة الفرد وتستخدم لرفع التكليف بين الأفراد المتآلفين، أو للترفع عند الحديث مع من هم أدنى رتبة أو مرتبة. (المعربان).

(٣) Interdistructs منظمة المناطق: هي تنظيم ماركسي ثوري كان يضم حوالي ٣٠٠٠ عامل، ومن قادته انتونوف - اوفسينكو، ولوتاتشارسكي، وتروتسكي، انضم معظم أعضائه إلى البلاشفة في صيف عام ١٩١٧.

(*) ديموستين: أشهر خطباء أثينا (٣٨٤ – ٣٢٢ ق.م.). (المعربان)

البلاشفة ولينين

في ٣ إبريل (نيسان) وصل لينين إلى بتروغراد قادمًا من ملجئه في سويسرا. واعتبارًا من هذه اللحظة، بدأ الحزب البلشفي يتحدث بملء صوته. والأهم من ذلك بكثير أن صوته الجديد بدأ يعبر عن حقيقته.

لقد كان شهر الثورة الأول بالنسبة للبلاشفة فترة من الفوضى والتردد. ويقول "البيان" الذي أصدرته اللجنة المركزية للبلاشفة بعد الانتفاضة مباشرة ما يلي: "على عمال المعامل والمصانع، وعلى جنود القطعات العسكرية الثائرة أن يعملوا فورًا على انتخاب مندوبيهم للحكومة المؤقتة". وطُبع البيان في صحيفة السوفييت الرسمية دون تعليقات أو اعتراضات، وكأن الأمر يتعلق بمسألة أكاديمية. ولكن زعماء البلاشفة أعطوا لشعارهم الكبير قيمة تظاهرية فقط. ولم يتصرفوا كممثلين لحزب بروليتاري يستعد لشن الصراع لاستلام السلطة في الوقت المناسب، بل تصرفوا وكأنهم ممثلو الجناح اليساري للديمقراطية، ذلك الجناح الذي يطرح مبادئه، ولكنه يبدي استعداده للقيام بدور المعارضة الشرعية خلال فترة غير محدودة.

ويؤكد سوخانوف أن مركز المناقشات في جلسة اللجنة التنفيذية المنعقدة في ١ مارس (آذار) كان يدور حول شروط نقل السلطة، ولم يرتفع صوت أمام فكرة تشكيل حكومة برجوازية، مع أن ١١ عضوًا من أعضاء اللجنة التنفيذية الـ٣٩ كانوا بلاشفة، أو مؤيدين للبلاشفة، ومن بينهم ٣ قادة من اللجنة المركزية البلشفية وهم: زالوتسكي، وشليا بنيكوف، ومولوتوف.

ويقول شليا بنيكوف إن جلسة السوفييت التي انعقدت في اليوم التالي ضمت حوالي ٤٠٠ مندوب، لم يُصوت منهم ضد انتقال السلطة إلى البرجوازية سوى ١٩ مندوبًا، علمًا بأن المجموعة البلشفية كانت تضم آنذاك ٤٠ مندوبًا. ومرَّ هذا الانتخاب دون أن يلحظه أحد، وبأسلوب برلماني شكلي، ودون أن يطرح البلاشفة وجهة نظرهم المعاكسة، ودون صراع، ودون أن تثير في الصحافة البلشفية أية ضجة.

وفي ٤ مارس (آذار)، أخذ مكتب اللجنة المركزية (البلشفية) قرارًا يقول بأن الحكومة المؤقتة حكومة مضادة للثورة، وأن من الضروري التوجه نحو الديكتاتورية الديمقراطية للعمال والفلاحين. ورأت لجنة بتروغراد (البلشفية) أن هذا القرار أكاديمي بحت طالما أنه لم يحدد ما ينبغي القيام به في اليوم نفسه، وهذا ما يجعله يعالج المعضلة من جهة معاكسة. وأعلنت لجنة بتروغراد (البلشفية) ما يلي: أنها "تأخذ بعين الاعتبار القرار الذي أخذه السوفييت حول الحكومة المؤقتة" وتؤكد "بأنها لن تعارض سلطة الحكومة المؤقتة ضمن الحدود التي...". ولم يكن هذا في الحقيقة سوى موقف المناشفة والاشتراكيين - الثوريين بعد انتقاله إلى الخندق الثاني. وكانت المقررات الانتهازية التي اتخذتها لجنة بتروغراد (البلشفية) لا تعارض موقف اللجنة المركزية (البلشفية) إلا من ناحية الشكل، علمًا بأن هذا الموقف الأكاديمي لا يدل إلا على الإذعان السياسي أمام الأمر الواقع.

ولم يلق موقف الانحناء الضمني أو المتحفظ أمام الحكومة البرجوازية موافقة كاملة داخل الحزب. واصطدام العمال البلاشفة منذ اللحظة الأولى مع الحكومة المؤقتة، وكأنها حصن معادٍ ظهر على طريقهم بصورة مفاجئة. وعقد لجنة فيبورغ اجتماعًا ضم آلاف العمال والجنود الذين أقروا بالإجماع قرارًا يؤكد ضرورة استيلاء السوفييت على السلطة. ويحدثنا دنجيلستيدت الذي شارك في هذا الاجتماع بشكل فعَّال فيقول: "ولم يرفض أي اجتماع عام، أو أي اجتماع عمالي قرارنا بهذا الصدد في كل مرة طرح بها هذا القرار على بساط البحث". ولم يجرؤ المناشفة والاشتراكيون الثوريون في بداية الأمر على أن يعلنوا أمام العمال والجنود بصراحة كيف يرون الحل الأمثل لمسألة السلطة. وأدَّى تقبل مقررات فيبورغ وشعبيتها وانتشارها إلى طبعها وتعليقها على الجدران. ولكن لجنة بتروغراد (البلشفية) رفضت هذه المقررات بحزم أجبر فيبورغ على الخضوع.

وكان موقف زعماء البلاشفة بالنسبة لمحتوى الثورة الاجتماعي، وآفاق تطور هذه الثورة، مضطربًا غامضًا. ويقول شليا بنيكوف: "لقد كنَّا متفقين مع المناشفة على الفكرة القائلة بأننا نمر في مرحلة تدمير ثوري لعلاقات الإقطاع والقنانة، ليحل محلها كل أنواع "الحريات" التي تميز الأنظمة البرجوازية". وكتبت (البرافدا) في عددها الأول: "والمهمة الأساسية هي ... إقامة نظام جمهوري ديموقراطي". وأعطت لجنة موسكو (البلشفية) إلى مندوبي العمال تعليمات قالت فيها: "تستهدف البروليتاريا الحصول على الحرية بغية النضال في سبيل الاشتراكية التي تمثل هدفها النهائي". وتدل الإشارة التقليدية إلى "الهدف النهائي" على أن تحقيق الاشتراكية بحاجة لفترة تاريخية. ولم يتجاوز أحد هذه النقطة؛ إذ كان الخوف من اجتياز الثورة الديمقراطية يفرض سياسة التمهل، والتلاؤم، والتراجع الفعلي أمام التوفيقيين.

وليس من الصعب أن نتصور التأثير السيئ الذي أصاب الحزب في المقاطعات والمناطق من جراء انعدام شخصية المركز. ولنكتف بشهادة أحد زعماء تنظيم ساراتوف: "إن حزبنا الذي شارك في الانتفاضة بشكل فعَّال قد تخلى بكل وضوح عن سلطته بين الجماهير، وترك هذه السلطة لتسقط بين أيدي المناشفة والاشتراكيين - الثوريين. ولم يكن أحد يعرف ما هي شعارات البلاشفة آنذاك ... وكانت الصورة سيئة إلى حد بعيد".

وبذل يسار البلاشفة، والعمال بصورة خاصة، كل جهودهم لتحطيم الحَجْر المفروض عليهم. بَيْد أنهم كانوا عاجزين عن مجابهة الحجج الخاصة بالطبيعة البرجوازية للثورة، والخطر الذي ينجم عن انعزال البروليتاريا؛ لذا كانوا يخضعون لأوامر الزعماء رغم إرادتهم. ومنذ اليوم الأول ظهرت تيارات عديدة متصادمة داخل البلشفية. ولكن هذه التيارات لم تدفع أفكارها إلى النهاية. وكانت البرافدا تعكس حالة الأفكار المضطربة المتقلبة السائدة في الحزب دون أن تربط بينها بوحدة متينة. وتزايد تعقيد الوضع في منتصف مارس (آذار)، عندما عاد كامنييف وستالين من المنفى، ودفعا سياسة الحزب الرسمية دفعة قوية نحو اليمين.

لقد كان كامنييف بلشفيًّا منذ ولادة البلشفية. ولكنه وقف دائمًا في الجانب الأيمن للحزب. وكان إعداده النظري القوي، وحاسته السياسية، وتجربته الكبيرة في نضال الجماعات الثورية الروسية. وذُخره من الملاحظات السياسية التي اكتسبها في الغرب تجعله من أقدر البلاشفة على فهم أفكار لينين العامة، ليعطيها عند التنفيذ العملي تفسيرًا سليمًا إلى أبعد حد ممكن. ولم يكن يتمتع بالقدرة على اتخاذ القرار بحرية تامة، أو إظهار أية مبادهة خلال التنفيذ. وكان كامنييف رجل دعاية ناجح، وخطيبًا، وصحفيًّا غير بارع ولكنه لا يخلو أحياناً من التفكير، وهذا ما جعله رجلاً ضروريًّا خلال المباحثات مع الأحزاب الأخرى، وقوة لا تقدر في عمليات سبر غور الأوساط الاجتماعية الأخرى، ولكنه كان يعود من عمليات السبر هذه وقد اكتسب قسطاً من عقلية الأحزاب المختلفة. وكانت ملامح كامنييف هذه ظاهرة جلية بشكل كشف هويته السياسية أمام الجميع بلا استثناء تقريبًا. ويذكر سوخانوف أنه لم يلحظ في كامنييف وجود "زوايا حادة". وينبغي "جره دائمًا خلف المجموع، فإذا ما قاوم في بعض الأحيان، كانت مقاومته محدودة ضعيفة". ويتحدث ستانكيفيتش بشكل مشابه فيقول: كانت مواقف كامنييف إزاء الخصوم "ضعيفة لدرجة توحي بأنه كان يخجل من المتطلبات التي يفرضها عليه وضعه، ولم يكن في داخل اللجنة خصمًا، ولكنه كان مجرد معارضة". ولا يسعنا أن نضيف إلى هذا القول شيئًا.

وكان ستالين يمثل شكلاً آخر عن البلاشفة، سواء على صعيد تكوينه الفكري، أو على صعيد عمله داخل الحزب؛ فلقد كان منظمًا أوليًّا قويًّا للنظرية والسياسة. وإذا كانت قدرة كامنييف الدعائية جعلته يعيش في الخارج عدة سنوات مع لينين، نظرًا لوجود بؤرة العمل النظري للحزب آنذاك خارج البلاد، فإن عمل ستالين التنفيذي، وضيق آفاقه السياسية، وصغر اهتماماته السياسية، وجهله باللغات الأجنبية جعله رجلاً لا ينفصل عن الأرض الروسية أبدًا. ولم يكن مثل هؤلاء المناضلين يظهرون في البلاد الأجنبية إلا خلال رحلات قصيرة تستهدف تلقي التعليمات، والتفاهم على المهمات المطلوبة والعودة إلى روسيا. وكان

ستالين يتميز داخل مجموعة المنفذين العمليين بفاعليته، وعناده، ومهارته في المناورات الداخلية. وإذا كــان كــامنييف يحــس "بالحرج" إزاء الاستنتاجات العملية للبلشفية، فقد كان ستالين على العكس ميَّالاً إلى التمسك بالاستنتاجات العملية التــي هــضمها دون أي تلطيف، وخلط فيها التصميم مع الغلظة.

ومهما يكن تعارض شخصيتي كامنييف وستالين كبيرًا، فإن لقاءهما في مطلع الثورة، وأخذهما لموقف مشترك، لم يكــن وليد الصدفة أبدًا، بل كان ناجمًا عن تكاملهما المتبادل. إن مفهومًا ثوريًّا بلا إرادة ثورية يشابه ساعة مكسورة النــابض، ولقــد كانت عقارب ساعة كامنييف السياسية متأخرة دائمًا عن المعضلات الثورية. ولكن فقدان المفهوم السياسي الواسع يحمل أقوى السياسيين إرادة وتصميمًا يقف موقف التردد أمام الأحداث الكبيرة المعقدة. وكان ستالين التجريبــي منفتحًــا أمــام التــأثيرات الخارجية على صعيد الفكر لا على صعيد الإرادة. وهكذا اشترك سياسي دعائي بلا إرادة، مع منظِّم بلا أفق، وقادا البلشفية في مارس (آذار) إلى حدود المنشفية. وفي مثل هذه الظروف كان ستالين أقل قدرة من كامنييف على الجدل والنقاش داخل اللجنــة التنفيذية التي دخلها كممثل للحزب. وإننا لا نجد في الصحافة أو في محاضر الجلسات أن ستالين قدَّم أي اقتراح أو تــصريح أو احتجاج بغية شرح وجهة نظر بلشفية تعارض موقف "الديمقراطية" الانبطاحية الزاحفة أمام الليبرالية.

ويقول سوخانوف في مذكراته: "وظهر بين البلاشفة في هذه الفترة كامنييف وستالين ... وترك ستالين خــلال وجــوده المحدود في اللجنة التنفيذية انطباعًا -لم يقتصر عليَّ فقط- يشبه الانطباع الذي تتركه بقعة رمادية تقفز أحيانًــا، ولكنهــا تبقــى كامدة سهلة الاختفاء. والحقيقة أنه ليس لدي ما أضيفه حول هذا الشخص". صحيح أن سوخانوف يــبخس هنــا قيمــة ســتالين بصورة عامة، ولكنه يحدد بدقة انعدام شخصيته السياسية.

ونحن نعرف أن السوفييت أقر بالإجماع بيان ١٤ مارس (آذار) "إلى شعوب العالم أجمع" الذي يفــسر انتــصار ثــورة فبراير (شباط) بشكل يؤمن مصالح الحلفاء، ويعني انتصار اشتراكية - وطنية جمهورية جديدة من طراز فرنسي. وكــان هــذا الإجماع انتصارًا لكامنييف - ستالين. ولكنه انتصار جاء من غير صراع. وذكرت البرافدا حول هذا الموضوع أن هناك "حــلاً وسطًا ضمنيًّا بين مختلف الاتجاهات الممثلة في السوفييت". وكان عليها أن تضيف أن هذا "الحل الوسط" يعني قطيعة مع اتجــاه لينين الذي لم يكن ممثلاً في السوفييت.

ولم يلبث عضو تحرير صحيفة الحزب المركزية في الخارج كامنييف، وعضو اللجنة المركزية ستالين، ونائب الــدوما مورانوف الذي عاد من سيبيريا، أن اتفقوا على إبعاد أعضاء هيئة تحرير البرافدا القُدامى نظرًا لأنهم "يــساريون" أكثــر ممــا ينبغي. واعتمد هؤلاء الزعماء الثلاثة على حقوقهم المعقدة المتشابكة، ووضعوا يدهم على الصحيفة فــي ١٥ مــارس (آذار). وأعلن المقال: البرنامج الذي قدمته هيئة التحرير الجديدة أن البلاشفة سيدعمون الحكومة المؤقتة بكل تصميم "إذا ما عمدت هذه الحكومة إلى القتال ضد الرجعية والثورة المضادة". ولم يتحدث الزعماء الجُدد عن الحرب بشكل أكثر حسمًا، وطالما أن الجيش الألماني يطيع إمبراطوره، فإن على الجندي الروسي "أن يبقى صامدًا في موقعه، وأن يرد على كل رصاصة برصاصة، وعلى كل قذيفة بقذيفة". "إننا لن نرفع شعار فلتسقط الحرب"! وشعارنا هو الضغط على الحكومــة المؤقتــة لإجبارهــا علــى القيــام بمحاولات تستهدف دفع كافة البلاد المتحاربة للبدء بالمفاوضات مباشرة ... ولكن حتى يتم ذلك، ينبغي على كل فرد أن يبقــى في موقعه القتالي"! ويبدو بوضوح أن هذه الأفكار وصيغها لا تخرج عن عقلية الدفاع الــوطني. إن برنــامج الــضغط علــى الحكومة الإمبريالية بغية "دفعها" إلى استخدام أساليب عمل سلمية، برنامج قديم طرحه كاوتسكي في ألمانيا، وجان لونغيــه فــي فرنسا، وماكدونالد في إنكلترا، ولكنه لم يكن أبدًا برنامج لينين الذي كان ينادي بقلب سلطة الإمبريالية. ثم ذهبت البرافــدا إلــى مدًى أبعد عندما بدأت الرد على الصحافة الوطنية، وكتبت تقول "لقد ماتت كل انهزامية أو كل ما كانت الــصحافة الخاضــعة لرقابة القيصرية تطلق عليه هذا الاسم، منذ أن ظهر أول فوج ثوري في شوارع بتروغراد". إن هذا القول انفصال واضح عــن

لينين. فليست "الانهزامية" بدعة اختلقتها الصحافة المعادية الخاضعة للرقابة القيصرية. كلا، إن لينين هو أول من عبَّر عنها بقوله: "إن هزيمة روسيا هي أخف ضررًا"، كما أن ظهور أول فوج ثوري، وقلب الملكية نفسها لم يغيرا من طبيعة الحرب الإمبريالية. ويقول شليا بنيكوف: "وكان يوم ظهور أول عدد من أعداد البرافدا بعد التعديلات التي دخلت عليها في ١٥ مارس (آذار)، يوم فرح بالنسبة لأنصار الدفاع الوطني. وتناقل الناس في كافة أرجاء قصر توريد، من رجال أعمال لجنة دوما الدولة، إلى قلب الديمقراطية الثورية -اللجنة التنفيذية- نبأً هامًا واحدًا هو: "انتصار البلاشفة المعتدلين العاقلين على البلاشفة المتطرفين. واستقبلتنا اللجنة التنفيذية نفسها بابتسامات صفراء مسمومة ... وما أن وصل هذا العدد من صحيفة البرافدا إلى المصانع حتى أصيب البلاشفة ومؤيدوهم بدهشة عميقة، وظهرت الفرحة الساخرة على وجوه خصومنا... وكان التذمر والسخط في الأحياء كبيرين. وعندما علم البروليتاريون أن البرافدا سقطت من جديد بين أيدي ثلاثة من زعمائها القدامى بعد عودتهم من سيبريا، طالبوا بطرد هؤلاء القادة من الحزب فورًا".

واضطرت البرافدا بعد ذلك إلى نشر احتجاج عنيف قدمه مناضلو فيبورغ قالوا فيه: "إن على الصحيفة إذا أرادت أن لا تخسر ثقة الأحياء العمالية، أن ترفع نور الضمير الثوري، وسترفعه حتمًا مهما كان هذا النور حادًا بالنسبة لبوم البرجوازية". واضطرت هيئة التحرير تحت ضغط احتجاجات القاعدة إلى الاهتمام بانتقاء التعابير، دون تغيير السياسة نفسها. ولم تستطع أول مقالة قادمة من لينين -المنتظر في الخارج- تحريك وعي هيئة التحرير. وكان الاتجاه ينحرف نحو اليمين على طول الخط. ويقول دنجيلستيدت ممثل الجناح اليساري: "كان علينا خلال التحريض أن نعتمد على مبدأ السلطة المزدوجة ... وأن نثبت حتمية هذا السبيل الملتوي أمام جماهير العمال والجنود الذين تعلموا خلال هذين الأسبوعين من الحياة السياسية المكثفة حقيقة مهماتهم".

وضبطت سياسة الحزب في كافة أرجاء البلاد خطواتها على خطوات صحيفة البرافدا. واتخذت عدة سوفييتات سلسلة من المقررات حول المسائل الأساسية، ووافق الأعضاء عليها بالإجماع. وهذا يعني بكل بساطة أن البلاشفة انحنوا أمام الأكثرية السوفييتية. وفي مؤتمر سوفييتات منطقة موسكو، انحاز البلاشفة إلى قرار الاشتراكيين - الوطنيين حول مسألة الحرب. وفي أواخر مارس (آذار) ومطلع إبريل (نيسان) عقد في بتروغراد مؤتمر عموم روسيا لمندوبي ٨٢ سوفييتيًا، فصوت البلاشفة في هذا المؤتمر على القرار الرسمي الخاص بالسلطة، والذي أيده دان. وكان هذا التقارب السياسي الواضح مع المناشفة أساس الميول الوحدوية التي ظهرت على أوسع نطاق. واتحد البلاشفة والمناشفة في المناطق داخل منظمات مشتركة. وانقلبت مجموعة كامنييف - ستالين بصورة متدرجة إلى جناح يساري لما يسمى بالديمقراطية الثورية، ودخلت في جهاز "الضغط" على البرجوازية عن طريق الكواليس النيابية، على حين كانت البرجوازية تضغط على الديمقراطية على طريق الكواليس نفسها.

* * *

وكان أعضاء اللجنة المركزية المقيمين في الخارج، وأفراد هيئة تحرير الصحيفة المركزية الاشتراكي - الديموقراطي يشكلان مركز الحزب الفكري. وكان لينين يقوم بالعمل القيادي كله ولا يساعده في ذلك سوى زينوفييف. وكانت مهمات أمانة السر ملقاة بكل مسئولياتها الثقيلة على عاتق زوجة لينين كروبسكايا. واعتمدت هذه المجموعة المركزية الصغيرة خلال التنفيذ العملي على مساعدة بضع عشرات من البلاشفة المهاجرين. وغدا البعد عن روسيا خلال الحرب أمرًا لا يُحتمل، وزاد من صعوبته قيام شرطة دول الحلفاء بزيادة الضغوط ووضع العراقيل أمام العمل. وجاء انفجار الثورة التي طال انتظارها كأمر غير متوقع. ورفضت إنكلترا السماح للمهاجرين الأمميين -الذين كانت تراقب حالاتهم وتسجل أسماءهم يوميًّا- بالمرور إلى روسيا. واضطرب لينين وثارت أعصابه من البحث بلا جدوى عن مخرج من قفص زوريخ. وكان من بين المشروعات التي فكَّر بها العبور بواسطة جواز سفر شخص إسكانديناڤي أصم وأبكم.

وفي الوقت نفسه، عمل لينين كل ما في وسعه ليُسمع صوته من سويسرا. وفي ٦ مارس (آذار) أبرق إلى بتروغراد عن طريق ستوكهولم: "تكتيكنا: الحذر الدائم، وعدم تقديم أي دعم للحكومة الجديدة، إن شكوكي تنصب على كرنسكي بصورة خاصة، تسليح البروليتاريا هو الضمانة الوحيدة، انتخابات مباشرة لدوما بتروغراد، عدم التقارب مع الأحزاب الأخرى". وإذا دققنا هذه التعليمات الأولى، وجدنا أن الدعوة إلى انتخابات الدوما لا إلى انتخابات السوفييت هي النقطة الوحيدة القابلة للنقاش، والتي لم تلبث أن استبعدت. وترسم النقاط الأخرى المكتوبة بصيغة برقية حاسمة، الاتجاه العامة للسياسة. وبالإضافة إلى ذلك، بدأ لينين يرسل إلى البرافدا مقالاته (رسائل من بعيد) المبنية على بعض المعلومات المستقاة من مصادر أجنبية، والمتضمنة لتحليلات كاملة حول الوضع الثوري. وساعدته الأنباء المذكورة في الصحف الأجنبية بعد ذلك على استنتاج أن الحكومة المؤقتة تخدع العمال بمساعدة كرنسكي وتشخيدزه، وتقنعهم بأن الحرب الإمبريالية هي حرب دفاع وطني. وفي ١٧ مارس (آذار) بعث لينين عن طريق أصدقائه في ستوكهولم رسالة مليئة بالتوقعات والمخاوف: "سيفقد حزبنا شرفه إلى الأبد، وسينتحر سياسيًّا؛ إذا ما وافق على مثل هذا الدجل... إنني أفضل القطيعة مع أي فرد في حزبنا على الخضوع للاشتراكية - الوطنية" ... وبعد هذا التهديد الذي لا يبدو موجهًا إلى شخص معين، مع أنه محسوب ومسدد لبعض الأشخاص، ناشد لينين الرفاق بقوله: "إن على كامنييف أن يعرف بأنه يحمل على عاتقه مسئولية تاريخية ذات أهمية عالمية". ولقد حدد لينين كامنييف بالذات؛ لأن الأمر يتعلق بمسائل مبدئية أساسية. ولو رأى لينين أن أمامه مهمة عملية قتالية لتذكر ستالين بدلاً من كامنييف. ولكن، في اللحظات التي كان لينين يحاول بها نقل ضغط إرادته إلى بتروغراد عبر أوروبا اللاهبة، كان كامنييف يستدير مع ستالين بعنف نحو الاشتراكية - الوطنية.

وطرحت عدة خطط لسفر لينين -تَنَكّر، شعر مستعار، جواز سفر مزيف أو مستعار- ولكنها استبعدت واحدة تلو الأخرى نظرًا لانعدام القدرة على تنفيذها. وهنا تزايد التأكيد على فكرة المرور عبر ألمانيا. وأخافت هذه الخطة معظم المهاجرين؛ لا المهاجرين الوطنيين فقط. ولم يجرؤ مارتوف وغيره من المناشفة على اتباع خطوة لينين الجسورة، وتابعوا قرع باب دول الحلفاء دون جدوى. ولقد وُجهت الكثير من الاتهامات فيما بعد بالنسبة لمسألة المرور عبر ألمانيا. وجاءت بعض الاتهامات والانتقادات من بين صفوف البلاشفة، نظرًا لما خلقته قصة "العربة المغلقة" من صعوبات، وما وضعته من عراقيل في مجال الدعاية والتحريض. ولم يغلق لينين عينيه منذ البداية عن هذه الصعوبات المتوقعة. ولقد كتبت كروبسكايا قبل الانطلاق من زوريخ بفترة وجيزة ما يلي: "وسيُطلق الوطنيون في روسيا دون شك صرخات الاستنكار، ولكن علينا أن نستعد لكل هذا". وكانت المسألة مطروحة كما يلي: البقاء في سويسرا أو المرور عبر ألمانيا. ولم يكن هناك أي سبيل آخر. فهل كان بوسع لينين أن يتردد لحظة أخرى؟ وبعد شهر كامل، اضطر مارتوف وأكسلرود وغيرهما إلى اقتفاء آثار لينين.

ولقد أكدت هذه الرحلة الغريبة، عبر بلد معادٍ خلال الحرب، الملامح الأساسية للينين كرجل سياسي وهي: الجرأة في التخطيط والحذر الكامل في التنفيذ. لقد كان في أعماق هذا الثوري الكبير موثق عقود واثق من نفسه، ولكنه يعرف مع ذلك مكانه، ويعمد إلى كتابة العقد في اللحظة التي يمكن أن يساعد هذا الأمر فيها على تدمير كل عقود الموثقين. وكانت شروط المرور عبر ألمانيا موضوعة بكل عناية، وتشكل أساسًا لاتفاقية دولية غريبة بين هيئة تحرير صحفية من صحف المهاجرين وإمبراطورية الهوهنزولرن. ولقد أصرَّ لينين على التمتع بحق الحصانة كاملاً؛ عدم مراقبة وثائق المسافرين، أو جوازات سفرهم، أو أمتعتهم. ومنع أي فرد من الدخول إلى عربة القطار خلال الطريق (ومن هنا جاءت أسطورة "العربة المغلقة") وتعهدت مجموعة المهاجرين من جهتها بالعمل على تحرير عدد مماثل لعددها من الأسرى المدنيين الألمان والنمساويين - الهنغاريين السجناء في روسيا.

ووضع المهاجرون الروس بالتعاون مع بعض الثوريين الأجانب بيانًا يقول: "إن الأمميين الروس الذين ... يعودون الآن إلى روسيا لخدمة الثورة فيها. وسيساعد عملهم هذا البروليتاريين في كافة البلاد، وخاصة ألمانيا والنمسا، علـى الثـورة ضـد حكومته، ووقَّع على هذا البيان كل من لوريو وغيلبو عن فرنسا، وبول ليفي عن ألمانيا، وبلاتن عن سويسرا، وعدد من النواب السويديين اليساريين، ...إلخ. ووسط هذه الشروط، وبعد اتخاذ كل هذه الاحتياطات انطلق في أواخر مارس (آذار) من سويسرا ٣٠ مهاجرًا روسيًّا وسط عربة معدة لنقل الذخيرة، وكانوا هم أنفسهم عبوات شديدة الانفجار إلى أبعد الحدود.

وكتب لينين لعمال سويسرا رسالة الوداع التي ذكَّرهم فيها بالتصريح الذي نشرته صحيفة البلاشـفة المركزيـة خـلال خريف عام ١٩١٥ والذي يقول بأنه: إذا ما رفعت الثورة إلى السلطة في روسيا حكومـة جمهوريـة تـود متابعـة الحـرب الإمبريالية، فإن البلاشفة سيقفون ضد الدفاع عن الوطن الجمهوري. وها هي الشروط التي ذكرتها الصحيفة تتحقق. وهـا هـو لينين يقول وهو يستعد لوضع قدمه على أرض الثورة: "شعارنا هو عدم تقديم أي دعم لحكومة غوتشكوف ميليوكوف".

ولم يجد أعضاء الحكومة المؤقتة مع ذلك ما يستدعي تخوفهم. ويقول نابوكوف: "وفي أحد اجتماعات الحكومة المؤقتـة في شهر مارس (آذار) تابع الوزراء خلال الاستراحة مناقشة مسألة الدعاية البلشفية المتزايدة يومًا بعد يوم. فصرح كرنـسكي وهو يضحك ضحكته الهيستيرية المعهودة: انتظروا قليلاً، سيحضر لينين نفسه، عندها سيغدو كل هذا جديًّا..." وكان كرنـسكي محقًا؛ فقد كان الجميع ينتظرون أن تغدو الأمور جدية. ومع هذا فإن الوزراء لم يجدوا -كما يقول نـابوكوف- مـا يـستدعي تخوفهم؛ "لأن مجرد قيام لينين بطلب العودة عن طريق ألمانيا سيُضعف سلطته إلى حد بعيد، ويستبعد كل أسباب خوفنا منـه"، حقًا لقد كان الوزراء حاذقين أقوياء البصيرة، ولكن على طريقتهم.

وذهب أصدقاء لينين وأنصاره لملاقاته. ويتحدث راسكولنيكوف، الضابط البحار البلشفي الشاب عن اللقاء فيقول: "فمـا أن دخل فلاديمير أيليتش عربة القطار وجلس على مقعده حتى وقع على كامنييف: ماذا تكتبون في البرافدا؟ لقد رأينـا بعـض الأعداد وسخطنا عليكم بشدة..."، هكذا كان اللقاء بعد فراق دام عدة سنوات. ولكن هذا لم يمنع اللقاء من أن يكون وديًّا.

واستطاعت لجنة بتروغراد بمساعدة التنظيم العسكري جمع عدة آلاف من العمال والجنود، بغية إعداد اسـتقبال حافـل للينين. وأرسلت فرقة العربات المصفحة الموالية للبلاشفة كل آلياتها للاشتراك بالاحتفال. وقررت اللجنة الذهاب إلـى المحطـة بهذه العربات الحربية؛ فلقد أيقظت الثورة هوًى قويًّا لهذه الآلات الرهيبة، التي تقدم للمرء ميزات كبيرة إذا ما كانت إلى جانبـه في شوارع المدن.

ويشكل وصف اللقاء الرسمي الذي تم في القاعة "الإمبراطورية" بمحطة فنلندا صفحة حية فـي مـذكرات سـوخانوف الضخمة المؤلفة من عدة أجزاء. "ودخل لينين، أو بالأحرى اندفع إلى القاعة الإمبراطورية وهو يرتدي قبعة رخوة وبيده باقـة زهور رائعة. وما أن وصل إلى منتصف القاعة حتى وقف فجأة أمام تشخيدزه، وكأنه صادف حاجزًا غير منتظر. عندها أخـذ تشخيدزه يلقي خطاب الترحيب دون أن يتخلى عن مظهره القاتم. وكانت كلمات الخطاب، وروحه، ونغمته تذكر المرء بخطيب يلقي درسًا في الأخلاق: "الرفيق العزيز، باسم سوفييت بتروغراد، وباسم الثورة كلها، نرحب بقدومكم إلى روسيا... وإننا لنعتقد بأن المهمة الأساسية للديمقراطية الثورية تتمثل في هذه الساعة بالدفاع عن ثورتنا ضد كل محاولات العدو الداخلي والخـارجي ... وإننا لنأمل أن يكون هذا هو الهدف الذي ستسعون إليه معنا"، وصمت تشخيدزه. وأصابتني دهشة بالغة أمام هذا الموقـف ... ولكن لينين كان يعرف جيدًا كيف يتصرف في مثل هذه الحالات. وكان موقفه خلال الخطاب يبدو وكأن كل ما يدور حوله لا يعنيه؛ إذ كان ينظر حوله يتأمل وجوه الأشخاص، ويرفع عينيه أحيانًا لينظر إلى سقف القاعة الإمبراطورية، ويعدِل وضـع الباقة التي يحملها (والتي لم تكن متلائمة أبدًا مع مجمل شخصه). وما أن انتهت كلمة تشخيدزه حتى أدار ظهره تقريبًـا لوفـد

اللجنة التنفيذية و"رد" على الترحيب بقوله: "الرفاق الأعزاء، الجنود والبحارة والعمال! إنني سعيد إذ أحيي فيكم الثورة الروسية الظافرة، وأحييكم بصفتكم طليعة الجيش البروليتاري العالمي ... ولن يمضي وقت طويل حتى تستجيب الشعوب لنداء الرفيق كارل ليبكنخت، وتشرع أسلحتها ضد مستغليها الرأسماليين ... لقد حددت الثورة الروسية التي أنجزتموها بداية عصر جديد ... عاشت الثورة الاشتراكية العالمية!".

لقد كان سوخانوف محقًا عندما قال بأن الباقة لم تكن متلائمة مع مجمل مظهر لينين، وتعيقه دون شك، وتضايقه وكأنها شيء لم يأخذ مكانه وسط مجمل الأحداث القاسية. ولم يكن لينين بالإضافة إلى ذلك، يحب الزهور المضمومة بباقات. ولا شك أنه تضايق بشكل أكبر من هذا الاستقبال الرسمي، الذي يحمل طابع الدجل الأخلاقي، وسط قاعة المحطة الفخمة. لقد كان تشخيدزه أفضل من خطاب "الترحيب" الذي ألقاه. وكان يخشى لينين قليلاً. ولكن يبدو أن البعض قد دفعه إلى تذكير هذا "المتحزِّب المتعصب" بضرورة الحفاظ على النظام منذ البداية. ولتكملة خطاب تشخيدزه الذي عبر عن مستوى القيادة المنخفض، تحدث ضابط شاب باسم البحارة، فتمنى أن يصبح لينين عضوًا في الحكومة المؤقتة! هكذا استقبلت ثورة فبراير (شباط) المترهلة الثرثارة التي لم تنضج بعد، الرجل الذي حضر وهو مصمم على أن يفرض عليها فكرته وإرادته. وزادت انطباعات لينين الأولية القلق الذي أحس به عند قدومه، وأثارت لديه شعورًا بالاحتجاج والتذمر يصعب إخفاؤه، ولكنه لم يلبث أن شمَّر بسرعة عن ساعديه! وانتقل من الحديث مع تشخيدزه إلى مخاطبة العمال والبحارة والجنود. ومن الدفاع عن الوطن إلى الثورة العالمية، ومن الحكومة المؤقتة إلى ليبكنخت. وهكذا تحدث لينين في المحطة بكل إيجاز عن سياسته المقبلة بأسرها.

ومع هذا، فقد قبلت الثورة الجلفة الزعيم بين صفوفها منذ اللحظة الأولى. وأصرَّ الجنود على أن يركب لينين عربة مدرعة، ولم يكن أمامه إلا أن يُذعن لطلبهم. وبدأ الليل يرخي سدوله معطيًا للموكب هيبة خاصة. وكانت أنوار العربات المدرعة الأخرى مطفأة، واخترقت أنوار عربة لينين وحدها حجب الظلمات. وكشفت الأنوار مجموعات غفيرة من العمال، والجنود، والبحارة الواقفين في ظلمة الشوارع. وكانت هذه الجموع هي التي نفذت أكبر انتفاضة في العالم، ثم تركت السلطة تنساب من بين أصابعها. وتوقفت الموسيقى العسكرية عن العزف عدة مرات خلال الطريق، حتى يتمكن لينين من إعادة الخطاب الذي ألقاه في المحطة بأشكال مختلفة، وأمام مستمعين جدد. ويقول سوخانوف: "وكان النصر واضحًا، ذا دلالات معينة".

وبدأت المجاملات وخطابات الترحيب من جديد في قصر كشيسينسكايا، أي في مقر القيادة العليا للبلاشفة القائم في عش راقصة باليه البلاط المغلف بالساتان. كان هذا الترابط يثير سخرية لينين المتوقدة دائمًا. وكان هناك إطالة ومبالغة أكثر مما ينبغي. واستقبل لينين سيل المديح المنهمر، كما ينتظر أحد المارة المتعجلين على عتبة مدخل البناء انتهاء تهاطل المطر. وأحسَّ بأنهم سعداء بقدومه حقًا. ولكن هذا الفرح التظاهري الفخم أثار ضجره. وكانت لهجة التهاني الرسمية تبدو له مقلدة، متصنعة، ومستعارة من الديمقراطية البرجوازية الصغيرة، الخطابية، العاطفية، المزيفة. ورأى أن الثورة أقامت مراسيمها المتعبة، قبل أن تحدد مهماتها أو ترسم سبيلها، وكان يبتسم بطيبة حانقة، وينظر إلى ساعته ما بين آونة وأخرى، ولا يتردد أحيانًا عن التثاؤب. وما أن توقفت آخر كلمات الترحيب حتى ألقى هذا القادم الرائع على مستمعيه سيلاً من الأفكار الحماسية التي كانت تلعلع غالبًا وكأنها ضربات سياط.

ولم يكن فن الاختزال آنذاك معروفًا من قبل البلاشفة. ولم يسجل أحد ملاحظاته عما قيل. وكان الجميع مأخوذين بما يجري حولهم. ولم يسجل الخطاب أبدًا، ولم يبق منه سوى انطباع عام في ذكريات الحاضرين، ولكن هذا الانطباع تعدَّل مع الزمن؛ فلقد تزايد الحماس، وقل الخوف. ومع هذا فقد كان الانطباع الأساسي الذي تركه الخطاب في قلب أقرب المقربين من لينين انطباعًا مشبعًا بالخوف. ذلك لأن جميع الصيغ المعهودة التي ظنها الجميع صلبة لا تتزعزع من فرط ما سمعوها خلال

الشهر السابق، أخذت تتحطم واحدة تلو الأخرى أمام الحضور. ولم يكن الخطاب الموجه مباشرة إلى كوادر بتروغراد البلشفية خلال ساعتين سوى تطوير وشرح للكلمة القصيرة التي ألقاها لينين في المحطة على رأس تشخيدزه.

ولقد حضر سوخانوف هذا الاجتماع عن طريق الصدفة؛ نظرًا لأن لطف كامنييف ودماثته دفعاه إلى دعوته -كان لينين يكره مثل هذه التصرفات المتساهلة- وهذا ما أمَّن لنا وجود وصف كامل لأول لقاء بين لينين وبلاشفة بتروغراد، ولكنه وصف قام به مراقب جانبي، يحمل للبلاشفة بعض الحماس إلى جانب شيء من العداء.

"ولن أنسى أبدًا هذا الخطاب المُرعد الذي هزَّ جميع البلاشفة المتشددين وأدهشتهم، وكان أثره عليهم كأثره عليّ، أنا الضال القادم إلى الاجتماع عن طريق الصدفة. وإنني لأؤكد بأنه لم يكن بين الحاضرين مَن ينتظر شيئًا مماثلاً. وبدا وكأن كافة القوى الطبيعية الغامضة قد خرجت من مكامنها، وأن روح التدمير الشامل التي لا تعرف حدودًا أو شكًا أو صعوبات بشرية، أو حسابات بشرية، أخذت تحوم في صالة قصر كشيسينسكايا فوق رءوس الأنصار المسحورين".

وكانت الصعوبات والحسابات البشرية تعني بالنسبة لسوخانوف تردد هيئة التحرير الصغيرة لمجلة نوفايا جيزن (الحياة الجديدة) خلال تناول الشاي عند مكسيم غوركي. ولكن حسابات لينين أعمق من ذلك بكثير. ولم يكن ما يحوم في الصالة فوق الرءوس قِوًى طبيعية غامضة، بل فكرة بشرية لا تخاف هذه القوى، وتحاول فهمها بغية السيطرة عليها. ولكن هذا لا يبدل من الأمر شيئًا؛ فلقد تشكل الانطباع بكل قوة.

ويذكر سوخانوف أن لينين قال: "عندما وصلت ورفاقي إلى هنا، ظننت أننا سنُقاد مباشرة من المحطة إلى قلعة بطرس وبولص. ولكننا وجدنا أنفسنا بعيدين جدًا عن هذه القلعة. وسنعمل كل ما في وسعنا للخلاص من هذه القلعة وتحاشي الوصول إليها". وفي اللحظة التي رأى البعض فيها أن تطور الثورة يعني تدعيم الديمقراطية، كانت توقعات لينين المباشرة تتحدث عن الذهاب إلى قلعة بطرس وبولص. ولعل البعض قال بأن هذا القول مزحة مشئومة. ولكن لينين كان عازفًا عن المزاح، كما كانت الثورة عازفة أيضًا.

ويشتكي سوخانوف بقوله: "لقد رفض (لينين) الإصلاح الزراعي بالطُرق القانونية، كما رفض سياسة السوفييت كلها. وطالب باستيلاء الفلاحين المنظم على الأرض دون انتظار... مهما كانت سلطة الدولة".

"لسنا بحاجة لجمهورية نيابية، ولسنا بحاجة لديمقراطية برجوازية. ولسنا بحاجة لأي حكومة تأتي من خارج سوفييتات مندوبي العمال، والجنود، والعمال الزراعيين!".

وهكذا ابتعد لينين عن الغالبية السوفييتية، وألقى بها في معسكر الأعداء "ولم يكن المستمعون آنذاك بحاجة لأكثر من هذا كيما يصابوا بالدوار".

ويشرح سوخانوف أفكار لينين بسخط فيقول وهذا يعني: "أن يسار الزيميرفالديين فقط كان يقود الدفاع عن المصالح البروليتارية والثورة العالمية. أما الآخرون فهم انتهازيون، يطلقون الأحاديث الخلابة، ولكنهم يخونون في الحقيقة قضية الاشتراكية والجماهير العمالية".

ويضيف راسكولنيكوف إلى أقوال سوخانوف: "وانقض بإصرار على التكتيك الذي طبقته مجموعات الحزب القيادية وثلة من الرفاق قبل قدومه". "هنا كان يجلس أكثر مناضلي الحزب تحملاً للمسئولية. وكان خطاب إيليتش حتى بالنسبة لهم كشفًا جديدًا. فلقد رسم لينين حاجزَ "روبيكون"[١] بين تكتيك الأمس وتكتيك اليوم ولكننا سنرى أن هذا الحاجز لم يُرسم دفعة واحدة.

ولم تحصل أية مناقشات حول التقرير؛ إذ كان الجميع مذهولين، وكان كل واحد يود أن يجمع بعض شتات أفكاره. ويتابع سوخانوف حديثه فيقول: "وخرجت إلى الشارع، وكنت أشعر وكأنني تلقيت في هذه الليلة سلسلة من ضربات المطرقة على رأسي. وظهر أمامي شيء واحد واضح كل الوضوح: كلا، إنني "متوحش"، ولن أمشي مع لينين!". وإننا لنوافقه على ما يقول!

وفي اليوم التالي، قدَّم لينين إلى الحزب تقريرًا مكتوبًا عن أفكاره، غدَا فيما بعد وثيقة من أهم وثائق الثورة، وعرف باسم "أفكار ٤ إبريل (نيسان)"[٢]. وكانت الأفكار تطرح مجموعة من القضايا البسيطة، بأسلوب مبسط يفهمه الجميع: ليست الجمهورية المنبثقة عن ثورة فبراير (شباط) جمهوريتنا، وليست الحرب التي تمارسها حربنا. ومهمة البلاشفة قلب الحكومة الإمبريالية. ولكن هذه الحكومة قائمة بفضل دعم المناشفة والاشتراكيين - الثوريين، المستندين إلى ثقة الجماهير الشعبية. إننا نمثل الأقلية. وهذا ما يجعلنا نستبعد فكرة البدء بالمجابهة المباشرة. ولكن علينا أن نعلم الجماهير أن لا تقع في حِبال التوفيقيين وأنصار الدفاع الوطني. "ينبغي تقديم التفسيرات بكل صبر". إن نجاح مثل هذه السياسة التي تفرضها طبيعة الظروف نجاح مؤكد، وسيقودنا هذا النجاح إلى ديكتاتورية البروليتاريا، أي أنه سينقلنا إلى ما بعد النظام البورجوازي. إننا نود قطع كل صلاتنا مع رأس المال، ونشر كل معاهداته واتفاقاته السرية، ودعوة عمال العالم أجمع كيما يقطعوا علاقاتهم مع البرجوازية. لقد بدأنا الثورة العالمية، ونجاح هذه الثورة هو الضمانة الوحيدة لتدعيم ثورتنا، والانتقال إلى النظام الاشتراكي.

ونُشرت أفكار لينين باسمه الشخصي، وباسمه الشخصي فقط. واستقبلتها مؤسسات الحزب المركزي ببعض العِداء الذي لم يخفف من غلوائه سوى الدهشة السائدة في هذه المؤسسات. ولم يضع أي تنظيم أو أية مجموعة أو أي مناضل توقيعه على هذه الوثيقة إلى جانب لينين. حتى زينوفييف الذي عاد من الخارج مع لينين، حاملاً الأفكار التي لقنه إياها الزعيم البلشفي بصورة يومية خلال عشر سنوات، فقد انسحب بكل هدوء. ولم يكن هذا الانسحاب مفاجأة للقائد الذي كان يعرف مساعده المباشر كل المعرفة. وإذا كان كامنييف دعائيًّا شعبيًّا فقد كان زينوفييف محرضًا ناجحًا، ويؤكد لينين أنه لم يكن أكثر من ذلك. وكان شعوره بالمسئولية ناقصًا لدرجة تمنعه من الوصول إلى مرتبة الزعامة. ولكن لم تكن هذه نقطة الضعف الوحيدة لديه. فهو محروم من الانضباط الداخلي، كما أن تفكيره عاجز كل العجز عن العمل النظري، ويتحول بسرعة إلى مفهوم غامض من مفاهيم المحرضين. وكانت حاسته الأريبة بصورة خاصة، تساعده على أن يلتقط بسرعة كافة التعابير التي يحتاج إليها. أي تلك التي تساعده في التأثير على الجماهير. وكان خلال نشاطه الصحفي والخطابي لا يخرج عن كونه محرضًا، مع فارق بسيط، هو أن مقالاته كانت تكشف نقاط ضعفه، على حين كانت خطاباته تظهر نقاط قوته. وكان زينوفييف أجرأ من أي بلشفي آخر في مجال التحريض الجماهيري، ولكنه كان أقل من كامنييف قدرة على أخذ المبادهات الثورية؛ فهو متردد مثل كل الديماغوجيين. ولقد انفصل زينوفييف بصورة لا إرادية عن معلمه عندما ترك حقل صراعات الجماعات، وانتقل إلى مجال الصراعات الجماهيرية المباشرة.

* * *

وكان الاتجاه السائد في هذه السنوات الأخيرة يميل إلى اعتبار أزمة إبريل (نيسان) التي عاشها الحزب عبارة عن أزمة عابرة عارضة. ولكن هذا كله ينهار عند أول اكتشاف لحقائق الأحداث[٣].

إن ما ذكرناه حتى الآن عن نشاط الحزب خلال شهر مارس (آذار) كان لكشف التناقض العميـــق بـــين لينـــين وقيـــادة بتروغراد. وتصاعد هذا التناقض إلى ذروة توتره في لحظة وصول لينين إلى العاصمة. ففي الوقت الذي عُقد فيه مؤتمر عموم روسيا لمندوبي ٨٢ سوفييتًا، وصوَّت فيه كامنييف وستالين على قرار السلطة الذي طرحه المناشفة والاشتراكيون - الثوريون، عُقد في بتروغراد مؤتمر خاص بالحزب، حضره بلاشفة قدموا من مختلف أرجاء روسيا. ويقدم هذا المؤتمر الذي حضر لينين آخر ساعاته فائدة كبيرة لتحديد ميول الحزب وأفكاره، أو بالأحرى ميول شريحته القيادية العليا كما خرجت من الحرب. وتثيـــر قراءة المحاضر التي لم تُنشر حتى الآن دهشة بالغة، وتدفع إلى التساؤل: هل صحيح أن الحزب الـــذي بعـــث بمثـــل هـــؤلاء المندوبين، هو الحزب الذي استولى على السلطة بيد من حديد بعد سبعة أشهر؟

وكان قد مضى على الانتفاضة شهر كامل، وهذه مدة طويلة بالنسبة للثورة والحرب. ومع هذا، لم تكن الآراء المتعلقـــة بأهم مسائل الثورة واضحة داخل الحزب. وحضر المؤتمر وطنيون متطرفون مثل فويتنسكي وإيلياف وغيرهمـــا إلـــى جانـــب الأمميين. وكانت نسبة الوطنيين المتحمسين أقل بكثير من نسبتهم بين صفوف المناشفة، ولكنها كانت مع ذلك كبيرة. ولم يحـــل المؤتمر المسألة التالية: الانفصال عن الوطنيين من البلاشفة أو الاتحاد مع وطنيي المناشفة. وخلال فترة الاستراحة بين جلسات المؤتمر البلشفي، عقد بين أعضاء مندوبي السوفييت من البلاشفة والمناشفة اجتماع مشترك لمناقشة مسألة الحرب. وأعلن ليبـــر أكثر المناشفة عنفًا خلال هذا المؤتمر ما يلي: "ينبغي استبعاد التمييز السابق بين البلاشفة والمناشفة، والتحدث فقط عن موقفنـــا إزاء الحرب"، ولم يلبث البلشفي فويتنسكي أن أعلن عن استعداده للموافقة على كل ما يقوله ليبر. وكان البلاشفة والمناشفة، بما فيهم من وطنيين وأمميين يبحثون عن صيغة مشتركة تعبر عن موقفهم من الحرب.

ووجدت آراء المؤتمر البلشفي أفضل تعبير لها في التقرير الذي قدمه ستالين عن الموقف إزاء الحكومة المؤقتة. ومـــن الضروري أن نذكر هنا الفكرة الرئيسية للتقرير الذي لم ينشر كما لم تنشر محاضر المؤتمر حتـــى الآن فـــي أي مكـــان. "إن السلطة موزعة بين جهازين لا يملك أي واحد منها السلطة كلها. ويوجد بين هذين الجهازين احتكاكات وصراعات لا بُـــدَّ مـــن وقوعها. والأدوار موزعة. ولقد أخذ السوفييت المبادهة بإجراء التحولات الثورية، والسوفييت هو القائد الثوري للشعب الثـــائر، والجهاز الذي يراقب الحكومة المؤقتة. وأخذت الحكومة المؤقتة على عاتقها مهمة تدعيم مكتسبات الـــشعب الثـــوري. ويعبـــئ السوفييت القوى ويمارس المراقبة، على حين تقاوم الحكومة المؤقتة وتتعثر وتأخذ دور مدعم المكتسبات التي حققهـــا الـــشعب بصورة فعلية. ولهذا الوضع صفات سلبية، ولكن له أيضًا إيجابياته، وليس من مصلحتنا الآن أن نسرِّع مسيرة الأحداث، ونزيد من طرد الشرائح البرجوازية التي ستنفصل فيما بعد بصورة محتومة".

وهكذا وضع ستالين نفسه فوق الطبقات، ورسم العلاقات بين البرجوازية والبروليتاريا وكأنها عبارة عن تقسيم عمل. أي أن على العمال والجنود أن ينجزوا الثورة، ثم يأتي غوتشكوف وميليوكوف لتدعيمها. وإننا نلاحظ أن هذه الفكرة مشابهة لمفهوم المناشفة التقليدي، المنقول بصورة سيئة عن أحداث عام ١٧٨٩. ونحن نعرف أن زعماء المنشفية اتسموا بهذا الموقف المراقب أمام التطور التاريخي، وبهذا الأسلوب في توزيع المهمات على مختلف الطبقات، ونقد تنفيذها بلهجة الأوصـــياء. ولقـــد كانـــت الفكرة القائلة بأن من غير المستحسن تعميق الخلاف بين الثورة والبرجوازية، الدليل الأعلى الدائم لسياسة المناشـــفة بأســـرها. والحقيقة أن كل هذا يعني إضعاف حركة الجماهير وتخفيف حدتها كي لا يخاف الحلفاء الليبراليـــون. وأخيـــرًا، فـــإن اســـتنتاج ستالين حول الحكومة المؤقتة يتطابق كل التطابق مع صيغة التوفيقيين: "ينبغي دعم الحكومة المؤقتة طالما أنها تـــدعم الثـــورة، ويصبح دعمها مرفوضًا عندما تعدو هذه الحكومة ثورة مضادة".

وقدم ستالين تقريره في يوم ٢٩ مارس (آذار)، وفي اليوم التالي قام الاشتراكي - الديموقراطي اللا حزبـــي ســـتيكلوف بصفته المتحدث الرسمي باسم المؤتمر السوفييتي بالدعوة إلى المشاركة المشروطة بالحكومة المؤقتة، ورسم وســـط الحمـــاس

اللاهب لوحة كاملة لنشاط "مدعمي" الثورة: مقاومة الإصلاحات الاجتماعية والأفكار الملكية، والحماية المقدمة لقوى الثورة المضادة، والاتجاهات الرامية إلى الضم والإلحاق. وأثار هذا الأمر انتباه مؤتمر البلاشفة ودفعه إلى التخلي عن صيغة الدعم، وأعلن البلشفي اليميني نوغين ما يلي: "وقدم تقرير ستيكلوف فكرة جديدة: ومن الواضح أن علينا أن لا نتحدث الآن عن الدعم بل عن المعارضة"، واستنتج ستريبنيك أن تقرير ستيكلوف يدل "على أن هناك تبديلاً كبيرًا. إن من المستحيل التحدث عن دعم الحكومة. فهناك مؤامرة تحيكها الحكومة المؤقتة ضد الشعب والثورة". **ورأى ستالين،** الذي رسم بالأمس لوحة رائعة مثالية "لتقسيم العمل" بين الحكومة والسوفييت، **أن عليه أن يُلغي الفقرة الخاصة بالدعم.**

ودارت مناقشات قصيرة سطحية حول مسألة ما إذا كان من الضروري دعم الحكومة المؤقتة "إذا ما ..." أو الاكتفاء بدعم التصرفات الثورية التي تقوم بها هذه الحكومة. وأعلن فاسيلييف، أحد مندوبي ساراتوف ما يلي: "إن الموقف إزاء الحكومة المؤقتة متشابه لدى الجميع"، وكان محقًا في هذه الملاحظة. وشرح كريستينسكي الوضع بشكل أشد حيوية عندما قال: "وليس هناك أية خلافات بين ستالين وفويتنسكي حول الخطوات العملية"، ولم يكن كريستينسكي على خطأ رغم أن فويتنسكي انتقل بعد المؤتمر مباشرة إلى معسكر المناشفة: ذلك لأن سحب ستالين لفكرته المؤيدة للدعم لم يُلغِ الدعم نفسه. ولم يحاول طرح هذه المسألة بعد ذلك سوى كراسيكوف، وهو بلشفي قديم، ابتعد عن الحزب خلال عدة سنوات، ثم عاد محملاً بخبرات الحياة، ليحاول الدخول إلى صفوف الحزب من جديد. ولم يكن كراسيكوف يخشى مسك الثور من قرنيه؛ لذا سأل البلاشفة بسخرية: ألا تفكرون بإقامة ديكتاتورية البروليتاريا؟ ولكن المؤتمر تجاهل السخرية، كما تجاهل السؤال نفسه، واعتبره غير ذي بال. وكانت مقررات المؤتمر تتطلب من الديمقراطية الثورية أن تدفع الحكومة المؤقتة "إلى النضال الفعال لتصفية النظام القديم بصورة كاملة"، وهذا يعني اعتبار الحزب البروليتاري سيدة مرافقة للبرجوازية.

ونوقش في اليوم التالي اقتراح تسيريتلي حول اندماج البلاشفة مع المناشفة، ونظر ستالين إلى هذه الدعوة بعين الرضى: "إن علينا أن نوافق. ومن الضروري تحديد مقترحاتنا حول خط التوحيد. والتوحيد ممكن بناءً على خط زيميرفالد - كينتال". وهنا ظهر مولوتوف، الذي أبعده كامنييف وستالين عن تحرير البرافدا؛ نظرًا لأنه أعطى هذه الصحيفة خطًا متشددًا، وقدم اعتراضاته: إن تسيريتلي يرغب بتوحيد عناصر من كل نوع، وهو يقول عن نفسه بأنه زيميرفالدي. إن الاندماج بناء على هذا الخط خطيئة. ولكن ستالين تشبث برأيه وقال: "وليس من المستحسن استباق الأحداث وتوقع الخلافات. ولا يمكن للحياة الحزبية أن تعيش دون خلافات داخلية. وسنعمل على إزالة الخلافات الصغيرة داخل الحزب".

وبدا الأمر وكأن نضال لينين الطويل خلال سنوات الحرب ضد الاشتراكية - الوطنية، وردائها السليم، قد ذهب هباءً؛ ففي سبتمبر (أيلول) ١٩١٦ كتب لينين بإصرار إلى بتروغراد عن طريق شليا بنيكوف ما يلي: "إن روح التوفيقية والتوحيد لمِن أسوأ الأمور بالنسبة للحزب العمالي في روسيا. وليست هذه الروح حماقة فحسب، ولكنها ضياع الحزب كله ... ولن نستطيع الاعتماد إلا على من فهموا كل الفهم خدعة فكرة الوحدة وضرورة الانفصال عن هذه الثلة (تشخيدزه وشركاه) في روسيا". ويبدو أن هذا الإنذار لم يُفهم جيدًا. وطرح ستالين الخلافات الأساسية مع تسيريتلي زعيم الأغلبية في السوفييت، وكأنها خلافات بسيطة يمكن "إزالتها" داخل حزب مشترك. ويقدم هذا المقياس أفضل تقييم لآراء ستالين في تلك الفترة.

وفي ٤ إبريل (نيسان) ظهر لينين في مؤتمر الحزب. ومرَّ خطابه الذي شرح به "أفكار إبريل" على أعمال المؤتمر كإسفنجة نديَّة، يمسح بها الأستاذ ما كتبه طالب متعثر على اللوح الأسود.

وسأل لينين: "لِم لمْ يتم الاستيلاء على السلطة؟". وكان ستيكلوف قد شرح أمام المؤتمر بتعابير غامضة الأسباب التي دفعت إلى عدم الاستيلاء على السلطة، وأكد أن: الثورة البرجوازية هي المرحلة الأولى، بالإضافة إلى وجود الحرب، ...إلخ.

وأعلن لينين "أن كل هذا هراء؛ إذ تكمن المسألة في أن البروليتاريا لا تتمتع بالوعي الكافي أو التنظيم الكافي. ولا بُدَّ من الاعتراف بذلك. إن القوة المادية بيد البروليتاريا، ولكن البرجوازية ظهرت هنا واعية ومنظمة. إن هذا الأمر شنيع، ولكن من الضروري الاعتراف به بشكل مكشوف صريح، وإعلام الشعب، بأننا لم نستلم السلطة نظرًا لأننا لم نكن منظمين أو واعين".

وهكذا انتزع لينين المسألة من المجال الموضوعي الكاذب الذي احتمى استسلاميو السياسة وراءه، وطرحها بقوة في المجال الذاتي. إن عدم استيلاء البروليتاريا على السلطة في فبراير (شباط) ناجم عن أن حزب البلاشفة لم يكن على مستوى المهمات الموضوعية. ولم يستطع منع التوفيقيين من تسليم الجماهير الشعبية لقيود البرجوازية.

وكان المحامي كراسيكوف قد طرح بالأمس التحدي التالي: "إذا كنا نرى بأن اللحظة قد أتت لإنشاء ديكتاتورية البروليتاريا، فإن علينا أن نطرح المسألة بهذا الشكل. ونحن نملك دون شك القوة المادية اللازمة لاستلام السلطة". وهنا سحب رئيس الجلسة الكلام منه، على اعتبار أن البحث يدور حول المهمات العملية، وأن مسألة الديكتاتورية لا تدخل في مجال النقاش. ولكن لينين رأى على العكس أن المهمة العملية الوحيدة هي مسألة إعداد ديكتاتورية البروليتاريا. ويقول لينين في "أفكار إبريل" ما يلي: "إن خصوصية اللحظة الراهنة في روسيا هي تحديد الانتقال من المرحلة الأولى للثورة، تلك المرحلة التي أعطت السلطة إلى البرجوازية؛ نظرًا لعدم كفاية تنظيم البروليتاريا وفكرها الواعي، إلى المرحلة الثانية التي تضع السلطة حتمًا بين أيدي البروليتاريا وأفقر الشرائح الفلاحية".

لقد سار المؤتمر على خُطَى البرافدا، وحدد مهمات الثورة بالإصلاحات الديمقراطية التي يمكن تنفيذها عن طريق المجلس التأسيسي. و**أعلن لينين بالمقابل: "إن الحياة والثورة تلقيان بالمجلس التأسيسي إلى المرتبة الخلفية. إن ديكتاتورية البروليتاريا موجودة، ولكننا لا نعرف كيف نتصرف بها"**.

وتبادل المندوبون النظرات. وقالوا فيما بينهم بأن وجود إيليتش في الخارج مدة طويلة منعه من أن يرى الأمور عن كثب، وحرمه من القدرة على التمييز. ولم يلبث تقرير ستالين عن تقسيم العمل بشكل حكيم بين الحكومة والسوفييت أن سقط دفعة واحدة وإلى الأبد في أعماق الماضي السحيق. ولم يتحدث ستالين نفسه. وكان عليه منذ تلك اللحظة أن يصمت طويلاً. ولم يتابع الدفاع سوى كامنييف.

وكان لينين قد هدد برسائله المبعوثة من جنيف، بأنه مستعد لقطع علاقاته مع أي شخص مستعد لتقديم التنازلات في مسائل الحرب، أو للظهور بمظهر شوفيني، أو للمصالحة مع البرجوازية. وها هو الآن يقف وجهًا لوجه مع قيادات الحزب، ويشن الهجوم على طول الخط. بَيْد أنه لم يحدد في بداية الأمر اسم أي بلشفي. وكان إذا اضطر لتقديم مثال حي عن الرياء والخداع، أشار إلى أشخاص لا حزبيين، وإلى ستيكلوف أو تشخيدزه. و**هذا هو أسلوب لينين المعهود: إنه لا يدفع أحدًا إلى الثبات في موقعه قبل الأوان، ويترك للحذرين فرصة الانسحاب من المعركة في الوقت الملائم، وبهذا يضعف خصوم المستقبل المتشددين**. وكان كامنييف وستالين يعتبران أن اشتراك الجندي والعامل في الحرب بعد فبراير (شباط) يعني دفاعهما عن الثورة. ورأى لينين أن الجندي والعامل يشتركان في الحرب كالسابق، أي كعبدين تابعين لرأس المال. ويقول لينين مقلصًا الحلقة حول خصومه "حتى أن بلشفيينا يثقون بالحكومة ولا يمكن تفسير ذلك إلا بجنون الثورة. إنه السير نحو ضياع الاشتراكية... وإذا كان الأمر كذلك، فإننا لن نسير على الدرب معًا. وإنني لأفضل البقاء في هذه الحالة مع الأقلية" ولم يكن هذا القول مجرد تهديد يطلقه خطيب. ولكنه تصرف موزون ومدروس بوضوح حتى أدق نتائجه.

ولم يذكر لينين اسمي كامنييف وستالين، ولكنه كان مجبرًا على ذكر اسم الصحيفة: "وتطلب البرافدا من الحكومة أن تتخلى عن فكرة الضم. ولكن مطالبة حكومة الرأسمالية بالتخلي عن الضم حماقة واضحة وسخف صارخ"... ويبدو في هذا القول شيء من سخط لينين المكبوت. ولكن الخطيب لم يلبث أن أمسك زمام نفسه من جديد؛ فهو يود أن يقول كل ما هو ضروري، دون أن يزيد على ذلك شيئًا. وأعطى لينين خلال حديثه عددًا من القواعد السياسية الثورية الرائعة: "إنني أصدق الجماهير عندما تعلن بأنها لا تود مكتسبات. ولكن ما أن يعلن غوتشكوف ولفوف بأنهما لا يودان أية مكتسبات، حتى أقول بأنهما كاذبان. وعندما يقول العامل أنه يبغي الدفاع عن البلاد، فإن ما يتحدث في داخله هو صوت الإنسان المسحوق". ولا شك في أن هذا المقياس بسيط كالحياة نفسها. ولكن الصعوبة كامنة في معرفته وتحديده باسمه في الوقت المناسب.

وتحدث لينين بدقة أكبر وحيوية أشد، عندما تطرق إلى موضوع بيان السوفييت "إلى شعوب العالم أجمع" الذي أعطى صحيفة ريتش الليبرالية حجة كافية للإعلان آنذاك، على أن فكرة السلام تتطور عندنا إلى أيديولوجية مماثلة لأيديولوجية حلفائنا. وقال لينين بهذا الصدد: "ويميز روسيا التحول بخطوات عملاقة من القهر الوحشي إلى أدق أنواع الخداع".

وكان ستالين قد كتب حول مسألة البيان: "وإذا ما وصل هذا النداء إلى جماهير (الغرب) الواسعة، دفع مئات وآلاف العمال إلى "الشعار المنسي": "يا عمال العالم اتحدوا"!

ويتحدث لينين عن البيان نفسه فيقول: "وليس في نداء السوفييت كلمة واحدة مشبعة بالوعي الطبقي. وليس فيه سوى جعجعة لفظية" وهكذا ترى بأن الوثيقة التي افتخر بها الزيميرفالديون الذين لم يخرجوا من بلادهم قط، لم تكن بالنسبة للينين أكثر من أداة من أدوات "أدق أنواع الخداع".

ولم تكن البرافدا تشير إلى يسار الزيميرفالديين قبل قدوم لينين. وكانت تتحدث عن الأممية دون أن تحدد أية أممية تقصد. وهذا ما أطلق عليه لينين اسم "كاوتسكية" البرافدا. ولقد أعلن في مؤتمر الحزب "كان الوسط مسيطرًا في زيميرفالد وكينتال ... وأننا لنعلن بأننا شكلنا جناحًا يساريًّا، وقطعنا صلتنا مع الوسط ... وهناك تيار زيميرفالدي يساري في كافة بلاد العالم. وعلى الجماهير أن تعرف بأن الاشتراكية مجزأة في العالم أجمع" ...

وقبل ثلاثة أيام فقط، أعلن ستالين أمام المؤتمر نفسه عن استعداده لإزالة الخلافات مع تسيريتلي وِفق أسس زيميرفالد - كينتال، أي وفق قواعد الكاوتسكية. وقال لينين: "سمعت بأن في روسيا تيارًا وحدويًّا، إن الوحدة مع أنصار الدفاع الوطني تعني خيانة الاشتراكية. وإنني أرى بأن من الأفضل أن يبقى المرء وحيدًا مثل ليبكنخت. وحيدًا ضد مائة وعشرة"! ولم يكن الاتهام الخاص بخيانة الاشتراكية، والموجه هنا بصورة عامة دون تحديد شخص معين، مجرد كلمة قاسية؛ إنه قول يكشف موقف لينين إزاء البلاشفة الذين يمدون أصبعهم للاشتراكيين - الوطنيين. وفي الوقت الذي كان به ستالين يرى إمكانية الاندماج مع المناشفة، كان لينين يرى أن الحفاظ معهم على اسم الاشتراكية - الديمقراطية غدا أمرًا غير محتمل. ولقد أعلن بهذا المجال ما يلي: "إنني أتحدث باسمي الشخصي"، وأقترح تغيير تسمية الحزب، وأخذ اسم الحزب الشيوعي". "إنني أتحدث باسمي الشخصي"، وهذا يعني بأنه لم يكن في المؤتمر عضو واحد يوافق على اعتبار هذا التصرف الرمزي قطيعة نهائية مع الأممية الثانية.

وقال الخطيب للمندوبين المتضايقين، المشدوهين، الساخطين جزئيًّا: "إنكم تخشون خيانة الذكريات القديمة. أليس كذلك"؟ ولكنه آن الأوان "لتغيير الخط كله، ولا بُدَّ من خلع القميص القذر وارتداء قميص نظيف". ثم أكد من جديد "لا تتمسكوا أبدًا بكلمة قديمة فسدت بصورة نهائية. وإذا ما شئتم بناء حزب جديد ... انضم إليكم جميع المضطهدين".

ووقف لينين أمام المهمات الضخمة التي لا بُدَّ من تنفيذها. والاضطراب الواقع داخل صفوف حزبـــه، وفكــرة الــزمن الثمين الضائع بسخط وسط الاستقبالات، والتهاني، والمقررات المألوفة. وانتزعت منه كل هذه الأمور الشكوى المريرة التاليــة: "كفانا ما شهدناه من تهاني ومقررات، فقد آن أوان العمل، وحان الوقت للقيام بعمل فعَّال بعد إمعان الفكر"!

واضطر لينين بعد ساعة إلى تكرار خطابه في اجتماع عام محدد مسبقًا، يضم البلاشفة والمناشفة. وبدا خطابـــه لغالبيــة المستمعين شيئًا وسطًا بين السخرية والجنون. وهز المتساهلون أكتافهم بلا مبالاة. لقد هبط هذا الرجل ولا شك من القمر: لقــد غاب عشر سنين، وما أن اجتاز درجات مدخل محطة فنلندا حتى نادى باستيلاء البروليتاريا على السلطة. وذكر أقل الــوطنيين تسامحًا بحكاية عربة القطار المقفلة. ويقول ستانكيفينش إن خطاب لينين أشاع الفرح بين صفوف خصومه: "إن شخــصًا يقــول مثل هذا الكلام لا يمكن أن يكون خطيرًا. ومن حسن الحظ أنه قدم إلى البلاد. وليس علينا الآن إلا أن ننظــر إليــه ... لأنـــه سينقض الآن نفسه بنفسه".

وبالرغم من جرأة الخطيب الثورية، وقراره الحازم بقطع كل علاقة مع أنصار فكرته القدامى، ومع رفاق القتال إذا مـــا تخلفوا عن السير على خطى الثورة، فقد كانت جميع أجزاء خطابه متوازنة فيما بينها، وكان الخطاب بأســـره مــشبعًا بواقعيـــة عميقة، وبشعور جماهيري أكيد. وهذا ما جعله يبدو غريبًا أمام الديموقراطيين العائمين على السطح.

إن البلاشفة أقلية في داخل السوفييت، ولينين يفكر بالاستيلاء على السلطة. أفليس في هذا كثير من روح المغامرة؟ كلا؛ إذ ليس في طريقة طرح لينين للموضوع أي أثر للمغامرة. إنه لم يتجاهل لحظة واحدة وجود عقلية دفاع وطني "شــريفة" بــين صفوف الجماهير العريضة. ولم يكن لينين يود الذوبان في هذه الجماهير، ولكنه كان يرفض العمل من وراء ظهرهـــا. ويـــرد لينين على الاعتراضات والاحتجاجات المقبلة بقوله: "لسنا مشعوذين. وعلينا أن لا نعتمد إلا على وعي الجماهير. ولا بأس حتى ببقائنا أقلية، وقد يكون من المفيد التخلي عن الوضع القيادي خلال فترة من الزمن، ولا ينبغي أن نخاف من وضعنا كأقلية"، ولا ينبغي الخوف من البقاء كأقلية، ومن البقاء وحيدًا مثل ليبكنخت عند الضرورة، والوقوف ضد مائة وعشرة! هذه هـــي الفكـــرة التي سادت الخطاب.

"والسوفييت هو الحكومة الحقيقية لمندوبي العمال ... ويمثل حزبنا الأقلية داخل السوفييت... ولا نستطيع القيام بـــشيء في هذا المجال! وليس أمامنا إلا أن نشرح بصبر ودأب ومنهجية خطأ تكتيكهم. وسنمارس النقد لإنقاذ الجماهير مـــن الخـــداع طالما بقينا أقلية. ونحن لا نود أن تصدقنا الجماهير بمجرد سماع أقوالنا. ولسنا مشعوذين. وكلنا رغبة في أن تتخلص الجماهير من أخطائها بفضل تجربتها". لا ينبغي الخوف من البقاء أقلية! ولكننا لن نبقى هكذا إلى الأبد، بل بصورة مؤقتة. وستأتي ساعة انتصار البلشفية حتمًا. "وسيظهر خطنا صحيحًا ... وسيأتي كل مسحوق إلينا، لأن الحرب ستدفعه نحونـــا. فلـــيس أمامـــه أي مخرج آخر".

ويقول سوخانوف "وبدا لينين خلال مؤتمر التوحيد كتجسيد حي للانفصال ... وإنني لأذكر بوجدانوف (منـــشفي) الـــذي كان جالسًا على بعد خطوتين من منصة الخطابة وصرخ بوعدانوف مقاطعًا لينين: إن كل هذا عبارة عن جنون مطلق. وهو لا يخرج عن كونه جنون رجل معتوه! ... ثم التفت نحو المستمعين بوجهه الشاحب من الغضب والاحتقار، وصرخ بأعلى صوته: من العار التصفيق لهذه السفسطات. إنكم تسيئون إلى شرفكم، أيها الماركسيون"!

ووقف غولدنبرغ، أحد أعضاء اللجنة المركزية البلشفية السابقين، والعامل آنذاك خارج الحـــزب، وقـــيم أفكـــار لينـــين بالتعابير المزدرية التالية:

"لقد بقي مكان باكونين في الثورة الروسية شاغرًا خلال عدة سنوات، وها هو لينين يشغله".

ثم تحدث الاشتراكي الثوري زينزينوف فيما بعد عن هذا الاجتماع فقال: "وأثار برنامجه آنذاك من السخط مثلما أثاره من السخرية، وبدا للجميع سخيفًا وخياليًّا".

وفي مساء اليوم نفسه تحدث اثنان من الاشتراكيين - الثوريين مع ميليوكوف، قبيل الذهاب إلى "لجنة الاتصال"، وانتقل الحديث إلى لينين، واعتبره سكوبوليف "رجلاً منتهيًّا، يقف خارج الحركة" ووافق سوخانوف على رأي سكوبوليف، وأضاف بأن لينين "كان مرفوضًا من قِبل الجميع لدرجة تجعله لا يمثل في هذه اللحظة أية خطورة بالنسبة لميليو كوف". وبدا توزيع الأدوار خلال هذا الحديث مشابهًا لما توقعه لينين: إن الاشتراكيين يعملون ما في وسعهم لحماية هدوء الليبرالي من المتاعب التي يمكن أن تسببها له البلشفية.

وترامت إلى السفير الإنكليزي بعض الأقوال التي تؤكد بأن لينين ماركسي سيئ. وهذا ما دفع بوكانان إلى أن يقول: "ويوجد بين الفوضويين القادمين حديثًا شخص يدعى لينين، ولقد حضر من ألمانيا بعربة قطار مقفلة. وظهر في مكان عام لأول مرة في اجتماع الحزب الاشتراكي - الديموقرطي؛ حيث استقبل بشكل سيء".

ولعل كرنسكي كان في هذه الفترة أكثر من الآخرين تساهلاً مع لينين. ويحدثنا نابوكوف أن كرنسكي صرح لأعضاء الحكومة المؤقتة عن رغبته بزيارة الزعيم البلشفي. ولما جابهته أسئلة زملائه المستغربة أجاب: "ولكنه يعيش حقًا في مناخ معزول، إنه لا يعرف شيئًا، ويرى كل شيء عبر نظارات حماسه، وليس إلى جانبه شخص واحد ليساعده على التوجه وسط كل ما يجري"، ولكن كرنسكي لم يجد لحظة فراغ واحدة كيما يوجه لينين وسط كل ما يجري.

ولم تثر "أفكار إبريل" سخط ودهشة الأعداء والخصوم فحسب، بل إنها دفعت عددًا من البلاشفة القدامى إلى معسكر المنشفية أو إلى المجموعة الوسطية التي تجمعت حول صحيفة غوركي. ولم يكن لهذا الهروب نتيجة سياسية جادة. وكان أهم من ذلك بكثير، الانطباع الذي تركه موقف لينين لدى كافة الشريحة القيادية للحزب. ويكتب سوخانوف في هذا الصدد: "وكان انعزاله الكامل وسط كافة رفاق الحزب الواعين واضحًا ولا شك فيه، خلال الأيام الأولى التي تلت قدومه".

ويؤكد الاشتراكي - الثوري زينزينوف "حتى أن رفاق الحزب من البلاشفة المشدوهين ابتعدوا عندئذ عنه" وكان مُطلِقو هذه الأحكام يلتقون كل يوم مع الزعماء البلاشفة في اللجنة التنفيذية ويتلقون التعليمات من مصادرها الأساسية.

ولا تنقصنا الشهادات الأصلية القادمة من صفوف البلاشفة أنفسهم. وها هو تسيخون يكتب فيما بعد عن هذه الحقبة -بعد مسح الألوان إلى حد بعيد كمعظم البلاشفة القدامى الذين تعثروا بثورة فبراير (شباط)- فيقول: "وعندما ظهرت أفكار لينين (أفكار إبريل) أحسسنا في حزبنا ببعض الهزات، وأشار عدد كبير من الرفاق إلى أن لينين قد تعرض لانحراف نقابي، وأنه انفصل عن روسيا، ولا يأخذ الوضع الراهن بعين الاعتبار ...إلخ". وكتب ليبيديف الزعيم البلشفي المحترم في المقاطعات ما يلي: "وبعد وصول لينين إلى روسيا، لم يفهم البلاشفة في بداية الأمر تحريضه الذي بدا طوباويًّا، وناجمًا عن طول مدة بُعده عن الحياة في روسيا. ولكننا لم نلبث أن بدأنا فهم هذا التحريض الذي تغلغلت أفكاره إلى أعماق لحمنا ودمنا". ويلجأ زاليجسكي، عضو لجنة بتروغراد، وأحد منظمي الاستقبال، إلى الحديث بوضوح أكبر فيقول: "وكان تأثير أفكار لينين كتأثير انفجار قنبلة"، ويؤكد زاليجسكي انعزال لينين الكامل بعد الاستقبال الحار الحافل الذي لاقاه، "ولم يجد الرفيق لينين في هذا اليوم (٤ أبريل) أنصارًا متحمسين حتى بين صفوفنا".

ولعل أهم الشهادات في هذا الصدد ما كتبته البرافدا في يوم ٨ إبريل (نيسان)[٤] أي بعد طرح "الأفكار" بأربعة أيام. وكان بوسع زعماء الحزب آنذاك التناقش والتفاهم فيما بينهم، ولكن هيئة تحرير البرافدا لم تنتظر ذلك، بل كتبت: "أما فيما يتعلق بالمخطط العام للرفيق لينين، فهو يبدو لنا غير مقبول؛ نظرًا لأنه يعتبر الثورة الديمقراطية البرجوازية منتهية، ويطالب بتحول هذه الثورة فورًا إلى ثورة اشتراكية، وهكذا أعلنت صحيفة الحزب المركزية، بشكل علني، أمام الطبقة العمالية وأعدائها، عن اختلافها مع زعيم الحزب حول مسألة أساسية من مسائل الثورة التي استعدت لها الكوادر البلشفية خلال سنوات طوال. ويكفي هذا الاختلاف لتحديد عمق أزمة الحزب في إبريل (نيسان)، والناجمة عن وجود خطين لا لقاء بينهما. ولو لم يتم التغلب على هذه الأزمة، لما استطاعت الثورة أن تسير خطوة واحدة إلى أمام.

الهوامش

(١) روبيكون: نهر يفصل إيطاليا عن بلاد الغول، منعت حكومة روما اجتيازه، واعتبرت من يجتازه مع قطعاته خائنًا للوطن. (المعربان).

(٢) تسمى بعض الترجمات العربية هذه الوثيقة باسم "أفكار إبريل" أو "موضوعات نيسان". (المعربان)

(٣) هناك كتاب جماعي ضخم صدر بإشراف البروفسور بوكروفسكي تحت عنوان "دراسات حول تاريخ ثورة أكتوبر (تشرين الأول)". وإننا لنجد في الجزء الثاني من هذا الكتاب (موسكو ١٩٢٧) دراسة قدمها بابيفسكي عن "ضياع" إبريل (نيسان). وتبحث هذه الدراسة الأحداث والوثائق بلا مبالاة تجعلها أقرب إلى القحة الساخرة، أو العبث الطفولي.

(٤) في ٧ إبريل (نيسان) نشرت صحيفة الحزب البلشفي الرسمية "أفكار إبريل" باسم لينين الشخصي. (المعربان)

إعادة تسليح الحزب فكريًّا

كيف يمكننا تفسير الانعزال الغريب الذي عرفه لينين في بداية إبريل (نيسان)؟ وكيف أمكن ظهور مثل هــذا الوضـــع؟ وكيف تمت إعادة تسليح كوادر البلشفية فكريًّا؟

لقد قاد الحزب البلشفي الصراع ضد الحكم الفردي الاستبدادي منذ عام ١٩٠٥، وكــان شــعاره خــلال هــذا النــضال "**الديكتاتورية الديمقراطية للبروليتاريا والفلاحين**"، وكان لينين هو الذي طرح هذا الشعار، وقدَّم الحجج والبــراهين النظريــة المؤيدة له. ولقد عارض لينين المناشفة ومنظِّرهم بليخانوف، وجابه نضالهم الشرس ضد "الفكرة الخاطئة القائلة بإمكانية إنجــاز الثورة البرجوازية دون برجوازية"، وكان يرى بأن البرجوازية الروسية غدت عاجزة عن إجراء ثورتها الخاصــة. وأن القــوة الوحيدة لإنجاز الثورة الديمقراطية ضد الملكية والملاكين الزراعيين هم البروليتاريون والفلاحون المتحدون مع بعضهم بــشدة. وكان لينين يؤكد أن انتصار هذا الاتحاد سيؤدي بالضرورة إلى إقامة ديكتاتورية ديمقراطية، لا تشبه ديكتاتورية البروليتاريا بل تتعارض على العكس معها، إذن لن تكون المهمة آنذاك إقامة مجتمع اشتراكي، بل تنظيف إسطبلات أوجياس القرون الوســطى بشكل كامل(١).

وكان **هدف الصراع الثوري** محددًا بكل دقة بثلاثة شعارات قتالية -**جمهورية ديمقراطية، ومصادرة أراضي الملاكــين النبلاء، ويوم العمل المؤلف من ٨ ساعات**- كانت تسمى آنذاك "**ركائز" البلشفية الثلاث**، وفي ذلك إشارة إلى "الركائز" التــي تقول المعتقدات الشعبية أن الكرة الأرضية ترتكز عليها.

وكان حل مسألة إمكانية تحقيق الديكتاتورية الديمقراطية للعمال والفلاحين مرتبطًا بمسألة أخرى هــي: قــدرة الطبقــة الفلاحية على إنجاز ثورتها الخاصة، أي إقامة سلطة جديدة مستعدة لتصفية الملكية والأملاك الزراعية للنبلاء. ومن المؤكــد أن شعار الديكتاتورية الديمقراطية يفترض أيضًا أن يشترك الممثلون العماليون في الحكومة الثورية. ولكن هذه المــشاركة محــددة مسبقًا بدور البروليتاريا -كحليف يساري- خلال حل معضلات الثورة الفلاحية.

وهكذا لم تكن الفكرة الشعبية المعترف بها رسميًّا، والخاصة بسيطرة البروليتاريا داخل الثورة الديمقراطية، تعنــي فــي هذه الحالة شيئًا، سوى أن على الحزب العمالي مساعدة الفلاحين بأسلحة سياسية من ترســانته، وإرشــادهم لأفــضل الطــرق والأساليب اللازمة لتصفية المجتمع الإقطاعي، وتعليمهم كيفية تطبيق هذه الأساليب. وعلى كل حال، فإن مــا قيــل عــن دور البروليتاريا القيادي في الثورة البرجوازية لم يكن يعني أبدًا أن على البروليتاريا أن تستخدم الانتفاضة الفلاحية، والاستناد إلــى الفلاحين بغية طرح مهماتها التاريخية الخاصة المتمثلة في الانتقال مباشرة إلى المجتمع الاشتراكي. وكانت سيطرة البروليتاريــا داخل الثورة الديمقراطية تتميز بوضوح عن ديكتاتورية البروليتاريا، وتتعارض معها خلال المناقشات. هذه هي الأفكــار التــي تثقف الحزب البلشفي على هديها منذ عام ١٩٠٥.

وتجاوزت مسيرة ثورة فبراير (شباط) الفعلية مخطط البلشفية المعهود. صحيح أن الثورة أنجزت بفضل تحالف العمــال والفلاحين. ولم يبدل اشتراك الفلاحين في الثورة برداء الجنود أي شيء من طبيعة الأمــر. وكــان بوســع الجــيش الفلاحــي القيصري أن يلعب دورًا هامًا حاسمًا حتى لو أن الثورة اندلعت في زمن السلم. ومن الطبيعي جدًا، أن ظروف الحرب جعلــت الجيش الذي يضم عدة ملايين من الرجال يخفي الطبقة الفلاحية في بداية الأمر. وما أن انتصرت الانتفاضة حتى غــدا العمــال

والجنود سادة الموقف. وهذا ما جعل الكثيرون يعتقدون أن بوسعهم القول بأن الديكتاتورية الديمقراطية للعمال والفلاحين قد تحققت.

ولكن ثورة فبراير (شباط) أقامت في الحقيقة حكومة برجوازية، كانت سلطة الطبقات الحاكمة فيها محدودة بسلطة سوفييتات العمال والفلاحين التي لم تأخذ حجمها الصحيح المطلوب. وبدت الصور كلها مشوشة. وبدلاً من الديكتاتورية الثورية، أي من السلطة المركَّزة، ظهر نظام مترهل مزدوج السلطات، تستهلك الأوساط الحاكمة فيه قدرتها الواهنة دون جدوى لتجاوز الصعوبات الداخلية. ولم يكن أحد قد توقَّع مثل هذا النظام. ولكننا لا نستطيع أن نتطلب من التوقُّع أن لا يكتفي بتحديد الميول الأساسية للتطور فحسب، بل أن يحدد أشكال اختلاطها وتوافقها الافتراضية أيضًا. ولقد سأل لينين فيما بعد "من ذا الذي استطاع إنجاز ثورة كبيرة جدًا، وهو يعلم مسبقًا كيف ينجزها حتى النهاية؟ وأين يمكن أن يتلقى المرء مثل هذا العلم؟ إنه غير موجود في بطون الكتب. وليس هناك كتب لهذا الغرض. إن قرارنا لم يولد إلا من تجربة الجماهير".

ولكن الفكر البشري محافظ بطبعه، ويبدو فكر الثوريين في بعض الحالات أشد محافظة. لذا تابعت الكوادر البلشفية تمسكها بالمخطط القديم. ولم تعتبر ثورة فبراير (شباط) -رغم أنها تضم نظامين عاجزين عن التعايش- إلا كمرحلة أولى من مراحل الثورة البرجوازية. وفي نهاية مارس (آذار) بعث ريكوف من سيبريا إلى البرافدا برقية باسم الاشتراكيين - الديموقراطيين هنأ بها على انتصار "الثورة الوطنية" التي كانت مهمتها "تحقيق الحرية السياسية". وكان جميع الزعماء البلاشفة بلا استثناء يعتبرون أن الديكتاتورية الديمقراطية أمر مرهون بالمستقبل. وعندما "تستنزف" الحكومة البرجوازية المؤقتة نفسها، ستظهر الديكتاتورية الديمقراطية للعمال والفلاحين، كتمهيد لنظام نيابي بورجوازي.

وكان هذا التوقع خاطئًا تمامًا؛ إذ لم يكن النظام المنبثق عن ثورة فبراير (شباط) يعد لديكتاتورية ديمقراطية، بل كان على العكس دليلاً حيًّا كاملاً على استحالة إقامة مثل هذه الديكتاتورية بصورة عامة. ويظن البعض خطأ أن الديمقراطية التوفيقية نقلت السلطة إلى الليبراليين عن طريق الصدفة، أو بسبب حماقة كرنسكي وذكاء تشخيدزه المحدود. ولا أدل على خطأ هذا الظن من قيام الديمقراطية التوفيقية خلال ٨ أشهر بصراع عنيف يستهدف تدعيم الحكومة البرجوازية، وسحق العمال والفلاحين والجنود، وانتقالها في ٢٥ أكتوبر (تشرين الأول) إلى مركز حليف البرجوازية ومحاميها. بَيْد أنه كان من الواضح منذ البداية، أن قيام الديمقراطية بالتخلي عن السلطة رغم مهماتها الضخمة، وتمتعها بدعم الجماهير غير المحدود، لم يكن ناجمًا عن مبادئ ومعتقدات وأفكار سياسية مسبقة، بل عن الوضع اليائس الذي تعيشه البرجوازية الصغيرة داخل المجتمع الرأسمالي، وفي زمن الحرب والثورة بصورة خاصة، أي عندما تقرر المسائل الأساسية المتعلقة بوجود البلاد، والشعوب، والطبقات. وعندما سُلم الصولجان لميليوكوف، قالت البرجوازية الصغيرة، كلا، إن هذه المهمات أكبر من قواي.

أما الطبقة الفلاحية التي رفعت الديمقراطية التوفيقية، فإنها تحتوي بشكل بدائي على كافة طبقات المجتمع البورجوازي. وشكَّل الفلاحون مع البرجوازية الحضرية الصغيرة التي لم تلعب في روسيا أي دور جدي، المادة التي تمايزت فيها الطبقات الجديدة في الماضي، ولا تزال تتمايز في الوقت الحاضر. ومن المعروف أن للطبقة الفلاحية وجهين: تدير **أحدهما** للبروليتاريا، وتتجه **بالآخر** نحو البرجوازية. ولكن الموقف الوسطي، المتردد، التوفيقي الذي تقفه الأحزاب الفلاحية، من نوع الحزب الاشتراكي - الثوري، عاجز عن الصمود إلا في ظروف الخمول السياسي. وما أن تأتي الحقبة الثورية حتى تجد البرجوازية الصغيرة نفسها مضطرة إلى الاختيار. ولقد حدد المناشفة والاشتراكيون - الثوريون موقفهم منذ الساعة الأولى. وقتلوا "الديكتاتورية الديمقراطية" وهي في حالتها الجنينية؛ بغية منعها من أن تكون نقطة انطلاق نحو ديكتاتورية البروليتاريا. ولكن عملهم هذا فتح طريقًا آخر أمام هذه الديكتاتورية، ولم يكن هذا الطريق يمر من خلالهم، بل ضدهم.

وما كان بوسع الثورة المقبلة أن تنطلق اعتمادًا على المخططات القديمة بل على الأحداث والأوضاع الجديدة. وسارت الجماهير تحت قيادة ممثليها، بنصف وعي، وبنصف رغبة، نحو آلية ازدواجية السلطة. وكان عليها أن تمر عبر هذا السبيل حتى تلاحظ بالتجربة أن هذه الآلية عاجزة عن إعطائها السلام أو الأرض. عندها أصبح رفض نظام السلطة المزدوجة يعني بالنسبة للجماهير قطع علاقاتها مع المناشفة والاشتراكيين - الثوريين. ولكن من المؤكد أن تحول العمال والجنود سياسيًّا نحو البلاشفة، وقلب بناء السلطة المزدوجة كله، لم يعد يعني سوى إقامة ديكتاتورية البروليتاريا المبنية على تحالف العمال والفلاحين. وكانت هزيمة الجماهير الشعبية تعني قيام ديكتاتورية رأس المال العسكرية على أنقاض الحزب البلشفي. وكانت "الديكتاتورية الديمقراطية" مستبعدة في كلتا الحالتين. وكان التفات البلاشفة بأنظارهم إليها يعني الاتجاه نحو شبح من أشباح الماضي. هكذا وجد لينين البلاشفة عندما جاء حاملاً فكرته التي لا تتزعزع عن ضرورة دفع الحزب للسير على سبيل جديد.

والحقيقة أن لينين نفسه لم يستبدل صيغة الديكتاتورية الديمقراطية بصيغة أخرى، ولو بصورة شرطية أو افتراضية، حتى بداية ثورة فبراير (شباط). فهل كان هذا صحيحًا؟ إننا نرى بأن ذلك غير صحيح. ولقد أدَّت الأحداث التي جرت في الحزب بعد الانتفاضة إلى كشف تأخر خطير في إعادة التسليح الفكري، الذي لم يكن أحد غير لينين قادرًا على القيام به في تلك الظروف. واستعد لينين لهذا الأمر. وحمَّى فولاذه حتى الاحمرار وغمره في نار الحرب. وتبدل في نظره الأفق العام للتطور التاريخي. وقربت هزات الحرب بشدة احتمالات اندلاع الثورة الاشتراكية في الغرب. ورأى لينين أن الثورة الروسية لا تزال ديمقراطية، وأن عليها أن تعطي دفعة للثورة الاشتراكية في أوروبا، التي لن تلبث أن تأخذ روسيا المتخلفة في دوامتها العنيفة. هكذا كان مفهوم لينين العام عندما ترك زوريخ. وتقول رسالة الوداع التي وجهها إلى العمال السويسريين ما يلي: "إن روسيا بلد فلاحي، وهي من أكثر بلاد أوربا تخلفًا. ولا تستطيع الاشتراكية الانتصار فيها مباشرة أو دفعة واحدة. ولكن طبيعة البلاد الريفية، ووجود مساحات واسعة من الأراضي بين أيدي الملاكين النبلاء قادران على الإفادة من تجربة عام ١٩٠٥، وإعطاء الثورة الديمقراطية - البرجوازية الروسية دفعة رائعة. وجعل ثورتنا الروسية مقدمة ثورة اشتراكية عالمية، ودرجة للوصول إلى هذه الثورة". وبهذا يكون لينين قد كتب لأول مرة بأن من المحتمل أن تبدأ البروليتاريا الروسية الثورة الاشتراكية.

هذه هي نقطة الاتصال بين موقف البلشفية القديم الذي يقتصر على إعطاء الثورة أهدافًا ديمقراطية، وموقف لينين الجديد الذي طرح أمام الحزب ولأول مرة في ٤ إبريل (نيسان). وبدا احتمال الانتقال المباشر إلى ديكتاتورية البروليتاريا أمرًا مفاجئًا غير منتظر، يخالف التقاليد المعهودة. ولا يستطيع الدخول إلى الأدمغة. وهنا لا بُدَّ لنا من أن نذكر بأن ما سُمي بالتروتسكية حتى اندلاع ثورة فبراير (شباط) وفي الأيام الأولى التي تلتها، لم يكن يتعلق بالفكرة القائلة بأن بناء الاشتراكية داخل الحدود الروسية الوطنية أمر غير ممكن (إذ لم تطرح "إمكانية" مثل هذا البناء من قبل أي شخص حتى عام ١٩٢٤، وليس من المحتمل أن تكون قد خطرت قبل هذا التاريخ على بال أي إنسان)، وكانت التروتسكية آنذاك تعني الفكرة القائلة بأن بوسع البروليتاريا الروسية الوصول إلى السلطة قبل البروليتاريا الغربية، ويتعذر عليها في مثل هذه الحالة البقاء داخل إطار الديكتاتورية الديمقراطية، ولا بُدَّ لها من البدء بأخذ التدابير الاشتراكية. وليس من الغريب في هذه الحالة أن ترفض أفكار إبريل، على اعتبارها أفكار قريبة من التروتسكية.

وتطورت اعتراضات "البلاشفة القدامى" على عدة خطوط. ودار الجدل الأساسي لمعرفة ما إذا كانت الثورة الديمقراطية البرجوازية قد أنجزت تمامًا أم لا. ولكن عدم انتهاء الثورة الزراعية جعل خصوم لينين قادرين على الادعاء بأن الثورة الديمقراطية لم تصل بعد إلى نهايتها. وكانوا يستنتجون من ذلك، بأنه لم يحن الأوان بعد لإقامة ديكتاتورية البروليتاريا، حتى لو أن الشروط الاجتماعية في روسيا تسمح بإقامة هذه الديكتاتورية في وقت قريب نسبيًّا. هكذا طرحت البرافدا المسألة في مقال أتينا على ذكره من قبل. ثم كرر كامنييف في مؤتمر إبريل (نيسان) ما يلي: "يخطئ لينين عندما يقول بأن الثورة الديمقراطية -

البرجوازية قد أنجزت ... ولم يُصف حتى الآن وجود الإقطاعية التقليدية، أي ملكية النبلاء الزراعية ... ولم تتحول الدولة إلى مجتمع ديموقراطي ... ولم يحن الوقت بعد للقول بأن الديمقراطية البرجوازية قد استنزفت كل إمكاناتها".

ورد تومسكي على لينين بقوله: "إن الديكتاتورية الديمقراطية قاعدتنا ... وعلينا أن ننظم سلطة البروليتاريا والفلاحين. وأن نميز هذه السلطة عن الكومونة التي كانت السلطة فيها للبروليتاريا".

وأضاف ريكوف: إن أمامنا مهام ثورية واسعة. ولكن تنفيذ هذه المهام لا ينقلنا إلى ما بعد إطار النظام البورجوازي".

ومما لا شك فيه أن لينين كان يرى كمعارضيه أن الثورة الديمقراطية لم تنجز بعد. أو أنها بدأت ثم أخذت تتراجع إلى الخلف. ومن هنا انبثقت الفكرة القائلة بأن إنجازها حتى النهاية لا يتم إلا تحت سيطرة طبقة جديدة، وأن الوصول إلى هذا الغرض متعذر قبل انتزاع الجماهير من سيطرة المناشفة والاشتراكيين - الثوريين، أي من السيطرة غير المباشرة للبرجوازية الليبرالية. ويرتبط هذان الحزبان مع العمال. ومع الجنود بصورة خاصة، برباط ينبع من فكرة الدفاع: "الدفاع عن البلاد" أو "الدفاع عن الثورة"؛ لذا طالب لينين بسياسة حاسمة ضد كل مظاهر الاشتراكية - الوطنية على مختلف درجاتها. وانتزاع الحزب من الجماهير المتخلفة، بغية العمل بعد ذلك على تخليص هذه الجماهير من تخلفها. وكرر لينين: "لا بُدَّ من التخلي عن البلشفية القديمة. ومن الضروري فصل خط البرجوازية الصغيرة عن خط البروليتاريا العاملة بالأجر".

وإذا نظرنا إلى الأمور نظرة سطحية اعتقدنا بأن الخصوم القدماء تبادلوا أسلحتهم؛ إذ أصبح المناشفة والاشتراكيون - الثوريون يمثلون غالبية العمال والجنود، وكأنهم نفَّذوا حقًا تحالف البروليتاريا السياسي مع الفلاحين. ذلك التحالف الذي تبناه البلاشفة دائمًا ضد المناشفة. وها هو لينين يطالب بانتزاع الطبقة البروليتارية من هذا التحالف. والحقيقة أن كل حزب من الحزبين بقي مخلصًا لنفسه؛ إذ كان المناشفة يرون على عادتهم بأن مهمتهم هي دعم البرجوازية الليبرالية. وكان تحالفهم مع الاشتراكيين - الثوريين وسيلة لتوسيع هذا الدعم وتقويته. على حين كانت قطيعة الطليعة البروليتارية مع الكتلة البرجوازية الصغيرة، تعني إعداد تحالف العمال والفلاحين تحت قيادة الحزب البلشفي، أي ديكتاتورية البروليتاريا.

وظهرت اعتراضات أخرى مبنية على حالة التخلف السائدة في روسيا. وكانت اعتراضات ريكوف في مؤتمر إبريل (نيسان) مبنية على ما يلي: "إن سلطة الطبقة العمالية تعني الانتقال حتمًا إلى الاشتراكية. ولكن اقتصاد روسيا وثقافتها غير ناضجين أو مؤهلين لهذا الانتقال. ومن الضروري دفع الثورة الديمقراطية إلى أبعد مدًى. واندلاع الثورة الاشتراكية في الغرب، شرط أساسي لإقامة ديكتاتورية البروليتاريا في بلادنا. ومن المؤكد أن لينين لم يكن ينكر ذلك. وكان يعتبر عدم كفاية الظروف الثقافية والاقتصادية لبناء المجتمع الاشتراكي في روسيا أمرًا محسومًا و"ألف باء" سياسته. ولكن المجتمع لا يسير بهذا الشكل الجامد، ولا تأتي اللحظة المناسبة لديكتاتورية البروليتاريا تمامًا في لحظة وصول الظروف الاقتصادية والثقافية إلى النضج اللازم للاشتراكية. ولو كان تطور الإنسانية يتم بمثل هذا الانتظام لما كان هناك ضرورة للديكتاتورية أو للثورة بصورة عامة. وكل ما في الأمر أن المجتمع التاريخي الحي مجتمع غير منسجم، ويزداد وضوح هذه الظاهرة كلما جاء تطوره متأخرًا. ويظهر عدم الانسجام هذا في أن البرجوازية في بلد متخلص كروسيا وصلت إلى التحلل قبل انتصار النظام البورجوازي بشكل كامل، وفي أن البروليتاريا هي البديل الوحيد الذي لا بُدَّ أن يحل محلها في قيادة الأمة. إن الحالة الاقتصادية المتخلفة في روسيا لا تعفي الطبقة العمالية من واجب القيام بالمهمة الملقاة على عاتقها، ولكنها تضع أمام هذا التنفيذ صعوبات جسيمة. لقد أكد ريكوف أكثر من مرة على أن الاشتراكية ستأتي من البلاد المتقدمة صناعيًّا، ورد عليه لينين ردًا بسيطًا وكافيًا، "لا يمكن القول من ذا الذي سيبدأ، ومن سيُنجز".

* * *

في عام ١٩٢١، وعندما لم يكن الحزب قد أخضع بصورة بيروقراطية، لجأ هذا الحزب إلى تحديد ماضيه وإعداد مستقبله بحرية كبيرة. ويتساءل أولمينسكي، البلشفي القديم الذي شارك في إدارة صحافة الحزب في مختلف مراحل تطورها، كيف سار الحزب على سبيل انتهازي في لحظة ثورة فبراير (شباط). وماذا سمح له بعد ذلك أن يندفع بمثل هذه الشدَّة نحو طريق أكتوبر (تشرين الأول)؟ ويرى هذا البلشفي، أن منابع أخطاء مارس (آذار) كامنة في أن الحزب "أطال أكثر مما ينبغي" توجهه نحو الديكتاتورية الديمقراطية. ويقول أولمينسكي: "أن الثورة القائمة لا يمكن أن تكون سوى ثورة برجوازية ... لقد كان هذا الحكم إجباريًا لكل أعضاء الحزب، وكان يمثل الرأي الرسمي للحزب، وشعاره الدائم الذي لا يتبدل حتى ثورة فبراير (شباط) ١٩١٧، بل وبعد اندلاعها بفترة أيضًا".

ولو شاء أولمينسكي تأكيد أقواله، لكان بوسعه أن يذكر بأن البرافدا كتبت في ٧ مارس (آذار) -أي قبل التعديلات التي أجراها ستالين وكامنييف عليها، وعندما كانت تخضع لهيئة تحرير "يسارية" تضم أولمينسكي نفسه- القول التالي، وكأنه أمر بديهي: "من المؤكد أن مسألة سقوط سيطرة رأس المال لم تطرح حتى الآن من قبلنا. ويتعلق الأمر بسقوط الحكم الفردي والإقطاع ..."، وهكذا أدَّى ضيق الأفق وقصر مداه إلى وقوع الحزب في مارس (آذار) أسيرًا للديمقراطية البرجوازية. ويتساءل أولمينسكي: "فمن أين جاءت ثورة أكتوبر (تشرين الأول)؟ وكيف أجمع الحزب من الزعماء إلى مناضلي القاعدة "فجأة" على التخلي عما اعتبروه حقيقة ثابتة لا تتزعزع خلال حوالي عشرين سنة؟".

ويطرح سوخانوف السؤال نفسه بأسلوب آخر هو أسلوب الخصم فيقول: "كيف، وبأية الوسائل استطاع لينين الانتصار على البلاشفة؟" والحقيقة أن انتصار لينين داخل الحزب لم يكن كاملاً فحسب، بل تم تحقيقه خلال فترة جد قصيرة. وتحدث الخصوم عن هذا الأمر بكل سخرية، مشيرين إلى النظام الفردي في الحزب البلشفي. ويرد سوخانوف على سؤاله بنفسه وبأسلوب لا يختلف عن الأسلوب الذي بدأ به فيقول: "لقد كان لينين العبقري سلطة تاريخية، وهذا جانب من المسألة. وبالإضافة إلى ذلك فإننا إذا استثنينا لينين، وجدنا أنه ليس في الحزب البلشفي أي شخص أو أي شيء. إن عددًا من القادة الكبار بلا لينين لا يساوون شيئًا، إنهم كالكواكب بلا شمس (ولن أتطرق في حديثي الآن إلى تروتسكي الذي لم يكن آنذاك قد انضم إلى صفوف الحزب)". وتحاول هذه السطور الغريبة تفسير تأثير لينين وإرجاع هذا التأثير إلى سلطته الشخصية، تمامًا مثلما يفسر تأثير الأفيون وقدرته على التنويم بما يحتويه من خصائص منومة. ولكن مثل هذه التفسيرات لا تذهب إلى مدى بعيد.

لقد كان تأثير لينين الفعلي داخل الحزب كبيرًا بشكل لا جدال فيه، ولكنه لم يكن بلا حدود. ولم يصل هذا التأثير إلى حدود السلطة التي لا مرد لها حتى فيما بعد، أي حتى بعد أكتوبر (تشرين الأول)، عندما تزايدت سلطة لينين بشكل غير معهود، لأن الحزب عرف قوته وسط خضم الأحداث العالمية. وهذا ما يزيد من خطأ كل تفسير يعتمد على الإشارة إلى سلطة لينين الشخصية في إبريل (نيسان) ١٩١٧، عندما كانت قيادات الحزب تقف في موقع معارض لموقفه.

ويقترب أولمينسكي من حل المعضلة أكثر من غيره عندما يؤكد بأن الحزب كان يطرح صيغة الثورة الديمقراطية - البرجوازية، ولكن سياسته المضادة للبرجوازية والديمقراطية كانت تعني أنه استعد فعليًا ومنذ زمن طويل، لاستلام قيادة البروليتاريا في صراع مباشر من أجل الاستيلاء على السلطة. ويقول أولمينسكي "لقد توجهنا جميعًا (أو عدد كبير منا على الأقل) نحو الثورة البروليتاريا من دون وعي، وكنا نعتقد آنذاك أننا نسير نحو الثورة الديمقراطية - البرجوازية. أي أننا كنا نعد ثورة أكتوبر (تشرين الأول) وكلنا اعتقاد بأننا نعد ثورة فبراير (شباط)". وهذا تعميم ثمين إلى حد بعيد، كما أنه شهادة لا تقبل النقض!

واشتملت التوعية السياسية للحزب على عنصر من عناصر التناقض، وجد التعبير الصادق عنه في الصيغة المبهمة الغامضة الخاصة "بالديكتاتورية الديمقراطية" للبروليتاريا والفلاحين. ولقد تحدثت إحدى المندوبات في المؤتمر عن تقرير لينين، فعبَّرت عن فكرة أولمينسكي بشكل مبسط عندما قالت: "لقد كان توقع البلاشفة خاطئًا، على حين كان التكتيك صحيحًا".

وفي "أفكار إبريل" التي بدت غير مألوفة، رفض لينين الصيغة القديمة، معتمدًا على التقليد الحي للحزب والمتمثل في: عدم المصالحة مع الطبقات الحاكمة، ومعاداة كل أنواع المراوغة والخداع، على حين كان "البلاشفة القدامى" يضعون الذكريات -التي ذهبت إلى المصنفات رغم حداثتها- مقابل التطور الملموس للصراع الطبقي. وكان لينين يستند إلى ركيزة متينة أعدها تاريخ الصراع الطويل بين البلاشفة والمناشفة.

وهنا لا بُدَّ أن نذكر بأن البرنامج الرسمي للاشتراكية الديمقراطية بقي حتى تلك الفترة برنامجًا مشتركًا بين البلاشفة والمناشفة. وأن المهمات العملية للثورة الديمقراطية كانت تظهر على الورق متماثلة لدى الحزبين. ولكنها لم تكن متماثلة في التنفيذ العملي؛ إذ أخذ العمال البلاشفة المبادهة بعد الانتفاضة مباشرة، وبدأوا النضال في سبيل يوم العمل المؤلف من ٨ ساعات. واعتبر المناشفة أن هذا المطلب سابق لأوانه. وقاد البلاشفة عمليات توقيف الموظفين القيصريين، وعارض المناشفة كل "تطرف". وخلق البلاشفة المليشيا العمالية بحماس واندفاع، على حين عرقل المناشفة تسليح العمال حتى لا يسيئوا إلى علاقتهم مع البرجوازية. وتصرف البلاشفة، أو حاولوا التصرف على الأقل كثوريين متشددين، رغم تعثر قياداتهم وانحرافاتهم، بينما كان المناشفة يضحون بالبرنامج الديموقراطي في كل خطوة لصالح التحالف مع الليبراليين. ووجد كامنييف وستالين أنهما بدون حلفاء من الديموقراطيين، فأحسوا بأن الأرض تميد تحت أقدامهما.

ولم يكن صراع لينين مع قيادة الحزب في إبريل (نيسان) الصدام الوحيد من نوعه. فإذا أخذنا تاريخ البلشفية كله، باستثناء فترات محدودة استثنائية تؤكد القاعدة، وجدنا أن كافة الزعماء وقفوا في لحظات التطور الأساسية على يمين لينين. فهل كان هذا صدفة؟ كلا! لقد غدا لينين زعيم أكبر حزب ثوري في التاريخ العالمي لأن فكره وإرادته كانا على مستوى الإمكانيات الثورية الضخمة للبلاد والعصر. وكان البعض يقلون عنه ببضعة سنتيمترات، أو ضعف ذلك، أو أكثر بكثير.

وكنت معظم قيادات الحزب البلشفي تقريبًا خارج العمل الفعلي خلال الأشهر والسنوات التي سبقت الانتفاضة. ولقد حمل الكثيرون معهم إلى السجون والمنفى الانطباعات الثقيلة للأشهر الأولى من الحرب، وأحسوا بانهيار الأممية وهم منعزلون أو يعيشون داخل مجموعات صغيرة. وكانوا إذا ما عاشوا داخل صفوف الحزب يشعرون بتجاوب كافٍ إزاء الأفكار الثورية - وهذا ما كان يربطهم بالبلشفية- ولكن ما أن يجدوا أنفسهم منعزلين حتى يفقدوا القدرة على مقاومة ضغط الوسط المحيط بهم، ويعجزوا عن إعطاء تقييم ماركسي للأحداث. وبقيت المحركات الرائعة التي تمت داخل الجماهير في سنتين ونصف من الحرب بعيدة عن حقل مراقبتهم. ولم تنتزعهم الانتفاضة من عزلتهم فحسب، بل رفعتهم إلى السلطة وأعلى مراكز الحزب أيضًا. وكانت عقلية هذه العناصر تتجاوب غالبًا مع أنتليجنسيا "زيميرفالد" أكثر من تجاوبها مع العمال الثوريين في المصانع.

ومن المؤكد أن "البلاشفة القدامى" الذين كانوا يشيرون في أبريل (نيسان) ١٩١٧ بكل تبجح إلى صفتهم كمناضلين قدماء غدوا معرضين لهزيمة محققة، لأنهم كانوا يدافعون عن عنصر من عناصر تقاليد الحزب لم يعد يصمد أمام تجربة التاريخ. ولقد قال كالينين مثلاً في مؤتمر بتروغراد المنعقد في ١٤ إبريل (نيسان): "إنني من البلاشفة – اللينينيين القدامى، وأعتقد بأن اللينينية القديمة لم تثبت عجزها حتى هذه اللحظة. واستغرب أن يُعلن لينين بأن البلاشفة القدامى غدوا مزعجين في اللحظة الحاضرة". ولقد سمع لينين في هذه الأيام كثيرًا من الاتهامات المشابهة. ولكن قطيعة لينين مع صيغة الحزب التقليدية لم تمنعه من أن يكون "لينينيًّا". لقد ألقى رداء البلشفية المهترئ لينادي نواتها إلى حياة جديدة.

وللصراع ضد البلاشفة القدامى، وجد لينين الدعم في شريحة أخرى داخل الحزب. وكانت شريحة تمرَّست منذ أمد قريب ولكنها أكثر من الطبقة السابقة حيوية وأشد اتصالاً بالجماهير. ونحن نعلم أن العمال البلاشفة لعبوا في انتفاضة فبراير (شباط) دورًا حاسمًا. ورأوا أن من الطبيعي أن تستولي على السلطة الطبقة التي حققت النصر. واحتج هؤلاء العمال بشدة على خط كامنييف - ستالين، وهدد حي فيبورغ بطرد بعض "الزعماء" من الحزب. وظهر الوضع بشكل مشابه في المقاطعات. ووجد في كل مكان بلاشفة يساريون متهمون بالتطرف الذي يصل إلى حدود الفوضوية. ولم يكن ينقص العمال الثوريين سوى الحجج النظرية اللازمة للدفاع عن مواقفهم. ولكنهم كانوا على استعداد للتجاوب مع أول نداء مفهوم.

واتجه لينين نحو هذه الشريحة العمالية التي وقفت على قدميها خلال مد فترة ١٩١٢ - ١٩١٤. وفي بداية الحرب، سددت الحكومة للحزب ضربة قوية، وسحقت المجموعة البلشفية في مجلس الدوما، فتحدث لينين عن العمل الثوري المقبل، ونادى أولئك الذين ثقفهم الحزب "وستظهر كوادر القياديين الجديدة رغم كل الصعوبات من بين آلاف العمال الواعين"، صحيح أن لينين كان مفصولاً عنهم بجبهتين، ولا يقيم معهم أي اتصال تقريبًا، ولكنه لم يكن يبتعد في قرارة نفسه عنهم. "وحتى لو تحطموا بشكل يزيد خمس أو عشر مرات بسبب الحرب، والسجن، وسيبريا، والمنفى! فإن من المتعذر تدمير هذه الشريحة. إنها حية. إنها مشبعة بالروح الثورية والروح المضادة للشوفينية". وكان لينين يعيش بفكره كافة الأحداث التي يعيشها هؤلاء العمال البلاشفة. ويجد معهم الاستنتاجات الضرورية، ولكنه كان يجدها بشكل أكثر جرأة وأشد اتساعًا. وعندما أراد لينين مجابهة تردد زعماء الحزب ومجموعة ضباطه، اعتمد بكل ثقة على ضباط الصف في الحزب نفسه، لأنهم كانوا يمثلون العامل البلشفي القاعدي بشكل أفضل.

وتعود قوة الاشتراكيين - الوطنيين المؤقتة، والضعف الخفي لجناح البلاشفة الانتهازيين إلى أن الاشتراكيين - الوطنيين كانوا يستندون إلى أحكام الجماهير المسبقة وأوهامها الحالية، على حين كان جناح البلاشفة الانتهازيين يحاول التلاؤم مع هذه الأحكام والأوهام. وتكمن قوة لينين الطاغية بأنه فهم المنطق الداخلي للحركة، ونظم سياستها وفق هذا المنطق. إنه لم يفرض سياسته على الجماهير، ولكنه ساعدها على وضع وتنفيذ خططها الخاصة. ولقد أعاد لينين كل معضلات الثورة إلى مسألة واحدة "الشرح بصبر" وهذا يعني رفع وعي الجماهير إلى مستوى الوضع الذي دُفعت إليه بحكم مسار التطور التاريخي. وكان على العامل أو الجندي الذي أصابته سياسة التوفيقيين بخيبة أمل أن ينتقل إلى موقف لينين دون التوقف في المرحلة الوسطية لكامنييف ستالين.

وما أن ظهرت صيغ لينين، حتى سلطت أمام البلاشفة ضوءًا جديدًا على تجربة الشهر الماضي وتجربة كل يوم جديد. وظهر في وسط جماهير الحزب العريضة اتجاه يقول: إلى اليسار! إلى اليسار! نحو أفكار لينين.

ويقول زاليجسكي: "وأعلنت المناطق الواحدة تلو الأخرى عن تأييدها، وما أن عقد مؤتمر الحزب لعموم روسيا في ٢٤ إبريل (نيسان) حتى أعلن تنظيم بتروغراد بأسره عن وقوفه إلى جانب الأفكار".

وهكذا ابتدأ الصراع في سبيل إعادة تسليح الحزب في مساء ٣ إبريل (نيسان)، لينتهي مع نهاية الشهر[٢]. واعتبر مؤتمر الحزب المنعقد في بتروغراد خلال الفترة الواقعة بين ٢٤ و٢٩ إبريل (نيسان) أن مارس (آذار) كان شهر الترددات الانتهازية. وأن إبريل (نيسان) هو شهر الأزمة الحادة. وكان عدد الحزب قد تزايد في هذه الحقبة، وارتفع مستواه السياسي بشكل ملحوظ. وكان ١٤٩ مندوبًا يمثلون ٧٩ ألف عضو حزبي منهم ١٥ ألفًا في بتروغراد وحدها. فإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن هذا الحزب كان بالأمس غير شرعي، وغدا اليوم حزبًا مضادًا للفكرة الوطنية الشوفينية، وجدنا أن عدده كبير وهام. ولقد ردد لينين هذه

الفكرة أكثر من مرة بلهجة تنم عن الرضا، وتحددت طبيعة المؤتمر السياسية عند انتخاب أعضاء المكتب الخمسة؛ إذ لم ينتخب في هذا المكتب كل من كامنييف وستالين، أكبر صنَّاع أخطاء إبريل (نيسان).

وبالرغم من حسم المسألة المطروحة على بساط البحث داخل الحزب بمجمله، فقد بقي عدد من الزعماء المرتبطين بموقف الأمس في مواقعهم. ووقفوا في المؤتمر موقف المعارضة أو نصف المعارضة من لينين. وحافظ ستالين على الصمت، وبقي في وضع المراقبة. وتحدث دزيرجينسكي باسم "عدد كبير" من الرفاق الذين "لا يوافقون مبدئيًّا على أفكار صاحب التقرير"، وطالب بسماع رأي "الرفاق الذين عاشوا معنا أحداث الثورة بصورة عملية". وكان في هذا القول إشارة واضحة إلى أن منبع أفكار لينين كامن في وجوده بعيدًا عن البلاد. وقدم كامنييف إلى المؤتمر تقريرًا يدعو فيه إلى الديكتاتورية الديمقراطية - البرجوازية. وحاول ريكوف، وتومسكي، وكالينين البقاء بشكل أو آخر في المواقف التي أخذوها خلال شهر مارس (آذار). ودافع كالينين عن فكرة الوحدة مع المناشفة بغية الصراع ضد الليبرالية. وألقى سميدوفيتش -وهو أحد المناضلين المشهورين- في موسكو خطابًا ضمنه عددًا من الشكاوي: "حيثما توجهنا رفع الناس ضدنا شبحًا مرعبًا هو أفكار الرفيق لينين". حقًا لقد كانت الحياة أشد يسرًا عندما كان البلاشفة يصوتون إلى جانب مقررات المناشفة.

لقد كان دزيرجينسكي من أنصار روزا لوكسمبورغ، وهذا ما دفعه إلى الوقوف ضد حق الأمم بتقرير مصيرها، واتهام لينين بحماية الميول الانفصالية التي تضعف البروليتاريا في روسيا. وكان الرد على دزيرجينسكي هو أنه يدعم الشوفينية الروسية - العظمى، وهذا ما دفعه إلى القول: "وبوسعي أن ألومه (لينين) على وقوفه مع وجهة نظر الشوفينيين البولونيين والأوكرانيين وغيرهم"، ولم يكن هذا الحوار السياسي ليخلو من الطرافة؛ أن الروسي العظيم لينين يتهم البولوني دزيرجينسكي بشوفينية روسية - عظمى موجهة ضد البولونيين، على حين يتهمه هذا الأخير بالشوفينية البولونية. وكانت الفكرة الصحيحة في هذا الجدل كله أيضًا إلى جانب لينين. ولقد غدت سياسته الخاصة بالقوميات عنصرًا من أهم عناصر ثورة أكتوبر (تشرين الأول).

واختفت المعارضة بشكل واضح. ولم تجمع ضد الأفكار المطروحة أكثر من ٧ أصوات. وشهد المؤتمر حدثًا استثنائيًّا غريبًا يستحق الاهتمام، ويتعلق بعلاقات الحزب الأممية. ففي نهاية أعمال المؤتمر، وخلال اجتماع مساء ٢٩ إبريل (نيسان)، قدم زينوفييف باسم اللجنة مشروع قرار يقول: "سيتم الاشتراك في مؤتمر الزيميرفالديين العالمي المحدد بتاريخ ١٨ مايو (آيار)" (في ستوكهولم). وتقول محاضر جلسات المؤتمر: "وتمت الموافقة على ذلك بالإجماع باستثناء صوت واحد". وكان هذا الصوت الوحيد المعارض هو صوت لينين. فلقد طالب بقطع العلاقات مع الزيميرفالدين نظرًا لوقوف غالبيتهم نهائيًّا إلى جانب المستقلين الألمان، والمسالمين المحايدين من أمثال السويسري غريم. ولكن كوادر الحزب الروسية كانت تعتبر خلال الحرب أن فكرة زيميرفالد متطابقة مع البلشفية. ولم يكن المندوبون قد وافقوا بعد على التخلي عن تسمية الاشتراكية - الديمقراطية، كما لم يقرروا القطيعة مع زيميرفالد التي بقيت بالنسبة لهم رباطًا يصلهم بجماهير الأممية الثانية. وحاول لينين تحديد المشاركة في المؤتمر المقبل على الأقل بأهداف استعلامية. ووقف زينوفييف ضده. ولم تتم الموافقة على اقتراح لينين. عندها صوت وحده ضد مجموع القرار. ولم يدعمه أحد. وكان هذا آخر دفعة لمشاعر مارس (آذار)، وتمسك البعض بمواقف الأمس، وخشوا أن يجدوا أنفسهم "معزولين" ولم يعقد مؤتمر ستوكهولم المذكور نظرًا لخلافات زيميرفالد الداخلية التي دفعت لينين إلى القطيعة معها. وهكذا حقق الواقع العملي سياسة الامتناع عن الحضور التي رُفضت بالإجماع، باستثناء صوت واحد.

وكانت حدة الانعطاف الذي شهدته سياسة الحزب واضحة للجميع. وتحدث العامل البلشفي شميدت -الذي غدا فيما بعد مفوض الشعب للعمل- أمام مؤتمر إبريل (نيسان) فقال: "لقد أعطى لينين اتجاهًا جديدًا لطبيعة نشاط الحزب". وكتب راسكولينكوف بعد عدة سنوات، أن عمل لينين في إبريل (نيسان) ١٩١٧ "حقق ثورة أكتوبر في وعي قادة الحزب ... أن تكتيك

حزبنا لا يرسم خطًا مستقيمًا، ولقد سجل هذا التكتيك بعد قدوم لينين انعطافًا حادًا نحو اليسار". وتحدثت البلشفية القديمة لودميلاستا عن هذا الانعطاف بشكل مباشر أشد دقة عندما قالت في ١٤ إبريل (نيسان) أمام مؤتمر بتروغراد: "كان جميع الرفاق قبل قدوم لينين تائهين وسط الظلمات. ولم يكن أمامهم سوى صيغ عام ١٩٠٥. وعجزنا عن إعطاء الدروس للشعب عندما وجدناه يخلق الثورة بعفوية ... واضطر الرفاق إلى الاكتفاء بالإعداد للمجلس التأسيسي وفق أسلوب برلماني، ولم يفكروا لحظة واحدة بالاندفاع إلى أمام. والموافقة على أفكار لينين تعني أننا سنتصرف وفق متطلبات الحياة نفسها ... وليس علينا أن نخشى الكومونة، لأننا حققنا الحكومة العمالية. ولم تكن كومونة باريس عمَّالية صِرفة، بل كانت برجوازية صغيرة أيضًا".

ويمكننا أن نتفق مع سوخانوف على أن إعادة تسليح الحزب "كانت أكبر وأهم انتصار حققه لينين في أول أيام مايو (آيار)". والحقيقة أن سوخانوف كان يرى بأن لينين استبدل سلاح الماركسية خلال هذه العملية بسلاح الفوضوية.

ويبقى أمامنا سؤال هام، ولكن طرحه أسهل من الإجابة عليه: ترى كيف سيجري تطور الثورة لو لم يستطع لينين الوصول إلى روسيا في إبريل (نيسان) ١٩١٧؟ وإذا كان حديثنا السابق كله يؤكد أو يكشف شيئًا، فإننا نأمل أن يكون هذا الشيء هو أن لينين لم يكن خالق التطور الثوري ولكنه انتظم في سلسلة القوى الإيجابية، فكان حلقة كبيرة في هذه السلسلة. وجاءت ديكتاتورية البروليتاريا من الوضع كله، ولكنه كان من الضروري توجيهها. وكانت إقامتها متعذرة دون وجود حزب. ولم يكن الحزب قادرًا على تنفيذ مهمته دون فهمها. ولهذا، فقد كان لينين في تلك الفترة ضروريًّا لا غنى عنه. ولم يستطع أي زعيم بلشفي قبل حضوره إجراء تشخيص سليم للثورة. ودُفعت قيادة كامنييف - ستالين تحت ضغط الأحداث نحو اليمين، أي نحو الاشتراكيين الوطنيين. ولم تترك الثورة بين لينين والمنشفية أي مكان لمواقف وسطية. وكان الصراع الداخلي في قلب الحزب البلشفي أمرًا لا يمكن تلافيه.

ولقد عجَّل قدوم لينين بتطور الأمور. وساعد تأثيره الشخصي على تقصير مدة الأزمة. فهل يمكننا أن نقول بكل تأكيد أنه كان بوسع الحزب أن يجد سبيله بلا لينين؟ إننا لا نستطيع تقديم مثل هذا التأكيد أبدًا. والوقت هنا عامل حاسم، ويتعذر النظر إلى ساعة التاريخ بعد وقوع الأحداث. وليس بين المادية الجدلية والقدرية أي تشابه أو تقارب. ولو لم يكن لينين موجودًا لأخذت الأزمة الناجمة عن تصرفات القيادة الانتهازية شكلاً أكثر حدة وأشد طولاً. بَيْد أن ظروف الحرب والثورة كانت تضغط على الحزب، ولا تترك له فترة طويلة ينفذ فيها مهمته. ولذا فقد كان من المحتمل أن يُضيع الحزب التائه المنقسم الوضع الثوري، ويفقد الفرصة الملائمة خلال عدة سنوات. وهنا يبدو لنا دور العامل الشخصي بحجم ضخم إلى حد بعيد. ولكن علينا أن نفهم حقيقة هذا الدور، وذلك باعتبار العامل الشخصي كحلقة واحدة في السلسلة التاريخية.

وأدَّى قدوم لينين "المفاجئ"، وعودته من الخارج بعد غياب طويل، والاتهامات المتعددة التي أثارتها الصحافة حوله، وصراعه مع كافة زعماء حزبه، وانتصاره السريع عليهم، وكافة المظاهر الخارجية للأحداث، إلى تقييم يضع الفرد، البطل، العبقري في مجابهة الظروف الموضوعية، والجماهير، والحزب. والحقيقة أن هذه النقيضة لا تمثل سوى جانب واحد من الأمور.

ولم يكن لينين عنصرًا صُدفيًّا في التطور التاريخي، ولكنه كان نتاج مجمل التاريخ الروسي السابق. وكان يمد بجذوره إلى أعماق هذا التاريخ. فقد كان على اتصال بالعمال المتقدمين. وشاركهم نضالهم خلال ربع القرن الذي سبق الثورة. ولم يكن "تأثير الصدفة" قادرًا على التدخل بالأحداث، بل كان قصَّافة القش التي حاول لويد جورج أن يسد بها طريق الثورة، ولم يكن لينين يعارض الحزب من الخارج، بل كان أفضل تعبير عن هذا الحزب. وكان خلافه مع القيادات البلشفية يعني صراع ماضي الحزب مع مستقبله. ولو لم يبتعد لينين بصورة إجبارية عن الحزب بسبب شروط اللجوء والحرب، لما كانت الآلية الخارجية

للأزمة درامية بالشكل الذي جرت به، ولما أخفت إلى هذا الحد استمرارية التطور الداخلي للحزب. ولا يمكننا أن نستنتج من الأهمية الخارقة الذي أخذها مَقْدم لينين سوى أن الزعماء لا يأتون صدفة، وأن اختيارهم وإعدادهم يتطلب عشرات السنين، وأن من المتعذر استبدالهم بشكل اعتباطي، وأن إبعادهم الآلي عن الصراع يصيب الحزب بجرح دامٍ، قد يصيب هذا الحزب في بعض الحالات بشلل طويل الأمد.

الهوامش

(١) تنظيف اسطبلات أوجياس: كناية عن صعوبة العمل، وتقول الأساطير الرومانية أن هذا العمل من الأعمال الأثني عشر التي قام بها هرقل. (المعربان)

(٢) في اليوم الذي وصل به لينين إلى بتروغراد أوقف البوليس البريطاني في هاليفكس على الطرف الآخر للأطلسي ستة مهاجرين كانوا يركبون الباخرة النرويجية كريستيانيا - فجورد؛ بغية العودة إلى بلادهم وهم: تروتسكي، وتشودنوفسكي، وميلنيتشانسكي، وموخين، وفيشيليف، وورومانتشينكو. و لم يتمكن هؤلاء الأشخاص من الوصول إلى بتروغراد إلا في ٥ مايو (آيار)، وكانت إعادة تسليح الحزب فكريًّا قد انتهت بخطوطها العريضة؛ ولذا فإننا لا نرى أن من الممكن أن نذكر هنا مجملاً لأفكار تروتسكي حول الثورة، تلك الأفكار التي طرحها في صحيفة يومية كانت تصدر في نيويورك. ولكن بما أن معرفة مثل هذه الأفكار ستساعد القارئ على فهم التجمعات المقبلة داخل الحزب، والصراع الأيديولوجي في عشية أكتوبر (تشرين الأول)، فإننا نرى أن من الأفضل أن نضع الاستشهادات الخاصة بهذا المقطع على حده. ونجمعها في ملحق بآخر الكتاب. ويستطيع القارئ تجاهل هذا الملحق بكل بساطة إذا لم يكن يود الاهتمام بدراسة تفصيلات الإعداد النظري لأكتوبر (تشرين الأول). (المؤلف)

"أيام أبريل"

وفي ٢٣ مارس (آذار) دخلت الولايات المتحدة الأمريكية الحرب. وفي هذا اليوم نفسه أقامت بتروغراد مراسم ضخمة بمناسبة تشييع ضحايا ثورة فبراير (شباط). وكان الاحتفال الحزين يحمل في طياته شيئًا من المرح، ويحدد الحركة الأخيرة من سمفونية الأيام الخمسة. وحضر الجميع مراسم الدفن، وكان بين الحضور الرفاق الذين قاتلوا إلى جانب الضحايا، والأشخاص الذين نادوا بالاعتدال، وعدد ممن شاركوا بعملية قتل الضحايا، وكثير ممن أخذوا موقف المتفرج خلال الصراع كله. ووقف الطلاب، والوزراء، والسفراء، والبورجوازيون الموسرون، والصحفيون، والخطباء، وزعماء الأحزاب إلى جانب العمال، والجنود، والشرائح الدُنيا من سكان المدن.

وجاءت النُعوش الحمراء إلى ساحة مارس (ساحة الاستعراضات) بصفوف طويلة يحملها العمال والجنود. وعندما بدأ الحاضرون يوارون النعوش في الحُفر المعدة لذلك، أطلقت قلعة بطرس وبولص أول رشقة نارية تحية للضحايا، فهزت الجماهير الشعبية المحتشدة. وأرعدت المدافع بشكل مخالف للماضي: إنها مدافعنا، وتحيتنا. وحمل حي فيبورغ ٥١ نعشًا أحمر. وكان هذا العدد جزءًا من الضحايا الذين يفخر بهم الحي. ولوحظ في موكب الحي الذي كان أكثر المواكب تراصًا وكثافة عدد كبير من الرايات البلشفية المرفوفة بسلام إلى جانب بقية الرايات. ولم يبق في ساحة الاستعراض نفسها سوى أعضاء الحكومة، وأعضاء السوفييت، ونواب مجلس دوما الإمبراطورية - المُتوفي الذي يرفض بعناد إعلان مراسيم دفنه.

ومر أمام القبور خلال هذا اليوم ٨٠٠ ألف شخص على الأقل مع أعلامهم وموسيقاهم. ومرت المظاهرة بنظام رائع بالرغم من أن حسابات القيادة العسكرية العليا أكدت أن مرور مثل هذه الكتل البشرية الهائلة خلال الوقت المحدد أمر متعذر لا بُدَّ أن ينجم عنه فوضى رهيبة كارثوية. وكان لهذا الأمر دلالته بالنسبة لهذا النوع من المسيرات الثورية، التي يسيطر فيها الوعي الراضي عن نفسه نظرًا لأنه نفذ لأول مرة أعمالاً جليلة، ولم يبق عليه سوى انتظار أيام مقبلة أفضل. ولم يحافظ على النظام سوى هذه الروح، لأن التنظيم آنذاك كان محدودًا، معدوم التجربة، ولا يثق بنفسه إلى حد بعيد.

والحقيقة أن مراسم الدفن هذه أثبتت خطأ أسطورة الثورة غير الدامية. ومع هذا، فقد ساد خلال الجنازة روح نجم عنها إلى حد ما مناخ يشبه مناخ الأيام الأولى التي انبثقت منها هذه الأسطورة.

وبعد ٢٥ يومًا -حصلت السوفييتات خلال هذه الفترة على خبرة واسعة، وثقة كبيرة بنفسها- احتفلت البلاد بيوم ١ مايو (آيار) حسب التقويم الغربي (الموافق ليوم ١٨ أبريل [نيسان] حسب التقويم القديم). ونظمت كافة مدن البلاد اجتماعات ومظاهرات. وعطلت المؤسسات الصناعية، ودوائر الدولة والبلديات، والزيمستفو. وشهدت موهيليف -حيث تتمركز القيادة العليا- احتفالاً سار في مقدمته فرسان القديس جورج. وسار رتل هيئة الأركان، الذي لم يُعزل جنرالات القيصر، وهو يحمل لافتة ١ مايو (آيار). واختلط العيد البروليتاري المضاد للعسكرية مع مظاهرة وطنية مموهة تحت رداء ثوري. وحملت كل شريحة من شرائح الشعب في هذا الاحتفال عقليتها الخاصة. ولكن كافة الشرائح كانت لا تزال مختلطة مع بعضها البعض داخل مجموع لا واع، يتسم ببعض الرياء، ولكنه يشكل في نهاية المطاف موكبًا مهيبًا.

وشكَّل العمال في العاصمتين والمراكز الصناعية غالبية المحتفلين بهذا العيد. وبدت وسط جماهير العمال بكل وضوح أعلام ولافتات ورايات، وخطابات، ومطالب، تؤكد قوة التنظيمات البلشفية، وامتدت على الواجهة الواسعة لقصر ماري -مقر الحكومة المؤقتة- لافتة صارخة حمراء كتب عليها "عاشت الأممية الثالثة!". ولم تكن السلطات قد تخلَّصت بعد من خجلها

الإداري؛ لذا فإنها لم تجرؤ على انتزاع هذه اللافتة المزعجة المثيرة للقلاقل. وبدا الجميع وكأنهم في عيد. واشترك رجال الجبهة بهذا العيد حسب إمكاناتهم. وجاءت الأنباء القائلة بوجود اجتماعات وخطابات، وأعلام مرفوعة، وأغانٍ ثورية داخل الخنادق. وكان لكل هذا صداه في الجانب الألماني.

ولم تكن الحرب سائرة نحو نهايتها، ولكنها زادت على العكس حقل عملها. وفي يوم احتفالات دفن ضحايا الثورة، دخلت قطعات جديدة لتعطيها دفعة جديدة. ومع هذا فقد شهدت كافة أرجاء روسيا مواكب الاحتفالات التي تضم الجنود الروس السائرين إلى جانب أسرى الحرب من العدو، تحت راية واحدة. وكان الجنود الأسرى يغنون في بعض الأحيان النشيد نفسه بلغات مختلفة. ووسط هذه الروعة الطاغية المشابهة لسيل جارف يمسح حدود الطبقات والأحزاب والأفكار، كانت المظاهرة المشتركة للجنود الروس والأسرى النمساويين والألمان حدثًا هامًا، حافلاً بالآمال، يدفع المرء إلى التفكير بأن الثورة تحمل في أعماقها -رغم كل شيء- عالمًا أفضل.

وكما مرَّت مراسم الدفن في مارس (آذار)، مر الاحتفال بيوم ١ مايو (آيار) وسط نظام كامل، ودون عراك أو ضحايا، وكأنه احتفال "وطني" كبير، بَيْد أنه كان بوسع أي أُذن مرهفة أن تسمع بين صفوف العمال والجنود بلا عناء نغمة مشبعة بنفاذ الصبر، وبقسط من التهديد؛ إذ تزايدت صعوبات الحياة، وارتفعت الأسعار بشكل ملحوظ، وطالب العمال بالحد الأدنى من الأجور، ولكن أصحاب العمل قاوموا بإصرار، وتصاعد عدد النزاعات في المصانع بلا توقف، وتفاقم نقص المئونة، وخفضت حصة الفرد من الخبز، وغدا استلام كل شيء، بما في ذلك الجريش (ذلك الطعام الشعبي) بحاجة لبطاقة.

وتصاعدت النقمة في حامية العاصمة أيضًا. وأعدت هيئة أركان المنطقة العسكرية عمليات القمع ضد الجنود، فأبعدت عن العاصمة أفضل القطعات وأشدها ثورية. وفي ١٧ أبريل (نيسان) عُقد اجتماع عام في الموقع، وأبدى الجنود تخوفهم من المخططات المعادية، وأثاروا مسألة إيقاف خروج القطعات من العاصمة. ولقد تصاعدت قوة ظهور هذا المطلب وحدتها فيما بعد مع كل أزمة جديدة من أزمات الثورة. ولكن مصدر كل المآسي كان كامنًا في الحرب التي لا يبدو أي أثر لنهايتها. فمتى ستحمل الثورة السلام إلى الشعب؟ وبم يفكر كرنسكي وتسيريتلي؟ وأخذت الجماهير تصغي للبلاشفة بانتباه أكبر، وكان البعض يرصد حركاتهم خلال الانتظار بنصف عداء، على حين يرصد البعض تصرفاتهم بثقة. واختفى تحت انضباط الاحتفال حالة فكرية متوترة، وتغلغل التخمر بين الجماهير.

ولم يفكر أي امرئ، بما في ذلك أصحاب اللافتة المعلقة على واجهة قصر ماري، بأن رداء الوحدة الوطنية للثورة سيتمزق بعنف بعد يومين أو ثلاثة أيام. وظهرت فجأة أحداث رهيبة تصور البعض وقوعها كأمر محتوم، دون أن ينتظر اندلاعها بمثل هذه السرعة. وجاءت الدفعة هذه المرة من السياسة الخارجية للحكومة المؤقتة، أي من مسألة الحرب. ولم يقرب عود الثقاب من الفتيل سوى ميليوكوف.

وهذه هي قصة عود الثقاب والفتيل: في اليوم الذي أعلنت أمريكا به الحرب، أحس وزير خارجية الحكومة المؤقتة بالارتياح، وطرح أمام الصحفيين برنامجه: ضم القسطنطينية، وضم أرمينيا، وتقسيم النمسا، وضم شمالي إيران، والاعتراف بحق الشعوب بتقرير مصيرها. ويشرح ميليوكوف المؤرخ تصرفاته كوزير خارجية فيقول: "وكان يسعى في جميع أعماله العامة إلى التأكيد بشدة على الأهداف السلمية للحرب التحريرية، ولكنه يربطها دائمًا بشكل وثيق مع المعضلات والمصالح الوطنية الروسية".

وأثار الحديث الصحفي انتباه التوفيقيين. وتساءلت صحيفة المناشفة بامتعاض "متى ستتخلص السياسة الخارجية للحكومة المؤقتة من كل هذا الدجل؟ ولم لا تطلب الحكومة المؤقتة من حكومات الحلفاء بإصرار أن تتخلى صراحة وبصورة نهائية عن كل ضم؟" وهكذا رأى هؤلاء الناس أن الحديث الذي قدمه الوزير الجشع بكل صراحة لا يعدو أن يكون دجلاً. وكانوا على استعداد لأن يروا في تمويه الشهوات تحت غطاء سلمي إلغاءً للأكذوبة. وخاف كرنسكي من هيجان الديموقراطيين، فأعلن عن طريق مكتب الصحافة: بأن برنامج ميليوكوف لا يمثل سوى رأيه الشخصي. واعتبر كون صاحب الرأي الشخصي وزيرًا للخارجية أمرًا ناجمًا عن الصدفة.

أما تسيريتلي المشهور بموهبته في إعادة الأمور كلها إلى أشكال وصيغ عادية متفق عليها، فقد أكد على ضرورة إصدار بيان حكومي، يشير إلى أن الحرب ستكون بالنسبة لروسيا حربًا دفاعية. وتحطمت مقاومة ميليوكوف وجزء من مقاومة غوتشكوف. وفي ٢٧ مارس (آذار) أصدرت الحكومة المؤقتة بيانًا يؤكد أن "روسيا الحرة لا تستهدف أبدًا السيطرة على الشعوب الأخرى، أو انتزاع ثروتها الوطنية، أو الاستيلاء بالعنف على أراضي الآخرين"، بل تستهدف "احترام الشروط التي تفرضها اتفاقاتنا مع حلفائنا" وهكذا عبر ملوك وأنبياء السلطة المزدوجة عن رغبتهم بدخول ملكوت السماوات مع القتلة والسفلة. حقًا، لقد كان هؤلاء السادة وغيرهم لا يحسون بشيء اسمه السخف.

واستُقبل بيان ٢٧ ماس (آذار) بالترحاب من قبل الصحافة التوفيقية بالإضافة إلى برافدا كامنييف - ستالين التي كتبت في افتتاحية عددها الصادر قبل قدوم لينين بأربعة أيام ما يلي: "لقد أعلنت الحكومة المؤقتة بكل وضوح وجلاء ... أمام شعوب العالم أجمع أن روسيا الحرة لا تستهدف السيطرة على الشعوب الأخرى" ...إلخ. وتلقفت الصحافة الإنكليزية هذا البيان فورًا، وفسَّرت تخلي روسيا عن الضم بلهجة مفعمة بالرضى. واعتبرته تخليًّا عن القسطنطينية، دون أن تعلن التزام بريطانيا بمثل هذا الموقف. وأطلق سفير روسيا في لندن إشارة تحذير، وطالب بتروغراد بتفسيرات تؤكد بأن "روسيا لن تطبق مبدأ السلم بدون ضم بلا أية شروط. ولكنها ستطبقه إذا لم يتعارض مع مصالحنا الحيوية". ولم يكن هذا يخرج عن صيغة ميليوكوف: التي تعد بعدم نهب كل ما لسنا بحاجة إليه. ووقفت باريس موقفًا مغايرًا لموقف لندن؛ إذ تابعت دعم ميليوكوف، وأخذت تشجعه، وتطالبه عن طريق باليولوغ بضرورة إتباع سياسة أشد حزمًا إزاء السوفييت.

* * *

وتضايق رئيس مجلس الوزراء الفرنسي ريبو من تردد بتروغراد، فسأل لندن وروما "إذا كانتا لا تريان أن من الضروري دعوة الحكومة المؤقتة لوضع حد لكل هذا الالتباس والغموض"، وأجابت لندن أنها ترى أن من الأفضل "دفع الاشتراكيين الفرنسيين والإنكليز للذهاب إلى روسيا، والتأثير مباشرة على رفاق أفكارهم".

وجاء إرسال الاشتراكيين الحلفاء إلى روسيا بوحي من جنرالات القيصر القدامى. ولقد كتب ريبو عن (الاشتراكي الفرنسي) البير توماس ما يلي: "إننا نعتمد عليه في دفع الحكومة المؤقتة لتجعل قراراتها أكثر حماسًا". ولكن ميليوكوف أبدى ضيقه من اتصال توماس الوثيق مع زعماء السوفييت. ورد ريبو على ذلك بأن توماس "يعمل مخلصًا" لدعم وجهة نظر ميليوكوف، وأنه وعد بدفع سفير بلاده إلى تقديم دعم أكثر فاعلية.

ومع هذا فقد خاف الحلفاء من بيان ٢٧ مارس (آذار) الخالي من كل معنى، ورعوا فيه تنازلاً أمام السوفييت. وهددت لندن بأنها ستفقد إيمانها "بقدرة روسيا القتالية". واشتكى باليولوغ من تردد البيان وغموضه. وكان هذا هو كل ما ينتظره ميليوكوف، الذي اعتمد على دعم الحلفاء، واندفع في لعبة كبيرة كانت أضخم بكثير من إمكاناته. وكانت فكرته الأساسية هي:

استخدام الحرب ضد الثورة. وكان هدفه المباشر القريب على هذا السبيل هو تحطيم معنويات الديمقراطية. ولكــن التــوفيقيين بدأوا منذ أبريل (نيسان) بإظهار بعض العصبية والتردد المتزايد بالنسبة لمسائل السياسة الخارجية، نظرًا لتعرضــهم لــضغوط كبيرة قادمة من القاعدة. وكانت الحكومة بحاجة لقرض، ولكن الجماهير المشبعة بروح الدفاع الوطني كانــت مــستعدة لــدعم قرض سلم لا قرض حرب. وكان لا بُدَّ من تقديم مظاهر أفق سلمي لهذه الجماهير.

وتابع تسيريتلي استخدام سياسة الأشكال والصيغ العادية المتفق عليها، فاقترح على الحكومة المؤقتة أن تقــدم للحلفــاء مذكرة مشابهة لبيان ٢٧ مارس (آذار) الداخلي. وأخذت اللجنة التنفيذية على عاتقها بالمقابل دفع السوفييت إلى التصويت علــى "قرض الحرية". ووافق ميليوكوف على هذه اللعبة: القرض مقابل المذكرة -ولكنه قرر أن يكسب من هــذه المــساومة كــسبًا مزدوجًا. وكان مظهر المذكرة يدل على الرغبة بشرح البيان ولكن مضمونها كان يستنكر هذا البيان وينقضه. وأكدَّت المــذكرة أنه لا ينبغي أن تؤدي الجعجعة اللفظية التي تتحدث بها السلطة الجديدة عن السلم إلى التفكير بأن الثورة المنجزة ســتؤدي إلــى إضعاف دور روسيا في الصراع المشترك مع الحلفاء، بل على العكس؛ إذ تزايد تصميم الشعب كله على دفع الحرب العالميــة حتى النصر النهائي ...".

وتشير المذكرة في مكان آخر إلى أن المنتصرين "سيجدون الوسيلة للحصول على الضمانات وفرض العقوبــات التــي تضمن في المستقبل منع وقوع أية صراعات دامية". وهكذا أدرجت كلمتا "ضمانات" و"عقوبات" بناء على إلحاح توماس. ولكن هاتين الكلمتين لا تعنيان في لغة الدبلوماسية المخادعة، والدبلوماسية الفرنسية بصورة خاصة سوى الضم والإلحاق. وفي يــوم عيد ١ مايو (آيار)، أبرق ميليوكوف إلى حكومات الحلفاء بالمذكرة المكتوبة بوحي دبلوماسيي الحلفاء. ولما فرغ من ذلك بعــث المذكرة إلى اللجنة التنفيذية والصحف بآن واحد. وتجاهلت الحكومة الاتصال باللجنة التنفيذية عبر "لجنــة الاتــصال"، ووجــد زعماء اللجنة التنفيذية أنفسهم يُبلغون بالمذكرة كأي فرد من أفراد الشعب.

ولم يجد التوفيقيون في هذه المذكرة شيئًا لم يسمعوه من ميليوكوف من قبل، ولكنهم اعتبروا أن فيها شيئًا مــن العــداء المبيت ضدهم، فلقد جردتهم من سلاحهم أمام الجماهير، ووضعتهم أمام اختيار محتوم بين البلشفية والليبرالية. أفلم تكن خطــة ميليوكوف تستهدف ذلك؟ إن كثيرًا من الأمور تدفعنا إلى الاعتقاد بأن هذا لم يكن هدفه الأوحد، وأن حدود مراميه كانت تذهب إلى أبعد من ذلك بكثير.

وكان ميليوكوف يسعى منذ مارس (آذار) إلى بعث الخطة المجهضة الخاصة بالاستيلاء على مضائق الدردنيل بــإنزال روسي. وهذا ما دفعه إلى إجراء عدد من المباحثات مع الجنرال الكسييف، ليقنعه بإجراء عملية قوية تضع الديمقراطية المعادية "للضم" أمام الأمر الواقع. وكانت مذكرة ميليوكوف في ١٨ إبريل عبارة عن إنزال سياسي مواز علــى شــاطئ الديمقراطيــة المجرد من الدفاع. وكان العملان -العسكري والسياسي- متكاملين كل التكامل. وكان بوسع الحكومة تبريرهما في حالة النجاح. ولا يعدم المنتصرون عادة الفرصة لإيجاد المبررات. ولكن النصر لم يكن وقفًا على ميليوكوف. فالإنزال بحاجــة لـــ٢٠٠ : ٣٠٠ ألف رجل. وفشلت العملية لسبب بسيط هو: أن الجنود رفضوا الاشتراك بالهجوم. لقد وافقوا على الدفاع عــن الثــورة لا على شن الهجمات. وفشلت محاولة ميليوكوف للنزول على شواطئ الدردنيل. وتحطمت كل مخططاته المقبلة مــسبقًا. ولكــن علينا أن نعترف بأن مخططاته كانت محسوبة بشكل جيد ... شريطة أن تنجح.

وفي ١٧ إبريل (نيسان)، شهدت بتروغراد كابوسًا رهيبًا هو مظاهرة الوطنيين من مشوهي الحرب؛ إذ ترك عدد كبيــر من الجرحى مستشفيات العاصمة، وسار المشوهون، ممن فقدوا أيديهم أو أرجلهم إلى جوار الجرحــى المــضمدين، واتجهــوا جميعًا نحو قصر توريد. ونقلت سيارات الشحن العاجزين عن السير. وكانت أعلام المتظاهرين تحمل الكتابات التالية: "الحــرب

حتى النهاية". وكان هذا كله مظاهرة يأس يشترك بها الحطام البشري الناجم عن الحرب الإمبريالية. ذلك الحطام الذي لا يـود أن تعتبر الثورة كل تضحياته سخيفة بلا معنى. ولكن حزب الكاديت كان يقف وراء هذه المظاهرة، كما كـان يقـف وراءهـا بصورة خاصة ميليوكوف الذي أخذ يستعد ليسدد في اليوم التالي ضربة قوية.

وفي مساء يوم ١٩ عقدت اللجنة التنفيذية اجتماعًا استثنائيًّا لمناقشة المذكرة المرسلة بـالأمس إلـى الحلفـاء. ويقـول ستانكيفيتش: "وبعد سماع القراءة الأولى، أقر الحاضرون بالإجماع ودون أي اعتراض، أن ما تتحدث عنه المذكرة كـان غيـر متوقع من قبل اللجنة". ولكن المذكرة ملزمة للحكومة كلها بما في ذلك كرنسكي؛ لذا كان من الضروري إنقاذ الحكومة قبل كـل شيء آخر. وعكف تسيريتلي على "حل رموز" المذكرة التي لم تكن "مشفرة"، وبدأ يكتـشف فيهـا ميـزات متزايـدة. وأخـذ سكوبوليف مظهرًا جادًا، وحاول البرهنة على أنه كان من المتعذر بصورة عامة المطالبة "بتوافق كامل" بين نوايا الديموقراطيين ونوايا الحكومة. واستنزف هؤلاء الحكماء الكبار قواهم حتى الفجر، دون أن يجدوا للمسألة حلاً. وتفرقوا في الـصباح البـاكر على أن يجتمعوا ثانية بعد عدة ساعات. ولا شك في أنهم فكروا بالإفادة من عامل الزمن القادر على شفاء كل الجروح.

وظهرت المذكرة في كافة الصحف الصباحية وفسرتها صحيفة ريتش بشكل مشبع باستثارة مدروسة مـسبقًا. وتحـدثت الصحف الاشتراكية بتوتر شديد. ولم تكن رابوتشايا غازتيا (الصحيفة العمالية) المنشفية قد أخمدت سخطها الليلي مثل تسيريتلي وسكوبوليف؛ لذا فقد كتبت بأن الحكومة المؤقتة نشرت "وثيقة تضرب بنوايا الديموقراطيين عرض الحائط"، وطالبت الـسوفييت باتخاذ تدابير صارمة "لدرء النتائج الرهيبة" لهذه المذكرة. ويحس المرء أن آثار ضغط البلاشفة المتزايد واضحة كل الوضـوح في هذه الجمل.

وعُقد اجتماع اللجنة التنفيذية من جديد، وافتتحت الجلسة ليقنع أعضاءها مرة أخرى بعجزهم عن التوصـل إلـى قـرار معين. وتقرر استدعاء مجلس السوفييت لعقد جلسة استثنائية قيل إنها "للاستعلام" ولكنها كانت في الحقيقة لسبر غـور درجـة استياء القاعدة، وبغية ربح الوقت لإيجاد حل للفوضى والارتباك القائمة. وانعقدت في هذه الغضون كل أنواع جلسات الاتـصال الخاصة التي أخذت تبحث المسألة وتحولها إلى العدم.

وفجأة اختلط بهذه البلبلة الشعائرية للسلطة المزدوجة قوة ثالثة. وخرجت الجماهير إلى الشارع وسلاحها بأيديها. ووسط حِراب الجنود ظهرت أحرف اللافتات القائلة: "فليسقط ميليوكوف!" وعلى لافتات أخرى، ظهرت جمل تردد هتافـات معاديـة لغوتشكوف. ووسط هذا الطوفان من الكلمات الساخطة، كان من الصعب اكتشاف متظاهري أول مايو (آيار).

ويفسر المؤرخون هذه الحركة بأنها حركة "القوى الأولية" وهذا يعني باللغة التقليدية أن أي حزب من الأحزاب لم يأخـذ على عاتقه المبادرة بالتظاهر وأن المظاهرات تمت بصورة عفوية. وقد صدر النداء المباشر الذي يدعو الجماهير للنزول إلـى الشارع من أحد الأشخاص، ويدعى لاند الذي كتب اسمه في تاريخ الثورة بهذا الشكل. كان لاند "عالمًا، ورياضيًّا، وفيلـسوفًا". وكان بعيدًا عن الأحزاب. ولكنه كان في الوقت نفسه مؤيدًا للثورة من كل جوارحه، ويرغب صادقًا بتحقيق ما كانت تعد به تلك الثورة من آمال. وقد أثارت ملاحظة ميليوكوف وتعليقات الريتش سخطه. ويحكي كاتب سيرته أنه "بدأ بالعمل فـورًا ... دون أن يستشير أحدًا ... وانتقل إلى فوج فنلندا، واستدعى لجنة الفوج واقترح عليها أن يسير الفوج فورًا إلى قصر ماري ...".

و"تبنَّت اللجنة اقتراح لاند. وفي الساعة الثالثة، تقدم فوج فنلندا بمظاهرة مهيبة في شوارع بتروغـراد، تحمـل لافتـات مثيرة". وسار خلف مظاهرة الفوج الفنلندي جنـود الكتيبـة الاحتياطيـة ١٨٠، وجنـود أفـواج موسكوفـسكي وبافلوفـسكي وكيكهولمسكي، وبحارة الفرقة الثانية من سدنة أسطول البلطيق. وكان عدد المتظـاهرين يتـراوح بـين ٢٥,٠٠٠ و٣٠,٠٠٠

شخص مسلح. وابتدأ الاضطراب في الأحياء العمَّالية، وتوقف العمل، وأخذ العمال ينزلون إلى الشارع بمجموعات انطلقت من عدة مصانع وسارت هذه المجموعات خلف الأفواج.

ويؤكد ميليوكوف النظرية التالية: "لم يكن معظم الجنود يعرفون لماذا جاءوا"، ويدل تأكيده هذا على أنه قد أتيح له الوقت الكافي لاستجواب أولئك الجنود. "وقد اشترك في المظاهرة عمال أحداث صرحوا باستعلاء (!) بأنهم قبضوا من ١٠ إلى ١٥ روبلاً بغية المشاركة في هذا الشغب". وكان مصدر الأموال المدفوعة واضحًا: "فقد طلبت ألمانيا القضاء على الوزيرين (ميليوكوف وغوتشكوف)". وقد أعطى ميليوكوف هذا التفسير الخارق بعد ثلاث سنوات من أحداث أكتوبر (تشرين الأول) لا في لهيب معركة إبريل (نيسان)، هذه الأحداث التي كانت كافية للبرهان على أن أحدًا لم يكن بحاجة لأن يدفع يوميًّا سعرًا مرتفعًا للحقد الذي تحسه الجماهير الشعبية إزاء ميليوكوف.

ويفسر العنف غير المتوقع لمظاهرة إبريل (نيسان) برد فعل الجماهير الفوري تجاه دجل الحكومة ومكرها. "ما دامت الحكومة لن تحصل على السلم فإن علينا أن ندافع عن أنفسنا". كان هذا الكلام يقال دون حماسة، ولكن بأسلوب مقنع. وكان الجميع يفترضون أن الحكومة قد قامت بكل ما يلزم لتقريب السلم. بينما كان البلاشفة يؤكدون أن الحكومة تريد متابعة الحرب، بغرض النهب والسرقة. ولكن هل هذا ممكن؟ وماذا يريد كرنسكي؟ "نحن نعرف زعماء السوفييتات منذ فبراير (شباط)، فقد كانوا أول من جاء إلى الثكنات، وهم ينادون بالسلم. وبالإضافة إلى هذا وصل لينين من برلين، وكان تسيريتلي في المنفى. إن علينا أن نتذرع بالصبر ..." وفي الوقت ذاته كانت المصانع والأفواج المتقدمة تؤكد بمزيد من التصميم شعارات البلاشفة الداعية إلى سياسة سلمية: نشر الاتفاقات السرية، وقطع العلاقات مع خطط غزو دول الحلفاء، والاقتراح صراحة على عقد اتفاقية سلم منفرد فوري مع كل البلدان المتحاربة.

وفي هذا المناخ المعقد الغامض سقطت مذكرة ١٨ إبريل (نيسان). فكيف سقطت؟ وماذا تضمنت؟ ... لم يكن في هذه المذكرة موقفًا يدعو إلى السلم، بل كان هناك تمسك بأهداف الحرب السابقة؟ إذن فنحن ننتظر ونصبر دون جدوى؟ فليسقط! ... ولكن من؟ هل من الممكن أن يكون البلاشفة على حق؟ ليس من الممكن. نعم من الممكن، ولكن وما الموقف من المذكرة؟ هناك من يبيع جلدنا على كل حال لحلفاء القيصر؟ وكانت مجرد مقارنة بسيطة بين صحافة الكاديت وصحافة التوفيقيين تظهر أن ميليوكوف الذي خان الثقة العامة، يستعد لاتباع سياسة الغزو، بالاتفاق مع لويد جورج وريبو. ومع هذا صرح كرنسكي أن فكرة الهجوم على القسطنطينية كانت "رأيًا شخصيًّا" لميليوكوف. وبهذا الشكل انفجرت هذه الحركة.

ولكنها لم تكن متجانسة. فقد بالغت العناصر المختلفة الهائجة من الأوساط الثورية في تقدير سعة ونضوج الحركة سياسيًّا، وخاصة لأنها قامت بقوة وعنف. وبذل البلاشفة نشاطًا قويًّا جدًا وسط القطعات وفي المصانع. ولم يكتفوا بالمطلب القائل "اطردوا ميليوكوف!" الذي كان نوعًا من المنهاج الذي يشكل الحد الأدنى للحركة، بل أضافوا إليه نداءات علقوها على الجدران ضد الحكومة المؤقتة كلها. وكانت العناصر المختلفة تفهم هذه النداءات بمختلف الطرق؛ فقد فهمها البعض كشعار دعائي، وفهمها الآخرون على أنها مهمة اليوم ذاته. وأدخل شعار "فلتسقط الحكومة المؤقتة" في المظاهرة تيارًا ثوريًّا عندما أطلقه الجنود والبحارة المسلحون في الشارع. وكانت مجموعات هائلة من الجنود والعمال مستعدة للإطاحة بالحكومة المؤقتة. وقامت هذه المجموعات بمحاولات لدخول قصر ماري، واحتلال منافذه، واعتقال الوزراء المعتصمين به. وأُرسل سكوبوليف لإنقاذهم فقام بمهمته بنجاح ذلك لأن قصر ماري كان خاليًا.

وقد عقدت الحكومة جلستها في شقة غوتشكوف الخاصة لأنه كان مريضًا. ولكن لم يكن هذا الظرف العارض هو الذي أنقذ الوزراء من الاعتقال فلم يكونوا مهددين في القصر بصورة جدية. فجيش مؤلف من ٢٥,٠٠٠ إلى ٣٠,٠٠٠ رجل، ينزل

إلى الشارع ليقاتل أولئك الذين كانوا يطيلون الحرب، إن مثل هذا الجيش كان كافيًا تمامًا لقلب حكومة أقوى من حكومة يرأسها الأمير لفوف. ولكن المظاهرات لم تستهدف تحقيق هذا الغرض. كان المتظاهرون لا يريدون إلا التهديد من تحت النافذة، كيما يكف هؤلاء السادة من الوزراء عن التهديد باحتلال القسطنطينية، وليهتموا بمسألة السلم اهتمامًا كافيًا. وبهذه الطريقة كان الجنود ينوون مساعدة كرنسكي وتسيريتلي ضد ميليوكوف.

وحضر الجنرال كورنيلوف إلى الجلسة الحكومية وأعطى أخبارًا عن مظاهرات مسلحة كانت قائمة في تلك اللحظة، وصرح بأنه يملك بصفته قائدًا لقطعات منطقة بتروغراد العسكرية قوات كافية لسحق التمرد بالقوة المسلحة: ولم يكن محتاجًا إلا لأمر كي يتحرك. وقد حكي كولتشاك فيما بعد، وخلال المحاكمة التي سبقت إعدامه أنه حضر هذه الجلسة بالصدفة، واعترف بأن كرنسكي والأمير لفوف عارضا محاولة قمع المتظاهرين بالقوة العسكرية. ولم يعبر ميليوكوف عن رأيه بوضوح، ولكنه لخص الوضع بأنه كان بوسع الوزراء بالطبع أن يحاكموا الأمور كما يشاءون، الأمر الذي لا يمنعهم من الذهاب إلى السجن. ومما لا ريب فيه أن كورنيلوف كان يعمل بالتواطؤ مع قيادة الكاديت.

ونجح الزعماء التوفيقيون دون جهد في إقناع الجنود المتظاهرين بمغادرة موقع قصر ماري، والعودة إلى الثكنات أيضًا. غير أن التوتر الذي ساد المدينة لم يعد أبدًا إلى حالته السابقة. فقد كانت الجموع تحتشد، واستمرت الاجتماعات، وأخذ الناس يتجمعون في مفترقات الشوارع، وفي حافلات الترام ويتناقشون، وكانوا ينقسمون إلى أنصار لميليوكوف وخصوم له وكان الخطباء البورجوازيون يهيجون الجماهير في شارع نييفسكي والشوارع المجاورة ضد لينين الذي أرسلته ألمانيا لقلب الوطني الكبير ميليوكوف. وبذل البلاشفة جهدهم لكي ينشروا السخط ضد المذكرة وكاتبها، وتحميل الحكومة كلها مسئولية رد الفعل الذي حدث ضد تلك المذكرة في الضواحي والأحياء العمالية.

وانعقدت هيئة السوفييت بكاملها في الساعة السابعة مساء. وكان الزعماء لا يعرفون ماذا يقولون للمستمعين الذين كانوا يرتعدون من شدة الانفعال. وقد أخبر تشخيدزه شفويًّا أن هناك مقابلة ستتم مع الحكومة المؤقتة بعد الجلسة. وكان تشيرنوف يثير الفزع من الحرب الأهلية الوشيكة الوقوع. ورد عليه فيدوروف وهو من عمال المعادن وعضو في اللجنة المركزية للبلاشفة أن الحرب الأهلية قائمة فعلاً، وأنه لم يبق أمام السوفييت إلا الاعتماد على الحرب الأهلية واستلام السلطة. وكتب سوخانوف ما يلي: "كانت هذه الأقوال جديدة ومرعبة في ذلك الوقت. ووقعت هذه الأقوال وسط الرأي العام السائد تمامًا، ووجدت في هذه المرة صدًى لم يعرفه البلاشفة من قبل أو من بعد، في مجلس السوفييت".

ومع ذلك كان أهم ما يسترعي الانتباه في الجلسة، ويثير دهشة كل الأعضاء هو خطاب الاشتراكي - الليبرالي ستانكيفيتش الصديق الحميم لكرنسكي، إذ قال ستانكيفيتش: "ماذا يجدي ذهابنا "للتظاهر" أيها الرفاق؟ وضد من نستخدم القوة؟ لأن كل القوة في النهاية أنتم والجماهير الواقفة خلفكم. انتبهوا، انظروا، أن الساعة الآن تشير إلى السابعة إلا خمس دقائق (ومد ستانكيفيتش ذراعه إلى الساعة) والتفت كل الحضور في القاعة إلى الجهة التي يشير إليها الذراع. وأخيرًا قرر المجتمعون أن لا تستمر الحكومة المؤقتة في عملها، وأن تقدم استقالتها. سنطلب من الحكومة الاستقالة بواسطة الهاتف. وفي خلال خمس دقائق، تكون الحكومة قد تنازلت عن سلطاتها. ماذا تُجدي أعمال العنف، والمظاهرات، والحرب الأهلية"؟

واجتاحت القاعة عاصفة من التصفيق، والهتافات الحماسية. كان الخطيب يريد إرهاب السوفييت وهو يستخلص من الوضع أخطر استنتاج وأكثره تطرفًا، ولكنه خاف هو نفسه من الأثر الذي أحدثه خطابه. لأن الحقيقة التي اعترف بها عن قوة السوفييت رفعت المجلس فوق الدسائس التافهة للزعماء الذين كانوا يهتمون قبل كل شيء يمنع السوفييت من اتخاذ أي قرار.

ورد أحد الخطباء على التصفيق قائلاً: "من يحل محل الحكومة؟ هل نحل محلها نحن؟ ولكن أيدينا ترتعد ..." كان هذا الرد خاصة مميزة لا مثيل لها يتصف بها التوفيقيون، والزعماء المتشدقون ذوو الأيدي المرتعدة.

وأدلى لفوف رئيس الوزراء في اليوم التالي، تصريحًا تمم به أقوال ستانكيفيتش، وجاء فيه ما يلي: "كانت الحكومة المؤقتة تجد حتى الآن دعمًا مؤكدًا من جانب الجهاز القيادي للسوفييت. ومنذ خمسة عشر يومًا ... تجد الحكومة نفسها مشتبهًا بها. وفي هذه الشروط... من الأفضل ذهاب الحكومة". وهنا نجد أيضًا كيف كان التكوين الحقيقي لروسيا فبراير (شباط).

وتم لقاء اللجنة التنفيذية بالحكومة المؤقتة في قصر ماري. واشتكى الأمير لفوف في خطاب تمهيدي من الحملة التي شنتها الدوائر الاشتراكية ضد الحكومة، وتحدث عن الاستقالة بلهجة نصف جريحة ونصف تهديدية. وتكلم الوزراء كل بدوره، ووصفوا الصعوبات التي يعانونها والتي ساهموا في تراكمها بكل قواهم. وأدار ميليوكوف ظهره لهذه المناقشات المملة، وخطب من شرفة المجلس أمام المتظاهرين من أعضاء حزب الكاديت، وقال: "عندما أنظر إلى هذه اللافتات التي يمكن أن نقرأ فيها: "فليسقط ميليوكوف"! ... فإنني لا أخشى على ميليوكوف. ولكني أخاف على روسيا"! بهذا الشكل روى ميليوكوف المؤرخ، الأقوال المتواضعة التي قالها ميليوكوف الوزير أمام الجمع المحتشد في الساحة.

وطالب تسيريتلي الحكومة بوضع مذكرة جديدة. ووجد تشيرنوف مخرجًا عبقريًّا عندما اقترح على ميليوكوف الانتقال إلى وزارة التعليم العام؛ إذ كان القيام بدراسات جغرافية حول القسطنطينية أقل خطرًا على كل حال من دراستها كهدف دبلوماسي. ورفض ميليوكوف مع ذلك بصورة صريحة العودة إلى مهنة العلوم، كما رفض كتابة مذكرة جديدة. ولم يمانع زعماء السوفييتات مدة طويلة وقبلوا "تفسيرًا" للمذكرة القديمة. وبقي على هؤلاء الساسة إيجاد بضع جمل وتمويه التزييف الكامن فيها على الطريقة الديمقراطية، ويمكن عندئذ اعتبار الوضع وقد أنقذ، مع إنقاذ الحقيبة الوزارية لميليوكوف أيضًا.

ولكن الطبقة الثالثة القلقة لا تريد أن تهدأ. وجاء يوم ٢١ إبريل (نيسان) ومعه موجة جديدة من الحركة الثورية، أقوى من حركة الأمس. وفي هذا اليوم حرضت لجنة بلاشفة بتروغراد على التظاهر. وبالرغم من مقاومة المناشفة والاشتراكيين الثوريين توجهت جماهير ضخمة من العمال إلى مركز المدينة، قادمة من أحياء فيبورغ ومن النواحي الأخرى. وأرسلت اللجنة التنفيذية رجالاً مزوَّدين بالصلاحيات على رأسهم تشخيدزه إلى المتظاهرين لتهدئتهم، ولكن العمال قالوا كلمتهم بحزم، فقد كان لديهم الكثير مما يقولونه. وقد وصف صحفي ليبرالي معروف في الريتش مظاهرة العمال في شارع نييفسكي قائلاً ما يلي: "كان هناك حوالي مائة رجل مسلح. ومن خلفهم احتشدت صفوف منظمة من الرجال والنساء غير المسلحين، وألوف من الأشخاص. مجموعات حية على الجناحين وأناشيد. وقد دهشت من تعبير الوجوه. لم يكن لهؤلاء الألوف من الأفراد إلا شكل واحد منذهل، والوجه الرهباني لقرون المسيحية الأولى، وجه لا يقهر، وجاهز بعناد للاغتيالات، وللتعسف والموت". وقد نظر الصحفي الليبرالي للثورة العمالية في العيون وأحس فور تلك بتصميمها المركَّز. فكم كان الشبه بعيدًا بين هؤلاء العمال والفتيان الذين تحدث عنهم ميليوكوف قائلاً إن لودندورف استأجر كل واحد منهم مقابل ١٥ روبلاً في اليوم.

وكان هذا اليوم كالأمس؛ حيث لم يقلب المتظاهرون الحكومة مع أن أكثريتهم بالتأكيد قد فكرت بصورة جدية في هذه المسألة. وكان جزء من بينهم جاهزًا من هذا اليوم لدفع المظاهرة إلى ما بعد الحدود التي رسمتها الحالة الفكرية للأكثرية. واقترح تشخيدزه على المتظاهرين العودة إلى بيوتهم وأحيائهم. ولكن الزعماء ردوا بقوة قائلين: إن العمال يعرفون بأنفسهم ما يجب أن يفعلوه. وكانت هذه الملاحظة جديدة، ثم اعتاد عليها تشخيدزه فيما بعد، خلال الأسابيع المقبلة.

* * *

وبينما كان التوفيقيون ينصحون من جهة ويحاولون من جهة أخرى أن يطفئوا لهيب الاضطرابات، كان الكاديت يحرضون وينفخون النار. ومع أن كورنيلوف لم يستلم بالأمس الأمر الذي يسمح له باستخدام السلاح ضد المتظاهرين، فإنه لم يكن مستعدًا للتخلي عن خطته. وإنما على العكس، اتخذ في صباح ذلك اليوم التدابير لمقاومة المتظاهرين مستخدمًا الخيالة والمدفعية ضدهم. ودعا الكاديت أنصارهم بمنشور خاص إلى الشارع معتمدين بحزم على إقدام الجنرال وجرأته، وحاولوا بوضوح تصعيد المشكلة إلى مستوى النزاع الحاسم. وتابع ميليوكوف تطوير هجومه مع كورنيلوف بوصفه طليعة الهجوم، ومع دول الحلفاء التي تشكل احتياطه الثقيل رغم أن إنزاله على شواطئ الدردنيل لم ينجح. ولعبت المذكرة التي أرسلت بلا علم السوفييت مع افتتاحية الريتش دور برقية ايمس المشهورة[1]. وكانت هذه المذكرة موجهة إلى المستشار الليبرالي لثورة فبراير (شباط). وكانت تقول "يجب على كل الذين يتمسكون بروسيا وحريتها أن يضموا الصفوف حول الحكومة المؤقتة وأن يدعموها". هكذا كانت مذكرة اللجنة المركزية للكاديت، التي تدعو كل المواطنين الشجعان للنزول إلى الشارع والكفاح ضد أنصار السلم الفوري.

وتحوّل شارع نييفسكي، الشريان الرئيسي للبرجوازية، إلى اجتماع ضخم لأعضاء حزب الكاديت. وتوجهت مظاهرة ضخمة سار على رأسها أعضاء اللجنة المركزية لحزب الكاديت إلى قصر ماري. وكان المرء يرى في كل مكان لافتات خرجت مجددًا من الورش لتقول "الثقة الكاملة للحكومة المؤقتة"! "فليعيش ميليوكوف"! وطار الوزراء فرحًا؛ فقد وجدوا "شعبهم" الذي ظهر بوضوح أكبر، نظرًا لأن مبعوثي السوفييت كانوا يبذلون كل طاقاتهم لتفريق الاجتماعات الثورية، ويبعدون المتظاهرين من العمال والجنود من وسط المدينة إلى النواحي، ويردعون الثكنات والمصانع عن القيام بأي عمل.

وتحت ستار الدفاع عن الحكومة تمت أول عملية لتجنيد القوى المضادة بصورة صريحة وعلى نطاق واسع. وظهرت في وسط المدينة سيارات النقل محملة بالضباط، واليونكرز والطلاب المسلحين. وخرج أيضًا فرسان القديس جورج. وألّف أولاد الذوات في النييفسكي محكمة عامة جرَّمت اللينيين و"الجواسيس الألمان". ووقعت مناوشات وسقط بعض الضحايا. وبدأ أول صدام دموي -حسبما قيل- حينما حاول بعض الضباط أن ينتزعوا عَلَمًا كتبت عليه بعض الأقوال المعارضة للحكومة المؤقتة. وجرت المواجهة باستماتة متزايدة، وبدأ تبادل إطلاق النيران. وأصبح بعد الظهر تبادلاً متواصلاً. ولم يكن أحد يعرف بالضبط من هم الذين كانوا يرمون وما هو هدفهم، أو اتجاه طلقاتهم. وسقط الضحايا من تراشق النيران المتبادل وغير المنظم، وكان حُب الإيذاء هو أحد أسباب هذا التراشق. وكان السبب الآخر هو الذعر. وارتفعت الحرارة إلى حد بعيد.

ولم يكن هذا اليوم يشبه مظاهرة الوحدة الوطنية في شيء، بل كان هناك عالمان، ينتصب أحدهما في مواجهة الآخر. وكانت أرتال المواطنين التي دعاها حزب الكاديت للتظاهر ضد العمال والجنود تتألف فقط من عناصر برجوازية من الشعب، ومن ضباط، وموظفين، ومثقفين. وكان هناك سَيْلان بشريان، ينادي **أحدهما** باحتلال القسطنطينية، على حين يطالب **الآخر** بالسلِم، وكان هذان السيلان يتدفقان من أجزاء المدينة المختلفة. وكانا مختلفين بمحتواهما الاجتماعي، مفترقين بطابعهما الخارجي، يؤكدان عداءهما لبعضهما عن طريق الجمل المكتوبة على لافتات، وعندما يصطدمان يضربان بعضهما بالقبضات والعُصي، وبالأسلحة النارية أيضًا.

ووصل إلى اللجنة التنفيذية هذا الخبر غير المتوقع الذي يتضمن أن كورنيلوف يقدم مدافعه في ميدان القصر. فهل كان عمله هذا مبادرة مستقلة قام بها قائد الفيلق؟ كلا، إن طبيعة كورنيلوف وخدمته اللاحقة تبرهن على أن الجنرال الشجاع كان يجد دائمًا من يقوده من أرنبة أنفه، وهي وظيفة يقوم بها في هذه المرة زعماء الكاديت الذين دعوا جماهيرهم إلى الشارع معتمدين على تدخل كورنيلوف، ولكي يجعلوا هذا التدخل أمرًا لا محيص عنه. وقد ذكر أحد المؤرخين الشبان -عن حق- أن

المحاولة التي قام بها كورنيلوف لجمع طلاب المدارس العسكرية في ميدان القصر لم تتطابق مع ضـــرورة حقيقـــة أو خياليـــة للدفاع عن قصر ماري ضد جموع معادية، بل تطابقت مع أكبر اندفاع لمظاهرة الكاديت.

ومع كل هذا فشلت خطة ميليوكوف - كورنيلوف، بصورة مخجلة. ومهما بلغت السذاجة بزعماء اللجنة التنفيذية فهم لا يستطيعون أن لا يفهموا بأن رءوسهم كانت معرضة للخطر. ومنذ أن وصلت أول معلومات متعلقة بالصدامات الدمويـــة التـــي وقعت في شارع نييفسكي، أرسلت اللجنة التنفيذية أمرًا برقيًّا إلى كل قوات بتروغراد العسكرية، وضواحيها تطلب منهـــا عـــدم إرسال أية مفرزة إلى شوارع العاصمة بدون موافقة مجلس السوفييت. والآن وبعد أن انكشفت نوايا كورنيلوف، وضعت اللجنة أيديها على عجلة المقود. برغم كل هذه التصريحات الطنانة ولم تطالب قائد الفيلق بسحب القوات فـــورًا فحـــسب، بـــل كلفـــت سكوبوليف وفيليبوفسكي بإعادة الجنود إلى ثكناتهم بأمر من السوفييت وأصدرت الأمر التالي إلى الجنـــود: "لا تخرجـــوا إلـــى الشارع وسلاحكم بأيديكم في هذه الأيام المضطربة إلا بدعوة من اللجنة التنفيذية. إن اللجنة التنفيذية وحدها هي التي تملك حـــق التصرف بكم". وكل أمر لخروج القطعات بعد الآن، باستثناء الخدمة العادية، ينبغي أن يصدر على وثيقة رسمية من السوفييت. وأن يوقع من عضوين على الأقل مفوضين بالسلطة التي تخولهما تنفيذ هذا الغرض.

وقد فسر السوفييت، بصورة لا لبس فيها أعمال كورنيلوف على أنها محاولة للثورة المضادة هـــدفها التحـــريض علـــى الحرب الأهلية. وكان أمر اللجنة التنفيذية يعني تقليل سلطة قيادة الفيلق إلى الصفر. ولكن هذه اللجنة لم تفكر بعزل كورنيلوف، فهل يمكن التآمر على امتيازات السلطة؟ "إن الأيدي ترتعد". وكان النظام الجديد مغلَّقًا بالأوهام -كالمريض المحاط بالوســـادات والمغلف بالكمَّادات. ومما يلفت النظر ويحمل كثيرًا من العبر من وجهة نظر ميزان القوى. إن القطاعات العـــسكرية رفـــضت المسير دون موافقة السوفييت، حتى قبل أن تتلقى الأمر من تشخيدزه كما رفضت ذلك المـــدارس العـــسكرية أيـــضًا. وكانـــت المضايقات غير المتوقعة التي انصبت على أعضاء حزب الكاديت، واحدة بعد الأخرى نتائج حتميـــة، نظـــرًا لأن البرجوازيـــة الروسية، في فترة الثورة الوطنية، بدت طبقة مضادة للوطنية، وهو أمر يمكن إخفاؤه خلال فترة قصيرة من الزمن، بازدواجية السلطة، ولكنه أمر لا يمكن إصلاحه.

وكانت أزمة إبريل (نيسان) على وشك الانتهاء بالتعادل بين الطرفين. وكانت اللجنة التنفيذية قد نجحـــت فـــي احتجـــاز الجماهير على عتبة السلطة المزدوجة. وفسرت الحكومة المعترفة بالجميل، من جهتها أنه من المناسب أن نقصد "بالـــضمانات" و"العقوبات" المحاكم الدولية وتحديد التسليح وما إلى ذلك من الأشياء الرائعة الأخرى. وسارعت اللجنة التنفيذية إلـــى التمـــسك بهذه التنازلات المصطلحية وصرحت باعتبار الحادث منتهيًا بـــ٣٤ صوتًا ضد ١٩. وصوتت الأكثرية أيضًا علـــى عـــدد مـــن القرارات لتهدئة قاعدتها القلقة مثل: تعزيز الرقابة على نشاط الحكومة المؤقتة، ومنع إعلان أي عمل سياسي هـــام دون إنـــذار مسبق للجنة التنفيذية، وضرورة تعديل تأليف الجهاز الدبلوماسي بصورة جذرية. وهكذا تُرجمت ازدواجية الـــسلطة، القائمـــة بالفعل في اللغة القانونية للدستور. ولكن ذلك لم يبدل شيئًا من طبيعة الأشياء، ولم يتمكن الجناح اليـــساري ذاتـــه مـــن إجبـــار الأكثرية التوفيقية على دفع ميليوكوف إلى الاستقالة. وبقي كل شيء كما كان في الماضي. وكان يرتفع فوق الحكومة المؤقتـــة إشراف فعال تمارسه دول الحلفاء، ولا تفكر اللجنة التنفيذية بمهاجمته أبدًا.

وفي مساء ٢١، كان سوفييت بتروغراد يلخص الوضع. وأشار تسيريتلي في تقريره إلى انتصار الزعماء العاقلين، هـــذا الانتصار الذي وضع حدًا لكل التفسيرات الخاطئة لمذكرة ٢٧ مارس (آذار). واقترح كامنييف باسم البلاشفة تـــشكيل حكومـــة سوفييتية صرفة. واقترح كوللونتاي، الثوري الشعبي الذي انضم إلى البلاشفة خلال الحرب، بعد أن كان منتميًا للمناشفة، تنظيم استفتاء في نواحي بتروغراد وضواحيها يُستفتى فيه المواطنون على شكل الحكومة المؤقتة وكيف يفضلون هذا الـــشكل. ولـــم يفطن أحد في مجلس السوفييت لهذه المقترحات، وبدت المسألة وكأنها حُسمت. وصُدِق القرار المشجع للجنة التنفيذية بأكثريـــة

ساحقة ضد ١٣ صوتًا. صحيح أن معظم مندوبي البلاشفة كانوا آنذاك في مصانعهم، وفي الشوارع، وفي المظاهرات. ولكن من المؤكد أنه لم يحدث في كتلة السوفييت أي تحول في الرأي لصالح البلاشفة.

وأمر مجلس السوفييت بالامتناع عن التظاهر في الشارع خلال يومين. واتُخذ القرار بالإجماع. ولم يكن هناك لدى أي فرد ظل من الشك في أن الجميع سيخضعون لهذا القرار. والحقيقة: لم يجرؤ أحد من العمال، والجنود، والشبيبة البرجوازية، وحي فيبورغ، وشارع نييفسكي على مخالفة أمر السوفييت. وحدثت التهدئة بدون أي تدبير قسري. وكان كافيًا لمجلس السوفييت أن يحس بأنه سيد الموقف ليصبح سيده فعلاً.

وخلال هذا الوقت، كانت تتدفق عشرات القرارات الصادرة عن المصانع والأفواج إلى مكاتب تحرير الصحف اليسارية. وكانت هذه القرارات، تطالب باستقالة ميليوكوف فورًا، كما تطالب أحيانًا باستقالة كافة أعضاء الحكومة المؤقتة. ولم تكن بتروغراد المدينة الوحيدة التي تحركت؛ إذ تخلَّى العمال في موسكو عن آلاتهم، وخرج الجنود من الثكنات، وملئوا الشوارع بالاحتجاجات العاصفة. وفي الأيام التالية، وصلت إلى اللجنة التنفيذية برقيات من عشرات السوفييتات المحلية تهاجم سياسة ميليو كوف، وتعد بدعم كامل للسوفييت. ووصلت الأصوات ذاتها من الجبهة. ولكن كل شيء بقي كما كان في الماضي.

وأكد ميليوكوف فيما بعد ما يلي: "في يوم ٢١ إبريل (نيسان) سادت الشوارع حالة فكرية ملائمة للحكومة". وهو يتحدث بالطبع عن الشوارع التي استطاع مراقبتها من فوق شرفته، عندما عاد معظم العمال والجنود إلى مراكزهم. والحقيقة أن وضع الحكومة غدا بلا حماية. ولم تعد الحكومة تملك أية قوة جدية. وقد سمعنا هذا الكلام من ستانكيفيتش والأمير لفوف نفسه. فماذا تعني إذن ضمانات كورنيلوف التي كانت تؤكد بأنه يملك قوات كافية لسحق المتمردين؟ إنها لا تعني سوى شيء واحد هو الخفة المتناهية للجنرال المحترم. وقد ازدهرت كل خفته في أغسطس (آب)، عندما أمر بتحريك قطعات لم يكن لها وجود ضد بتروغراد. وكان كورنيلوف يتخيل القوات العسكرية حسب تأليف القيادة. وكانت أكثرية الضباط منحازة إلى جانبه بالتأكيد، أي أنها كانت مستعدة لإخضاع السوفييتات بحجة الدفاع عن الحكومة المؤقتة. وكان الجنود منحازين إلى السوفييت، مع التمسك برأي أكثر يسارية من رأي السوفييت، ولكن لما كان السوفييت ذاته يتمسك بالحكومة المؤقتة، فقد كان بوسع كورنيلوف كنتيجة لهذا الوضع أن يحرك جنودًا سوفييت بقيادة ضباط رجعيين. وكان الجميع يلعبون الاستغماية بفضل نظام السلطة المزدوجة. ومع هذا، وما أن أمر زعماء السوفييت القطعات بعدم الخروج من ثكناتها حتى أصبحت قدم كورنيلوف في الهواء ومعه كل الحكومة المؤقتة.

وبالرغم من كل هذا لم تصب الحكومة بانهيار أبدًا. لأن الجماهير التي بدأت بالهجوم لم تكن مستعدة للاستمرار فيه حتى النهاية. وأصبح بوسع الزعماء التوفيقيون فيما بعد أن يرجعوا إلى الوراء تحت نظام فبراير (شباط) ليبلغوا نقطة البداية لهذا النظام. وفي ٢٢ إبريل (نيسان) بدا أن أزفستيا السوفييت نسيت أو رغبت بإجبار الآخرين على نسيان موقف اللجنة التنفيذية التي وجدت نفسها مضطرة لوضع يدها على الجيش بصورة مكشوفة، وضد السلطات "الشرعية" وذلك عندما اشتكت من الموقف بقولها: "إن السوفييتات لا تحاول أبدًا الاستيلاء على السلطة. بينما نجد أن هناك كتابات عديدة مسطرة على كثير من أعلام أنصار السوفييت تطالب بقلب الحكومة ونقل كل السلطة للسوفييت ..."، أليس من الفظاعة أن يريد العمال والجنود إغواء التوفيقيين بإعطائهم السلطة، أي أن يعتبروا هؤلاء السادة قادرين على استخدام السلطة استخدامًا ثوريًّا؟

كلا، إن الاشتراكيين - الثوريين والمناشفة لم يكونوا يريدون السلطة. فالقرار البلشفي الذي طالب بانتقال السلطة إلى السوفييتات حصل في سوفييت بتروغراد، كما رأينا، على عدد تافه من الأصوات. ولم يحصل قرار حجب الثقة عن الحكومة المؤقتة، الذي اقترحه البلاشفة في موسكو بتاريخ ٢٢ إبريل (نيسان)، إلا على ٧٤ صوتًا من أصل مئات من الأصوات. حقًا،

إن سوفييت هلسنغفورز، الذي يسيطر فيه الاشتراكيون - الثوريون والمناشفة صوَّت في هذا اليوم على قرار جريء، واستثنائي بالنسبة لذلك الوقت، وكان هذا القرار ينص على وضع قوات مسلحة تحت تصرف سوفييت بتروغراد لمساعدته في القضاء على "الحكومة المؤقتة الإمبريالية". ولكن هذا القرار الذي صودق عليه تحت الضغط المباشر لبحارة الأسطول الحربي، يشكل استثناءً. وبقي التمثيل السوفييتي للجماهير بأكثريته الساحقة، رغم أنه كان بالأمس مستعدًا للعصيان ضد الحكومة المؤقتة على أرض السلطة المزدوجة. فماذا يعني هذا؟

لم يكن التناقض الواضح بين جرأة هجوم الجماهير ومراوغات تمثيلها السياسي أمرًا عارضًا؛ إذ تندفع الجماهير المضطهدة، في مرحلة ثورية إلى العمل المباشر بصورة أسهل وأسرع من قدرتها على إعطاء رغباتها وتطلعاتها تعبيرًا صحيحًا بواسطة تمثيلها الخاص. وكلما كان أسلوب التمثيل مجردًا، كلما تخلف هذا الأسلوب عن إيقاع الأحداث التي تحددها أعمال الجماهير. وللتمثيل السوفييتي الأقل تجريدًا من كل أساليب التمثيل الأخرى، في شروط الثورة، ميزات لا تقارن، ويكفي أن نذكر بأن مجالس الدوما الديمقراطية المنتخبة على أساس النظام الداخلي لتاريخ ١٧ أبريل (نيسان) التي لم يضايقها أحد أو شيء، وجدت نفسها عاجزة كل العجز عن منافسة السوفييتات. ولكن مع كل مزايا ارتباط السوفييتات العضوي بالمصانع والأفواج، أي مع الجماهير العاملة، فإنها تمثيل انتخابي كبقية الأساليب الأخرى، وليست مستثناة بالتالي من تواطؤ البرلمانية وانحرافاتها.

ويشتمل التناقض، في طريقة التمثيل الانتخابي وحتى في التمثيل السوفييتي أيضًا على ما يلي: "إنه ضروري لعمل الجماهير، ولكنه يصبح بسهولة عائقًا محافظًا أمام هذا العمل. وأن المخرج العملي للتناقض، في كل مناسبة، هو تجديد التمثيل. ولكن هذه العملية التي لا تتسم بالبساطة أو السهولة، تجد نفسها بالثورة بصورة خاصة، كمحصلة للعمل المباشر، ولكنها محصلة متخلفة عن هذا العمل. وعلى كل حال، في اليوم التالي لنِصْف (عصيان إبريل [نيسان])، ولرُبْع العصيان بصورة أدق، لأن نِصْف العصيان حدث في يوليو (تموز). كان المرء يجد في جلسة السوفييت نفس النواب الذين كانوا بالأمس، هؤلاء النواب الموجودين في المجلس في نفس المناخ الاعتيادي، ويصوتون إلى جانب اقتراحات الزعماء العاديين.

ولكن هذا لا يعني أبدًا أن عاصفة إبريل (نيسان) قد مرَّت دون أن تترك آثارًا على السوفييت وعلى نظام فبراير (شباط)، وعلى الجماهير ذاتها. وقد عدَّل التدخل العظيم للعمال والجنود في الأحداث السياسية الوضع السياسي رغم أنه لم يصل إلى نهايته وسارع في التجمعات الحتمية، وأجبر سياسيي المكاتب والكواليس على نسيان خططهم التي أعدوها بالأمس واضطرهم إلى تكييف أعمالهم مع الظروف الجديدة.

وبعد أن قضى التوفيقيون على انفجار الحرب الأهلية، متوهمين بأن كل شيء سيعود بعد ذلك إلى المواقع القديمة، بدأت الأزمة الحكومية. وكان الليبراليون لا يريدون أن يحكموا بدون مشاركة مباشرة للاشتراكيين في السلطة. وطالب الاشتراكيون، الذين قبلوا مضطرين بحكم منطق ازدواجية السلطة بالقضاء البين الواضح على برنامج الدردنيل، فأدَّى هذا العمل بصورة حتمية إلى القضاء على ميليوكوف. وبتاريخ ٢ مايو (آيار) اضطر ميليوكوف إلى ترك منصبه الوزاري. وهكذا تحقق شعار مظاهرة ٢٠ إبريل (نيسان) بعد اثني عشر يومًا من التأخير، وضد إرادة زعماء السوفييت.

ولكن العرقلة والمُماطلة أثبتت عجز الحكام. فقد سقط ميليوكوف، الذي كان مستعدًا مع جنراله للقيام بتغيير مفاجئ في ميزان القوى، وخرج من الحكومة بفرقعة كالفرقعة التي تحدث عند نزع سدادة زجاجة. واضطر الجنرال الشجاع إلى تقديم استقالته من منصبه. ولم يكن الجو الذي أحاط بالوزراء متسمًا بالرضا. وتقدمت الحكومة برجاء إلى مجلس السوفييت كي يقبل التحالف. وجاء كل هذا لأن الجماهير ضغطت على الذراع الكبير للرافعة.

وهذا لا يعني مع ذلك بأن الأحزاب التوفيقية أصبحت قريبة من العمال والجنود؛ إذ أن أحداث إبريل (نيسان) التي كشفت الإمكانات غير المتوقعة، والكامنة في الجماهير، دفعت الزعماء الديموقراطيين على العكس إلى ناحية اليمين بصورة أقوى، وأحدثت تقاربًا أوثق مع البرجوازية. واعتبارًا من هذا الوقت، تفوَّق الخط الوطني بصورة نهائية. وأصبحت أكثرية اللجنة التنفيذية أشد تجمعًا وأكثر تركيزًا. واستبعد بعض الراديكاليين المتهافتين من أمثال سوخانوف وستيكلوف وآخرين، ممن كانوا يوحون منذ فترة قصيرة بالسياسة السوفييتية، ويحاولون صيانة بعض التقاليد الاشتراكية. وأنشأ تسيريتلي تيارًا وطنيًا محافظًا إلى حدٍ بعيد وصنع بهذا الشكل تطابقًا لسياسة ميلوكوف مع تمثيل الجماهير الكادحة.

ولم يكن سلوك الحزب البلشفي خلال أيام أبريل (نيسان) متجانسًا؛ إذ فاجأت الأحداث الحزب على غير استعداد. وكانت الأزمة الداخلية قد انتهت، وأخذ الاستعداد لعقد مؤتمر الحزب يتم بنشاط. وكان بعض البلاشفة قد حددوا موقفهم وطالبوا بقلب الحكومة المؤقتة، تحت ضغط التوتر المتطرف في النواحي. وبقيت لجنة بتروغراد مترددة ومحتارة، مع أنها صوتت بتاريخ ٥ مارس (آذار) على قرار بالثقة المشروطة لصالح هذه الحكومة. وتقرر تنظيم مظاهرة في يوم ٢١، ولكن هدفها لم يحدد بوضوح كافٍ. ودعا بعض أعضاء لجنة بتروغراد العمال والجنود للنزول إلى الشارع. ولكن لم تكن نيتهم في قلب الحكومة المؤقتة واضحة. وعملت بعض العناصر اليسارية في الاتجاه ذاته، بدون توجيه من الحزب. ومن المؤكد أن بعض العناصر الفوضوية الفعالة القليلة العدد اختلطت بكل هذه العناصر. وتوجه مختلف الأفراد إلى القطعات يطالبون بصورة عامة بسيارات مدرعة أو بنجدات سواء للقيام باعتقال الحكومة المؤقتة، أو لمحاربة العدو في الشارع. ومع كل هذا صرَّحت قيادة فرقة السيارات المدرعة، الموالية للبلاشفة أنها لن تضع آلياتها تحت تصرف أحد إلا بأمر من اللجنة التنفيذية.

وكان الكاديت يحاولون بكل الوسائل تحميل البلاشفة مسئولية النزاعات الدموية التي حدثت. ولكن لجنة خاصة من مجلس السوفييت قررت بصورة غير قابلة للنقض أن تراشق النيران لم يبدأ من الشارع، ولكنه بدأ من النوافذ ومداخل المنازل. وظهر في الصحف بلاغ صادر عن المدعي العام يقول: "إن إطلاق النيران كان من صنع بعض الأفراد المنتمين إلى الطبقات الدنيا من المجتمع، بغرض إحداث الفوضى والاضطرابات الملائمة للسُوقة".

على أن عداء الأحزاب السوفييتية الحاكمة للبلاشفة لم يكن قد بلغ العنف الذي بلغه بعد شهرين، وضرب حجابًا من الظلام بعدها على كل عقل وضمير. وانتصب القضاء من جديد، برغم بقائه في إطاراته القديمة، أمام الثورة، مع أنه كان لا يسمح لنفسه في إبريل (نيسان) باستخدام طرق الأوخرانا القيصرية ضد اليسار المتطرف. ودُمر هجوم ميليوكوف، في هذا الخط أيضًا دون صعوبة.

وعنَّفت اللجنة المركزية الجناح اليساري للبلاشفة، وصرحت بتاريخ ٢١ إبريل (نيسان) أن السوفييت، حسب رأيها، كان على حق في منع المظاهرات، وأن من الواجب الامتثال لهذا المنع دون شرط. ونص قرار اللجنة المركزية على أن الشعار التالي: "فلتسقط الحكومة المؤقتة!" ليس شعارًا صحيحًا في الوقت الحاضر؛ لأنه في حالة الافتقار إلى أكثرية شعبية متينة (أي واعية ومنظمة) تدافع عن البروليتاريا الثورية، فإن هذا الشعار إما أن يكون مجرد جملة من الجمل، أو يعتبر نوعًا من المحاولات المغامرة". وحدد قرار اللجنة المهام الحالية بالنقد، والدعاية وكسب الأكثرية في السوفييتات كمقدمات للاستيلاء على السلطة.

واعتبر هذا التصريح، في أعين الخصوم، كتراجع للزعماء المذعورين أو كمناورة غامضة. ولكننا نعرف الموقف الأساسي للينين تجاه مسألة السلطة. أما الآن، فإن لينين يعلم الحزب تطبيق "أفكار إبريل (نيسان)" حسب تجربة الأحداث.

وكان كامنييف قد صرح قبل ثلاثة أسابيع بأنه "سعيد" في التصويت مع المناشفة والاشتراكيين- الثوريين على نفس القرار المتعلق بالحكومة المؤقتة. وكان ستالين يطور نظرية تقسيم العمل بين الكاديت والبلاشفة. وما أبعد هذه الأيام وهذه النظريات الآن! وقد تبنى ستالين، أخيرًا للمرة الأولى، بعد درس أيام إبريل (نيسان) موقفًا مضادًا لنظرية "الإشراف" الدقيق على الحكومة المؤقتة، وتخلَّى بحذر عن رأيه الخاص بالأمس، ولكن هذه المناورات مرت دون أن يحس بها أحد.

وتساءل لينين في المؤتمر الذي انعقد فورًا بعد أيام الرعب عن مضمون روح المغامرة في سياسة بعض عناصر الحزب؟ وكانت هذه الروح واضحة في محاولات العمل العنيف؛ حيث لم يكن هناك مكان بعد للعنف الثوري. قال لينين في ذلك المؤتمر: "فبوسعنا قلب من يعرفه الشعب بأنه ينفذ سياسة الاضطهاد. ولكن لا يوجد في الوقت الحاضر مضطهدون، فالمدافع والبنادق في أيدي الجنود لا في أيدي الرأسماليين. ولا يتفوق الرأسماليون ولا ينتصرون في الوقت الحاضر بواسطة العنف، بل بالمكر، ولا يمكن أن ندعو إلى العنف في الوقت الحاضر؛ إن من السخف أن نوجه مثل هذه الدعوة ... ولقد أطلقنا شعار المظاهرات السلمية. ونريد القيام باستطلاع سلمي فقط، لمعرفة قوى الخصم ولكننا لا نريد الدخول في معركة. بَيْد أن لجنة بتروغراد تطرفت بعض الشيء ... فمن شعار "تحيا السوفييتات" الصحيح وُلد شعار آخر غير صحيح هو: "فلتسقط الحكومة المؤقتة!"، إن "التطرف إلى اليسار" خلال العمل غير ملائم. وإننا نعتبر هذا التطرف جريمة خطيرة جدًا، كجريمة التفتيت".

ونتساءل الآن: ما هو سند الأحداث المأسوية للثورة؟ إنه التغيرات في موازين القوى. وما الذي سببها؟ لقد حدثت أساسًا بتذبذبات الطبقات الوسيطة، والطبقة الفلاحية، والبرجوازية الصغيرة، والجيش. وكان التفاوت هائلاً جدًا بين البلشفية وإمبريالية الكاديت. وحدثت هذه التذبذبات في اتجاهين متضادين في آن واحد. كان التمثيل السياسي للبرجوازية الصغيرة، وقممها والزعماء التوفيقيون ميالين إلى اليمين، إلى جانب البرجوازية. وكان للجماهير المضطهدة على العكس اندفاع دائم إلى اليسار. وكان هذا الاندفاع محددًا ومتسمًا بمزيد من التصميم. وقد وضع لينين تحفظًا واحدًا، عندما هاجم العقلية المغامرة التي أظهرها زعماء تنظيم بتروغراد بقوله: إذا انحازت الطبقات الوسطى إلى جانبنا بصورة جدية، وبعمق، وبإرادة لا تلين، فإننا لن نتردد عندئذ لحظة واحدة عن طرد حكومة قصر ماري. ولكننا لم نصل بعد إلى هذا الوضع؛ فأزمة إبريل (نيسان) التي ظهرت في الشارع "ليست أول تغير في كتلة البرجوازية الصغيرة، ونصف - البروليتارية، ولا آخر تغير". وما زالت مهمتنا في الوقت الحاضر أن "نفسر بصبر"، وأن نعد حركة الجماهير التالية، الأكثر عمقًا والأكثر وعيًا، لتكون إلى جانبنا.

وأخذ تحول البروليتاريا إلى جانب البلاشفة، في خلال شهر إبريل (نيسان) طابعًا واضحًا كل الوضوح. كان العمال يقدمون أنفسهم للجان الحزب. ويسألون عن كيفية انتقالهم من الحزب المنشفي إلى الحزب البلشفي. وبدأوا يسألون مندوبيهم في المصانع عن السياسة الخارجية والحرب، والسلطة المزدوجة، والتموين. ونتيجة لهذه الاختبارات كان البلاشفة يحلون محل المندوبين من الحزب الاشتراكي - الثوري أو المنشفي، ليصبحوا هم مندوبي العمال. وبدأ المنعطف الحاسم بسوفييتات الأحياء، باعتبارها أقرب إلى المصانع. ووجد البلاشفة أنفسهم في نهاية إبريل (نيسان) دفعة واحدة كأكثرية في سوفييتات حي فيبورغ، وفاسيليفسكي - أوستروف، ودائرة نارفا. وكان لهذه الأكثرية معنًى عظيم، ولكن زعماء اللجنة التنفيذية، المشغولين بالسياسة العليا نظروا بعجرفة إلى التشويش الذي يحدثه البلاشفة في الأحياء العمالية.

ومع ذلك، بدأت النواحي تمارس ضغطًا على المركز وأصبح الأمر محسوسًا بشكل واضح. وشنت في المصانع، وبصرف النظر عن لجنة بتروغراد، حملة قوية ومثمرة لتجديد تمثيل مندوبي عمال العاصمة في السوفييت، ويقدر سوخانوف بأن البلاشفة كانوا يملكون في بداية مايو (آيار) ثلث بروليتاريا بتروغراد. وعلى كل حال لم يكن البلاشفة يملكون أقل من

الثلث، وكان هذا الثلث هو الفعال والنشيط. وكانت الخطوط الباهتة لإله الحرب **مارس** تمحى وتـزول، علـى حـين ترتـسم الاتجاهات السياسية، وتتجسد نظريات لينين "المبتكرة" في إحياء بتروغراد.

وكانت كل خطوة تخطوها الثورة إلى أمام تتم بتحريض وتدخل الجماهير المباشر، هذا التدخل الذي كان غير متوقع في معظم الحالات من قبل الأحزاب السوفييتية. وبعد انتفاضة فبراير (شباط)، عندما قلب العمال والجنود الملكيـة دون أن يطلبـوا شيئًا من أحد، وجد زعماء اللجنة التنفيذية أن دور الجماهير قد أنجز بصورة نهائية. ولكنهم ارتكبوا في هذا المجال خطأ مميتًا؛ إذ لم تكن الجماهير مستعدة أبدًا لترك المسرح. ومن قبل، في مطلع شهر مارس (آذار)، وفي الوقت الذي تمت فيه الحملة مـن أجل تحديد يوم العمل بثماني ساعات، انتزع العمال تنازلاً من رأس المال، مع أنهم كانوا تحت ثقل وطأة المناشفة والاشتراكيين - الثوريين. واضطر مجلس السوفييت إلى تسجيل انتصار تحقق بدونه وضده. وجلبت مظاهرة إبريل (نيسان) إصلاحًا ثانيًا من النوع ذاته. وكانت كل مظاهرة من مظاهرات الجماهير، تحذيرًا للقيادة، بصرف النظر عن هدفها المباشـر. وكـان التحـذير معتدلاً في بادئ الأمر، ثم تزايدت جرأته فيما بعد. وفي يوليو (تموز) أصبح تهديدًا. وكانت الخاتمة في أكتوبر (تشرين الأول).

إن الجماهير تتدخل في كل اللحظات الحرجة "كقوى أولية" وتخضع، بعبارات أخرى، لاستنتاجاتها الخاصة من التجربـة السياسية ولزعمائها غير المعترف بهم حتى الآن من الناحية الرسمية. وتترجم الجماهير بصورة عفوية استنتاجاتها إلـى لغـة عمل، بعد أن تهضم هذه العناصر أو تلك من عناصر الفتنة. وكان البلاشفة كحزب، لا يريدون حتى الآن قيام الحملة من أجـل تحديد يوم العمل بثماني ساعات. ولم يدع البلاشفة الجماهير أبدًا إلى مظاهرة أبريل (نيسان). كما أن البلاشفة لم يدعوا فيما بعد الجماهير المسلحة للنزول إلى الشارع في مطلع يوليو (تموز). وفي أكتوبر (تشرين الأول) فقط توصل الحزب بصورة نهائيـة إلى التقدم على رأس الجماهير، لا من أجل القيام بمظاهرة، بل من أجل تحقيق الانتفاضة.

الهوامش

(١) إيمس: بتاريخ ١٣ يوليو (تموز) ١٨٧٠ كتبت برقية موجهة إلى بسمارك حول ترسيخ أسرة الهوهنزولرن لعرش إسبانيا، وهي البرقية التي اقتضب منها بسمارك بعض الفقرات ووجهها إلى الصحف فنشرت فيها وقررت نشوب الحرب.

الائتلاف الأول

برغم كل النظريات والتصريحات والشعارات الرسمية، لم تكن السلطة بيد الحكومة المؤقتة إلا من الناحية النظرية فقط. وكانت الثورة، بالرغم من مقاومة الديمقراطية المدعاة تتقدم إلى الأمام، وتحرض جماهير جديدة وتعزز موقف السوفييتات، وتسلح العمال. كانت الثورة تحقق كل هذا حتى ولو تم ذلك ضمن نطاق محدود. وقد طُرد مفوضو الحكومة الريفيون، كما طُرد أعضاء "لجان العمل الاجتماعي" الموجودة على مقربة منهم، والتي كان يتحكم فيها عادة ممثلو التنظيمات البرجوازية، وتم الطرد بأمر من مجالس السوفييتات دون أن تبذل هذه المجالس أي جهد أو عناء. وعندما كان عمال السلطة المركزية يعاندون في بعض الحالات، كانت تقع نزاعات خطيرة. وكان المفوضون يتهمون السوفييتات المحلية بإهمال السلطة المركزية وتجاهلها. وقامت قيامة الصحافة البرجوازية وأطلقت حناجرها مدعية بأن كرونشتادت، وشلوسلبورغ أو تسارتيزين قد انفصلت عن روسيا وتحولت إلى جمهوريات مستقلة. وكانت السوفييتات المحلية تحتج على هذه السخافات. ويثور الوزراء ويهتاجون. ويضطر الوزراء الاشتراكيون في الحكومة إلى القيام بجولات في البلاد، ناصحين ومهددين ومبررين موقفهم إزاء البرجوازية. ولكن كل هذا لم يعدل ميزان القوى؛ فقد كانت هذه الجولات تبرز حتمية التطورات التي كانت تقوض السلطة المزدوجة بإيقاعات غير متساوية في كل البلاد.

وتحولت السوفييتات إلى أجهزة إدارية بعد أن كانت في بادئ الأمر أجهزة للإشراف. وكانت هذه السوفييتات لا تتقيد بأية نظرية لتقسيم السلطة وتتدخل في إدارة الجيش، وفي النزاعات الاقتصادية، وفي مسائل التموين والنقل، حتى أنها كانت تتدخل في المسائل القانونية. وأصدرت السوفييتات تحت ضغط العمال مراسيم بتحديد يوم العمل بثماني ساعات. وتخلصت من الإداريين المغرقين في رجعيتهم، وعزلت مفوضي الحكومة المؤقتة الذين لا يطاقون، وقامت بالاعتقالات والمصادرات، ومنعت الصحف المعادية. وسارت السوفييتات المحلية في طريق سياسة التسعير ومنع خروج احتياطي المديريات من المواد الضرورية، وسياسة المصادرات. وتم كل هذا تحت ضغط صعوبات التموين التي كانت تزداد حدتها وبسبب قلة البضائع الموجودة والقحط فيها. ومع كل هذا كان على رأس السوفييتات مناشفة واشتراكيون - ثوريون يرفضون ساخطين الشعار البلشفي: "كل السلطة للسوفييتات".

وظهر النشاط الذي بذله سوفييت تفليس، في قلب "الجيروند" المنشفي، أمرًا كبير الدلالة بهذا الصدد. ولقد أعطى هذا "الجيروند" لثورة فبراير (شباط) زعماء من أمثال تسيريتلي وتشخيدزه، ثم آواهم عندما بددوا دون جدوى آخر قواهم في بتروغراد. ووجد سوفييت تفليس نفسه، تحت قيادة جوردانيا، الذي أصبح فيما بعد زعيم جورجيا المستقلة. وكان هذا المجلس مضطرًا في كل خطوة إلى السير على مبادئ الحزب المشنفي -الذي كان يملك الأغلبية في داخله- والعمل كسلطة رسمية. وصادر مجلس سوفييت تفليس مطبعة خاصة لتلبية احتياجاته، وقام بالاعتقالات، وركز قضاة التحقيق والمحاكم السياسية بين يديه، وقنن الخبز، وفرض الضرائب على المواد الغذائية والمواد الضرورية. وقد وقع الاختلاف بين العقيدة الرسمية والوقائع الحيوية منذ الأيام الأولى، وازدادت حدة هذا الاختلاف خلال شهر مارس (آذار) وإبريل (نيسان).

وفي بتروغراد كانوا يراعون اللياقة على الأقل، مع أننا رأينا أنهم لم يكونوا يراعونها دومًا. وكشفت أيام إبريل (نيسان) بطريقة لا تحتمل اللبس، عَجْز الحكومة المؤقتة التي لم تجد في العاصمة دعمًا جديًّا. وكانت الحكومة في العُشر الأخير من إبريل (نيسان) تذبل وتنطفئ. وصرح ستانكيفيتش "أن كرنسكي صرح بقلق بأن الحكومة لم تعد موجودة أبدًا. وبدلاً من أن تعمل بشكل مجدٍ كان أعضاؤها يتشاورون حول وضع الحكومة الخاص". وبوسعنا أن نقول عن هذه الحكومة أنها مرت

بأزمات في الأوقات الحرجة استمرت حتى أيام أكتوبر (تشرين الأول) وأنها كانت موجودة في الفواصل الزمنية القائمة بين الأزمات. وبما أن أعضاءها "يتشاورون حول وضعها" بصورة مستمرة فإنها لم تجد الوقت الكافي للاهتمام بشئون البلاد.

وبوسعنا أن نتصور من الناحية النظرية مخارج ثلاثة لأزمة إبريل (نيسان) التي لم تكن سوى تجربة عامة (بروفة) لكل معارك المستقبل. **إما** أن تعود السلطة كاملة للبرجوازية، هذا الاحتمال لم يكن ممكنًا إلا بطريق الحرب الأهلية. وقد حاول ميليوكوف إعادة السلطة للبرجوازية ولكنه أخفق. و**إما** أن تسلَّم كل السلطة للسوفييتات، وكان من الممكن التوصل إلى ذلك دون أية حرب أهلية بالتصويت عليه فقط -وكانت إرادة ذلك كافية- ولكن التوفيقيين لم يكونوا يريدون ذلك، وكانت الجماهير تثق بالتوفيقيين، مع أن هذه الثقة قد بدأت بالتصدع. وهكذا كان المخرجان الرئيسان -في الخط البورجوازي والخط البروليتاري- مغلقان. وكان هناك **إمكانية ثالثة**: نصف مخرج غير مؤكد، متباين الأجزاء، وهو مخرج تسوية جبانة تعتمد على حل وسط، وهذا ما دُعي بالائتلاف.

ولم يكن الاشتراكيون في نهاية أيام إبريل (نيسان)، يفكرون بالائتلاف أبدًا، ولم يعد هؤلاء الرجال مسبقًا أي شيء. وكانت اللجنة التنفيذية قد حولّت السلطة المزدوجة الحالية بقرارها الصادر بتاريخ ٢١ أبريل (نيسان) إلى مبدأ دستوري من الناحية الرسمية. ولكن بومة الحكمة[١] طارت متأخرة جدًا في هذه المرة أيضًا؛ فقد تم التكريس القانوني للازدواجية التي توطدت في مارس (آذار) -الملوك والأنبياء- في الوقت الذي تعرَّض فيه هذا الشكل للانفجار تحت ضغط الجماهير. وحاول الاشتراكيون إغلاق عيونهم حتى لا يروا ذلك. ويحكي ميليوكوف أن تسيريتلي صرح قائلاً عندما طرحت الحكومة مسألة الائتلاف: "ما هي الميزة التي ستجنونها من دخولنا في وزارتكم؟ ... فإذا لم تتساهلوا، اضطررنا في النهاية إلى الخروج من الوزارة بصخب". وكان تسيريتلي يحاول تخويف الليبراليين متوعدًا بأحداث "الصخب".

وكان المناشفة يعتمدون على مصالح البرجوازية ذاتها، لكي يعللوا سياستهم كما كانوا يفعلون دومًا. ولكن الماء كان قد وصل إلى أعناقهم. وكان كرنسكي يحاول إرهاب اللجنة التنفيذية عندما صرح قائلاً: "تجد الحكومة نفسها اليوم في وضع لا يمكن الدفاع عنه. وليست إشاعات الاستقالة ناجمة عن أية مناورة سياسية". ومارست الدوائر البرجوازية الضغط في الوقت ذاته. وصوت دُومَا بلدية موسكو على قرار يؤيد تشكيل حكومة ائتلافية. وعندما أصبحت الأرض ممهدة تمامًا أعلنت الحكومة المؤقتة بتاريخ ١٦ أبريل (نيسان) في منشور خاص ضرورة الاستعانة في أعمال الدولة "بالقوى الخلاقة النشيطة في البلاد، التي لم تشارك في البناء حتى الآن". وهكذا تم طرح المسألة بصراحة.

ومع كل هذا، كان الرأي العام يعارض الائتلاف بشيء من القوة. وفي نهاية أبريل (نيسان) عارضت سوفييتات موسكو وتفليس وأوديسا وإيكاثير ينبورغ ونيجني نوفوغورود، وتفير، وسوفييتات أخرى دخول الاشتراكيين في الوزارة. وقد عبَّر عن دوافع السوفييتات بوضوح كامل أحد زعماء المناشفة في موسكو قائلاً: إذا دخل الاشتراكيون في الحكومة، لن يكون هناك أحد لتوجيه حركة الجماهير "في مسار محدد". وكان من الصعوبة بمكان كبير إقناع العمال والجنود بهذا الدافع الموجه ضدهم. وكانت الجماهير التي لم تكن قد اقتنعت بعد بالمسير خلف البلاشفة، تتمسك كلها بدخول الاشتراكيين في الحكومة. فإذا كان من المستحسن استلام كرنسكي لإحدى الوزارات، فمن الأفضل أيضًا أن يكون هناك ستة من أمثال كرنسكي. ولم تكن الجماهير تعرف أن دخول الاشتراكيين في الوزارة يسمى ائتلافًا مع البرجوازية، وأن البرجوازية تريد التواري خلف الاشتراكيين للعمل ضد الشعب. وكان الجنود في الثكنات يرون الائتلاف بصورة مختلفة عن رؤيته في قصر ماري. وكانت الجماهير تريد بواسطة الاشتراكيين طرد البرجوازية من الحكومة. وهكذا امتزج ضغطان يسيران باتجاهين متعاكسين وأصبحا ضغطًا واحدًا في لحظة من اللحظات.

وفي بتروغراد تبنَّى عدد من الوحدات العسكرية، من بينها فرقة السيارات المدرعة المتعاطفة مع البلاشفة، مبدأ الحكومة الائتلافية. وصوتت منطقة بتروغراد بأكثرية ساحقة لصالح هذا المبدأ. وكانت أفكار الائتلاف تسود مسبقًا أوساط الاشتراكيين - الثوريين، إلا أنهم كانوا يخشون فقط الدخول في الحكومة دون مشاركة المناشفة. وأخيرًا تبنَّى الجيش الائتلاف وأيَّده، حتى أن أحد مندوبي الجيش عبَّر فيما بعد في يونيو (حزيران) خلال مؤتمر السوفييتات عن موقف الجبهة إزاء السلطة، بكلمات لا بأس بها قائلاً: "كنَّا نعتقد بأن بتروغراد سمعت الشكوى التي صدرت عن الجيش، عندما علم بأن الاشتراكيين لا يريدون الدخول في الوزارة، ورفضهم للعمل بصورة مشتركة مع رجال لا يثقون بهم، في حين كان الجيش مضطرًا للموت مع رجال لا يؤمن بهم".

وكان للحرب في هذه المسألة -كما في المسائل الأخرى- أهمية حاسمة. وكان الاشتراكيون يتهيئون للمماطلة والتسويف أمام الحرب، وأمام السلطة أيضًا بغية كسب الوقت. ولكن الحرب لا تنتظر. والحلفاء لا ينتظرون أيضًا. والجبهة لا تريد أن تنتظر. ووصل مندوبو الجبهة في فترة الأزمة الحكومية إلى مقر اللجنة التنفيذية وطرحوا على زعمائهم السؤال التالي: هل سنحارب أم لا؟ وهذا يعني: هل ستأخذون على عاتقكم مسئولية الحرب، نريد ردًا يتضمن نعم أم لا؟ وكان من المستحيل التخلص من السؤال بالصمت. وكان السؤال ذاته مطروحًا من قِبل دول الحلفاء بلغة تنطوي على بعض التهديد.

وكلف هجوم إبريل (نيسان) على الجبهة الغربية الأوروبية الحلفاء غاليًا جدًا، ولم يعط أية نتائج. وتزعزع شيء ما في الجيش الفرنسي تحت تأثير الثورة الروسية، وإخفاق الهجوم ذاته، ذلك الهجوم الذي كانوا يعلقون عليه كثيرًا من الآمال. وكان الجيش الفرنسي حسب تعبير المارشال بيتان "ينثني تحت اليد". وكانت الحكومة الفرنسية بحاجة لهجوم روسي لكي توقف هذا التطور الذي ينطوي على كثير من المخاطر، وبانتظار وقوع هذا الهجوم، كانت الحكومة الفرنسية في أمس الحاجة إلى وعد حازم بالهجوم على الأقل. وفيما عدا الارتياح المادي الذي ينبغي أن ينتج عنه، كان من الواجب أيضًا انتزاع هالة السلم من الثورة الروسية بأسرع ما يمكن، واجتثاث كل أمل بالسلم في قلوب الجنود الفرنسيين، وتوريط الثورة الروسية، وتعريضها للخطر بجعلها شريكة في الجرائم التي ارتكبتها دول الحلفاء. وتلطيخ علم انتفاضة العمال والجنود الروس بدم المذبحة الإمبريالية ووحلها.

وقد استخدمت كل القوى لتحقيق هذا الهدف. ولم يكن الاشتراكيون - الوطنيون التابعون لدول الحلفاء في الصف الأخير من بين هذه القوى. فقد أرسل أكثرهم تجربة بمهمة رسمية إلى روسيا الثورية. ووصلوا إليها وهم يرتدون أجمل الألبسة، مرتاحي الضمائر، ينطلق لسانهم بالكلمات العذبة. وقد كتب سوخانوف ما يلي: "استقبل الاشتراكيون - الوطنيون القادمون من الخارج بأذرع مفتوحة ... وأحس برانتينغ وكاشين وأوغريدي ودوبروكير وآخرون بأنهم بين ذويهم وشكَّلوا مع وزارتنا جبهة موحدة ضد السوفييت". وينبغي أن نعترف بأن السوفييت المتساهل لم يكن دومًا مرتاحًا إلى هؤلاء السادة أيضًا.

* * *

وكان الاشتراكيون من الحلفاء يجوبون الجبهات ويتجولون فيها. وقد كتب فاندرفيلد ما يلي: "كان الجنرال الكسييف يفعل كل شيء لكي تنضم جهودنا إلى جهود الذين نظموا سابقًا وفود بحارة البحر الأسود، مثل كرنسكي وألبير توماس، بهدف تتميم ما كان يسميه الإعداد المعنوي للهجوم" وهكذا وجد رئيس الأممية الثانية ورئيس هيئة أركان نيقولا الثاني لغة مشتركة في الكفاح من أجل المثل العليا الساطعة للديمقراطية. وتمكن رونوديل أحد الزعماء الاشتراكيين الفرنسيين من القول بكل رضًى وارتياح: "إن بوسعنا الآن أن نتحدث دون أن تحمرَّ وجوهنا خجلاً عن الحرب المحقة". وقد تعلمت البشرية بعد ثلاث سنوات من التأخير أنه كان لدى هؤلاء الرجال دافع لاحمرار الوجه.

وأخيرًا، وفي أول مايو (آيار)، قررت اللجنة التنفيذية، بعد أن مرت بكل مراحل التردد التي يمكن تصورها، الاشـتراك في الحكومة الائتلافية بأكثرية ٤١ صوتًا ضد ١٨ وامتناع ثلاثة أعضاء عن التصويت. وقد صوت البلاشفة وعدد صغير من المناشفة الأمميين فقط ضد هذا القرار.

وليس من نافلة القول أن نشير إلى أن ميليوكوف الزعيم، الذي يعتبر محامي الدفاع عن البرجوازية قد سقط ضـحية التقارب الوثيق بين الديمقراطية والبرجوازية. وقد كان يقول بعد سقوطه: "لم أخرج بـإرادتي، وإنمـا أخرجـوني". وقـضى غوتشكوف على نفسه بيده منذ ٣٠ أبريل (نيسان) عندما رفض توقيع "إعلان حقوق الجندي". وكانت أفكار الليبراليين سـوداء منذ تلك الأيام إلى درجة هائلة. ويمكن الاستدلال على ذلك من الواقعة التالية: قررت اللجنة المركزية لحـزب الكاديـت عـدم الإلحاح على الاحتفاظ بميليوكوف في الحكومة القديمة، لإنقاذ الائتلاف. وكتب الكاديت اليميني ايزغوئيف ما يلي: "أن الحـزب خاب زعيمه". ولم يكن هذا الحزب يملك في الحقيقة حتى الاختيار. فقد صرح ايزغوئيف ذاته، وكان تصريحه صـائبًا: "فـي نهاية أبريل (نيسان) هُزم حزب الكاديت هزيمة ساحقة. وتلقى من الناحية المعنوية ضربة لم يتمكن من النهوض بعدها أبدًا".

وكانت الكلمة الأخيرة في مسألة ميليوكوف من اختصاص دول الحلفاء؛ إذ كانت إنكلترا موافقة كل الموافقة على قبـول استبدال وطني الدردنيل "بديموقراطي" أكثر رجاحة وتعقلاً. واعترف هندرسون الذي وصل إلى بتروغراد مزودًا بكل السلطات للحلول محل بوكانان كسفير عند الحاجة، واطلع على الوضع كله، بأن هذا التدبير لا جدوى منه. والحقيقة أن بوكانان كان فـي موقعه الصحيح؛ لأنه ظهر الخصم المصمم لعمليات الضم ضمن الحد الذي لا تُرضي فيه عمليات الضم هذه شهوات بريطانيـا العظمى ومصالحها. وكان بوكانان يشوش برفق في أذن تيريشتشنكو قائلاً: "عندما لا تعد روسيا بحاجة إلى القسطنطينية، فـإن قيمة ذلك ستكون أكبر إذا قالت ذلك بسرعة". وقد بدأت فرنسا بدعم ميليوكوف ولكن توماس لعب دوره هنـا، وأعلـن موقفـه المعادي لميليوكوف بعد موقف بوكانان والزعماء السوفييت. وهكذا تخلّي الحلفاء والديموقراطيون عن السياسي المكروه من قبل الجماهير، كما تخلى عنه حزبه الخاص في النهاية.

ولم يكن ميليوكوف يستحق مثل هذا الجزاء القاسي، وخاصة وأن هذا الجزاء تم بمثل هذه الأيدي. ولكن الائتلاف كـان يطالب بضحية تكفر عن أخطائه. وقد قدم ميليوكوف للجماهير كرجل فكر خبيث يحيط المسيرة الظافرة نحو السلم الديموقراطي بالظلمات. وغسل الائتلاف يديه، دفعة واحدة، من آثار الإمبريالية بانفصاله عن ميليوكوف.

وأقر سوفييت بتروغراد بتاريخ ٥ مايو (آيار) تأليف الحكومة الائتلافية ووافق على برنامجها. ولـم يجمـع البلاشـفة لمعارضة الائتلاف ومنع الموافقة عليه سوى مائة صوت. وذكر ميليوكوف بسخرية وهو يروي وقائع الجلسة ما يلي: "وحيـا الحاضرون الخطباء - الوزراء بحرارة ... ومع ذلك فإن عاصفة التصفيق ذاتها استقبلت تروتسكي، الذي وصل مـن أمريكـا بالأمس "كزعيم سابق للثورة الأولى". وكان تروتسكي ينتقد بوضوح دخول الاشـتراكيين فـي الـوزارة مؤكـدًا أن "الـسلطة المزدوجة" لم تلغ بهذا الشكل وإنما "انتقلت فقط إلى الوزارة ذاتها"، وأن السلطة الموحدة الحقيقية التي "ستنقذ" روسـيا سـتظهر عندما تتم "الخطوة التالية: انتقال السلطة إلى أيدي مندوبي العمال والجنود". عندئذ يبدأ "عصر جديد: عصر من الدم والحديـد، إنه عصر لا تتصارع فيه الأمم ضد بعضها بعضًا، ولكنه صراع الطبقة المسحوقة المضطهدة ضد الطبقات الحاكمـة". بهـذا الشكل يمثل ميليوكوف الأشخاص. واقترح تروتسكي في ختام خطابه ثلاث قواعد لسياسة الجماهير: "ثلاثة أوامر ثورية: عـدم الثقة بالبرجوازية، ومراقبة الزعماء والإشراف عليهم، والاعتماد على قوانا الخاصة فقط".

وأشار سوخانوف معلقًا على هذا الخطاب قائلاً ما يلي: "من البديهي أن تروتسكي لا يستطيع الاعتمـاد علـى موافقـة مجلس السوفييت"، وقد كان السلوك إزاء الخطيب عندما تكلم أكثر برودًا من الاستقبال الـسابق فعـلاً. وأضـاف سـوخانوف

المعروف بحساسيته المفرطة لضجيج الممرات الذي يحدث بين المثقفين: "سرت إشاعة عن تروتسكي الذي لم ينضم بعد إلى الحزب البلشفي أنه "أسوأ من لينين".

وقد أخذ الاشتراكيون ست حقائق وزارية من أصل خمسة عشر حقيبة. كانوا يريدون أن يكونوا أقلية. وقد استمروا في لعبة مَن يخسر - يربح، حتى بعد أن قرروا الاشتراك في السلطة بصراحة. وبقي الأمير لفوف رئيسًا للوزراء. وأصبح كرنسكي وزيرًا للحربية. وغدا تشيرنوف وزيرًا للزراعة، واستبدل ميليوكوف الذي كان يتسنم منصب وزير الخارجية بتشيريشتشنكو أحد الخبراء بباليهات الأوبرا، الذي أصبح في الوقت ذاته رجل ثقة كرنسكي وبوكانان. وكان الثلاثة متفقين على أن بوسع روسيا أن تستغني عن القسطنطينية. وعُين على رأس وزارة العدل المحامي التافه بيريفيرسيف، الذي حصل فيما بعد على شهرة مؤقتة في يوليو (تموز) خلال قضية الدعوى ضد البلاشفة. واكتفى تسيريتلي بحقيبة البريد والبرق كيما يكرس وقته للجنة التنفيذية. ووعد سكوبوليف الذي أصبح وزيرًا للعمل، في لحظة من لحظات الحماس، بإنقاص أرباح الرأسماليين مائة بالمئة بصورة كاملة. وطارت هذه الجملة من فم إلى فم. ولتأمين التوازن والتناظر، عين كونوفالوف وزيرًا للتجارة والصناعة وهو واحد من المقاولين الموسكوفيين الكبار وقد جلب معه بعض شخصيات البورصة في موسكو وكلفهم تسنم مناصب هامة في الدولة. ولقد استقال كونوفالوف بعد خمسة عشر يومًا من استلام منصبه الوزاري، محتجًا بذلك على "الفوضى" السائدة في الاقتصاد العام، على حين امتنع سكوبوليف قبله عن تقليص أرباح الرأسماليين، واهتم بمحاربة الفوضى؛ إذ كان يخنق الإضرابات داعيًا العمال إلى الاهتمام بشئونهم فقط.

واشتمل بيان الحكومة على أفكار مألوفة نظرًا لأنه بيان حكومة ائتلافية. وكان هذا البيان يدعو إلى إتباع سياسية خارجية فعَّالة لصالح السِلم، ويشير إلى محاولات البحث عن حل للتموين، ودراسة تحضيرية للمسألة الزراعية. ولم تكن جمل البيان المتعلقة بهذه المسائل سوى جمل خطابية مسهبة. وكانت النقطة الجدية الوحيدة في البيان، أو على الأقل المسألة الجدية في نوايا البيان ومزاعمه توضح بأن الجيش سيعد "لعمليات الدفاع والهجوم للحيلولة دون وقوع هزيمة لروسيا والأمم المتحالفة معها". وفي هذه المهمة يمكن تلخيص المصلحة الرئيسية في الائتلاف الذي تشكَّل كآخر محاولة يقوم بها الحلفاء وروسيا. وقد كتب بوكانان ما يلي: "إن حكومة الائتلاف تمثل بالنسبة لنا الأمل الوحيد، بل وآخر أمل للسلامة، وإنقاذ الوضع العسكري في هذه الجبهة". وهكذا كان وكيل الأعمال الإمبريالي المتمثل بدول الحلفاء يقف خلف المنصة، وراء الخطب، وخلف عمليات التوفيق والمصالحة، وراء تصويت الزعماء الليبراليين والديموقراطيين لثورة فبراير (شباط). وأخذ الاشتراكيون على عاتقهم مسئولية ثلث السلطة وكل الحرب بعد أن وجدوا أنفسهم ملزمين بالدخول بمثل هذه السرعة في تأليف الحكومة، باسم مصالح جبهة الحلفاء المعادية للثورة.

واضطرت وزارة الخارجية الجديدة إلى تأجيل طبع رد حكومات الحلفاء على بيان ٢٧ مارس (آذار) كيما تحصل منها على بعض التعديلات في الأسلوب تخفي الجدل القائم ضد بيان حكومة الائتلاف. وأصبحت "السياسة الخارجية الفعَّالة من أجل تحقيق السِلم" تعني منذ ذلك التاريخ أن يُصحح تيريشتشنكو بجهد ومثابرة البرقيات الدبلوماسية التي كانت تحررها له مصالح المستشارية القديمة، وأن يكتب "مطالب عادلة" بعد شطب "ادعاءات" أو أن يكتب كعبء إضافي زائد "خير الشعوب" بدلاً من "حماية المصالح". وكان ميليوكوف يقول عن خلفه وهو يصر على أسنانه: "كان دبلوماسيو الحلفاء يعرفون أن المصطلحات "الديمقراطية" لبرقياته تشكل تنازلاً لا إراديًّا لمطالب اللحظة الراهنة، وكانوا يقدرونها حق قدرها بسماحة".

ولم يبق توماس وفاندرفيلد بعد أن وصلا مؤخرًا مكتوفي الأيدي؛ فقد اجتهدا بحماس لتفسير "خير الشعوب" بمعنى مطابق لحاجات الحلفاء ومطالبهم، وكانا يؤثران على الأعضاء السُذج في اللجنة التنفيذية، ويحرزان بعض النجاح في ذلك. وقد اعترف فاندرفيلد "بأن سكوبوليف وتشيرنوف كانا يحتجان بقوة ضد كل سياسة سليمة قبل أوانها". وليس من المدهش أن ريبو

-المعتمد على دعم مثل هؤلاء المتعاونين- صرح بتاريخ ٩ مايو (آيار) في البرلمان الفرنسي بأنه يستعد لإعطاء رد ملائم على تشيريشتشنكو "دون أن يتنازل عن أي شيء مهما يكن".

نعم! إن السادة الحقيقيين للوضع لم يكونوا ينوون خسارة ما ينبغي التقاطه. وأعلنت إيطاليا في تلك الأيام بالضبط استقلال ألبانيا، ووضعتها في البيان نفسه تحت حمايتها. ولم يكن هذا العمل درسًا سيئًا يمكن أن يستخلص من طبيعة هذه الأشياء. ووطنت الحكومة المؤقتة عزمها على الاحتجاج. ولم يكن ذلك العزم باسم الديمقراطية بل بسبب خرق "التوازن" في البلقان. ولكن عجزها اضطرها فورًا إلى عض لسانها بالنواجذ.

ولم يكن هناك جديد في السياسة الخارجية للحكومة الائتلافية سوى تقاربها السريع مع أمريكا. وأتاحت هذه الصداقة الطازجة جدًا ثلاثة تسهيلات لا تفتقر إلى الأهمية: لم تكن الولايات المتحدة متورطة بعار الحرب وأعمالها الشنيعة كما تورطت فرنسا وإنكلترا. وكانت الجمهورية الموجودة فيما وراء البحار تفتح لروسيا آفاقًا واسعة في مجال القروض والمعدات الحربية. وأخيرًا فإن دبلوماسية ويلسون -المؤلفة من مزيج من التظاهر بالديمقراطية ومن الاحتيال- تتلاءم بصورة لا مثيل لها مع احتياجات الأسلوب البياني للحكومة المؤقتة. وقد وجه ويلسون إلى الحكومة المؤقتة، وفدًا برئاسة روت يحمل الرسالة المليئة بالنصح والموعظة، والتي قال فيها: "لا ينبغي أن يخضع أي شعب من الشعوب بالقوة إلى سلطنة لا يريد أن يعيش تحت ظلها". وتحدد هدف الحرب من قبل الرئيس الأمريكي بصورة غير واضحة كل الوضوح، بل بصورة مدهشة: "تأمين السلم المقبل للعالم، ورفاه الشعوب وسعادتها في المستقبل". فهل يمكن أن يكون هناك أفضل من هذا؟ لم يكن تيريشتشنكو وتسيريتلي يتوقعان إلا هذا: قروضًا جديدة، وأفكارًا معروفة لا جديد فيها عن النزعة السلمية. وبمساعدة الأوائل، وبتغطية من الآخرين يمكن القيام بالتحضيرات وشن الهجوم الذي يطالب به شيلوك[٢] المقيم على شواطئ السين وهو يلوح في الهواء بعنف بوثائق قروضه.

واعتبارًا من ١١ مايو (آيار) ذهب كرنسكي إلى الجبهة، وافتتح بهذا الشكل حملة التحريض من أجل الهجوم. وكتب وزير الحربية الجديد إلى الحكومة المؤقتة وهو يلهث مبهورًا من نشوة خطبه وأحاديثه، ما يلي: "إن موجة الحماس في الجيش تكبر وتتسع". وفي ١٤ مايو (آيار) أملى كرنسكي أمرًا للجيوش، ينص على ما يلي: "ستذهبون حيث يقودكم قادتكم" وأضاف لكي يزين هذا الاحتمال المعروف جيدًا، والذي لا يتسم بأية جاذبية بالنسبة للجنود، قائلاً: "ستحملون السِلم على أسنة حرابكم". وبتاريخ ٢٢ مايو (آيار) عُزل الجنرال الحذر الكسييف الذي كان على كل حال لا يتمتع بمواهب كبرى، واستُبدل برجل أكثر مرونة وأكثر جسارة وهو بروسيلوف. وكان كرنسكي الديموقراطي يعد الهجوم بكل قواه، أي أنه كان يعد المأساة الكبرى لثورة فبراير (شباط).

* * *

كان السوفيت جهاز العمال والجنود، أي جهاز العمال والفلاحين. وكانت الحكومة المؤقتة جهاز البرجوازية. وكانت "لجنة الاتصال" جهاز التوفيق والمصالحة. وسهّل الائتلاف هذه الآلية بتحويله الحكومة المؤقتة ذاتها إلى لجنة للاتصال. ولكن لم يقض على ازدواجية السلطة بهذا الشكل. فإذا كان تسيريتلي عضوًا في لجنة الاتصال أو وزيرًا للبريد، فإن هذا لا يشكل حلاً لوضع. وكان في البلاد تنظيمان غير متطابقين للدولة: نظام تسلسلي للموظفين القدماء، والموظفين الجدد المعينين من السلطات العليا وعلى رأسهم الحكومة المؤقتة، ونظام من السوفيتات المنتخبة تتشعب فروعها لتصل إلى أبعد سَرِية من سرايا الجبهة.

وكان هذان النظامان الحكوميان يعتمدان على طبقات مختلفة ما تزال تعد تسوية حساباتها التاريخية. وبالتوجه إلى الحل الائتلافي، كان التوفيقيون ودعاة المصالحة قد أسقطوا من حسابهم القضاء السلمي والتدرجي على النظام السوفييتي. وبدا لهم أن

قوة السوفييتات، المركزة في أشخاصهم، ستنتقل بعد الآن إلى الحكومة الرسمية. وكان كرنسكي يؤكد لبوكانان بصورة قاطعة أن "السوفييتات تموت بصورة طبيعية". وسرعان ما أصبح هذا الأمل العقيدة الرسمية للزعماء التوفيقيين. وكان تفكيرهم الأساسي أن مركز ثقل الحياة على كل نقاط البلاد ينبغي أن ينتقل من السوفييتات إلى أجهزة ديمقراطية جديدة من الإدارة الذاتية. وينبغي أن يحتل المجلس التأسيسي مكان اللجنة التنفيذية المركزية. وكانت الحكومة الائتلافية تتأهب بهذا الشكل لتكون جسرًا إلى نظام جمهورية برجوازية نيابية.

ولكن الثورة لا تريد ولا تستطيع السير في هذا السبيل. وكان مصير مجالس دوما البلدية الجديدة في هذا الاتجاه نذير شؤم لا لبس فيه. فقد كانت الدوما منتخبة على أساس أوسع حق انتخابي. وصوت الجنود على قدم المساواة مع المواطنين المدنيين، وصوتت النساء على قدم المساواة مع الرجال. واشتركت أربعة أحزاب في الصراع. هنا تحركت الشوفي فريميا، الصحيفة غير الرسمية الناطقة بلسان الحكومة القيصرية، والتي كانت -من دون تجنٍ أحقر صحف العالم طرًا- وأخذت تحرض رجال اليمين، والقوميين والأكتوبريين على التصويت لصالح الكاديت. ولكن عندما انكشف العجز السياسي للطبقات المالكة، أطلقت معظم الصحف البرجوازية هذا الشعار: "صوتوا لصالح من تريدون، فيما عدا البلاشفة"! وشكل أعضاء الكاديت في كل مجالس الدوما واتحادات الزيمستفو الجناح اليميني، في حين كان البلاشفة يشكلون أقلية يسارية تعمل على تقوية نفسها. وكان الاشتراكيون - الثوريون والمناشفة يملكون الأكثرية الساحقة في كل مكان.

وبدا أنه كان بوسع مجالس الدوما الجديدة، المتميزة عن السوفييتات بتمثيل تام أكثر، أن تتمتع بسلطة أكبر. وبالإضافة إلى ذلك كانت مجالس الدوما تملك الميزة الهائلة الناجمة عن كونها مدعومة من الدولة بصورة رسمية كمؤسسات اجتماعية أقيمت بصورة قانونية. وكانت الميليشيا والتموين، والنقل في المدن، والتعليم العام يتبع مجلس الدوما رسميًّا. أما السوفييتات فلم يكن لها موازنة ولا حقوق؛ نظرًا لكونها مؤسسات "خاصة". ومع ذلك بقيت السلطة بين يدي السوفييتات. وبدت المنافسة بين النظام السوفييتي والديمقراطية الخالصة مدهشة ومذهلة لأنها تمت تحت إشراف الحزبين؛ المناشفة، والاشتراكيون - الثوريون، المسيطرون في الدوما وفي السوفييتات بآن واحد، وكان هذان الحزبان مقتنعين اقتناعًا تامًا بضرورة تنازل السوفييتات عن مكانها لمجالس الدوما، وكانا يعملان كل ما بوسعهما لتحقيق هذا الغرض.

إن تفسير هذه الظاهرة الغريبة التي لا نفكر فيها وسط زوبعة الأحداث إلا قليلاً، أمر سهل جدًا: إن البلديات ككل المؤسسات الديمقراطية الأخرى لا تستطيع بصورة عامة أن تعمل إلا استنادًا إلى العلاقات الاجتماعية المستقرة تمام الاستقرار، أي استنادًا إلى نظام محدد في الملكية. لكن الثورة تتضمن أساسًا بحث أساس القواعد هذه، وإعادة النظر فيها، وعدم إعطاء الرد عليها إلا بتحقيق ثوري مفتوح للعلاقات بين القوى الطبقية. وكانت السوفييتات، برغم سياسة زعمائها، التنظيم المقاتل للطبقات المضطهدة، التي كانت تتجمع إلى حد ما بصورة نصف شعورية لتعدل أسس البنية الاجتماعية.

أما البلديات فكانت على العكس تمثل كل طبقات الشعب بصورة متساوية، تحت اسم مواطنين. وتسمية المواطن تسمية مجردة. وتشبه البلديات في هذه الظروف الثورية إلى حد كبير مؤتمرًا دبلوماسيًّا يتكلم بلغة تقليدية ومرائية، في اللحظة التي تستعد فيها المعسكرات المعادية التي تمثلها الخوض المعركة بحرارة. وكانت البلديات تعيش وجودًا نصف اسمي. ولكن في المنعطفات الحاسمة، عندما كان يحدد تدخل الجماهير الاتجاه اللاحق للأحداث، كانت البلديات تنفجر، وتجد العناصر المركبة لها نفسها واقفة على الطرفين المتقابلين للحاجز. وتكفي مقارنة الأدوار المتوازية للسوفييتات والبلديات خلال الفترة الواقعة بين شهر مايو (آيار) وأكتوبر (تشرين الأول) لتصور مصير المجلس التأسيسي قبل وقت طويل.

ولم تتعجل الحكومة الائتلافية استدعاء المجلس التأسيسي. فلم يكن الوزراء الليبراليون الأكثر عددًا من وجهة النظر الديمقراطية متعجلين لأن يروا في المجلس التأسيسي نفس عجز الجناح اليميني الذي كان يمثلونه في مجالس الدوما الجديدة. ولم يبدأ المؤتمر الخاص الذي نظم لدعوة المجلس التأسيسي إلا في نهاية مايو (آيار) بعد ثلاثة أشهر من الانتفاضة. وكان القانونيون الليبراليون يقطعون كل شعرة إلى ست عشرة شعرة، ويحركون في أنابيب الاختبار كل الفضلات الديمقراطية، ويماحكون بصورة مستمرة حول الحقوق الانتخابية للجيش، وهم يتساءلون عما إذا كان من الواجب إعطاء حق التصويت أم لا للفارين الذين كانوا يعدون بالملايين، ولأعضاء الأسرة المالكة القديمة التي يعد أفرادها بالعشرات. وكانوا لا يتفوهون قدر الإمكان بكلمة عن تاريخ دعوة المجلس التأسيسي. وكانت إثارة هذه المسألة في المؤتمر خطيئة تتعارض مع الذوق السليم، ولا يرتكبها إلا البلاشفة.

ومرت الأسابيع، ولكن، رغم آمال وتنبؤات دعاة المصالحة والتوفيق، لم تحتضر مجالس السوفييتات. كانت السوفييتات، التي أرقدها وحيَّرها زعماؤها، تسقط من وقت إلى آخر في حالة نِصْف وهن، ولكن الإشارة الأولى للخطر كانت توقفها على أقدامها. ويروي الجميع بأنها سيدة الموقف بلا جدال. وكان الاشتراكيون - الثوريون والمناشفة الذين يحاولون تخريبها يجدون أنفسهم مضطرين في كل الحالات الهامة إلى الاعتراف بأولويتها. ويجد ذلك تعبيره بصورة خاصة في احتشاد وتركيز أفضل قوى الحزبين في السوفييتات. وكان الحزبان يرسلان إلى البلديات والزيمستفو رجالاً من الصف الثاني، وتقنيين، وإداريين. ويلاحظ الشيء ذاته لدى البلاشفة. وكان الكاديت وحدهم، الذين لا يملكون أي منفذ إلى السوفييتات، يحشدون أفضل قواتهم في الأجهزة البلدية. ولكن الأقلية البرجوازية الواهنة كانت أعجز من أن تجعل منهم سندًا لها.

وهكذا لم يكن أحد ليعتقد بأن البلديات أجهزة خاصة به. فالصراعات التي تزداد حدتها بصورة مستمرة بين العمال وأصحاب المصانع، وبين الجنود والضباط، وبين الفلاحين والملاكين النبلاء، لا يمكن بحثها ومناقشتها بصورة صريحة في بلدية أو زيمستفو، بالشكل الذي تتم بها مناقشتها في السوفييت من جهة، وفي الاجتماعات "الخاصة" لدوما الدولة وبصورة عامة في كل مؤتمرات السياسيين الموسرين من جهة أخرى. ومن الممكن التفاهم مع الخصم على أمور تافهة، ولكن لا يمكن التفاهم معه على مسائل تمس الحياة أو الموت.

وإذا طبقنا صيغة ماركس القائلة بأن الحكومة هي لجنة الطبقة المسيطرة، توجَّب علينا القول بأن "اللجان" الحقيقية للطبقات المتصارعة من أجل السلطة كانت موجودة خارج الحكومة الائتلافية. وكان هذا مؤكدًا بالنسبة للسوفييت الممثل في الحكومة كأقلية، كما كان صحيحًا بالنسبة للأكثرية البرجوازية أيضًا. ولم يكن الليبراليون يملكون أية إمكانية للتفاهم بصورة جدية وفعَّالة، بحضور الاشتراكيين، حول المسائل التي تمس البرجوازية أكثر من غيرها. وكان لطرد ميليوكوف، الزعيم المعروف للبرجوازية والذي لا يختلف عن زعامته أحد والذي يتجمع حوله أركان الملاكين، طابع رمزي كشف تمامًا كل معاني الموقف الغريب للحكومة. وكانت الحياة تتطور حول بؤرتين؛ تتجه الأولى نحو يسار قصر ماري، على حين تتجه الثانية نحو يمينه.

وكان الوزراء يعيشون في جو من التواطؤ خلقوه بأنفسهم دون أن يجرءوا على القول بما كانوا يفكرون به في داخل الحكومة. وأصبحت ازدواجية السلطات، التي أخفاها الائتلاف، مدرسة الأشياء المبهمة، والحيلة، والمراءاة بصورة عامة. ومرت حكومة الائتلاف في الأشهر الستة التي تلت، بسلسلة من الأزمات، والتجديدات والإصلاحات، ولكنها احتفظت بملامحها الأساسية في العجز والتزوير حتى يوم وفاتها ذاته.

الهوامش

(١) البومة طائر يمثل الحكمة والتعقل عند الإغريقيين والرومان. (المعربان).

(٢) يشير الكاتب هنا إلى شيلوك -المرابي اليهودي الجشع- في رواية شكسبير "تاجر البندقية".

الهجوم

لقد حدث في الجيش كما حدث في البلاد إعادة تجمُّع سياسي دائم للقوى؛ إذ تطورت الشرائح الدنيا نحو اليسار، على حين تطورت القمم نحو اليمين. وفي نفس الوقت الذي أصبحت اللجنة التنفيذية به أداة لدول الحلفاء تعمل لإخضاع الثورة، أصبحت لجان الجيش التي أنشئت لتمثيل الجنود ضد الضباط سندًا للضباط ضد الجنود.

وكان تأليف اللجان من اتجاهات وألوان متعددة. فقد كان بها عدد لا بأس به من العناصر الوطنية التي تمثل الحرب والثورة بإخلاص، وكانت تسير بشجاعة إلى الهجوم الذي فرضته الدوائر العليا، وتقدم حياتها لقضية ليست قضيتها. وإلى جانب هذه العناصر كان هناك أبطال الكلمة، من أنصار كرنسكي وأتباعه في الفرقة والفوج. وأخيرًا كان هناك عدد لا بأس به من صغار الخبثاء والشاطرين الكامنين في اللجان للفرار من الخنادق. إن كل حركة جماهيرية، وخاصة في مرحلتها الأولى، تجلب حتمًا إلى سطحها كل هذه التنوعات البشرية. وكانت مرحلة التوفيقيين وحدها هي الغنية بصورة خاصة بالثرثارين والمتلونين المتقلبين. فإذا كان الناس يشكلون البرنامج، فإن البرنامج يشكل الناس أيضًا. وتصبح مدرسة سياسة الاتصال، في الثورة، مدرسة الدسائس والمؤامرات.

وكان نظام ازدواجية السلطات يستبعد إمكانية خلق قوة عسكرية. وكان الكاديت، الذي ينصب عليهم حقد الجماهير الشعبية، مضطرين في الجيش إلى استخدام الاسم المزيف للاشتراكيين - الثوريين. أما الديمقراطية فلم تكن قادرة على تجديد الجيش لنفس السبب الذي منعها من استلام السلطة، وهذا لا ينفصل عن ذاك. ومع ذلك هناك واقع غريب يلقي أنوارًا ساطعة على الوضع. فقد ذكر سوخانوف أن الحكومة المؤقتة لم تنظم أي عرض عسكري للقطعات في بتروغراد. إن الليبراليين والجنرالات لا يريدون اشتراك السوفييت في العرض، ولكنهم يفهمون جيدًا، أن العرض لا يمكن تحقيقه دون مشاركة السوفييت.

وازداد ارتباط الضباط القادة بالكاديت؛ بانتظار أن ترفع الأحزاب الأكثر رجعية رأسها من جديد. وكان بوسع المثقفين البورجوازيين الصغار أن يزودوا الجيش بأعداد هائلة من الضباط الأعوان، تمامًا كما زودوه بهذه الأعداد في زمن القيصرية. ولكنهم كانوا عاجزين عن إنشاء قيادة تتلاءم مع صورتهم الخاصة، لأنهم هم أنفسهم لا يملكون وجهًا خاصًا بهم. ولقد برهنت المسيرة اللاحقة للثورة أنه لم يكن بالإمكان الاستفادة من القيادة كما جهزتها الطبقة النبيلة والبرجوازية وأعطتها (هكذا فعل البيض). أو تجنيد القيادة وإعدادها على أساس الانتقاء البروليتاري، وهو ما فعله البلاشفة. ولم يكن هذا أو ذاك ميسورًا للديموقراطيين البورجوازيين الصغار؛ فكان عليهم أن يتذرعوا بالإقناع والتوسل وخداع كل الناس، وعندما لا يتوصلون إلى أية نتيجة، كانوا يسلمون السلطة يائسين من قضيتهم إلى الضباط الرجعيين ليلهموا الشعب أفكارًا ثورية صحيحة.

وكانت قروح المجتمع الجديد تبرز الواحدة تلو الأخرى لتخريب الجهاز العضوي للجيش. واخترقت مسألة القوميات من كل وجوهها -وروسيا بلد فيه قوميات متعددة- أعماق جماهير الجنود، التي يشكل الروس الكبار أقل من نصفها. وكانت الصراعات القومية تمتزج بالصراعات الطبقية وتتخللها على مستويات مختلفة. وظهرت سياسة الحكومة في الميدان القومي كما في كل الميادين الأخرى مترددة غامضة. وكانت تبدو بالتالي كاذبة بصورة مزدوجة. وكان بعض الجنرالات يدللون التشكيلات القومية من نوع "الفيلق المسلم المنضبط على الطريقة الفرنسية" على الجبهة الرومانية. وكانت القطعات القومية الجديدة تبدو في العادة أكثر عنادًا ومقاومة من قطعات الجيش القديم، لأنها كانت ملتفة حول أفكار جديدة، وتحت راية جديدة. ومع ذلك فإن هذا الالتحام القومي لم يصمد طويلاً؛ فقد انفجر بالتطور اللاحق للصراع الطبقي. وقد وضع تطور التشكيلات المؤلفة من عناصر

قومية، هذا التطور الذي كان يهدد بالتوسع ليشمل نصف الجيش؛ الجيش في حالة ميوعة، وفكَّك القطعات القديمة، على حين لم تكن القطعات الجديدة قد تشكلت بعد. وهكذا انبعثت المصائب من كل الجهات.

وقد كتب ميليوكوف في "تاريخه"، أن الجيش ابتلى "بالصراع بين فكرتي الانضباط الثوري والانضباط العسكري الطبيعي، بين "دمقرطة" الجيش والمحافظة على قدرته القتالية". وهنا ينبغي أن نفهم من الانضباط الطبيعي الانضباط الذي كان سائدًا في زمن القيصرية. وكان بوسع المؤرخ أن يعرف -على ما يبدو- أن كل ثورة كبرى كانت سببًا في خسارة البلاد للجيش القديم؛ نتيجة التصادم لا بين المبادئ المجردة الانضباط، بل بين الطبقات الحية. ولا تقبل الثورة انضباطًا قاسيًا في الجيش فحسب، بل أنها تخلقه. ومع ذلك، فإن هذا الانضباط لا يمكن أن يستتب على يد ممثلي الطبقة التي قلبتها الثورة.

وبتاريخ ٢٦ سبتمبر (أيلول) ١٨٥١، كتب حكيم ألماني إلى آخر يقول: "من الطبيعي أن تفتيت الجيوش والتراخي التام للانضباط هما شرط ونتيجة لكل الثورات الظافرة". وقد وضع كل تاريخ البشرية هذا القانون البسيط، المحتوم. ولكن الاشتراكيين الروس، الذين ساروا خلف الليبراليين، والذين كانوا يملكون وراءهم تجربة عام ١٩٠٥ لم يفهموا هذا، مع أنهم اعترفوا أكثر من مرة بأنهم تلامذة الألمانيين فريدريك آنجلس وكارل ماركس. وكان المناشفة يعتقدون بجدية أن الجيش الذي قام بالعصيان سيتابع الحرب القديمة تحت قادته القدماء. وهؤلاء يتهمون البلاشفة بأنهم طوباويون.

وقد وصف الجنرال بروسيلوف بوضوح كبير في مطلع مايو (آيار) في مؤتمر انعقد في مقر القيادة العامة للقوات المسلحة، الرأي العام للقيادة قائلاً: لقد اعتاد من ١٥ إلى ٢٠٪ من أفراد القيادة على النظام الجديد وتلاءموا معه عن قناعة. وبدأ قسم من الضباط بتملق الجنود وتحريضهم ضد القيادة. أما الأكثرية التي تشكل تقريبًا ٧٥٪ فإنها لم تعرف كيف تتلاءم وتتكيَّف، وأصابها الكدر، وتقوقعت بصمت لا تعرف ما تفعل. على أن الأكثرية الساحقة لمراتب الضباط لم تكن تساوي شيئًا مطلقًا من وجهة النظر العسكرية الصرفة.

وعقد كرنسكي وسكوبوليف مؤتمرًا مع الجنرالات وألقوا كل شيء على عاتق الثورة "المستمرة" مع الأسف، والتي ينبغي أخذ استمرارها بعين الاعتبار. وما أن سمع الجنرال غوركو، وهو من منظمة المائة السود، قول الوزيرين حتى رد على ذلك بما يلي: "تقولون إن "الثورة مستمرة". اسمعونا جيدًا. أوقفوا الثورة واتركونا نحن العسكريين لنؤدي واجبنا حتى النهاية". وكان كرنسكي يركض لملاقاة الجنرالات بكل كيانة حتى كاد أحدهم وهو كورنيلوف العظيم القدر يخنقه في عناقه.

إن سياسة التوفيق والمصالحة في زمن الثورة سياسة تذبذبات حامية بين الطبقات. وكان كرنسكي يمثل التذبذب بعينه. وما أن تسنم قيادة الجيش الذي لا يمكن تصوره محرومًا من نظام واضح ودقيق، حتى أصبح الأداة المباشرة لتفكيكه. وأعطى دينيكين لائحة غريبة بشخصيات القيادة العامة التي عزلت من مناصبها، لأنها لم تعرف كيف تقف مع الخط. والحقيقة أنه لم يكن هناك من يعرف أين يوجد هذا الخط حتى ولا كرنسكي نفسه. وعزل الكسييف، روسكي القائد العام للجبهة، ورادكودميتربيف نظرًا لضعفهما وتساهلهما الكبير مع اللجان. وأبعد بروسيلوف لأسباب مماثلة الجبان يودينيتش. وطرد كرنسكي الكسييف وقائدي الجبهتين غوركو ودراغوميروف لأنهما عارضا دمقرطة الجيش. وأبعد بروسيلوف الجنرال كاليدين للسبب ذاته، ثم صُرِف هو نفسه من الخدمة فيما بعد لأنه ساير اللجان وعاملها برقة. وتخلى كورنيلوف عن قيادة منطقة بتروغراد العسكرية لعجزه عن التفاهم مع الديمقراطية. غير أن هذا لم يمنعه من أن يُسمَّى قائدًا للجبهة، وقائدًا عامًا، فيما بعد. وعُزل دينيكين من منصب رئيس هيئة أركان الكسييف نظرًا لاتجاهاته الانقيادية الواضحة، ولكنه عُين فورًا قائدًا عامًا للجبهة الغربية. هذه اللعبة في "قفز العنزة" التي تبرهن على أن شخصيات القيادة العليا لا تعرف ما تريد، كانت تنزل بدرجات إلى الأسفل، إلى أن تصل إلى السرايا وتسارع في تفكك الجيش.

وكان المفوضون ذاتهم لا يثقون بالجنود في الوقت الذي كانوا يطالبونهم فيه بإطاعة الضباط. وعندما كان الهجوم في ذروته، صرح أحد أعضاء السوفييت في جلسة عقدها مجلس السوفييت في موهيليف مقر القيادة العليا للقوات المسلحة بحضور كرنسكي وبروسيلوف، قائلاً ما يلي: "إن ٨٨٪ من ضباط القيادة العامة يخلقون بأعمالهم خطر المظاهرات المضادة للثورة". ولم يكن هذا سرابًا بالنسبة للجنود. فقد أتيح للجنود الوقت الكافي قبل الانتفاضة لمعرفة ضباطهم.

وفي خلال كل شهر مايو (آيار)، كانت علاقات القيادة من المستويات الدنيا إلى العليا تعبر مع بعض التغيرات عن فكرة وحيدة وواحدة: "إن وجهة النظر حول الهجوم وجهة نظر سلبية بصورة عامة، وخاصة في المشاة". وغالبًا ما كانوا يضيفون إلى ذلك قائلين: "إن وجهة النظر هذه أحسن بقليل في الخيالة، ومقدامة في المدفعية".

وفي نهاية مايو (آيار) بينما كانت القطعات تحتل مواقعها من أجل الهجوم أبرق المفوض المرتبط بالجيش السابع لكرنسكي يقول: "في الفرقة ١٢، سار الفوج ٤٨ بكامله، وسار الفوجان ٤٥ و٤٦ بنصف تعداد سراياهما في الخطوط. رفض الفوج ٤٧ المسير. ومن بين أفواج الفرقة ١٣ سار الفوج ٥٠ بكامله تقريبًا. ووعد الفوج ٥١ بالمسير غدًا. ولم يسر الفوج ٤٩ لأنه لم يكن مناوبًا. رفض الفوج ٥٢ المسير واعتقل كل ضباطه". ونجد اللوحة ذاتها في كل مكان تقريبًا. وردت الحكومة على تقرير المفوض تقول: "تُحل الأفواج ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٥٢، ويحال الضباط والجنود المحرضون على عدم الطاعة إلى المحاكم". كانت اللهجة تنطوي على التهديد ولكنها لم تكن تخيف أحدًا. وكان الجنود الذين لا رغبة لهم بالقتال لا يخشون حل أفواجهم كما لا يخشون من إحالتهم إلى المحكمة. فلنشر الجبهة، كان من الضروري حشد قوات ضد قوات أخرى. وكان القوزاق في غالب الأحيان هم أدوات الردع كما كانوا في أيام القيصر، ولكنهم اليوم مقادون من قبل الاشتراكيين: أليس الهدف في الواقع هو الدفاع عن الثورة؟

وبتاريخ ٤ يونيو (حزيران) أي قبل بداية الهجوم بأقل من خمسة عشر يومًا، أرسل رئيس هيئة الأركان في القيادة العليا للقوات المسلحة التقرير التالي إلى الحكومة: "ما زالت الجبهة الشمالية في حالة تخمُّر، ويستمر التآخي مع العدو، وتقف المشاة من الهجوم موقفًا سلبيًّا ... والوضع غير محدد على الجبهة الغربية. ويلاحظ في الجبهة الجنوبية الغربية تحسُّن في الحالة الفكرية ... ولا يلاحظ على الجبهة الرومانية وجود تحسُّن خاص؛ إذ لا تريد المشاة أن تسير ...".

وبتاريخ ١١ يونيو (حزيران) ١٩١٧ كتب العقيد قائد الفوج ٦١ ما يلي:

"لم يبقَ أمامي وأمام الضباط إلا الفرار نظرًا لوصول جندي لينيني من السرية الخامسة من بتروغراد ... وقد فرَّ عدد كبير من أفضل الجنود والضباط. فظهور لينيني واحد في فوج من الأفواج كافٍ لكي يبدأ الضباط بالفرار. ومن الطبيعي أن الجندي الذي وصل مؤخرًا كان يلعب دور أول بلورة في محلول مشبَّع جاهز للتبلور، وينبغي والحالة هذه أن لا نعتقد بأن الجندي الذي وصل بلشفي بالضرورة. ففي تلك الفترة كانت القيادة تسمى لينينيًّا كل جندي يرفع صوته بالاحتجاج على الهجوم بجرأة أكبر من جرأة الآخرين. وكان الذين يؤمنون من بين هؤلاء "الليننيين" بأن غليوم الثاني هو الذي أرسل لينين إلى روسيا كثيرون. وحاولت قيادة الفوج ٦١ إرهاب جنودها بتهديدهم بالقمع الحكومي. فرد أحد جنود الفوج بما يلي: "لقد قُلبت الحكومة القديمة، وسندحرج كرنسكي أيضًا". كانت هذه اللغة جديدة كل الجدة. وكان الجنود يتغذون بتهييج البلاشفة وتحريضهم، ثم يسبقون التحريض بشكل ملحوظ.

ومنذ نهاية إبريل (نيسان)، أرسل وفد خاص مؤلف من ٣٠٠ شخص من أسطول البحر الأسود بقيادة الطالب العجول باتكين، الذي كان متنكرًا بثياب بحَّار ليجوب كل البلاد، وكان هذا الأسطول بقيادة الاشتراكيين - الثوريين. ويعتبر على عكس

أسطول كرونشتادت، معقلاً من معاقل الوطنية. وكان هذا الوفد أشبه بجماعة تنكرت للمشاركة بحفلة تنكرية. ولكن كان يلاحظ في صفوف الوفد حماس مخلص. وكانت هذه الجماعة تنشر في البلاد فكرة الحرب حتى النصر. ولكن من أسبوع إلى أسبوع، أصبح المستمعون من المواطنين أكثر عداءً لأفكارهم. وبينما كان رجال البحر الأسود يخفضون من رنة صوتهم في الدعوة للهجوم، وصل وفد من البلطيق إلى سيباستوبول يدعو إلى السلم. وحقق الشماليون في الجنوب نجاحًا أكبر مما حققه الجنوبيون في الشمال. وقام بحارة سيباستوبول، تحت تأثير بحارة كرونشتادت، بتاريخ ٨ يونيو (حزيران) بنزع سلاح القيادة واعتقال الضباط الممقوتين المحتقرين.

وقد سأل تروتسكي في جلسة مؤتمر السوفييتات الذي انعقد بتاريخ ٩ يونيو (حزيران)، كيف أمكن "أن يقع مثل هذا الانفجار في لحظة بمثل هذه الخطورة في هذا الأسطول النموذجي التابع للبحر الأسود، الذي بعث إلى كل البلاد وفودًا وطنية، وفي وكر الوطنية المنظم هذا. فما هي الدلالة التي ينطوي عليها هذا العمل؟" لكن تروتسكي لم يتلق أي رد. وكان الافتقار إلى السلطة والذعر في الجيش يسببان حزنًا للجميع جنودًا وضباطًا وأعضاء لجان. وكان الجميع يحسون بالحاجة الماسة لإيجاد مخرج ما. وبدا للموجودين في قمة القيادة أن الهجوم سيقضي على عدم التماسك، ويجلب الصفاء. وكان هذا الرأي صحيحًا إلى حد ما. فلو أن تسيريتلي وتشيرنوف أيدا في بتروغراد القيام بالهجوم، متقيدين بكل أنغام الفصاحة الديمقراطية، لتوجب على أعضاء اللجان في الجبهة من جهة أخرى، بالتنسيق مع الضباط، بدء المعركة ضد النظام الجديد في الجيش، هذا النظام الذي كانت الثورة بدونه أمرًا لا يمكن تصوره، ولكنه نظام يتفق مع الحرب ولا يتطابق معها. وتجلت نتائج التطور بسرعة كبرى. وقد روى ضابط من ضباط البحرية ما يلي: "كان أعضاء اللجان يتوجهون نحو اليمين من يوم إلى يوم، ولكنهم كانوا في الوقت ذاته يفقدون سلطتهم وسط البحارة والجنود". ولكن من البديهي أن الحاجة ماسة للجنود والبحارة في الحرب.

وتكفَّل بروسيلوف، بموافقة كرنسكي، في السير على طريق تشكيل كتائب صِدام، مؤلفة من المتطوعين، معترفًا بهذا الشكل وبصراحة بعجز الجيش عن القتال. وانضمت العناصر المختلفة إلى هذا المشروع فورًا، وكان معظم المنضمين في الغالب من المغامرين مثل النقيب مورافييف، الذي انضم بعد انتفاضة أكتوبر (تشرين الأول) إلى الاشتراكيين - الثوريين اليساريين، ليخون فيما بعد السلطة السوفييتية بعد قيامه بعدة أعمال مقدامة رائعة، وليسقط قتيلاً برصاصة، أطلقها عليه البلاشفة أو أطلقها على نفسه. ومن المؤكد أن الضباط المعادين للثورة تسلطوا بشراهة على كتائب الصدام التي كانت تمثل بالنسبة لهم الشكل الشرعي لتجميع قواهم، بَيْد أن هذه الفكرة لم تلاقِ أي صدى لدى جماهير الجنود. **وأنشأت الباحثات عن المغامرات كتائب نسائية "خيالة الموت السوداء"** وقد تصادف أن إحدى هذه الكتائب كانت آخر قوة مسلحة لكرنسكي في أكتوبر (تشرين الأول) للدفاع عن قصر الشتاء. ولكن كل هذا لم يكن مددًا كبيرًا للقضاء على العسكريتاريا الألمانية. وكانت هي هذه المشكلة المطروحة بالضبط.

وأجِّل الهجوم الذي وعدت القيادة العامة للقوات المسلحة حلفاءها بشنه في مطلع الربيع، وتكرر التأجيل من أسبوع إلى أسبوع. وبدأت دول الحلفاء ترفض بصورة قاطعة الموافقة على التأجيل. وكان الحلفاء لا يترددون في اختيار الوسائل وهم يطالبون روسيا بالقسر والإلزام القيام بهجوم فوري. فإلى جانب المناشدات المثيرة للمشاعر التي كان يستخدمها فاندرفيلد، كان الحلفاء يهددون روسيا بقطع تموينها بالذخائر. وصرَّح القنصل الإيطالي العام في موسكو للصحافة، على الطريقة الروسية، لا على الطريقة الإيطالية، أن الحلفاء سيمنحون اليابان كل حرية للعمل في سيبريا إذا عقدت روسيا صلحًا منفردًا. ونشرت الصحف الليبرالية في موسكو، لا صحف روما، بحماسة وطنية هذه التهديدات الوقحة، وعللتها بسبب تأجيل الهجوم لا بسبب الصلح المنفرد. وكان الحلفاء لا يبالون بالإكرام من زوايا أخرى. فقد أرسلوا مثلاً عتادًا للمدفعية من المخلفات بالطبع: فلم تقاوم ٣٥٪ من مدافع الميدان التي استلمتها روسيا من الخارج رميًا معتدلاً لمدة خمسة عشر يومًا. وكانت إنكلترا تخلق الصعوبات

في وجه روسيا من أجل القروض التي تحتاجها. وبالمقابل منحت أمريكا، الدولة المنتدبة الجديدة للحكومة المؤقتة، دون معرفة إنكلترا قرضًا قدره: ٧٥ مليون دولار كسلفة على الهجوم المقبل.

ولم تكن البرجوازية الروسية التي قبلت إنذارات الحلفاء، وقامت بتهييج شرس من أجل الهجوم، تثق بإمكانية نجاح هذا الهجوم، ورفضت أن تقبل المشاركة بقرض الحرية. واستغلت الملكية المقوضة الفرصة لتعود إلى المسرح؛ فقد عبَّرت أسرة رومانوف في بيان موجه إلى الحكومة المؤقتة عن رغبتها بالمشاركة في القرض، ولكنها أضافت "أنها لن تشترك إلا إذا قررت الخزينة تخصيص بعض الأموال لنفقة العائلة الإمبراطورية". وكان أفراد الجيش يقرأون كل هذا، ويعرفون أن أكثرية الحكومة المؤقتة، ومعظم الضباط القادة، ما زالوا يأملون في عودة الملكية.

ومن الإنصاف أن نلاحظ أن كل الناس في معسكر الحلفاء كانوا غير متفقين مع أنصار فاندرفيلد، وتوماس، وكاشين الذين كانوا يدفعون الجيش الروسي إلى الهاوية. وكانت الإنذارات عن وضع الجيش الروسي تُسمع في كل مكان. وكان الجنرال بيتان يقول: "إن الجيش الروسي ليس إلا واجهة، وسينهار إذا تحرك". وكانت البعثة الأمريكية تتبنى الرأي ذاته، وعبَّرت عنه بنفس الشكل. ولكن الاعتبارات الأخرى هي التي سادت وتحكمت بهذا الموضوع. وكان من الواجب انتزاع روح الثورة ذاتها. وقد فسَّر بانلوفيه هذا الموقف فيما بعد قائلاً: "كان التآخي الجرماني - الروسي يحدث من الأضرار والخسائر في الجيش الروسي ما يجعلنا نعتقد بأن ترك الجيش بدون حركة سيعرضه للتفتت المحتوم".

وقاد كرنسكي وتسيريتلي إعداد الهجوم على المستوى السياسي، وكانا يختفيان ويتواريان في البدء عن أقرب أنصارهما. وفي حين استمر الزعماء الذين لا يملكون سوى نصف المعلومات عن الوضع بالوعظ للدفاع عن الثورة، كان تسيريتلي يزداد في الإلحاح بتصميم على ضرورة استعداد الجيش للهجوم. وقاوم تشيرنوف هذه الفكرة مدة أطول، وأكثر من الجميع، أي أنه تدلل وتغنَّج أكثر من غيره. وفي جلسة الحكومة المؤقتة التي انعقدت بتاريخ ١٧ مايو (آيار)، انهالت الأسئلة على "وزير الفلاحين" كما يسمي نفسه. وسئل عن صحة تأييده لمبدأ هجوم الجيش في أحد الاجتماعات دون أن يكون له الحق بذلك. وكان تشيرنوف قد قال ما يلي: "إن الهجوم لا يعنيه كرجل سياسي؛ فالهجوم عمل من أعمال الإستراتيجيين في الجبهة". وكان هؤلاء الرجال كما نرى يلعبون مع الحرب لعبة "الاستغماية" كما أنهم كانوا يلعبونها مع الثورة. ودام هذا فترة من الزمن فقط.

ورافق إعداد الهجوم بالطبع تعزيز الكفاح ضد البلاشفة. وكان المسئولون في الحكومة لا يزيدون من وحدة الهجوم عليهم واتهامهم بالميل إلى عقد صلح منفرد. وكانت إمكانية عقد صلح منفرد كامنة في الموقف ذاته. وكانت المخرج الوحيد من الأزمة. وكان سبب ميل البلاشفة إلى الصلح المنفرد هو ضعف روسيا والنزيف الذي تعرضت له بالمقارنة مع بقية الدول المتحاربة الأخرى. ولكن لم يكن هناك أحد بعد قد قاس قُوى العامل الجديد وهو الثورة. وكان البلاشفة يقدرون أنه من غير الممكن التهرب من احتمالات سلم منفرد إلا بشرط مواجهة الحرب بجرأة وحتى النهاية بقوة الثورة وسلطتها. ولهذا كان من الواجب قبل كل شيء خرق التحالف مع برجوازية البلاد ذاتها. وفي ٩ يونيو (حزيران) صرح لينين في مؤتمر السوفييتات قائلاً ما يلي: "عندما يقال إننا نميل إلى عقد صلح منفرد، فإن هذا القول ليس صحيحًا. ونحن نقول: لن نعقد أي صلح منفرد مع أي من الرأسماليين، ومع أي من الرأسماليين الروس قبل كل شيء. إن الحكومة المؤقتة في حالة صلح منفرد مع الرأسماليين الروس. فليسقط هذا الصلح المنفرد"! ويسجل محضر الجلسة "عاصفة من التصفيق". وكان هذا تصفيق الأقلية الصغيرة في المؤتمر، ولكنه كان تصفيقًا حادًا جدًا.

وكان بعض أعضاء اللجنة التنفيذية يفتقر إلى التصميم، كما كان الآخرون يريدون أن يضعوا أنفسهم تحت غطاء جهاز يتمتع بسلطة أكبر. وتقرر في اللحظة الأخيرة إعلام كرنسكي بأن إعطاء أمر بالهجوم لن يكون مرغوبًا به قبل اتخاذ مؤتمر

السوفييتات قرارًا بشنه. وكان التصريح الذي أدلت به مفرزة البلاشفة في أول جلسة للمؤتمر يقول: "على المؤتمر أن يبدي مقاومة فورية للاندفاعة المضادة للثورة أو يأخذ على عاتقه مسئولية هذه السياسة، بصورة كاملة وصريحة".

ولم يكن قرار مؤتمر السوفييتات لصالح الهجوم إلا تدبيرًا ديموقراطيًّا شكليًّا، فقد كان كل شيء جاهزًا. وكان المدفعيون جاهزون منذ وقت طويل لفتح النار على المواقع المعادية. وبتاريخ ١٦ يونيو (حزيران) استخدم كرنسكي وظيفته كقائد أعلى للقوات المسلحة، ولعب دور "القائد المكلل بهالات النصر" وأصدر أوامره بضرورة توجيه "ضربة فورية حاسمة" وأنهى أمره على الشكل التالي: إني آمركم بالهجوم، إلى الأمام"!

وعلَّق تروتسكي على بيان المفرزة البلشفية في مؤتمر السوفييتات، بمقال صاغه في أمسية الهجوم قال فيه: "إن سياسة الحكومة تخرّب إمكانات نجاح عمل عسكري بصورة جذرية... فالدلالات المادية للهجوم غير ملائمة إلى حد كبير. ويعكس تنظيم التموين في الجيش الفوضى الاقتصادية العامة، التي لا تستطيع الحكومة، بتشكيلها الحالي، اتخاذ أي تدبير جذري لمعالجتها. كما أن لدلائل المعنوية للهجوم غير ملائمة أيضًا. وقد كشفت الحكومة للجيش عجزها عن تحديد سياسة روسيا بصورة مستقلة عن إرادة الحلفاء الإمبرياليين. ولا يمكن أن تكون النتيجة سوى التفكك المتدرج للجيش ... ولم تعد عمليات الفرار التي تتم بالجملة معتبرة كنتيجة لإرادة فردية سيئة، في الظروف الحاضرة، بل أصبحت تعبيرًا عن عجز الحكومة الكامل عن دمج الجيش الثوري في وحدة وثيقة وتامة في الآراء والأفكار ..." ثم أشار فيما بعد إلى أن الحكومة لم تقرر "الإلغاء الفوري لأملاك الإقطاعيين من النبلاء، أي أنها لم تقرر اتخاذ التدبير الوحيد الذي يثبت لأكثر الفلاحين تخلفًا أن هذه الثورة هي ثورتهم". واختتم تروتسكي مقاله على الشكل التالي: "وسيتخذ الهجوم، في مثل هذه الظروف المادية والمعنوية، ولا شك صفة المغامرة".

وكانت القيادة بكامل هيئتها تقريبًا تقدر بأن الهجوم الذي لا أمل منه من الناحية العسكرية مقررًا أساسًا وبصورة خاصة بحساب سياسي. وقد اعترف دينيكين لبروسيلوف بعد أن تفقَّد جبهته قائلاً ما يلي: "إنني لا أؤمن بنجاح الهجوم". وينبغي علينا أن نضيف إلى عناصر الشك هذه عدم كفاءة القيادة ذاتها. ويشهد ستانكيفيتش، كضابط وكوطني أن الإعداد التِقني للهجوم يستبعد الحصول على انتصار، بصرف النظر عن الحالة المعنوية للقطعات؛ "لقد نُظِّم الهجوم بشكل يجعله أدنى من كل نقد". وتشكَّل وفد من الضباط على رأسهم نوفوسيتسيف رئيس اتحاد الضباط الكاديت، وزار هذا الوفد زعماء حزب الكاديت، وأنذرهم بأن الهجوم لن يؤدي إلا إلى الإخفاق وإبادة أفضل القطعات. وتملَّصت السلطات العليا إزاء هذه التحذيرات بجمل عامة. وقال الجنرال الرجعي لوكومسكي رئيس هيئة الأركان العامة للقوات المسلحة الروسية: "ما زال هناك أمل ضعيف: فربما تعدل بداية سعيدة للمعارك نفسية جماهير الجنود، وتنفتح للقادة إمكانية التقاط الزمام الذي أفلت من أيديهم". إن التقاط الزمام هو الهدف الأساسي إذن.

وكان المسئولون عن الهجوم يعتمدون على توجيه ضربة كبرى، استنادًا إلى خطة موضوعة منذ وقت طويل، بقوات الجبهة الجنوبية - الغربية في اتجاه لفوف (لامبرغ). على أن تقوم الجبهتان الشمالية والغربية بمهام الدعم. والمفروض أن يبدأ الهجوم على كل الجبهات بآن واحد. وأصبح واضحًا بعد ذلك أن تحقيق هذه الخطة وتنفيذها يتجاوز الإمكانات التي تملكها قوات القيادة بكثير. وتقرر عندئذ أن تتقدم الجبهات جبهة بعد أخرى، بدءًا من أقلها أهمية. ولكن هذا لم يكن ممكنًا أيضًا. وقد قال دينيكين: "قررت القيادة العليا بعد ذلك الامتناع عن تطبيق أية إستراتيجية منهجية، واضطرت إلى ترك مبادرة العملية للجبهات التي تجد نفسها مستعدة للهجوم". وكانوا يعتمدون في كل شيء على رحمة العناية الإلهية. ولم تكن الخطة تفتقر إلا إلى أيقونات زوجة القيصر. ولكنهم حاولوا استبدالها بأيقونات الديمقراطية. وكان كرنسكي يتفقد الجبهات، ويقوم بالجولات فيها ليحرض وينصح ويبارك. وبدأ الهجوم في ١٦ يونيو (حزيران) على الجبهة الجنوبية الغربية، وفي ٧ يوليو (تموز) بدأ على

الجبهة الغربية. وفي ٨ بدأ في الشمال. وفي ٩ بدأ في الجبهة الرومانية. وتطابق تقدم الجبهات الثلاث الأخيرة، الوهمية في مجموعها، مع بدء سحق الجبهة الرئيسية وهي جبهة الجنوب الغربي.

وقد أبلغ كرنسكي الحكومة المؤقتة بما يلي: "حققنا اليوم انتصارًا كبيرًا للثورة. فبتاريخ ١٨ يونيو (حزيران) قام الجيش الثوري الروسي بالهجوم بحماسة منقطعة النظير". وكتبت صحيفة ريتش التابعة للكاديت: "تحقق الحدث الذي لطالما انتظرناه، هذا الحدث الذي عاد بالثورة الروسية دفعة واحدة إلى أفضل أيامها". وبتاريخ ١٩ يونيو (حزيران) خطب بليخانوف المسن في مظاهرة وطنية قائلاً: "أيها المواطنون! إذا سألتكم في أي يوم نحن الآن، فإنكم ستردون علي أنه يوم الاثنين. ولكن هذا خطأ؛ إن اليوم هو الأحد. وهو يوم البعث لبلادنا وللديمقراطية في العالم أجمع. لقد قررت روسيا بعد أن تخلصت من نير القيصرية، التخلص من نير العدو". وقال تسيريتلي في اليوم ذاته في مؤتمر السوفييتات: "لقد فتحت صفحة جديدة في تاريخ الثورة الروسية الكبرى... وينبغي أن لا تحيي الديمقراطية الروسية نجاحات جيشنا الثوري فحسب، بل ينبغي أيضًا... أن يحيي جيشنا كل الذين يحاولون بالفعل محاربة الإمبريالية" لقد فتحت الديمقراطية الوطنية كل سدودها.

ونشرت الصحف خلال هذا الوقت خبرًا مفرحًا: "تحتفل بورصة باريس بالهجوم الروسي برفع أسعار كل الأسهم والسندات الروسية". وحاول الاشتراكيون تحديد متانة الثورة حسب لائحة الأسعار. ولكن التاريخ يعلمنا أن البورصة تصبح في وضع أفضل كلما كان وضع الثورة سيئًا.

إلا أن العمال وجنود حامية العاصمة لم ينجَرُّوا دقيقة واحدة في موجة الوطنية التي تؤجج بصورة مصطنعة، وبقيت أرض العمال وجنود الحامية في شارع نييفسكي. ويروي الجندي تشينينوف في مذكراته قائلاً ما يلي: "خرجنا إلى النييفسكي، وحاولنا إثارة الاضطراب ضد الهجوم. فهاجمنا البورجوازيون فورًا وأخذوا يضربوننا بالشمسيات... فاعتقلنا البورجوازيون وأخذناهم إلى الثكنات... وقلنا لهم بأنهم سيشحنون إلى الجبهة في اليوم التالي": كانت هذه الأعمال أعراض انفجار الحرب الأهلية الوشيكة الوقوع، وكانت أيام يوليو (تموز) تقترب.

* * *

بتاريخ ٢١ يونيو (حزيران) اتخذ فوج الرشاشات في بتروغراد في جمعية عامة القرار التالي: "لن نرسل بعد الآن قوات إلى الجبهة إلا في الحالات التي يكون فيها للحرب طابع ثوري"... ونظرًا لأن الحكومة كانت تهدد بحل الفوج، فقد رد الفوج على ذلك بأنه لن يتردد عن حل "الحكومة المؤقتة والتنظيمات الأخرى التي تدعمها". ومن جديد سمعنا هنا لهجات التهديد التي سبقت تحريض البلاشفة بكثير.

وذكرت أخبار الأحداث عن يوم ٢٣ يونيو (حزيران) ما يلي: "استولت عناصر من الجيش الحادي عشر على مجموعة الخنادق الأولى والثانية للخصم"... ونجد إلى جانب هذا الخبر الخبر التالي: "تمت انتخابات جديدة لسوفييت بتروغراد في مصنع بارانوفسكي (٦٠٠٠ عامل). وقد انتخب ثلاثة من البلاشفة بدلاً عن ثلاثة من الاشتراكيين - الثوريين".

وفي نهاية الشهر، تبدل شكل سوفييت بتروغراد تبدلاً تامًا. وبتاريخ ٢٠ يونيو (حزيران) كان السوفييت قد تبنَّى قرارًا أيَّد فيه الجيش على الهجوم الذي قام به. ولكن ما هي الأكثرية التي اتخذت هذا القرار؟ لقد تم اتخاذ هذا القرار بأكثرية ٤٧٢ صوتًا مقابل ٢٧١ صوتًا وامتناع ٣٩ عن التصويت. وكان هذا التصويت يمثل توازنًا جديدًا للقوى، لم نصادفه في السابق؛ فقد

أصبح البلاشفة يشكلون مع الجماعات اليسارية الصغيرة من المناشفة والاشتراكيين - الثوريين خُمْس مجلس السوفييت. وهـذا يعني أن خصوم الهجوم يشكلون في المصانع والثكنات أكثريَّة ساحقة.

وتبنى سوفييت دائرة فيبورغ بتاريخ ٢٤ يونيو (حزيران) قرارًا تبدو كل كلمة فيه مغروزة بمطرقة ثقيلة: "نحن... نحتج ضد مغامرة الحكومة المؤقتة التي تقوم بالهجوم من أجل معاهدات سلب قديمة... ونحمِّل الحكومة المؤقتـة والأحـزاب التـي تدعمها، والمناشفة والاشتراكيين - الثوريين كامل مسئولية هذه السياسة الهجومية". واستعادت جماعة فيبورغ الآن بثقة وأمـان مركزها بعد أن فقدته وأبعدت إلى الصف الثاني بعد انتفاضة فبراير (شباط) وكان البلاشفة يسيطرون سيطرة كاملة في سوفييت فيبورغ.

وأصبح كل شيء بعد ذلك مرتبطًا بمصير الهجوم، وبالتالي بالجنود الموجودين في الخنادق فما هـي التعـديلات التـي نتجت عن الهجوم في ضمير أولئك الجنود الذين أوكلوا مهمة تنفيذه؟ لقد كانوا يميلون إلى السلم بصورة لا تقاوم. ولكـن هـذا الميل هو بالضبط الميل الذي نجح الزعماء إلى حد ما في تحويله إلى إرادة للهجوم، لدى عدد من الجنود على الأقل.

ومنذ أن وقعت الانتفاضة كان الجنود ينتظرون من السلطة الجديدة إبرام السلم بسرعة، وكانوا بانتظار إبرامه مـستعدين للصمود في الجبهة. ولكن السلم لم يأت. وتوصَّل الجنود إلى التآخي مع الألمان والنمساويين؛ بتأثير البلاشفة وتحريضهم إلـى حد ما، ولكنهم توصلوا إلى ذلك من تلقاء أنفسهم وهم يبحثون بصورة خاصة عن سبيلهم الخاص نحو السلم. ومع ذلك، بـدأت عمليات العسف من كل جانب ضد التآخي. واكتشف، بالإضافة إلى هذا أن الجنود الألمان كانوا أبعد ما يكونون عن الـتخلص من أوامر ضباطهم. وهكذا ضعف التآخي إلى حد كبير بعد أن تبين أنه لم يؤد إلى السلم.

وفي هذه الغضون، سادت الجبهة هدنة واقعية. واستغل الألمان هذه الهدنة لنقل قوات ضخمة إلى جبهتهم الغربية. ورأى الجنود الروس بأم أعينهم كيف تم إخلاء الخنادق المعادية، وكيف رفعت الرشاشات منها، وكيف سحبت منها المدافع. على هذه المرئيات وضعت خطة الإعداد المعنوي للهجوم. وكانت القيادة تحاول باستمرار إقناع الجنود بأن العدو قد ضعف تمامًا، وأنـه لا يملك قوات كافية إلا في الغرب، وأن أمريكا تضغط عليه وأنه يكفي من جهتها إعطاء هِزَّة خفيفة لكي تنهار جبهـة العـدو، ونحصل على السلم بعدها. ولكن الزعماء لم يكونوا مؤمنين بهذا ولو لساعة واحدة. ولكنهم أسقطوا مـن حـسابهم أن الجـيش بمجرد أن يزلق يده في عجلة الحرب، لن نستطيع انتزاعها أبدًا.

ومما لا شك فيه أن جزءًا من الجنود مال إلى الطريق الثالث وهو القيام بصدمة تؤدي إلى انهيار الحرب بعد أن وجدوا أنهم لم يحققوا هدفهم لا بدبلوماسية الحكومة المؤقتة ولا بالتآخي مع العدو. هكذا عبَّر بالضبط أحد مندوبي الجبهة في مـؤتمر السوفييتات عن الحالة الفكرية للجنود: "إن أمامنا في الوقت الحاضر جبهة ألمانية أقل كثافة، وليس أمامنا مـدافع فـإذا تقـدمنا ودحرنا العدو، اقتربنا من السلم الذي نرغب فيه".

وكان الخصم في البدء في منتهى الضعف، وتراجع دون قبول قتال لم يكن المهاجمون يستطيعون خوضه بالفعل. ولكن الخصم كان يعيد تجمعه وحشد قواته بدلاً من أن يتفتت. واكتشف الجنود الروس بعد أن تقدموا عشرين أو ثلاثين كيلو مترًا في العمق لوحة كانوا يعرفونها جيدًا من تجربة السنوات السابقة؛ كان الخصم ينتظرهم على مواقع جديدة محصنة. وهنا أصبح من الواضح أن الجنود الذين قبلوا القيام باندفاعة جديدة من أجل السلم، لم يكونوا يريدون الحرب أبدًا. فتراجعوا مـشبعين بـسخط أكبر بعد أن انجَرُّوا إلى الأعمال العدوانية بمزيج من العنف والضغط المعنوي، والخداع بشكل خاص.

وقد قال الجنرال زايونكز كوفسكي أحد المؤرخين الروس للحرب العالمية ما يلي: "بعد تمهيد بالمدفعية من الجانب الروسي، لا مثيل له بقوته وعنفه، احتلت القطعات دون خسائر تقريبًا الموقع المعادي ولم ترغب بالتقدم إلى مدًى أبعد. وبدأت عمليات الفرار في كل النقاط، وتخلَّت قطعات بكاملها عن المواقع".

ويحكي دوروشنكو أحد الرجال السياسيين الأوكرانيين الذي كان مفوضًا سابقًا للحكومة المؤقتة في غاليسيا، أنه بعد الاستيلاء على مدينتي هاليكز وكالوسز "وقع في كالوسز "بوغروم"[1] رهيب ضد الأوكرانيين واليهود بصورة خاصة، ولكنهم لم يمسُّوا البولونيين. ووجهت عملية الإفناء والإبادة بيد مجربة غير معروفة كانت تعين مؤسسات الثقافة والتعليم الأوكرانية المحلية بصورة خاصة". وساهم في عملية التدمير والإبادة "أفضل القوات وأقلها تأثرًا بالثورة" والمنتقاة بعناية من أجل الهجوم. وقد برزت في هذه العملية وبوضوح كبير، الوجوه الحقيقية لقادة الهجوم وضباط القيصر، المشبعين بتجارب تنظيم "البوغرومات".

وبتاريخ ٩ يوليو (تموز) أبرقت لجان الجيش الحادي عشر ومفوضوه إلى الحكومة تقول: "إن الهجوم الألماني الذي بدأ في ٦ يوليو (تموز) على جبهة الجيش الحادي عشر يتحول إلى كارثة لا يمكن تقديرها آثارها... وتأكد حدوث تحول مفاجئ ومأساوي في الحالة الفكرية للقطعات التي تقدمت مؤخرًا بفضل الجهود البطولية للأقلية. وقد تحول زخم الهجوم بسرعة إلى العدم. وأصبحت أكثرية القوات في حالة تفتت متزايد. ولا يمكن التحدث فيها أبدًا عن سلطة وتبعية، وفَقَد التأنيب والإقناع قوتهما، وأخذ الجنود يردون عليهما بالتهديد وبإطلاق النيران أحيانًا".

وأصدر القائد العام للجبهة الجنوبية الغربية، بموافقة المفوضين واللجان الأمر بإطلاق النار على الفارين.

وبتاريخ ١٢ يوليو (تموز) كان دينيكين القائد العام للجبهة الغربية يعود إلى مقر هيئة أركانه "والموت في نفسه، وهو واعٍ كل الوعي للانهيار التام لآخر أمل... ولمعجزة ما زالت تبرق".

لم يكن الجنود يريدون القتال. وعندما توجهت القطعات التي ضعفت بعد إحلال الخنادق المعادية إلى قطعات المؤخرة تطلب منها تبديلها، ردت قطعات المؤخرة بما يلي: "لماذا قمتم بالهجوم؟ مَن الذي أمركم بذلك؟ ينبغي أن ننتهي من الحرب وأن لا نهاجم". واعلم قائد الفيلق السيبيري الأول -الذي يعتبر فيلقه من أفضل الفيالق في الجيش الروسي- أن الجنود ابتعدوا عند هبوط الليل عن الخط الأول الذي لم يهاجم بعد بجماعات، وبسرايا كاملة، وأضاف قائلاً: "فهمت عندئذ أننا نحن القادة عاجزون عن تعديل النفسية الأولية لجماهير الجنود؛ وأجهشت بالبكاء بمرارة، وبمرارة خلال فترة طويلة".

وقد رفضت إحدى السرايا أن تمرر منشورًا يتضمن استيلاء القوات الروسية على هاليكز موجهًا للخصم لأننا لم نجد جنديًّا يتمكن من ترجمة النص الألماني إلى اللغة الروسية.

وتدل هذه الواقعة على حذر كتلة الجنود تجاه الزعماء القدماء والجدد، زعماء فبراير (شباط). وأن قرونا من التحقير والعنف تقوم بثورة بركانية.

وأحس الجنود من جديد بأنهم خدعوا. وكان الهجوم لا يؤدي إلى السلم، بل إلى الحرب. ولا يريد الجنود الحرب أبدًا. وكان الوطنيون الذين يكمنون في المؤخرة يطاردون الجنود ويهينونهم كجبناء. ولكن الجنود كانوا على حق. فقد كانت الغريزة الوطنية الصحيحة هي التي توجههم، هذه الغريزة التي انعكس إشعاعها عبر وجدان الرجال المضطهدين، والمخدوعين،

والمعذبين الذين أيقظهم الأمل الثوري وغرقوا من جديد في الورطة الدموية. كان الجنود على حق. فاستمرار الحرب لا يمكن أن يعطي للشعب الروسي سوى مزيد من الضحايا، والعار، والمصائب، ولا شيء آخر سوى تعزيز إذلال الروس داخليًّا وخارجيًّا.

ولم تتعب الصحافة الوطنية في عام ١٩١٧ من الإشارة إلى التناقض بين الجنود الروس الفارين والجبناء والكتائب الشجاعة للثورة الفرنسية الكبرى. ولم يكن هذا الموقف موقف صحافة الكاديت فحسب، بل شمل موقف صحافة الاشتراكيين أيضًا. ولا تبرهن هذه المقارنات على عدم فهم لجدلية التطور الثوري فحسب، بل أنها تبرهن أيضًا عن جهل تام بالتاريخ.

فقد بدأ كبار القادة اللامعين للثورة والإمبراطورية الفرنسية كمفتتين لا كمنظمين، وخالفوا الانضباط وخرقوه. وسيقول ميليوكوف إنهم بدءوا: كبلاشفة. فقد فتت الملازم دافو الذي أصبح الماريشال دافو فيما بعد، الانضباط "العادي" في موقع إيسدن خلال أشهر طويلة من عام ١٧٨٩ – ١٧٩٠، وطرد القادة. ووقع تفتيت كامل للجيش القديم تم في كل أنحاء فرنسا حتى منتصف عام ١٧٩٠، وأجبر جنود فوج فانسين ضباطهم على التشاور معهم. وطرد بحارة الأسطول الفرنسي ضباطهم. وارتكب جنود ٢٠ فوجًا أعمال العنف المختلفة الأنواع ضد القيادات. وفي نانسي سجن جنود ثلاثة أفواج ضباطهم. واعتبارًا من عام ١٧٩٠ لم يتوقف خطباء الثورة الفرنسية الشعبيون عن تكرار ما يلي: "إن السلطة التنفيذية هي المجرمة لأنها لم تعزل الضباط المعادين للثورة". وذلك دفاعًا عن أعمال التطرف التي وقعت في الجيش. ومن المدهش أن **ميرابو وروبسبيير** قد أبديا رأيهما في تسريح الضباط القدامى. وكان **الأول** يفكر في إعادة إقرار انضباط قوي بأسرع ما يمكن. أما **الثاني** فكان يريد نزع سلاح الثورة المضادة. ولكن كلاهما فَهما أن الجيش القديم لا يمكن أن يبقى.

حقًا أن الثورة الروسية تختلف عن الثورة الفرنسية في أنها وقعت في زمن الحرب. ولكن هذا ليس سببًا لاستثنائها من القانون التاريخي الذي أشار إليه آنجلس. فعلى العكس، ليس بوسع شروط حرب طويلة وتعيسة إلا أن تسارع وتزيد من حدة تطور التفتت الثوري للجيش. وقد قام الهجوم الفاشل الإجرامي للديمقراطية ببقية التفتيت. ومنذ هذا الوقت، كان جميع الجنود يقولون: "كفى إراقة للدماء! ماذا تجدي الحرية والأرض إذا لم نكن موجودين على قيد الحياة؟"، وليس أسخف وأدعى إلى السخرية من إتباع النزعة السلمية للمتعلمين الذين يحاولون إلغاء الحرب بمبررات عقلانية، ولكن عندما تُحرِّك الجماهير المسلحة ذاتها حججًا منطقية ضد الحرب، فهذا يعني أن الحرب تقترب من نهايتها.

الهوامش

(١) POGROME كلمة روسية تعني العمليات القيصرية التي كانت تستهدف إبادة اليهود. (المعربان)

الطبقة الفلاحية

كانت الأسس العميقة للثورة كامنة في المسألة الزراعية. ووسط النظام القديم لملكية الأرض الناجم مباشرة عن نظام القِنانة، ووسط السلطة التقليدية للملاك النبيل، والأربطة الوثيقة مع هذا الملاك، كانت للإدارة المحلية والزيمستفو الطائفي جذورهما في أبرز ظواهر البربرية في الوجود الروسي، والتي جاءت الملكية الراسبوتينية لتكللها. وكان الموجيك الذي يعتبر دعامة الآسيوية الموغلة في القدم، هو في الوقت نفسه أحد ضحاياها الأوائل.

وقد بقي الريف سلبيًا في الأسابيع الأولى التي تلت انتفاضة فبراير (شباط). وكانت الأجيال الريفية الفعالة في الجبهة. أما كبار السن، الذين بقوا في منازلهم فقد كانوا يتذكرون أن الثورة تنتهي بحملات تأديبية ضد الثوار. ونظرًا لأن القوة سكتت، فقد سكتت المدينة عن القرية. بَيْد أن شبح الحرب الفلاحية أخذ يحوم حول أعشاش الملاكين النبلاء منذ شهر مارس (آذار). وسمع نداء النجدة قادمًا من أكثر المناطق الآهلة بالنبلاء، أي من أكثر المناطق تخلفاً ورجعية، حتى قبل ظهور خطر حقيقي. وكان الليبراليون يعكسون مخاوف الملاكين، على حين يعكس التوفيقيون الحالة الفكرية لليبراليين. وقد قال سوخانوف معللاً "اليسار" بعد الانتفاضة "أن إثارة المسألة الزراعية بحدة في الأسابيع القريبة مضر، ولا حاجة بنا إلى ذلك". ونحن نعرف أن سوخانوف وجد بنفس الطريقة والأسلوب أن من الضرر إثارة مسألة السلم، ومسألة تحديد يوم العمل بثماني ساعات. فقد كان تجنُّب الصعوبات وتحاشيها أسهل بكثير. وبالإضافة إلى هذا، كان الملاكون النبلاء يستخدمون التخويف والإرهاب، قائلين بأن الانقلاب في العلاقات الزراعية سيؤدي إلى الإضرار بالزراعة وتموين المدن. وكانت اللجنة التنفيذية ترسل البرقيات إلى المناطق وتُوصي "بعدم الانجرار لحل المسائل الزراعية على حساب تموين المدن".

وامتنع الملاكون الذين أرهبتهم الثورة في كثير من القرى عن القيام بزراعات الربيع. ونظرًا لوضع البلاد الخطير من ناحية التموين، كانت الأراضي البور تتبدى وكأنها تنادي من تلقاء ذاتها مالكًا جديدًا. وكانت الطبقة الفلاحية تتحرك خفية. وشرع الملاكون النبلاء بتصفية ممتلكاتهم بسرعة نظرًا لأنهم لا يعتمدون على السلطة الجديدة ولا يثقون بها. وبدأ الكولاك بشراء كثير ومزيد من أراضي النبلاء، بعد أن قدَّروا أن نزع ملكية الأراضي بالإكراه لن يمسهم كفلاحين. واتسم عدد كبير من صفقات بيع أراضي النبلاء بصفة وهمية. فقد كانوا يفترضون أن الملكيات الخاصة التي تتجاوز حدًا معينًا لن تُمس، وهكذا قسم الملاكون النبلاء ممتلكاتهم بصورة مصطنعة إلى قطع صغيرة من الأرض، مستعينين بأشخاص لا رأي لهم، واستخدموا أسماءهم بصورة وهمية. وكثيرًا ما سُجلت بعض الأراضي بأسماء أجانب، أو مواطنين من دول الحلفاء أو مواطنين من دول حيادية. وكانت مضاربة الكولاك واختلاسات الملاكين النبلاء تهدد بعدم بقاء أي ملاك زراعية واسعة عند دعوة المجلس التأسيسي.

وكان القرويون يرون هذه المناورات. ولهذا وُلد المطلب الآتي الذي قدمه أبناء الريف: إصدار مرسوم يوقف كل عمليات بيع الأراضي. وتوجه بعض الوسطاء من الفلاحين إلى المدن، وإلى السادة الجدد كيما يطالبون بالأرض والعدالة. وحدث أكثر من مرة أن التقى الوزراء عند خروجهم من الجلسات الحافلة بالجدل والمناقشات أو بعد الاحتفالات أو الحفلات الرسمية بشخصيات متواضعة، وبمندوبي الفلاحين الذين جاءوا ليثيروا هذا الموضوع مع الوزراء. وقد روى سوخانوف أن أحد معقبي المعاملات كان يرجو الوزراء - المواطنين، والدموع تنهمر من عينيه لإصدار قانون يحمي العقارات من عمليات البيع. (وقاطعه كرنسكي بعد أن عِيل صبره وهو مضطرب وشاحب الوجه: قلت إن القانون سيصدر، إذن سيصدر... ولا داعي لأن تنظر إليَّ نظرة حذر". وأضاف سوخانوف الذي حضر هذا المشهد قائلاً ما يلي: "إني أنقل الواقعة حرفيًا -وكان كرنسكي على حق- كانت أنظار الموجيك للوزير العظيم وزعيم الشعب لا توحي بالثقة". وفي هذا الحوار القصير بين هذا

الفلاح الذي ما زال يتوسل، لكنه لا يثق بالوزير أبدًا، والوزير الراديكالي الذي يستنكر حذر الفلاح بإشارة منه، في هذا الحوار تظهر حتمية انهيار نظام فبراير (شباط).

ونشر الكاديت شينغاريف أول وزير للزراعة قانون اللجان الزراعية، بصفتها أجهزة لإعداد الإصلاح. وتألفت اللجنة الزراعية العليا وعين على رأسها البيروقراطي الليبرالي البروفسور بوستنيكوف، وضمت هذه اللجنة بصورة خاصة عددًا كبيرًا من الشعبيين الذين كان أخشى ما يخشونه، هو التظاهر بأنهم أقل اعتدالاً من رئيسهم. وشكلت لجان زراعية محلية في المقاطعات (الحكومات) والنواحي، والأقسام. وفي حين كانت السوفييتات المعتبرة كأجهزة خاصة تحاول الدخول بصعوبة إلى الوسط الزراعي، كانت اللجان الزراعية تتمتع بصفة حكومية. وكان عدم تحديد وظائفها يزيد صعوبة مقاومتها أمام اندفاعة الفلاحين. وكلما هبطت اللجنة في سلم تسلسل اللجان، كلما ازداد اقترابها من الأرض، وأصبحت أداة الحركة الفلاحية بسرعة أكبر.

وبدأت المعلومات المثيرة للقلق تصل إلى العاصمة في حوالي نهاية مارس (آذار)، وتشير هذه المعلومات إلى دخول الفلاحين ساحة العمل. وقد أعلن مفوض نوفوغورود برقيًا عن وجود فتن أثارها أحد الملازمين واسمه باناسيوك "وقوع اعتقالات لملاكين من النبلاء لا مبرر لها" ...إلخ، ونهبت عصابة من الفلاحين على رأسها بعض الجنود المجازين بيت أحد الإقطاعيين النبلاء في حكومة طامبوف. وكانت البيانات الأولى مبالغًا فيها دون شك؛ إذ ضخم الملاكون في الشكاوي التي قدموها حجم النزاعات. وكان في شكاواهم توقعًا لما سيحدث. ولكن من المؤكد أن الجنود الذين جلبوا معهم من الجبهة ومن حاميات المدن روح المبادءة، لعبوا دور القيادة في الحركة الفلاحية، وكانوا على رأسها.

وقررت إحدى لجان قسم حكومة خاركوف بتاريخ ٥ إبريل (نيسان) القيام بمصادرة الأسلحة الموجودة لدى الملاكين. ونجد هنا إحساسًا واضحًا بالحرب الأهلية. ويفسر المفوض ظهور الاضطرابات في ناحية سُكوبين، التابعة لحكومة ريازان بقرار اتخذته اللجنة التنفيذية لناحية مجاورة لإجبار الملاكين النبلاء على تأجير أراضيهم للفلاحين، "لم ينجح تحريض الطلاب للحصول على التهدئة إلى أن ينعقد المجلس التأسيسي". وهكذا علمنا أن "الطلاب" -الذين حرَّضوا الفلاحين على القيام بالإرهاب الزراعي، إبان الثورة الأولى، وكان الإرهاب الزراعي هو تكتيك الاشتراكيين - الثوريين في ذلك الوقت، يدعون في عام ١٩١٧ إلى الهدوء والمحافظة على الشرعية، ولكن دعوتهم لم تحقق وأيّم الحق أي نجاح.

ورسم مفوض حكومة سامبيرسك لوحة لحركة فلاحية أكثر تطورًا: إن لجان القسم والقرية -سنتحدث عنها فيما بعد- تعتقل الملاكين وتطردهم من المناطق، وتطرد العمال الزراعيين من حقول الملاكين، وتستولي على الأراضي، وتضع أسعارًا تعسفية لاستئجار الأراضي الزراعية. "وينحاز المندوبون الذين ترسلهم اللجنة التنفيذية إلى جانب الفلاحين". وبدأت في الوقت ذاته **حركة** "**المشاعيات**" ضد **حركة** "**قطع الأرض الجديدة**"، أي ضد الفلاحين الأغنياء الذين انفصلوا عن المشاعيات وأخذوا قطعًا مستقلة من الأرض، على أساس **القانون الستوليبيني** الصادر في ٩ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٠٦. ويقول مفوض حكومة سامبيرسك: "إن الوضع في المنطقة يهدد الزراعة". وأن هذا المفوض لا يرى منذ إبريل (نيسان) مخرجًا آخر للوضع سوى الإعلان الفوري بأن الأرض ملكية وطنية، حتى يحدد المجلس التأسيسي فيما بعد طرق الاستغلال الزراعي.

ووجهت شكاوى من ناحية كاشيرا القريبة من موسكو ضد اللجنة التنفيذية التي تهيج المواطنين وتحرضهم للاستيلاء على أراضي الكنائس والأديرة وأملاك النبلاء، دون دفع أي تعويض عنها. وفي حكومة كورسك، طرد الفلاحون من النواحي أسرى الحرب الذين كانوا يعملون في الأرض. وحبسوهم في السجن المحلي. وتحرك المزارعون في حكومة بينزا، والميَّالون إلى تطبيق قرارات الاشتراكيين - الثوريين عن الأرض والحرية حرفيًّا، وبدءوا بخرق العقود التي أبرمت مؤخرًا مع ملاكي

الأراضي الزراعية. وقادوا في الوقت ذاته هجومًا ضد أجهزة السلطة الجديدة. ويروي مفوض بينزا ما يلي: "عند تشكيل اللجان التنفيذية للنواحي والأقسام في مارس (آذار)، دخل المثقفون فيها بأكثرية كبيرة، ولكن سرعان ما ارتفعت فيما بعد أصوات الاحتجاج ضد الأنتليجنسيا. ومنذ منتصف إبريل (نيسان)، تألفت كل اللجان من فلاحين بصورة خاصة، كانت ميولهم تتجه بالنسبة للأرض إلى اللا شرعية بوضوح".

واشتكت مجموعة من الملاكين في منطقة مجاورة حكومة قازان للحكومة المؤقتة عن استحالة إمكان قيامها بالاستثمارات نظرًا لأن الفلاحين يطردون العمال الزراعيين، ويسرقون الحبوب، ويصادرون كل مفروشات الإقطاعيات في كثير من الأماكن، ويمنعون الملاكين من قطع الأخشاب في غاباتهم، ويتفوهون بعبارات التهديد المتسمة بالعنف والتعريض بالموت "فلا وجود للعدالة. ويصنع الجميع ما يريدون، وتعيش العناصر العاقلة في ظل الإرهاب". وكان ملاكو حكومة قازان يعرفون من هو المسئول عن الفوضى: "إن قرارات الحكومة المؤقتة مجهولة في القرى، لكن منشورات البلاشفة منتشرة كثيرًا".

ومع هذا، لم تكن تعليمات الحكومة المؤقتة هي ما تفتقر إليه المناطق. فقد دعا الأمير لفوف المفوضين في برقية أرسلها بتاريخ ٢٠ مارس (آذار) إلى إنشاء لجان للأقسام تكون بمثابة أجهزة للسلطة المحلية، وأوصى بالإضافة إلى هذا بربط "الملاكين المحليين وكل القوى المثقفة في الريف" بعمل هذه اللجان. وكانوا يعدون تنظيم كل بنية الدولة حسب **أسلوب غُرَف المصالحة والتوفيق**. وقد اضطر المفوضون بعد هذا إلى سكب الدموع، عندما وجدوا أن "**القوى المثقفة**" مبعدة عن العمل: وبالطبع لم يكن الموجيك يثق بأنصار كرنسكي في الناحية أو القسم.

وبتاريخ ٣ إبريل (نيسان) تحدث الأمير أوروسوف معاون الأمير لفوف في رئاسة مجلس الوزراء -ونرى أن في وزارة الداخلية كثيرًا من الشخصيات ذات الرتب والألقاب- وأوصى بعدم التساهل إزاء أي عمل استبدادي، وأوصى بشكل خاص بحماية "حرية كل مالك في إدارة أرضه"، أي أنه أوصى بحماية أشهى الحريات لمثل هؤلاء الأشخاص.

وبعد عشرة أيام قدر الأمير لفوف ذاته ضرورة قيامه شخصيًّا بهذه المهمة، فأمر المفوضين "بإيقاف كل أعمال العنف والنهب بكل الوسائل التي يسمح بها القانون". وبعد يومين، أوصى الأمير أوروسوف أحد مفوضي المناطق "باتخاذ التدابير لحماية حظائر الخيول من كل الأعمال التعسفية وإفهام الفلاحين..." إلخ.

وبتاريخ ١٨ إبريل (نيسان) قلق الأمير أوروسوف من أن أسرى الحرب الذين يعملون في أراضي الملاكين النبلاء أخذوا يتقدمون بمطالب مبالغ فيها. فأمر المفوضين بفرض عقوبات على هؤلاء الوقحين استنادًا إلى الحقوق الممنوحة سابقًا للحكام القيصريين وكانت الأوامر الدورية، والتعليمات، والأوامر البرقية تتساقط من السدة العليا كالمطر المتواصل. وفي ١٢ مايو (آيار) عدَّد الأمير لفوف في برقية جديدة الأعمال اللاشرعية التي "ما زالت تقع في كل البلاد": اعتقالات تعسفية، مصادرات، تسريح موظفين، طرد مديري الأملاك ومدراء المصانع والورش، تدمير الممتلكات، وأعمال النهب والفوضى، أعمال العنف التي تمارس ضد أشخاص مرموقين يحتلون مناصب هامة، فرض الضرائب على السكان، تحريض جزء من الشعب ضد جزء آخر ...إلخ. "وينبغي اعتبار كل عمل من هذا النوع عملاً لا شرعيًّا، وعملاً فوضويًّا في بعض الحالات..."، وليس الوصف واضحًا تمامًا. ولكن الاستنتاج واضح كل الوضوح، وهو: "اتخاذ أقسى التدابير". وكان مفوضو المناطق يوزعون الأمر الدوري على النواحي بصورة تتسم بالحزم، ويضغط مفوضو النواحي على لجان الأقسام. وكان الجميع في النتيجة يكتشفون عجزهم تجاه الموجيك.

وقد تدخلت التشكيلات العسكرية القريبة في هذه المشكلة، وفي كل مكان. وغالبًا ما كانت تعود إليها المبادءة في مثل هذه الأعمال. واتخذت الحركة أشكالاً مختلفة جدًا، تبعًا للشروط المحلية ودرجة ازدياد حدة الصراع. وفي سيبريا، حيث لا وجود للملاكين النبلاء، استملك الفلاحون أراضي الكنائس والأديرة. فضلاً عن هذا كان رجال الدين في وضع سيء في أنحاء أخرى من البلاد. وتعرض الكهنة والرهبان في الحكومة التقية لسمولنسك إلى الاعتقال تحت تأثير الجنود العائدين من الجبهة. واضطرت السلطات المحلية إلى السير في التدابير والإجراءات إلى مدى أبعد مما كانت ترغب فيه، بغية منع الفلاحين من اتخاذ تدابير جذرية. وعينت اللجنة التنفيذية لناحية حكومة سامارا وصاية عامة، في مطلع مايو (آيار) على ممتلكات الكونت أورلوف - دافيدوف، وحمته بهذا الشكل من تدابير الفلاحين.

وبما أن المرسوم الذي وعد كرنسكي بإصداره، هذا المرسوم الذي ينبغي أن يحرم بيع الأراضي، لم يصدر أبدًا، بدأ الفلاحون في استخدام قبضات أيديهم ليمنعوا عمليات البيع وقاوموا مسح الأراضي. وازدادت عمليات مصادرة أسلحة الملاكين، حتى صودرت منهم بنادق الصيد. واعتبر موجيك حكومة منسك، حسب شكوى أحد المفوضين "قرارات مؤتمر الفلاحين قانونًا نافذ المفعول". ولكن، كيف يمكن فهم هذه القرارات بشكل آخر؟ طالما أن هذه المؤتمرات تشكل في نهاية المطاف السلطة الحقيقية الوحيدة في المناطق. وهكذا وقع الخلاف الكبير بين الأنتليجنسيا الاشتراكية - الثورية التي تتشدق بالكلمات وبين طبقة الفلاحين التي تطالب بالأعمال.

وفي نهاية مايو (أيار) تحرك السهل الآسيوي الفسيح. فانتفض أهالي قرغيزيا -الذين انتزع القياصرة منهم أفضل أراضيهم ومنحوها لأتباعهم- وثاروا ضد الملاكين، وطالبوهم بتصفية ممتلكاتهم المغتصبة بأسرع ما يمكن، ويؤكد مفوض أكمولينسك ذلك بقوله: "ويزداد تأكيد وجهة النظر هذه في السهوب".

وفي الناحية الأخرى من البلاد، وفي حكومة ليفونيا، أرسلت لجنة تنفيذية لناحية من النواحي لجنة تحقيق لتحقق في سلب أملاك البارون ستهال فون هولشتاين. واعترفت لجنة التحقيق بأن أعمال الفوضى كانت تافهة، وأن وجود البارون في الناحية يسيء إلى الهدوء. وقد اتخذت لجنة التحقيق القرار التالي: طرد البارون والبارونة إلى بتروغراد، ووضعهما تحت تصرف الحكومة المؤقتة. وهكذا وُلد أحد النزاعات التي لا تعد بين السلطة المحلية والسلطة المركزية، وبين الاشتراكيين - الثوريين في القاعدة والاشتراكيين – الثوريين في القمة.

ويرسم تقرير أرسلته ناحية بافلوغراد (حكومة إيكاتيرينوسلاف) بتاريخ ٢٧ مايو (أيار) لوحة شبه مثالية: أن أعضاء اللجنة الزراعية يوضحون للشعب كل الخلافات وبهذا الشكل "يحولون دون قيام أي عمل متطرف". ومن المؤسف أن هذه المثالية الساذجة لم تستمر إلا بضعة أسابيع.

وفي نهاية مايو (آيار) قدم أحد الآباء من رؤساء أحد أديرة كوستروما شكوى مريرة إلى الحكومة المؤقتة يشتكي فيها من الفلاحين الذين صادروا ثُلث الدواب ذات القرون التابعة للدير. وكان بوسع الراهب المحترم أن يكون أكثر تكتمًا؛ فقد اضطر فيما بعد إلى خسارة الثلثين الآخرين.

وبدأت حكومة كورسك تضطهد الفلاحين الذين يملكون أجزاء صغيرة من الأرض والذين رفضوا الدخول في المشاعيات. فقد كانت الطبقة الفلاحية تريد أن تتقدم ككلٍ واحد إزاء الثورة الزراعية الكبرى وقبل توزيع الأراضي بالتساوي. فقد يخلق وضع الحواجز في الداخل بعض العوائق. ومن واجب المجموع (المير) أن يسير كرجل واحد. ورافقت المعركة من أجل الاستيلاء على أراضي النبلاء أعمال عنف ضد المزارع أي ضد المزارعين الفرديين.

وفي نهاية مايو (آيار) اعتقل الجندي صاموئيلوف، في حكومة برم لأنه كان يحث الناس على رفض دفـــع الـــضريبة. وبعد ذلك أصبح صاموئيلوف نفسه هو الذي يقوم بالاعتقالات. وقام الفلاح غريتسانكو خلال موكب كان يطوف إحـــدى قـــرى حكومة خاركوف، بتحطيم أيقونة وقورة للقديس: نيقولا بضربات من بلطته أمام كافة الأهالي. بهذا الشكل ظهرت كـــل أنـــواع الاحتجاج التي تحولت إلى أعمال.

وقد رسم **أحد ضباط البحرية**، الذي كان هو نفسه من الملاكين النبلاء **في مذكراته المجهولة "ملاحظات حارس أبيض"** لوحة معبرة عن تطور القرية في الأشهر الأولى التي تلت الانتفاضة. ففي كل المناصب "كان يتم انتخاب رجال مـــن الأوســـاط البرجوازية. وكان اتجاه الجميع هو المحافظة على النظام فقط". حقًا، كان الفلاحون يطالبون بالأرض، ولكنهم كـــانوا يطـــالبون بها دون استخدام العنف في الشهرين الأولين أو الأشهر الثلاثة الأولى. وعلى العكس، كنا كثيرًا ما نسمع الأقوال التالية: "نحـــن لا نريد أن ننهب، نريد أن نعالج الموضوع بصورة ودية" ...إلخ، ومع ذلك فقد ميَّز الملازم في هذه التأكيدات المطمئنة "تهديدًا مستترًا". والواقع، إذا كانت الطبقة الفلاحية لم تلجأ في الفترة الأولى إلى العنف "فقد أظهرت حذرها فورًا" تجاه ما يسمى بالقوى المثقفة. وبقيت حالة نصف التفرج الفكرية -حسب أقوال الحارس الأبيض- حتى مايو (آيار) ويونيو (حزيران). "ولوحظ بعـــد هذا تحول مفاجئ وظهور ميل إلى مناقشة توجيهات السلطات في المناطق، وتسوية الأمور بصفة تعسفية..." وبعبارات أخرى، كانت الطبقة الفلاحية قد تركت لثورة فبراير (شباط) مهلة ثلاثة أشهر لتنفيذ وعود الاشتراكيين - الثوريين. ثم بدأت بعد هـــذه المهلة بالمصادرات مستخدمة سلطتها.

وقد ذهب الجندي البلشفي تشينيونوف بعد الانتفاضة، مرتين من منزله فـــي موســـكو إلـــى حكومـــة أوريـــل. وكـــان الاشتراكيون - الثوريون يسيطرون على القسم حتى مايو (أيار). وكان فلاحو الموجيك يدفعون للملاكين أجرة الأراضـــي فـــي عدد من المناطق. ونظم تشينينوف خلية بلشفية من الجنود والعمال الزراعيين والفلاحين الذين يفتقرون إلى الأراضي الزراعية. وكانت الخلية تحرض على الامتناع عن دفع الأجور، وتوزيع الأرض على من يفتقرون إليها. ودخلت مراعي الملاكين فـــورًا في الحساب ووزعت بين القرى، وحصدت "وكان الاشتراكيون - الثوريون الذين استقروا في لجنة القسم يصرخون بلا شرعية أعمالنا، بَيْد أنهم لم يرفضوا أخذ حصتهم من العلف". ولما أخذ ممثلو القرى يستقيلون من وظائفهم، انتخب الفلاحـــون ممثلـــين آخرين أكثر تصميمًا. ولم يكن المنتخبون الجدد من البلاشفة دائمًا، بل على العكس.

وأحدث الفلاحون بضغطهم المباشر على الحزب الاشتراكي - الثوري انشقاقًا فيه وفصلوا العناصر التي يحدوها فكـــر ثوري عن الموظفين، ومحترفي العمل الحكومي. وبعد أن حصد الموجيك عشب الأسياد، اســـتولوا علـــى الأراضـــي البـــور وتقاسموها من أجل الزراعات الشتوية. وقررت الخلية البلشفية مصادرة الحبوب من أهراء الملاكين، وشحن احتياطي الحبـــوب إلى المركز الجائع. ونفذت قرارات الخلية لأنها تتفق مع الحالة الفكرية للفلاحين. وكان تشينينوف قد جلب معه إلـــى موطنـــه الأصلي مطبوعات بلشفية، لم يكن لدى الفلاحين قبل وصوله أية فكرة عنها. وأضاف تشينينوف قائلاً ما يلي: "وأشاع المثقفـــون الاشتراكيون - الثوريون في المنطقة أنني جلبت معي كثيرًا من الذهب الألماني، وأنني أرشو الفلاحين"، وسرت إشاعات مماثلة واتسعت إلى حد ما. فقد كان في كل قسم عدد من أنصار ميليوكوف وكرنسكي ولينين.

وفي حكومة سمولنسك، بدأ نفوذ الاشتراكيين - الثوريين يقوى بعد مؤتمر المنطقة الذي ضم مندوبي الفلاحـــين، هـــذا المؤتمر الذي تبنَّى تسليم الأرض للشعب. بحسب الحق والصواب. وتمسك الفلاحون بالقرار تمـــسكًا تامًـــا وبـــصورة جديـــة، متميزين في ذلك عن الزعماء. ومنذ ذلك الوقت، ازداد عدد الاشتراكيين - الثوريين في الأريـــاف. وروى أحـــد المناضـــلين المحليين قائلاً: "كان كل من حضر أي مؤتمر في جناح الاشتراكيين - الثوريين، يعتبر نفسه على الأقل اشتراكيًّا – ثوريًّـــا، أو

أي شيء آخر من هذا القبيل..." وكان في حامية مركز الناحية فوجان تحت نفوذ الاشـتراكيين - الثـوريين. وبـدأت اللجـان الزراعية للأقسام بحرث أراضي الملاكين النبلاء، وحصد المراعي. وكان الاشتراكي - الثوري إيفيمـوف مفـوض المنطقـة يرسل الأوامر التهديدية بالعقاب. وكانت القرية حائرة ومندهشة: ألم يقل هذا المفوض ذاته في مـؤتمر المنطقـة أن الفلاحـين يشكلون الآن السلطة ذاتها، وأن الوحيد الذي يستفيد من الأرض هو الذي يعمل فيها بنفسه؟ ولكن من الواجب أن نعتمـد علـى الوقائع. وقد أحيل إلى القضاء في ناحية ألنينو وحدها ١٦ لجنة قسم زراعية من أصل ١٧ في خلال الأشـهر التاليـة بجريمـة الاستيلاء على أراضي الملاكين، وذلك بأمر من المفوض إيفيموف الاشتراكي - الثوري. وبهذا الشكل كانـت تتحـرك قـصة الأنتليجنسيا الشعبية إلى نهايتها مع الشعب. ولم يكن في الناحية كلها أكثر من ثلاثة أو أربعة من البلاشفة. وكان نفوذهم يتضخم مع ذلك بسرعة ويقضي على الاشتراكيين - الثوريين أو يحدث الانشقاق بين صفوفهم.

وفي بداية مايو (آيار) انعقد **المؤتمر الفلاحي لعموم روسيا** في بتروغراد. وكانت الوفود إلـى هـذا المـؤتمر تمثـل القيادات، وتتسم في الغالب بطابع صُدفي. وإذا كان مؤتمر الفلاحين والجنود متخلفًا بلا ريب عن مسار الأحداث وعن التطـور السياسي للجماهير، فمن العبث أن نقول كم كان تمثيل طبقة الفلاحين المبعثرة متخلفًا عن الحالة الفكرية للأريـاف. فلقـد تقـدَّم المثقفون الشعبيون لليمين المتطرف كمندوبين عن الفلاحين، كما تقدم لتمثيلهم رجال مرتبطون بـالفلاحين بواسـطة التعـاون التجاري أساسًا أو بذكريات الشباب. أما "الشعب" الحقيقي فقد مثَّله المزارعـون الأغنيـاء، الكـولاك، وأصـحاب الحوانيـت، والفلاحون التعاونيون. وكان الاشتراكيون - الثوريون يسيطرون على المؤتمر سيطرة كاملة، ويحملون طابع يمينهم المتطرف. ومع ذلك كان الاشتراكيون - الثوريون في بعض الأحيان يتوقفون، وقد تولاهم الذعر من الحرص المدهش على الأرض الذي سيطر على أعضاء المؤتمر، و**فِكر المائة السود السياسي** الذي كان واضحًا لدى بعض المندوبين. وقد اتخذ في المؤتمر موقف مشترك مغرق في راديكاليته إزاء الملكية الإقطاعية للنبلاء. فقد نصت المقررات المتخذة على الصيغة التاليـة: "تـصبح كـل الأراضي أملاكًا عامة بغرض استخدامها من قبل جمهرة العاملين فيها بصورة متساوية، دون أي شراء". ومن الطبيعـي أن لا يفهم الكولاك عملية التساوي إلا بمعنى مساواتهم بالملاكين النبلاء، لا بمعنى مساواتهم بالعمال الزراعيين. ومع ذلك لم يظهـر هذا الخلاف الصغير بين الاشتراكية الشعبية الوهمية والديمقراطية الزراعية للموجيك إلا فيما بعد.

وكان تشيرنوف وزير الزراعة يتحرق شوقًا لتقديم هدية مفتخرة إلى مؤتمر الفلاحين. وكان يتجول بدون جدوى وبيـده مشروع مرسوم يمنع بيع الأراضي. وجاء وزير العدل الاشتراكي - الثوري بيريفيرسيف خلال أيام انعقـاد المـؤتمر وأمـر السلطات المحلية بأن لا تضع أية عقبة أمام عمليات بيع الأراضي. واحتج مندوبو الفلاحين على هذا الأمـر وأثـاروا بعـض الصخب حوله. ولكن احتجاجهم لم يؤدِ إلى أية نتيجة؛ إذ لم تكن حكومة الأمير لفوف المؤقتة تقبل الاسـتيلاء علـى أراضـي الملاكين النبلاء. ولم يكن الاشتراكيون يرغبون بالسيطرة على الحكومة المؤقتة. ومن جهة أخرى، كان تشكيل المؤتمر في ذلك الوقت يجعله عاجزًا، وأقل من عاجز عن إيجاد مخرج للتناقض بين شهية بعض أعضائه للأرض وفكرهم الرجعي.

وفي ٢٠ مايو (أيار) تكلَّم لينين في مؤتمر الفلاحين. وقال سوخانوف معلقًا على حديثه في هذا المؤتمر: يبدو أن لينـين سقط في بركة للتماسيح "ومع ذلك استمع إليه الموجيك بانتباه، وأحسوا نحوه على ما يبدو ببعض الود، دون أن يجرءوا علـى إظهار ودهم"، وحصلت النتيجة ذاتها في فرع الجنود، المعادي للبلاشفة إلى حد كبير. وحاول سوخانوف، تقليدًا للاشتراكيين - الثوريين والمناشفة، أن يعزو الروح الفوضوية التي ظهرت في ذلك الوقت للتكتيك اللينيني في المسألة الزراعية. ولا يبتعد رأي سوخانوف في هذا الموضوع عن رأي الأمير لفوف الذي كان ميَّالاً إلى اعتبار المؤامرات علـى حقـوق الملاكـين أعمـالاً فوضوية. وتبعًا لهذا المنطق، لا فرق بين الثورة في مجملها وبين الفوضى. والحقيقة، أن الطريقة التي طرح فيها لينين المسألة الزراعية أعمق بكثير من وجهة نظر كل النقد الموجه إليها. وأكد لينين أن على سوفييتات مندوبي الفلاحين التي ينبغي أن تتبع

لها اللجان الزراعية، أن تعمل كأجهزة للثورة الزراعية وكأدوات للقضاء على الملكية الإقطاعية للنبلاء في المقام الأول. وكانت السوفييتات في نظر لينين أجهزة سلطة الدولة القادمة المركزية إلى حد بعيد، أي أجهزة الديكتاتورية الثورية. وهذا الرأي على كل حال بعيد جدًا عن الفوضوية، أي نظرية وممارسة انعدام السلطة. وقد قال لينين في ٢٨ إبريل (نيسان) ما يلي: "إننا ندعو إلى انتقال الأرض فورًا للفلاحين مع أكثر ما يمكن من التنظيم. ونحن نعارض معارضة تامة عمليات الاستيلاء الفوضوية". لماذا لم نقبل انتظار انعقاد المجلس التأسيسي؟ "إن المهمة بالنسبة إلينا هو المبادرة الثورية التي ينبغي أن يكون القانون نتيجة لها. فإذا انتظرتم كتابة القانون. وإذا لم تتمُّوا أنتم بأنفسكم القوة الثورية، فإنكم لن تحصلوا على القانون، ولا على الأرض، أليست هذه الكلمات البسيطة لغة كل الثورات.

وبعد دورة دامت شهرًا، انتخب مؤتمر الفلاحين لجنة تنفيذية بصفة مؤسسة دائمة مؤلفة من ٢٠٠ بورجوازي صغير ضخم الجثة من الأرياف ومن الشعبيين من النموذج اللائق بالأساتذة أو التجار وراء ستار من الشخصيات التزيينية مثل: بريشكوفسكايا، وتشايكوفسكي، وفيرافيغنر، وكرنسكي. وانتخب أفكسانتييف الاشتراكي - الثوري رئيسًا لهذه المؤسسة، مع أنه لم يخلق للحرب الفلاحية، بل خلق للولائم والمآدب الرسمية في المنطقة.

ومنذ ذلك الوقت، أصبحت أهم المسائل تناقش في جلسات مشتركة للجنتين التنفيذيتين: لجنة العمال والجنود، ولجنة الفلاحين. وقد عزز هذا الجمع الجناح اليميني إلى حد كبير، المدعوم من قبل الكاديت بصورة مباشرة. وفي كل المرات كانت المؤسسة الدائمة محتاجة فيها إلى الضغط على العمال، ومهاجمة البلاشفة وتهديد "جمهورية كرونشتادت المستقلة"، وكل المصائب التي يمكن تصورها، في كل المرات التي كانوا يحتاجون فيها إلى هذا كانت مئتا يد أو بصورة أدق كانت مئتا قبضة من قبضات (الكولاك)، وقبضات أعضاء اللجنة التنفيذية الفلاحية تنتصب كالجدار. وكان هؤلاء الناس متفقين تمام الاتفاق ليقولوا مع ميليوكوف إن من الواجب "القضاء" على البلاشفة. ولكنهم يملكون في مسألة أراضي النبلاء وجهات نظر الموجيك لا نظريات الليبراليين، وكان هذا الموقف يجعلهم على طرفي نقيض مع البرجوازية والحكومة المؤقتة.

وما أن انفرط عقد مؤتمر الفلاحين حتى بدأت الشكاوي تتقاطر. فقد أخذت قرارات المؤتمر على محمل الجد في المناطق. وتمت مصادرة أراضي الملاكين النبلاء وممتلكاتهم، وجردت وسجلت كنتيجة لهذه القرارات. وكان من المستحيل استحالة مطلقة إدخال فكرة الفرق بين القول والعمل في عقول الموجيك المعاندين.

وتراجع الاشتراكيون - الثوريون، الذين تولاهم الذعر مما حدث، عن القرارات التي صدرت. وفي بداية يونيو (حزيران) أدانوا بنوع من التفخيم كل عمليات الاستيلاء التعسفية على الأراضي في مؤتمرهم الذي انعقد بموسكو، وكان قرارهم كما يلي: كان من الواجب انتظار انعقاد المجلس التأسيسي. ولكن تبين فيما بعد أن هذا القرار ليس عاجزًا عن إيقاف عمليات الاستيلاء فحسب، بل أنه أضعف الحركة الزراعية أيضًا. وتعقدت المسألة أيضًا بصورة غريبة لأن هناك في الحزب الاشتراكي - الثوري ذاته عددًا لا بأس به من العناصر المستعدة للمسير مع الموجيك حتى النهاية ضد الملاكين، وبالإضافة إلى ذلك، كان هؤلاء الاشتراكيون - الثوريون يساعدون الموجيك على التلاعب بالقوانين، أو تفسيرها حسب هواهم، دون أن يجرءوا مع ذلك على قطع علاقتهم مع الحزب بصورة صريحة.

وفي حكومة قازان، حيث اتخذت الحركة الفلاحية امتدادًا عنيفًا بصورة خاصة، عزم الاشتراكيون - الثوريون اليساريون من تلقاء ذاتهم، وحزموا أمرهم قبل بقية المناطق الأخرى. وكان على رأسهم كاليغاييف، الذي أصبح في فترة تحالف البلاشفة مع الاشتراكيين - الثوريين اليساريين فيما بعد مفوض الشعب للزراعة في الحكومة السوفييتية. ومنذ منتصف مايو (أيار) بدأت في حكومة قازان عملية نقل مستمرة للأراضي وضعتها تحت تصرف لجان الأقسام. وطُبق هذا التدبير في ناحية

سباسكي بصورة أكثر جرأة وأشد حزمًا من أي مكان آخر؛ حيث كان يترأس أحد البلاشفة التنظيمات الفلاحية. واشتكت سلطات العاصمة المحلية للسلطة المركزية من الفتنة الزراعية التي قادها البلاشفة، الآتون من كرونشتادت، كما تضمنت الشكوى أن البلاشفة أوقفوا بالإضافة إلى ذلك راهبة محترمة تسمى تامارا "لأنها اعترضت على هذه الأعمال".

وبتاريخ ٢ يونيو (حزيران) أعلم أحد مفوضي حكومة فورونيج بما يلي: "تتزايد حالات مخالفات القانون المختلفة والأعمال اللا شرعية في المنطقة من يوم إلى يوم، وفي الأراضي الزراعية بصورة خاصة". واستمرت عمليات مصادرة الأراضي في حكومة بينزا بعناد وإصرار. واستولت إحدى لجان قسم حكومة كالوغا على نِصف أحد الأديرة. واتخذت اللجنة الزراعية في الناحية القرار التالي استنادًا إلى شكوى رئيس الدير: مصادرة كل العلف. وليس من المتواتر أن تكون السلطة العليا أكثر جذرية من السلطة الدنيا. واشتكت الكاهنة ماريا، من حكومة بينزا بسبب مصادرة ممتلكات الدير. وقالت: "إن السلطات المحلية عاجزة"، وفي حكومة فياتكا، فرض الفلاحون حراسة على ممتلكات أسرة سكوروبادسكي، عائلة زعيم القوزاق (الأتمان) المقبل في أوكرانيا، وأصدروا مرسومًا يقول: "بانتظار حل مسألة الملكية الزراعية": عدم المساس بالغابة ودفع عائدات الأراضي إلى الخزينة.

وفي عدد من الأنحاء الأخرى، لم تخفض اللجان الزراعية أسعار استئجار الأراضي إلى الخُمس أو السُدس فحسب، بل قررت أن يتم دفع أجور الأراضي إلى اللجان بدلاً من أن يتم الدفع للملاكين، بانتظار حل هذه المسألة في المجلس التأسيسي؛ وهكذا ردوا على عدم تقرير أي شيء في الإصلاح الزراعي قبل انعقاد المجلس التأسيسي. ولكنهم لم يردوا كمحامين، بل كموجيك، أي أن ردهم كان جادًا إلى حد بعيد. وبدأ الفلاحون في حكومة ساراتوف بقطع أخشاب الغابات بأنفسهم مع أنهم كانوا يمنعون الملاكين بالأمس من قطعها. وأخذوا يستولون على مزيد من أراضي الكنائس والأديرة، وبخاصة حيث يندر الملاكون النبلاء. وشرع العمال الزراعيون الليتونيون في ليفونيا مع جنود الكتيبة الليتونية بمصادرة ممتلكات البارونات بصورة منهجية.

وعلا صراخ أصحاب مصانع نشر الأخشاب وقطعها في حكومة فيتبسك احتجاجًا على أن التدابير التي اتخذتها اللجان الزراعية تقضي على صناعة الخشب وتحول دون تلبية مطالب الجبهة واحتياجاتها. وأسف الوطنيون الملاكون في حكومة بولتافا، والذين لا يقلون تجردًا عن أصحاب المناشر، لأنهم لم يعودوا قادرين على تموين الجيش بسبب الاضطرابات الزراعية. وأخيرًا أعطى مؤتمر ملاكي حظائر تربية الخيول في موسكو إنذارًا بأن عمليات الاستيلاء التي يمارسها الفلاحون تهدد الإدارة الوطنية المكلفة بتزويد الجيش بالخيول بأسوأ المصائب. وفي هذا الوقت، تحرك رئيس مجلس الكنيسة الأرثوذكسية الروسية الذي كان يصف أعضاء الكنيسة المقدسة بأنهم "حمقى وأنذال". وقدم إلى الحكومة شكوى مفادها أن الفلاحين في منطقة قازان لا يأخذون من الرهبان أرضهم فحسب، بل يأخذون دوابهم، والطحين الضروري أيضًا للخبز المقدس. وفي حكومة بتروغراد، وعلى خطوتين من العاصمة طرد الفلاحون وكيل زراعة إحدى الممتلكات الكبيرة، وبدءوا إدارة الأرض بأنفسهم. وأبرق الأمير الحذر أوروسوف بتاريخ ٢ يونيو (حزيران) إلى كل الأنحاء يقول: "برغم تعليماتي ...إلخ، أرجوكم من جديد اتخاذ أقسى التدابير". ولكن الأمير نسي الإشارة إلى نوع التدابير التي يريد اتخاذها.

وفي حين كان العمل الجبَّار لنزع طابع القرون الوسطى والقنانة من جذورها ينمو ويتطور في كل أنحاء البلاد، وكان تشيرنوف وزير الزراعة يجمع في مكاتبه معلومات وإحصاءات بغية تقديمها للمجلس التأسيسي. وكان تشيرنوف ينوي أن لا يمر الإصلاح الزراعي إلا عبر أدق معطيات علم الإحصاء الزراعي والعلوم الأخرى، ولهذا كان ينصح الفلاحين بصوته العذب لانتظار نتائج تمارينه الحسابية. على أن هذا لم يمنع الملاكين على كل حال من عزل "وزير الفلاحين" قبل أن يملأ جداوله كلها.

* * *

وتقول مصنفات الحكومة المؤقتة، أن بعض العلماء والشبان قدروا بأن الحركة الزراعية لن تظهر بقوة إلى حد ما في مارس (آذار) إلا في ٣٤ ناحية، وأنها ستمتد في إبريل (نيسان) إلى ١٧٤ ناحية، وفي مايو (آيار) إلى ٢٣٦ ناحية، وفي يونيو (حزيران) إلى ٢٨٠، وفي يوليو (تموز) إلى ٣٢٥. ولم تكن هذه الأرقام تمثل النمو الحقيقي للحركة بصورة تامة، نظرًا لتزايد الطابع الجماهيري الذي أخذه الصراع شهرًا بعد شهر، وتصاعد حدة تصميمه.

وفي هذه الفترة الأولى، من مارس (آذار) إلى يوليو (تموز) كانت الأكثرية الساحقة للفلاحين تمتنع عن ممارسة أي عنف مباشر ضد الملاكين، كما تمتنع عن الاستيلاء على الأراضي بصورة مكشوفة. وقد فسَّر باكوفليف الذي وجه الدراسات المذكورة أعلاه، ومفوض الشعب للزراعة في الاتحاد السوفييتي آنذاك، بأن التكتيك الوديع نسبيًّا الذي طبقه الفلاحون ناجم عن ثقتهم بالبرجوازية. وينبغي الحكم على هذا التفسير بأنه مائع وغير متماسك.

ولم تكن حكومة الأمير لفوف تستطيع الإيحاء للفلاحين بالثقة أبدًا، رغم اتخاذ كافة التدابير اللازمة لتقليل حذر الموجيك المستمر تجاه المدينة، والسلطة، والمجتمع المتعلم. صحيح أن الفلاحين لم يلجئوا، في الفترة الأولى تقريبًا إلى تدابير العنف الصريحة، إلا أنهم كانوا يسعون إلى إعطاء أعمالهم شكل ضغط شرعي أو نصف شرعي. ويتضح هذا بالحذر الذي اتسموا به إزاء الحكومة، وبعدم إيمانهم الكافي بقواهم الذاتية. وقد تحرك الفلاحون فقط، وجسوا الأرض، وحسبوا مقاومة العدو، وأضافوا قائلين وهم يدفعون الملاك على كل الخط: "إننا لا نريد أن ننهب، نريد أن يتم كل شيء بصورة مناسبة". فهم لم يدعوا لأنفسهم ملكية المراعي، بل حصدوا أعشابها فقط. واستأجروا الأرض بالإكراه ليزرعوها، وحددوا آجارها بأنفسهم، أو "اشتروا" الأرض بالقسر بأسعار حددوها هم بأنفسهم ولم يمل كل هذه التظاهرات الشرعية التي لا يمكن أن تكون مقنعة جدًا للملاك وللحقوقي الليبرالي، سوى حذر الفلاحين الخفي تجاه الحكومة. فقد كان الموجيك يقول لنفسه: لن أستطيع أخذ هذه الأرض بدون عقبات، ومن الخطر أخذها بالقوة، إذن فلأحاول أخذها بالحيلة. وكان الموجيك يفضل نزع ملكية الملاك بموافقته.

ويضيف ياكوفليف قائلاً بإلحاح: "وقد سادت خلال هذه الأشهر طرق جديدة كل الجدة، مجهولة تاريخيًّا، في صراع "سلمي" ضد الملاكين". ونجمت هذه الطرق عن ثقة الفلاح بالبرجوازية وحكومة البرجوازية". ولكن الطرق التي أعلن ياكوفليف أنها مجهولة في التاريخ هي في الحقيقة طرق معروفة، وحتمية، وإلزامية من الناحية التاريخية للمرحلة الأولية من حرب فلاحية تتم في كل بقاع الأرض. وقد ميز الاتجاه لإخفاء الأعمال الأولى للتمرد تحت مظاهر الشرعية الدينية أو المدنية في كل الأزمان صراع كل طبقة ثورية حتى اللحظة التي تجمع فيها هذه الطبقة بعض قوتها وثقتها لقطع حبل السرة الذي يربطها بالمجتمع القديم. وينطبق هذا القول على الطبقة الفلاحية إلى درجة عالية أكثر من أية طبقة أخرى. لأن هذه الطبقة تتقدم، حتى في أفضل فتراتها، في نصف ظلمات، وتنظر إلى أصدقائها في المدينة نظرة شك وريبة. وتملك أسبابًا وجيهة لذلك. فأصدقاء الحركة الزراعية، في خطواتها الأولى، هم عملاء البرجوازية الليبرالية والراديكالية. ومع أن هؤلاء الأصدقاء يتزعمون المطالبة بجزء من مطالب الفلاحين، إلا أن القلق يساورهم مع كل هذا على مصير الملكية البرجوازية، ولهذا فإنهم يحاولون بكل قوتهم إدخال الانتفاضة الفلاحية في سرير الشرعية البرجوازية.

وكانت بعض العوامل الأخرى تؤثر في الاتجاه ذاته، قبل الثورة بوقت طويل. فقد ظهر من وسط الطبقة النبيلة ذاتها وعاظ أخذوا يدعون ويعظون لإعادة المصالحة والتوفيق. وتغلغل ليون تولستوي في أعماق الموجيك أكثر من أي إنسان آخر. وكانت فلسفته في عدم مقاومة الأذى بالعنف تعميمًا للمراحل الأولى من ثورة فلاحي الموجيك. وكان تولستوي يحلم بأنه من الممكن أن يحدث كل شيء "دون نهب، وبقبول متبادل". وكان يزلق قاعدة دينية، تحت هذا التكتيك، بشكل نزعة مسيحية

مطهرة. ويقوم المهاتما غاندي في الوقت الحاضر في الهند بالمهمة نفسها، ولكن بشكل يتسم بقسط أكبر من العملية. ولو تركنا المرحلة المعاصرة وعدنا إلى الماضي، لاكتشفنا دون صعوبات أن الظواهر التي يدعي البعض بأنها "مجهولة في التاريخ" كانت موجودة تحت أقنعة مختلفة، دينية، وقومية، وفلسفية، وسياسية منذ أزمان التوراة وقبلها.

وتتوضح حدة انتفاضة الفلاحين في عام ١٩١٧ في ظهور رجال كعملاء للشرعية البرجوازية، كانوا يدعون بالإضـــافة إلى ذلك بأنهم اشتراكيون وثوريون. ولكنهم لم يكونوا قادرين على تحديد طابع الحركة الفلاحية وإيقاعهـــا. وكـــان الفلاحـــون يتبعون الاشتراكيين - الثوريين ضمن الحد الذي كانوا يستعيرون فيه منهم صيغًا موضوعة للانتقام من الملاكين. وفي الوقـــت نفسه كان الاشتراكيون - الثوريون يشكلون بالنسبة إليهم ستارًا قانونيًا. لأن هؤلاء في النهاية هم حزب كرنسكي وزير العـــدل ووزير الحربية فيما بعد، وحزب تشيرنوف وزير الزراعة، وكان الاشتراكيون الثوريون في النواحي والأقسام يفسرون تأجيـــل إصدار المراسيم الضرورية بمقاومة الملاكين والليبراليين. ويؤكدون أمام الفلاحين أن "جماعتنا" في الحكومة تعمـــل كـــل مـــا بوسعها. ولم يكن الموجيك بالطبع يستطيع الرد على أقوالهم. ولكنه وجد من الضروري مساعدة "جماعتنا" بضغط من القواعد، لأنه لا يعاني أبدًا من سرعة التصديق وتأييد المزاعم المفرطة. وأخذ الموجيك يعمل على مساعدتهم بصدق وعزم بشكل بدأ فيه "جماعتنا" الموجودون في السلطة بالذعر والقلق من هذه المساعدة.

وكان ضعف البلاشفة في أوساط الطبقة الفلاحية مؤقتًا. ونجم هذا الضعف عن أن البلاشفة لا يؤيدون أوهام المزارعين. ولم تكن البلشفية قادرة على اجتذاب الريف إلا عندما يمارس الريف تجربته ويتعرض لخيبات الأمل. وكانت قوة البلاشفة فـــي المسألة الزراعية، كما في المسائل الأخرى كامنة في البقاء خارج نطاق التناقضات بين القول والفعل.

وكانت الاعتبارات الاجتماعية عاجزة عن التقرير بصورة مسبقة فيما إذا كانت الطبقة الفلاحية في مجموعها قادرة على الوقوف في وجه الملاكين. فقد منع تعزيز الميول الرأسمالية في الاقتصاد الزراعي، في المرحلـــة الوســـيطة بـــين الثـــورتين، وانفصال طبقة قوية من المزارعين الذين تركوا المشاعية، والنمو الغريب للتعاون الزراعـــي الـــذي قـــاده فلاحـــون أغنيـــاء وميسورون، كل هذا منع من القول مسبقًا وبيقين ما هو الاتجاه الذي سينتصر في نهاية المطاف علـــى الآخ، وهـــل سينتـــصر الصراع بين طبقة الفلاحين والطبقة النبيلة أم الصراع الطبقي في داخل طبقة الفلاحين ذاتها.

واتخذ لينين عند وصوله موقفًا متحفظًا في هذا المجال. فقد قال بتاريخ ١٤ أبريل (نيسان): "ليست الحركة الزراعيـــة إلا عملية ضبط، ولكنها ليست أمرًا واقعًا... وعلينا أن نتوقع احتمال رؤية اتحاد طبقة الفلاحين مع البرجوازية". ولـــم تكـــن هـــذه الفكرة التي طرحها لينين عارضة أو طارئة. بل على العكس، لأن لينين عاد إليها بإلحاح في كثير مـــن الموضـــوعات. وقـــد صرح في مؤتمر الحزب بتاريخ ٢٤ أبريل (نيسان)، عندما كان يهاجم "البلاشفة القدامى" الذين اتهموه بالتقليل من أهمية الطبقة الفلاحية، بما يلي: "ليس من المقبول أن يضع الحزب البروليتاري آماله في الوقت الحاضر في وحدة المصالح المـــشتركة مـــع طبقة الفلاحين. إننا نناضل كي ينتقل الفلاحون إلى جانبنا، ولكن هذه الطبقة تقف إلى جانب الرأسماليين بوعي إلـــى حـــد مـــا". ويبرز هذا القول كم كان لينين بعيدًا عن نظرية الانسجام الدائم بين مصالح البروليتاريا ومصالح طبقة الفلاحين التي عزاها إليه ممثلو الجيل الثاني. وكان لينين يستعد في إبريل (نيسان) لأسوأ الاحتمالات وهو مواجهة كتلة قوية مؤلفة من الملاكين النـــبلاء والبرجوازية، والشرائح الواسعة من طبقة الفلاحين، رغم اعتقاده بأن طبقة الفلاحين تستطيع أن تـــشكل عـــاملاً ثوريًـــا فـــي المعركة. وكان لينين يقول: "إن الرغبة بكسب الموجيك في هذا الوقت يعني الاستسلام لرحمة ميليوكوف". ولهذا استنتج لينـــين ما يلي: "**نقل مركز الثقل إلى سوفييتات العمال الزراعيين**".

وكان هذا الاحتمال أفضل **خطة بديلة** تحققت. وقد انتقلت الحركة الزراعية، من الافتراض والتخمين إلى الواقع، وكشفت للحظة قصيرة أولوية الأربطة الداخلية في طبقة الفلاحين ورجحانها بقوة كبيرة على الصراعات الرأسمالية. ولم تصبح سوفييتات العمال الزراعيين مهمة إلا في بعض الأنحاء، وفي المقاطعات البلطيقية أساسًا. وبالمقابل، أصبحت اللجان الزراعية، أجهزة كل الطبقة الفلاحية. وحولتها هذه الطبقة بضغطها الساحق من غرف للتوفيق والمصالحة إلى أدوات للثورة الزراعية.

إن هذا الواقع الذي حصلت بموجبه الطبقة الفلاحية بمجموعها مرة أخرى على إمكانية العمل كعامل ثوري، لآخر مرة في تاريخها يبرهن في الوقت ذاته على هزال العلاقات الرأسمالية في القرية، وضعف قوتها. فما زال الاقتصاد البورجوازي بعيدًا عن القضاء على العلاقات الزراعية المستندة إلى عبودية القرون الوسطى. ومع ذلك دفع التطور الرأسمالي بعيدًا جدًا لدرجة حوّل معها أشكال الملكية الزراعية القديمة إلى أشكال لا تقبلها كافة الشرائح الزراعية. كما أن تداخل ممتلكات النبلاء مع ملكيات الفلاحين، المحسوب غالبًا بوعي لتحويل حقوق الملاك النبيل إلى فخ لكل المشاعة الفلاحية. وتبعثر أراضي القرية الذي لا يصدق، والصراع الجديد الذي حدث مؤخرًا بين المشاعة الزراعية والمزارعين الفرديين، كل هذا كان يشكل في مجموعه التباسًا في العلاقات الزراعية، لا يمكن التخلص منه بتدابير تشريعية جزئية. وكان الفلاحون يحسون بهذا بصورة أفضل مما يحس به كل منظري المسألة الزراعية. وكانت تجربة الحياة، التي طرأت عليها تعديلات كثيرة بتعاقب الأجيال، تعيدهم دومًا إلى نفس الاستنتاج الوحيد التالي: ينبغي إلغاء الحقوق الموروثة والمكتسبة المتعلقة بالأرض، وتقويض كل الحدود السابقة للملكيات، وتسليم هذه الأرض متحررة من كل الرواسب التاريخية إلى العاملين فيها.

هذا هو معنى **حكم الموجيك**، وأقوالهم المأثورة: "**ليست الأرض ملكًا لأحد**".. "**الأرض ملك لله**"، وكانت الطبقة الفلاحية تفسر برنامج الاشتراكيين - الثوريين عن اشتراكية الأرض بهذا المعنى. وبرغم النظريات الشعبية، لم يكن في هذا البرنامج أية ذرة من الاشتراكية. فأجرأ ثورة زراعية لم تكن تتعدى في ذلك الوقت، أطر النظام البورجوازي وتمثل اشتراكية الأرض التي كان الاشتراكيون - الثوريون يزعمون أن من واجبها تأمين "الحق بالأرض" لكل عامل -لقد بقيت علاقات السوق دون تحديد- نوعًا من الطوباوية الأكيدة. وكانت المنشفية تنتقد هذه الطوباوية من وجهة نظر ليبرالية - برجوازية. وكان البلاشفة -على العكس- يضعون هذا الاتجاه الديموقراطي التقدمي، الذي وجد تعبيره الطوباوي في نظرية الاشتراكيين - الثوريين، على جدول أعمالهم. وكان كشف المعنى التاريخي الحقيقي للمسألة الزراعية في روسيا ميزة من أكبر مزايا لينين.

وقد كتب ميليوكوف: أنه يرى "كعالم اجتماعي ومحلل للتطور التاريخي في روسيا" أي كرجل يتأمل ما يجري من القمم العالية "أن لينين وتروتسكي يجسدان حركة أقرب بكثير إلى حركة بوغاتشيف ورازين وبولوتنيكوف -القرنين السابع عشر والثامن عشر من تاريخنا- من الآراء الأخيرة **للحركة الفوضوية - النقابية الأوروبية**". فإذا استبعدنا جانبًا تعبير "الفوضوية - النقابية" الذي ورد هنا لسبب نجهله، وجدنا أن ذروة الحقيقة الموجودة في تأكيد عالم الاجتماع الليبرالي لا تمس البلاشفة من قريب أو بعيد، بل تمس البرجوازية الروسية، ومجيئها المتأخر، وسياستها التافهة. ولا يمكن أن نحمِّل البلاشفة جريرة أن حركات الفلاحين العظيمة التي تمت في القرون السابقة لم تؤد إلى طبع العلاقات الاجتماعية في روسيا بالطابع الديموقراطي، وكان من المستحيل تحقيق هذا على كل حال! نظرًا لعدم توفر قيادة نابعة من المدن. كما لا يمكن توجيه التهم إلى البلاشفة لأن تحرر الفلاحين المزعوم في عام ١٨٦١ تم بواسطة اغتصاب أراضي المشاعيات، وبإخضاع الفلاحين للدولة، وبالمحافظة على النظام الاجتماعي محافظة كاملة. ولكن هناك شيئًا صحيحًا: لقد أكمل البلاشفة، في الربع الأول من القرن العشرين ما لم ينته، أو ما لم يُعمل أبدًا في القرنين السابع عشر والثامن عشر. واضطر البلاشفة، قبل أن يستطيعوا البدء بالمهمة الكبرى الخاصة بهم، إلى تطهير الأرض من الزبل التاريخي الذي خلفته وراءها الطبقات الحاكمة القديمة والقرون السابقة، وقام البلاشفة بهذه المهمة، بالإضافة إلى مهامهم، بوعي ووجدان. ولا يجرؤ ميليوكوف نفسه الآن على إنكار هذه الحقيقة أبدًا!

تجمعات جديدة للجماهير

كان نظام فبراير (شباط) يختنق بتناقضاته الخاصة في الشهر الرابع من وجوده. وبدأ شهر يونيو (حزيران) بمؤتمر سوفييتات عموم روسيا. وكانت مهمة المؤتمر إعطاء تغطية سياسية للهجوم على الجبهة. وتطابق بدء الهجوم، مع مظاهرة ضخمة قام بها العمال والجنود في بتروغراد، نظمها التوفيقيون ضد البلاشفة، لكنها تحولت إلى مظاهرة بلشفية ضدهم. وأحدث السخط المتزايد للجماهير، بعد خمسة عشر يومًا، مظاهرة جديدة انفجرت بصورة عفوية دون أية دعوة من الأعلى، وأدت إلى صدامات دموية. وسجلت هذه المظاهرة في التاريخ تحت اسم "أيام يوليو (تموز)". وختمت نِصف انتفاضة يوليو (تموز)، التي حدثت بالضبط بين ثورة فبراير (شباط) وثورة أكتوبر (تشرين الأول) الثورة الأولى، وكانت إلى حد ما تمرينًا عامًا على الثانية. وسننهي هذا الجزء من الكتاب على عتبة "أيام يوليو (تموز)". ولكن قبل أن نرجع فيه إلى الأحداث التي كانت بتروغراد تشكل مسرحها في يونيو (حزيران) من الضروري أن ننظر عن قريب إلى التطورات التي حدثت في أوساط الجماهير.

لقد رد لينين على أحد الليبراليين الذي كان يؤكد، في بداية مايو (آيار) أنه كلما اتجهت الحكومة إلى اليسار، تتجه البلاد إلى اليمين، رد لينين قائلاً: "أؤكد لك أيها المواطن إن "بلد" العمال والفلاحين الفقراء هو ألف مرة أكثر إلى اليسار من أنصار تشيرنوف وتسيريتلي، ومائة مرة أكثر إلى اليسار منا. ومن يعيش يرَ". وكان لينين يقدر أن العمال والفلاحين كانوا أكثر تطرفًا إلى اليسار من البلاشفة "بمائة مرة". وقد يبدو هذا القول ضعيف التعليل على الأقل: لأن العمال والفلاحين ما زالوا يدعمون التوفيقيين. ولأن أكثريتهم كانت تقف إزاء البلاشفة بحذر. ولكن لينين كان يحفر إلى عمق أكبر. فقد كانت المصالح الاجتماعية للجماهير، وحقدها، وآمالها، تفتش عن تعبير لها. وكان التوفيق والمصالحة بالنسبة إليها مرحلة أولى. وكانت الجماهير أكثر يسارية بكثير من أنصار تشيرنوف وتسيريتلي، ولكنها لم تحقق بعد راديكاليتها الخاصة. وكان لينين على حق أيضًا عندما قال بأن الجماهير كانت أكثر يسارية من البلاشفة، لأن الحزب بأكثريته الساحقة، لم يكن قد وعى بعد قوة المشاعر الثورية التي تغلي في أحشاء الشعب الذي هبَّ من رقاده. وتغذى تمرد الجماهير باستطالة الحرب، وبالفوضى الاقتصادية وبعطالة الحكومة المؤذية.

إن السهل الأوروبي - الآسيوي الفسيح لم يصبح بلدًا بمعنى الكلمة إلى بفضل السكك الحديدية. وكانت الحرب توجه ضرباتها إلى هذه السكك بعنف وقسوة. ودبت الفوضى من جراء ذلك بالنقل ووسائله. وبلغ عدد القاطرات الموجودة في حالة سيئة في بعض الخطوط ٥٠٪. وكان المهندسون يقرءون في المقر العام لهيئة أركان القوات المسلحة الروسية تقارير تؤكد احتمال شلل النقل بالسكك الحديدية شللاً تامًا خلال الأشهر الستة القادمة. وكانت هذه الحسابات المقصودة إلى حد ما مخصصة لنشر الذعر والإرجاف. ولكن الفوضى في النقل اتخذت بالفعل أبعادًا خطيرة، وخلقت الازدحام على الخطوط، وسبب اضطراب حركة شحن البضائع، ورفعت الأسعار.

وازدادت صعوبات تموين المدن وأصبح هذا التموين يتم بصورة متعبة وشاقة. وكانت الحركة الزراعية قد تمكنت من إنشاء بؤر في ٤٣ منطقة. وتناقصت كميات القمح المشحونة للجيش والمدن بصورة مثيرة للذعر. وكان هناك في أخصب مناطق البلاد عشرات الملايين، بل ومئات الملايين من بود القمح الفائض عن الاحتياج. ولكن عمليات التخزين بالأسعار المحددة كانت تعطي نتائج غير كافية. وبالإضافة إلى ذلك كانت الحبوب المخزونة تصل بصعوبة إلى المراكز بسبب الفوضى السائدة في وسائل النقل. واعتبارًا من خريف عام ١٩١٦ كانت الجبهة تتلقى بصورة وسطية نصف التموين المقرر تقريبًا. وكانت الإعاشة الموزعة في بتروغراد وموسكو والمراكز الصناعية الأخرى لا تتجاوز ١٠٪ مما هو ضروري. ولم يكن هناك احتياطي في المواد تقريبًا. وكان مستوى حياة الجماهير يتذبذب بين التغذية الناقصة والمجاعة. **واشتهر مجيء الحكومة**

الائتلافية إلى الحكم بإغلاق أفران الخبز الأبيض بصورة ديمقراطية. وانهارت صناعة الخبز الأبيض فيما بعد عدة سنوات قبل أن يعود "الخبز الفرنسي" إلى الظهور من جديد في العاصمة. **وكانت البلاد تفتقر إلى الزبدة**. وفي يونيو (حزيران) حُدد استهلاك السكر بمعايير معينة في كل البلاد.

* * *

ولم تستبدل آلية السوق التي حطمتها الحرب بتنظيم الدولة ورقابتها، هذا التنظيم الذي وجدت الدول الرأسمالية المتقدمة نفسها مضطرة إلى اللجوء إليه؛ والذي سمح لألمانيا بالصمود خلال أربع سنوات من الحرب.

وظهرت أعراض مأساوية من الخراب الاقتصادي في كل خطوة. ونجم نقص إنتاج المصانع عن خلق آلات المصانع، وعدم كفاية المواد الأولية والمواد الإضافية، وعدم استقرار اليد العاملة، والتمويل غير المنظم، والبلبلة العامة بالإضافة إلى فوضى وسائل النقل. وكانت أضخم المؤسسات تتابع العمل من أجل الحرب. وكانت الطلبات موزعة مسبقًا على سنتين أو ثلاث سنوات. بَيْد أن العمال كانوا يرفضون الاعتقاد بأن الحرب ستطول إلى هذا الحد. وكانت الصحف تنشر أرقامًا مذهلة عن أرباح الحرب. وكانت الأسعار ترتفع. وتوقع العمال حدوث تغييرات. وتجمع الموظفون التقنيون والإداريون في المصانع، وشكلوا نقابات قدمت مطالبها. وكان المناشفة والاشتراكيون - الثوريون يسيطرون في هذا الوسط. وتفتت نظام المصانع وتراخت كافة الروابط.

وكانت آفاق الحرب والاقتصاد العام تسود وتظلم، كما أصبحت حقوق الملكية حقوقًا غير مؤكدة، وهبطت الأرباح، وازدادت المخاطر، وفقد أرباب العمل الرغبة بالإنتاج في ظروف ثورية. وتورطت البرجوازية بمجموعها في طريق الهزيمة الاقتصادية. وكانت تعتبر الخسائر والأضرار التي تعرضت لها مؤقتًا، بسبب الشلل الاقتصادي تكاليف إضافية لازمة للصراع ضد الثورة التي تهدد أسس "الثقافة". وكانت الصحافة المفكرة في الوقت ذاته تتهم العمال بتخريب الصناعة بصورة ماكرة، وباختلاس المواد، وإحراق المحروقات بصورة تتسم بالطيش لإحداث اختناق اقتصادي. وكان بهتان الاتهامات يتجاوز كل الحدود. ولما رأى العمال أن الصحافة المسئولة عن مثل هذه الاتهامات هي صحافة حزب كان على رأس الحكومة الائتلافية، انصَبَّ حقدهم بالطبع ضد الحكومة المؤقتة.

ولم ينس الصناعيون تجربة ثورة عام ١٩٠٥، هذه التجربة التي لم يحطم خلالها إغلاق المصانع من قبل أصحابها وبمساعدة فعَّالة من الحكومة كفاح العمال من أجل تحديد يوم العمل بثماني ساعات فحسب، بل قدم أيضًا للملكية خدمة لا تقدر بثمن لسحق الثورة. وبحثت مسألة إغلاق المصانع هذه المرة أيضًا في **مجلس مؤتمري الصناعة والتجارة**، هذين المجلسين اللذين يحملان هذه التسمية ببراءة مع **أنهما جهاز قتال رأس المال الاحتكاري والمنضم إلى النقابات الرأسمالية**. وقد فسَّر المهندس أورباخ أحد زعماء الصناعة، في مذكراته فيما بعد لماذا رفضت فكرة إغلاق المصانع قائلاً: "إن المجتمعين وجدوا أنها ستكون كضربة خنجر مسددة إلى ظهر الجيش... وظهرت نتائج مثل هذه الخطوة، قاتمة جدًا للأكثرية **نظرًا للافتقار إلى الدعم من جانب الحكومة**". وكان الشر ينبعث من انعدام وجود سلطة "حقيقية". وكانت الحكومة المؤقتة مشلولة بالسوفييتات، كما كان زعماء السوفييتات المعقولون مشلولين بالجماهير. وكان العمال في المصانع مسلحين. وبالإضافة إلى هذا، كان كل مصنع تقريبًا يجد على مقربة منه فوجًا أو كتيبة على استعداد لدعمه بصورة ودية. وفي هذه الشروط، بدا إغلاق المصانع لهؤلاء السادة الصناعيين "ممجوجًا من وجهة النظر الوطنية". ولكنهم، دون أن يمتنعوا عن الهجوم، كيَّفوه مع الظروف فقط، وأعطوه طابعًا مستترًا لا يحمل صفة الشمول أو العنف ويذكر أورباخ بشكل دبلوماسي ما يلي: "توصل الصناعيون في النهاية إلى الاستنتاج من كل هذا إلى أن الحياة ذاتها هي التي ستعطي العبرة والدرس بإغلاق المصانع التدرجي والحتمي؛ إذ يغلق كل

صِنَاعِي مصنعه بصورة منعزلة عن الآخرين إلى حد ما، وهو ما أمكن ملاحظته في الواقع". وبعبارات أخرى، رفض مجلس الصناعة الموحد القيام بإغلاق بَيِّن وصريح لأنه يتضمن "مسئولية ضخمة" فدعا أعضاءه إلى إغلاق المؤسسات بصورة فردية، مفتشًا عن حجج مبررة.

وطبقت **خطة الإغلاق المستتر** بطريقة رائعة. فقد ألقى زعماء رأس المال من أمثال الكاديت كتلر -الوزير السابق في حكومة ويت- محاضرات جليلة عن خراب الصناعة، الذي لم يعزوه لسنوات الحرب الثلاث، بل لثلاثة أشهر من الثورة. وكانت الريتش التي لا تكل ولا تمل تتنبأ بما يلي: "لن يمضي أسبوعان أو ثلاثة حتى تغلق المصانع والمعامل الواحد أثر الآخر". **ويستتر التهديد هنا تحت التنبؤ**. وبدأ المهندسون، والأساتذة، والصحفيون حملة في الصحافة التقنية والصحافة العادية كان الهدف منها البرهان على أن قمع العمال هو الشرط الأساسي لإنقاذ البلاد من الخراب الاقتصادي. وصرح كونوفالوف الوزير الصناعي بتاريخ ١٧ مايو (أيار) قبل خروجه من الحكومة بشكل مشهدي مشوب بالضجة: "إذا لم تعد العقول المضطربة إلى الصواب قريبًا فإننا سنشهد إغلاق عشرات ومئات من المؤسسات".

وفي منتصف يونيو (حزيران) طلب مؤتمر التجارة والصناعة من الحكومة المؤقتة أن تلجأ إلى "القطيعة الجذرية مع نظام تطور الثورة". ولقد سمعنا في السابق التصريح ذاته من الجنرالات: "أوقفوا الثورة". ولكن الصناعيين يتسمون بوضوح أكبر، فقد كان تصريحهم كما يلي: "لا يكمن منبع الشر في البلاشفة فحسب، بل في الأحزاب الاشتراكية أيضًا. ولا يمكن إنقاذ روسيا إلا بقبضة متينة ويد حديدية".

وانتقل الصناعيون من القول إلى العمل بعد أن أعدوا الوضع السياسي ومهدوا له. وفي خلال مارس وإبريل (آذار ونيسان) أغلقت ١٢٩ مؤسسة، تضم ٩٠٠٠ عاملاً أبوابها. وفي خلال شهر مايو (آيار) توقفت ١٠٨ مؤسسات تضم نفس العدد من العمال عن العمل. وفي يونيو (حزيران) توقفت ١٢٥ مؤسسة يعمل فيها ٣٨,٠٠٠ عامل. وفي يوليو (تموز) ألقت ٢٠٦ مؤسسات ٤٨٠٠٠ عاملاً في الشوارع. وتصاعد الإغلاق في متوالية هندسية. ولكن إغلاق كل المؤسسات لم يكن سوى بداية لعمل كبير. وتحرك مصنع موسكو للنسيج بعد بتروغراد، وتحركت المناطق بعد موسكو. وتعلل أصحاب العمل بنقص المحروقات، والمواد الأولية، والمواد الثانوية، والقروض. وتدخلت لجان المصانع، وأومأت في كثير من الحالات، وبصورة لا تحتمل الأخذ والرد مطلقًا، إلى تخريب غادر للإنتاج، يستهدف الضغط على العمال أو الحصول على دعم من الحكومة. وكان الرأسماليون الأجانب الذين يعملون بواسطة سفاراتهم، في منتهى الوقاحة. وكان التخريب في بعض الحالات، واضحًا جدًا، واضطر الصناعيون إلى إعادة فتح مؤسساتهم بعد نتيجة التحقيقات التي قامت بها لجان المصانع. وهكذا وجدت الثورة نفسها بعد تعرية التناقضات الاجتماعية واحدًا أثر آخر في مواجهة التناقض الرئيسي من بين هذه التناقضات، وهو التناقض بين الطابع الاجتماعي للإنتاج والملكية الخاصة لوسائل الإنتاج. وكان رب العمل الراغب بالانتصار على العمال يغلق المصنع وكأنه علبة تبغه لا مؤسسة ضرورية لحياة كل الأمة.

واتخذت المصارف التي قاطعت بنجاح قرض الحرية، موقفًا عدائيًّا إزاء تصرفات خزينة الدولة الموجهة ضد رأس المال الضخم. و"تنبأ" أصحاب المصارف في رسالة موجهة إلى وزير المالية، بهرب رءوس الأموال إلى الخارج بمجرد إجراء أية إصلاحات مالية جذرية، وادخار العملات وحفظها في الصناديق المعدنية. وبعبارات أخرى، كان وطنيو المصارف يهددون بإغلاق مالي يتمم الإغلاق الصناعي. وسارعت الحكومة إلى الاستسلام والخضوع؛ ألم يكن منظمو التخريب رجالاً أقوياء، غامروا برءوس أموالهم بسبب الحرب والثورة، أليسوا من طينة تختلف عن طينة بحارة كرونشتادت الذين لا يغامرون بشيء آخر غير حياتهم الخاصة؟

إن اللجنة التنفيذية لا تستطيع أن تجد مبررًا تعلل به عدم فهمها بأن مسئولية المصير الاقتصادي للبلاد في نظر الجماهير، وخاصة بعد انضمام الاشتراكيين للسلطة بصورة صريحة، يقع على عاتق الأكثرية السوفييتية الحاكمة. وقد وضع القسم الاقتصادي في اللجنة التنفيذية منهاجًا واسعًا لتنظيم الحياة الاقتصادية وتوجيهها من قبل الدولة. وكانت اقتراحات الاقتصاديين المعتدلين جدًا تحت ضغط الوضع التهديدي، أكثر جذرية من واضعي هذه الاقتراحات. فقد قال المنهاج: "في كثير من الميادين الصناعية، **الوضع ناضج جدًا لاحتكار الدولة للتجارة: (الخبز، واللحم، والملح، والجلود)**. وفي ميادين أخرى نجد أن **الظروف** قد أصبحت **ملائمة جدًا لإنشاء احتكارات تنظمها الدولة وتشرف عليها: (الفحم، والبترول، والمعادن، والسكر، والورق). وأخيرًا فإن الشروط الحالية لكل فروع الصناعة تقريبًا تتطلب مشاركة الدولة من الناحية التنظيمية لتوزيع المواد الأولية، وصنع المواد، وتحديد الأسعار... ومن المناسب في الوقت ذاته وضع رقابة على مؤسسات "الإقراض"**.

وبتاريخ ١٦ مايو (أيار) تبنَّت اللجنة التنفيذية، بعد أن فقد الزعماء السياسيون عقلهم، اقتراحات الرجال الاقتصاديين التابعين لها دون مناقشات، وعززتها بإنذار طريف وجهته إلى الحكومة: على الحكومة أن تأخذ على عاتقها "مهمة التنظيم العقلاني للاقتصاد العام، وللعمل"، وأن تتذكر بأن "النظام القديم قد سقط" لأنه لم يقم بهذه المهمة، وأنه "كان على الحكومة المؤقتة أن تتحول". وكان التوفيقيون يخيفون بعضهم بعضًا كيما يتبادلوا الدعم والتشجيع.

وقد كتب لينين معلقًا على المنهاج: "منهاج رائع ورقابة، واحتكارات حكومية، وحرب ضد المضاربة، وخدمة إلزامية للعمل.. إننا نجد المنهاج "المخيف" للبلاشفة في هذه الكلمات لأنه لا يمكن أن يكون هناك منهاج آخر، ولا مخرج آخر من الإفلاس المخيف الذي يهدد البلاد بالفعل..."، ومع ذلك تكمن المسألة كلها في معرفة من سيحقق هذا المنهاج الرائع. هل هو الائتلاف؟ وأتى الرد على هذا السؤال فورًا. فبعد أن تبنت اللجنة التنفيذية المنهاج الاقتصادي بيوم واحد، قدم كونوفالوف وزير التجارة والصناعة استقالته وخرج من الحكم وهو يغلق الأبواب وراءه بعنف وغضب. وحل محله مؤقتًا المهندس بالتشينسكي، الذي لا يقل عنه إخلاصًا لرأس المال الكبير، ولكنه يمثل رأس المال هذا بقوة ونشاط أكبر ولم يجرؤ الوزراء الاشتراكيون حتى على اقتراح منهاج اللجنة التنفيذية على زملائهم الليبراليين بصورة جدية. لأن تشيرنوف كان قد حاول مؤخرًا حمل الحكومة على قبول منع بيع الأراضي، وذهبت محاولته أدراج الرياح.

وقدمت الحكومة من ناحيتها، ردًا على الصعوبات المتزايدة مشروعًا لنقل المصانع والمرافق العامة من بتروغراد، أي نقل المصانع والمعامل الموجودة فيها إلى داخل البلاد. وكان المشروع معللاً باعتبارات عسكرية: خطر استيلاء الألمان على العاصمة، وباعتبارات اقتصادية أيضًا: بتروغراد بعيدة جدًا عن مصادر المحروقات والمواد الأولية. وكان معنى هذا المشروع القضاء على صناعة العاصمة لأشهر وسنين. وكان الهدف الرئيسي تشتيت طليعة الطبقة العمالية وبعثرتها في طول البلاد وعرضها. وكانت السلطات العسكرية، بالتوازي مع الحكومة، تجد المبررات، مبررًا أثر آخر لإبعاد القطعات المتسمة بالروح الثورية عن بتروغراد.

وبذل بالتشينسكي كل جهوده لإقناع القسم العمالي في مجلس السوفييت بمزايا إخلاء العاصمة. وكان من المستحيل إجراء عملية الإخلاء ضد إرادة العمال، وكان العمال يرفضون ذلك بصورة قاطعة. وكان نقل المصانع والمرافق الحيوية من العاصمة يتقدم ببطء لتنظيم الصناعة. وازدادت حدة الفوضى، وارتفعت الأسعار، وامتد إغلاق المصانع المستتر، كما انتشرت البطالة في الوقت ذاته. وكانت الحكومة تراوح في مكانها. وقد كتب ميليوكوف فيما بعد ما يلي: "كانت الوزارة تستسلم للمسير مع التيار، والتيار يصب في سرير البلشفية". نعم، إن التيار يقود إلى البلشفية!

* * *

كانت البروليتاريا القوة المحركة الرئيسية للثورة. وكانت الثورة في الوقت ذاته تشكل البروليتاريا. وهذا ما كانت الثورة بأمس الحاجة إليه.

وقد رأينا الدور الحاسم لعمال بتروغراد في أيام فبراير (شباط). وكان البلاشفة فيه في مقدمة المعركة. وتراجع البلاشفة بعد الانتفاضة فجأة إلى الصف الثاني. واحتلت الأحزاب التوفيقية مقدمة المسرح السياسي. ونقلت السلطة إلى البرجوازية الليبرالية. وتجمعت كل هذه القوى تحت لواء الفكر الوطني. وكان الهجوم الذي شنه التجمع من العنف بحيث اضطرت قيادة الحزب البلشفي، أو على الأقل نصف هذه القيادة، إلى الاستسلام تحت وطأة الهجوم وعنفه. وبعد وصول لينين تبدل مسار الحزب فجأة وازداد نفوذه بسرعة كبيرة في الوقت ذاته. وفي المظاهرة المسلحة التي حدثت في إبريل (نيسان) حاولت طليعة العمال والجنود تحطيم أغلال التوفيقية. ولكنها ما كادت تبذل أي جهد حتى بدأت بالقتال التراجعي. وبقي زمام الأمور بيَد التوفيقيين.

وقد قيل فيما بعد مرات عديدة بعد انتفاضة أكتوبر (تشرين الأول) أن البلاشفة يدينون بانتصارهم لجيش الفلاحين، الذي أنهكته الحرب وأتعبته. ولكن هذا تفسير مصطنع. والتأكيد المعاكس أقرب إلى الحقيقة: فإذا كان التوفيقيون قد حصلوا في ثورة فبراير (شباط) على وضع متفوّق، فإن ذلك قد تم قبل كل شيء، بسبب الموقع الاستثنائي الذي كان يحتله جيش الفلاحين في حياة البلاد. ولو أن الثورة انفجرت في زمن السلِم، لكان للدور القيادي للبروليتاريا منذ البدء، طابعًا أكثر تحديدًا ووضوحًا.

ولولا الحرب، لجاء النصر الثوري متأخرًا جدًا، ولكان ثمنه أغلى بكثير، بصرف النظر عن ضحايا الحرب. ولكنه بهذا الشكل لم يكن ليتيح أي مكان لطوفان الآراء التوفيقية والوطنية. ومن المؤكد أن الماركسيين الروس الذين أوحى إليهم حدسهم قبل الأحداث بوقت طويل باستيلاء البروليتاريا على السلطة أثناء الثورة البرجوازية، لم يستندوا إلى الحالة الفكرية الطارئة للجيش الفلاحي، بل استندوا إلى البنية الطبقية للمجتمع الروسي. وتأكدت هذه النبوءة تمامًا. ولكن العلاقات الأساسية بين الطبقات انحرفت عبر الحرب، وبدلت موقعها لفترة من الوقت تحت ضغط الجيش، أي تحت ضغط تنظيم فلاحي مسلح يعيش بعيدًا عن وسطه الطبيعي. هذه هي بالضبط التشكيلة الاجتماعية المصطنعة التي عززت مواقع البرجوازية الصغيرة والتوفيقية إلى حد كبير، وأتاحت لها طيلة ثمانية أشهر إمكانية القيام بالتجارب التي أضعفت البلاد والثورة.

ومع هذا، فإن جذور مسألة السياسة التوفيقية لا تكمن كلها في الجيش الفلاحي. وعلينا أن نتحرى عن الأسباب الإضافية لتفوق المناشفة والاشتراكيين - الثوريين الطارئ في البروليتاريا ذاتها، وفي تركيبها، ومستواها السياسي. فقد أدَّت الحرب إلى تغييرات هائلة في تركيب الطبقة العمالية وحالتها الفكرية. وكانت السنوات الماضية تتسم بصعود المد الثوري، ولكن الحرب قطعت هذا السياق فجأة. ولم يُصمم التجنيد ويُطبق ضمن معنى عسكري فحسب، بل صُمم وطُبق قبل كل شيء من وجهة نظر بوليسية. وسارعت الحكومة إلى تطهير المناطق الصناعية من أنشط عناصرها وأكثرها شغبًا. وبوسعنا أن نؤكد بصورة نهائية أن النفير في الأشهر الأولى من الحرب، انتزع من الصناعة ٤٠٪ من العمال، معظمهم من الاختصاصيين. وسبَّب غيابهم عن العمل الصناعي احتجاجات الصناعيين، الذين أحسوا بتدني مستوى الإنتاج إلى حد كبير نظرًا لافتقار المصانع إليهم. وكانت احتجاجات الصناعيين تزداد قوة كلما ارتفعت أرباح الصناعات الحربية. ثم توقف تدمير الكوادر العمالية فيما بعد. وبقي العمال الضروريين للصناعة كمجندين في المصانع. وتم سد الثغرات التي فتحها النفير العام بعمال جدد قدموا من الولايات، وببعض العناصر الصغيرة من المدن، وبعمال لا يتمتعون بالكفاءة والاختصاص إلى حد كبير وبعدد كبير، من النساء والفتيان. وارتفعت النسبة المئوية للنساء في المصانع من ٣٢ إلى ٤٠٪.

واتخذ سياق تحول البروليتاريا وتذويبها امتدادًا استثنائيًا في العاصمة بشكل خاص. وفي سنوات الحرب من عام ١٩١٤ إلى عام ١٩١٧، تضاعف عدد المؤسسات الضخمة التي تستخدم أكثر من ٥٠٠ عامل في حكومة بتروغراد. وفي عـام ١٩١٧ تركز في بتروغراد حوالي ٤٠٠,٠٠٠ عامل تقريبًا في المصانع والمعامل بسبب القضاء على المعامل والمصانع في بولونيـا، وفي مقاطعات البلطيق بصورة خاصة. وكان ٣٣٥,٠٠٠ عامل من هؤلاء العمال مرتبطين بـ١٤٠ مصنعًا جبـارًا. "ولعبـت أكثر العناصر البروليتاريا المكافحة في بتروغراد دورًا لا يُنكر في الجبهة لتكوين العقلية الثورية داخل الجيش. ولكـن العمـال الذين حلوا محلهم بمجيئهم من الأرياف، وكان جلهم من النساء والفتيان، أو من الفلاحين الميسورين أو من الباعـة، الـراغبين بالعمل في المصانع للهرب من الخدمة في الجبهة، فقد كانوا أكثر وداعة من العمال المهنيين. وينبغي أن نضيف إلـى هـذا أن العمال المختصين، الموجودين كمجندين في المصانع -وكان تعدادهم يصل إلى مئات الألوف- كانوا يتصرفون بمنتهى الحـذر خوفًا من إرسالهم إلى الجبهة. تلك كانت القاعدة الاجتماعية للعقلية الوطنية التي سيطرت على جزء مـن العمـال منـذ أيـام القيصر.

ولكن هذه العقلية الوطنية لم تعرف الاستقرار. فقد كان الاضطهاد العسكري الحاقد والبوليسي والاستثمار المـضاعف، والهزائم في الجبهة والفوضى الاقتصادية تدفع العمال للكفاح. **واتسمت الإضرابات خلال الحـرب بطـابع اقتـصادي أساسًـا،** واختلفت عن إضرابات ما قبل الحرب باتسامها باعتدال أكبر. وكان ضعف الطبقة يزداد مع ضـعف حزبهـا. وبعـد اعتقـال مندوبي البلاشفة ونفيهم، قامت السلطات، بمعونة عملاء محرضين منظمين تسلسليًا بصورة مسبقة، بتدمير عام لكل المنظمـات البلشفية، لم يتمكن الحزب من النهوض بعدها إلا عند انتفاضة فبراير (شباط). وقد مرَّت الطبقة العاملة المتفسخة خلال عـامي ١٩١٥ و١٩١٦ بمدرسة أولية للكفاح، حتى فبراير (شباط) ١٩١٧؛ حيث **تمكنت الإضرابات الاقتصادية الجزائية ومظـاهرات النساء الجائعات من دمجها في إضراب عام، وجرت الجيش إلى التمرد.**

وهكذا، دخلت بروليتاريا بتروغراد في ثورة فبراير (شباط) بأعداد غير متجانسة إلى حد كبير، وعاجزة عن الانـدماج والالتحام مع بعضها بعضًا، كما أنها اشتركت في الانتفاضة بمستوى سياسي ضعيف حتى بالنسبة لشرائحها المتقدمـة. وكـان الأمر يسير بصورة أسوأ أيضًا في المناطق. ومن الواضح أن هذه الانتكاسة المتمثلة بجهـل البروليتاريـا أو نـصف جهلهـا السياسي الناجم عن الحرب، هي التي خلَّفت الشرط الثاني لسيطرة الأحزاب التوفيقية مؤقتًا.

إن الثورة تعلِّم الناس بسرعة. وهنا تكمن قوتها.. وكان كل أسبوع يحمل معه للجماهير شيئًا جديدًا. وقد يصنع شـهران عهدًا من العهود. ففي نهاية فبراير (شباط) كانت الانتفاضة. وفي نهاية إبريل (نيسان) وقعت مظاهرة العمال والجنود المسلحين في بتروغراد. وفي بداية يوليو (تموز) وقعت مظاهرات جديدة باتساع أكبر وشعارات أشد تصميمًا. وفي نهاية أغسطس (آب) دمرت الجماهير محاولة كورنيلوف الانقلابية. وفي نهاية أكتوبر (تشرين الأول) استولى البلاشفة على السلطة. وفي هذا الإيقاع لأحداث وقعت بانتظام مدهش كانت تتم تطورات جزئية عميقة ترص العناصر غير المتجانسة للطبقة العمالية في كل سياسـي واحد. ولعب الاضطراب هنا أيضًا دورًا حاسمًا.

وذهل الصناعيون، الذين أرهبتهم المصيبة الفجائية للثورة التي أخذت تجردهم من أرباح الحرب الجنونية، فقدموا منـذ الأسابيع الأولى، تنازلات للعمال. وقبِل أصحاب مصانع بتروغراد، مع بعض التحفظات والقيود، تحديد يـوم العمـل بثمـاني ساعات. ولكن هذا التنازل لم يشع الهدوء؛ نظرًا لأن مستوى شروط الحياة كان ينخفض باستمرار. وفي مايو (أيار) اضـطرت اللجنة التنفيذية إلى الاعتراف بأن وضع العمال "منخفض إلى حدود العوز المزمن بالنسبة لعدد كبير من الجماعات نظرًا لزيادة أعباء الحياة". وفي الأحياء العمالية بدأ الناس يتسمون بالعصبية، وأصبحت أفكارهم متوترة جدًا. وكان الافتقار إلى أبعاد جديـدة

وآمال جديدة هو الذي يثقل على النفوس بصورة أكبر. وكانت الجماهير قادرة على تحمل أقسى أنواع الحرمان وأشقها عندما تُفهِّم سبب ذلك الحرمان. ولكن النظام الجديد بدأ ينكشف أمامها ليظهر على حقيقته للعلاقات الاجتماعية القديمة التي انتفضت ضدها في فبراير (شباط). وهي لا تستطيع أن تتسامح في هذا أبدًا.

واتخذت الإضرابات طابعًا عنيفًا في أكثر الشرائح العمالية تخلفًا وتعرضًا للاستغلال. وأضربت الغسالات، وعمال المصابغ، وصُناع البراميل، ومستخدمو التجارة والصناعة، وعمال البناء، وعمال البرونز، والدهانون، وعمال البناء المعاونون، والمصورون، والحذاءون وصُناع الأغطية الكرتونية، والجزارون، والنجارون، أضرب كل هؤلاء بالتتابع، طيلة شهر يونيو (حزيران). وبدأ عمال المصانع، على عكس العمال الأخرين يلعبون دورًا معدلاً. واتضح للعمال المتقدمين أن الإضرابات الاقتصادية الجزئية، في شروط الحرب والفوضى والتضخم، لا يمكن أن تحمل معها تحسينات جدية، وأن من الضروري تعديل الأسس ذاتها بطريقة من الطرق. ولم يفتح إغلاق المصانع أذهان العمال إلى المطالبة بالإشراف على الصناعة فحسب، بل دفعهم إلى فكرة ضرورة وضع المصانع تحت تصرف الدولة. وكان هذا الاستنتاج يبدو طبيعيًّا جدًا؛ نظرًا لأن معظم المصانع الخاصة كانت تعمل من أجل الحرب وأن هناك إلى جانبها مؤسسات حكومية من النموذج ذاته. ومنذ صيف عام ١٩١٧، وصلت إلى العاصمة وفود العمال والمستخدمين التي توافدت من الأنحاء المختلفة لروسيا، تطالب بوضع المصانع تحت تصرف الخزينة، نظرًا لأن المساهمين قد توقفوا عن الدفع. وأصمَّت الحكومة أذنيها كيلا تسمع بهذا. وكان من الواجب تبديل الحكومة بالتالي. غير أن التوفيقيين كانوا يعارضون تبديلها. فغيَّر العمال جبهة نضالهم لمواجهة التوفيقيين أنفسهم.

وبدا مصنع بوتيلوف، الذي يضم ٤٠,٠٠٠ عامل وكأنه قلعة الاشتراكيين - الثوريين في الأشهر الأولى للثورة. ولكن عناصر هذا المصنع لم تقاوم البلاشفة فترة طويلة. وكان بوسعنا أن نرى على رأس المهاجمين في غالب الأحيان فولودارسكي وهو خياط يهودي، عاش سنوات في أمريكا، ويتكلم اللغة الإنكليزية بطلاقة. وكان فولودارسكي خطيبًا جماهيريًّا من الطراز الأول، منطقيًّا، ومبدعًا وجريئًا. وكانت اللهجة الأمريكية تعطي لصوته الجهوري تعبيرًا خاصًا. وكان هذا الصوت يدوي بوضوح في اجتماعات تضم الألوف من الرجال. وقد حكي العامل مينيتشيف: "منذ اللحظة التي ظهر فيها فولودارسكي في دائرة نارفا، في مصنع بوتيلوف، بدأت الأرض تهتز تحت أقدام السادة من الاشتراكيين - الثوريين، وفي خلال شهرين، تبع عمال بوتيلوف البلاشفة".

وازدادت حدة الإضرابات، كما ازدادت حدة الصراع الطبقي بسبب نفوذ البلاشفة بصورة شبه آلية. وكلما كان الموقف متعلقًا بمصالح العمال الحيوية، كان العمال يفهمون أن البلاشفة لا يملكون فكرة مسبقة يتسترون عليها، وأنهم واضحون لا يخفون شيئًا من أهدافهم. وإن بالإمكان الاعتماد عليهم. وفي ساعات النزاع، كان العمال المستقلون والاشتراكيون - الثوريون، والمناشفة يتجهون نحو البلاشفة. وهذا يفسر واقعة انتقال لجان المصانع والمعامل إلى البلاشفة، هذه اللجان التي كانت تقود الكفاح من أجل بقاء مؤسساتها ضد تخريب الإدارة والملاكين قبل انتقال مجلس السوفييت إلى البلاشفة بوقت كبير. وفي مؤتمر لجان المصانع والمعامل في بتروغراد وضاحيتها الذي انعقد في يونيو (حزيران) أيَّد ٣٣٥ صوتًا من أصل ٤٢١ صوتًا قرار البلاشفة. وقد مرَّ هذا الحادث دون أن تتعرض له الصحافة الكبرى بكلمة واحدة. ومع ذلك كان هذا الحادث يعني أن بروليتاريا بتروغراد، التي لم يُتح لها الوقت الكافي من قبل لكي تقطع صلتها بالتوفيقيين، قد انحازت بصورة فعلية إلى جانب البلاشفة في المسائل الأساسية التي تمس الحياة الاقتصادية.

وفي **مؤتمر النقابات** الذي انعقد في يونيو (حزيران) وجد في بتروغراد أكثر من خمسين نقابة، لا يقل عــدد أعــضائها عن ٢٥٠,٠٠٠ عضوًا. وكانت نقابة عمال المعادن تضم حوالي ١٠٠,٠٠٠ عامل. وتضاعف عدد أعضائها خلال شهر مــايو (أيار) وحده. وكان نفوذ البلاشفة في النقابات يزداد بسرعة أكبر أيضًا.

وانتصر البلاشفة في كل الانتخابات الجزئية التي تمت في مجالس السوفييتات. وفي الأول من يونيو (حزيران) كان عدد البلاشفة في سوفييت موسكو ٢٠٦ عضوًا مقابل ١٧٢ عضوًا منشفيًّا و١١٠ عضوًا اشتراكيًّا - ثوريًّا. وحدثت التحولات ذاتهــا في المناطق، مع أنها تمت بصورة أبطأ. وكان عدد أعضاء الحزب يزيد بصورة مستمرة. وفي نهاية أبريــل (نيــسان) كــان التنظيم البلشفي في بتروغراد يضم حوالي ١٥,٠٠٠ عضوًا. وفي نهاية يونيو (حزيران) أصبح هذا العدد أكثر من ٣٢,٠٠٠.

وكان البلاشفة يملكون في هذا الوقت أكثرية في الفرع العمالي لسوفييت بتروغراد. ولكنهم كانوا يضيعون في الجلسات التي يجتمع فيها الفرعان (العمال والجنود) ويُسحقون تحت وطأة مندوبي الجنود. وكانت صحيفة البرافدا تطالب بإلحاح متزايــد بإجراء انتخابات جديدة: "وإن ٥٠٠,٠٠٠ عامل في بتروغراد ممثلون في مجلس السوفييت بعدد من المندوبين يقل بأربع مرات عن عدد مندوبي رجال الحامية الذين لا يتجاوز عددهم ١٥,٠٠٠ رجل".

وطالب لينين في مؤتمر السوفييتات الذي انعقد في يونيو (حزيران) باتخاذ تدابير لمقاومة عمليــات إغــلاق المــصانع، والنهب، وتقويض الحياة الاقتصادية، هذه العمليات التي ينظمها الصناعيون وأصحاب المصارف. وقال لينين في هذا المــؤتمر: "اكشفوا أرباح هؤلاء الأسياد الرأسماليين، واعتقلوا خمسين أو مائة من أكبر أصحاب الملايين. ويكفــي ســجنهم خــلال عــدة أسابيع، وطبقوا عليهم إذا اقتضى الأمر نظامًا يتسم بالرأفة كالنظام المطبق على نيقولا رومانوف، بهدف إكراههم على كــشف محاولات الاحتيال، والمكائد، والسفالات والعقلية التجارية الجشعة التي تكلف بلادنا الملايين. حتى في ظل الحكومة الجديــدة". وكان زعماء السوفييت يعتبرون اقتراح لينين شنيعًا إلى أبعد الحدود. وكانوا يعلقون عليه بما يلي: "هل مــن الممكــن تعــديل قوانين الحياة الاقتصادية، بممارسة أعمال العنف ضد هؤلاء أو أولئك من الرأسماليين"؟ وكان إملاء القوانين من قبل الصناعيين ولحسابهم مع التآمر على الأمة مقبولاً وكأنه من طبيعة الأمور. وصب كرنسكي جام غضبه على لينين. ثم لم يتردد بعد شــهر واحد عن اعتقال عدة ألوف من العمال غير المتفقين مع الصناعيين حول اتجاه "قوانين الحياة الاقتصادية".

وانكشفت العلاقة بين رجال السياسة ورجال الاقتصاد. وأخذت الدولة التي اعتادت العمل بــصوفية تحــاول التــصرف بأسلوب آخر، يعتمد في غالب الأحيان على أكثر الأشكال بدائية، أي على قوة المفارز المسلحة. وأخذ العمال في أنحاء متفرقــة من البلاد يسوقون بالقوة إلى مجلس السوفييت أو يحبسون لديه رب العمل الذي كان يــرفض إجــراء تنــازلات أو الــدخول بمفاوضات معهم. وليس من المدهش أن تصبح الميليشيا العمالية هدف نفور خاص من جانب الطبقات المالكة.

ولم ينفذ قرار اللجنة التنفيذية، الذي نصَّ بصورة أولية على تسليح ١٠٪ من العمال. ولكن العمال نجحــوا جزئيًّــا فــي الحصول على السلاح، ودخلت العناصر النشيطة منهم في صفوف المليشيا. وتركزت قيادة المليشيا العمالية بــين يــدي لجــان المصنع، وأخذت قيادة لجان المصنع تنتقل إلى أيدي البلاشفة. وقد روى أحد عمال مصنع بوستافشتشيك في موسكو مــا يلــي: "في الأول من يونيو (حزيران) عندما انتخبت لجنة المصنع الجديدة، المؤلفة بأكثريتها من البلاشفة، شكلت مفرزة مؤلفة من ٨٠ عاملاً، قامت بالتمارين بالعصي تحت قيادة جندي قديم هو الرفيق ليفاكوف، نظرًا لافتقارنا إلى السلاح".

وكانت الصحافة تتهم المليشيا بارتكاب أعمال العنف، والمصادرات والاعتقالات التعسفية. ومما لا شك فيه أن المليـشيا كانت تستخدم العنف؛ فلقد خلقت من أجل هذا. وكانت جريمتها تتمثل باستخدام العنف مع ممثلي الطبقة التي لـم تعتـد علـى معاناته ولا تريد أن تعتاد عليه.

وبتاريخ ٢٣ يونيو "حزيران" عقد مؤتمر عمالي في مصنع بوتيلوف القائم بدور قيادي في الكفاح من أجل رفع الأجور، وشارك في المؤتمر ممثلو السوفييت المركزي لنقابات المعامل والمصانع، والمكتب المركزي للنقابـات و٧٣ مـصنعًا. وأقـر المؤتمر بتأثير من البلاشفة أن إضراب المصنع في الشروط الحالية قد يؤدي إلـى "معركـة سياسـية غيـر منظمـة لعمـال بتروغراد".. وبناء على هذا اقترح عمال بوتيلوف "كظم سخطهم الشرعي" وإعداد قواهم للقيام بعمل عام.

وفي أمسية انعقاد هذا المؤتمر الهام، قدمت مفرزة البلاشفة إلى اللجنة التنفيذية الإنذار التالي: "إن بوسع كتلة مؤلفة مـن ٤٠,٠٠٠ شخص... من يوم إلى آخر، أن تقوم بالإضراب، وأن تنزل إلى الشارع. وربما تكون قد تحركت إذا لم يكن حزبنا قد منعها، ولكن لا شيء يضمن نجاحنا أيضًا في منعها. إلا أنَّ تحرك عمال بوتيلوف -وليس هناك أدنى شك في هـذه النقطـة- سيثير تدخل أكثرية العمال والجنود حتمًا".

وكان زعماء اللجنة التنفيذية يرون في مثل هذه الإنذارات نوعًا من الديماغوجية، أو يكتفون بإغلاق آذانهم، والمحافظـة على هدوئهم، وقد انقطعوا هم أنفسهم عن ارتياد المصانع والثكنات، بعد أن أصبحوا شخصيات ممقوتة من العمـال والجنـود. وكان البلاشفة وحدهم يتمتعون بسلطة تسمح لهم بالحيلولة دون قيام العمال والجنود بعمل مشتت. ولكن نفاد صبر الجماهير أخذ ينقلب في بعض الأحيان ضد البلاشفة أيضًا.

وظهر الفوضويون في المصانع والأسطول. وأظهروا عدم تماسكهم العضوي كما يحدث دائمًا إبان الأحداث الكبـرى، وبوجود الجماهير الكبيرة. وكان إنكارهم لسلطة الدولة ورفضهم لها يزداد بمقدار ما يقل فهمهم لأهمية مجلس السوفييت كجهاز للدولة الجديدة. ولكنهم كانوا يلزمون الهدوء عند التعرض لمسألة الدولة لأن الثورة قد أذهلتهم. وكانوا يظهرون استقلالهم الذاتي في ميدان الانقلابية الوضيع أساسًا. وخلق الاختناق الاقتصادي والسخط المتزايد لعمـال بتروغـراد بعـض مواقـع اسـتناد للفوضويين. ونظرًا لأنهم عاجزون عن حساب ميزان القوى على كل المستوى الوطني بصورة جدية، ولأنهم مستعدون لاعتبار كل زخم من الأدنى كضربة خلاص أخيرة، نظرًا لكل هذا كان الفوضويون يتهمون البلاشفة أحيانًا بالجبن وبالنزعة إلى التوفيق والمصالحة أيضًا. وكانوا يكتفون عادة بالتذمر. وكان رد فعل الجماهير تجاه مظاهرات الفوضويين تسمح للبلاشفة أحيانًا بقياس درجة ضغط البخار الثوري.

* * *

وبعد ١٥ يومًا من وصول لينين، وتحت تأثير الدفع الوطني القادم من كل جانب صرَّح البحارة الذين احتفلوا بقدومه في محطة فنلندا بما يلي: "لو أننا عرفنا... الطرق التي استخدمها للوصول، لسمع الناس صيحات سـخطنا بـدلاً مـن صـيحات حماستنا، ولقلنا أمامه: فليسقط! عُد إلى البلد الذي جئت إلينا منه!.."، وكانت سوفييتات الجنود في القرم تهدد بالتتـالي بمقاومـة دخول لينين شبه الجزيرة الوطنية بقوة السلاح، مع أن لينين لم يكن ينوي زيارتها بالفعل. وقرر الفوج الفولهيني، الذي أيَّد ثورة ٢٧ فبراير (شباط)، اعتقال لينين، وسط غليان أفراده، لدرجة وجدت معها اللجنة التنفيذية أنها ملزمة باتخاذ تدابير لحمايته. ولم تمح هذه الأوضاع الفكرية بصورة نهائية، وظلت قائمة حتى وقع هجوم يونيو (حزيران). ثم التهبت من جديد بعد أيـام يوليـو

(تموز). وفي الوقت نفسه كان الجنود في المواقع الضائعة. وفي القطاعات البعيدة من الجبهة المترامية يتحدثون لغـة بلـشفية بمزيد من الجرأة، دون أن ينتابهم الشك فيها في معظم الأحيان.

وكان البلاشفة، في الأفواج، يعدون بالآحاد. غير أن شعارات البلاشفة كانت تنفذ إليهم بمزيد من العمق. وكانـت هـذه الشعارات تولد بصورة عفوية في كل أنحاء البلاد. ولم يكن المراقبون الليبراليون يرون في كل هذا شيئًا آخـر غيـر الجهـل والفوضى. وقد كتبت الريتش في تلك الفترة تقول: "يتحول وطننا إلى مستشفى للمجانين؛ حيث يعمل ويأمر الحانقون، في حـين يبتعد مَن لَم يفقدوا العقل بعد مذعورين، ويلتصقون بالجدران". وبمثل هذه التعابير بالضبط فرّج "المعتدلون" عن نفوسهم في كل الثورات. وكانت الصحافة التوفيقية تعزي نفسها بالقول بأن الجنود، رغم كل الخلافات، لا يريـدون أن يعرفـوا شـيئًا عـن البلاشفة. بَيْد أن البلشفية اللا شعورية للجماهير، التي تعكس منطق التطور، كانت تشكل القوة التي لا تقاوم لحرب لينين.

وروى الجندي بيريئيكو أن الفائزين في انتخابات الجبهة لمؤتمر السوفييتات، بعد ثلاثة أيام من الجدل والمناقشات كـانوا من الاشتراكيين - الثوريين فقط، ولكن مندوبي الجنود اتخذوا، رغم احتجاج الزعماء، قرارًا فوريًّـا يـنص علـى ضـرورة مصادرة أراضي النبلاء دون انتظار انعقاد المجلس التأسيسي. "وكانوا يقفون بالنسبة للمسائل المتعلقة بالجنود بـصورة عامـة مواقف أكثر يسارية من مواقف أشد البلاشفة تطرفًا". وهذا هو بالضبط ما قصده لينين عندما قال بأن الجماهير كانـت "أكثـر يسارية منا بمائة مرة".

ويروي أحد المستخدمين في كتابة اللوحات في إحدى ورش الدراجات البخارية، في وظيفة من وظائف حكومة توريـد أن الجنود كان يحملون مرارًا على البلاشفة المجهولين ويوجهون إليهم الشتائم بعد أن يقرءوا صحيفة برجوازية ثم ينتقلون مـن ذلك إلى جدل بيزنطي وممل حول ضرورة إنهاء الحرب ومصادرة أراضي النبلاء. وكان هؤلاء هم نفـس الـوطنيين الـذين أقسموا بأن يمنعوا لينين من دول شبه جزيرة القرم.

وكان جنود الحاميات الرائعة في المؤخرة يذوبون ويذبلون في مواقعهم. وكان تجمع هائل من الرجال العـاطلين عـن العمل، الذين ينتظرون بملل وجزع تغيير أوضاعهم، كان هذا التجمع يخلق عصبية تظهر في الاستعداد المسبق الـدائم للتعبيـر عن استيائهم في الشارع، وركوبهم حافلات الترام ذهابًا وإيابًا بصورة مستمرة، وهم يقضمون بـذور دوار الـشمس، وكـأنهم مصابون جميعًا بهذا الوباء. وأصبح منظر الجندي بمعطفه الملقى على الكتفين بصورة مهملة، وقـشرة بـذور دوَّار الـشمس الملصقة على شفته، منظرًا مكروهًا بالنسبة للصحافة البرجوازية. إنه هو نفسه الجندي الذي تملقوه بدون إتقان خلال الحـرب، ولم يعاملوه إلا معاملة الأبطال، بَيْد أن كل هذا التكريم لم يمنعهم من تعريض هذا البطل في الجبهة إلى الجلد بالسياط. وهكـذا فإن الجندي الذي حمل عاليًا بعد انتفاضة فبراير (شباط) كمحرر، أصبح فجأة جبانًا، وخائنًا، وصانعًا للعنف، وعـاملاً اشـترته ألمانيا لحسابها. والحقيقة، ليس هناك من الصفات الشنيعة ما لم تعزوها الصحافة الوطنية للجنود والبحارة الروس.

ولم تكن اللجنة التنفيذية تعمل شيئًا آخر غير تبرير موقفها، ومحاربة الفوضى، وخنق أعمال التطرف، وإرسـال أوراق التحقيق والتأنيب وسط غيبوبتها الكاملة. وعندما سئل رئيس سوفييت تساريتزين -وكانت هذه المدينة معتبرة وكرًا "للفوضـوية البلشفية"- من قبل المركز عن الوضع أجاب بالجملة الموجزة التالية: "كلما سارت الحامية إلى اليسار، سار البورجـوازي إلـى اليمين". ويمكن تعميم صيغة رئيس سوفييت تساريتزين على كل البلاد. الجندي نحو اليسار، والبورجوازي نحو اليمين.

فمن كان يُظهر من الجنود شجاعة أكبر من شجاعة الآخرين في التعبير عما يحسه الجميع، كان يجد نفسه معاملاً مـن قبل رؤسائه كبلشفي، ثم يتوصل إلى الاعتقاد بأنه بلشفي. وقد انتقل تفكير الجنود من السلم والأرض إلى مسألة السلطة. وكـان

صدى هذه الشعارات البلشفية أو تلك يتحول إلى تعاطف واعٍ مع الحزب البلشفي. وفي خلال شهرين تبدلت الأوضاع الفكرية في الفوج الفولهيني الذي كان يستعد لاعتقال لينين في أبريل (نيسان) وتحولت لصالح البلاشفة. وحدث الأمر ذاته في فوج القنَّاصة (جاجرسكي) وفي الفوج الليتواني. وقد شكَّل الحكم المطلق أفواج القناصة الليتونيين بهدف استخدام حقد الفلاحين المالكين لأجزاء صغيرة من الأرض والعمال الزراعيين ضد بارونات ليفونيا لصالح الحرب. وكانت الأفواج تقاتل بصورة جيدة. ولكن روح العداء بين الطبقات، هذا العداء الذي أرادت الملكية الاعتماد عليه قد رسم طريقه الخاص. فكان القناصة الليتونيون من بين أوائل من قطعوا صلتهم بالملكية والتوفيقيين فيما بعد. ومنذ ١٧ مايو (آيار) تبنَّى ممثلو ثمانية أفواج ليتونية بإجماع شبه كامل الشعار البلشفي التالي: "كل السلطة للسوفييتات". ولعبوا دورًا هامًا في المسار اللاحق للثورة.

وقد كتب جندي مجهول في الجبهة ما يلي: "اليوم بتاريخ ١٣ يونيو (حزيران) عقد اجتماع صغير في مفرزتنا. وتحدثنا عن لينين وكرنسكي. إن أكثرية الجنود إلى جانب لينين، ولكن الضباط يقولون بأن لينين بورجوازي لئيم". وأصبح اسم كرنسكي بعد الفشل المأساوي للهجوم، مكروهًا في الجيش إلى حد كبير.

وبتاريخ ٢١ يونيو (حزيران) جاب اليونكرز شوارع بيترهوف وهم يحملون الإعلام واللافتات القائلة: "فليسقط الجواسيس"، "عاش كرنسكي وبروسيلوف!" وكان اليونكرز بالطبع منحازين إلى بروسيلوف. وهجم جنود الكتيبة الرابعة على اليونكرز ودحروهم، وشتتوا المظاهرة. وقد أثارت اللافتة التي رفعت لتأييد كرنسكي أقوى فورة غضب لديهم.

وزاد هجوم يونيو (حزيران) من سرعة التطور السياسي في الجيش إلى حد كبير. وتزايدت شعبية البلاشفة، بسرعة كبيرة لأنهم كانوا الحزب الوحيد الذي احتج على الهجوم. وللحق نقول، كانت الصحف البلشفية لا تصل إلى الجيش إلا بصعوبات بالغة؛ إذ كان عدد النسخ المطبوعة منها قليلاً جدًا، بالمقارنة مع عدد نسخ الصحافة الليبرالية والوطنية بصورة عامة. وكتب أحد الجنود إلى موسكو ما يلي: "... إننا لا نجد صحيفتكم في أي مكان، ومع ذلك نستفيد منها عن طريق الحديث. إنهم هنا يغرقوننا بالصحف البرجوازية المجانية، وهم يوزعون منها حزمًا في الجبهة". وكانت الصحافة تخلق للبلاشفة شعبية لا تقارن. لأنها كانت تتهم البلاشفة بأنهم وراء كل احتجاج يقدمه المضطهدون، وكل عملية استيلاء على الأراضي، وكل حالة اقتصاص من ضابط مكروه. وكان الجنود يستنتجون من كل هذا أن البلاشفة يتكلمون كرجال منصفين.

وفي مطلع يوليو (تموز) أرسل مفوض الجيش الثاني عشر إلى كرنسكي تقريرًا عن الوضع الفكري للجنود، قال فيه: "كل شيء في آخر المطاف يعزى للوزراء البورجوازيين وللسوفييت الذي اشتراه البورجوازيون. والخلاصة لا نجد وسط هذه الجمهرة الهائلة سوى الظلمات التي لا يمكن اختراقها. ويؤسفني أن أجد أن من واجبي أن أقرر أن الصحف لا تقرأ كثيرًا في هذه الأيام الأخيرة، وأن الناس يحترسون كثيرًا من الكلمة المطبوعة. ويرددون دومًا ما يلي: "إنهم يتقنون صياغة جمل جميلة" إنهم يحاولون حشو مُخِّنا..."، وكانت تقارير المفوضين الوطنيين في الأشهر الأولى عبارة عن قصائد مدح ينشدونها على شرف الجيش الثوري ووعيه الكبير وانضباطه. ولكن عندما سحب الجيش ثقته من الخطباء والدعائيين الحكوميين بعد أربعة أشهر من خيبات الأمل المستمرة، اكتشف نفس المفوضين أن الجيش الذي كانوا يبالغون في إطرائه عبارة عن "ظلمات لا يمكن اختراقها".

وكلما سارت الحامية إلى اليسار، استدار البورجوازي إلى اليمين. ونبتت في بتروغراد تحت زخم هجوم الاتحادات المضادة للثورة كما تنمو النباتات الطفيلية بعد هطول الأمطار. وكانت تطلق على نفسها أسماء طنانة، يتفوق كل واحد منها على الآخر: الاتحاد من أجل شرف الوطن، اتحاد الواجب العسكري، كتيبة الحرية، تنظيم الشجعان ...إلخ، وكانت مطامح الطبقة النبيلة ومزاعمها، ومطامح الضباط، والبيروقراطية والبرجوازية، كانت كل هذه المطامح تختفي تحت هذه الرايات

الرائعة. وكان اتحاد فرسان القديس جورج، أو فرقة المتطوعين، تشكل خلايا جاهزة لمؤامرة عسكرية. وكانت أبواب سفارات الحلفاء تفتح بسهولة لفرسان "الشرف" و"الشجاعة" العاملين بصفة مواطنين متحمسين. كما كان هؤلاء الفرسان يتلقون من وقت إلى آخر مساعدة حكومية، رفضت الحكومة قبل ذلك منح مثلها إلى مجلس السوفييت، الذي اعتبره "تنظيمًا خاصًا". وشرح أحد أحفاد أسرة سوفورين، ملك الصحافة بإصدار المالنكايا كازيتا (الصحيفة الصغيرة). وكانت هذه الصحيفة تدعو إلى إقامة ديكتاتورية حديدية، بصفتها الصحيفة الناطقة باسم "الاشتراكية المستقلة". ورشحت الأميرال كولتشاك لهذا المنصب. واستخدمت الصحافة الأكثر جدية كل الوسائل كيما تخلق شعبية لكولتشاك، دون أن تضع النقاط على الحروف. وقد برهن ما حدث للأميرال فيما بعد أن هناك خطة واسعة أعدت منذ مطلع صيف عام ١٩١٧ ارتبط اسمه بها، وكانت وراءها دوائر تتمتع بالنفوذ، من خلف ظهر سوفورين ذاته.

وتظاهرت الرجعية بعدم توجيه ضرباتها إلا ضد اللينينيين، باستثناء بعض الهجمات المفاجئة، متقيدة بهذا الشكل بحساب تكتيكي بسيط. وأصبح اسم "بلشفي" بالنسبة إليها مرادفًا للخيانة. وكما كان قادة جيش القيصر يلقون مسئولية كل الرزايا، ومسئولية غبائهم الخاص وبلادتهم، على عاتق الجواسيس الألمان، و"اليهود" بصورة خاصة؛ فقد ألقيت على عاتق البلاشفة كل أعباء الهزائم والإخفاق، بعد فشل هجوم يونيو (حزيران). ولم يكن الديموقراطيون من أمثال كرنسكي، وتسيريتلي يتميزون في هذا المجال عن الليبراليين من أمثال ميليوكوف، ولا عن أنصار نظام القنانة المكشوفة من أمثال الجنرال دينيكين.

وكما يحدث دومًا، عندما تبلغ الصراعات أقصى ذروتها، وتكون لحظة الانفجار لم تحن بعد، تظهر تجمعات القوى السياسية نفسها بصورة أوضح وأصرح. ولكن مجال اهتماماتها يكون حول مسائل ثانوية وعارضة، لا على مسائل أساسية. وفي هذه الأسابيع كانت قلعة كرونشتادت إحدى مانعات الصواعق المعينة لمنع الأهواء السياسية. وكانت هذه القلعة القديمة التي يتوجب عليها أن تكون حارسًا أمينًا للأبواب البحرية للعاصمة الإمبراطورية قد رفعت في الماضي أكثر من مرة علم الانتفاضة. ورغم القمع الوحشي، لم ينطفئ لهيب الثورة في كرونشتادت أبدًا. وكان لهيب الثورة ينبعث مهددًا بعد انتفاضة فبراير (شباط). وأصبح اسم القلعة البحرية بعد ذلك، على صفحات الصحافة الوطنية الشوفينية مرادفًا لأسوأ مظاهر الثورة، أي للبلشفية. والحقيقة، أن سوفييت كرونشتادت لم يكن قد أصبح بلشفيًا؛ إذ كان يضم في مايو (آيار) ١٠٧ بلشفيًا و١١٢ اشتراكيًا - ثوريًا، و٣٠ منشفيًا و٩٧ مستقلاً. ولكن الاشتراكيين - الثوريين والمستقلين في كرونشتادت كانوا يعيشون تحت الضغط العالي؛ لذا كانت أكثريتهم تتبع البلاشفة في المسائل الهامة.

ولم يكن بحارة كرونشتادت ميّالين إلى المناورات والدبلوماسية في ميدان السياسة. وكان مبدؤهم الوحيد: ما أن يتم القول، حتى يتم التنفيذ. فليس من المدهش إذن أن يضطروا إلى استخدام طرق عمل مبسطة إلى حد كبير إزاء حكومة طيفية. وبتاريخ ١٣ مايو (آيار) اتخذ السوفييت هذا القرار: "إن السلطة الوحيدة في كرونشتادت هي سوفييت مندوبي العمال والجنود".

ومرَّ طرد مفوض الحكومة الكاديت بيبيليائيف -الذي كان دوره دور العجلة الخامسة في العربة- دون أن يحس به أحد في القلعة. وحُوفظ على نظام نموذجي. ومُنع اللعب بالورق في المدينة، وأغلقت كل المواخير، وأخليت. وأصدر مجلس السوفييت قرارًا بمنع التجول في الشارع في حالة السُكر تحت طائلة التهديد "بمصادرة الممتلكات وإرسال المخالِف إلى الجبهة". ونُفذ التهديد أكثر من مرة.

وشدَّ البحارة كل عضلاتهم ليظهروا بأنهم جديرون بالثورة، في هذا اليوم الذي ينفتح أمامهم فيه ستار حياة جديدة كانوا يحسون بأنهم سيصبحون أسيادها، بعد أن عانوا الكثير في ظل النظام الرهيب للجيش القيصري وللقلعة البحرية، وهم الذين تعودوا في ظل هذا النظام على العمل القاسي والتضحيات، والتعذيب والعقوبات. وكانوا يرتمون بشراهة على الأصدقاء

والأعداء في بتروغراد، ويقودونهم بالقوة تقريبًا إلى كرونشتادت ليظهروا لهم مَن هُم البحارة الثوريون الحقيقيون. ولا يمكن أن يبقى مثل هذا التوتر المعنوي بصورة دائمة. ولكنه ظل باقيًا لمدة طويلة. ونظم بحارة كرونشتادت نوعًا من النظـام المـوالي للثورة. ولكن لأية ثورة؟ لم يكن هذا النظام على كل حال مواليًا للثورة التي تتجسد بالوزير تـسيريتلي ومفوضـه بيبيليـائيف. وكانت كرونشتادت تنتصب لتعلن قيام ثورة جديدة وشيكة الوقوع. ولهذا كان أفراد القلعة مكروهين إلى حد كبير من كل أولئك الذين حقدوا على الثورة الأولى.

وقدمت الصحافة الحكومية طرد بيبيليائيف من القلعة، هذا الطرد الذي تم بصورة سلمية ولم يحس به أحد كتمرد مـسلح ضد سلامة الدولة. وقدمت الحكومة شكوى إلى السوفييت. وعيَّن السوفييت فورًا وفدًا للتأثير على البحارة. وتحركت آلة السلطة المزدوجة وهي تصر. وبتاريخ ٢٤ مايو (آيار) قبل سوفييت كرونشتادت، بمشاركة تسيريتلي وسكوبوليف، وبناء على إلحـاح البلاشفة الاعتراف بأنه مضطر عمليًا للخضوع لسلطة الحكومة المؤقتة، ما دامت سلطة السوفييتات لم تتوطد في كل البلاد، مع استمرار كفاحه من أجل توطيد سلطة السوفييتات. ومع ذلك، وفيما بعد اليوم التالي صرح سوفييت كرونشتادت تحـت ضـغط البحارة الساخطين من هذا الاستسلام بأن الوزراء قد تلقوا "تفسيرًا" فقط لوجهة نظر كرونشتادت الثابتة التي لا تتغير. وكان هذا التصريح خطيئة تكتيكية، ولم يكن يختفي وراءها على كل حال شيء آخر سوى نقطة شرف ثورية.

* * *

وقرر الزعماء الكبار الإفادة من الفرصة السانحة لإعطاء رجال كرونشتادت درسًا، وإجبارهم في الوقـت ذاتـه علـى التكفير عن الأخطاء التي ارتكبوها سابقًا. وكان تسيريتلي هو المدعي العام بالطبع. وجُرِّم جنود كرونشتادت لأنهم حبسوا فـي أبراج القلعة ثمانين ضابطًا بعد أن أشار بعبارات مثيرة للمشاعر والعواطف إلى سجون كرونشتادت. ودعمته كـل الـصحافة المفكرة. ومع ذلك اضطرت الصحف التوفيقية، أي الصحف الوزارية إلى الاعتراف بأن الموقوفين "لصوص حقيقيون اعتـدوا على أموال الخزينة، وأنهم "أناس مارسوا حق العنف إلى درجة مخيفة"... وتقول صحيفة الأزفستيا، وصحيفة تـسيريتلي غيـر الرسمية: "أدلى الشهود بإفاداتهم حول موضوع سحق انتفاضة عام ١٩٠٦ (الذي قام به الضباط المعتقلـون الآن)، كمـا أدلـوا بإفاداتهم حول موضوع إطلاق النيران بالجملة، والمراكب المملوءة بجثث المعرضين للتعذيب، تلك الجثث التي كانت تُلقى فـي البحر، وعن كثير من الأعمال الشنيعة الأخرى... وكان الشهود يرون كل هذا ببساطة تامة وكأنها أمور عادية".

وكان رجال كرونشتادت يرفضون بإصرار تسليم الموقوفين لديهم إلى الحكومة التي كان الجلادون، ووكلاء الخزينة من الطبقة النبيلة الذين سرقوا أموال الدولة أقرب إليها بكثير من البحارة الذين نفذ فيهم حكم الإعدام في عـام ١٩٠٦ وفـي عـدة مناسبات أخرى. ولم يكن من قبيل المصادفات أن وزير العدل بيريفير سيف، الذي قال عنه سوخانوف بتسامح "إنه واحد مـن الشخصيات الجبانة في حكومة الائتلاف". وقد عمد إلى إطلاق سراح أسفل ممثلي الدرك القيصري من قلعة بطرس وبـولص. وكان حديثو النعمة بالديمقراطية يسعون قبل كل شيء للبرهان على شهامتهم أمام البيروقراطية الرجعية.

ورد رجال كرونشتادت في منشورهم على اتهامات تسيريتلي بما يلي: "إن الضباط، ورجال الدرك، والـشرطة الـذين اعتقلناهم خلال الأيام الثورية صرحوا بأنفسهم لممثلي الحكومة بأنهم لا يشتكون من معاملة مراقبي السجون. حقًا أن أبنية سجن كرونشتادت مخيفة وفظيعة. ولكن هذه الأبنية التي بنتها القيصرية لتحبسنا فيها. ونحن لا نملك أبنية أخرى. وإذا تحفظنـا فيهـا على أعداء الشعب، فإن ذلك لا يتم بدافع الثأر وإنما بدافع حماية الثورة".

وبتاريخ ٢٧ مايو (آيار) حوكم جنود كرونشتادت من قبل سوفييت بتروغراد. وأنذَر تروتسكي الذي تولى الدفاع عنهم، تسيريتلي قائلاً له إنه في حالة الخطر، أي: "إذا حاول جنرال مضاد للثورة وضع الحبل على عنق الثورة، فإن أعــضاء حــزب الكاديت سيغسلون هذا الحبل بالصابون، وعندئذ سيأتي رجال كرونشتادت ليكافحوا وليموتوا معنا". وقد تأكد هذا الإنــذار بعــد ثلاثة أشهر بدقة غير متوقعة؛ فعندما قام الجنرال كورنيلوف بالفتنة وقاد القطعات إلى العاصمة، دعــا كرنــسكي، وتــسيريتلي وسكوبوليف بحارة كرونشتادت للدفاع عن قصر الشتاء. ولكن ما هذا؟ في يونيو (حزيران) كــان حــضرات الــديموقراطيين يحمون النظام ضد الفوضى، ولم يكن لأي تَسوِيغ أو تنبؤ أثر عليهم. وجعل تسيريتلي مجلس سوفييت بتروغراد يتبنــى قــرارًا بإعلان سقوط كرونشتادت "الفوضوية" من قائمة الديمقراطية الثورية بأكثرية ٥٨٠ صوتًا مقابل ١٦٢ صوتًا وامتناع ٧٤ عضوًا عن التصويت.

وعندما علم قصر ماري -الذي كان ينتظر على أحر من الجمر- أن مرسوم الحِرْم قد تــم التــصويت عليــه، قطعــت الحكومة فورًا الاتصالات الهاتفية الخاصة بين العاصمة والقلعة لمنع قيادة البلاشفة من التأثير على رجال كرونشتادت، وأمرت بإبعاد كل "المراكب - المدارس" من مياه القلعة بصورة فورية. وطالبت مجلس السوفييت "باستسلام غيــر مــشروط". وهــدد مؤتمر مندوبي الفلاحين الذي كان منعقدًا في هذه الأيام "برفض إعطاء كل المواد الاستهلاكية لجنــود كرونــشتادت". وكانــت الرجعية الواقفة خلف ظهر التوفيقيين تفتش عن خاتمة نهائية، ودموية إذا أمكن.

وقد كتب أيوغوف أحد المؤرخين الشبان ما يلي: "سيكون لعمل سوفييت كرونشتادت الطائش آثار غير مرغوبة. وكــان من الواجب إيجاد وسيلة ملائمة للخروج من الوضع الناشئ. ولهذا الهدف بالضبط ذهب تروتسكي إلى كرونشتادت. وتكلم فــي مجلس السوفييت، وكتب بيانًا تبناه السوفييت، ثم صدق بالإجماع فيما بعد بجهود تروتسكي في اجتماع تم في ســاحة المرســاة" واحتفظ رجال كرونشتادت بموقفهم المبدئي، إلا أنهم قدموا تنازلات عملية.

وأثارت تسوية النزاع بصورة ودية سخط الصحافة البرجوازية إلى حد كبير، وأخذت تكتب ما يلي: الفوضى تسود فــي القلعة، ويقومون فيها بطبع عملات ورقية خاصة، ونُشرت للعملات الورقية صور وهمية طبق الأصل في الصحف، كما أنهــم ينهبون أموال الدولة، وأصبحت النساء مشاعًا، ويقوم البحارة بقطع الطرق والانهماك في السكر. وكــان البحــارة المعتــزون بتوطيد نظام قاس في ربوعهم، يشدون على قبضات بعضهم بعضًا عند قراءة الصحف التي كانت تنشر أخبارًا ملفقة عنهم فــي كل أنحاء روسيا، وتوزع منها ملايين النسخ.

وبعد أن حصلت سلطات بيرفيرسيف القضائية على تسليم ضباط كرونشتادت أخذت تطلق سراحهم الواحد بعد الآخــر. وكان من المفيد إلى حد كبير لو استطعنا أن نسجل عدد الذين شاركوا في الحرب الأهلية ممن أطلق سراحهم، وكم أعــدم مــن البحارة والجنود والعمال والفلاحين رميًا بالرصاص أو شنقًا بأيديهم. ولكننا لا نملك لسوء الحظ، إمكانية إجراء هذه الحــسابات المليئة بالتعليم والدروس.

وقد تم إنقاذ سلطة الحكومة. ولكن البحارة حصلوا أيضًا على ترضية للإهانات التي تعرضوا إليها. وبدأت تصل من كل أنحاء البلاد قرارات تهنئ كرونشتادت الحمراء، وكانت تصدر عن مختلف السوفييتات اليسارية المتطرفــة، ومــن المــصانع، والأفواج، والمؤتمرات. وعبَّر فوج الرشاشات الأول بكامله، عن تقديره واحترامه لرجال كرونشتادت بالمــسير فــي شــوارع بتروغراد، وحيًّا "موقفهم الحازم الحذر تجاه الحكومة المؤقتة".

وكانت كرونشتادت تستعد مع ذلك لثأر أكثر دلالة. وجعلت إهانات الصحافة البرجوازية من قلعة كرونشتادت عاملاً ذا أهمية سياسية عامة. وقد كتب ميليوكوف ما يلي: "بعد أن تخندقت البلشفية في كرونشتادت، ألقت على روسيا شبكة دعائية واسعة، بواسطة محرضين مؤهلين بصورة مناسبة. وأرسل مبعوثو كرونشتادت إلى الجبهة؛ حيث قاموا بتخريب الانضباط، كما أرسلوا إلى المؤخرة وإلى الأرياف؛ حيث كانوا يحرضون على نهب الملكيات. وكان سوفييت كرونشتادت يزود المبعوثين بشهادات خاصة تنص على ما يلي: "إن ... مرسل إلى منطقة ... لكي يجتمع بلجان الناحية والقسم والقرية، وله حق التصويت، وحق الكلام في الاجتماعات. ويتمتع بحق عقد الاجتماعات، حسب رأيه، في أي مكان"، مع "حق حمل السلاح، والانتقال الحر والمجاني على كل خطوط السكك الحديدية والمراكب". وبالإضافة إلى هذا، "إن حرمة شخص المُحَرَّض المُعَيَّن مُصانة من قبل سوفييت مدينة كرونشتادت".

وقد نسي ميليوكوف، بشكواه من العمل التشتيتي لبحارة البلطيق أن يفسر كيف ولماذا؟!، برغم وجود السلطات، والمؤسسات، ووجود صحف تتمتع بقدر كبير من الحكمة، يقوم بحارة منعزلون مسلحون بصك سوفييت كرونشتادت الغريب، بزيارة كل البلاد والتجوال فيها دون أن يصادفوا حواجز أو عقبات. وكان هؤلاء البحارة يجدون في كل مكان المأوى والغطاء، ويقبلون في كل المجالس الشعبية. ويستمع إليهم المواطنون في كل مكان بانتباه، ويضعون بصمات أيديهم الخشنة على الأحداث التاريخية. إن المؤرخ الذي يعمل في خدمة السياسة الليبرالية لا يطرح على نفسه هذا السؤال البسيط. غير أن معجزة كرونشتادت كانت قابلة للتصور لأن البحارة كانوا يعبرون عن مطالب التطور التاريخي بعمق أكبر من عمق الأساتذة الأذكياء. وكان الصك المليء بالأخطاء الإملائية، إذا استخدمنا لغة هيجل، حقيقيًّا لأنه عقلاني، في حين بدت أذكى الخطط الذاتية وأكثرها عبقرية خططًا وهمية، لأنها لم تكن تتضمن منطقًا تاريخيًّا.

* * *

وكانت المبادرات الثورية للجان المصانع تسبق مبادرات مجالس السوفييتات. وكانت مبادرات الجماهير تسبق مبادرات لجان المصانع. وكان العمال متقدمين على الجنود في مبادرتهم الثورية. وكانت المنطقة متخلفة عن العاصمة إلى حد كبير. تلك كانت الديناميكية الحتمية للتطور الثوري الذي وَلَّد ألوف التناقضات، لكي يتغلب عليها فيما بعد، وهو ماضٍ في مسيرته وليستخف بها وكأن ذلك قد تم بمحض الصدفة ويخلق غيرها حالاً. وكان الحزب متخلفاً عن الديناميكية الثورية، مع أنه تنظيم لا يحق له أن يترك الديناميكية الثورية تسبقه وخاصة في زمن الثورة. ولم ينفصل البلاشفة في المراكز العمالية كايكاتير ينبورغ، وبرم، وطولا، ونيجني نوفوغورود، وسورموفو، وكولومنا، وايوزوفكا، عن المناشفة إلا في نهاية مايو (أيار)، ولم يكن البلاشفة في منتصف يونيو (حزيران) يملكون تنظيمات مستقلة في أوديسا ونيقولاييف، وايليزا فتغراد، وبولتافا وفي أنحاء أخرى من أوكرانيا. ولم ينفصل البلاشفة نهائيًّا عن المناشفة في باكو، وزلاتوست، وبيجتبيسك، وكوستروما إلا في نهاية يونيو (حزيران). وقد تبدو هذه الوقائع مدهشة بالتأكيد، لو أخذنا بعين الاعتبار أن البلاشفة استلموا السلطة بعد أربعة أشهر. فكم كان الحزب خلال الحرب متخلفاً إلى حد كبير عن سياق التطور الجزئي في أوساط الجماهير. وكم كانت قيادة كامنييف - ستالين في مارس (آذار) بعيدة عن المهام التاريخية الكبرى! ومع هذا فقد فوجئ أكثر الأحزاب ثورية، هذا الحزب الذي لم يعرف التاريخ الإنساني حتى يومنا هذا أكثر منه ثورية، وأخذته أحداث الثورة على حين غِرَّة. وكان يتشكل تحت النار، ويضم صفوفه وسط زخم الأحداث. ووجدت الجماهير نفسها، في وقت المنعطف "مائة مرة" إلى يسار حزب أقصى اليسار.

وإذا ما فحصنا التقدم الذي أحرزه نفوذ البلاشفة، والذي تم بقوة تطور تاريخي طبيعي، اكتشفنا تناقضات الحزب وانحرافاته، ومده، وجزره. إن الجماهير كتلة غير متجانسة، ولا تتعلم إضرام نار الثورة إلا عندما تحرق أصابعها فيها،

وتتراجع أمامها. وكان بوسع البلاشفة زيادة سرعة سياق وتدريب الجماهير فقط. وكان البلاشفة "يفسرون بصبر" ولم يسء التاريخ في هذه المرة استخدام صبرها.

وبينما كان البلاشفة يستولون على المصانع والمعامل والأفواج بصورة لا يمكن مقاومتها، أعطت الانتخابات لمجالس الدوما الديمقراطية تفوقًا هائلاً ومتزايدًا ظاهريًّا للتوفيقيين. وكان ذلك واحدًا من أشد التناقضات وأكثرها حدة، وأكثرها غموضًا في الثورة. حقًا! كان دوما دائرة فيبورغ، البروليتاري الصِرف، يعتز بأكثريته البلشفية. ولكن كان هذا استثناءً. وقد حصل الاشتراكيون - الثوريون في الانتخابات البلدية بموسكو يونيو (حزيران) على أكثر من ٦٠٪ من الأصوات. وقد أذهلهم هذا الرقم؛ كانوا لا يستطيعون أن يمنعوا أنفسهم من الإحساس بأن نفوذهم يسير بسرعة نحو الانحطاط. وتقدم انتخابات موسكو فائدة غريبة لكي نفهم العلاقات بين التطور الحقيقي للثورة وانعكاساتها في مرايا الديمقراطية. فكانت الشرائح المتقدمة من العمال والجنود تسارع إلى استخلاص أوهام توفيقية لنفسها. وخلال هذا الوقت، كانت الشرائح الواسعة لرجال البؤساء في المدينة تبدأ بالتحرك فقط. وربما كانت الانتخابات الديمقراطية تفتح لهذه الجماهير المبعثرة أول إمكانية، وعلى كل حال، فإنها تتيح لها فرصة من أندر الفرص لإبداء رأيها سياسيًّا.

وبينما كان العامل منشفيًّا بالأمس أو اشتراكيًّا - ثوريًّا أصبح يصوت لحزب البلاشفة، ويقود الجندي خلفه، وكان الحُوذي، والحمَّال، والصبي البواب، والتاجرة، والبائع ومستخدمه، والمدرس، يخرجون من عدمهم السياسي لأول مرة، بعمل يتسم بنفس بطولة إعطاء الصوت للاشتراكيين - الثوريين. وكانت الشرائح البرجوازية الصغيرة تصوت متأخرة لكرنسكي لأنه كان يجسد في نظرهم ثورة فبراير (شباط) التي بدأت تصطدم بهم في هذا اليوم. وكان مجلس دوما موسكو بأكثريته الـ٦٠٪ من الاشتراكيين - الثوريين يشع بآخر ضوء لمشعل يوشك على الانطفاء، وحدث الشيء نفسه لكل أجهزة الإدارة الذاتية للديمقراطية. وما أن ولدت الأجهزة حتى وجدت نفسها مصابة بالعجز بسبب تأخرها. وكان هذا يعني أن سير الثورة يرتبط بالعمال والجنود لا بالغبار البشري الذي أثارته، وأدارته رشاشات الثورة.

هذه هي الجدلية العميقة والبسيطة في الوقت ذاته لليقظة الثورية في أوساط الطبقات المضطهدة. وأن أخطر ضلال لثورة من الثورات هو أن يقوم العداد الآلي للديمقراطية بعملية جمع بسيطة لوقائع الأمس، واليوم، والغد، ويدفع، الديموقراطيين الخالصين إلى التفتيش عن رأس الثورة؛ حيث توجد في الحقيقة مؤخرتها الثقيلة. وكان لينين يعلِّم حزبه على التمييز بين الرأس والمؤخرة.

مؤتمر السوفييتات ومُظاهرة يونيو (حزيران)

بتاريخ ٣ يونيو (حزيران) انعقد في بتروغراد، بمبنى مدرسة الطلاب الضباط أول مــؤتمر للــسوفييتات. وقــدَّم هــذا المؤتمر لكرنسكي موافقته على الهجوم. وكان مجموع المندوبين الذين يتمتعون بحق التصويت في المؤتمر ٨٢٠ مندوبًا، فــي حين كان ٢٦٨ مندوبًا آخرين يتمتعون بأصوات استشارية. وكان هؤلاء المندوبين يمثلون ٣٠٥ سوفييتًا محليًّا و٥٣ سوفييتًا من سوفييتات المناطق والأقاليم، وتنظيمات الجبهة، والمؤسسات العسكرية في المؤخرة وبعــض التنظيمــات الفلاحيــة. وكانــت السوفييتات التي تضم ٢٥,٠٠٠ عضوًا على الأقل تملك حق التصويت. أما مجالس السوفييتات التي كانت تضم مــن ١٠,٠٠٠ إلى ٢٥,٠٠٠ عضو فكانت أصوات أعضائها استشارية. وطبقًا لهذه المعايير التي لم تكن مُراعاة بدقة، يمكــن أن نفتــرض أن المؤتمر كان يمثل أكثر من ٢٠ مليون شخص. ومن أصل ٧٧٧ عضوًا أعلنوا انتماءهم الحزبي، كان هناك ٢٨٥ اشــتراكي - ثوري و٢٤٨ منشفي و١٠٥ بلشفي. وتأتي بعدهم مجموعات أقل أهمية. وكان الجناح اليساري للمؤتمر المؤلف مــن البلاشــفة الأمميين الذين كانوا يرتبطون بهم بصورة وثيقة يشكل أقل من خُمس المندوبين. وكانت أكثرية المؤتمر تتألف مــن أشــخاص سجلوا أنفسهم في مارس (آذار) كاشتراكيين، بَيْد أن هؤلاء الاشتراكيين أحسوا في يونيو (حزيران) بالتعب من الثورة. وكانــت بتروغراد تبدو لهم مدينة يسكنها الجن.

وافتتح المؤتمر أعماله بالموافقة على طرد غريم الاشتراكي السويسري المسكين، الذي حاول إنقــاذ الثــورة الروســية والحزب الاشتراكي - الديموقراطي الألماني عن طريق محادثات تمت في الكواليس مع دبلوماسيي الهوهنزولرن. وتقدم الجناح اليساري في المؤتمر باقتراح طلب فيه إجراء مناقشة فورية للهجوم الذي كانت استعدادات القيام به تتم على قدم وساق فــرُفض الاقتراح بأكثرية ساحقة. وكان البلاشفة في المؤتمر يبدون جماعة لا وزن لها. ولكن في ذلك اليوم بالذات، وربمــا كــان فــي الساعة ذاتها، تبنَّى **مؤتمر لجان المعامل والمصانع** في بتروغراد بأكثرية ساحقة أيضًا قرارًا يقول بأن سلطة السوفييتات هــي السلطة الوحيدة الكفيلة بإنقاذ البلاد.

ولم يكن التوفيقيون، نظرًا لقصر نظرهم، قادرين على منع أنفسهم من رؤية ما يجري حولهم يوميًّا. وأخذ ليبــر العــدو اللدود للبلاشفة يشهر في جلسة ٤ يونيو (حزيران) بمفوضي الحكومة العاجزين، الذين لا يريــد المــسئولون فــي المــديريات بالتنازل عن سلطاتهم لصالحهم. "وكان عدد كبير من وظائف الأجهزة الحكومية ينتقــل بــسبب هــذه الظــروف إلــى أيــدي السوفييتات، حتى عندما كانت هذه السوفييتات غير راغبة بتلك الوظائف". وهكذا كان التوفيقيون يشتكون من أنفسهم.

وقد روى أحد المندوبين الفوضويين للمؤتمر أنه لم يطرأ أقل تعديل في مجال التعليم العام خلال أربعة أشهر من الثورة. وما زال كل الأساتذة القدماء، والمفتشون، والمديرون وعملاء الأكاديميات، الذين كان كثيرون مــنهم أعــضاء ســابقين فــي تنظيمات المائة السود، وما زالت كل البرامج المدرسية، والكتب الرجعية وحتى المعاونون القدماء في الوزارة، مــا زال كــل هؤلاء ثابتون في وظائفهم. وليس هناك إلا صور القيصر التي أودعت في المخازن، ومن الممكن إخراجها في أول فرصة.

ولم يكن المؤتمر ليتجرأ على القيام بأية حركة احتجاجًا على مجلس الدوما الإمبراطوري أو على مجلس الدولة. وكــان بوجدانوف الخطيب المنشفي يواري جبنه أمام الرجعية قائلاً: إن الدوما ومجلس الدولة "كانا رغم كل شيء مؤسستين ميتتــين، وغير موجودتين". ورد عليه مارتوف المشهور بحبه للجدل والخطابة وتوجيه الملاحظات اللاذعة، قائلاً: "إن بوجدانوف يقترح اعتبار مجلس الدوما وكأنه غير موجود. ولكنه يدعو في الوقت ذاته إلى عدم التآمر على وجوده".

وانعقد المؤتمر، برغم الأكثرية الحكومية القوية وسط مناخ يخيم عليه القلق والشك. فقد دبَّ البرود بالروح الوطنية، ولم تعد تعطي سوى شرارات ضعيفة. وكان المرء يرى بوضوح استياء الجماهير، كما كان يرى أن البلاشفة أقوى بكثير في البلاد وفي العاصمة بصورة خاصة مما كانوا عليه في المؤتمر. وتركز الجدل بين البلاشفة والتوفيقيين حول الموضوع الرئيسي للثورة وكان يدور حول المسألة التالية: مع مَن ينبغي أن تسير الديمقراطية، هل تسير مع الإمبرياليين أم مع العمال؟ وكان ظل دول الحلفاء يحوم فوق المؤتمر. وبما أن مسألة الهجوم قد سُوِّيت مسبقًا، فلم يبق إذن أمام الديموقراطيين إلا أن ينحنوا.

وكان تسيريتلي يعظ قائلاً في هذه اللحظة الحرجة: "ينبغي أن لا تستبعد أية قوة اجتماعية من الميزان ما دمنا نستطيع استخدامها في سبيل قضية الشعب". وبهذا الشكل كان تسيريتلي يعلل التحالف مع البرجوازية. وبما أن البروليتاريا والجيش وطبقة الفلاحين تعارض في كل خطوة خطط الديموقراطيين، فقد كان هؤلاء الديموقراطيون مضطرين للبدء بالاشتباك مع الشعب، تحت ستار الصراع ضد البلاشفة. وهكذا حرم تسيريتلي بحارة كرونشتادت لكيلا يستبعد من ميزانه بيبيليائيف عضو حزب الكاديت. وصدَّق المؤتمر على الائتلاف بأكثرية ٥٤٣ صوتًا ضد ١٢٦ صوتًا وامتناع ٥٢ عضوًا عن التصويت.

وكانت أعمال المجلس الهائل وغير المتماسك، هذا المجلس الذي كان يسيطر عليه أعضاء الكاديت تتميز بالتصريحات المفخمة والإمساك المحافظ عن التصريح بأية كلمة عن المسائل العملية. ولم يعط هذا الموقف للقرارات صفة العزم والحزم، بل أعطاها صفة التثبيط والدجل. واعترف المؤتمر لكل شعوب روسيا بحق التصرف بنفسها، محتفظًا مع كل هذا بمفتاح هذا الحق المبهم لا للشعوب المضطهدة، بل للمجلس التأسيسي المقبل الذي كان التوفيقيون يأملون بأن يحصلوا على الأكثرية فيه. وكانوا يستعدون للاستسلام أمام الإمبرياليين كما كانوا يفعلون ذلك في الحكومة الآن.

ورفض المؤتمر إصدار مرسوم يحدد يوم العمل بثماني ساعات. وكان تسيريتلي يعزو مراوحة الائتلاف في مكانه إلى صعوبة التوفيق بين مصالح مختلف شرائح الشعب. وكأن تسيريتلي ومجموعته نسوا أنه لم يتحقق أي عمل كبير في التاريخ "بانسجام المصالح"، بل تحقق بانتصار المصالح التقدمية على المصالح الرجعية!

وقبل انتهاء المؤتمر قدم غرومان -أحد الاقتصاديين السوفييت- قرار المؤتمر الحتمي المتعلق بالمأساة الاقتصادية الوشيكة الوقوع، وبضرورة إشراف الدولة على الاقتصاد وتنظيمه. وتبنَّى المؤتمر هذا القرار المرتب، ولكنه تبناه ليبقى كل شيء كما كان في الماضي.

وبتاريخ ٧ يونيو (حزيران) كتب تروتسكي ما يلي: "بعد أن طرد غريم انتقل المؤتمر إلى جدول الأعمال. ولكن الأرباح الرأسمالية بقيت بالنسبة لسكوبوليف وزملائه أمورًا لا يجوز مسَّها. وازدادت حدة أزمة التموين من ساعة إلى ساعة. وتلقت الحكومة في المجال الدبلوماسي الضربات أثر الضربات. وفي النهاية كان لا بُدَّ للهجوم الذي أعلن بصورة هيستيرية من أن يسقط فورًا على رأس الشعب بشكل مغامرة وحشية.

"إننا نتذرع بالصبر، ونحن مستعدون لمراقبة النشاط المستتير لوزارة لفوف - تيريشتشنكو - تسيريتلي خلال عدة شهور وبمنتهى الهدوء. وإننا بأمس الحاجة لربح الوقت كيما نعد أنفسنا. ولكن الخُلد يُحفر بسرعة تحت الأرض. ومن الممكن أن تثار مسألة السلطة بين أعضاء هذا المؤتمر، بمعونة الوزراء "الاشتراكيين" بصورة أسرع مما نفترضه جميعًا".

وورط الزعماء المؤتمر في كل النزاعات اليومية. وهم يحاولون تغطية أنفسهم أمام الجماهير بسلطة أعلى، وأساءوا إلى المؤتمر إساءات بالغة في نظر عمال بتروغراد وجنود حاميتها. وكانت أكثر الحوادث المماثلة التي أحدثت دويًّا هائلاً في

الأوساط العمالية حادثة دارة "فيللا" دورنوفو. وكان دورنوفو الذي يملك هذه الدارة أحد الوجهاء السابقين في عهد القيصر. وقد اكتسب شهرة كبيرة كوزير للداخلية عندما سحق ثورة عام ١٩٠٥. واحتلت التنظيمات العمالية التابعة لدارة فيبورغ هذه الدارة الخالية التي يملكها هذا البيروقراطي المكروه والمتآمر أيضًا. وكان السبب الأساسي لاحتلالها من قبل التنظيمات العمالية وجود حديقة واسعة فيها أصبحت فيما بعد روضة مفضلة للأطفال. وكانت الصحافة البرجوازية تصور الدارة وقد أصبحت مأوًى للصوص والقرصان، وككرونشتادت دائرة فيبورغ. ولم يكلف أي شخص نفسه عناء الذهاب للتحقق من الأمر الواقع. وبذلت الحكومة جهدها بحمية جديدة تمام الجدة لإنقاذ الدارة، مع أنها كانت تتجنب معالجة كل المسائل الكبرى. وطالبت الحكومة اللجنة التنفيذية بإقرار تدابير بطولية تتعلق بالدارة، ولم يرفض اتخاذها تسيريتلي بالطبع. وأمر النائب العام بطرد جماعة الفوضويين، خلال الأربع والعشرين ساعة القادمة. وتنادى العمال بعد أن علموا بالعمل العسكري الذي كان يُعد لإخلاء الدارة بالقوة. وكان الفوضويون، من جهتهم يهددون بمقاومة إجلائهم بالسلاح. وأعلن ٢٨ مصنعًا الإضراب احتجاجًا على هذا العمل من جانب الحكومة. ونشرت اللجنة التنفيذية بيانًا نددت فيه بعمال دائرة فيبورغ واتهمتهم فيه بأنهم مساعدون للثورة المضادة. ودخل ممثلو العدالة والمليشيا في عرين الأسد بعد كل هذا التحضير والإعداد؛ فوجدوا أن النظام الشامل يسود الدارة، مع أن في الدارة عدة تنظيمات عمالية ثقافية. واضطرت السلطة إلى التراجع، ولكنها تراجعت بخجل. وكان لهذه القصة ذيول.

وبتاريخ ٩ يونيو (حزيران) انفجرت القنبلة الآتية في المؤتمر: كانت صحيفة البرافدا الصباحية قد نشرت نداءً تدعو فيه إلى القيام بمظاهرة في اليوم التالي. وصرح تشخيدزه الذي يعرف كيف يخاف، وكان مستعدًا بالتالي لتخويف الآخرين صرح بصوت صاحل (أبح): "إذا لم يتخذ المؤتمر التدابير الكفيلة بمنع المظاهرة، فإن نهار الغد سيكون داميًا". ورفع المندوبون رءوسهم وقد تولاهم الفزع والرعب.

كان الوضع بمجمله يفرض فكرة اصطدام عمال وجنود بتروغراد بالمؤتمر. وكانت الجماهير تضغط على البلاشفة. وكان الغليان في أقصى درجاته، وبخاصة في الموقع الذي كان يخشى أن تقوم السلطة بتفكيكه وتوزيع عناصره على الجبهات متذرعة بالهجوم. يضاف إلى كل هذا الاستياء الحاد في أوساط العسكريين، وكان إعلان حقوق الجندي بشير إلى تراجع كبير من قبل السلطات بالمقارنة مع "الأمر رقم واحد"، ومع نظام الأمر الواقع استتب في الجيش. وكانت المبادرة بالمظاهرة من صنع التنظيم العسكري للبلاشفة. فقد كان زعماء هذا التنظيم يؤكدون، وكانوا على صواب كما أظهرت الأحداث فيما بعد، أن الحزب لو لم يأخذ على عاتقه القيادة، لخرج الجنود من تلقاء أنفسهم إلى الشوارع. ولم يكن من الممكن تقدير التحول المفاجئ في رأي الجماهير أثناء الطريق، ومن هنا كانت تنجم بعض الترددات لدى البلاشفة أنفسهم. ولم يكن فولودارسكي مقتنعًا بأن العمال سينزلون إلى الشوارع. وكان هناك خوف من الطابع الذي ستتخذه المظاهرة.

وكان ممثلو التنظيم العسكري يؤكدون بأن الجنود لن يخرجوا إلى الشوارع بدون سلاح، خوفًا من مهاجمة السلطات لهم والاقتصاص منهم. وكان تومسكي العاقل يتساءل: "كيف ستتطور هذه المظاهرة؟"، ولهذا كان يطالب بإجراء نقاش جديد حول قيامها. وكان ستالين يقدر بأن "التخمر وسط الجنود قد أصبح أمرًا واقعًا. أما الحالة الفكرية لدى العمال فلا تتسم بمثل هذا التصميم والإصرار". ولكنه كان يجد أن من الضروري مقاومة الحكومة. أما كالينين، الذي كان ميَّالاً دومًا إلى تجنب القتال بدلاً من قبوله، فقد أعلن رأيه بمعارضة قيام المظاهرة بإصرار، متعللاً بعدم وجود سبب رئيسي يبرر قيام العمال بالمظاهرة، وكان يقول: "ستكون المظاهرة مفتعلة كل الافتعال". وبتاريخ ٨ يونيو (حزيران) ارتفعت ١٣١ يدًا أيدت المظاهرة، بعد مشاورة تمت مع ممثلي النواحي، وبعد عدة عمليات تصويت وآلية، قررت لجنة "منظمة المناطق" الانضمام إلى المظاهرة التي حُدد موعدها في يوم الأحد المصادف ١٠ يونيو (حزيران).

وتم العمل التحضيري حتى آخر لحظة بصورة سرية كيلا تعطي للاشتراكيين - الثوريين وللمناشفة فرصة إمكانية القيام بتحرك مضاد. وقد فسر هذا التدبير الشرعي فيما بعد الذي أملاه الحذر، كدليل على وجود مؤامرة عسكرية. وانضم مجلس السوفييت المركزي للجان المعامل والمصانع إلى قرار تنظيم المظاهرة. وقد كتب أبوغوف ما يلي: "قررت لجنة "منظمة المناطق" تحت ضغط تروتسكي وضد اعترافات لوناتشارسكي الانضمام إلى المظاهرة". وتم الإعداد بمنتهى النشاط.

وكان من المفروض أن ترفع المظاهرة علم سلطة السوفييتات. وكان شعار المعركة هو التالي: "فليسقط الوزراء الرأسماليون العشرة!" وكان هذا الشعار أبسط تعبير عن مطلب خرق الائتلاف مع البرجوازية. وكان على المظاهرة أن تتوجه إلى مقر الكاديت؛ حيث ينعقد المؤتمر. وهكذا يشار إلى أن الهدف ليس قلب الحكومة، بل الضغط على الزعماء السوفييت.

وأن الإنصاف يضطرنا إلى القول: إن هناك أصواتًا ارتفعت في المؤتمرات الأولية للبلاشفة. وقد اقترح سميلغا، الذي ما زال عضوًا شابًا في اللجنة المركزية "بعدم التردد في احتلال البريد والبرق، وترسانة الأسلحة إذا تطورت الأحداث إلى الصدام". وكتب لاتسيس أحد المشتركين الآخرين في المؤتمر، وأحد أعضاء لجنة بتروغراد، في دفتره الصغير، عندما رفض اقتراح سميلغا ما يلي: "إنني لا أستطيع الموافقة على هذا... سأتفق مع الرفيقين سيماشكو وراخيا كيما نكون -عند الضرورة- تحت السلاح، ولكي نستولي على المحطات، وترسانات الأسلحة، والمصارف، والبريد والبرق، بمساعدة فوج الرشاشات". وكان سيماشكو ضابطًا في فوج الرشاشات، كما كان راخيًا عاملاً، ومن أكثر البلاشفة كفاحًا ونضالاً.

إن وجود مثل هذه الأوضاع الفكرية يفهم وحده دون مساعدة عوامل أخرى. فقد كان مسار الحزب كله موجهًا إلى الاستيلاء على السلطة، ولم يكن الوضع يتطلب سوى تقدير للموقف. وفي بتروغراد وقع تحول طبيعي لصالح البلاشفة. ولكن نفس السياق في المناطق كان يتطور ببطء أكثر. وأخيرًا كانت الجبهة محتاجة إلى درس الهجوم لتتخلص من حذرها تجاه البلاشفة. وكان لينين متمسكًا بنفس موقفه في إبريل (نيسان) حول هذا الموضوع وهو: "التفسير بصبر".

وقد رسم سوخانوف في مذكراته خطة مظاهرة ١٠ يونيو (حزيران) كمؤامرة حقيقية دبرها لينين للاستيلاء على السلطة "إذا كانت الظروف ملائمة". والحقيقة، لم يكن هناك إلا بعض البلاشفة الذين كان لينين يقول عنهم بخبث "بأنهم يتجهون قليلاً جدًا إلى اليسار" أكثر مما ينبغي، كي نحاول طرح السؤال على هذا الشكل. ومن المدهش أن سوخانوف لا يحاول أبدًا مقارنة نظرياته المرتجلة بالخط السياسي للينين الذي عبَّر عنه في عديد من الخطب والمقالات(١).

وقد فرض مكتب اللجنة التنفيذية على البلاشفة فورًا إلغاء المظاهرة. فبأي حق طلب هذا الطلب؟ من الناحية الرسمية لا يمكن منع المظاهرة، على أفضل تقدير، إلا بسلطة الدولة. ولكن الدولة لا تتجرأ حتى على التفكير في منعها، فكيف إذن يمكن للسوفييت "كتنظيم خاص" توجهه كتلة مؤلفة من حزبين سياسيين منع مظاهرة حزب ثالث؟ ورفضت اللجنة المركزية للبلاشفة الطاعة، ولكنها قررت الإشارة بوضوح أكبر إلى الطابع السلمي للمظاهرة. ولُصق إعلان للبلاشفة بتاريخ ٩ يونيو (حزيران) في الأحياء العمالية يقول: "نحن مواطنون أحرار ولنا الحق بالاحتجاج، وعلينا أن نستخدم هذا الحق طالما أنه لا يزال لدينا متسع من الوقت. فما زلنا نملك حق القيام بمظاهرة سلمية".

وأثيرت المسألة من قبل التوفيقيين أمام المؤتمر. وفي هذا الوقت أدلى تشخيدزه بأقواله الرائعة عن مخرج حتمي، وأضاف أن من الواجب استمرار الجلسة طيلة الليل. أما غيغيتشكوري -وهو أحد أعضاء البريزيديوم، وسليل الجيروند- فقد أنهى خطابه بكلمة لاذعة شنيعة وجهها للبلاشفة: "ارفعوا أيديكم القذرة عن القضية الكبرى!" ولم يتح للبلاشفة، برغم إلحاحهم،

الوقت الكافي لمناقشة المسألة في حزبهم. واتخذ المؤتمر قرارًا منع كل أعمال التظاهر لمدة ثلاثة أيام. وكانت ضربة القوة هذه إزاء البلاشفة تشكل بالنسبة للحكومة عملاً اغتصابيًّا؛ فالسوفييتات تتابع سرقة السلطة من تحت وسادتهم.

وكان ميليوكوف يتحدث، في الساعات نفسها، أمام مؤتمر القوزاق، ويتهم البلاشفة "بأنهم أسوأ أعداء الثورة الروسية"، وأن أفضل صديق لهذه الثورة هو ميليوكوف ذاته الآن، بحكم منطق الأشياء، ميليوكوف الذي كان في أمسية فبراير (شباط) يفضل الهزيمة على يد الألمان بدلاً من ثورة الشعب الروسي. وعندما سأله القوزاق عن السلوك الذي يجب اتخاذه إزاء اللينيين رد ميليوكوف قائلاً: "لقد حان الوقت للتخلص من هؤلاء السادة". وكان زعيم البرجوازية مستعجلاً جدًا، خاصة وأنه لا يملك الوقت لتبديده.

ومع ذلك، انعقدت الاجتماعات في المصانع والأفواج. وتقرر الخروج إلى الشارع في اليوم التالي مع ترديد الشعار التالي: "كل السلطة للسوفييتات!". ووسط الصخب الذي أحدثه مؤتمر السوفييتات ومؤتمر القوزاق، مر انتخاب ٣٧ مستشارًا من البلاشفة في مجلس دوما بلدية دائرة فيبورغ، و٢٢ مستشارًا من كتلة الاشتراكيين - الثوريين والمناشفة، و٤ من الكاديت، مرت عملية الانتخاب هذه دون أن يحس بها أحد.

وقرر البلاشفة إعادة النظر في مسألة المظاهرة بعد أن وضعوا من قبل المؤتمر أمام قرار قطعي يتضمن تلميحًا غريبًا لضربة تهدد اليمين. وكانوا يريدون مظاهرة سلمية لا عصيانًا، ولا يستطيعون إيجاد المبررات لتحويل المظاهرة الممنوعة إلى نصف انتفاضة. وكان البريزيديوم قد قرر من جهته اتخاذ التدابير. وجُمعت عدة مئات من المندوبين في مجموعات تضم كل واحدة منها عشرة أشخاص، وبُعثت هذه المجموعات إلى الأحياء العمالية والثكنات للحيلولة دون وقوع المظاهرة، بعد أن اتفق على أن يتقدموا في صباح اليوم التالي إلى قصر توريد كي ينقلوا نتائج اتصالاتهم. وانضمت اللجنة التنفيذية لمندوبي الفلاحين إلى هذه الحملة، وعينت ٧٠ عضوًا من أعضائها للقيام بالعمل ذاته.

ومع أن البلاشفة توصلوا على كل حال إلى أهدافهم بطرق غير متوقعة؛ فإن مندوبي المؤتمر اضطروا إلى التعرف بعمال وجنود العاصمة. ولم يكن قد سمح للجبل بالاقتراب من الأنبياء، ولكن الأنبياء بالمقابل اضطروا إلى زيارة الجبل. وكان اللقاء بناءً إلى أكبر حد ممكن. ورسم أحد المراسلين المناشفة في أزفستيا سوفييت موسكو اللوحة التالية للأحداث: "جابت أكثرية المؤتمر المؤلفة من أكثر من ٥٠٠ من الأعضاء بجماعات تتألف كل منها من عشرة أعضاء المصانع والمعامل وثكنات بتروغراد خلال الليل بكامله، دون أن تغمض العيون. وكانت تعظ الرجال وتحضهم على الامتناع عن التظاهر. غير أنه ثبت أن أعضاء المؤتمر لم يتمتعوا في عدد من المصانع والمعامل وفي جزء من الموقع أيضًا بأية سلطة... واستقبل هؤلاء الأعضاء في معظم الأحيان بصورة لا تنم عن الود، وتتسم بالعداء أحيانًا، وصُرفوا مرارًا بغضب". ولم تبالغ الصحيفة الرسمية أبدًا، ولكنها رسمت على العكس لوحة حية للقاء الليلي الذي تم بين عالمين منفصلين.

ولم تترك جماهير بتروغراد على كل حال للمندوبين أية ذرة من الشك حول من يستطيع بعد الآن تقرير مظاهرة من المظاهرات أو صرف النظر عنها. ولم يقبل عمال مصنع بوتيلوف نشر بيان المؤتمر بمنع المظاهرة إلا بعد أن تحققوا وهم يقرءون البرافدا أن هذا البيان لا يخالف قرار البلاشفة. وصمد فوج الرشاشات الأول الذي كان يلعب في صفوف قطعات الموقع دور الربابات الأولى، كالدور الذي يلعبه مصنع بوتيلوف في الأوساط العمالية، وصوت هذا الفوج على القرار التالي بعد أن استمع إلى تقريري تشخيدزه وافكسانتييف، رئيسي اللجنتين التنفيذيتين: "يؤجل الفوج خروجه بالاتفاق مع اللجنة المركزية للبلاشفة وتنظيمها العسكري...".

وكانت ألوية المهدئين تصل إلى قصر توريد، بعد ليلة بيضاء، وهي في حالة تفكك معنوي شامل. فقد كانت تعتمد على سلطة لا تنقض للمؤتمر، ولكنها اصطدمت بحاجز من الحذر والعداء "وكان البلاشفة يسيطرون على الجماهير". "وكانت الجماهير تظهر عداءها للمناشفة والاشتراكيين - الثوريين". "ولا يؤمن أحد إلا بالبرافدا". وهنا وهناك كان الناس يرفعون عقيرتهم بالصياح قائلين: "لستم رفاقنا" وكان المندوبون ينقلون، الواحد بعد الآخر، إنهم تعرضوا لهزيمة ساحقة بالرغم الأمر المعاكس للمعركة.

وقد أطاعت الجماهير قرار البلاشفة. ولكن هذه الوداعة التي أظهرتها الجماهير لم تكن خالية من صرخات الاحتجاج، بل على العكس تمت وسط السخط والتذمر. وصوّت العمال في بعض المؤسسات على قرارات بلوم اللجنة المركزية. وقد وصل الأمر بالساخطين من أعضاء الحزب في الأحياء إلى تمزيق بطاقات عضويتهم. وكان هذا العمل يشكل إنذارًا في منتهى الجدية.

وكان التوفيقيون يتعللون بوجود مؤامرة ملكية تريد استغلال مظاهرة البلاشفة فعمدوا إلى منع المظاهرات لمدة ثلاثة أيام. وكانوا يلمحون إلى تآمر جزء من مؤتمر القوزاق وزحف قطعات مضادة للثورة إلى بتروغراد. وليس من المدهش بعد أن صرف البلاشفة النظر عن المظاهرة أن يُطالب البلاشفة بتفسيرات حول موضوع المؤامرة. وبدلاً من أن يرد زعماء المؤتمر على سؤال البلاشفة ومطالبتهم بالتفسيرات اتهموهم بالتآمر. وبهذا الشكل تخلصوا من الموقف وهم في منتهى السعادة.

وينبغي أن نعترف أن التوفيقيين اكتشفوا في ليلة ٩ - ١٠ يونيو (حزيران) مؤامرة هزّتهم بالفعل بصورة قوية: إنها مؤامرة الجماهير المتحدة مع البلاشفة ضدهم. ومع كل هذا استعاد التوفيقيون شجاعتهم بعد أن امتثل البلاشفة لقرار السوفييت، فسمح لهم هذا الامتثال بعد الإرجاف في الانفجار بشراسة. وقرر المناشفة والاشتراكيون - الثوريون إظهار قبضتهم الحديدية. وفي ١٠ يونيو (حزيران) كتبت صحيفة المناشفة ما يلي: "لقد حان الوقت لفضح اللينينيين كعصاة وكخونة للثورة". ورجا رئيس اللجنة التنفيذية في مؤتمر القوزاق، القوزاق لدعم السوفييت ضد البلاشفة. فرد عليه دوتوف رئيس المؤتمر، وزعيم الأورال قائلاً: "لن نصطدم نحن القوزاق بالسوفييتات أبدًا". وكان الرجعيون مستعدين للزحف مع السوفييت ضد البلاشفة ليتم سحق السوفييت بصورة مؤكدة أكثر فيما بعد.

وبتاريخ ١١ يونيو (حزيران) انعقد مجمع تهديدي مؤلف من اللجنة التنفيذية وأعضاء البريزيديوم في المؤتمر، وزعماء الأحزاب، وضم هذا الاجتماع حوالي مائة شخص. وكان النائب العام هو تسيريتلي كما كان دائمًا. فطالب وهو يختنق من الغضب بقمع شديد. وقام بحركة ازدراء أبعدت دان الذي كان مستعدًا دائمًا لمطاردة البلاشفة والذي لم يكن قد قرر ضربهم بعد. ليس ما يفعله البلاشفة في الوقت الحاضر، نشرًا للأفكار ودعوة لها، إن ما يفعلونه مؤامرة... فليعذرنا البلاشفة! إننا سنتوصل إلى طرق كفاح أخرى... ينبغي نزع سلاح البلاشفة. فلا يمكن ترك الوسائل التقنية الكبرى التي كانوا يملكونها حتى الآن بين أيديهم. ولا يمكن ترك أية رشاشات وأسلحة أخرى في حوزتهم. ونحن لن نتسامح أبدًا بِحَبك المؤامرات ضدنا". كانت هذه الأقوال أنغامًا جديدة. فماذا يعني نزع سلاح البلاشفة؟ وقد كتب سوخانوف معللاً هذا الإجراء بما يلي: "لأن البلاشفة يملكون مستودعات خاصة للسلاح. والواقع، أن كل الأسلحة بين أيدي الجنود والعمال، الذين يتبعون البلاشفة بجموع هائلة. ولا يمكن أن يعني نزع سلاح البلاشفة سوى نزع سلاح البروليتاريا. وفضلاً عن هذا فإن هذا الكلام يعني نزع سلاح القطعات العسكرية".

وبعبارات أخرى، حانت اللحظة التقليدية للثورة، تلك اللحظة التي أرادت الديمقراطية البرجوازية فيها الانصياع لمطالب الرجعية، ونزع سلاح العمال الذين أمنوا انتصار الانتفاضة.

إن السادة الديموقراطيين، الذين يملك بعضهم ثقافة لا بأس بها، يمنحون ودهم دون شك لأولئك الذين يُنزع السلاح منهم، لا إلى أولئك الذين ينزعون السلاح.. ما دامت القصة تدور حول القصة القديمة. ولكن عندما طُرحت المسألة ذاتها أمامهم بكل حقيقتها، عجزوا عن التعرف عليها بتاتًا. ولم يكن من البساطة تصور هذه المناسبة الوحيدة التي يتكفل فيها واحد من أمثال تسيريتلي بنزع سلاح العمال، مع أنه ثوري قضى سنوات في المنفى، وكان بالأمس زيميرفالديًا. وقد ذهل كل الأعضاء وأصبحوا وكأن على رءوسهم الطير. وأحس مندوبو المناطق مع كل هذا بالتأكيد من أن هناك خطة لدفعهم إلى الهاوية. وتملكت أحد الضباط أزمة هيستيرية.

وانتصب كامنييف من مكانه، وهو لا يقل شحوبًا عن تسيريتلي وصاح بصوت رزين أحس المستمعون بقوته: "سيدي الوزير، إذا كنت لا تلقى بالكلم على عواهنه، فليس من حقك أن تكتفي بالخطاب. اعتقلني وحاكمني بالتآمر ضد الثورة". وترك البلاشفة القاعة محتجين، ورفضوا الاشتراك في تدبير انتقامي موجه ضد حزبهم. وأصبح التوتر في القاعة لا يطاق.

وهرع ليبر لنجدة تسريتلي. واستبدل الغضب المحتوى لأحدهما في المنصة بالشراسة الهيستيرية للآخر. وطالب ليبر باتخاذ تدابير لا شفقة فيها ولا رحمة. "إذا كنتم تريدون لأنفسكم تلك الجماهير التي تتجه إلى البلاشفة، أقطعوا صلتكم بالبلشفية". وكان الأعضاء يستمعون إليه دون تعاطف، وبنوع من العداء أيضًا.

هنا حاول لوناتشارسكي، الذي كان لا يتأثر أبدًا، الدخول في مفاوضات مع الأكثرية: لقد أكَّد له البلاشفة بأنهم لا يستهدفون سوى القيام بمظاهرة سلمية، ولكن تجربته الخاصة أقنعته بأنه "من الخطأ تنظيم المظاهرة". ومع ذلك فليس من المناسب تأزيم النزاعات. وقد أثار لوناتشارسكي أصدقاءه دون أن يهدئ خصومه.

وقال دان أكثر زعماء المستنقع تجربة، ولكنه أكثرهم عمقًا، قال بصورة ماكرة وخبيثة: "نحن لا نقاتل التيار اليساري، إننا نقاتل الثورة المضادة. وليس من حقك إذا كان وراءكم عملاء طيِّعون لألمانيا".. وكان هذا التعليل يحل محل التسويغ والتبرير بكل بساطة. ولم يكن بوسع هؤلاء السادة، بالطبع تحديد أي عميل لألمانيا.

وكان تسيريتلي يريد توجيه ضربة كبرى. واقترح دان الاكتفاء برفع القبضة. ووافقت اللجنة التنفيذية العاجزة على اقتراح دان. وكان للقرار المقترح في اليوم التالي صفة قانون استثنائي ضد البلاشفة، ولكن دون استنتاجات عملية مباشرة.

ووزع البلاشفة في المؤتمر بيانًا مكتوبًا يقول: "لم يعد هناك من شك بالنسبة إليكم، بعد أن زار مندوبوكم المصانع والأفواج أن المظاهرة لم تحدث لا لأنكم منعتم خروجها، ولكن لأن حزبنا أمر بصرف النظر عن قيامها... ولم ينشر أحد أعضاء الحكومة المؤقتة وهم وجود مؤامرة عسكرية إلا للقيام بنزع سلاح بروليتاريا بتروغراد وتفتيت الحامية. فلو أن السلطة الحكومية انتقلت بكاملها إلى السوفييت -وهو ما نحاول تحقيقه- وإذا حاول السوفييت اعتراض حركتنا، فإن ذلك لن يضطرنا إلى الخضوع بصورة سلبية، بل يدعونا إلى مواجهة الاعتقال وكل أنواع العقوبات الأخرى باسم أفكار الاشتراكية الأممية التي تفصلنا عنكم".

واقتربت أكثرية السوفييت من الأقلية في تلك الأيام، ووقفتا وجهًا لوجه، وكأنهما تستعدان لمعركة حاسمة. ولكن الطرفين تراجعا خطوة واحدة، في اللحظة الأخيرة. وامتنع البلاشفة عن التظاهر، كما امتنع التوفيقيون عن نزع سلاح العمال.

وبقي تسيريتلي أقلية وسط رفاقة. ومع ذلك، كان على صواب بطريقته وأسلوبه. فقد وصلت سياسة التحالف مع البرجوازية إلى نقطة أصبح فيها من الضروري إضعاف الجماهير التي لم تكن لترضى بقبول الائتلاف إضعافاً تامًا. وكان دفع سياسة التوفيق والمصالحة إلى النجاح، أي إلى أن يتم توطيد سيطرة برلمانية للبرجوازية أمرًا غير ممكن إلا بنزع سلاح العمال والجنود. ولكن إذا كان تسيريتلي على صواب بطريقته وأسلوبه، فقد كان عاجزًا كل العجز من ناحية أخرى. فلم يكن العمال والجنود مستعدين لتسليم أسلحتهم طواعية. وهكذا كان من الواجب استخدام القوة ضدهم. ولكن القوة لم تعد أبدًا إلى جانب تسيريتلي. فهو لا يستطيع الحصول على القوة، إذا تمكن من فعل شيء ما على الأقل، إلا من الرجعية التي ستقوم فورًا، لو نجح سحق البلاشفة، بالقضاء على سوفييتات التوفيقيين، هذه الرجعية التي لن تتردد عن تذكير تسيريتلي بأنه ليس إلا سجيناً سابقًا ولا شيء أكثر من ذلك. ومع ذلك، أظهرت سلسلة الوقائع فيما بعد أن مثل هذه القوى لا وجود لها أبدًا بِيد الرجعية.

وكان تسيريتلي، الذي أكَّد ضرورة القضاء على البلاشفة، يعطي كمبرر سياسي لهذه العملية أن البلاشفة يفصلون البروليتاريا عن الطبقة الفلاحية. وقد ردَّ عليه مارتوف قائلاً: "إن تسيريتلي لا يستخلص الأفكار التي توجهه من أعماق الطبقة الفلاحية. فجماعة الجناح اليميني في حزب الكاديت، ومجموعة الرأسماليين، ومجموعة الملاكين النبلاء، ومجموعة الإمبرياليين وبورجوازيو الغرب، هؤلاء هم الذين يطالبون بنزع سلاح العمال والجنود". وكان مارتوف على حق: فقد وضعت الطبقات المالكة أكثر من مرة في التاريخ ادعاءاتها تحت ستار الفلاحين.

ومنذ نشر "أفكار إبريل" للينين تعلل البعض بخطر انعزال البروليتاريا عن طبقة الفلاحين، وكان هذا الانعزال هو الحجة الرئيسية لكل أولئك الذين كانوا يحاولون إعادة الثورة إلى الوراء. وليس من قبيل الصدف أن لينين قرب تسيريتلي من "البلاشفة القدامى".

وقد كتب تروتسكي في إحدى دراساته في عام ١٩١٧ عن هذا الموضوع ما يلي: "إن انعزال حزبنا بالنسبة للاشتراكيين - الثوريين والمناشفة، وابتعاده عنهم إلى أبعد حد حتى ولو كان ذلك بالسجن الانفرادي، إن هذا الانعزال لا يعني أبدًا انعزال البروليتاريا عن الجماهير المضطهدة في الأرياف وفي المدن. بل على العكس، فإن البروليتاريا الثورية التي تعاكس سياستها بوضوح الإنكار الخبيث لزعماء السوفييتات الحاليين، لا تستطيع إلا أن تؤدي تمييز سياسي ضروري لدى ملايين من المزارعين، وانتزاع فقراء الأرياف من يدي القيادة الخائنة للفلاحين الموسرين الاشتراكيين - الثوريين، وتحويل البروليتاريا الاشتراكية إلى ناقل حقيقي للثورة الشعبية العامية".

ولكن تبرير تسيريتلي المزيف إلى حد كبير تبدَّى مبررًا قويًا لا يمكن نقده. وفي عشية انتفاضة أكتوبر (تشرين الأول) انبعث هذا المبرر من جديد بقوة مضاعفة كحجة قوية "للبلاشفة القدامى" ضد الانتفاضة. وبعد بضع سنوات، عندما بدأت الرجعية الأيديولوجية تعمل ضد أكتوبر (تشرين الأول)، أصبحت صيغة تسيريتلي الأداة النظرية الرئيسية لمدرسة ورثة الثورة.

* * *

وفي جلسة المؤتمر التي كانوا يحاكمون فيها البلاشفة بغيابهم، اقترح ممثل المناشفة تحديد يوم الأحد التالي المصادف ١٨ يونيو (حزيران) للقيام بمظاهرة في بتروغراد، والمدن الكبرى، يشترك فيها العمال والجنود لكي يبرهنوا للخصوم وحدة الديمقراطية وقوتها. وصُدق على الاقتراح. ولكن إقراره وتصديقه أحدث شيئًا من الذهول. وبعد شهر تقريبًا فسَّر ميليوكوف بصورة أريبة تحول التوفيقيين غير المتوقع قائلاً: "لقد أحس الوزراء الاشتراكيون أنهم ساروا بعيدًا جدًا في تقاربهم معنا بعد أن أدلوا بأحاديث الكاديت في مؤتمر السوفييتات، ونجحوا في منع المظاهرة المسلحة التي كان مقررًا خروجها يوم ١٠ يونيو

(حزيران)... وأحس الوزراء الاشتراكيون أيضًا أن الأرض تهتز تحت أقدامهم. فاستداروا فجأة نحو البلاشفة وهم مذعورون". ولكنهم عندما قرروا القيام بمظاهرة ١٨ يونيو (حزيران)، كانوا لا يستديرون بالطبع نحو البلاشفة، ولكنهم يحاولون الاستدارة نحو الجماهير، ضد البلاشفة. وأحدثت المواجهة الليلية مع العمال والجنود هزة للزعماء: وهكذا سارعوا إلى إصدار مراسيم باسم الحكومة لإلغاء مجلس الدوما الإمبراطوري واستدعاء المجلس التأسيسي بتاريخ ٣٠ سبتمبر (أيلول)، خلافًا لما كانوا قد خططوا في بدء المؤتمر، وانتقيت شعارات المظاهرة وحُسبت بشكل لا يثير الجماهير ويغضبها: "سلم عام"، "استدعاء المجلس التأسيسي بأسرع ما يمكن"، "جمهورية ديمقراطية". أما عن الهجوم وعن الائتلاف فلم يكن هناك أية كلمة. وكان لينين يطالب على صفحات البرافدا بما يلي: "ولكن أيها السادة إلى أين ذهبت إذن الثقة المطلقة بالحكومة المؤقتة،؟... فهل انعقد لسانكم؟" وأصابت هذه السخرية هدفها؛ إذ لم يتجرأ التوفيقيون على مطالبة الجماهير بمنح الثقة للحكومة التي هُم جزء منها.

وبعد أن جاب المندوبون السوفييت الأحياء العمالية والثكنات مرة ثانية، قدموا في عشية يوم المظاهرة تقارير مطمئنة إلى اللجنة التنفيذية. وأعادت هذه المعلومات إلى تسيريتلي التوازن والرغبة بالتأنيب والتجريح، فتوجه إلى البلاشفة قائلاً: "سيكون لدينا استعراض صريح وشريف للقوى الثورية... وسنرى كلنا الآن خلف من تسير الأكثرية: وراءكم أم وراءنا". وقبل البلاشفة التحدي وذلك قبل أن يصاغ هذا التحدي بمثل هذا الطيش. وكتبت البرافدا تقول: "ستذهب إلى مظاهرة ١٨ بغية النضال من أجل الأهداف التي أردنا أن نقوم بالتظاهرة في سبيلها بتاريخ ١٠".

وقد أدَّى الطريق الذي اتبعته المظاهرة في هذه المرة أيضًا إلى ساحة الاستعراضات (ساحة مارس) وإلى ضريح ضحايا فبراير (شباط) كذكرى لجنازات مارس (آذار) الذي تمت فيه، ظاهريًّا على الأقل، أكبر مظاهرة تدل على وحدة الديمقراطية. ولكن، فيما عدا طريق المظاهرة لم يكن هناك شيء يذكر بأيام مارس (آذار) البعيدة. وقد اشترك حوالي ٤٠٠,٠٠٠ شخص في الموكب؛ أي أقل بكثير من العدد الذي اشترك في مراسيم تشييع الضحايا: وامتنعت البرجوازية عن الاشتراك في مظاهرة السوفييتات المؤتلفة معها، كما قاطعتها الأنتليجنسيا الراديكالية، التي احتلت مكانًا مرموقًا في الاستعراضات السابقة للديمقراطية. ولم يكن في الموكب سوى عمال المصانع وجنود الثكنات.

وكان مندوبو المؤتمر، المجتمعون في ساحة الاستعراضات (ساحة مارس) يقرءون اللافتات ويعدونها. واستقبلت الشعارات البلشفية الأولى بشيء من السخرية ألَم يطلق تسيريتلي تحديه بالأمس بمنتهى الجرأة؟ ولكن الشعارات ذاتها كانت تتكرر وتتكرر: "فليسقط الوزراء الرأسماليون العشرة!" "فليسقط الهجوم!" "كل السلطة للسوفييتات!". وجمدت الابتسامات الساخرة على الوجوه، ثم زالت فيما بعد وامحت. ورفرفت الأعلام البلشفية على مدى البصر. وامتنع المندوبون عن القيام بحساباتهم الجاحدة؛ إذ كان انتصار البلاشفة واضحًا بشكل لا جدال فيه. وقد كتب سوخانوف معلقًا على ذلك: "كانت سلسلة أعلام وأرتال البلاشفة تقاطع هنا وهناك بشعارات اشتراكية - ثورية بصورة خاصة، وبالشعارات السوفييتية الرسمية. ولكن هذه الشعارات غرقت وسط الجماهير". وفي اليوم التالي روت الصحيفة غير الرسمية الناطقة باسم السوفييت، بأي "غضب مزقت اللافتات التي كتب عليها شعارات تأييد الحكومة المؤقتة". وتتسم هذه الكلمات بالمبالغة؛ إذ لم تحمل اللافتات التي كُتب عليها عبارات تؤيد الحكومة المؤقتة سوى ثلاث جماعات؛ مجموعة بليخانوف، ومفرزة من القوزاق، ومجموعة من المثقفين اليهود المرتبطين بالبوند. وبدا هذا المزيج الثلاثي، الذي يعطي بتأليفه انطباع شذوذ سياسي، كدليل واضح للتأكيد على عجز النظام. واضطر أنصار بليخانوف وجماعة البوند إلى طي لافتاتهم خلال المظاهرة، تحت تأثير أصوات الاحتجاج المعادية التي أطلقتها الجموع الغفيرة. أما القوزاق فقد انتزع المتظاهرون علمهم ومزقوه لأنهم أظهروا عنادًا وإصرارًا.

وإليكم وصف الأزفستيا لهذه المظاهرة: "وتحوّل السيل الذي كان يتحرك حتى تلك اللحظة إلى نهر واسع من المياه الربيعية، وأخذ يهدد بالطوفان من لحظة إلى أخرى". كان هذا في حي فيبورغ المغطى كله بالأعلام البلشفية التي كتب عليها:

"فليسقط الوزراء الرأسماليون العشرة". وأخرج أحد المصانع اللافتة التالية: "حق الحياة فوق حق الملكية الخاصة!" ولم يكن أي من الأحزاب قط طرح هذا الشعار.

وكان الريفيون المصدومون يبحثون عن الزعماء بأعينهم. وكان الزعماء يخفضون أنظارهم أو يتسللون بكل بساطة. وقد أثر البلاشفة على الريفيين وأبناء المناطق، الذين أخذوا يتساءلون: هل يشبه البلاشفة عصابة صغيرة من المتآمرين؟ واعترف المندوبون من المشهد الذي رأوه أن البلاشفة لا يشبهون مجموعة من المتآمرين. وأخذوا يعترفون للبلاشفة بنغمة مختلفة كل الاختلاف عن نغمتهم في الجلسة الرسمية. "إنكم تشكلون قوة في بتروغراد. ولكنكم لا تملكون القوة ذاتها في المنطقة وفي الجبهة. ولا تستطيع بتروغراد الزحف ضد كل البلاد". وكان البلاشفة يردون عليهم: "انتظروا بعض الوقت وسيأتي دوركم. فستنتشر نفس اللافتات عندكم أيضًا".

وكتب بليخانوف المسن ما يلي: "خلال هذه المظاهرة، كنت في ساحة الاستعراضات (ساحة مارس) إلى جانب تشخيدزه. وقد لاحظت من تعبيرات وجهه أنه لم يكن مخدوعًا أبدًا حول معنى كثرة اللافتات التي تطالب بطرد الوزراء الرأسماليين. وكان هذا المعنى مشارًا إليه عن تصور وتصميم بالأوامر التي كان يوجهها بعض ممثلي اللينيين، كقادة حقيقيين، كانوا يقومون بالاستعراض أمامنا كما لو أن المظاهرة عيدهم الوطني".

* * *

وكان للبلاشفة على كل حال دوافعهم للإحساس بهذا الشكل. وقد كتبت صحيفة غوركي تقول: "إذا حكمنا من خلال لافتات وشعارات المتظاهرين، وجدنا أن المظاهرة العملية ليوم الأحد قد كشفت الانتصار الكامل للبلشفية في بروليتاريا بتروغراد". كان حقًا انتصارًا كبيرًا، كسبته البلشفية على الأرض وبالسلاح اللذين اختارهما خصومهما. فقد أخرج مؤتمر السوفييتات، الجماهير إلى الشارع بمبادرته الخاصة، لأنه أيَّد الهجوم، وقَبِل بالائتلاف، وأدان البلاشفة. فردت عليه هذه الجماهير: نحن لا نريد الهجوم، ولا الائتلاف، ونقف إلى جانب البلاشفة. تلك كانت النتيجة السياسية للمظاهرة. فهل من المدهش بعد كل هذا أن تسأل صحيفة المناشفة، في اليوم التالي أولئك الذين ابتدعوا فكرة المظاهرة: مَن الذي اقترح هذه الفكرة التعيسة؟

* * *

ومن البدهِي أن عمال وجنود العاصمة لم يشتركوا كلهم في المظاهرة. ولم يكن كل المتظاهرين من البلاشفة. ولكن لم يكن أحد منهم يريد الائتلاف. وكان العمال الذين بقوا معادين للبلشفية لا يعرفون بماذا يواجهوننا. وقد تحول أعداؤهم فيما بعد إلى حياد متفرج. وسار تحت الشعارات البلشفية عدد لا بأس به من المناشفة والاشتراكيين - الثوريين الذين لم يقطعوا بعد علاقاتهم مع هذين الحزبين، ولكنهم فقدوا الثقة بشعاراتهما.

وأحدثت مظاهرة ١٨ يونيو (حزيران) انطباعًا هائلاً على المشتركين أنفسهم. ورأت الجماهير أن البلشفية قد أصبحت قوة، وتحوّل المترددون نحوها. وكشفت المظاهرات التي وقعت في موسكو وكييف وخاركوف وإيكاتيرينوسلاف وعدد من مدن المناطق الأخرى الازدياد الهائل لنفوذ البلاشفة. وفي كل مكان كانت توضع شعارات مماثلة إلى الأمام، وتضرب في قلب نظام فبراير (شباط) ذاته. وكان من الضروري استخلاص استنتاجات من كل هذا. وبدا للجميع أن التوفيقيين لا يملكون مخرجًا آخر. ولكن الهجوم أخرجهم في اللحظة الأخيرة من الحرج الذي وجدوا أنفسهم فيه.

* * *

وبتاريخ ١٩ يونيو (حزيران) وقعت مظاهرات وطنية تحت قيادة الكاديت تحمل صور كرنسكي. ويقول ميليوكوف: "لم تكن هذه المظاهرات تشبه ما حدث في الشوارع ذاتها بالأمس، وامتزج فيها الإحساس بالنصر مع الإحساس بعــدم التــصديق" وهذا إحساس شرعي! ولكن التوفيقيين تنفسوا الصعداء من الرضا. وارتفع فكرهم فورًا فوق المظاهرتين اللتين جعــل فكــرهم منهما تركيبًا ديموقراطيًّا. فما زال أمام هؤلاء الرجال كثير من الأحداث قبل أن يترعوا كأس الأوهام والمهانات حتى النهاية.

فقد التقت في خلال أيام أبريل (نيسان) مظاهرتان إحداهما ثورية والأخرى وطنية وأدَّى الصدام إلى ضــحايا. وكانــت المظاهرات المعادية في ١٨ و١٩ يونيو (حزيران) متتابعة. ولم يقع في هذه المرة صِدام مباشر. ولكن الصدمة غدت أمــرًا لا يمكن تجنبه أبدًا. وقد تأجل الصدام لمدة خمسة عشرة يومًا فقط.

واستفاد الفوضويون، الذين لم يعرفوا كيف يبرهنوا على استقلالهم الذاتي من مظاهرة ١٨ يونيو (حزيــران) لمهاجمــة سجن فيبورغ. وأطلق سراح الموقوفين الذين كان معظمهم من مجرمي الحق العام دون قتال، لا مِن سجن واحد بل مِــن عــدة سجون. ومن الطبيعي أن الهجوم لم يكن مفاجأة لإدارة السجون؛ لأنها ذابت تمامًا أمام الفوضويين الحقيقيين أو المــدَّعين. ولــم يكن لهذه الحادثة الغريبة أية صلة بالمظاهرة، ولكن الصحافة الوطنية جعلتهما واقعة واحدة. فطلــب البلاشــفة مــن مــؤتمر السوفييتات القيام بتحقيق قاس عن طريقة إطلاق سراح ٤٦٠ مجرمًا من السجون المختلفة. ومع ذلــك لــم يكــن التوفيقيــون ليسمحوا لأنفسهم بمثل هذا البذخ، لأنهم كانوا يخشون أن يكشف التحقيق ممثلي الإدارة العليا أو حلفاءهم في الكتلة. وبالإضــافة إلى هذا لم يكن لديهم أية رغبة بإيقاف الافتراءات المجحفة ضد المظاهرة التي نظموها بأنفسهم.

وقرر بيريفيرسيف، الذي أراق ماء وجهه قبل عدة أيام في عملية دارة دورنوفو، الانتقام. فقام بإغارة جديدة على الدارة؛ بحجة البحث عن الموقوفين الفارين. وقاوم الفوضويون الإغارة، وقُتل أحدهم خلال تبادل النيران، ونُهبت الدارة. وقرع عمــال دائرة فيبورغ -الذين كانوا يعتبرون الدارة ملكًا لهم- ناقوس الخطر. وتوقفت عدة مصانع عن العمل. ونقلت إشارة الخطر إلــى دوائر أخرى وإلى الثكنات.

وانقضت الأيام الأخيرة من يونيو (حزيران) في غليان مستمر. وكان فوج الرشاشات مستعدًا للعمل فورًا ضد الحكومــة المؤقتة. وقام عمال المصانع المضربين بجولة في الأفواج، ودعوها إلى النزول إلى الشوارع. وقام فلاحون ملتحون، معظمهــم من الشيب يرتدون معاطف الجنود، وشكَّلوا مواكب احتجاج أخذت تطوف الشوارع، وكانوا رجالاً يبلغون من العمــر أربعــين عامًا يطالبون بتصاريح لأعمال الحقول. وقام البلاشفة بالتحريض ضد أي خروج إلى الشوارع؛ فقد قالت مظــاهرة ١٨ يونيــو (حزيران) كل ما يمكن أن يقال. والقيام بمظاهرة أخرى لا يكفي للحصول على تغييرات. ولكن ساعة الانتفاضة لم تدق بعــد. وبتاريخ ٢٢ يونيو (حزيران) طبع البلاشفة منشورًا موجهًا إلى الموقع، قالوا فيه: "لا تصدقوا أي نداء يدعو إلى التظاهر يصدر باسم التنظيم العسكري". ووصل المندوبون من الجبهة، وقدموا الشكاوى بصدد أعمال العنف والعقوبــات. وألقــت التهديــدات المتكررة بحل بعض القطعات الزيت فوق النار. وقال بيان البلاشفة في اللجنة التنفيذية ما يلي: "إن الجنود ينامون في كثير مــن الأفواج وسلاحهم بأيديهم".

وأثارت المظاهرات الوطنية، التي كانت مسلحة في الغالب، صِدامات في الشارع. وكانت تشكل شرارات تفريغ صغيرة لكهرباء متراكمة. ولم تكن أية جهة من الجهات تستعد للهجوم بصورة مباشرة؛ فالرجعية ضعيفة جدًا. ولم تكن الثورة واثقة بعد كل الثقة بقواها. ولكن شوارع المدينة بدت مفروشة بالمتفجرات. وكان النزاع في الهواء. وكانت الــصحافة البلــشفية تفــسر

وتعدل. ويخون الصحافة الوطنية قلقها فتشن حملة جامحة ضد البلاشفة. وكتب لينين بتاريخ ٢٥ يونيو (حزيران) ما يلـــي: "إن عويل الغضب والسخط الذي يدوي من كل الأنحاء ضد البلاشفة يعبر عن الأنين المشترك للكاديت والاشـــتراكيين - الثـــوريين والمناشفة لضعفهم الخاص. إنهم الأكثرية، وهم في السلطة، ويشكلون معًا كتلة واحدة، ويرون أنه لا شيء يعمل على نجاحهم! فلماذا لا يصبون جام غضبهم على البلاشفة؟".

الهوامش

(١) راجع التفاصيل حول هذه المسألة في الملحق رقم ٣، في نهاية الجزء الثاني.

الاستنتاج

لقد حاولنا في الصفحات الأولى من هذا المُؤَلَّف إبراز كَم كانت أسس ثورة أكتوبر (تشرين الأول) عميقة في العلاقات الاجتماعية الروسية. ويتميز تحليلنا، بأنه لن يُهيأ أبدًا بعد الثورة اعتمادًا على ما وقع من أحداث، بل أنه أُعطي، على العكس، قبل الثورة، وقبل التمهيد لها، هذا التمهيد الذي تم في عام ١٩٠٥.

وقد حاولنا في الصفحات التي تلت فيما بعد اكتشاف كيفية ظهور القوى الاجتماعية في روسيا خلال أحداث الثورة. وسجلنا نشاط الأحزاب السياسية في علاقتها المتبادلة مع الطبقات. ومن الممكن وضع تعاطف المؤلف ونفوره جانبًا. ويحق لنا أن نعترف بموضوعية العرض التاريخي؛ إذ أعاد الارتباط الداخلي للأحداث على أساس التطور الحقيقي للعلاقات الاجتماعية، عندما يستند إلى وقائع مقررة بصورة صحيحة. وعندما ينكشف مبرر وجود التطور فإن هذا التطور في حد ذاته أفضل تحقق لموضوعية العرض.

وقد أكدت أحداث ثورة فبراير (شباط) التي سردناها للقارئ الداء النظري، هذا الداء الذي كان نصفه حتى الآن على الأقل، هو ما يلي: كانت كل الاحتمالات البديلة الأخرى للتطور السياسي خاضعة لتجربة الحياة، ومرفوضة كحلول غير قابلة للتطبيق قبل أن تصل البروليتاريا إلى السلطة.

لقد أدت حكومة البرجوازية الليبرالية، مع كرنسكي رهينتها الديمقراطية إلى فشل تام. وكانت "أيام أبريل (نيسان)" أول إنذار أعطته ثورة أكتوبر (تشرين الأول) بصورة صريحة إلى ثورة فبراير (شباط). وحل محل الحكومة المؤقتة بعد هذا ائتلاف كان عقمه يظهر في كل يوم من وجوده. ثم كانت مظاهرة يونيو (حزيران)، التي حددتها تاريخها وقيامها اللجنة التنفيذية، بمبادرتها الخاصة، مع أنها لم تحددها -والحق يقال- طوعًا، وحاولت ثورة فبراير (شباط) في هذه المظاهرة قياس قوتها بالمقارنة مع قوات ثورة أكتوبر (تشرين الأول) فتعرضت لهزيمة قاسية. وكانت حتمية الهزيمة أقوى لأن المظاهرة تمت على أرض بتروغراد وأنزلها نفس العمال والجنود الذين حققوا انتفاضة فبراير (شباط) مؤيدة بحماس كل ما تبقى من البلاد. وأبرزت مظاهرة يونيو (حزيران) أن عمال بتروغراد وجنودها يتجهون نحو ثورة ثانية، كتبت أهدافها على أعلامها. وكانت الدلائل التي لا تحتمل النقض تبرهن على أن كل باقي البلاد –رغم أن ذلك تم مع بعض التأخير المحتوم– تقف إلى جانب خط بتروغراد. وهكذا استُنزفت ثورة فبراير (شباط) من الناحية السياسية في حوالي نهاية الشهر الرابع. وخسر التوفيقيون ثقة العمال والجنود. وأصبح النزاع بين الأحزاب المسيطرة على السوفييتات والجماهير السوفييتية أمرًا محتمًا بعد ذلك. وبعد استعراض ١٨ يونيو (حزيران) الذي كان تحققًا سلميًّا لعلاقات القوى بين الثورتين، اتخذ الصراع طابع عنف معلن لا يقاوم.

وهكذا جاءت "أيام يوليو (تموز)". وخرج نفس العمال والجنود إلى الشارع بعد خمسة عشر يومًا من المظاهرة المنظمة من القمة، ولكنهم خرجوا في هذه المرة بمبادرتهم الخاصة، وطالبوا اللجنة التنفيذية المركزية باستلام السلطة. ورفض التوفيقيون ذلك صراحة. وأدَّت أيام يوليو (تموز) إلى صدامات في الشوارع، كان ثمنها وقوع بعض الضحايا. وانتهت هذه الأيام بسحق البلاشفة الذين ألقيت على عاتقهم مسئولية عجز نظام فبراير (شباط). وبُدِئ بتنفيذ الاقتراح الذي تقدم به تسيريتلي بتاريخ ١٧ يونيو (حزيران) والذي طلب فيه اعتبار البلاشفة خارجين على القانون، وطلب بنزع سلاحهم –الاقتراح الذي رفض آنئذٍ-. ومُنعت الصحف البلشفية. وشُتت القوات العسكرية للبلاشفة. وسُحب من العمال سلاحهم. واتهم زعماء الحزب بأنهم مرتزقة يعملون لصالح هيئة الأركان الألمانية. واضطر بعضهم إلى الاختفاء، على حين سُجن البعض الآخر.

وقد ظهر عجز الديمقراطية شاملاً وتامًا في "الانتصار" الذي حققه التوفيقيون على البلاشفة في يوليو (تموز). واضطر الديموقراطيون إلى زج قطعات مضادة للثورة بصورة واضحة ضد العمال والجنود، ولم تكن هذه القطعات معادية للبلاشفة فحسب، بل معادية للسوفيتات أيضًا؛ إذ لم تكن اللجنة التنفيذية تملك قطعات خاصة بها.

واستخلص الليبراليون من هذه الأحداث درسًا صحيحًا صاغه ميليوكوف وحوله إلى الاختيار التالي؛ كورنيلوف أم لينين؟ وكانت الثورة بالفعل لا تترك مكانًا لمملكة الوسط الصحيح. وقالت الثورة المضادة لنفسها: ينبغي أن يتم الاختيار في الوقت الحاضر، فإذا لم يتم في هذا الوقت فلن يتم أبدًا. وقام كورنيلوف القائد العام للقوات المسلحة بعصيان ضد الثورة تحت ستار القيام بحملة ضد البلاشفة. كما تسترت في الوقت ذاته كل أنواع المعارضة الشرعية، قبل الانتفاضة، بستار الوطنية، متعللة بمطالب المعركة ضد الألمان، كذلك كانت كل أنواع الثورة المضادة الشرعية، بعد الانتفاضة، تتعلل بمطالب المعركة لمحاربة البلاشفة. وكان كورنيلوف مدعومًا من قبل الطبقات المالكة وحزبها، وهو حزب الكاديت. وهذا لم يمنع –بل ساعد على العكس– القطعات التي قادها كورنيلوف للزحف على بتروغراد من أن تُهزم دون قتال، وأن تستسلم قبل أي اشتباك، وأن تتبخر كقطرة ماء فوق الحديد الساخن لمدفأة. وهكذا تمت تجربة انتفاضة يمينية أيضًا، وبواسطة شخص كان على رأس قيادة الجيش. وتم التحقق من علاقات القوى بين الطبقات المالكة والشعب بصورة عملية. ولما طرح الاختيار التالي؛ كورنيلوف أم لينين، سقط كورنيلوف كثمرة فاسدة، مع أن لينين كان مضطرًا آنذاك إلى الاختفاء في ملجأ عميق.

فما هو الاحتمال البديل الذي لم يستخدم ولم يجرب، ولم يتم التحقق منه، والذي بقي بعد كل هذا؟ لم يبق سوى احتمال البلشفية. والواقع، أن الجماهير استدارت بصخب وبصورة نهائية إلى البلاشفة بعد محاولة كورنيلوف وهزيمته الشنعاء. واقتربت ثورة أكتوبر (تشرين الأول) حتى أصبحت ضرورة طبيعية. وتمت انتفاضة أكتوبر (تشرين الأول) في العاصمة دون سفك للدماء بصورة فعلية، خلافًا لانتفاضة فبراير (شباط) التي قيل عنها: إنها انتفاضة بيضاء، مع أنها كلفت كثيرًا من الضحايا في بتروغراد. ألا يحق لنا بعد كل هذا أن نتساءل عن الدلائل التي يمكن إعطاؤها أيضًا عن المبرر العميق لوجود ثورة أكتوبر (تشرين الأول)؟ أو ليس من الواضح أن هذه الثورة لا يمكن أن تبدو ثمرة مغامرة أو نتيجة ديماغوجية إلا بالنسبة لمن ضربتهم في أكثر نقاطهم حساسية؛ في جيوبهم؟ إن المعركة الدموية لم تبدأ إلا بعد استيلاء السوفييتات البلشفية على السلطة، عندما بذلت الطبقات المنهارة، بدعم مادي من حكومات دول الحلفاء، جهودًا يائسة لاستعادة ما خسرته. و**بدأت** عندئذ سنوات **الحرب الأهلية. وتشكَّل الجيش الأحمر**. ووضعت البلاد الجائعة في ظل **نظام شيوعية الحرب**، وتحولت إلى معسكر إسبارطي. وشقت ثورة أكتوبر (تشرين الأول) طريقها خطوة أثر خطوة، ودحرت كل أعدائها، واهتمت بحل مشكلاتها الاقتصادية، وضمدت أخطر جراحاتها في الحرب الإمبريالية والحرب الأهلية، وتوصلت إلى أعظم النجاحات في مجال التطور الصناعي. وانبعثت أمامها مع ذلك صعوبات جديدة ناجمة عن انعزالها في محيط مؤلف من دول رأسمالية قوية. لقد جلب الوضع المتخلف للتطور البروليتاريا الروسية إلى السلطة، ثم ما لبث هذا الوضع أن طرح أمامها معضلات خطيرة صعبة لا يمكن حلها حلاً تامًا ضمن إطار دولة منعزلة. وهكذا كان مصير هذه الدول مرتبطاً تمام الارتباط بالسير اللاحق للتاريخ العالمي.

ويظهر هذا الجزء الأول، المكرس لثورة فبراير (شباط) كيف ولماذا كان من الواجب أن تتحول هذه الثورة إلى العدم. وسيكشف الجزء الثاني كيف انتصرت ثورة أكتوبر (تشرين الأول).